الإعجاز اللغوي في فواتح السور



تأليف
سهام خضر





تأليف
سهام خضر



http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title :	**Al-ʾiʿjāz al-luġawi fī fawātiḥ al-suwar**	**الإعجاز اللغوي في فواتح السور**	**الكتاب:**
classification:	Qur anic studies	دراسات قرآنية	**التصنيف**
Author	Sihām Ḫuḍr	سهام خضر	**المؤلف**
Publisher	Dar Al-Kotob Al-ilmiyah	دار الكتب العلميــة - بيروت	**الناشر**
Pages	512	512	**عدد الصفحات:**
Year	*2008*	*2008*	**سنة الطباعة**
Printed in	Lebanon	لبنان	**بلد الطباعة**
Edition	*1*st	الأولى	**الطبعة**

٠٢٠٣٨٩

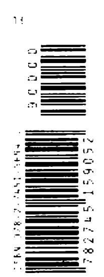


DKI

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٠٠٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: ٠٠٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

Aramoun, al Quebbah
Immbl. Dar Al Kotob Al Ilmiyah
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax +961 5 804813
B.P. 11-9424 Beyrouth liban,
Riyad al-Solch Beyrouth 1107 2290



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله تعالى نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

الحمد لله القائل " ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ والصلاة والسلام على من قيل له: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ صلى الله وسلم وبارك على نبي الهدى ومصباح الدجى محمد الذي أنار الله به السبل وألف بين مناهجها حتى صارت سبيلا واحدا يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه، ورضي الله عن السائرين في سبيل الحق هداة مهتدين بنور القرآن، مستمسكين بعروته الوثقى التي لا تفصمها هجمة هوى، ولا تغادر عنها بثبوت الحق زعزعة النفس ضلالا وغواية رضي الله عن أولئك الذين استعملهم في سبيل القرآن حَفَظَة لرايته، واستنطق بهم ما طواه العداء للقرآن من أعدائه، فراح الكرام العالمون يسلون سيوف البيان والإفصاح عن براهين تَبايُنِ كلام الله عن كلام الخلق. أسكنهم الله فسيح جناته لقاء ما أفسحوا من مجالات الدراسة، وجزاء ما أسهموا به من ضروب الكياسة، وكل هذا يمثل مظهرا من مظاهر معنى قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي خضعت لعظمته الرقاب، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أفصح الناس قولا، وأبلغهم بيانًا، وأنصعهم تعبيرًا، خصه الله -عز وجل- بجوامع الكلم، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه

الأخيار سلامًا وصلاة دائمين إلى يوم المآب.

أما بعد:

فكل كتاب يَرِثُ كلامُه بكثرة البحث فيه، وتنضو الأفكار منه وينضب عطاؤه إلا القرآن الكريم، فإنه كلما قرأته ألفيت نفسك غير التي كانت بالأمس تقرأ، فالقرآن هو هو، وما تَلَــقَّاه قارئه اليوم غير ما فتح عليه منه بالأمس، فإنك لا تجد واحدا من الكتب غير القرآن يعطيك هذا، يؤتيك كل يوم نفسا تقرأ في كل مرة أول مرة، إذ حين تقرؤه ألف مرة تكون كمن قرأ ألف كتاب، ومن يستزده يزده.

" ومن إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين والعلماء جيلا بعد جيل، ثم يبقى أبدا رحب المدى سخيُّ المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيدًا وراء كل مطمح، عاليا يفوق طاقة الدارسين (١)".

وتجلت عظمة الإسلام في كون معجزتِه الخالدةِ هو القرآن، والقرآن كلام، وكل ما عدا الكلام في تغير وتطور مستمر، والكلام البشرى وحده الذي إن لم يقل في عطائه لم يزد، وكل كلام له حد يبلغه معناه، والقرآن لا حد لمعناه وإن حصر كلامُه بين دفتي المصحف.

إنه لبرهان خالد ساطع الدلالة على صحة الدعوة الإسلامية الخاتمة وصدقها.

ولما كانت اللغة مطايا المعاني تبدي لدى الأوائل أن الكلام من حيثيات مختلفة مقصود التحدي فأبدى المختصون منهم وجوه إعجاز فيما يتعلق بلغة القرآن ونظمه، وأساليب الكلام وسائر ما عَنَّ لهم وعَرَض في دراستهم. فتشعبت في ذلك فنون وعلوم، ونشأت معارف.

وحين تحوَّل العرب من جودةٍ إلى اختلالٍ في أركان القريحة العربية في قواعدها وألفاظها نجد تحولا عجيبا يؤكد بقاء هذا الكتاب على نفس صورة عظمته لدى الأوائل، فكانت وجوه الإعجاز مضيئة عمر الأمة الخاتمة منذ عهدها الأول وحتى عصرنا هذا، وإلى ما شاء الله.

وتمــثلت عــناية المسلمين بهذا المجال أولَ الأمر في صورة الدفاع عن القرآن حتى أصــبح هذا علما أفضى إلى علم كالبلاغة، واستقر بقاء الثاني أمارة على الأول، فالبلاغة مفتاح كشف وجه الإعجاز، ووجوه الإعجاز أساس علم البلاغة.

---

(١) من كتاب الإعجاز البياني للقرآن – عائشة عبد الرحمن. بنت الشاطئ ص ١٧.

والقرآن كنز يستفتحه كل عصر بأدواته ليأخذ منه ما تسنى له من جواهره ودرره، وهـــو كريم كلما استثير أعطى، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " من أراد العلم فليــثور القرآن فإنه فيه علم الأولين والآخرين"[1]؛ لذلك كان علينا أن نستزيد من العلم بالقــرآن بكثـــرة مدارسته، فإنه لا يخلق على كثرة الرد، بل تَرْكُه دون إثارة فيه أفدح خسارة، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: " سَيَبْلَى القرآنُ في صدور أقوام كما يبلى الثوب، فيتهافت يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصروا قالوا سنبلغ، وإن أساؤوا قالوا سيُغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئا " [2].

وهو غير مُتَبَذِّل، وخفاؤه في يسره، تمر به مرُّ الغافل فلا يزجي إليك منه شيئا، إذ هو لنزاهته أغفل منك عنك إن غفلت عنه، وإن أعطيته نفسك أعطاك رفده، وهو حَمَّال أوجه، وإلى هذه النكتة أشار أبو الدرداء رضي الله عنه حين قال " لا يكون الرجل فقيها حتى يحمل الآية الواحدة على محامل متعددة" [3].

ويـــدور القـــرآن مـــع الزمن فيفيض عليه من سَنِيه حسب طلعة السائرين على مدرجات هذا الزمن، وكلما امتدت إليه يد لم يُصفِرْها، أو لهفة ظمأى ما صد عنها، بل كان الرُّواء، يعطي لكلٍّ شِربَه، وعلى حسب الدِّلاء يكون العطاء.

اثـــنان لا يخجل أحدهما من الآخر ولا يستحيي منه ولا يعارضه، القرآن كتاب الله المقروء، والكون كتابه المنظور، لذلك لا تصادفُ نَفرةً من أحدهما في مواجهة الآخر.

ولقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ١٠١) وحين كفَّ الإنسان نظره عن رؤية القدرة الإلهـــية في الكون، أنزل الله كلمته المسموعةَ في هذا القرآن فألح القرآن في دعوته إلى أن يُفترى شيء من مثله، وإذ قالوا: افتراه وليس من عند الله دعاهم إلى افتراءِ مثله، وعجزوا جمـــيعا متظاهرين متعاونين أو فرادى ناكصين ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ٤٨٥ نقلا عن كتاب معرفة شأن القرآن إعداد محمد أبو البشر رفيع الدين ص ٨٦.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه رقم ٢٣١٢ كتاب فضائل القرآن باب تعاهد القرآن، نقلا عن الكتاب السابق الإشارة إليه. ص ٧٩.

(٣) الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي ص٩٨.

واستحكمت الغيرة في نفوس العلماء وراعهم أن ينال أحد من كتاب الله فأخذوا في بيان إعجازه وجوها عدة. حتى أفضت الدراسة إلى اعتبارِ رُؤيةِ التطابق بين القرآن وآفاق الكون في علوم العصر الحديثة وُجوهًا للإعجاز، أو بينه وما في النفس من دقائق الأسرار.

وتدخل ضمن هذين الإطارين منظوماتٌ أخرى فرعيةٌ تدل على مدى سَعة وجوه الإعجاز القرآني، وكثرة القائمين على العناية بها.

ولم يَحْبُ الله أمة بمثل ما أوتيت أمة الإسلام، فقد خَصَّها بالفضل كله، بنبيها الخاتم ﷺ وبكتابه الخالد المعجز، وكونها خيرَ أمة أخرجت للناس.

وجعل عصمتَها بكتابه سرَّ قوتها، وتمسكَها به سبيلَ هدايتها فهو الكتاب الذي وصفه النبي ﷺ حين قال: " مأدبة الله والنور المبين، والشفاء النافع، عصمةٌ لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد [(١)]".

المعجزة القولية الكبرى، يحوي في آمادِ آبادِ سَعته أعاظم العجائب الكونية، ردٌّ على طالبي الأيات الحسية ليردهم إليه، فأخرس في نفوسهم الكلامَ بإقامة التوجيه نحو القرآن وحده.

وقد حكى عنهم قولهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (العنكبوت ٥٠، ٥١)

ولم يكن التحدي من القرآن إلا لمن لم يقبل كونه كلام الله، فحين يكون كلاما لأحد من البشر يتصور عدم انفراد قائله بمثله، ولم يكن لأحد أبدا أن يحوز ميزة في كلام لم يبلغه في درجته سابق أو لاحق.

وهاهو القرآن عبر القرون جميعا بمد تحديه شامخا ما نال منه أحد أبدا إلا كما قيل:

كناطحٍ صخرةً يوما ليوهنها فلم يضرْها وأوهى قرنه الوعل

وتنوعت أساليب العناية وأشكالها حين تناول المهتمون بإبراز وجوه الإعجاز على أنحاء عدة.

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن مسعود ١، ٥٥٥.

أهمية الموضوع وسبب اختياره:

لم يقترح لي موضوع من جملة ما طرح؛ مما أربك سرعة الشروع في تقصي جوانب البحث بصفة شمولية، لذلك رحت أفاضل بين الموضوع والآخر على أسس شخصية فردية بحتة، وكلما استقرت النفس على موضوع بكرةً حادت عنه عشية، إلى أن هداني الله تعالى إلى موضوع عناية المسلمين ببيان وجوه إعجاز القرآن الكريم.

وصَمدَت في نفسي فكرة البحث في هذا الموضوع حيث يدعمها واقع المسلمين اليوم. وكأنهم بحاجة ماسة فعلا إلى آية، لا أقول ليؤمنوا بالقرآن، ولكن ليعلنوا هم لأنفسهم أنهم جادون في الأخذ بما في هذا الكتاب.

وحفظ الله الكتابَ تتنوع فيه المعارض، فصروح الطباعة صورة من صور الحفظ، والمنتديات المتعلقة بها وجوه التباحث في القرآن الكريم صورة ثانية، والهيئات الدولية كالتي تتبع رابطة العالم الإسلامي والمنوط بها دراسات الكتاب والسنة عموما، وبيان وجوه الإعجاز فيهما خصوصًا مظهر آخر.

ومن الواجب أننا بعد بيان مثل هذه الوجوه للإعجاز القرآني علينا أن نخرج من ضيق القول إلى سعة العمل ورحبه، فالكلام لا يجدي دون تجسيده في صورة عملية.

نعم... حين نجوب أرجاء إثارة الكلمات القرآنية تمطرنا سموات علياتها بسامي المعاني، ولكن نجتزئ من الموضوعات ما يناسب إطار البحث دون تجوز أو تجاوز.

وابتناءُ أمرٍ على غير أساس ينزع إلى التعجيل به وإن أقيم، وكذلك مظهر الدين لا يبقيه عدم جوهره وهو الإيمان، لذلك يلزم الدخول إلى القرآن بسابق إيمان بحت بأنه غالب قاهر لسلطان العقل ونظريات العلم، متعانق هو والحقائق بآصرة الصدق والثبات، وإلا فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ؟

وفي معرض الحديث عن النوعين أشرت إلى ما يسر الله لي من كتب تناولت كل موضوع على حِدة، أو مزَجَتْ بينهما، أو تناولت من الوجوه كلها وجها أو بعض وجوه لبيان ما يتعلق بها مؤكدا في البحث ضرورة التحري والتمهل في احتساب نظريات العلم تفسيرا مطلقا لبعض آيات القرآن الكريم.

ولقد رأيت أنه من المهم بيان أقوال العلماء قديمًا وحديثًا في المعنى المراد من الأحرف المقطعة، حيث اختلفت آراؤهم وتباينت أقوالهم تباينًا كبيرًا، وقد ألف الناس فيه كتبًا، وجلبوا ذهبًا وحطبًا، وجمعوا غثًا وسمينًا.

وبعض الكتب قد تناولت تلك الحروف دون مناقشة أو تحقيق لأقوال العلماء، مما يعتقد أن كل هذه الأقوال مرادة، وعلى الرغم من أنهم يذكرون من بين ما يذكرون المعنى الراجح من بين الأقوال الواردة في معناها؛ إلا أنهم لم ينصوا عليه، ولذلك فإن الاهتداء إليه يصعب على القارئ.

هذا إلى جانب ما أثير حولها من تقولات فاسدة.

ولقد قمت بذكر أهم أقوال العلماء فيها، والتعقيب عليها، ومناقشتها وبيان صحيحها من ضعيفها؛ إذ إن هذه الأقوال منها ما هو قريب معقول، ومنها ما هو بعيد متكلف، ومنها ما هو مردود ومرفوض.

وقد ذكرت ما في هذه الأقوال من مرجوح وراجح، مدعمة ما أقوله بأقوال المحققين من علماء التفسير؛ هذا بالإضافة إلى بعض المحدثين الذين أسهموا في بيان معنى هذه الحروف ومنهم من سار على نهج السلف في ذلك، ومنهم من حاد عن طريق الجادة وخرج إلى حيز المعاني غير المعقولة.

وبالتحقيق والتدقيق...

وفق الله طائفة من عباده زادة منافحين، قاموا لمثل هذه المطاعن، وألقوا بحججهم وبراهينهم في وجه هذه الدعاوى الباطلة، فإذا هي تلقف ما يأفكون، وصدق الله إذ يقول:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[١].

جزى الله علماءنا خير ما يجزي به مسلم يوقر كتابه، ويكشف عن مظاهر الكمال والجلال فيه، ويذب عنه كل نقيصة، وجعل الله كل ما قدموه من جهد واجتهاد في موازينهم.

أسباب اختياري لهذا الموضوع:

لما كان لكل اختيار دواع تدعو إليه، وأسباب تحث عليه، فإن من أهم الدواعي والأسباب التي أدت إلى اختياري هذا الموضوع ما يلي:

١- ارتباط الموضوع بدراستي لكتاب الله تعالى وتفسيره، ورغبتي في أن أعيش في ظلال القرآن الكريم خدمة لكتاب الله -عز وجل- وتقربًا إليه بأحب الأعمال، وتأسيًا بالسلف الصالح الذين أوقفوا حياتهم على طاعة الله -تعالى- وخدمة كتابه الكريم.

٢- وجوب بيان كلام الله تعالى، وفهم معناه لضرورة ذلك للمسلمين؛ لأن

---

(١) سورة الأنبياء آية: ١٨.

القرآن ما نزل إلا ليكون آية للعالمين.

٣- كثرة هذه الفواتح في القرآن الكريم، فقد جاءت في تسع وعشرين سورة من كتاب الله -عز وجل- وهي أكثر من ربع سور القرآن تقريبًا، وأيضًا تدخل في هذه السور أطول سور القرآن كسورة البقرة، وآل عمران، والأعراف، وغير ذلك من السور التي ذكرت.

٤- كثرة ما أثير حول هذه الحروف من أقوال عدة، وآراء متباينة، وعدم الاهتداء إلى الصحيح منها وخاصة عند العوام.

٥- تعددت أقوال العلماء في هذه الفواتح من قديم، وقد دخل في هذه المعاني قديمًا ما لا يليق بكتاب الله -عز وجل- مثل تفسيرها بحساب الجمل، وحديثا دخل على تفسيرها من لا يحسن اللغة العربية ولا الفهم في كتاب الله تعالى، فجاؤوا في تفسيرها بمعان فاسدة أشد انحرافًا من أقوال بعض السابقين -كما سأعرض في هذه الرسالة إن شاء الله- لذلك كان لا بدّ من جمع هذه الأقوال القديمة والحديثة، وبيان حقيقتها، والرد عليها حماية للقرآن الكريم من عبث العابثين، وصيانة لعقول المسلمين من الفهوم الخاطئة خاصة والأمر يتعلق بكتاب الله -عز وجل- الذي عليه مدار سعادتهم في الدارين.

٦- محاولـــة بعض أصحاب الأهواء المغرضة رمي القرآن الكريم برميات طائشة، وتخرصـــات مغرضـــة لاسيما من خلال الأحرف المقطعة التي وجدوا فيها مجالا رحبًا لتخرصاتهم، وما ذاك إلا لكثرة الأقوال فيها من غث وسمين.

٧- الافتراء على القرآن الكريم، والتطاول عليه في المقام الذي تطاول به، وقهر العرب من جهته، ألا وهو الفصاحة والبيان.

٨- رغبتي أن أقف موقف المدافعين عن كلام الله -عز وجل- لكي أسهم بجانب متواضع يخدم الدفاع عن كتاب الله -عز وجل- سيرًا على نهج أساتذتي سلفًا وخلفًا؛ هذا بالإضافة إلى إبراز دفاع العلماء الأجلاء الذين لم يألوا جهدًا إلا بذلوه في هذا المضمار.

لكل هذه الدوافع والأسباب مستعينة بالله -عز وجل وقع اختياري على موضوع هذا البحث، الذي يهدف إلى جمع شتات أقوال العلماء المختلفة في معنى هذه الحروف، وتنسيقها ومناقشتها مناقشة موضوعية تهدف إلى تحقيق الحق، وإزاحة ما يطمس وجه مرآة هذا الحق من غبار.

منهجي في كتابة البحث:

١- ذكر الآيات القرآنية المتصلة اتصالاً وثيقًا بموضوع بحثي، ثم عزوها إلى

سورها، وتوضيح بعض معانيها إذا استدعت الحاجة إلى ذلك.

٢- أجتهد بقدر طاقتي في تخريج الأحاديث النبوية من الصحيحين البخاري ومسلم، إذ هما أصح الكتب بعد كتاب الله -تعالى-، فإن لم أجده فيهما فكتب السنن والمسانيد ثم أذكر حكم العلماء على هذه الأحاديث، وإذا لم أجد حديثًا في الكتب السابقة نبهت عليه ثم أذكره في مكانه الذي وجدته فيه من كتب الدلائل.

٣- استعنت ببعض كتب اللغة، وأصول الفقه، والكتب الحديثة التي عنيت بالحديث عن هذا الموضوع، أو التي تتصل بالموضوع.

٤- أحاول نسبة كل قول إلى صاحبه بقدر طاقتي، لتوثيق ما نقلته وإسناده إلى كل مصدر وجدته فيه، وليتمكن المطلع من الرجوع إليه.

٥- أقوم بترجيح ما يحتاج مع ذكر دليل على ما أقول، وذلك لأمانة البحث ودقته.

٦- ألا أذكر في المتن أسماء من اتفق في الرأي مع صاحب القول الأقدام، وأقنع بذكرهم في الحواشي.

٧- التزمت التسلسل التاريخي في الحواشي أيضًا.

٨- لم أورد الأقوال التي ذكرتها برمتها، وإنما تصرفت فيها بالاختصار غالبًا حتى لا يمتلئ البحث بالنصوص، وراعيت في التصرف ألا يغير مدلول النص المقتبس.

٩- التزمت في الحواشي ما يسميه النحاة بالحكاية، فلم أخضع أسماء المؤلفين والكتب لعوامل الإعراب الواجبة.

١٠- رتبت العلماء القدامى على سنين وفياتهم، أما المحدثون فقد رتبتهم تبعًا لزمن إصدار أول طبعة من كتبهم، إلا إذا تعذر علي الاهتداء إليها.

١١- اضطررت أحيانًا إلى تقديم من هو أحدث من غيره، ولكنني لم أفعل ذلك إلا عندما وجدته ينسب القول إلى أحد القدامى على حين لم ينسبه غيره إلى أحد، وكذا عندما تعذر علي الحصول على الكتاب الأقدم؛ وذلك إما لأنه كتاب كبير، ومن اقتبس منه لم يحدد موضع اقتباسه، وإما لأنه ما زال مخطوطًا، وإما لسبب آخر.

١٢- راعيت الترابط بين فصول البحث المختلفة بحيث يمهد أولها لتاليها، وينبني لاحقها على سابقها.

١٣- أذكر في الهامش اسم المرجع واسم المؤلف والطبعة، وأرتب المراجع حسب كل فن من الفنون.

الفصل الأول /
مظاهر العناية بماهية الإعجاز

مادة عجز في القاموس المحيط أوردها الفيروز آبادي على النحو التالي:

العجــز مثلــثة وكَنَدُسٍ وكَتِفٍ مُؤَخَّر الشيء جمع أعجاز، وأعجزَه الشيءُ فاته، وأعجز فلانا وجده عاجزا وصيره عاجزا، والتعجيز التثبيط والنسبة إلى العَجزِ.

ومعجــزة النبي ﷺ ما أَعْجَزَ به الخصمَ عند التحدي، والهاءُ للمبالغة وعاجزَ فلانٌ ذهــب فلم يُوصَلْ إليه، وفلانًا سابَقَهُ فعَجَزَه فسبقه، وإلى ثِقَةٍ مال إليه. وتَعَجَّزْتُ البعيرَ ركبتُ عَجُزَه.

وقــوله تعالى ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ "أي يعاجزون الأنبياءَ وأولياءهم، يقاتلونهم ويمانعونهم ليعيدوهم إلى العجز عن أمر الله تعالى، أو معاندين مسابقين أو ظانين أنهم يعجزوننا"[1].

وعــرَّف الرازي في محصله المعجز بأنه " أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، مع عدم المعارضة. وعقَّب بمحترزات التعريفِ فقال:

وإنما قلنا - والكلام للفخر الرازي - أمر: لأن المعجز قد يكون إتيانا بغير المعتاد، وقد يكون منعا من المعتاد، وإنما قلنا: إنه خارق للعادة: ليتميز به المدعي عن غيره، وإنما قلــنا إنه مقرون بالتحدي لئلا يتخذ الكاذب مُعْجِزَ مَنْ مضى حجة لنفسه، وليتميز عن الإرهاص والكرامات. وإنما قلنا: إنه مع عدم المعارضة، ليتميز عن السحر والشعبذة"[2].

والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة وهي: إما حسية، وإما عقلية[3].

والمعجز بهذا المعنى يدخل فيه من وجوه الإعجاز ما اتُّفِقَ عليها وما اختُلِفَ فيها

---

(١) باب الزاي فصل العين جـ٢ ص ١٨٧، ص ١٨٨ من القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الطبعة الثانية، مصطفى البابي الحلبي.

(٢) كتاب المحصل " وهو محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين " لأبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي (٥٤٤هـ - ٦٠٦ هـ) (١١٤٨ م - ١٢٠٩ م) تقديم وتحقيق، دكتور / حسين أتاي مكتبة التراث ٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة - ص ٤٨٩ الطبعة الأولى.

(٣) الإتقان للسيوطي ص ١٠٠١.

ويخـــرج عـــنه ما قاله أبو الحسن الأشعري على النحو الذي سيأتي إن شاء الله بيانه عند تقسيم الوجوه.

ولقد أجمع عامة الباحثين من علماء العربية والتشريع والفلسفة والفرق المختلفة، أن القرآن معجز، فما معنى أنه معجز ؟

معنى الإعجاز (١):

للإعجاز تعريفان:

أحدهما: هو المعتمد لدى جمهور العلماء والباحثين وهو: أن القرآن قد سما في علوه إلى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله، سواء كان هذا العلو في بلاغته أو تشريعه أو مغيَّباته أو غير ذلك.

ثانـــيهما: تفرد به (٢) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هاني النظام (ت ٢٣١هـــ) اللغوي والمعتزلي المعروف ثم تبعه في ذلك بعض الناس من فرقته وجماعته، فالإعجاز عنده هو: - أن الله قد صرف قدرات عباده وسلب همتهم وحبس ألسنتهم عن الإتيان بمثله.

وإتمامًـــا للفائــــدة فإنه إذا كان النظام أول من جاهر بالقول بالصرفة، إلا أن ابن الـــراوندي أحمد بن يحيى المتوفى ســـنة ٢٤٥ في كتابه " فضيحة المعتزلة " الذي رد به علـــى كتاب الجاحظ " فضيلة المعتزلة " هو أول من أثار مذهب الصرفة المشهور ونَسَبَهُ إلى أبي إســـحاق إبـــراهيم النظام، وذلك ما أورده أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عـــثمان الخـــياط المعتـــزلي في كتابه " الانتصار " الذي ينقض فيه كتاب ابن الراوندي " فضيحة المعتزلة " (٣).

والتعـــريف الأول يجعـــل مصدر الإعجاز علو منزلة القرآن عن مستوى الطوق البشري.

والتعريف الثاني يجعل المصدر حبس القدرات وصرف الهمم عن معارضته وتقليده، فالمنع هو المعجز وليس القرآن.

وابن حزم يروي في كتابه الفصل (٤) كلاما عزاه إلى الباقلاني إذ يقول عنه: "ورأيت

---

(١) من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل د/ محمد سعيد رمضان البوطي. مكتبة الفارابي– دمشق، ص ١٢٥بتصرف يسير.

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري جـــ١، ص ٢٩٦.

(٣) قضية الإعجاز القرآني ص ١٤٣.

(٤) الفصل جـــ٥، ص ١١.

للباقلاني في فصل من كلامه، أن الناس ليسوا بعاجزين عن مثل هذا القرآن ولا قادرين عليه، ولا هم عاجزون عن الصعود إلى السماء، ولا عن إحياء الموتى، ولا عن خلق الأجسام ولا اختراعها، ولا قادرين على ذلك. هذا نص كلامه دون تأويل منا عليه، ثم قال: إن القدرة لا تقع إلا حيث يقع العجز "

ومن أراد الرجوع إلى الرد على هذا الكلام الذي أسماه ابن حزم بالهوس فليطالعه عند كلام ابن حزم على المعجزات.

وإيراد كلام الباقلاني هنا مقصود، لبيان جملة من الأقوال التي ضربت في معنى الإعجاز بسهم، لكن الباقلانيَّ لم ينظر إلى المعجز بقدر نظره الناسَ منطلق بدو العجز والقدرة، ويفهم من قوله، أن الناس على جبلتهم لا يوصفون بعجز ولا قدرة، فمن أودعت فيه قدرة كان قادرا، ومن أودع فيه العجزُ صار عاجزا. ولا تُعْلم القدرة إلا حيث يبرز العجزُ فمن عجز عن أمر فإن هذا الأمر يكون مقدورا عليه من غيره حتما، لأنه لا يوصف العاجز إلا حيث لم يتحقق منه الأمر، والأمر حتما لا يُعْلم إلا حيث يقع مقدورا من الغير.

ويسوق ابن حزم (١) قولا للأشعري بأن المعجز الذي تحدى الناسَ بالمجيء بمثله هو الذي لم يزل مع الله تعالى ولم يفارقه قط ولا نزل إلينا ولا سمعناه.

ويقول ابن حزم في رده على ذلك: " وهذا كلام في غاية النقصان والبطلان، إذ من المحال أن يكلف أحد أن يجيء بمثل ما لم يعرفه قط ولا سمعه، وأيضا فيلزمه ولا بدّ بل هو نفس قوله: - إذا لم يكن المعجز إلا ذلك فالمسموع المتلو عندنا ليس معجزا، بل مقدور على مثله، وهذا كفر مجرد، لا خلاف فيه لأحد، فإنه خلاف للقرآن لأن الله تعالى ألزمهم بسورة أو عشر سور منه وذلك الكلام الذي هو عند الأشعري هو المعجز ليس له سور ولا كثير، بل هو واحد فقط، هذا القول والحمد لله رب العالمين ".

ويذكر الأشعري في " مقالات الإسلاميين " قولا لهشام وعباد (٢) هو أنهما قالا: لا نقول إن شيئا من الأعراض يدل على الله سبحانه، ولا نقول أيضا: إن عرضا يدل على

(١) الفصل جـ٣، ص ١٥.

(٢) هشام بن عمر والفوطي من المعتزلة ت٢٢٦هـ، وصاحبه عباد بن سليمان الضمري من الطبقة السابعة من المعتزلة ت سنة ٢٥٠هـ.

انظر الملل والنحل للشهرستاني ط مؤسسة ناصر للثقافة ببيروت ١٩٨١م ص ٣١.

نبوة النبي ﷺ. ولم يجعلا القرآن علما للنبي ﷺ، وزعما أن القرآن أعراض (١).

ومـــن جميع ما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها: أن الناظر إلى القرآن ككلام يحوي أعاجيب لا تنقضي، قال بالإعجاز القرآني، وبيَّن وجوها منه على نَحْوٍ مَا سيرد إن شاء الله، ومن نظر إلى كلام الله النفسي جعله هو المعجز، وهذا حق متى علم، وهو لم يطلع علـــيه أحـــد بعـــد ولم يكـــن منه تحد إلى أحد من الخلق لأن التحدي كان حينما سمع المعرضون القرآن وقالوا إن الرسول ﷺ قد افتراه، حينئذ قال لهم: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وما تحداهم إلا بمثل ما سمعوا ؛ ومن نظر إلى الناس فرأى فيهم ذا القدرة الفائقة علـــى البيان وإجادة الكلام بنظم بليغ وقول جيد ولم يجد منهم إقداما نحو الإتيان بمثله، بل من دفعه طيشه ونزقُه وأفنُ عقله إلى المعارضة، أتى بالسخيف مما لا يرقى إلى مستوى الإجادة المعتادة في كلام العرب، ومن رأى فيهم غلبة القرآن عليهم، قال بصرف الله لهم عن المماثلة والمحاكاة.

ومن رأى أن الأصل في الناس التفاوت قال إنهم ليسوا بعاجزين ولا قادرين، وهذا يصح فيما كان بينهم، ولكن فيما يكون من عند الله، فهم العاجزون والله تعالى على كل شيء قدير، ومن غالى استعظم أن يكون القرآن - وهو في زعمه عرض - - دالاً على الله أو علـــى نبوة النبي ﷺ، وهب أنه يتنزه اللهَ أو يجعلُ رسولَه ﷺ بهذا النحو، إلا أنه يخالف واقع التحدي الدائم، والعجز المطِّرِد من كل من خاطبهم القرآن بالتحدي (٢).

ويقـــول الرافعي (٣) "إن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه حين يُنْفَى الإمكان بالعجز عن غير الممكن ".

وحـــين انتفى إمكان العرب بعجزهم عن الإتيان بمثله بل عجز كل الإنس ومعهم الجن عن ذلك، حينئذ تفهم معنى إعجاز القرآن الكريم على إطلاقه.

ولا يقـــال: عجز فلان إلا بعد سبق، فالعرب كان لهم السبق، لم تعجزهم أمة في الإعـــراب والبيان، ولما نزل القرآن سبقهم. وهذا شأن الخلق دائما فإنه ليس لأحد منهم أن ينفرد بوصف ذاتي أبدا، والعرب أسبق الأمم وأبينهم فيما يعربون فلا بدّ أن لا يكون

---

(١) مقالات الإسلاميين جـ١ ص ٢٩٦.

(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: " ما بين الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ".

(٣) تاريخ آداب العرب جـ٢ ص ١٥٦ الناشر دار الكتاب العربي بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

لهـــم هـــذا التفرد، لأنه لا يتوحد بوصف إلا الواحد تعالى، فكان القرآن المقدم وصار اللـــسان الأقوم والأبين من العرب في الدرجة الثانية، وبعد أن كانوا في الصدارة صاروا في عربيتهم وبيانهم في تاليها.

وحـــق للقرآن أن يكون عربيًا ما دامت العربية في درجة اللغات هي الأولى، ومع هذا تبوأ القرآن المنزلة الأولى من هذه اللغة العظمى.

وفي الـــنكت في إعجـــاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (٢٩٦هـــ - ٣٨٦هـــ) اعتراض افترضه الشيخ ورد عليه " إذ يقول [١]:

" فإن قال قائل: فلم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون المولدين وهو عندكم معجز للجميع، مع أنه يوجد للمولدين من الكلام البليغ شيء كثير ؟

قـــيل: لأن العرب كانت تقيم الأوزان والإعراب بالطباع، وليس في المولدين من يقيم الإعراب بالطباع كما يقيم الأوزان، والعرب على البلاغة أقدر لما بيّنّا [٢] من فطنتهم لما لا يَفطن له المولدون من إقامة الإعراب بالطباع، فإذا عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز".

والجـــرجاني في رسالته الشافية [٣] يفضي بباب من التلبيس يدور في أنفس قوم من الأشـــقياء يستهوون به وعي الغِرِّ الغَبِي بذكره، وهو قولهم: قد جرت العادة بأن يبقى في الـــزمان مـــن يفـــوت أهله حتى يسلموا له، وحتى لا يطمع أحد في مداناته، وحتى يقع الإجماع فيه أنه الفرد الذي لا ينازع، ثم يذكرون امرأ القيس وربما ذكروا الجاحظ.

وهم يريدون بذلك أن القرآن معجز لا لأنه كلام الله، بل لمزية كانت للنبي ﷺ في كلامه دون غيره من أرباب الفصاحة فاق بها الفصحاء والبلغاء.

ولكن الجرجاني ذكر شرطًا للمزية والتفرد وهو أن المزية الناقضة للعادة يبلغ الأمر فـــيها إلى حـــيث يبهر ويقهر، حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة، وتخرس الألسن عن دعوى المداناة، وحتى لا تحدثَ نفسٌ صاحبها بأن يَتَحَدَّى، ولا يَجُول في خلَد أن الإتيان بمثلها يمكن، وحتى يكون يَأْسُهُم منه وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه مثل ذلك في كله.

---

(١) ذخائر العرب ١٦ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القادر الجرجاني حققها وعلق عليها محمد خلف الله أحمد ودكتور محمد زغلول سلام ط دار المعارف الطبعة الرابعة ص ١١٣.

(٢) المرجع السابق ص ١١١ حيث تكلم على نقض العادة كوجه من وجوه الإعجاز.

(٣) الرسالة الشافية للجرجاني ثلاث رسائل في الإعجاز ص ١٢٨، ١٢٩.

ثم يقول الجرجاني نافيا أن يكون لأحد كائنا من كان كلُّ هذا:

" وليت شعري من هذا الذي سَلَّم لهم أنه كان في وقت من الأوقات من بلغ أمرُه في المزية وفي العلو على أهل زمانه هذا المبلغَ وانتهى إلى هذا الحد".

ثم ساق القصة الشهيرة بين امرئ القيس وعلقمةَ الفحلِ والتي كان فيها الحكم بين الشاعرين أُمُّ جندب امْرأةَ امرئ القيس والتي فضلت علقمةَ في الشعر على زوجها.

وأردف الرجل برهانًا بعد آخر إبطالا لهذا القول، ومن براهينه أن للشعراء طبقات، وبَـــيَّنَ أنهم في كل طبقة منها أكفاء نظراء. ولم ينفرد واحد بمزية تخصه، فسقطت بذلك مقولة المزية.

هل العجز هو الإفحام ؟

يقـــول الـــشيخ محمد عبده[1] "يقول واهم إن الإعجاز حجة على من عَجَزَ فإن العجز هي حجةُ الإفحام وإلزامُ الخصم، وقد يلتزم الخصم ببعض المسَلَّمَات عنده فَيُفْحَم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره، فمن الممكن أن لا يُسَلِّم غيرُه بما سلمه، فلا يُفْحِمُه الدليلُ، بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل "

ويـــرد الشيخ بقوله: " وهو وهم بما قدمنا من البيان إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجـــاز القـــرآن وإفحـــام الدليل، إلا أنه يوجد عن كل منهما وجه عجز، وشتَّان بين العجْـــزَين، وبُعْـــد ما بين وِجْهتَي الاستدلال فيهما، فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي، وهو تقاصر البشرية دون مكانته من البلاغة ".

وأضـــيفُ: إنه إذا كان الإفحام يتصور إبطاله من أحد غير العاجز أو من نفسه هو في وقت لاحق، فهل أبطل الإعجاز على مَدِّ زمن التحدي من القرآن للثقلين أي أحد.

وبعد إيراد كل هذا في مضمار بيان المعجزة والإعجاز نخلص إلى أن المعجز هو:

أمر خارق للعادة مقرونا بالتحدي يظهره الله على يد مدعي النبوة تصديقا لدعواه.

وإذا كان باب الدخول إلى صلب الموضوع قد أخذ من علمائنا هذه العناية بإحكام الشروع والبيان عند إرادة التفاصيل، فإن هذا ينم عن غاية تغياها هؤلاء، وهي سد أبواب التنطع في وجه كل لئيم دائر النظر، بحثا عن مطعن يقدح من خلاله في أجَلِّ كلام عرفَتْه البشرية وهو كلام الله تعالى.

---

(١) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ١٢٧ – دار إحياء العلوم بيروت طـ/١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

لقد أدام علماؤنا افتراضاتِ الرافضين لكون القرآن كلامَ الله، فأداروا في رؤوسهم كـــل رد لتخرس الألسنة عن تقليب ما جال في الخواطر الفاسدة الناشئة من رداءة أصل الـــتوجه، وما أفاد العلماء من مثل هذا إلا شرفَ عنايتهم وغايتِهم من هذا، فالقرآن قد استبقى لنفسه دفُوُعًا شتى، يواجِهُ بها في كل جيل ما جلَّ من خطبه وخطره في سبيل النيل من القرآن ودرجته العليا.

العناية بوجوه الإعجاز

يستلزم بيان وجوه الإعجاز جلاءَ الأساس الذي بني عليه وجودُ الكلام في الإعجاز، فإن القرآن في جملته معجزة على وجه الحقيقة، ولا يمكن لأحد أبدا مهما أوتي من علم أن يذكر السبب الذي أعجز أفذاذ العرب عن أن يأتوا بمثله، فإنه قد امتد إلى نفوسهم، فانطبع في نفس أحدهم منه حلاوة، وفي نفس الآخر خوف، مع عدم إيمانهم به، بل كانوا يسترقون سماعه خُفْيَةً، وما حمَلَهم عداؤهم على أن يجابهوا هذا الذي أخزاهم وأقعدهم دون منازلهم وسفه أحلامهم. لا يمكن لأحد أبدا أن يكون قد اطّلع على أحوال قلوبهم حين استمعوا القرآن، ثم تكشّف له أن الوجه الذي أعجزهم كيت وكيت، أو أن الله صرفهم عن ذلك، بل تقوم الأدلة على أنهم ما تركوا المعارضة إلا عجزا من عند أنفسهم، وذلك لأن القرآن قد نقض عادتهم في الكلام والإعراب والبيان ووجدوا فيه عُلُوَّ مَا لَمْ يعهَدَ، ومن أنكر الإعجاز ما أضر بغير نفسه، وظل القرآن يرمي إلى كل جيل إعجازا بعد إعجاز.

ولذلك ينقسم هذا الفصل إلى مبحثين:

الأول: الدوافع التي أدت إلى التصنيف في الإعجاز.

الثاني: يبين ما يتوقف عليه القول بوجه من الإعجاز.

المبحث الأول: دواعي بيان الإعجاز

اتخذ مظهر الولاء لهذا الدين والدفاع عن كتابه صورتين: دَفْع بالسنان ودفاع باللسان. فمن ادعى النبوة كمسيلمة لاقى في حروب الردة ما لاقى، ومن اعتلاه شيطانه واعترته وساوسه وطعن في القرآن، أصابه ما أصاب سلفه، أو أرغمت الحجة أنفه.

وفي صدر الإسلام كان الطبع العربي لم يزل على سلامة سليقته في الإعراب، إذ لم يكن بحاجة إلى وسائل يُتَفَهَّمُ بها القرآن الكريم، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يدركون معانيَ الألفاظ وما وراءها بفطرتهم العربية الأصيلة، فإذا أشكل عليهم شيء من وراء ذلك سألوا عنه رسول الله ﷺ.

ثم كانت رقعة حياتهم ضيقة لا تزخر أو تتزاحم فيها التقاليد والأفكار والمشكلات الطارئة فكانت معارفهم في أذهانهم، وكان مرجعهم فيها رسول الله ﷺ، ثم كبار الصحابة مِنْ بَعْدِه، فلم يكن عندهم شيء مما أطلق عليه فيما بعد اسمُ "علوم القرآن "(١).

ومع أن العرب بصحة عربيتهم قد أدركوا إعجاز القرآن في نفوسهم سواء منهم من آمن ومن لم يؤمن إلا أن مادة " ع، ج، ز" لم ترد بهذا المعنى، بل اشتهرت لدى المسلمين ألفاظ أخرى كالآية والبرهان والسلطان (٢).

مع هذا لم يَخْلُ القرن الأول من تعبيرات مفادها أن للقرآن من غلبة اللسان وسلطان البيان ما ليس لغيره من سائر الكلام.

وخرج المسلمون على غيرهم بنور الإيمان فاتحين فانفتحوا هم في المقابل على ما كانت لدى الأمم من علوم، فسيطرت الفلسفة على عقول بعض الناس، وربما اتجه المتفلسفون إلى الفكرة لا لأصالتها أو صِلتِها بالحق ولكن لغرابتها، لا رغبة في تحقيق الحق وإبطال الباطل، ولكن للترف العقلي، لا يفرقون بين أمر يتصل بالإيمان وأمر لا صلة له بالإيمان.

ومن جملة ما اطلع عليه بعض المتفلسفين من المسلمين أقوالُ البراهمة في كتابهم "الفَيْدَا" (٣) وهو يشتمل على مجموعة أشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم.

---

(١) من روائع القرآن ص ٦٦.

(٢) فكرة إعجاز القرآن ص ٨.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن للإمام محمد أبي زهرة ط دار الفكر العربي ص ٧٦.

ويقـــول جمهـــور علمائهم: إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها، لأن " براهما " صرفهم عن أن يأتوا بمثلها.

وحكي الإمام محمد أبو زهرة ما أورده أبو الريحان البيروني (١) في كتابه " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " ما نصه.

" إن خاصتهم يقولون إن في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها" وعقب الشيخ أبو زهرة بقوله:

ولم يـــبين البيروني وجه المنع أهو منع تكليفي يسبقه الإيمان بهذه الكتب، وتكون دلائـــل وجـــوب الإيمـــان من نواح أخرى، أم هو منع تكويني بمعنى أن براهما صرفهم بمقتـــضى الـــتكوين مـــن أن يأتوا بمثلها. أي أنه جعل خَلْقَهُمْ وتَكوينهم على نحوٍ لا يستطيعون معه الإتيان بمثلها.

ورجـــح الـــشيخ الوجه الأخير بناء على أنه المتفِق مع قَوْلِ جمهور علمائهم، وما اشتهر من أن القول بالصرفة نبع في واديهم.

ودخلـــت الأفكار الهندية في عهد المنصور أبي جعفر (٢) فتلقفها المحبون لكل وافد مـــن الفكـــر ركونا إلى الاستغراب في أقوالهم فدفعتهم الفلسفة إلى اعتناق ذلك القول، وطـــبقوه على القرآن وإن كان لا ينطبق. فقال قائلهم: إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه، بل كان لأن الله صرفهم عن أن يأتوا بمثله (٣).

ولم يُسَمِّ الشيخُ أحدا ممن قال بهذه المقولَة قبلَ النظام ولكنه أبرز مَرْمَى رَوَاجِ هذه الفكرة وجعل مؤداها إلى أمرين (٤):

أولهما: أن القرآن ليس في درجة تمنع محاكاته، وليس الإعجاز من صفاته الذاتية.

ثانيهما: الحكم على القرآن بأنه ككلام الناس.

لكـــن الرافعيَّ في كتابه " تاريخ آداب العرب " (٥) يقول: " كان أول ما ظهر من الكلام في القرآن، مقالة تُعْزَى إلى رجل يهودي يُسَمى لبيد بن الأعصم فكان يقول: إن

(١) توفي سنة ٤٣٠.

(٢) ثاني الخلفاء العباسيين توفي سنة ١٥٦.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن لأبي زهرة ص ٧٦.

(٤) المرجع السابق ص ٧٦، ٧٧.

(٥) تاريخ آداب العرب للرافعي جـ٢ ص ١٤٣.

التوراة مخلوقةٌ فالقرآن كذلك، ثم أخذها عنه طالوتُ ابن أخته وأشاعها، فقال بها بنان بن سمعان الذي تنسب إليه البنانية، وتلقاها عنه الجَعْدُ بن درهم " مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية " وكان زنديقا فاحش الرأي واللسان. وهو أول من صرح بالإنكار على القرآن والرد عليه وجحد أشياءَ مما فيه، وأضاف إلى القول بخلقه أن فصاحتَه غيرُ معجزة، وأن الناس يقدرون على مثلها وعلى أحسن منها. ولم يقل بذلك أحد قبله، ولا فشت المقالة بخلق القرآن إلا مِنْ بعده.

وإذا كان الجعد بن درهم أولَ من صرح بالقول بخلق القرآن وبأنه غير معجز، فإن أول من جَهَرَ بالقول بالصرفة من المتكلمين المعتزلة، أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هاني النظام (ت٢٢٤هـ). خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وانفرد أصحابه بمسائل: منها قوله في إعجاز القرآن أنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومَنْع العرب عن الاهتمام به جبرا وتعجيزا، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما[1].

وهذان هما الدافعان اللذان أثارا حفائظ المؤمنين غيرة على الحق، أما أبان بن سمعان والجعد بن درهم فقد قتلهما خالد بن عبد الله القسري المتوفى سنة ١٢٦هـ رحمه الله وجزاه خيرا.

وأما النظّام فإن تلميذه الجاحظ لم ينتظم في سلك طائفته بل خرج عليه راميا نحوه بسهام ما أصاب من علم وآداب عربية، فمع اعتزاله لم يقف من الحق موقف المتخاذل فآثر حرمة الحق على حرمة الشيخ، فكان أول من دفع القول بالصرفة بالإعجاز الذاتي للقرآن الكريم.

لم يوافق التلميذُ أستاذَه، وإذا كان النظام قد اشتهر بالبيان وسرعة الجواب ولسن القول فقد اشتهر الجاحظ " ت ٢٥٥ هـ " بأنه ذواق الكلام وَصَيْرَفِيُّ البيان. فإن خَالَفَ من يتسرع في الخبر ويبني عليه، فهي مخالفة الخبير العارف بتصريف القول وأفانين التعبير والتفكير.

ولم يكن رد الجاحظ على شيخه ردَّ المجادل، ولكنه كان بالعمل، فقد كان أول من

---

(١) موسوعة الملل والنحل للشهرستاني ص ٢٤، ٢٥ بالطبعة الأولى سنة ١٩٨١م الناشر مؤسسة ناصر للثقافة – تاريخ آداب العرب للرافعي جـ٢ ص ١٤٤.

كتب في إعجاز القرآن من الناحية البيانية ليكون الردُ على الصرفة ببيان الإعجاز الذاتي[١].

وفي كتاب "المعتزلة" يقول مؤلفه زهدي حسن جاد الله " وقد رد الخياط على هذا القـول الذي كان ابن الراوندي أول من نسبه إلى النظام وقال إن النظامَ كان يقر بإعجاز القرآن نظما وإخبارا[٢].

ومن كل ما سبق يمكن القول إن الصرفة لم تكن مذهبا يعتقده أحد من المسلمين مع شهرة وذيوع نسبتها إلى النظام الذي شهد له صاحب الانتصار بأنه كان يقر بإعجاز القـرآن نظما وإخبارًا، وما كان القول بالصرفة ونسبتها إلى أحد المسلمين ليكون لولا ضغائنُ الكائدين وأحقادهم للإسلام ولكتابه.

وهَبْنَا نجد في بطون الكتب ردودا على مثل هذا القول إلا أن هذه الردود وحدها لا تُثْبِت صحةَ نسبةِ الصرفة إلى قائلها، لأن دافعا كالغيرة على القرآن لا يترك مستجمعا لأدلة الاستيثاق من صحة صدور هذا القول عن صاحبه قبل المواجهة دون أن تبعثه على الرد بأقصى ما يمكن من السرعة على ما يمس الإسلام في أصل تشريعه وهو القرآن.

ولم يَخْلُ زمننا هذا مَعَ تباعُدِ ما بينه وبين عصر بزوغ فكرة الصرفة من أن ينبري مَـنِ اطلـع عليها بالرفض، والنقض لها، والرد عليها، ونقدها مما يسمح بالقول: إنه قد يكون اتهام النظام مبنيا في أصله على ما أشيع عنه بالقول بها، وقد يكون منها براء.

ولا خـلاف في أن إثم القـول بالـصرفة - على اعتبارها طعنا في ذاتية الإعجاز القـرآني - يقع على أول قائل بها سواء كان هو النظام أو من نسبها إلى النظام، بل على البادئ وزر من قال بها بعده، إذا كان قوله مؤسَّسًا على مشايَعَةِ أول قائل بها، والارتضاءِ بها وجها للإعجاز.

ولكن متى اتخذ الكلام في الإعجاز الصورة العلمية المنظمة ؟

في أواخـر القرن الثاني وأوائل الثالث بدأ الكلام في الإعجاز بصورة علمية منظمة ففـي هـذا العصر ظهرت أكثرُ النظريات الرئيسية في الإعجاز، صادرة عن المتفلسفين والمعتزلة والمتكلمين، وكثر الكلام في الدين والنبوة وبُحِثَ الإعجاز على أنه فرع لهما.

وشاهَدَتْ هذه الحِقْبَةُ ظهورَ منكرِي الإعجاز كابن الراوندي أبي الحسين أحمد بن

---

(١) المعجزة الكبرى لأبي زهرة ص ٧٨.

(٢) المعتزلة لزهدي حق جاد الله ص ٢٩ — نقلاً عن الانتصار ص ٢٧، ٢٨ — منشورات النادي العربي في يافاط القاهرة ١٣٦٦– ١٩٤٧م مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية.

يحيى " ت ٢٩٣ وقيل: ٣٠١ وقيل: ٣٥٠ "[(١)] الذي بسط لسانه في مناقضة الشريعة وإنكاره إعجاز القرآن في كتابه " الفريد " وقيل: إنه عارض القرآن في كتاب سماه "التاج"[(٢)] ومن كتبه "الزمردة " و" قضيب الذهب "، و" المرجان "، و" البصيرة ".

وانبرى كثيرون للرد عليه[(٣)] في لاحق الزمن، ومع أن المعري أبا العلاء (٤٤٩هـ) قد تولى الرد عليه، إلا أنه لم يسلم هو من الاتهام بمعارضة القرآن في كتابه المسمى "الفصول والغايات في مجاراة السور والآيات" على أن المعريَّ قد أثبت الإعجاز للقرآن فيما أنكر من رسالته على ابن الراوندي[(٤)] بل الناظر في الفصول لا يجد فيه شيئا من هذا.

وكما لم يسلم المعري لم يسلم من قِبَلِه الجاحظُ فهو وإن كان رأيهُ في الإعجاز كرأي أهل العربية[(٥)] فقد سرد في كتابه " الحيوان" طائفة من أنواع العجز إلا أنه لم يسلم من القول بالصرفة فرد أنواع العجز في العلة إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها ورفع ذلك القصد من صدورهم، ثم عد منها: " ما رَفَعَ من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحداهم الرسول ﷺ بنظمه[(٦)].

وظهر أول كتاب في الكلام لمؤلفه علي بن ربن الطبري في خلافة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) فظهرت مسألة الأسلوب مبكرة في إعجاز القرآن ظهورًا واضحا في كتابه " الدين والدولة " الذي يرى فيه أن الوجه المعجز في القرآن هو هدفه الإصلاحي، وتحقيقه هذا الهدف، وأوامره ونواهيه، وإخباره عن الجنة والنار، وأسلوبه الطلي الرائع برغم أمية النبي محمد ﷺ[(٧)].

بيد أن أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف إنما هو كتاب " إعجاز القرآن " لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ وهو كتاب شرحه عبد القادر الجرجاني شرحا كبيرا سماه المعتضد وشرحا آخر أصغر منه[(٨)].

---

(١) الحاشية بهامش تاريخ آداب العرب جـ٢ ص ١٨٠.
(٢) تاريخ آداب العرب المرجع السابق ص ١٨٢.
(٣) تاريخ آداب العرب المرجع السابق ص ١٨٣.
(٤) تاريخ آداب العرب المرجع السابق ص ١٣٦.
(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ٢ ص ١٠٠٤.
(٦) تاريخ آداب العرب للرافعي ص ١٤٧ بتصرف.
(٧) فكرة إعجاز القرآن للأستاذ نعيم الحمصي ص ٥٧ طـ٢ مؤسسة الرسالة وذكر المؤلف في ص ٧ لهذا الطبري كتاب " الأسلوب والبلاغة " وأن هذا الكتاب لم ترد فيه مادة عجز.
(٨) تاريخ آداب العرب جـ٢ ص ١٥٢ الرافعي.

ويـــرجح الرافعي كون الواسطي بنى على ما ابتدأه الجاحظ كما بنى عبد القادر في (دلائل الإعجاز) على الواسطي.

ثم وضـــع المعتزلي أبو الحسن علي بن عيسى الرماني [١]. المتوفى سنة ٣٨٦ كتابه "النكت في إعجاز القرآن" فرفع بذلك درجة ثالثة.

وجـــاء القاضـــي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـــ فوضع كتابه " إعجاز القرآن " الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة [٢] والغريب أنه لم يذكر فيه كتاب الواسطي ولا كتاب الرماني، ولا كتاب الخطابي الذي كان يعاصره، وأوما إلى كتاب الجاحظ بكلمتين لا خير فيهما [٣].

والخطابي الأديب اللغوي المحدث أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم البستي، ولد في رجـــب ٣١٩ هـــ وتوفي في ٣٨٨هـــ ألف كتابه بيان " إعجاز القرآن " فأفاد فيه وأجاد. وكما لم يذكره الباقلاني لم يذكر هو كذلك من سبقه ولا من عاصره [٤].

ومـــن هذا الذي سبق نجد أن العقول قد يخصبها التضاد، فلولا ما نجم من فكر أعور جرى على ألسنة أصحابه قول بعضهم بالصرفة، وقولُ البعض الآخر بنفي الإعجاز عـــن القرآن، لما هَمَتْ على أرض القلوب المؤمنةِ بواعثُ التوجه نحو الإعجاز وبيانِهِ، وحجاج النافين له.

لذلك أسفرت هذه المعركة عن أمرين هما مظهران للعناية بوجوه إعجاز القرآن الكريم:

أولهما - أن هذه الكتب التي ألفت لم تدع الإعجاز الذاتي ولا قسيمه دون أن تأخذ مـــن كلٍ بطرف. فحين يعرض بعضها للصرفة كوجه يراه البعض، نرى وابلا من الحُجَج الدامغة ينصب فوق الفكرة والقائلين بها ممن لم يعتبرها وجه إعجاز.

ثانيهما - أن هذه الكتب كانت فاتحةً لعلوم البلاغة، ليتسنى لمن لم يكن في عصر القرائح العربية الأصيلة أن ينظر من خلال معارفه البلاغية إلى وجه الإعجاز الذاتي للقرآن الكريم، وهو ما أظل الحِقَبَ المتعاقبةَ على الأمة.

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٠.

(٢) من يطالع الكتاب يجده خير شاهد على صحة هذا الإجماع على ما أجمع.

(٣) تاريخ آداب العرب جـــ٢ ص ١٥٢.

(٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨، ٩.

المبحث الثاني: أسس استنباط وجوه الإعجاز وقواعده

عـــرف علماء الكلام المعجزةَ بأنها " أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضـــة " وناقـــشوا مدلولها كثيرا، وتعالجوا شروطها طويلا، لكن نكتفي بما ذكره القـــرطبي المفـــسر في" كتابه الجامع لأحكام القرآن "[1] من شروطِ لا يصح من دونها الحادث أن يسمى معجزةً وهي:

١- هذا الحادث ينبغي أن يكون مما لا يستطيعه إلا الله.

٢- أن يخرج على قوانين الطبيعة.

٣- ينبغي أن ينبئ عنه الحكيم قبل أن يقع بأن كذا وكذا سيحصل.

٤- ويجب أن يكون الحادث الواقع موافقا لما قال مِنْ قبل.

٥- وألا يكون في استطاعة أحد أن يجري مثل هذا الأمر.

هذه هي شروط المعجزة، ولننظر ماذا كان منها متحققا عندما تلقى العرب القرآن عند أول نزوله. ذلك أنهم دهشوا بما غالبهم عليه القرآن من البيان، وعجزوا مع تحديه لهم مع آياته أو سوره الأولى أن يأتوا بمثله.

عجزوا، ولم يستطع أحد أبدًا استبانة أسباب عجزهم مع براعتهم البيانية وقدرتهم الفائقة على الإعراب والبيان المتوارث في الطباع.

لم يقدر أحد على معارضة القرآن، وكانت المجالدة بآلات الحرب أهونَ عليهم من مجادلة القرآن. فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء والبلغاء نـــادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن لهم فقال ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ وعاندوا واستهزأوا فقالوا سحر، وقالوا: شـــعر، وقالـــوا: أساطير الأولين، وما كل هذا إلا من التحير، شأن كل عجيب خارق للعادة. حتى قال الوليد بن المغيرة: - حين قال له أبو جهل: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعـــوا لك مالا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قِبَلَه - لما عنده من مال - قال الوليد: قد علمت قريش أني أكثرهم مالاً، قال: فقل قولا يبلغ قومك أنك كاره له، قال وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـــ١ ص ٦٩-٧١.

لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: (أي أبو جهل) لن يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: دعني حتى أفكر. فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره (أي ينقله عن غيره) (١).

وعجـز العـرب ولم يتبين أحد وجه عجزهم، ولكنهم عجزوا، وراح كل أحد يـضرب في آفاق الفهوم عله يلتقط تعليلا لهذا الإعجاز المحيط بالقرآن، ولو كان معجزة حـسية لاسـتراحت النفوس بما تدركه بإحدى الحواس، ولكنه معجزة لا تشاهد بغير البصيرة، فما كان للأبصار فصورته واحدة في وقت واحد، وما كان للبصائر فإن تصوراته تنـتظم مـنه صورا عديدة تكثر بكثرة المهتمين بوجوه الإعجاز، فكل وجه عند صاحبه مقـبولٌ، لأنه ما قال إلا ما رأى، ولكن هل يؤخذ بقوله أو لا ؟ هذا ما سيشار إليه قريبا إن شاء الله.

وكـان لا بـد مـن أساس أَوْجِهَةٍ ينظر من خلالها منفذًا تُرَى منه ملاحة وجوه الإعجاز، وخاض الناس في ذلك كثيرا. فبين مسيء ومحسن. على النحو التالي:

١- عجز البعض عن إدراك الإعجاز في القرآن الدال على الكلام القديم لله تعالى، فـزعموا أن الـتحدي وقـع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات (٢) والصواب ما قاله الجمهور: أنه وقع بالدال على القديم وهو الألفاظ.

٢- ثم زعـم الـنظام - كما قيل عنه - أن إعجازه بالصرفة، أي أن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورًا لهم، لكن عاقهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات (٣).

قلـت: أي كـسائر المعجزات الحسية، بأن العرب منعوا مما اعتادوا وسنضرب صـفحا عـن مناقشة هذا القول إلى حينه. ولكن ما الأساس الذي بنى عليه هذا القول النظامي غير ما قيل من أنه اكتسبه من المقولة الهندية السابق ذكرها ؟

يقـول أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت-٤٧١هـ) في "رسالته الـشافية في إعجـاز القرآن: " اعلم أن الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتداه على توهم (أن التحدي كان إلى أن يُعَبِّرَ عن أنفس معاني

(١) مستدرك الحاكم: التفسير - تفسير سورة المدثر ٢/٥٠٦.
(٢) الفصل جـ٣ ص ١٥، الإتقان جـ٢ ص ١٠٠٥.
(٣) الإتقان ص ١٠٠٥، بيان إعجاز القرآن ص ٢٢ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

القرآن بمثل لفظه ونظمه، دون أن يكون قد أُطْلِق لهم وخُيروا في المعاني كلِّها)، ذاك لأن في القول بها على غير هذا الوجه أمورا شنيعة، يبعد أن يرتكبها العاقل ويدخل فيها.

ذاك أنه يلزم عليه – أي على القول بالصرفة على غير الوجه الذي ذكره الجرجاني– أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان، وأنهم قد اعتراهم العجز وخذلتهم القــوى، فــإنهم إن قــيل بتحول شأنهم من القدرة إلى الضعف لم تُقِمْ عليهم حجة، بل اســتحال عليهم أن يعلموا أن لنظم القرآن فَضْلاً على كلامهم الذي يسمع منهم، وعلى النظم الظاهر الباقي لهم - ذاك أن عذر القائل بالصرفة أن كلامهم قبل أن تحدوا قد كان مثل نظم القرآن، وموازيا له وفي مبلغه من الفصاحة

وإذا كــان الأمر كذلك وقد صرفوا فإنه لا يتصور أن يحاولوا، وإذ لم يحاولوا لم يحسوا بالعجز.

بــل يلزم أن ينسحب حكم القائلين بنقص العرب في بلاغتهم وبيانهم على بلاغة النبي ﷺ وبيانه، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يُمَنَع شطرا من بيانه وإلا كان ﷺ قد تلا عليهم آية الإسراء[1] في حال هو يستطيع فيها أن يجيء بمثل القرآن الكريم. اللهم إلا أن يقولوا: إنه كان ﷺ في الأصل دونهم في الفصاحة وأن الفضل والمزية للعرب كانتا لبلغائهم دونه ولم يَشُكّ أحد بل تواترت الأخبار أنه ﷺ كان أفصح العرب [2]".

ثم قــال الجرجاني بأنه على القول بالصرفة يكون مرجع الإكبار والعجب إلى المنع الذي فيه الآية والبرهان لا إلى الممنوع منه وهو القرآن.

وحسب الجرجاني فضلا أن لا يقبل الصرفة وجها للإعجاز، ولكن كونه بنى أساسَ وقــوع القول بالصرفة على ظن أفضى به إلى فرض لم يكن، فإن العرب علموا أن لنظم القــرآن فضلاً على كلامهم الذي يسمع منهم، ومعلوم أنه قد حاول بعضهم، ولكن باء بالخيبة والخذلان، وظلت المحاولات في القرون التالية كما قيل عن ابن الراوندي وعبد الله ابن المقفع والمعري وغيرهم.

وما مَنْعُهُمْ عن مماثلة القرآن بمانع لهم من كلامهم الخاصُ البليغ، ولا من عِلْم فضل القرآن على كلامهم، فليس على هذا الأساس – يقينا بنى القول بالصرفة، فإن النفوس لا يعلم محتواها إلا الله.

---

(١) ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ......﴾ الآية، الإسراء آية ٨٨.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – الرسالة الشافية ص ١٢٦ إلى ص ١٤٨ بتصرف.

٣- والذاهبون إلى أن إعجازه من جهة البلاغة في القول الذي اختص به القرآن وهم الأكثر من علماء النظر، يعلل منهم الخطابي هذا الوجه بقوله " وقد استقرينا أوصافه (١) الخارجة عنه، وأسبابه الثابتة منه، فلم نجد شيئا منها يثبت على النظر، أو يستقيم في القياس ويطرد في المعايير، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوبا من ذاته، ومستقصى من جهة نفسه، فدل النظرُ وشاهدُ العبرِ على أن السببَ له والعلةَ فيه أن أجناسَ الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها:

١- البليغ الرصين الجزل.

٢- ومنها الفصيح الغريب السهل.

٣- ومنها الجائز الطلق الرسل.

وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة.

فالقسم الأول أعلى الكلام وأرفَعُه، والقسم الثاني: أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه.

فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعه شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين. لأن العذوبة، نتاج السهولة، والجزالةَ والمتانة في الكلام تعالجان نوعًا من الوعورة.

فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن " (٢)

ثم يضيف الخطابي بعد ذلك بقليل مقوماتِ الكلام أو أركانَه بقوله:

وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به ورباط لهما

---

(١) (لعذوبة الكلام في حس السامع والهشاشة في نفسه، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب والتأثير في النفوس فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبهه كلام وتحصر الأقوال عن معارضته وتنقطع به الأطماع عنها، أمر لا بد له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحق هذا الوصف). ثلاث رسائل في الإعجاز بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٥، ٢٦.

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٦.

ناظم، فالقرآن ألفاظه أفصح وأجزل وأعذب الألفاظ، ومعانيه تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها، ولا ترى نظما أحسنَ تأليفا وأشدُّ تلاؤما وتشاكلا من نظمه.

ولا تجتمع هذه الفضائلُ الثلاثةُ في كلام واحد، بل على التفرق في أنواع الكلام، وجَمَعَهَا كلام واحد هو كلام الله [١].

والسيوطي في إتقانه [٢] يروي قولا للأصبهاني في تفسيره نصه " وبيان كون النظم معجــزا يتوقف على بيان نظم الكلام ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه فنقول: مراتب تأليف الكلام خمس:

الأولى: ضـــم الحـــروف المبـــسوطة بعضها إلى بعض لتُحصل الكلمات الثلاث: الاسم، والفعل، والحرف.

والثانية: تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض لتحصيل الجمل المفيدة. وهو النوع الذي يتداوله الناس جميعا في مخاطباتهم وقضاء حوائجهم. ويقال له المنثور من الكلام.

الثالــثة: ضم بعض ذلك إلى بعض ضما له مَبَادٍ ومقاطعُ، ومداخلُ ومخارجُ ويقال له: المنظوم

الرابعة: أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له المسجع.

الخامسة: أن يجعل له مع ذلك وزن ويقال له الشعر.

والمنظوم: إما محاورة ويقال له الخطابة وإما مكاتبة ويقال له الرسالة.

فأنــواع الكلام لا تخرج عن هذه الأقسام ولكلٍ مِنْ ذلك نظمٌ مخصوص والقرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شيء منها.

يدل على ذلك أنه لا يصح أن يقال له: رسالة، أو خطابة، أو شعر، أو سجع كما يصح أن يقال هو كلام ".

ولعـــل الخطـــابي قصد وصف الألفاظ وتعاطيها المعاني، والأصبهاني قسم الكلام وأنواعه، والاثنان لا يغني أحدهما عن الآخر.

والـــسكاكي في مفتاح العلوم يرى أن إعجاز القرآن يدرك، ولا يمكن وصفه، ولا يـــدرك تحـــصيله لغـــير ذوي الفطرة السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ بتصرف.

(٢) الإتقان ص ١٠١٠.

فيهما[١].

وعجائب القرآن في نظمه هي التي بعثت على التصنيف في علوم البلاغة بعد أن ذاق أصحاب الفطر السليمة جملا من حلاوة هذا الكتاب فقعدوا لعلوم نظم الكلام قوَاعِدَهُ، يضاف إليها كلَّ حين ما يُفَصِّلُ مجملها حتى صارت البلاغة بعلومها الثلاثة علما قائما بذاته على نحو ليس هذا مجال ذكره[٢].

هذا من حيث ما يتعلق باللفظ ومعناه القريب الدائر مع كل قارئ متدبر للقرآن الكريم. وفيه جميع آياتِ القرآن على سواء.

أما من حيث المعنى المستحدَث فهو الخاص بآيات معينة تمس وصفا لظاهرة علمية كدلائل على قدرة الله تعالى، أو تحتمل وصفا لظاهرة كونية.

ومثال الأولى: ما جاء في القرآن من آيات التقاء البحرين دون أن يبغي أحدهما على الآخر، وخروج اللؤلؤ والمرجان منهما، فهذا المعنى يدور في فهم كل قارئ للقرآن منذ نزوله وحتى قيام الساعة، وحين يقول الله في شأن البحرين ومن كلٍ تأكلون لحما طريا فإنه يقع عليها فهمان، فهم قريب: وهو أن الله يُظْهر مِنَّته على عباده إذ جعل لهم لحما طريا من البحرين، والفهم الأعمق: هو أن اللحم من المالح ليس ما لحابل اللحمان مع اختلاف بيئتهما بينهما وصف جامع هو عدم الملوحة فيهما.

ومثال الثانية: الآيات التي نقل معناها القريب بالتأويل إلى تفسيرات للظواهر الكونية مُوافِقة للنظريات العلمية التي درج الأخذ بها في تفسير هذه الظواهر.

والنوع الأخير يتوقف الأخذ به على تفهم النظريات خارج ألفاظ القرآن ثم يعمد أصحاب هذا الشأن إلى البحث في آيات القرآن عما يتفق وهذه النظريات من القرآن.

ومن هذا النوع حَمْلُ بعضِ الآيات على نبوءات قرآنية دون أن تصرح هذه الآيات بإخبار بغيب ماض أو مستقبل، ومبنى هذين النوعين التأويل المحتمل لبعض الآيات.

أما الإخبار عن الغيبيات مما انطوت عليه دون غيره الألفاظ فهذا يعد في حكم المعنى القريب للألفاظ.

وراح آخرون يبحثون علاقات الآيات والسور، حتى وجدوا تناسبا يجعل القرآن

---

(١) الإتقان ص ١٠١١، ومفتاح العلوم ص ٥١٢، ٥١٣.

(٢) في قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية د/ عبد العزيز عبد المعطي عرفة طبعة دار الكتب ط١ – ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ذكر المؤلف أن خفاء المشبه به في قوله تعالى ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ ﴾ الصافات ٦٥، كان سببا في تأليف كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة.

ذا وحدة موضوعية، والبعض قصد إلى اللفظ من حيث كونه لفظا مكررا كالذي بنيت عليه وجوه الإعجاز العددي للقرآن الكريم. سواء كان اللفظ مقابِلاً لآخر أو كان عدد الألفاظ مضاعفات لرقم معين. أو كان العدد لألفاظ آية أو جزء آية مقابِلاً لألفاظ آية أخرى أو جزئها أو الجزء الثاني للآية ذاتها.

هذا مجمل عناية المسلمين بوجوه الإعجاز من حيث ابتناء عنايتهم على الأسس التي سبقت الإشارة إليها مدفوعين إلى رعاية حق القرآن عليهم بالذود عن حماه من طغاة الفكر وغلاة المتعالمين الحمقى.

وسيأتي بيان مظاهرَ من هذه العناية على نحو آخر في الصفحات التالية، والله تعالى هو الملهم للصواب وهو ولي التوفيق.

أهمية علم الإعجاز والضرورة الداعية إليه

من بداهة القول أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم على رسوله ﷺ هداية للناس في شتى مناحي حياتهم إلى أقوم طريق وأهدى سبيل، وذلك مما ينبئ عنه حذف متعلق الهداية في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩)

بل إن هذا الهدف الأعظم هو أول ما يطالع القارئ لكتاب الله تعالى مفتتح المصحف في أول سورة منه بعد الفاتحة﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١، ٢)

ومن المعلوم أن الاهتداء بالقرآن فرع عن معرفة وفهم معانيه، وطريق ذلك علم التفسير، ذلك العلم الذي نبتت نابتته الأولى في عهد رسول الله ﷺ، عندما كان يسأله أصحابه رضوان الله عليهم عما يشكل عليهم فهمه من القرآن، فيجيبهم، وكذلك عندما كان ﷺ يعلمهم ابتداء ما يعلم أنهم في حاجة إلى تعلمه، ولا سبيل لهم إليه إلا ببيانه ﷺ، كانت تلك البذور الأولى، ثم نما علم التفسير، وتطور عبر قرون الإسلام، من الرواية إلى التدوين والتصنيف مما لا مجال لتفصيله هنا.

أقول: إن هدى القرآن، وهو مقصود نزوله إنما يكون بتفسيره، ومعرفة ما فيه من الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمحكم والمتشابه، والحلال والحرام وغير ذلك، ولذلك كان من تعريف العلماء لعلم التفسير ما قاله بدر الدين الزركشي: (هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها

ومفسرها.. وزاد فيها قوم فقالوا: علم حلالها وحرامها ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها) (١).

وحول هذا المعنى جاء تعريف الزرقاني رحمه الله تعالى لعلم التفسير في عبارة أجمل فـيها تفصيل الزركشي، مبينا الغرض النهائي لهذا العلم فقال: (والتفسير في الاصطلاح: علـم يـبحث فـيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية) (٢).

ولما كان الهدف النهائي من ذلك كله هو الاهتداء بالقرآن المترتب على فهم معانيه التي يتوصل إليها بتفسيره فإنا نستبيح لأنفسنا أن نقول في تعريف التفسير: (إنه علم يتوصل به إلى معرفة كيفية الانقياد لأمر الله تعالى فيما أنزله على رسوله ﷺ، وذلك أن ما سبق من التعريفات إنما يؤدى إلى نفس الغاية.

ولما كان القرآن قد أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين فإن القيام على تفسيره لا بدّ أن ينبني على معرفة باللغة العربية وخصائصها، ودلالات ألفاظها، وأوجه بلاغتها.

ولذلك يذهب الشيخ الطاهر بن عاشور إلى: (أن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغًا حدّ الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آية المفسَّرة، بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي، وخصائص بلاغته)

ثم نراه ينحي باللائمة على من لم يجعل ذلك في التفسير له غرضا، فيقول (فمن أعجب ما نراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير، فمن مقل مثل معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج، والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الأندلسي، ومن مكثر مثل الكشاف، ولا يعذر في الخلو عن ذلك إلا التفاسير التي نحت ناحية خاصة من معاني القرآن مثل أحكام القرآن، على أن بعض أهل الهمم العالية من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العلق النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب أحكام القرآن لإسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البغدادي، وكما نراه في مواضع من أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي.

(ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/١٦٣، ١٦٤.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/٣.

أصل كبير من أصول الإسلام، وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، وكونه المعجزة الباقية)(١).

وإذا كان كلام صاحب التحرير مبنيًا على رؤية التلازم بين معرفة علوم العربية وفهم معاني القرآن الذي يعيّن طريقًا للاهتداء به، فإن هذا الاهتداء فرع آخر بل ونتيجة لتلك الدراسة التي تؤكد على إعجاز القرآن، ذلك أنا نرى أن هناك ترابطًا لا ينفك بين النص المعجز والمعنى الشامل لسبل الهداية كلها، هذا الترابط يمكن وصفه إن صح التعبير-بأنه ترابط ما بين المقدمات والنتائج، فغرض الإعجاز مقدمة نتيجته الهداية، أو إن شئت فقل إن غرض الإعجاز أمر يسبق في التقرير غرض الهداية، لأن الناس إذا دعوا إلى العمل بمنهج ما فلا بد من قناعتهم بسلامة مصدر هذا المنهج حتى ينقادوا له عن طمأنينة، والإعجاز- في هذا المجال-قد أدى الغرض فأوفى، فبه عرف أن القرآن كلام رب الناس وخالقهم، والأعلم بما يصلح لهم ويُصلحهم، ناهيك عن إعجاز ما تضمنه القرآن في مجال الهداية كذلك من سمو تشريعه، وعلو دعوته.

وهذا وما سبق يؤكد على أن العناية بعلم (إعجاز القرآن) إجمالا وتفصيلا من أكثر الأمور ضرورة، وهو ما نبه إليه العلماء قديما وحديثا.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني رحمه الله تعالى. (ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عمادًا ونظامًا، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهانا، ولمعجزته ثبتا وحجة، لا سيما والجهل ممدود الرواق، شديد النفاق، مستول على الآفاق، والعلم إلى عفاء ودروس).

ثم يقول: (وقد كان يجوز ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه: من القول في الجزء، ودقيق الكلام في الأغراض، وكثير من بديع الإعراب، وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس والاشتغال به أوجب)(٢).

لقد منَّ الله تعالى على علماء الأمة بحفظ هذا العلم، فأولت إعجاز القرآن وبيانه للناس جل اهتمامها، وتتابعت في ذلك المصنفات - كما سيأتي بيانه- وظلت ترى- مع

(١) التحرير والتنوير: ١/١٠٢.
(٢) إعجاز القرآن للباقلاني: ٢٢، ٢٣.

ذلك- أن الكلام في إعجاز القرآن واجب لا يسع الأمة في مجملها تركه.

قال السيد محمد رشيد رضا في تقديمه لكتاب (إعجاز القرآن) لمصطفى صادق الرافعي:

(فالكلام في وجوه إعجاز القرآن واجب شرعًا، وهو من فروض الكفاية، وقد تكلم فيه المفسرون، وبلغاء الأدباء والمتأنقون) [١].

وما زال العلماء والأدباء من بعد رشيد رضا والرافعي يعنون بالقرآن الكريم من جهة إعجازه، وسيظلون على ذلك بعون الله تعالى خدمة لهذا الكتاب الكريم، الذي شرفنا الله تعالى بالانتساب إليه، ومنّ علينا بالاهتداء به: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٤)

مناط الإعجاز في القرآن الكريم

إجماع أهل العلم المعتد بإجماعهم، والذي ارتضته الأمة منهم منعقد على أن القرآن الكريم معجز بذاته، أي بلفظه الذي نزل به جبريل على رسول ﷺ، وهو ما يتعلق- من بين أوجه الإعجاز-بالناحية البلاغية ابتداءً، مع ما تضمنه القرآن من أوجه أخرى ترجع إلى ذاته لفظًا ومعنى، وهو ما سيأتي تفصيل له في ثنايا البحث إن شاء الله تعالى عند الكلام على تأصيل قضية الإعجاز تاريخيًا في كتابات العلماء قديمًا وحديثًا، وكذلك عند الكلام على هذه الأوجه تفصيلا فيما تمخضت عنه هذه المصنفات.

ولكن يحسن قبل- ذلك- حتى يصفو ذهن القارئ وعقله لتدبر ما يمكنه من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم-أن ننبه إلى دفع قول في مضمار الكلام على الإعجاز شاع في ساحة التناول لهذا الموضوع على الرغم من فقدانه لأي دليل معتبر يسنده من عقل صحيح، أو واقع تاريخي، بل تتظاهر الأدلة كلها ضده، مما يحكم ببطلانه.

وقد كان بالإمكان- بل وكنا نميل- أن نضرب عن ذكره صفحًا إلا أن تردد صداه في مصنفات الإعجاز قديما وحديثا وإن كان مقرونا ببيان بطلانه -جعلنا نرى أن الإشارة إليه مع رده ولو بإجمال أمر لازم، حتى لا يجيء البحث خلوا من ذلك فيقع في وهم القارئ ولو احتمالا أن هذا القول له حظ من القبول، وأعني بهذا القول ما شاع بين البعض من أن أساس الإعجاز في القرآن هو الصرفه، فما شأن القول بالصرفة هذا؟؟

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي: ٢٠.

القول بالصرفة يقوم أساسًا على اعتبار أن القرآن في ذاته، أي بلفظة وأسلوبه غير معجز، وأن عدم إتيان العرب بمثله ليس علته عدم قدرتهم على ذلك، فهم البلغاء الفصحاء، ولكن العلة في ذلك راجعة إلى أن الله تعالى قد صرفهم عن المحاولة، وسلب علمهم الذي كان يمكن به- في نظر القائل بذلك-أن يأتوا بمثل القرآن، فهم كانوا قادرين، لكنهم لم ينشطوا لهذا الأمر، أو لم تتوفر الدواعي لديهم للمعارضة ابتداءً.

وقد ورد هذا التفسير للقول بالصرفة في عبارات العلماء من قديم:

قال الخطابي: (وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدورًا عليها، إلا أن العائق من حيث كان أمرًا خارجًا عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات) [١].

أي أن الصرف أو المنع الذي سماه الخطابي عائقا لما كان أمرًا خارجًا عن العادة صار هو المعجز لا القرآن.

وقال الرماني: (وأما الصرفة، فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة. وما قاله الرماني قريب مما قاله الخطابي إلا أنه زاد فقال (وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول)[٢]. مما يشي بنوع قبول لهذا القول.

وقال الباقلاني رحمه الله: (فإن قيل: فلِمَ زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات ؟ وهلا قلتم: إنَّ مَن قــدر على هذه الوجوه البديعة، وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قــادرًا، وإنما يصرفه الله عنه ضربًا من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضربًا من المنع، أو يقــصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما، وإذا قــدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر السورة، فالجواب:...) [٣].

---

(١) "بيان إعجاز القرآن" ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٢٢.

(٢) "النكت في إعجاز القرآن" ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١١٠.

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني: ٥٥، ٥٦.

وظاهر مما قاله العلماء-على هذا الرأي -أن إعجاز القرآن لم ينشأ من أنه قد بلغ في بلاغته حد الإعجاز الذي لا تطيقه قدرة البشر، بل لصرف من وقع عليهم التحدي عن التوجه للمعارضة، وأن أسباب هذا الصرف ترجع إلى:

أ- انعدام الدواعي الباعثة على هذه المعارضة

ب- عدم النشاط والانبعاث إلى المعارضة، وبالتالي عدم تعلق الإرادة بها مع وجود الدواعي إليها.

جـ- تعطيل المواهب البيانية، وتعويق القدرة البلاغية، وسلب الأسباب العادية إلى المعارضة، وذلك على نحو مفاجئ عند المحاولة، رغم تعلق الإرادة بها، وتوجه الهمة إليها.

وظاهر كذلك مما سبق أن هذا القول بما بني عليه يسلب القرآن الكريم خاصة إعجازه الذاتية، وهو من الخطورة بالقدر الذي يترتب عليه فقد أهم دلائل صدق رسالة النبي ﷺ، ولذلك فإنه قول ساقط بذاته عند أدنى فكر وتأمل، ولا يحتاج في إبطاله إلى عناء، وسوف نشير بإيجاز إلى أوجه بطلانه تحقيقا لما أشرنا إليه من عدم الإطالة، وتوفيرًا للجهد وادخارًا له لبيان الأوجه المعتبرة عند العلماء في إعجاز القرآن.

وسنشير أولاً إلى ما يبطل تلك الأسباب التي ظهر من كلام العلماء أن الصرفة كانت من أجلها، ثم نعقب بذكر شواهد أخرى تدل على بطلان القول بالصرفة وسقوطه.

أما أول الأسباب التي ساقوها: وهو انعدام دواعي العرب إلى معارضة القرآن، وأنهم لو توفرت تلك الدواعي عندهم فلربما عارضوه، فيرده ما سجله تاريخ هؤلاء العرب مع القرآن، وما أثبته تواتر النقل من توفر تلك الدواعي التي من بينها أن القرآن تحداهم في أكثر من موضع منه بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور أو بسورة من مثله، وقطع بأنهم لن يفعلوا ذلك﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤) ولو تظاهر على ذلك الإنس والجن ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨)

كما أن القرآن قد أثار حميتهم- وهم مضرب المثل في الأنفة وإباء الضيم-بما شنه عليهم من حرب شعواء على معتقداتهم التي توارثوها، وسفه عقولهم، وعقول آبائهم، ونعى عليهم الشرك والجهل، وهم مع ذلك قوم صناعتهم البيان، وفخرهم في التنافس في

مـــيدان الكـــلام، فكـــيف مع سكوتهم على هذا الضيم الذي لو وجدوا سبيلا إلى دفعه لسلكوه مسرعين، كيف يقال بعدم توفر الدواعي لديهم.

أما ثاني هذه الأسباب: وهو عدم انبعاثهم ونشاطهم، وعدم تعلق إرادتهم بالمعارضة مع وجود الدواعي فينقضه كذلك التاريخ والواقع، فقد سجل هذا التاريخ محاولاتهم الدؤوبة في الكيد للإسلام، حتى وصل الأمر إلى تآمرهم على قتل رسول ﷺ، وتبع ذلك ما كان بعد الهجرة وإقامة دولة الإسلام في المدينة من خوضهم الحروب ضد الإسلام، وإقدامهم على بذل أموالهم وإراقة دمائهم، وسبي ذراريهم في هذه السبيل، فكيف يقال بعد ذلك إنهم لم ينشطوا إلى المعارضة، وقد بذلوا في بديلها أضعاف أضعاف ما كانوا يبذلونه فيها من جهد لو كانت في مقدورهم.

وأمـــا ثالـــث هذه الأسباب: وهو تعطيل مواهبهم وسلب قدراتهم فجأة مع توفر الدواعـــي، وانـــبعاث النـــشاط فيرده أنه: لو كان الأمر كذلك لأثر عنهم الاعتذار بهذا التفاوت العلمي بين ما في القرآن وبين ما عندهم، وذلك ليقللوا من شأن القرآن في ذاته، وأنه ما كان إعجازه إلا لصرفهم عنه، ولكن ذلك لم يذكر عنهم أبدًا.

فإذا أضفنا إلى ذلك:

١- أن القـــرآن الكـــريم بلفظـــه وعبارته قد راع العرب بتفوق بيانه، وأثار أسلوبه وعـــبارته إعجـــابهم، وأعلنوا أنهم ما رأوا مثله شعرًا ولا نثرًا، ومقتضى ذلك أن إعجاز القرآن لذاته لا لشيء خارج عنه، وإلا لو كان كلامًا كسائر الكلام ما لفت أنظارهم، ولا أخذ بألبابهم.

قال عبد القاهر الجرجاني:

(إنـــه لـــو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن وعن أن يأتوا بمثله لأنه معجز في نفـــسه، لكن لأن أدخل عليهم العجز عنه، وصرفت هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله، وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعلمه، وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له لكان ينبغي أن لا يتعاظمهم، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمـــره، وتعجبهم منه، وعلى أنه قد بهرهم، وعظم كل العظم عندهم، بل كان ينبغي أن يكون الإكبار منهم والتعجب للذى دخل عليهم من العجز)[١].

٢- لو كان القول بالصرفة صحيحا لما كان القرآن معجزًا، قال الشيخ محمد أبو

(١) دلائل الإعجاز: ٣٩٠، ٣٩١.

زهرة رحمه الله تعالى: (لو قلنا إن الذي منع العرب عن الإتيان بمثله هو الصرفة ما كان القرآن هو المعجز، وإنما يكون العجز منهم، ولم يكونوا عاجزين، وإنما يكون قد أعجزهم الله، ولم يعجزهم القرآن ذاته، وقد كان القرآن هو معجزة النبي ﷺ، والقول بالصرفة ينفي عنه خواص الإعجاز)[١].

٣- ثم إن القول بالصرفة يرده قول الله تعالى:﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

قال السيوطي رحمه الله تعالى بعد ذكره الآية الكريمة (فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة إعجاز! بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله)[٢].

هذا هو القول بالصرفة قد بيناه، وبينا ما يترتب عليه، كما بينا بطلانه! أما عن نشأته فبإيجاز نقول: قد شاعت في كتابات المؤلفين نسبة هذا القول بعامة إلى المعتزلة، وأن أول من جاهر به منهم هو أبو إسحاق إبراهيم بن يسار الشهير بالنظام (ت سنة ٢٢٤هـ) فقد ذهب إلى أن القرآن حق، ولكن تأليفه ونظمه ليس بحجة، لكن من الإنصاف أن نبين أن هذا الكلام عنه يعبر عن شطر رأيه في قضية الإعجاز، وأما الشطر الأخر فعنده أن إعجاز القرآن راجع إلى ما فيه من الإخبار بالمغيبات.

قال الشهرستاني يعدد المسائل التي انفرد بها النظام عن أصحابه (التاسعة: قوله في إعجاز القرآن إنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب من الاهتمام به جبرًا وتعجيزا، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما)[٣].

هذه المقولة للنظام وإن لم يكتب لها حظ من القبول عند جماهير العلماء، بل كانوا على خلافها، وعملوا جهدهم في ردها، إلا أنها أثرت عن البعض في فترات لاحقة مختلفة،

---

(١) المعجزة الكبرى: ٦١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٢/١٠٠٦.

(٣) الملل والنحل: ١/٥٦، ٥٧.

فقد نسبت كذلك إلى الشريف المرتضى الذي عاش في القرن الرابع الهجري، والذي فسر الصرفة بأن الله سلب العرب العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيؤوا بمثل القرآن، يذكر ذلك الرافعي عنه ثم يقول (فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب، ولا يستطيعون ماوراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في زمنهم، وهذا رأي بين الخلط) (١).

وممن حكى عنه القول بالصرفة كذلك ابن حزم الظاهري (ت سنة ٤٥٦هـ) الذي قال في سبب الإعجاز (لم يقل أحد إن كلام غير الله تعالى معجز، لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلامًا له أصاره معجزًا ومنع من مماثلته) (٢).

وقد رأينا فيما سبق كيف حمل العلماء على هذا القول وفنّدوه كالباقلاني وعبد القاهر وغيرهم، ومع هذا فقد تردد صدى هذا القول فيما بعد، وترك آثاره في فكر بعض المفسرين- من المتكلمين- عن الإعجاز كأبي عبد الله فخر الدين الرازى (ت سنة٦٠٤ هـ) الذي قال في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨) ما نصه: (اعلم أنا في سورة البقرة في تفسيره قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ بالغنا في بيان إعجاز القرآن، وللناس فيه قولان: منهم من قال: القرآن معجز في نفسه، ومنهم من قال: إنه ليس في نفسه معجزًا إلا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الإتيان بمعارضته مع أن تلك الدواعي كانت قوية كانت هذه الصرفة معجزة، والمختار عندنا في هذا الباب أن نقول: القرآن في نفسه إما أن يكون معجزًا أو لا يكون، فإن كان معجزًا فقد حصل المطلوب، وإن لم يكن معجزا بل كانوا قادرين على الإتيان بمعارضته، وكانت الدواعي متوفرة على الإتيان بهذه المعارضة، وما كان لهم عنها صارف ومانع، وعلى هذا التقدير كان الإتيان بمعارضته واجبًا لازمًا، فعدم الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضًا للعادة فيكون معجزًا، فهذا هو الطريق الذي نختاره في هذا الباب) (٣).

وهو كلام من الرازي فيه من التردد في الحكم ما يفتح الباب ولا يغلقه أمام جواز

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي: ١٤٤.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١٩/٣.

(٣) مفاتيح الغيب: مجلد ١ جـ٢١ ص٥٥.

القول بالصرفة، بل لعله إليه أقرب وهو أسلوب غير مرضيّ في مثل هذه القضايا الحاسمة.

ومهما يكن من أمر فإن القول بالصرفة وإن أنكرناه ورفضناه بشدة إلا أنه أمر واقع في مصنفات من كتبوا في الإعجاز مثل الخطابي والرماني كما أسلفنا، وكذلك من جاء بعدهم سواء كان ذلك منهم تأييدًا أو رفضا، لكننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الأسى على استدعائه كل هذا الجهد حوله مما كان يمكن أن يتوفر لغيره من الدراسات القرآنية النافعة، ونحن بهذا مع الرافعي رحمه الله فيما لفت النظر إليه عندما قال:

(على أن القول بالصرفة هو المذهب الفاشي من لدن قال به النظام-يصوبه فيه قوم ويشايعه عليه آخرون، ولولا احتجاج هذا البليغ لصحته، وقيامه عليه، وتقلده أمره، لكان لـنا اليوم كتب ممتعة في بلاغة القرآن وأسلوبه، وإعجازه اللغوى، وما إلى ذلك، ولكن القوم-عفا الله عنهم- أخرجوا أنفسهم من ذلك كله، وكفوها مؤنته بكلمة واحدة تعلقوا عليها، فكانوا فيها جميعا كقول الشاعر الظريف الذي يقول:

كأنـنا والمـاء مـن حولـنا   قـوم جلـوس حـولهم مـاء[1]

وهذا الذي ذكره الرافعي إنما يعبر عن حرص شديد على نفي الشوائب عن موضوع أوجه إعجاز القرآن الكريم وتوفير كل الجهد لدراستها بما يبرزها للأجيال المتعاقبة واضحة جلية، وإلا فإن القول بالصرفة في ذاته بما يحمله من دلائل بطلانه قد كان سببا في استنهاض همم العلماء للكتابة في إعجاز القرآن، وهذا ما سنعرض لبيانه في القضية التالية.

المبحث الثالث: قضية الإعجاز: تأصيل تاريخي وأقوال في أوجه هذا الإعجاز

شهد القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين مقولة النظام (ت سنة ٢٢٤هـ) بالقول بالصرفة في إعجاز القرآن-كما سبق بيانه- وما إن شاعت تلك المقولة حتى استنفرت أمة القرآن بعقول العلماء لردها، وبيان بطلانها كما أوضحنا من قبل، وكذلك لإبراز أوجه إعجاز القرآن الكريم المتعددة.

فنهض أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت سنة٢٥٥هـ) في القرن الثالث الهجري لهذا الأمر، فصنف كتابا سماه: (نظم القرآن) وهو كتاب غير موجود، وإنما تشير إليه المراجع الأخرى من كتب الجاحظ نفسه، أو من كتب غيره.

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي: ١٤٦.

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: (في القرن الثالث ظهرت كتب في الإعجاز تحمل في الغالب عنوان- نظم القرآن- وللجاحظ كتاب بهذا الاسم لم يصل إلينا وإن كان الجاحظ أشار إليه في كتابه "الحجج") [١].

وقديما قبل ذلك أشار الباقلاني رحمه الله تعالى إلى هذا الكتاب وإن لم يورده في موضع الثناء، إذ رأى أنه لم يأت فيه بجديد يعول عليه، قال: (وقد صنف الجاحظ في "نظم القرآن" كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى) [٢].

وقد اختلفت الأنظار في حقيقة رأي الجاحظ في إعجاز القرآن، فالبعض يرى أن تلمذته للنظام أثرت في مذهبه في الإعجاز، وأنه تابع شيخه في القول بالصرفة وإن لم يصرح بذلك.

قال د. أحمد جمال العمري: (وجاء الجاحظ وعملا بمبدأ الالتزام الأدبي النقلي تابع أستاذه النظام، وإن كان لم يذكر ذلك صراحة في بادئ الأمر، ولكنه تحفظ نوعا ولعل تحفظه أن يصرح علانية بموافقته على رأي النظام كان نتيجة لردود الفعل التي أحدثها رأي النظام في المجتمع الإسلامي خاصة عند جماعة السلف، فلم يرد الجاحظ أن يكون هو الآخر هدفًا لهذا التيار الجارف الذي تعرض له أستاذه.. لذلك نراه يدور حوله أول الأمر، لكنه لا يعلنه صراحة) [٣].

بينما يرى الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله غير ذلك فيقول: (وإن أول ما كتب في إعجاز القرآن من ناحية البيان كان في الوقت الذي جاء فيه القول بالصرفة بين نفي وإثبات كما أشرنا، وأول من عرف أنه تصدى للكلام في الإعجاز في نظم القرآن هو الجاحظ تلميذ النظام، الذي أنكر عليه قوله، وعابه في منهاجه الفكري من أنه يظن الظن، ثم يجعله أصلا يجري عليه القياس مصححا لقياسه بالمنطق، والعيب في أصل القول الذي بنى عليه، لا في الأقيسة التي أجرى بها مشابهاته) [٤].

وعلى كلٍ، فإنه حتى لوصح كلام القائلين بإضمار الجاحظ للقول بالصرفة وميله

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن: ١٩.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني: ٢٤.

(٣) مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس عشر الهجري: ٤٩.

(٤) المعجزة الكبرى: ٦٢، ٦٣.

إليه فإن ذلك لا يغض من كونه أول من نهض لإبراز الإعجاز القرآني في نظمه [١] وعرض بلاغة القرآن في آياته، في الإيجاز والحذف والزوائد والفصول والاستعارات، وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة إلى آخره، وقوله عن القرآن بصفة عامة: وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق: نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به) [٢].

وفي أواخـــر القرن الثالث الهجري وضع أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت ســـنة ٣٠٦هـــــ) كـــتابا سماه (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه) وهو يعد بناء على ما ابـــتدأه الجـــاحظ، وإلى كـــتاب الواسطي هذا ينسب الرافعي السبق في بسط القول في الإعجـــاز، فـــيقول، (بـــيد أن أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف إنما هو فيما نعلم كتاب "إعجاز القرآن" لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي) [٣].

ثم جاء القرن الرابع الهجري، وفيه ألف أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت سنة ٣٨٦هـــ) كتابا صغيرًا سماه: (النكت في إعجاز القرآن) وقد جاء في شكل جواب عن سؤال وُجِّه للرماني عن ذكر نكت إعجاز القرآن دون التطويل والحجاج، فلخص جوانب الإعجاز في وجوه سبعة: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسة بكل معجزة، لكنه يوجه الاهتمام من بينها إلى البلاغة، فيبين أنها على ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، وما هو في أدنى طبقة، وما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، وبعد أن يشرح كل واحدة يجعل البلاغة في عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبية، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان، ثم يفسرها بابًا بابًا، مستشهدًا لها بالقرآن، ثم يتكلم بإيجاز في آخر الرسالة على بقية أوجه الإعجاز الستة التي سبق له ذكرها [٤].

وفي القرن نفسه كتب أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت سنة

---

(١) يراجع في ذلك: إعجاز القرآن للرافعي: ١٥١.

(٢) الحيوان: ٤/٨٥.

(٣) إعجاز القرآن: ١٥٢.

(٤) ينظر شواهد ذلك في رسالة (النكت في إعجاز القرآن) للرماني ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن في سلسلة ذخائر العرب، طبع دار المعارف ص ٧٥ وما بعدها.

٣٨٨هـ) الذي عاصر الرماني (بيان إعجاز القرآن) وفيه أشار إلى أن الناس قد أكثروا الكلام في باب إعجاز القرآن قديمًا وحديثًا، وذهبوا فيه كل مذهب، ولم يصدروا عن رأي، وناقش القول بالصرفة، وتعرض لما تضمنه القرآن من الإخبار عن غيوب المستقبل، وعَدَّه نوعًا من أنواع إعجازه، ولكنه لم يرتضه سرًا للإعجاز وأساسًا يعول عليه حيث إنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، ثم انتقل إلى موضوع البلاغة وأن إعجاز القرآن من جهتها، وأن أكثر العلماء على ذلك، ولكنه عاب عليهم في تسليمهم هذه الصفة للقرآن نوعًا من التقليد، وضربًا من غلبة الظن دون التحقيق، وبدأ معالجة ذلك على طريقته هو، فذكر أقسام الكلام المحمود وهي: البليغ الرصين الجزل، والفصيح القريب السهل، والجائز الطلق الرَّسل، وأن القسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والثاني أوسطه وأقصده، الثالث أدناه وأقربه، وأن القرآن قد حازت بلاغته من كل قسم من هذه الأقسام حصة، كما بين أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني من: توحيد، وتحليل وتحريم، وأن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، وفي النهاية لفت النظر إلى وجه في الإعجاز ذهب عنه الناس - على حسب قوله- وهو صنيع القرآن بالقلوب وتأثيره القوي في النفوس (١). وهو ما يمكن أن نسميه بالإعجاز النفسي.

وجاء بعد ذلك واحد من أشهر من كتبوا في إعجاز القرآن وانتشرت كتبهم، وهو الإمام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت سنة ٤٠٣هـ) فألف كتابه (إعجاز القرآن) الذي قال في سبب تأليفه (وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة: تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال، وتنتهي إلى ما يخطرلهم، ويعرض لأفهامهم، فأجبناه إلى ذلك متقربين إلى الله عز وجل، ومتوكلين عليه، وعلى حسن توفيقه ومعونته).

وقد ذكر في الفصل الثالث (٢). من هذا الكتاب جملة من وجوه الإعجاز متمثلة في: الإخبار عن الغيوب المستقبلة، وقصص الأولين، وبديع نظم القرآن، وعجيب تأليفه، وما فيه من الشريعة والأحكام التي يتعذر على البشر مثلها.

---

(١) ينظر في شواهد ذلك رسالة (بيان إعجاز القرآن) للخطابي ضمن المصدر السابق: ص ٢١ وما بعدها.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني: ٢٤، ٢٥.

وفي الفصل الرابع [١]. يشرح عددا من هذه الوجوه، وهو في كل ذلك يذكر شواهد القرآن التي تؤيد كلامه وفي أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري أفرد القاضي عبد الجبار أحمد بن خليل بن عبد الله (ت سنة٤١٥هـ) من كتابه "المغني في أبواب التوحيد والعدل" البالغ عشرين جزءًا واحدًا من هذه الأجزاء لإعجاز القرآن وهو الجزء السادس عشر.

يقول الدكتور/ عبد الفتاح لاشين: (وهو في هذا الجزء لايلقى الإعجاز لقاءً مباشرا، بـل يقدم له بمباحث كثيرة تستنفد الجزء الأكبر من هذا الكتاب، فهو يقرر أولا صحة القرآن وتواتر نقله، والدواعي التي تقوم لهذا التواتر وتتضافر على الاحتفاظ به كاملا بعيدًا من أي تحريف أو تبديل.. ثم يتعرض للإعجاز، وينصب موازين البلاغة ليقيم بها الكلام البليغ) [٢].

كما أفرد أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (ت سنة ٤٥٦هـ) لإعجاز القرآن فصلا من الجزء الثالث من كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) تحدث فيه عن عدد من وجوه الإعجاز باختصار، وهو ممن نسب إليهم القول بالصرفة كما مر.

وفي القرن الخامس كذلك ألف الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت سنة ٤٧١هـ) كتابه (دلائل الإعجاز) الذي كشف فيه عن وجوه إعجاز القرآن كما رآها، وأنها في بلاغته وفصاحته، وردَّ فيه على المعتزلة قولهم بالصرفة، وقد صرح بما يراه في إعجاز القرآن من أول الأمر، فقال (أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها) [٣].

كما كتب رسالة عنوانها (الرسالة الشافية في إعجاز القرآن) [٤]. وفيها تناول بعض نواح من فكرة الإعجاز ركز فيها على موقف العرب المعاصرين لنزول القرآن من أمثال الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة وغيرهما ممن أقروا راغمين أن القرآن ليس من كلام البشر.

---

(١) نفس المصدر: ٨٤ وما بعدها.

(٢) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار، وأثره في الدراسات البلاغية: ٤٦٦.

(٣) دلائل الإعجاز: ٣٩.

(٤) وهي الرسالة الثالثة من: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن التي سبق التنويه بها كما أنها مطبوعة في ذيل كتاب (دلائل الإعجاز) طبع دار المدني، ط ثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٢.

وفي القـــرن الـــسادس خــصص القاضـــي عـــياض بن موسى الحصبي (ت سنة ٥٤٤هــــ) فصلا في الجزء الأول من كتابه: (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) لإعجاز القـــرآن بـــدأه بقـــوله: (اعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجـــاز كـــثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه: أولها حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب) (١).

ثم عرض لبقية وجوه الإعجاز فعّد منها: صورة نظمة العجيب وأسلوبه الغريب، وما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما أنبأ به من أخبار القرون السابقة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة إلى أن قال هذه الوجوه الأربعة بينة لانزاع فيها ولامرية) (٢). ثم عرض بعد ذلك لوجوه أخرى إجمالا فقال (وقد عدّ جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوها كثيرة منها: أن قارئه لايمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبه، ولايزال غضا طريا، وغيره من الكلام ولَو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يمل مع الترديد، ويُعادى إذا أعيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات) (٣).

ثم توالت المؤلفات في الإعجاز عبر القرون التالية، فكتب الإمام فخر الدين الرازي (ت سنة ٦٠٤هــ) كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) وكتب أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن على السكاكي (ت سنة٦٢٦هــ) كتابه (مفتاح العلوم) وقد بحث فيه قضية الإعجاز، فبدأ عرض هذه القضية بالتسليم بأن إعجاز القرآن من جهة نظمه وبلاغته أمر لا نقاش فيه ولا جدال عليه، إلا أنه يلزم لإدراك ذلك- وهو لا يدرك إلا بالتذوق-ما يلزم من تربية حاسة الذوق التي تكشف عن أسرار القرآن وإدراك بلاغته وأساليبه، وذلك بتدريب المبتدئين، والأخذ بأيديهم ووضعها على مفاتيح العلوم التي تربى فيهم ذلك الذوق(٤).

وفي القـــرن السابع كذلك كتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت سنة٦٧١هــ) فصلا في مقدمة تفسيره: (الجامع لأحكام القرآن) ذكر فيه نكتا في إعجاز

---

(١) الشفاء: ١/٢١٧.

(٢) نفس المصدر: ١/٢٢٩.

(٣) نفس المصدر: ١/٢٣٢.

(٤) يراجع في ذلك: إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي للدكتور فوزي عبد ربه: ٩٠.

القــرآن ووجوه ذلك الإعجاز عدّد فيها تلك الوجوه، وجعلها في عشرة: النظم البديع، والأســلوب المخالــف لجميع أساليب العرب، والجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، والتصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي، والإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنـيا إلى وقت نزوله، من أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، والإخبار عن المغيبات في المستقبل إلى آخر ما عده من ذلك (١).

وفي القرن الثامن ألف بدر الدين الزركشي (سنة ٧٩٤هـ) كتابه (البرهان في علوم القرآن) وضمّن مباحثه نوعًا في معرفه إعجاز القرآن الكريم، قال فيه بعد استعراض بعض المصنفات في الإعجاز، وبعد استعراضه آيات التحدي بالقرآن: (وإعجاز القرآن ذكر من وجهين: أحدهما إعجاز متعلق بنفسه، والثاني بصرف الناس عن معارضته) ثم رد القول بالصرفة من وجوه، وبعدها ذكر أوجها للإعجاز من بينها: تأليف القرآن ونظمه الخاص به، وكذلك ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، وما تضمنه من إخباره عن قصص الأولين، وإخباره عن الضمائر- أي السرائر- من غير أن يبدو من أصحابها ما أكنته ضمائرهم من قول أو فعل، مثل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ..﴾ (المجادلة: ٨) إلى آخر تلك الأوجه (٢).

وفي القرن التاسع سلك برهان الدين بن عمر البقاعي (ت سنة ٨٨٥هـ) طريقة التطبيق في إظهاره لإعجاز القرآن، فألف كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) جمع فيه من أسرار القرآن، وأتقن الكلام في فن المناسبات بين الآيات والسور كما ينبئ عنه اسم الكتاب، وهو من باب إعجاز القرآن في حسن تأليفه وتفرده في ذلك.

ثم كان القرن العاشر الذي شهد فارسًا من فرسان هذا الباب، وعلما من أعلام الإسلام، وهو الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت سنة ٩١١هـ) الذي ألف سفره القيم (الإتقان في علوم القرآن) وضمنه ثمانين نوعا من مباحث علوم القرآن، خصص النوع الرابع والستين منها للكلام في إعجاز القرآن، فقدم بين يدي الكلام في ذلك بذكر بعض من أفرد الموضوع بالتصنيف من أعلام العلماء الذين مضى

(١) يراجع ذلك في مقدمة تفسير القرطبي: ٧٣/١ وما بعدها طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١٠١/٢ وما بعدها.

ذكر كثير منهم، مثل: الخطابي والرماني والباقلاني والرازي وغيرهم، ثم تكلم على أنواع المعجزات، والفرق بين معجزات السابقين من الأنبياء ومعجزة النبي ﷺ وهي القرآن، ثم عرض آيات التحدي، وردّ القول بالصرفة، ثم ذكر أقوال العلماء في وجه إعجازه، فلخص ماقاله السابقون في ذلك، ثم ختم بنقل ما أورده القاضي عياض في أوجه الإعجاز الأربعة، وما تلاها من أوجه ذكرناها عند الكلام عما تضمنه كتاب (الشفا) في موضعه.

وفي القرن الثالث عشر ألف العلامة شهاب الدين الألوسي (ت سنة ١٢٧٠هـ) تفسيره الموسوعي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) وعلى عادة كثير من المفسرين قدم بمقدمات قيمة ضمنها فوائد جليلة، جعل الفائدة السابعة منها في بيان وجه إعجاز القرآن، تكلم فيها على أوجه الإعجاز عند كثير من العلماء، ولم يرتض الكثير من أقوالهم خاصة ما قاله المعتزلة، وما قاله الجاحظ، وكذلك المرتضى من الشيعة، وردّ أكثر هذه الأقوال، وناقش أقوالاً أخرى، حتى انتهى إلى أن قال: (وقد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن، وأتوا بوجوه شتى الكثير منها خواصه وفضائله، مثل الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، وأنه لا يمله تاليه، بل يزداد حبًا له بالترديد، مع أن الكلام يعادى إذا أعيد [(١)]. وكونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه، والذي يخطر بقلب هذا الفقير: أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته، وإخباره عن الغيب، وموافقته لقضية العقل، ودقيق المعنى، وقد تظهر كلها في آية، وقد يستتر البعض كالإخبار عن الغيب، ولا ضير ولا عيب، فما يفي كافٍ، وفي الغرض وافٍ) [(٢)].

وفي القرن الرابع عشر تصدى مصطفى صادق الرافعي (ت سنة ١٣٥٦ هـ) لقضية الإعجاز بكتاب قيم هو:

(إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) تكلم فيه على معنى الإعجاز ومذاهب القدماء فيه، ومؤلفاتهم في فنه، ثم تكلم على حقيقة الإعجاز، واشتدت وطأته على القائلين بالصرفة، كما نقد كثيرًا من العلماء الذين ألفوا في الإعجاز مثل المرتضى من الشيعة وغيره.

ففي أول كلامه يحدد مفهومه للإعجاز فيقول:

(وإنمـــا الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على

---

(١) يشير بذلك إلى ما قاله القاضي عياض في "الشفا" مما ذكرناه قبل قليل.

(٢) روح المعاني: ٣١/١.

شـــدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت) (١).

أما وجه الإعجاز الذي يرتضيه فيبينه بقوله:

(أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن وما حققناه بعد البحث، وانتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر، وإنضاج الروية، وما استخرجناه من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه، واطراد أسلوبه، ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقابلة، واكتناه الروح التاريخية في أوضاع الإنسان، وآثاره وما نتج لنا من تتبع كلام البلغاء في الأغراض التي يقصد إليها، والجهات التي يعمل عليها، وفي رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوي، التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة التأليف، وإحكام الوضع، وجمال التصوير، وشدة الملاءمة).

ثم يقول:

(فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب ومعجز في أثره الإنساني، ومعجز كذلك في حقائقه) (٢).

ومن بعد الرافعي كتب الكثيرون في إعجاز القرآن، مثل: الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في مبحث من مؤلفه (مناهل العرفان في علوم القرآن) والشيخ محمد عبد الله دراز في (النبأ العظيم) والشيخ بديع الزمان النورسي:

(إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) من (كليات رسائل النور) والشيخ محمد أبو زهرة في (المعجزة الكبرى) والدكتورة عائشة عبد الرحمن في (الإعجاز البياني للقرآن) إلى جانب العشرات من الرسائل العلمية الجامعية التي تتناول إعجاز القرآن في جوانبه المختلفة.

وهكذا نجد أنه لم يخل عصر من العصور عبر القرون الإسلامية المباركة سواء في فترات النشاط أو الفتور العلمي من تناول إعجاز القرآن بالتأليف تقعيدًا أو تطبيقًا، مما ينطق بأن هذا المدد العلمي المتتابع إنما هو في ذاته أثر من آثار إعجاز القرآن الكريم.

مظاهر العناية بوجوه الإعجاز:

قـــد سبقت الإشارة إلى السبب الذي اقتضى توجه العلماء نحو البحث في وجوه إعجـــاز القرآن الكريم، وما كان اهتمامهم إلا بمنزلة الرد على هذه الآراء السخيفة التي

(١) إعجاز القرآن للرافعي: ١٣٩.

(٢) نفس المصدر: ١٥٦.

تطعن في القرآن، فالقول بالصرفة لولاه لكان لنا اليوم كتب ممتعة في بلاغة القرآن وإعجازه اللغوي وما إلى ذلك [١] فوق ما هي عليه الآن، ولكنها إن كانت قد أوهنت في هذا عَزْمًا فإنها أشعلت عزائم، سواء في الرد عليها، أو في بيان وجوه الإعجاز القرآني، وكان المخرج منها مدخلا لعلوم كثيرة من القرآن الكريم أهمها البلاغة، وما اكتفى، المسلمون بذلك بل كلما امتد الزمن برزت على سنيه ناطقاتٌ بوجوه إعجازٍ ما قِيلَتْ من قبل.

فكانت وجوه ذاتية، وأخرى علمية، بل من مظاهر عناية المسلمين من تعد مؤلفا تهم تأريخا لهذا الإعجاز.

لـــذا كانـــت مباحث هذا الفصل متناولة الرد على الوجوه المختلف فيها، ثم بيان وجوه الإعجاز الذاتي للقرآن وذلك على نحو كالآتي:

- الصرفة والرد على القائلين بها:

وجـــوه الإعجاز تختلف في قبولها اختلافا يقتضي تقسيمها إلى وجوه مختلف فيها، ووجوه مجمع عليها: ووجوه مشروط قبولها. وبيان الثالث في الفصل الرابع إن شاء الله.

والـــصرفة منذ قال بها أو جاهر بإعلانها النظام المعتزلي كما نسبت إليه، يصوبه في القول بها قوم ويعارضه آخرون، ويرى البعض لها وجها غير ما قاله النظام من أنها صرف الله للعرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها.

وممن شايعه في القول بالصرفة لكن على معنى آخر الشريف المرتضى من الشيعة[٢] (٤٣٦هـــ) الذي قال عنه الرافعي: إنه قال في معنى الصرفة "إن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيؤوا بمثل القرآن فكأنه يقول إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأساليب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من معاني، إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم "ورد الرافعي بقوله: "وهذا رأي بَيِّنُ الخلط".

نعم إنه خلط، إذ محاولة فهمه تصرفه عن معنى الصرفة التي سيق هو لبيانها.

وممن ذكر الصرفة الأصبهانيُ في تفسيره [٣] لكن ذكره على سبيل الحكاية ولذلك اشترَط الاعتبار بقوله: إذا اعتبر.

وابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـــ) الظاهري أحد القائلين بالصرفة في كتابه الفصل[٤]

---

(١) تاريخ آداب العرب جـــ٢ ص ١٤٦، إعجاز القرآن للرافعي.

(٢) تاريخ آداب العرب جـــ٢ ص ١٤٤، إعجاز القرآن للرافعي، وفكرة الإعجاز ص ٦٩.

(٣) الإتقان ص ١٠٠٩، ص ١٠١٠.

(٤) الفصل جـــ٣ ص ١٩.

مفسرا إياها بقوله: " لم يقل أحد من أهل الإسلام إن كلام غير الله تعالى معجز لكن لما قالـه الله تعـالى وجعله كلاما له أصاره معجزا، ومَنَع مِنْ مماثلته، وهذا برهانٌ كافٍ لا يحتاج إلى غيره والحمد لله"

وعقب الرافعي [١] بقوله: " بل هو فوق الكفاية وأكثر من أن يكون كافيا، لأنه لما قالـه ابـن حزم وجعله رَأْيًا لَهُ أصاره كافيا لا يحتاج إلى غيره..! وهل يراد من إثبات الإعجاز للقرآن إلا إثبات أنه كلام الله تعالى ".

والخطـابي بعد أن عد الصرفة مذهبَ قومٍ قال [٢]: " وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ﷺ ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمرًا خارجًـا عـن مجاري العادات ناقضا لها، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صـدق من جاء بها. وهذا أيضا وجه قريب. - أي القول بالصرفة - إلا أن دلالة الآية تـشهد بخلافه، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُـرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ (الإسراء: ٨٨) فأشار في ذلك إلى أمرٍ طريقُه التكلف والاجـتهاد وسـبيله التأهب والاحتشاد. والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم "

وترى الخطابي قد قرب وجه الصرفة بدءًا ثم أقصاه انتهاء، ثم انتهى إلى أن الوصف الذي حملوه على الصرفة لا يلائم الوصف الوارد في الآية من أنهم إن اجتمعوا واحتشدوا لا يأتـون بمـثله، لا إن افترقوا فدل على أن المراد من الآية غير ما ذهب إليه القائلون بالصرفة.

وعـد العـز بن عبد السلام الصرفة وجهين من وجوه الإعجاز [٣] فأوردها على معنـيين، أولهما: صرفهم عن القدرة على معارضته، وثانيهما: صرفهم عن معارضته مع قدرتهم عليها وحرصهم على إبطاله.

وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٢٩٦- ٣٨٦هـ) قال في كتابه النكت: بعد سـوق الـصرفة كأحد وجوه الإعجاز: وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول " وهو أن الصرف عن المعارضة خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ٢ ص ١٤٦.
(٢) ثلاث رسائل في الإعجاز ص ٢٢، ٢٣.
(٣) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ص ٢٧١.

دلت على النبوة ".

والقــول بالــصرفة يفسده ويدحضه قول الله تعالى " ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِـــنُّ﴾" (الإســراء: ٨٨). ولا يجْهِــزُ على وجهيه معا قوله تعالى حكاية عن أهل الفصاحة العربية أنهم قالوا: " ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾" (الأنفال: ٣١). فإنه دل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى [١] والإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزا بلا اتصاف بإعجاز؟

وإذا كانوا قد صرفوا أول زمان التحدي فهل يدوم هذا مع القرآن لدوام التحدي أو كان عند نزوله ؟ إن كان الأول، فقد أقدم البعض على قبول التحدي ولم تقم لكلامه قائمة إلا من حيث يذكر في الخاسرين المغلوبين، وإن كان زمان النزول فهو الآن خلو من الإعجاز، ومن الذي أتى بشيء من مثله فيما بعد العصر الأول ؟ لا أحد، والإجماع على عجز المعارضة له يشهد بأنه معجزة باقية.

ويقول القاضي أبو بكر الباقلاني [٢]: «لو كان الإعجاز بالصرفة لكان المعجز المنع لا القرآن فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه»

والرافعي يقول [٣] "وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه "﴿إِنْ هَــذَا إِلاَّ سِــحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (المدثر: ٢٤) وهذا زَعْمٌ ردَّه الله على أهله وأكذبهم فيه وجعــل القــولَ به ضَرْبًا من العمى ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الطور: ١٥) فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد".

ويقــول الجرجاني [٤]: " إن من حق المنع إذا جُعِلَ آية وبرهانا ولا سيما للنبوة أن يكــون في أظهر الأمور وأكثرها وجودًا وأسهلها على الناس وأخلقها بأن تَبِيَن لكل رَاءٍ وسامع أن قد كان مُنِع، لا أن يكون المنع من خفي لا يُعْرَف إلا بالنظر وإلا ببعد الفكر ومن هذا شيء لم يوجد قط، ولم يعهد، وإنما نظن ظنا أنه يجوز أن يكون وأنَّ له مدخلا في الإمكان إذا اجتهد المجتهد.

---

(١) الإتقان ص ١٠٠٦.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٤٧ والإتقان للسيوطي ص ١٠٠٦.

(٣) تاريخ آداب العرب جـــ٢ ص ١٤٦.

(٤) الرسالة الشافية ثلاث رسائل في الإعجاز ص ١٥٣، ١٥٤.

ولو كانوا قد تغيرت حالهم وتبدل عِيُّهم بالبلاغة والبيان لعلموا ذلك من أنفسهم، ولقابلوا التحدي بقولهم للنبي ﷺ كيف نُمنَع ثم يكون التحدي على حالنا ".

ولم يملك أحد معرفة كيف عجزوا، لكنهم عجزوا، وما عجزهم إلا عن ضعفهم عن بلوغ رتبة القرآن، وأين في كلامهم ما يؤيد ويؤكد أنهم كانوا في بلاغتهم على درجة تمكنهم من معارضة القرآن والإتيان بمثله قبل أن يصرفوا ؟

- بيان جملة وجوه الإعجاز الذاتي للقرآن:

من الممكن وضع وجوه الإعجاز تحت تقسيم يرجع في أصله إلى معطيات المعاني من الألفاظ. فإن الألفاظ - من حيث كونها حاملة للمعاني على الوصف الذي سبق ذكره آنفا - يطرد فيها الإعجازُ في جميع آيات القرآن الكريم بما تحمله من خصائصَ بيانية، وهذه النظرة اللغوية تنتظم القرآن في قطعة قطعة منه وفي سورة سورة، وفيما بين السور وبعض، وفي القرآن كله جملة [1].

والإعجاز اللغوي هو الذي وقع من جهته التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً أما من حيث الإعجاز العلمي - أي ما يعطيه من علوم - فهذا العطاء يتوقف على سلامة الفهوم، واستنارة الحلوم، وهذا ما يجعله مصلحا لكل زمان ومكان.

ومن حيث إعجازه الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي فهو ينسق بين طبائع البشر بما لا يجعل لقويها طغيانا على ضعيفها، إذ يخاطب في كل حال بمقتضاه خطابا يستوثق به الوصول إلى المخاطبين في كل حين وحال.

والإعجاز الذاتي هو الذي يستبق الفهمُ الصريح إلى نظمه، أما ما عدا ذلك فلا يطرد في جميع القرآن.

فإخباره بالغيبيات ماضيها ومستقبلها، تنطق به آيات دون آيات، ووجوه الإعجاز العلمي سواء ما كان منها طبيا أو كونيا كظواهرَ لها من النظريات تفسير تَبْرُز به معان مستجدة للقرآن الكريم يكون في آيات منه دون آيات، أما من حيث الإعجاز العددي فهو بلا شك يدخل في إطار الإعجاز الذاتي لأن الألفاظ من أول نزول القرآن إلى آخر يوم يُقرأ فيه هذا القرآن لم ولن يمسها نقص أو زيادة، مع أنه إعجاز غير مطرد في كل الآيات ولذلك تنقسم أوجه الإعجاز إلى ثوابت ومتغيرات، وهذه الثوابت تنقسم إلى: ثوابتَ مطردةٍ عامةٍ في كل الآيات والسور، وثوابتَ ينقدح وجودها في آيات دون آيات.

---

(١) النبأ العظيم ص ١٠٧.

أمـــا المتغيرات فهي كل ما يمس أصلاً من أصول النظريات العلمية التي تقحمت على الإنسان مداخل فكره، فراح يصوب منها بعضها بما يُلْهَم به من فكر فيستوضح بها معنى لآية أو آيات.

فالـــنص القرآني في نفسه من حيث هو كلام عربي، له وجه يتعلق به وهو اللغوي البـــياني، أو مـــا يسمى بالنظم، ووجه يتعلق بمفهوم النص القرآني ولو تأويلا من كل ما يـــستنبط مـــنه أصـــول أو مفاتيح للعلوم ويقصد بالمؤول ما يؤول إليه فهم النص بعد استدراكه من خارج القرآن الكريم وثبت أنه من الحقائق العلمية التي لا تنقض.

وهناك وجه يتعلق بالنص من حيث المبالغة في معناه لإيجاد التوافُقِ أو التوفيق بينه وبين سائر النظريات التفسيرية لبعض الظواهر في هذا الكون الفسيح، واختط الثلاثة سبيلاً واحدًا هو إقامة البرهان على أن هذا الكلام لم يقله بشر وإنما هو من عند الله.

والنوعان الأخيران برز أولهما أولَ ما بَرَزَ أولُ الثلاثة وامتد معه على سبيل واحدة، حتى رافقهما في الآونة الأخيرة النوع الثالث، ليعلن الثلاثة بقاء قيام التحدي مع البرهان لكل الخلق على صدق كلام الخالق حتى تقوم الساعة، وأنه ما ينبغي لبشر أن يقوله، ولعل هذا مفاد قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)

وتتلخص الخصائص التي تبرهن على أن القرآن من عند الله في أمور ثلاثة [١]:

أولاً: إعجاز القرآن.

ثانيًا: نبوءات القرآن.

ثالثًا: القرآن والكشوف الحديثة.

وهذا التقسيم يوافق قول ابن القيم " وقد عدد العلماء وجوها من الإعجاز غير ما ذكرناه الأولى أن تعد من خصائصه [٢].

وعلى هذا يترجح أن تكون الثوابت التي هي من لوازم النص القرآني في كل آياته وفي كل عصر، هي المعتبرة في وجه الإعجاز، وما عدا ذلك يعد من خصائص القرآن الكريم.

فمـــن حـــيث نبوءات القرآن لا نجد غير القرآن الكريم ما تحققت نبوءاته حرفا حـــرفا، والنبوءات لا شك تبدأ من القرآن أولاً، لا من الواقع ثم يصدق الواقع النبوءات

---

(١) الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان طـ دار البحوث العلمية ص ١٢٣، ١٢٧، ١٣٨.
(٢) الفوائد المشوق إلى علم القرآن وعلم البيان لابن القيم ص ٢٥٥.

فـيما بعـد، فمثلا في قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ " (القمر ٤٥) هذه نبوءة قبل وجود الجمع حتى قال بعضهم متعجبًا: أي جمع هذا، ثم تحقق الوعد للمسلمين والوعـيد للكافرين – واستبان للمتعجب أي جمع قصد إليه القرآن يوم وعدهم بالنصر، وكل الآيات التي أطلق عليها أنها آيات علمية والتي أبانت عن مضمونها اكتشافات علمية أو ظواهـر كونـية، إنما برز المعنى في خارج القرآن ثم استفيد من الخارج المعنى الذي أضفي منه على هذه الآيات، ولذلك يقول الله تعالى"﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾" ولذا لا تدخل هذه الآيات في إطار الإعجاز وإن دخلت في جملة البراهين على أن القرآن من عند الله.

المبحث الرابع: العناية ببيان وتمييز وجوه الإعجاز

- ما يعتبر من وجوه للإعجاز ويعول عليه:

يؤلـف تناول وجوه الإعجاز عبر القرون الإسلامية تكاملاً مباشرًا وغير مباشر في منظومة الدراسات القرآنية. ولذلك يكثر التشابه بين محتويات المؤلفات في هذا الخصوص خلا بعض ما يفارق منها المعهود بامتداد جديد إلى آفاق أرحب. والمحصلة الأخيرة هي القـصد المشترك بين الجميع إلى إخراج جملة من سرائر القرآن تقيم برهان صدق دعوى النبي الأمي ﷺ أنه أوحى إليه هذا القرآن

والخطابي يؤكد تعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، وأن ذلك الأمر – الإعجاز – أبين من احتياجه إلى دليل أكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر. من لدن نزوله على النبي ﷺ وإلى ما شاء الله.

يقـول سليمان الخطابي [١]: " قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديما وحديثا، وذهـبوا فـيه كل مذاهب من القول، وما وجدناهم بَعْدُ صدرُوا عن رِي، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته.

فأما أن يكون قد بقيت في النفوس بقية بكونه معجزا للخلق ممتنعا عليهم الإتيان بمثله على حال [٢] فلا موضع لها.

"والذي عليه الجمهور والحذاق وهو الصحيح في نفسه أن التحدي إنما وقع بنظمه

---

(١) بيان إعجاز القرآن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢١.

(٢) أي على وجه إعجاز معين.

وصــحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه. ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ (هود: ١٤) فوجه إعجازه أن الله أحاط بالكلام كله علما، فأي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى كانت كما وردت في القرآن الكريم.

فلو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسنُ منها لم يوجد ونحن تَبيَّنَ لنا البراعةُ في أكثره، ويخفى علينا وجهُها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام [١]".

ولقد كثر الأخذ والرد في الوقوف على وجه إعجازي محدد للقرآن في ذاته ككلام، وما استقر لأحد مَقَامًا حتى أقام فيه آخرُ اعتراضا أحاله دون مُقَامِه، وما استرد هذا لنفسه قولا حتى محاه ذاك الآخر، فصار البحث عن وجه الإعجاز هو بذاته وَجْهَ الإعجاز، إذ الحيرة في الثبات على حقيقة أمر، برهان العجز عن الوصول إلى هذه الحقيقة، فانكشف لذي العلوم الكونية بيان القدرة في إحكام النواميس الكونية والقوانين التي تسير وفقها الأغراض الخَلْقيَّة، فأخذ المسلمون، العلماءُ منهم بهذه المجالات - وجها لشبه الرؤية بمعنى آيات قرآنية استراحت له نفوسهم، واستهدت له قلوبهم، وراق رواؤه لظمأ اشتباه المعاني عليهم، فعرضوا ما اقتبسوه من نظرة العلماء في الكون على محتملات الألفاظ في آيات قرآنية، فنازعهم منه توافق بين المعنى القرآني والعلمِ الحديث، سواء كان على نحوِ مطيع ذلول، أو نحوه مُكْرَهٍ مسوق بالافتعال.

والناظر في كتب الإعجاز العلمي للقرآن لن يجد غير التكرار، اللهم إلا ما اشتمل عليه بعضها مما وقف عليه مؤلفوها من فائدة جديدة علموا بها فاستأثر ببدء إبدائها صاحبها فأفاد منها خَلَفه.

والآيات القرآنية التي تحوى جُمَلاً من الاحتمالات المعنوية لألفاظها هي التي تُوسِعُ المضمار للسائرين القادرين على اقتناص التوافق العلمي مع المعنى القرآني لبعض الآيات، أما ما كان محدَّد الفهم، محكم المعنى، فهي الآيات التي لا يخرج تفسيرها عن الحقائق العلمية، لذا كانت تلك الآيات منطلقا لفهم الحقائق الكونية على نحو ما وصف الحكيم الخبير في كلامه، ومن جملة ذلك قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ (النور: ٤٥). وقوله تعالى: ﴿لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية جـ١ ص ٥٢.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٤٩، ٥٠) فالله أنزل القرآن بعلمه الذي علم عن خلقه، قدير لا يأتي أحد بغير ما وصف، ولن يزيد أحد على ما خلق الله قسما خامسا فوق هذه القسمة لصور الهبة الإلهية، والآية الأولى كالثانية فيها تحد بالقدرة الإلهية، فالله خلق الدواب من ماء ولكن الإنسان يصنع الدواب - كوسائل المواصلات وغيرها الآن - من غير الماء، فهل من البشر من يقدر على الخلق من الماء ؟ أو أن يخص كل دابة بماء ؟

- وجوه الإعجاز:

لكي نتمكن من تمام المطابقة بين مفهوم الإعجاز ووجوه تحسب من الإعجاز، لا بدّ من استصحاب شرائط المعجزة مع تعريفها المُتَصَوَّر في الذهن، إذ قد مرت بنا كثرة من توزيعات الرؤية حول أمر قد يكون واحدًا، والحال أن كل شيء في الدنيا تكثر صوره بكثرة الرائين، فلكل واحد زاوية خاصة ينظر من خلالها، حتى يبدو للجميع توحد وتوافق فيما لم يقم برهان واحد على التماثل التام بين وجهين من الوجوه.

واختلاف وجهات الرؤية أوحت باستقصاء الآراء في وجوه الإعجاز حتى قيل: إن بعضهم أنهى وجوه إعجاز القرآن الكريم إلى ثمانين وجها [(١)] ولا مناص من تبين حقيقتين للمتكلم في إعجاز القرآن، وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهرًا لا يلتبس، وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما، وهاتان الحقيقتان العظيمتان هما:

أولهما: أن " إعجاز القرآن " كما يدل عليه لفظه وتاريخه، وهو دليل النبي ﷺ على صدق نبوته، وعلى أنه رسول من الله يوحى إليه هذا القرآن، وأن النبي ﷺ كان يعرف " إعجاز القرآن " من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي إنما هو تحد بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك.

ثانيهما: أن إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرهما من كتب الله سبحانه لا يكون منها شيء يدل على أن القرآن معجز.

والخلط بين هاتين الحقيقتين، وإهمال الفصل بينهما في التطبيق والنظر، وفي دراسة "إعجاز القرآن" قد أفضى إلى تخليط شديد في الدراسة قديما وحديثا [(٢)].

---

(١) معترك الأقران للسيوطي ص ٥ جـ١.

(٢) الظاهرة القرآنية مالك بن بني فصل في إعجاز القرآن كتقديم للكتاب بقلم الأستاذ محمود محمد

والقرآن كان ينزل على النبي ﷺ منجما، وكان الذي نزل عليه أول أمر الوحي قليلا، فكان هذا القليل من التنزيل هو برهانه على نبوته، وهذا القليل دليلا على أن تاليه عليهم، وهو بشر مثلهم، نبي من عند الله مرسل.

فإذا صح هذا، وهو صحيح لا ريب فيه، ثبت أن ا لأيات القليلة من القرآن ثم الآيات الكثيرة، ثم القرآن كله، أي ذلك كان في تلاوته على سامعه من العرب، الدليل الذي يطالبه بأن يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر وذلك من وجه واحد، هو وجه البيان والنظم [(١)] وإذا كان الأمر على هذا النحو فإن سائر ما يورده المتقدمون والمتأخرون من وجوه الإعجاز لا ينسحب عليه في الحقيقة اعتباره وجها من وجوه الإعجاز، إذ التمحيص والبحث والإمعان في التوافق بين الإعجاز في معناه المجرد وبين الوجه المسوق لهذا الإعجاز يستجلي انفصام العلاقة بينهما على نحو ما.

وبعض هذه الوجوه تكمن في حيازته وتضمنه الكثيرُ من الآيات التي تحمل أسرارا يعجــز عن سبر أغوارها عصر أو عصور متتالية، وفرق بين العجز عن إدارك محتواه وبين الإتيان بمثله ولو كان المأتي به مفترى.

والمعجزة خرق العادة، ولم يخرق القرآن عادة عربية في غير نظمه وبيانه ولم يقل أحد إن كشفَ خفاءِ دقائقِ العادة خرقٌ لها، إذ بُدُو الموجود وبروزه إلى العيان لا يعنى خرقا لعادة.

والأنبــياء لهم من خرق العادات ما يؤيد صدق دعواهم للنبوة والرسالة، وليس ما يــبدو مــن آثار لقدرة الله في الكون معجزةً قرآنية، إذ لو كانت لامتد منها برهان عند اللحظات الأولى لنزول الوحي لتقوم في وجه الكافرين برهانًا على أن القرآن من عند الله. أمــا وانه قد تأخرت رؤية التطابق بين آي الكون وآي القرآن فلا يمكن القول بأن مثل هذا كان وجها باديا للعرب عند تحديهم.

والآيــات البارزة في الكون دليل على أن للكون إلهًا، وذلك هو المقصود الأوحد والأول من الدعوة إلى النظر في السموات والأرض.

ويقــول الــزملكاني برجوع وجه الإعجاز إلى التأليف الخاص بالقرآن لا مطلق التألــيف، بــأن اعتدلت مفرداته تركيبا وزنة، وعلت مركباته معنى، بأن يوقع كل فن في

شاكر ص ١٧، ١٨.

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢١.

مرتبته العليا في اللفظ والمعنى [١].

ويؤكد الخطابي [٢] تعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ولكنه يقول [٣]: "قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ".

وبهذا يتبين أنه قد يلوح للبعض ما أثر في نفسه واستقر من جملة عطاء القرآن ما يحسبه وجها للإعجاز، ولا بدّ من التمييز بين الوجه والتوجيه في دراسة الإعجاز لدرك الصواب.

والدكتور البوطي يقول في كتابه من روائع القرآن [٤]: " إذا رأيت من إذا تلا القرآن تأثر به قائلا: إن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر فاعلم أنه متفاعل مع هذا الوجه الأخير – يريد به مظهر جلال الربوبية – ولا يتجلى الإعجاز إلا لقلب لم تخنقه أغشية الكبر والعناد".

ولا يمكن حمل العادة التي يتخلف معهودها على كونها من الناظر، بل هي في المنظور، فمن استظهر أمرا لا يكون هو محل المعجزة، نعم قد يكون منه غير ما اعتيد، لكن الشيء الذي استبان فيه الوجه الجديد لم يتحول عما كان عليه قبل ظهور ما خفي منه من قبل، اللهم إلا إذا انفرد هذا الناظر بهذا البيان وحده دون غيره، فإنه يكون قد أتى بما يعجز عنه غيره، وحينئذ تتعلق المعجزة بشخصه مباشرة.

والخصائص التي يهتدي من خلالها إلى أن القرآن كلام الله تعالى كما أوردها وحيد الدين خان في كتابه " الإسلام يتحدى " تمكننا من الزحزحة ولو قليلا نحو اعتبارات تؤكد عدم قصر وجوه الإعجاز في النظم والبيان، شريطة أن يكون المنطلق في كل وجه يحتسب للإعجاز منطلقا قرآنيا بحتا، بحيث لا نضفي من خارج النص ما يسمح بالربط بين ما هو خارج النص من ظواهر كونية وكشوف علمية حديثة وبين إشارات وتلميحات قرآنية، فمثل هذا لا يعدو أن يكون توجيها لا وجها للإعجاز.

وهذه الخصائص – وقد سبق ذكرها – وهي: إعجاز القرآن، ونبوءاته، والقرآن والكشوف الحديثة – أي العلاقة بين القرآن والكشوف الحديثة – براهين ثابتة الدلالة

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن طـ١٣٩٤هـ، ١٩٨٤م ص ٥٤.

(٢) بيان إعجاز القرآن ص ٢١.

(٣) بيان إعجاز القرآن ص ٧٠.

(٤) من روائع القرآن الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٦٠.

على أن محمدًا رسول من عند الله، ولكن بعضها لا يمكن اعتباره وجها للإعجاز.

فالنبوءات لا يلزم صدورها عن نبي أو كتاب منزل عليه من ربه، والشواهد على ذلك كثيرة، والكشوف الحديثة أولَ ما تبرزُ معالِمُها لا تكون في القرآن بل يكون بدء العلم بها من خارج القرآن، ثم يعالَجُ التوافق بتغيير المفهوم القرآني ليتفق مع ما تجلى من كشفيات علمية حديثة.

والنبي محمد ﷺ خالف في قدره السامي عند ربه جماعة الأنبياء، فكانت له المعجزة الحسية بخرق العوائد ثم عودتها إلى ما عهد منها من قبل وكانت منه نبوءات تحقق منها ما وعد به أو توعد. وكل هذا كان بعيدًا عن القرآن ليسجل على الناس جميعًا أن هذا النبي يحمل دلائل نبوته على نحو ما كان عليه الأنبياء من قبل وله فضل زيادة بقاء المعجزة الخالدة في القرآن الكريم.

وحين يوقفنا القرآن الكريم على مشاهد آثار القدرة الإلهية في الكون يؤكد ضرورة ابتعاث رسل خاصة من نفوسنا تشاهد إعجاز القدرة الإلهية في كون الله ليتجدد الإقرار بأن " لا إله إلا الله " قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " وهو تعجيز لقدرة البشر لا لكلامهم. ولا يتصور أن يخلو كتاب سماوي من إخبار بغيوب سواء منها ما كان ماضيًا، أو مستقبلاً، أو حاضرًا مكانيًا، ومع هذا لم ينل حظَّ الإعجاز كتاب غير القرآن الكريم.

ولا بدّ من الإبقاء على الوجه الأول الذي وُوجِه به العربُ عند تحديهم، فما كان لهم في أول الأمر من علم بما صارت عليه بوارق المعاني المستوحاة من خارج النص القرآني كنص عربي.

لكل هذا كان الكلام بما يحمل من خصائص اللغة العربية هو مبعث رؤية الإعجاز عند العرب جميعا.

ومـــن العجـــيب أن لكل عصر لغة تَسِمُهُ بخَواصِّ التعبير عن مكنونات النفوس، ولـــذلك يـــبدو جَلِـــيًا كثير من وجوه افتراق الكلام على امتداد الزمن، وإن كان هذا الاختلاف في لغة واحدة.

وإذا نَظَرْتَ في كتب مختلفة أزمانُ تصنيفها تَفَتَّقَ لك وضوحُ فوارِق عدة، تميز عصرا عن عصر، وكَلامًا عن كلامٍ، والقرآن وحده لم تغيره السنون، واختلاف الفنون، لكن الإدراك أو الذوق هو الذي يختلف في كل حين عن سابقه.

ولا بدّ من معرفة أمور تُحَدَّدُ على أساسها صحة كون الوجه إعجازًا قرآنيا وهذه

الأمور [1]:

الأول: أن قليل القرآن وكثيرة في شأن الإعجاز سواء.

الثاني: أن الإعجاز، كائن في وصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب. ثم في سائر لغات البشر، ثم في بيان الثَّقَلَيْنِ جميعا، إنسهم وجنهم متظاهرين، والله عز وجل لم يقصر التعجيز عن الإتيان بمثل القرآن على الإنس والجن لأن الملائكة تقدر على الإتيان بمثله، ولكن لأن الرسالة كانت الى الإنس والجن، فوقع التحدي للفريقين، حتى إذا عجزُوا كان عجزُهم دلالةً على أن النبي ﷺ عاجز مثلهم فيظهر بذلك أنه لم يأت بالقرآن من عند نفسه، وإنما أتى به من عند الله

"فأما الملائكة فلم يتحدوا عن ذلك لأن الرسالة إذا لم تكن إليهم لم يكن القرآن حجة عليهم، فنبؤوا أكانوا قادرين على مثله أو عاجزين ؟ وهم عندنا عاجزون [2] وليس الإتيان بمثل القرآن من قلب المدائن، والإتيان بالتابوت في شيء، لأن قلب المدينة وحمل التابوت العظيم كالذي يوصف من تابوت بني إسرائيل لقصور قواهم عنه - قوى بني إسرائيل - فإذا زادت قوة الملك على قوة الأدمي أضعافًا مضاعفة زاد علمه أيضا لذلك.

وأما نظم القرآن فإنه ليس من جنس نظم كلام الناس، ولكنه مباين لهذا فلا يُهتَدى إليه فَيُحتَذَى ويُمَثَّل، فهو كتركيبِ الجواهرِ غيرِ الأجسامِ لتصيرَ أجساما، ولا على قلب الأعيان ولا يقدرون عليه من ذلك، والملائكة لا يقدرون عليه كذلك. وفي ذلك ما أبان أن نظم القرآن ليس من عند جبريل لكنه من عند اللطيف الخبير".

وأضيفُ أنه ما كان التحدي إلا مواجهة لإنكار كون القرآن من عند الله ولا يتصور أن يكون من الملائكة مثل ذلك الإنكار، وبالتالي لا يتصور مجابهتهم بالتحدي ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢).

الثالث: أن الذين تحداهم بهذا القرآن قد أوتوا القدْرةَ على الفصل بين الذي هو مِنْ كلام البشر، والذي هو ليس من كلامهم.

الرابع: أن الذين تحداهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا به من الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله مفتريات، هو هذا الضرب من البيان الذي يجدون في أنفسهم أنه خارج

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢٤، ٢٥.

(٢) كتاب المنهاج في شعب الإيمان للحليمي جـ١ ص ٣١٩.

من جنس بيان البشر.

الخامس: أن هذا التحدي لم يُقْصَدْ به الإتيان بمثله مطابقا لمعانيه، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه، من كل معنى أو غرضٍ مما يعتلج في نفوس البشر.

السادس: أن هذا التحدي للثقلين جميعا إنسهم وجنهم متظاهرين تحد مستمر قائم إلى يوم الدين.

السابع: أن ما في القرآن من مكنون الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله ما يعد دليلا على أنه من عند الله، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وبيانهم، وأنه بهذه المباينة كلامُ رب العالمين لا كلام بشر مثلهم.

أرأيت كلاما يحمل مكنون الغيب ودقائق التشريع وعجائب الأيات في الخلق يكون لأجل ما يحمل معجزا ؟

نعم.. إن القرآن حين يقرر الحقائق لا ينزع إلى تحويرها أحدٌ أبدا، وما كان ذلك ليكون لولا أن قائله هو العزيز الحكيم، فكل ما يصدر عن الله تعالى يلازمه دوام التصديق من الكون شاهدا على قدرة الخالق جل وعلا.

لذا كان لزاما أن تطْرَحَ كل الوجوه ما عدا ما تعلق منها بذاتية القرآن كلامًا عربيًا، والوجه الذاتي بلا شكٍ لا يفارق الذات أصلاً، فالكلام من حيث هو كلام منبعٌ لإعجاز القرآن.

- مظاهر العناية بجمع وجوه الإعجاز:

لما كان البحث متعلقا بعناية المسلمين بوجوه الإعجاز كان إيراد ما عدً منها ضَرُورِيَّ الذكر وإن لم يلزم قبولها كلها، ومهما يكن من شيء فإن كثيرا من العلماء أثروا الدراسات القرآنية برؤاهم الفاحصة في وجوه الإعجاز، يتفرسون في كل وجه ما تستنطق منه أمارات الفوارق الواضحة بين كلام الله وكلام البشر، أو يوجهون نحو النصوص ما يلائم احتمالها وجها يقال إنه وجهُ إعجاز.

وجدير بالذكر أن ما يتعلق بالإعجاز من هذه الوجوه لا يباينُ بَيْنَ قدرةِ الله وقدرةِ الخَلْق وبين علمه تعالى وعلمهم، وبين إرادته وإرادتهم، ولكن تساق هذه الوجوه لتسجيل التباين التام بين كلام الله تعالى وبين كلام البشر، بغض النظر عما يحمله الكلام من موضوع. فالقرآن معجز من حيث إنه كلام.

ومع هذا ... فهؤلاء بعض الذين أماطوا اللثام عن رؤية وجوه الإعجاز حسب ما عنَّ لهم منها، وإن كان البعض قد قَصَرَهَا على النظم اعتقادًا فقد زاد عليه سردا وإيرادا.

ومن جملة من عُنُوا بجمع وجوه الإعجاز وبيانها الشيخ السيوطي في "معتركه " حيث حوى مؤلَّفه خمسةً وثلاثين وجها، هي بحق أكثر ما أحصى كتاب مما شاء الله اطِّلاَعِي عليه من مؤلفات في هذا الشأن، ولهذا آثرت الابتداء به، لاستغراقه جُلَّ ما ورد في غيره من الوجوه.

ومعترك الأقران يَضُم هذه الوجوه متناولا إياها بالتحليل والتمثيل والبيان، وما يتعلق بكل منها من سائر ما عرض له المتقدمون، وهذه الوجوه هي:

١. احتواء القرآن على علوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب، ولا أحاط بعلمها أحد في كلمات قليلة وأحرف معدودة ﴿... مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ...﴾ (الأنعام ٣٨) ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩).

٢. كونه محفوظا عن الزيادة، والنقصان، ومحروسا عن التبديل والتغيير على تطاول الأزمان بخلاف سائر الكتب " قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) فلم يقدر أحد بحمد الله على التجاسر عليه.

٣. حسن تأليفه، والتئام كلمه وفصاحتها، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وأسلوبه الغريب مخالفا لأساليب العرب، ولم يوجد قبله ولا بعده نظيره.

٤. مناسبة آياته وسوره، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقَةَ المعاني منتظمة المباني.

وقد ألف العلامة أبو جعفر بن الزبير شيخُ أبي حيان في أسرار التناسب كتابا سماه " البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن " وألف برهان الدين البقاعي " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ".

وأول من سبق إلى هذا العلم الشيخ أبو بكر النيسابوري.

٥. افتتاح السور وخواتمها، وهو من أحسن الوجوه وأكملها كالتحميدات وحروف النداء والهجاء وغير ذلك. وخواتم السور مثل الفواتح في هذا الحسن، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام.

٦. مشتبهات آياته، بأن ترد القصة في سور شتى وفواصلَ مختلفة.

٧. ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات.

٨. وقوع ناسخه ومنسوخه.
٩. انقسامه إلى محكم ومتشابه.
١٠. اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها.
١١. تقديم بعض ألفاظه وتأخرها في الموضع.
١٢. إفادة حصره واختصاصه.
١٣. احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغة غيرهم من الفرس.
١٤. ورود بعض آياته مجملة وبعضها مبينة.
١٥. عموم بعض آياته وخصوص بعضها
١٦. الاستدلال بمنطوقه ومفهومه.
١٧. وجوه مخاطبته.
١٨. ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات.
١٩. إخباره بأحوال القرون السالفة.
٢٠. روعته وهيبته.
٢١. أن سامعه لا يمجه.
٢٢. تيسير الله حفظَه وتقريبَه على متحفظيه.
٢٣. وقوع الحقائق والمجاز فيه.
٢٤. تشبيهه واستعاراته.
٢٥. وقوع الكناية والتعريض.
٢٦. إيجازه وإطنابه.
٢٧. وقوع البدائع البليغة فيه.
٢٨. احتواؤه على الخبر والإنشاء.
٢٩. إقسام الله تعالى في مواضع لإقامة الحجة وتأكيدها.
٣٠. اشتماله على أنواع البراهين والأدلة.
٣١. ضرب الأمثال فيه.
٣٢. ما فيه من الآيات الجامعة للخوف والرجاء.
٣٣. ورود آيات مبهمة يحيرُ العقل فيها.
٣٤. احتواؤه على أسماءِ الأشياء والملائكة والكُنَى والألقاب وأسماء القبائل والبلاد

والجبال والكواكب.

٣٥. ألفاظه المشتركة.

ومعلوم أن بعض هذه الوجوه قد يشترك فيها كل كلام ولكن القرآن قد نال منها الدرجة العليا التي تعزب عن طاقة البشر، وما عد السيوطي الصرفة وجها في كتابه الموسوم بمعترك الأقران في إعجاز القرآن وإن كان قد ساق من الحديث طرفا عنها في الإتقان.

وبناء على ما تقدم من بيان ما يعتبر وجه إعجاز وما لا يعتبر، فإن هذه الوجوه التي أوردها السيوطي لا تدخل جميعُها في مفهوم الإعجاز وإن اعتبرت من خصائص القرآن.

ولتقف على ما قرره الإمام أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد على السكاكي في "مفتاح العلوم " من أن الإجماع منعقد على أن القرآن الكريم معجز، ولكن اختلف قارعو باب الاستدلال في وجه الإعجاز على النحو التالي: [١]

١- منهم من يقول: إن الله صرف بمشيئته المتَحَدَّيْنَ مع قدرتهم فيما بينهم في نفس الأمر. ويرد السكاكي هذا القول بأن التعجب على هذا القول - يلزم أن يكون من تعذر المعارضة لا من نظم القرآن.

٢- ومنهم من يقول: وجه الإعجاز ورود القرآن على أسلوب مبتدأ مباين لأساليب كلام العرب في خطبهم وأشعارهم، لا سيما في مطالع السور ومقاطع الآي.

ويرد السكاكي بأنه لو كان ابتداء أسلوب يستلزم تعذر الإتيان بالمثل لاستلزم ابتداء الخطبة والشعر كونه معجزا، إذا لا شبهة في أنها مُبْتَدَءَ اتٌ تعذر الإتيان بمثلها، ولكن شيئا من ذلك لم يكن معجزا فاللازم مُنْتَفٍ.

٣- ومنهم من يقول: وجه إعجاز القرآن سلامته من التناقض.

ويرد بأن هذا يستلزم كون كل كلام إذا سلم من التناقض وبلغ مقدار سورة من السور أن يُعَدَّ معارضة. واللازم منتف بالإجماع.

٤- ومنهم من يقول: وجه الإعجاز الاشتمالُ على الغيوب.

ويرد بأن هذا القول يستلزم قصر التحدي على السور المشتملة على الغيوب دون ما سواها واللازم بالإجماع أيضا منتف.

---

(١) مفتاح العلوم ص ٥١٢، ٥١٣.

فهذه أقوال أربعة: يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز وهو أمر من جنس البلاغة والفصاحة.

ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة عِلْمَي المعاني والبيان بعد فضل إلهي من هبة يهبها بحكمته من يشاء، وهي النفس المستعدة لذلك، فكل مُيَسَّر لما خلق.

ثم يــشير السكاكي إلى أنه لا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه. ثم يقر بما كان هو عليه مِنْ مِثْلِ ذلك الإنكارِ بقوله " فَلَكَمْ سحبنا الذيل في إنكاره، ثم ضـــمنا الـــذيل مـــا إنْ ننكِرُه، فله الشكر الجزيل على ما أولى وله الحمد في الآخرة والأولى " [١].

ومـــن قبل يوُصِي السكاكي مخاطَبَه قائلا " وأن لا تتجاذَبُك أيدي الاحتمالات فِي وجه الإعجاز " [٢].

وابن القيم إمام الجوزية في الفوائد المشوق إلى علم القرآن وعلم البيان [٣] له سبيل يماثــل بـــه ما انتهجه السكاكي في ذكره وجوه الإعجاز والرد على ما لم يرتض منها إذ يقول: " قد تكلم العلماء في ذلك:

١- فقال قوم إعجازه من جهة إيجازه واحتواء لفظهِ القليل على المعاني الكثيرة " ولكم في القصاص حياة " واعترض بأنه في السُنَّة وكلام العرب، ما هو كذلك.

٢- وقـــال قـــوم إعجازه من جهة حسن تركيبه وبديع ترتيب ألفاظه وعذوبة مساقها وجزالتها وفخامتها وفصل خطابها.

٣- وقـــال قـــوم من غرابة أسلوبه العجيب، واتساقه الغريب، الذي خرج عن أعاريض النظم، وقوانين النثر، وأساجيع الخطب، وأنماط الأراجيز، وضروب السجع. وقد اعترض على هذا القول من وجوه:

أ- لو كان الابتداء بالأسلوب معجزا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزا.

ب- الابتداء بأسلوب لا يمنع الغير من الإتيان بمثله.

ت- أن مـــا تعاطاه مسيلمة من الحماقة في معارضة " إنا أعطيناك الكوثر - والطاحنات طحنا " هو أسلوب في غاية الفظاعة والركاكة وكان مبتدئا به ولم يُعَدَّ ذلك معجزًا بل عُدَّ

---

(١) مفتاح العلوم ص ٥١٣.

(٢) مفتاح العلوم ص ٥١١.

(٣) الفوائد المشوق ص ٢٤٦-٢٥٥ بتصرف.

سخفا وحمقا.

ث- لَمَّـــا فاضَلْنَا بين قوله تعالى: " ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾" وقولهم " القتل أنفى للقتل" لم تكن المفاضلة بسبب الوزن، وإنما تعلق الإعجاز بما ظهرت به الفضيلة.

ج- إن وصف القرآن بأن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة لا يليق بالأسلوب.

٤- وقال قوم إعجازه بمجموع هذه الوجوه الثلاثة.

ويقول ابن القيم: إن هذا كلام يحتاج إلى نظر لأن مجموع هذه إنما تكون معجزة في حق العرب خاصة، لأن الفصاحة والبلاغة جِبِلَّةٌ فيهم ولا يُمَارِيهم في التفرد بها مُمَارٍ ذُو عِنَاد، وأذعنت الأمم إليهم فيها، فجاءهم القرآن بقاصمة الظهر ودُعُوا إلى المعارضة فلم يُقْدِمُوا، وأما الأعاجم فلا تقوم عليهم بذلك حجة، ولا تصح فيهم به معجزة لأنهم معترفون أن الفصاحة ليست من شأنهم، والله أرسل محمدا ﷺ إلى الخلق كافة، ولا يثبت إعجازه على الكافة إلا بما يعزب على الكافة الإتيان بمثله مع اعترافهم بأن في مقدورهم من جنسه".

أقول: وإذا كان العرب قد اختصوا بوجه الإعجاز من حيث كون القرآن كلاما فإن غير العرب يمكن أن يكون لهم وجه الإعجاز من حيث ما يحمله ذلك الكلام من جملة ما ذكـــر مـــن وجوه الإعجاز العلمي حين تعتبر على النحو الذي سنتحدث عنه لاحقا إن شاء الله.

وأردف ابن القيم وجها يمكن كذلك اعتباره لغير العرب ولم يقدم غَيْرَهُ عليه وليس لأحد معرفة قَصْدِه من ترك الفصل بين الثلاثة وجوه السابقة، وبين ما أتى بعدها، وعلى كل حال فقد أورد خامس الأقوال على هذا النحو:

٥- وقـــال قوم: إنما وقع إعجازه بما فيه من المعاني الخفية والجلية وفنون العلوم النقلية والعقلية، وأصحاب هذا القول لهم في ذلك خمسة مذاهب:

أ- مـــنهم من قال: إعجازه فيما جاء فيه من أخبار القرون السالفة في الأماكن القاصية والدانـــية وقد نزل على أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يكن بأرضه من يعلم الأخبار سوى أهـــل الكتاب الذين صرح بسبهم وثلبهم، وضلل عقولهم، ولو علّمه أحد منهم لصرح بالرد عليه وحيث لم ينقل ذلك، عُلِمَ أنه لم يعلمه بشر وإنما علمه الحكيم الخبير.

ولم يَدَعِ ابنُ القيم هذا الوجهَ حتى أورد ما اعتُرِض به عليه بأن بعض سور القرآن ليس فيها أخبارُ الماضين، وتلك السور معجزةٌ تحداهم الله بالإتيان بمثلها فعجزوا.

ب-ومـــنهم من قال إعجازه بما فيه من الإخبار بما يكون وما كان مما وقع على حكم ما أخبر به مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾.

واعترض عليه بما رد به سابقه.

ج-ومنهم من قال إعجازه بما احتوى عليه من العلوم التي لم يسبق إليها أحد من البشر قبل نزوله ولا اهتدت إليها فطن العرب ولا غيرهم من الأمم.

وقد اعترض بأنه وجد في السنة وكلام العرب مثل هذا ولم يعد معجزة.

د- ومنهم من قال إعجازه إنما حصل فيه من نشاطِ القلوبِ الواعية وغيرِ الواعيةِ إلـــيه، وإقبالها بوجه المودة عليه، واستجلاءِ طعم عذوبةِ ألفاظه ومعانيه، وهشاشتها بما يتـــردد عليها من مبشراته المبهجة ومحذراته المزعجة وآياته المقلقة وأخباره المونقة مع كثـــرة قرعه للأسماع وصدعه بما يخالف الطباع، ومع ذلك فالقلوب مقبلة على أذكاره، راغـــبة في تكـــراره،.. يجد ذلك منهم البر والفاجر والمؤمن والكافر ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَـــدِيثِ كِـــتَابًا...﴾ (الزمر: ٢٣) وقد اعترض على هذا القول بأنه في السنة وكلام فصحاء العرب ما يحسن موقعه ولا تمله على تكراره.

هـــــ - ومنهم من قال إعجازه بما يقع في النفوس منه عند تلاوته من الروعة وما يملأ القلوب من الهيبة، وما يلحقها من الخشية، فاهمة أو غير فاهمة، عالمة أو غير عالمة، مؤمنة أو كافرة.

وقـــد اعتـــرض بأن جماعة من أرباب القلوب وذوى الاستغراق في بديع أوصاف المحبوب حصل له من سماع بعض الأشعار ما أخرجه عن طوره وربما مات من فوره.

قلـــت: ولا وجه لمثل هذا الاعتراض إذ المحب به من الهوى ما يربط به بين ما في قلبه وما يسمع. فهناك توافق بين ما في القلب وما يسمع، ولكن القرآن يُوجِد في النفوس ما لم يكن فيها من قبل - وذلك فرق.

٦- وســـادس الأقوال قول جماعة إن إعجازه حفظ آياته من التبديل وصون كلماته من النقل والتحويل، وذلك من آياته الكبرى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

٧- وقال قوم إعجازه في خروج الإتيان بمثله عن مقدور البشر.

٨- وقال قوم إعجازه صَرْفُ اللهِ خَلْقَه عن القدرة على الإتيان بمثله، ولولا ذلك لدخل تحت مقدورهم.

واعترض على الصرفة بأمور ثلاثة:

أولا: أن تعجب العرب كان من فصاحته لا من تعذر إتيانهم بمثله.

ثانـيًا: أنـه لـو كـان كلامهُم قريبًا من فصاحته قبل التحدي لعارضوه بذلك، ولاَحتَجُّوا عليه بأنهم ممنوعون، وما كلامهم قبل التحدي مختلفا عنه بعد التحدي.

ثالثا: نسيانهم الصيغ المعلومة في مدة يسيرة يدل على زوال عقولهم، وهم مازالت عقولهم عند التحدي سليمة، فمازالت قرائحهم بعد التحدي على ما كانت عليه، فكيف صرفوا ولم تتغير لهم قريحة ؟

ويفضي ابن القيم بخالصة اعتقاده قائلا:

" والذي يتعين اعتقاده أن القرآن بجملة ألفاظه ومعانيه وبعضه وكله معجز – إما لسلب قدرتهم عن الإتيان بمثله وإما لصرفهم عنه "

ثم قال "هذا الذي وقع عليه تصريح الكتاب وصريح الخطاب ولا مرية في ذلك ولا خلاف".

ولعـل ابنَ القيم ناقل عن غيره ما قال وإلا كان كمن نقض غزله بعد نَصَبٍ فيه، فإنـه بعد معارضة القول بالصرفة جعلها من تصريح الكتاب وصريح الخطاب، بل نفى المرية والخلاف، فماذا أراد بالكتاب ؟

إن كان القرآنَ فإنه من ابن القيم لقول شطط، وإن كان غيرَه فإنه لم يعرض لبيان ما جاء فيه من غلط، فاستقبال أمرٍ بوْجه، واستبدال هذا الوجْه بنقيضه في ذات الأمر في غايـة تعقيد التصور. اللهم إلا ما كان الذي أورده ابن القيم محضَ نقل، وأحسبه كذلك لقوله [1]:

"والأقـرب مـن هذه الأقاويل إلى الصواب قول من قال إن إعجازه بحراسته من التبديل والتغيير والتصحيف والتحريف والزيادة والنقصان فإنه ليس عليه إيراد ولا مطعن"

٩- وقال بعض العلماء إن إعجازه إنما وقع بكون المتكلم به عالمًا بمُرَاده من كل كلمة ومـا يليق بها، وما ينبغي أن يلائمها من الكلام، وما يناسبها في المعنى، لا يختفي عنه ما دق مـن ذلـك وما جَلْ، ولا مَصْرِف كل كلمة ولا مآلها، وغير الله تعالى لا يقدر على ذلك، لأنه أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا.

وهذا القول من الأقوال التي لا مطعن عليها.

وَيُنَوِّهُ ابن القيم إلى لزوم اعتبار عجائب القرآن نوعين، نوعا هو للإعجاز وآخر

(١) الفوائد المشوق ص ٢٥٥.

للخصائص إذ يقول:

" وقد عدد العلماء وجوها من إعجازه غير ما ذكرناه، الأولى أن تعد من خصائصه" ولا يفهم من كلامه أن كل ما ذكره إنما هي وجوه للإعجاز، فكيف اعترض عليها أو لم يرد على الاعتراضات إن كان ناقلا لها.

١٠ - وفي النهاية يُحَسِّنُ ابنُ القيم قولَ القائل بأن الإعجاز من جهة التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة قائمة بالذات وأن العرب إذا تحدوا بالتماس معارضتهم له والإتيان بمثله أو بمثل بعضه كُلِّفُوا ما لا يطاق ومن هذه الجهة وقع عجزهم.

وأَنَّى لابن القيم أن يَتَصَوَّرَ التحدي بما يجهله المتحَدَّى، وهل يقع التحدي إلا لمن حاز قصب السبق فيما يُتَحَدَّى فيه ؟ فكيف بمن يجهل الكلام القديم الذي هو صفة الله تعالى القائمة بذاته ؟

وهذه أمثلة سقتها ليقع عليها تطبيق الدراسة على نحو يؤكد ضرورة التريث في اعتبار الوجه للإعجاز أو من خصائص هذا الكتاب الكريم، فما كان منتشرا في كل سور القرآن كان هو وجهَ الإعجاز ولا أظنه غير النظم والبيان.

وممن أسهم في العناية ببيان وجه الإعجاز القاضي الباقلاني [١] "٣٣٨هـ - ٤٠٣هـ" وهو متكلم أشعري - أجمل وجوه الإعجاز في ثلاثة [٢]:

١ - أنه يتضمن الإخبار عن الغيوب وذلك يعجز عنه البشر.

٢ - أنه كان معلوما أن النبي ﷺ أمي لا يكتب ولا يُحْسِن أن يقرأ، ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السِّيَرِ مِنْ خَلْق آدم إلى حينِ بعثه.

٣ - أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعْلَمُ عَجْزُ الخلق عنه.

وبديع نظمه المعجزِ يتضمن وجوها:

أ- ما يرجع إلى الجملة، فنظمه على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود وليس بالسجع ولا بالشعر.

ب- أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة وغير ذلك على هذا الطُولِ والقدر.

ثم ذكر الرجل طرفا من وجوه اختلاف البشر عن كلام الله تعالى مُتَنَاوِلاً الكلمةَ

---

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني البصري.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٠ وما بعدها.

القــرآنية وموقعَها في تضاعيف الكلام البشرى كأنها درة في سلك من خرز أو ياقوتة في واسطة عقد، ثم تعرض للحديث عن أوائل السور من حروف الهجاء باسطا فيها قوله بما يناسب مَقَامَ العرض لها.

ثم ذكــر أن بعض أصحابه يرون أن علل الأحكام مُوَافِقَةً لمقتضى العقل يُعَدُّ وجه إعجاز، وقرر أن مثل ذلك الاستحسان الذي يولع به أهلُ خراسانَ لا يستقيم عند الأصل الذي ينبون عليه مثل هذا.

وأخــيرا يقول: "ولا نقول إن وجه الإعجاز في نظم القرآن أنه حكاية عن الكلام القديم ".

ويقــول الــرماني [١] «وجوه الإعجاز تظهر من جهات ترك المعارضة مع توفر الدواعــي وشــدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والإخبار عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة».

وأراد بنقض العادة تفرد القرآن بطريقة خرجت عن عادة كلام العرب وتفوق كل طريقة.

وأراد بقياســه بكل معجزة أن سبيل فلق البحر وقلب العصا حية سبيل واحد في الإعجاز إذ خرج عن العادة فَصَدُّ الخلق عن المعارضة.

والقاضــي عياض [٢] في كتابه الشفا حين تعرض لإعجاز القرآن في فصله يرى أن القــرآن مُنْطَوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلُها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

الأول: حــسن التأليف، والتئام كَلِمِهِ، وفصاحتُه، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب.

الثاني: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب العرب.

الـثالث: مــا انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع، فَوُجِدَ كما وَرَدَ على الوجه الذي أخبر.

الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة. ثم زاد

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن " ذخائر العرب١٦ " النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٥٧.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ط صبيح جـ١ ص ٢١٧: ٢٣٧ بتصرف واختصار.

عليها الروعة التي تلحق القلوب والهيبة التي تعتري سامعيه، وكونه آية باقية تَكَفَّلَ الله بحفظه.

ولابن سنان الخفاجي [١] نوع إسهام في بيانه سِرَّ الفصاحة حيث قصد إلى تأليف كتابه لسببين ذَكَرَهُمَا كثمرة وفائدة تحصل لمن وَعَى هذا الكتاب، وواحد هذين السببين وإحدى الثمرتين من جهة العلوم الشرعية، حيث المعجز الدالُّ على نبوة نبينا محمد ﷺ هو القرآن.

والخلاف الظاهر فيما كان به معجزا على قولين:

أولهما: أنه خَرَقَ العادةَ بفصاحته، ومن ذهب إلى هذا لا بدّ له من بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر.

ثانيهما: أن وجه الإعجاز صرف العرب عن معارضته مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف والقائل بهذا يحتاج كذلك إلى معرفة الفصاحة ليقطع على أنها كانت في مقدورهم.

والشيخ رحمت الله الهندي في كتابه إظهار الحق [٢] أسهم في سبيل الدفاع عن القرآن بحظ لا ينكر، وذكر أن الأمور التي تدل على أن القرآن كلامُ الله كثيرةٌ اكتفى منها باثنى عشر أمرًا، ثم بَيَّنَ الشيخ في الأمر الثالث كَوْنَ القرآن منطويا على الإخبار على الحوادث الآتية فوجدت على الأيام اللاحقة على الوجه الذي أخبر، فساق اثنين وعشرين شاهدًا قرآنيًا على ذلك. من ذلك آية سورة الروم التي هي مطلع السورة، فأورد ما قاله أحد القسيسين مَنْ سماه الشيخ بصاحب " ميزان الحق " في الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الميزان من أنه " لو فرضنا صدق ادعاء المفسرين أن هذه الآية نزلت قبل غلبة الروم الفرس فنقول إن محمدًا ﷺ قال بظنه أو بصائب فكره لتسكين قلوب أصحابه، وقد سُمِعَ مثلُ هذه الأقوال من أصحاب العقل والرأي في كل زمان " فرد الهندي قوله بوجهين:

الأول: أن تحديد الزمان ببضع سنين لا يتأتى من عاقل ادعاء قطعيا بوقوع أمر فيه.

الثاني: أن العادة جرت أنه ليس كل ما يقوله العقلاء يقع جميعه، بل يتخلف بعض

(١) سر الفصاحة لعبد الله محمد بن سعيد بن سنان - أبو أحمد الخفاجي الحلبي ص ١٣، ١٤.

(٢) إظهار الحق لرحمت الله الهندي جـ٢ ص ٦١ وما بعدها.

ما ادَّعَوْا وقوعَه فيما يستقبل من الزمان، فمن كَذَبَ على الله تعالى وافترى حقيق على الله تعالى أن يباعد بَيْنَ ما يقول وصحة هذا القول.

وفي الإتقان للسيوطي [١] قال المراكشي في " شرح المصباح " الجهة المعجزة في القرآن تعرف بالتفكر في تأدية المعنى، وعن تعقيده، وتعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال.

لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظه، وإلا لكانت قبل نزوله معجزة ولا مجرد تأليفها، ولا مجرد أسلوبه، وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزا - والأسلوب الطريق - ولكان هذيان مسيلمة معجزا، ولأن الإعجاز يوجد دونه - أي الأسلوب - في نحو ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (يوسف: ٨٠) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤)، ولا بالصرف عن معارضتهم، لأن تعجبهم كان من فصاحته ولأن مسليمة وابن المقفع والمعري وغيرهم قد تعاطوها [٢] فلم يأتوا إلا بما تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع ويضحك منه في أحوال تركيبه، وبها - أي بتلك الأحوال - أعجز البلغاء وأخرس الفصحاء.

فعلى إعجازه دليل إجمالي: وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها فغَيْرُهَا أحرى، ودليل تفصيلي: مقدمته التفكر في خواص تركيبه، ونتيجته العلم بأنه تنزيل المحيط بكل شيء علما ".

والإمام عبد القاهر الجرجاني [٣] يرى أن النظم ليس شيئا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم وإلا كان من أعجب العجب أن يزعم زاعم أنه يطلب المزية في النظم ثم لا يطلبها في معاني النحو وأحكامه التي النظم عبارة عن توخيها فيما بين الكلم، وذلك يقتضي دخولَ الاستعارة والكنايةِ والتمثيل وسائرِ ضروب المجاز وغير ذلك من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون، إذ لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يُتَوَخَّ فيما بينها حكمٌ من أحكام النحو.

وطريق المزية المطلوبة في هذا الباب الفِكْرُ والنظر من غير شبهة، ومحال أن يكون لِلَّفْظِ صفة تستنبط بالفكر، ويستعان عليها بالروية، ولا يعد الإعراب من الوجوه التي

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ٢ ص ١٠٠٨، ١٠٠٩.

(٢) الناظر في كتب هؤلاء الذين اتهموا بالمعارضة لا يجد ما يثبت ذلك عنهم.

(٣) دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٣٠٠.

تظهـــر بها المزية، لأن العلمَ به مشترك بين العرب كلهم، ولا يستنبط بالفكر ويعان عليه بالروية، فليس أحدهم بأعلم من الآخرين برفع الفاعل.

وإنمـــا تقـــع الحاجة إلى العلم بما يوجب الفاعلية للشيء إذا كان إيجابها من طريق المجـــاز كقوله تعالى " فما ربحت تجارتهم " وأشباه ذلك مما يجعل الشيء فيه فاعلا على تأويـــل يـــدق، ومـــن طريق يلطف، وليس يكون هذا عِلْمًا بالإعراب ولكن بالوصف الموجب للإعراب، والغرض من القول بأن الفصاحة في المعنى دون اللفظ: أن المزية التي مـــن أجلها استَحَق اللفظُ الوصفَ بأنه فصيح، عائدة في الحقيقة إلى معناه، وهي تظهر في الكلم من بعد أن تدخل الكلمة النظم، وإذا أفردت لم تَرُمْ فيها نظما ولا مزية لها، فوجب العلم قطعا وضرورة أن تلك المزية في المعنى دون اللفظ

وفي الإشارة [١] إلى المجاز للعز بن عبد السلام وجوه ذكر منها: صرف العرب عن المعارضة مع قدرتهم عليها وحرصهم على إبطاله، أو صرفهم عن القدرة على معارضته.

وابـــن جـــزي الكلبي في كتاب التسهيل لعلوم التنزيل [٢] ساق وجوها عشرة من وجوه الإعجاز من بينها ما فيه من التعريف بالباري جل جلاله، وذِكْرِ صفاتِه وأسمائه وما يجوز عليه وما يستحيل والدعوة إلى عبادته وإقامة البراهين، والرد على الكافرين.

ومـــن كل ما سبق نتبين أنه لم يسلم من الرد غير النظم وجهًا لإعجاز القرآن الكريم، ولا يتصور خلو الآيات الأولى من النظم حال نزولها على النبي ﷺ أول بدء الوحي.

وهذه الآيات قد بدأ بها الوحي التحدي واطرد ذلك التحدي إلى آخر ما نزل من القرآن الكريم ولا يسلم لوجه واحد الدوران في جميع القرآن الكريم غير النظم.

ولـــو لم يكن التحدي بمحض النظم لم يكن للقرآن أن يتحدى بشيء مثلِه مفترًى والافتراء الكذب، والكذب لا يطابق الواقع نفيا أو إيجابا فليس المراد من معارضتهم حين التحدي أن تكون صادقة بل أن تكون كنظم القرآن وإن كان المعنى الذي تحمله كلماتُه مفترًى. فما بالهم قالوا افتراه وأعجزهم عن الإتيان بمثله مفترى ؟

والمجـــال أعمق وأفسح من أن يسرد من خلال هذه الصفحات، ولكنها مجرد أمثلة من إسهامات المسلمين توضح مدى اهتمامهم على مد الزمن الإسلامي وإلى يومنا هذا، وهـــذا التـــناوب في تناول مثل هذه الأمور بالدراسة يؤكد كرم عطاء القرآن لكل عصر

(١) كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام ص ٢٧١.
(٢) كتاب التسهيل لعلوم التنـــزيل ص ١٤.

حسب ما يتفق له من فهوم سواء ما كان منها من خصائص القرآن أو من وجوه إعجازه حقا.

- مؤلفات في الإعجاز الذاتي للنص القرآني:

أوردت في هذا الفصل بعضا من المؤلفات مما يتعرض لوجوه الإعجاز أو اعتنى بها على نحو من الأنحاء وهذه المؤلفات هي:

١. من روائع القرآن الكريم - دكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
٢. تاريخ آداب العرب جـ٢ - مصطفى صادق الرافعي.
٣. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني.
٤. الشفا بتعريف حقوق المصطفى - القاضي عياض.
٥. بصائر ذوي التمييز - للفيروز آبادي.
٦. الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي.
٧. فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة حتى عصرنا الحاضر - نعيم الحمصي.
٨. قضية الإعجاز القرآني - د/ عبد العزيز عبد المعطي عرفة.
٩. كتاب التسهيل لعلوم التنزيل - محمد بن أحمد بن جزي الكلبي.
١٠. الكشاف - محمود بن عمرالزمخشري.
١١. منهاج البلغاء وسراج الأدباء وملحق به. - أبو الحسن حازم القرطاجني.
١٢. كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق المجاز- يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي.
١٣. معترك الأقران في إعجاز القرآن لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي.
١٤. الإتقان في علوم القرآن - للسيوطي.
١٥. نغَمَ الوجيز في إعجاز القرآن العزيز للشيخ الشاب العلامة عبد العزيز أحمد. البرهاروي وهذا الكتاب نشر جُمْلَةً ضِمن مجلة المجمع العربي الباكستاني رئيس التحرير د. ظهور أحمد أظهر.
١٦. الإعجاز البياني للقرآن د. عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطئ ".
١٧. النبأ العظيم - د. محمد عبد الله دراز.
١٨. مفتاح العلوم - للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي.

١٩. إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب محمد جعفر بن القاسم الباقلاني البصري.
٢٠. كتاب المنهاج في شعب الإيمان لأبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي.
٢١. المعجزة الكبرى - الإمام محمد أبو زهرة.
٢٢. معجزة القرآن الكريم - الشيخ محمد متولي الشعراوي.
٢٣. القرآن معجزة ومنهج - الشيخ محمد متولي الشعراوي.
٢٤. الملل والنحل - للشهرستاني.
٢٥. الفصل في الملل والنحل - لابن حزم الأندلسي.
٢٦. الفوائد المشوق - لابن قيم الجوزية.
٢٧. إظهار الحق - لرحمت الله الهندي.
٢٨. التفسير الكبير مفاتيح الغيب - لفخر الدين الرازي.
٢٩. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - كمال الدين عبد الواحد عبد الكريم الزملكاني.
٣٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي.
٣١. البرهان في علوم القرآن - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي.
٣٢. الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم د/ محمد محمود حجازي.
٣٣. سر الفصاحة - عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان - أبو أحمد _ الخفاجي الحلبي.
٣٤. دلائل الإعجاز - الإمام مجد الإسلام أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن محمد الجرجاني.
٣٥. فتح البيان في مقاصد القرآن - أبو الطيب صديق القنوجي.
٣٦. القصور العوالي " مجموعة رسائل " - أبي حامد الغزالي.
٣٧. مقالات الإسلاميين - أبو الحسن الأشعري.
٣٨. تفسير المراغي - أحمد مصطفى المراغي.
٣٩. الفوز الكبير في أصول التفسير - للإمام ولي الله الدهلوي نقله عن الفارسية سليمان الحسيني الندوي.

٤٠. رسائل تحت عنوان أحدث تفسير لآيات القرآن الكريم، عبد الغني محمد.

٤١. التفسير البياني للقرآن الكريم - دكتورة عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطئ "

هذه بعض دراسات الإعجاز القرآني على أنحاء متعددة، منها ما انفرد بالحديث عن الإعجاز واختص به، ومنها ما تناوله في أحد فصوله، ومنها ما كان تأريخا له، ومنها ما تناول الوجوه بالبيان أو بالنقد، ومنها ما كان عاما في دراسته الإعجاز، أو ما كان مختصا بوجه منها.

من مظاهر العناية بوجوه الإعجاز

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:

نستطيع مما سبق عرضه من كتابات العلماء قديما وحديثا في إعجاز القرآن أن نستخلص ما عدوه وجوهًا لهذا الإعجاز، ذكروها صراحة واستقلالاً وبينوها، أو أشاروا إليها ضمنا وأوجزوها، وهذه الوجوه نذكرها فيما يلي:

أولاً: إعجازه في بلاغته وفصاحته

لعل إعجاز القرآن الكريم بلفظه من أهم وجوه إعجازه إذا لم يكن أهمها على الإطلاق، لأنه يتعلق بالقرآن ذاته في بنيته اللغوية لا ينفك عنها، ولا يرتبط -كما سيأتي بيانه في وجوه أخرى- بحال المنزل عليه، أو حال المخاطبين، أو الفترات الزمانية، ومن ثم كان هذا الوجه أول ما تناوله العلماء بالبحث، وكان قدرا مشتركًا بينهم في الحديث عن الإعجاز، كما أفردوه بالتصنيف مثل الباقلاني في (إعجاز القرآن) والجرجاني في دلائل الإعجاز، والرافعي في (إعجاز القرآن) والشيخ محمد عبد الله دراز في (النبأ العظيم) أوجعلوه أكثر الأوجه بيانًا إذا تكلموا فيه مع غيره، ولهذا أيضا كان حقيقا بالبدء به وجعله في صدارة وجوه الإعجاز.

وبداية نقول: إنه لم يبلغ نمط من أنماط كلام العرب فيما قالوه شعرًا أو نثرا، أيًا كانت قوته بلاغة وفصاحة أن يكون قريبا من بلاغة القرآن وفصاحته، فقد بلغ القرآن في مضمار البلاغة والفصاحة الطرف الأعلى، وهو ما يمكن أن نسميه حدَّ الإعجاز، لأن هذا كان الميدان الذي تحدَّى القرآن فيه العرب، وهم فرسانه، ولقد اطرد هذا التفوق اللغوي في القرآن سورة سورة، وآية آية، ومن ثم كان التحدي فيه أن يأتوا بسورة من مثله مما ينطبق على طويل السور وقصيرها.

وأصدق دليل على هذا الإعجاز موقف مَن تحدَّاهم القرآن من فصحاء العرب من

هذا التحدي عجزًا واستسلامًا مع حرصهم على تكذيب القرآن، وللقاضي عياض في ذلك عبارات جامعة تذكر جانبا من هذا الموقف في العجز، والاعتراف بإلهية المصدر القرآني- رغم الجحود والكفر-وأمثلة يسيرة تشهد لذلك نذكرها بنصها لتمام الفائدة.

قال رحمه الله تعالى: (فلم يزل ﷺ يقرعهم أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وإياهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والإغراء بالافتراء، وقولهم: إن هذا إلا سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين، والمباهتة والرضى بالدنيئة كقولهم: قلوبنا غلف، وفي أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون، والادعاء مع العجز بقولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وقد قال لهم الله "ولن تفعلوا" فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم، وإلا فلم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولّوا عنه مدبرين، وأتوا مذعنين من بين مهتد وبين مفتون، ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠). الآية قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر، وذكر أبو عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤). فسجد وقال: سجدت لفصاحته، وسمع رجلاً آخر يقرأ ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (يوسف: ٨٠). فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام)[١].

وإذا كان العرب -وهم بهذه المنزلة بلاغة وفصاحة-قد عجزوا هذا العجز التام المطبق، فغيرهم أشد عجزًا، وأبعد هزيمة.

لقد عنى العلماء بإبراز بلاغة القرآن في هذا المضمار تطبيقًا، ولو تتبعنا ذلك من خلال أبواب البلاغة المتعارف عليها لاستغرق ذلك تفسير القرآن كله، ولكن حسبنا أمثلة في أبرز مجالاتها، وهي الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، نذكرها موجزة غير مطولة:

فمن أشهر ما ضربوه مثلا في باب الإيجاز قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩). فإنهم قارنوه بما استحسنوه من كلام العرب: (القتل أنفى للقتل)

---

(١) الشفا: ١/٢١٩، ٢٢٠.

فظهر البون شاسعا، والتفاوت بعيدًا في البلاغة والإيجاز كليهما، وذلك من وجوه أربعة: أولها: أن عبارة القرآن أكثر فائدة مما قاله العرب لاشتمالها على ما قالوه مع زيادة معان حسنة، منها إبانة العدل لذكره القصاص، وإبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به، الثاني: أنها أوجز، فإن عبارة القرآن (القصاص حياة) عشرة أحرف، وأما (القتل أنفى للقتل) فأربعة عشر حرفًا، الثالث: بعد عبارة القرآن عن الكلفة بالتكرير الشاق على النفس، والرابع: حسنها بتأليف الحروف المتلائمة، وهو مدرك بالحس، وموجود في اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة، لبعد الهمزة من اللام، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام، فباجتماع هذه الأمور كان القرآن أبلغ وأحسن، وإن كانت عبارة العرب بليغة.

وأما التشبيه: فمن أشهر ما ذكروه فيه قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩).

ففيه إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة إليه، ولو قيل في معناه: يحسبه الرائي ماءً ثم يظهر أنه على خلاف ما قدّر لكان بليغا، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصًا على تحقيق حسبانه، وتعلق قلبه به، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا ضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة؟

وأما الاستعارة: فقد أوردوا فيها قول الله تعالى﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم: ٤). فأصل الاشتعال للنار، لكنه في هذا الموضع أبلغ، وحقيقته كثرة الشيب في الرأس، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدًا سريعا صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النار، وله موضع في البلاغة عجيب، وذلك أن انتشار الشيب في الرأس لا يتلافى كاشتعال النار[1].

ويعد الباقلاني كذلك من أبرز من سلكوا هذا الباب في الموازنة بين ما ورد في القرآن من ضروب البلاغة وبين أبلغ ما حفظ عن العرب من ذلك مما عُدّ في أقصى

---

(١) للمزيد من ذلك يراجع (النكت في إعجاز القرآن) للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ص ٧٦ وما بعدها.

درجاتها، وذلك في الفصلين السابع والثامن من كتابه (إعجاز القرآن).

لقد ظل القرآن أسلم وأبعد ما يكون في فصاحته وبلاغته عن أي طعن من فصحاء العرب رغم تشوف كفارهم إلى ذلك، ورغم أن انتقاد الكلام، كان دأبهم شعرًا ونثرًا، واستدراك بعضهم على بعض كان ديدنهم رغم قلة الدواعي.

ومما ورد في ذلك ما ذكره الرافعي من استدراك الخنساء على حسان بن ثابت في شعر أنشده بعكاظ، قال فيه:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابن محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء: ضعف افتخارك، وأبرزته في ثمانية مواضع، قال: وكيف؟ قالت: قلت"لنا الجفنات" والجفنات ما دون العشر، فقللت العدد، ولو قلت " الجفان" لكان أكثر، وقلت: "الغر" والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت: "البيض" لكان أكثر اتساعًا، وقلت: "يلمعن" واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولو قلت "يشرقن" لكان أكثر، لأن الإشراق أدوم من اللمعان، وقلت: "بالضحى" ولو قلت: "بالعشية" لكان أبلغ في المديح، لأن الضيف بالليل أكثر طروقًا، وقلت: "أسيافنا"، والأسياف دون العشر، ولو قلت: "سيوفنا" كان أكثر، وقلت: "يقطرن" فدللت على قلة القتل، ولو قلت: "يجرين" لكان أكثر، لانصباب الدم، وقلت "دما" والدماء أكثر من الدم، وفخرت بمن ولدت، ولم تفتخر بمن ولدوك)[١].

ومثل ذلك أو أقل منه لم يحدث في كلمة من القرآن فضلا عن آية رغم كثرة دواعي القوم للطعن والمعارضة.

ثانيًا: إعجازه في نظمه وأسلوبه

لقد تفرد أسلوب القرآن ونظمه، وتفوق على أساليب العرب ونظمهم رغم بلاغتهم، وبلوغهم الغاية في هذا المضمار، ومن أبرز شواهد هذا التميز ما يلي:

أولا: جمع القرآن في أسلوبه ونظمه بين مقصدين: مقصد الموعظة، ومقصد التشريع، فنظمه يفيد بظاهره السامع ما يحتاج إلى علمه، وهو في ذلك يشبه خطب العرب، ومع ذلك فقد ضم معناه ما يستخرج منه العلماء الأحكام الكثيرة في التشريع،

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي: هامش ص ٢٢٥.

وفي الآداب وغيرها.

ثانيا: تفننه، وبداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتذييل والتنظير، والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرار الكلمة، وإكثاره من أسلوب الالتفات، وهو من أعظم أساليب التفنن عند العرب.

ثالثا: عدوله عن تكرار اللفظ والصيغة فيما لا يقتضي التكرار بقصد التهويل ونحوه، ومما عدل فيه عن التكرار قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: ٤). فجاء في الآية لفظ قلوب جمعًا مع أن المخاطب امرأتان ولم يكرر الصيغة ويقل "قلباكما" تجنبا لتعدد صيغة المثنى[١].

رابعا: براعته في تصريف القول، وثروته في أفانين الكلام، إذ يبرز المعنى الواحد بألفاظ وطرق مختلفة بمقدرة عظيمة لا تباريها أو تقاربها مقدرة من فصحاء العرب، ولما كان المقام ليس مقام استقصاء، فإن الأمثلة تكفي في الدلالة على المراد:

(أ) ففي مجال طلب الفعل من المخاطبين أورد في ذلك صيغا كثيرة منها:

١- الإتيان بصريح مادة الأمر: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

٢- الإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣).

٣- الإخبار بكونه على الناس ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران: ٩٧).

٤- الإخبار عن الفعل بأنه خير: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ (البقرة: ٢٢٠). وغير ذلك كثير في هذا المجال

(ب) وفي مجال النهي عن الفعل استعمل وسائل متعددة منها:

١- الإتيان في جانب الفعل بمادة النهي: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ (الممتحنة: ٩).

٢- نفي الحل عنه: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ (النساء: ١٩).

٣- وصفه بأنه ليس برًا: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ (البقرة: ١٨٩).

---

(١) يراجع في المزيد من ذلك: التحرير والتنوير: ١/١١٥-١١٧.

وغير ذلك كثير في هذا المجال.

(ج) وفي مجال تعبيره عن إباحة الفعل استخدم طرقا كثيرة منها:

١- التصريح في جانبه بمادة الحل: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ (المائدة: ١).

٢- نفي الإثم عنه: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ١٧٣).

٣- الأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ (البقرة: ١٨٧). وغير ذلك كثير في هذا المجال [١].

خامسا: ومما تميز به أسلوب القرآن الكريم تصرفه في حكاية أقوال المحكي عنهم، بصياغتها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت بها.. قال الطاهر بن عاشور: (فهو إذا حكى أقوالاً غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية، وإذا حكى أقوالاً عربية تصرف فيها تصرفا يناسب أسلوب المعبر، مثل ما يحكيه عن العرب، فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم، بل يحكي حاصل كلامهم، وللعرب في حكاية الأقوال اتساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية) [٢].

هذا طرف من بيان إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه، وبالجملة فهذا الوجه والذي قبله يقوم بهما لفظ القرآن، ويتفرد عن غيره من الكلام، وما أحسن قول أبي سليمان الخطابي (وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.. وقد توجد هذه الفضائل على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددا) [٣].

وكما قلنا من قبل.. فإن الإعجاز اللغوي وجه لا يتسرب إليه الطعن بأي حالة،

---

(١) يراجع في ذلك مناهل العرفان للزرقاني: ٢/ ٣١٩ - ٣٢١.

(٢) التحرير والتنوير: ١/١٢٠، ١٢١.

(٣) بيان إعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ص ٢٧.

فبلاغة القرآن وفصاحته لا تخلو منها سورة من سور القرآن الكريم، ولا آية من آياته، وهذا قد يخالف وجوه الإعجاز الأخرى التي ساقها العلماء مثل الحديث عن الأخبار الماضية وسير الأولين، أو الآيات التي تشير إلى حقائق علمية، أو نحو ذلك:

(لذلك كان نظم القرآن أعدل الآراء في وجوه الإعجاز وبيان سببه، وهذا الرأي هو الذي مال إليه الحذاق من أهل الصنعة، وأخذ به الجمهور من العلماء) (١).

ثالثا: إعجاز في إخباره بالغيوب المستقبلة

مما جاء به القرآن الكريم في مجال إعجاز البشر أنه أخبر بأمور تقع في المستقبل، فجاءت كما أخبر، لم تتخلف أو تتغير، وهذا ما لا سبيل للبشر إليه بحال، وذلك في القرآن كثير، لكنا سنضرب أمثلة منه تكون دليلا على ما سواها.

أولا: لعل أوضح ما يذكر في هذا المجال ما جاء في آيات التحدي بالقرآن ذاتها، فقد أخبر الله تعالى أن الكفار سيعجزون عجزًا كاملاً مطبقا عما ووجهوا به من التحدي أن يأتوا بمثل القرآن أو بسورة من مثله، وذلك في قوله سبحانه ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤). فكان الأمر كما أخبر، يشهد بذلك الواقع، فلم يستطع عربي فضلا عن أعجمي أن يقوم بهذا التحدي ويأتي بسورة من مثله.

ثانيا: إخبار القرآن بالتمكين للمسلمين، ونصرهم وتأمينهم، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥). وقد مكن الله لهم بالفعل، وظهر الإسلام، وقامت دولته، وملكت مشارق الأرض ومغاربها في وقت يسير كما هو معروف في تاريخ الإسلام، ونسأل الله تعالى أن يعيد هذا التمكين وأن يعز الإسلام وأهله.

(١) مع القرآن في إعجاز وبلاغته، د. عبد القادر حسين: ص ١١٤.

ثالثا: إخباره بنصر المؤمنين وإحقاق الحق، وهزيمة الكفار واندحارهم، أخبر ذلك قبل أول قتال في بدر، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٢). وقوله سبحانه: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٥). وقد نزلت هذه الآية في مكة، وقد حدث ما أخبرت به في المدينة في بدر بدقة كانت مثار عجب عند الصحابة رضوان الله عليهم أنفسهم، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قال: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ فلما كان يوم بدر رأى رسول الله ﷺ يثب في الزرع وهو يقول﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، فعرف تأويلها يومئذ) [1].

رابعا: إخباره بدخول النبي ﷺ والمسلمين المسجد الحرام آمنين، وذلك في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٧).

وقد تحقق ذلك ودخله النبي ﷺ وأصحابه في عمرة القضاء [2].

خامسا: إخباره بانتصار الروم بعد هزيمتهم المنكرة أمام الفرس، وذلك في قول الله سبحانه: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الروم: ٢-٥).

وقد تحقق ذلك في أقل من عشر سنين كما ورد في حديث ابن عباس. [3]

سادسا: إخباره بعدم تمني اليهود الموت، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لله مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة: ٦-٧). وذلك متحقق دوما، فلم يحدث- ولن يحدث-أن تمنى يهودي الموت- ولو ادعاءً-

(١) يراجع في ذلك: تفسير ابن كثير ٢٦٦/٤.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة: ٤٦٥/٢.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الروم (٣١٩٣)، وأحمد (٢٧٦/١)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٩/١٢)، والحاكم في المستدرك (٤١٠/٢) كلهم من طريق أبي إسحاق الفزاري عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عنه.

قال الترمذي: حسن صحيح غريب. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

مناقضة للقرآن.

والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذا المقام. وبعدما ذكرنا فإن لنا تعقيبا وبيانا نسوقه فيما يلي:

(أ) المقصود من هذا الوجه من وجوه الإعجاز هو إثبات أن القرآن وحي من عند الله تعالى باعتبار ذلك دليلا لا يقبل الجدل، إذ ليس في مقدور أحد من البشر أن يتنبأ بشيء فيصدق كما قال تماما، ولو حدث ذلك مرة أو مرات على سبيل الافتراض فإن ذلك لا يمكن أن يكون أمرًا دائما مطردًا.

(ب) أن هذا الوجه دليل إعجاز للقرآن في مجمله، بمعنى أنه قد يوجد في بعض السور ولا يوجد في الكثير منها، فهو من علامات الإعجاز التي يوصف بها القرآن باعتباره وحيًا، وليس من خصائص ألفاظه، وبهذا التفسير لا يمكن المماراة في هذا الوجه بأن يقال: إن العرب معذورون إذا قالوا: إننا قادرون على معارضة القرآن متمكنون من الإتيان بمثله غير أنه يشتمل على ما لا يمكن معرفته، ومن ثمَّ الإتيان بمثله.

وبالجملة، فإنه دليل إعجاز، ولكن لا يستقل بالغرض في إثبات إعجاز القرآن، فهو ليس بالأمر العام في كل سورة من سور القرآن، وعليه فإن موطن التحدي هنا إذا قلنا به مقدمة للإعجاز إنما يواجه به من ادعى أن القرآن من عند محمد ﷺ.

رابعًا: إعجازه في إخباره عن القرون السابقة والأمم البائدة

لقد حفل القرآن بأخبار السابقين الأولين من الرسل مع أقوامهم، ومن غير الرسل، فجاء فيه قصص: آدم ونوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى ويحيى وزكريا وعيسى وغيرهم عليهم جميعًا السلام، كما جاء فيه قصص: ابني آدم، وأصحاب الكهف، وأصحاب السبت، وأصحاب الجنة، وأصحاب الأخدود، ولقمان، وقارون وغيرهم.

ولما كانت القسمة العقلية في معرفة الأحداث والوقائع وأخبارها في القرآن بالنسبة لرسول الله ﷺ، وهو الذي جاء قومه بذلك تقتضي واحدًا من أربعة فروض، فإن تحقيق هذا الوجه من الإعجاز يقتضي عرض هذه الفروض على واقع الرسول ﷺ ليتبين أن ما جاء به وحي من عند الله تعالى:

الفرض الأول: حضوره ﷺ، ومشاهدته أحداث هذه القصص، وإخباره بذلك عن معاينة، وذلك مردود بالواقع والتاريخ بداهة، وعلى الرغم من ذلك لفت القرآن النظر إلى

ذلك في أكثر من موضع، ففي قصة مريم يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران: ٤٤). وفي قصة يوسف عليه السلام يقول: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢).

وفي قصة موسى عليه السلام يقول﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٤٦).

الفرض الثاني: أن يكون النبي ﷺ قد قرأ هذه القصص، وعرف أخبارها من مصادر مكتوبة، ثم نقلها إلى القرآن، وذلك مردود بأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وتلك حقيقة عرفها العرب، كما سجلها القرآن واحتج بها عليهم: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

الفرض الثالث: أن يكون قد تعلمها تلقيا ومشافهة عن غيره، وذلك مردود بأنه لم يعرف عنه ﷺ أنه جلس إلى معلم أو تلقى عن أحد، ولما حاول المشركون ادعاء ذلك عليه ﷺ وقعوا في عثرة عمرهم، وسوءة فعلهم، فقد فضحهم القرآن إذ نسبوا تعليمه إلى حداد رومي لا يدري شيئا عن أخبار السابقين، ولا يعرف شيئا عن فصاحة العربية وبلاغتها: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣).

لم يبق إلا الفرض الرابع والأخير، وهو الحق الذي لا معدل عنه، وهو أن النبي ﷺ قد أوحي إليه بها في جملة ما أوحي إليه من القرآن، فهي حق من حق كما وصفها الله تعالى في أكثر من موضع: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢). ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ (القصص: ٣). ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ (الكهف: ١٣).

فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيرًا من قصص القرآن قد سبق ذكره في كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، وأن أحدًا من هؤلاء لم يستطع أن يطعن في حقيقة من حقائق القصص القرآني -بل القرآن هو الذي صوب لهم- عرفنا يقينا، وقامت الحجة وألزمت الجميع أن هذا القصص بما جاء فيه كله وحي من عند الله عز وجل.

وهنا ننبه كما نبهنا في الوجه السابق أن هذا الوجه دليل إعجاز لا يستقل بإثبات

ذلك للقرآن سورة سورة، وآية آية، فهناك سور كثيرة تخلو من القصص وأخبار السابقين، وعليه فإن موطن التحدي هنا إنما يواجه من كان في مثل حال النبي ﷺ -في الفروض التي ذكرنا آنفًا- أن يجيء بمثل ما جاء به رسول الله ﷺ.

خامسًا: الإعجاز النفسي

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى:

(ما أظن امرأ سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم لا يزعم أنه لم يتأثر به: قد نقول: فلم يتأثر به؟ والجواب أنه ما من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه.

(إن القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب إلى أولئك جميعا، وكأنه يعرف ضائقة كل ذي ضيق، وزلة كل ذي زلل، ثم تكفل بإزاحتها كلها، كما يعرف الراعي أين تاهت خرافه، فهو يجمعها من هنا وهناك، لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحد منها ... حتى الذين يكذبون بالقرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله.. إنهم يقفون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل! قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه، ولكنه يؤخذ فترة ما بصدق العاطفة الباكية، أو مثلما يقف الخلي أمام خطيب يهدر بالصدق، ويحدث العميان عن اليقين الذي يرى ولا يرون.. إنه قد يرجع مستهزئا، ولكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها) [1].

هذا التأثير النفسي الذي أشار إليه الشيخ رحمه الله هو من أظهر خصائص القرآن الكريم التي تبرز عند سماعه، فيمضي سامعه في تفكير يملك عليه أقطار نفسه، فيفضي به إلى الإيمان إذا صفت نفسه واستقامت فطرته، أو يفضي به إلى مزيد من العناد يدفع به هذا التأثير الغالب خشية الاقتناع به إذا كان السامع غليظ القلب جاحدًا للحق مظلم النفس، وعندها يأتي من أبواب التدليس والكذب ما يعلل به هذا العناد.

ولكل مما ذكرنا مما يفضي إليه تأثير القرآن في نفوس سامعيه أمثلة:

فمن أمثلة التأثير المفضي إلى الإيمان ما أخرجه البخاري [2]. من حديث جبير بن مطعم أنه قال سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَ يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ

(1) نظرات في القرآن: 127، 128.

(2) في صحيحه: كتاب التفسير، باب من سورة الطور.

خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ (الطور: ٣٥-٣٧). كاد قلبي أن يطير.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى (قوله: " كاد قلبي أن يطير" قال الخطابي: كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها، ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه، ثم قال: فلهذا انزعج جبير حتى كاد قلبه يطير، ومال إلى الإسلام)[(١)].

ومـــن هـــذا القبيل كذلك ما ورد في قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند سماعه القرآن في بيت أخته فاطمة وكانت قد سبقته إلى الإسلام، والقصة وإن لم ترد من طريق صحيحة إلا أن دلالتها غير منكورة.

قـــال الدكتور أكرم ضياء العمري في عرضه لقصة إسلام عمر رضي الله عنه: (أما قصة استماعه القرآن يتلوه الرسول ﷺ في صلاته قرب الكعبة، وعمر مستخف بأستارها، وكـــذلك قصته مع أخته فاطمة حين لطمها لإسلامها، وضرب زوجها سعيد بن زيد، ثم اطلاعـــه على صحيفة فيها آيات وإسلامه، فلم يثبت شيء من هذه القصص من طريق صحيحة.

ولكن الحافظ ابن حجر ذكر بأن الباعث له على دخوله الإسلام ما سمع في بيت أخته فاطمة من القرآن[(٢)].

(ولا شك أن القرآن ببيانه الساحر، وروعة تصويره لمشاهد القيامة، وصفة الجنة والنار كان له تأثير في اجتذاب عمر إلى صف المسلمين، لأن عمر كان يتذوق الكلام البليغ ويعجب به، وعدم ثبوت الروايات حديثيًا لا يعني حتمية عدم وقوعها تاريخيًا)[(٣)].

أمـــا الـــتأثير الـــذي قوبل بالعناد لدفعه وعدم الاستسلام له، فمن أمثلته ما ذكره الـــسيوطي وغيره من مجيء عتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ وكلامه إياه فيما جاء به قومه مما يخالـــف ما هم عليه، وأن النبي ﷺ تلا عليه سورة فصلت إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُـــلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وعند ذلك أمسك عتبة بيده على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم أن يكف، وأنه قام لا يدري بما يراجع رسول الله ﷺ: ورجع إلى أهلـــه ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر لهم وقال: والله لقد كلمني بكلام والله ما

---

(١) فتح الباري: ٨/٦٠٣.

(٢) يشير إلى ما ذكره ابن حجر في الفتح: ٧/١٧٦.

(٣)السيرة النبوية الصحيحة: ١/١٨٠، ١٨١.

سمعت أذناي بمثله قط، فما دريت ما أقول له[١]. وعاند عتبة وظل على كفره، وكان من قتلى المشركين في بدر.

ومن هذا القبيل كذلك ما أخرجه الحاكم[٢]. وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوا لله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (المدثر: ١١-٢٦).

إن الأثر الذي يحدثه القرآن أعظم من أن تقوم له من الأرض جبالها الرواسي ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١).

وفي طبيعة هذا الأثر لدى المؤمنين جاء قول الله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

وفي طبيعة هذا الأثر لدى المعاندين جاء قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤١). وفي كليهما على طريق المقابلة جاء قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢).

هذا هو أثر القرآن تنطق به آياته المباركة، وينطق به كذلك واقع الناس في كل وقت،

---

(١) يراجع في ذلك: الدر المنثور للسيوطي: ٧/٣١٠، ٣١١.

(٢) المستدرك: كتاب التفسير، تفسير سورة المدثر: ٢/٥٠٦، ٥٠٧.

وما زلنا نشاهد هذا الأثر في نفوس سامعيه: خشوعًا وخضوعًا للحق إذا صفت الفطرة واستقامت النفوس، وخوفًا من سطوة هذا الأثر إذا أظلمت القلوب وأصرت على الكفر، فتتخذ حينئذ من أجل ذلك وسائل تحول بينها وبين هذا التأثير، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

ذلك هو ما اصطلح على تسميته -من بين وجوه إعجاز القرآن- بالإعجاز النفسي، وهو موضع عناية علماء المسلمين من قديم، قال القاضي عياض مشيرًا إلى تأثير القرآن في النفوس وهو يعد وجوه الإعجاز (ومنها: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيئة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وإنافة خطره، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفورا كما قال تعالى، ويودون انقطاعه لكراهتهم له... وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابًا، وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه، وتصديقه به)[(١)].

سادسا: إعجاز القرآن في هديه وتشريعه

جاء القرآن الكريم بشرائع الهدى لإصلاح الخلق، وإقامتهم على طريق الحق والفلاح، فلم تسمُ شريعة من الشرائع أن تبلغ ما في شريعة القرآن من: إحكام، ويسر، ودقة، ذلك أنها شريعة الله تعالى التي تنطلق في تكاليفها من رحمته سبحانه بعباده، ومراعاة مصالحهم وقدراتهم البشرية، قال الله تعالى ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) وقال سبحانه ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥). وقال عز وجل ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ (المائدة: ٧).

لقد ألزم تشريع القرآن بالواجبات إلزاما، ثم هو بعد ذلك جعل للضرورات أحكامها ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣). ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٤٥).

وجعل للرخص مجالاتها: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: ١٠٦).

لقد تميز تشريع القرآن وهديه بسوقه ما يسوق من تكاليف الدين موصولة بمصدرها، وبكونها مما أمر الله به سبحانه، فهي بذلك ليست في إتيانها كمالاً يمكن

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١/٢٣٠، ٢٣١.

الوقوف دونه، أو ترفا يمكن التنازل والاستغناء عنه، وإنما هي من صميم إيمان المؤمن، وكذلك يمتاز بسوقه لهذه التكاليف في إيجاز لفظي يسهل استيعابه، ويمكن معرفة ذلك من قول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣).

وكذلك من قول الله سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا * وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً * وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (الإسراء: ٢٣-٣٥). وكما جاء ذلك في سورة الفرقان في الآيات: ٦٣-٧٦وفي سورة لقمان في الآيات: من ١٣-١٩.

كما تميز تشريع القرآن وهديه بتوازن دقيق- لا تستقيم حياة البشر إلا به- بين تطلعهم إلى الدنيا وحاجتهم فيها، وسعيهم إلى الآخرة وتشوقهم إلى ثوابها، فجاء من

آيات القرآن ما يرسي جوانب هذا المنهج في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأنعام: ١٤١، ١٤٢).

وقوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣١-٣٣).

وكذلك في قول الله عز وجل: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

كما تميز تشريع القرآن وهديه بتلطفه إلى النفوس البشرية عند تكليفها بما يريد ليقودها قودًا جميلا إلى الامتثال، وييسر عليها المشقة بما يرتبه على صالح العمل من عظيم الأجر.

فهو إذا تعرض لتشريع الزكاة- والأنفس شحيحة بالمال- جعلها طهرة للمال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٢).

وإذا تعرض لتشريع الحج- وهو عبادة مبنية على المشقة غالبًا- قرنه بمنافع مشهودة للحجيج، فقال ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (الحج: ٢٧، ٢٨).

وإذا تعرض للأمر بالصلاة بين أنها طريق للطهارة من الآثام، والبعد عن الفواحش: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

وإذا تعرض لأصول الإيمان والعبادات مجتمعة وصفها بالبر، ورتب عليها التقوى، فقال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة /١٧٧).

وهو يخاطب في النفس البشرية رغبتها في النعيم، ورهبتها من الجحيم: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١-١٠٣).

وهو بعد ذلك كله يعين على الأعمال الصالحة بضمان ثوابها لكل عامل دون تفرقة في جنس العاملين ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

ومن أشهر من لفت النظر إلى هذا الباب في القرآن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسيره الموسوم (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) فإنه عند تفسير قول الله تعالى﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩). قال ما نصه (وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها جميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا إن شاء الله تعالى سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بيانا لبعض ما أشارت إليه هذه الآية الكريمة، تنبيها ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة)[١].

وبالفعل ساق الشيخ من ذلك مسائل متعددة ذكر فيها هدى القرآن التي هي أقوم وأعدل في مجالات كثيرة لا يتسع المقام لذكرها، فليرجع إليها من شاء في هذا التفسير في المجلد الثالث منه.

---

(١) أضواء البيان: ٣/٤٠٩.

ومن اهتم بهذا الجانب كذلك الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى في كتابه (المعجزة الكبرى) وكذلك الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني رحمه الله تعالى في كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن)

وبالجملة: فإن هدى القرآن وتشريعه في إصلاح حياة البشر، وفي مراعاته لكل طوائفهم، وصلاحه لكل أزمنتهم وعصورهم تشريع معجز، لا يرقى إليه ولا يستطيعه تشريع بشري.

الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

كثرت في الآونة الأخيرة وبالتحديد عبر القرنين الماضيين أو دونهما دراسات خرجت من ذاتية الإعجاز النفسي للقرآن إلى صور أخرى من الإعجاز لا تتأتى بغير التأويل البعيد لبعض آيات القرآن الكريم.

"ومعجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين في كثير من زوايا الإعجاز، وللقــرآن إعجاز لا يتنبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكــون وأســراره، حينئذ يتبين أن للقرآن وجوهَ إعجازٍ أخرى أو جديدة تزيد في معنى الإعجاز أو تعطي أبعادا جديدة لما يقال " [(١)].

هــذا ما قرره الشيخ الشعراوي من أن ابتداء تنبه المسلم إلى وجه إعجازي قد لا يتأتى من القرآن مباشرة، بل ينبع رفده من الكون ويبزغ بريقه من أسرار هذا الكون سواء ما كان بالفكر العقلي المجرد أو بواسطة ما يتوصل به إلى غموض هذه الأسرار من وسائل.

ويقــول الــشيخ: " فإذا انتقلنا إلى الاختراعات الحديثة نجد أنها اكتشاف لقوانين الكون" [(٢)] وفي صفحة أخرى يقول الشيخ [(٣)] " إن القرآن لم يأت ليعلمنا أسرار الوجود ولكــنه أشــار إليها وسجلها ليظهر الإعجاز الإلهي للناس في كل عصر ومع تقدم العلم البــشري... علــى أن ربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية شيء لا يجب أن يحدث، فالقــرآن لا تُرْبَطُ صحتُه باتفاقه مع نظرية علمية أيا كانت ولكن العلم هو الذي يستمد صــحته وبيانه إذا اتفق مع آيات القرآن الكريم، فكل علم مخالِف لحقائق القرآن هو علم زائف، لأن قائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى وخالق الكون هو الله سبحانه وتعالى ".

---

(١) معجزة القرآن محمد متولي الشعراوي جـــ١ ص ٢٣.

(٢) معجزة القرآن محمد متولي الشعراوي جـــ٢ ص ٢٨٧.

(٣) معجزة القرآن محمد متولي الشعراوي جـــ٣ ص ٣٩٨، ٣٩٩.

والأســتاذ فوزي شعبان مترجم كتاب أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية لمــؤلفه دكتور موريس بوكاي في مقدمة الترجمة يقول (١): " وقد احتوى القرآن الكريم علــى آيــات بينات في العلوم الطبيعية أخرجها الأستاذ يوسف مروة في كتاب " العلوم الطبيعــية في القرآن الكريم " وبلغت. ٧٧٤ آية بالتحديد ومفصلة كما يلي: الرياضيات ٦١، الفيزياء ٢٦٤، الذرة ٥، الكيمياء ٢٩، النسبية ٦٢، الفلك ١٠٠، المناخيات ٢٠، المائــيات ١٤، علم الفضاء ١١، علم الحيوان ١٢، علم الزراعة ٢١، علم الأحياء ٣٦، الجغــرافيا العامة ٧٣، علم السلالات البشرية ١٠، علم طبقات الأرض ٢٠، علم الكون وتاريخ الأحداث الكونية٣٦ "

وقــد سبق الأوائلُ إلى تعداد ما يحتويه القرآن من مثل ذلك، فقال ابن أبي الفضل المرسي في تفسيره: جمع القرآن علومَ الأولين والآخرين بحيث لم يُحِطْ بها علما حقيقة إلا المتكلم بها ثم رسولُ الله ﷺ خلاف ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم روت عنه- أراد عن النبي ﷺ - معظمَ ذلك سائرُ سادات الصحابة وأعلامهم...... إلى أن قال: ونظر قوم إلى مــا فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة فذكر علم المواقيت والمعاني والبيان والبديع والطب والهيئة والهندسة والجدل والمقابلة والنجامة وأصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها:

كالخــياطة والحــدادة والبناء والنجارة والغزل والنسيج والفلاحة والصيد والغوص والــصياغة والــزجاجة والفخــارة والمِلاحة والكتابة والخبز والطبخ والغسل والقصارة والجــزارة والبيع والشراء والصبغ والحجارة والكيالة والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله تعالى ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ انتهى ملخصا من الإتقان (٢).

وقال ابن سراقة من بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة والتصنيف والمضاعفة ليَعْلَمَ بذلك أهــلُ العلم والحساب أنه ﷺ صادق في قوله، وأن القرآن ليس من عنده إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى الحُسَّابَ وأهل الهندسة (٣).

---

(١) أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية ص ٥.

(٢) الإتقان من ص ١٠٢٧ إلى ص ١٠٣٣ جـ٢.

(٣) الإتقان ص ١٠٣٣ جـ٢.

وتحت عنوان شهادات منصفة ساق الأستاذ محمد سامي محمد علي في كتابه " الإعجاز العلمي في القرآن الكريم [(١)] شهادة أحد مشاهير العلماء، وهو عالم غربي من أكبر الجراحين والأطباء المشهورين وهو الدكتور موريس بوكاي الذي شرح الله صدره للإسلام فأسلم بعد علم ودراية.

وقد ألقى الدكتور محاضرة في أكاديمية العلوم الفرنسية بباريس سنة ١٩٦٧ حضرها حشد كبير من العلماء في شتى فروع العلوم الحديثة، وبعد أن عرض حقائق القرآن الكريم في شتى ميادين العلم سأل أخيرا هؤلاءِ العلماءَ قائلا:

" هل لكم أن تخبروني من أين جاء محمد بهذا العلم الحديث، وقد أكدتم أنفسُكُم يا علماء الغرب والشرق وبعد محاولات طويلة عبر الزمن أن ما جاء منسوبا للتوراة والإنجيل جاء مناقضا للعلم الحديث ومفاهيمه كافة فطرحتموه جانبا، تاركين أمره لخيال المؤمنين وأهل الأديان . . . فمن أين لمحمد هذا العلم ؟"

فسكت الجميع . . ولا من مجيب . . فقال بوكاي:

بالطبع لا جواب عندكم! والجواب عندي: أنه من عند الله وأن محمدا رسول الله، وقد أحدثت هذه المحاضرة ضجة إعلامية في أنحاء أوربا.

ميزان تفسير الآية تفسيرا يتعلق بالعلوم الحديثة:

واستقبل الأستاذ محمد سامي الحديث عن علوم الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بميزان لتفسير الآيات تفسيرا يتعلق بالعلوم الكونية قائلا [(٢)] "النظرية - التي بين الأخذ والرد - لا يصلح لنا تطبيقها على الآية القرآنية أما الحقيقة العلمية فمن المستحيل أن تتناقض أو تتصادم مع الآية القرآنية، وتتحدى الآن أو في المستقبل ظهور حقيقة علمية تخالف القرآن الكريم.

إذًا لا مانع إطلاقا أن نطبق الحقيقة العلمية على الآية القرآنية التي تلفت الأنظار إلى إشارات علمية كونية.

لكن علينا ونحن نبحث في أسرار القرآن الكريم لاستخراج الدرر واللآلئ العلمية أن نخضع تفسيرنا هذا لشروط نصَّ عليها علماء التفسير الذين عُنُوا بمناهج البحث، وهذا

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ص ١١٦، نقله عن كتاب القرآن والعلوم الحديثة لإبراهيم فواز عراجي ص ٦١.

(٢) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم محمد سامي ص ٢٦.

الميزان لا يتمثل في أكثر من الميزان الذي نعتمد عليه لتفسير أي كلام عربي، ويتكون هذا الميزان من المقومات والأركان التالية:

١. خضوع التفسير لدلالات اللغة العربية وقواعدها التي لا خلاف عليها.

٢. خضوعه لقواعد تفسير النصوص المتفق عليها كأحكام العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والمنطوق والمفهوم وما إلى ذلك من قواعد.

٣. ألا يتعارض التفسير معارضة حادة مع مضمون أي آية أخرى في القرآن بحيث لا يمكن الجمع بينهما بحال تحت ظل أي قاعدة من قواعد تفسير النصوص.

٤. ألا يتعارض التفسير معارضة حادة مع الدلالة الثابتة لنص حديث نبوي صحيح بحيث لا تترك هذه المعارضة سبيلا سائغا للتوفيق بينهما ".

ومن خلال التطبيق لضوابط هذا الميزان تلزم ضرورةُ الانطلاق من القرآن الكريم، وفي قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ...﴾ تحديد لكيفية الرؤية العلمية، بازغة أولاً من القرآن الكريم وهي في أوج ظهورها في الكون شاهدة بصدق القرآن، ولكن حين نأخذ من المشاهد النظرية تفسيرا للقرآن نكون قد أوقفنا أنفسنا في منزلق خَطِر، إذا ما جنحت النظرية إلى تعارض مع نظرية أخرى، وبالتالي يتوجب علينا التحسب إلى مثل هذه الأمور، فإنه حين يخفق المرء في استخراج المعاني المزيحة لحجب الجهل البشري بنور العلم القرآني ينصرف العلماءُ - بحسن نية هي السذاجة في أصلها - وأشباهُ العلماء - إلى درك مطالب الإلحاح الساذج أن العلمَ يوافقُه القرآنُ.

وتفاسير القرآن على ضوء العلوم الحديثة - كتفسير المراغي والجوهري لم يثبت مضمون ما احتوته من مثل هذا بعد. ونخشى أن يستدعي هذا ضعضعةَ الإيمان في بعض النفوس التي لا تفرق بين خطأ المفسر أو الباحث وصحةِ النص القرآني [(١)].

وهناك من يرى صحة الانطلاق من خارج القرآن فيقول [(٢)].. (ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف) مع أنه يبين معنى قولٍ منسوب إلى المسيح هو " ويخبركم بأمور آتية " ومعلوم أن الخبر لا يتوقف فهمه على

---

(١) فكرة الإعجاز ص ٣٩٠.

(٢) قالوا عن الإسلام الندوة العلمية للشباب الإسلامي ص ٤٩ نقلاً عن كتاب محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٤٧، ٤٨ لمؤلفه إبراهيم خليل أحمد وهوقس من مواليد الإسكندرية أسلم رسمياً عام ١٩٥٩م وانظر الكتاب نفسه محمد في التوراة والإنجيل والقرآن دار المنار للنشر والتوزيع ط ١٤٠٩هـ — ١٩٨٩م ص ٥٥ فهو موضع الاستشهاد.

أمر لاحق.

وكل هذا الكلام يصح في أبعاض كل هذه الفروع العلمية، فحين تجد فرعا منها لا يلزم أن تستغرق الآيات تفاصيلَ هذا الفرع، ولكن تمتد من القرآن آيات توضح وتفسر بعض الحقائق الكونية في ظواهرها الطبيعية.

فكل ما يقع تحت رؤية البشر مع استدامة توحُّدِ هذه الرؤية مَدَّ الزمن هو الذي يُفترض فيه أن يكون حقيقة تواكب إشارات القرآن على نحو لا يُحْدِثُ اختلافا في المفهوم في زمن ما.

وما يأخذ في حين تفسيرا يختل في حين آخر لا شك شيء لم يُعَايَنْ بغير افتراضاتٍ ونظريات بُحِثَ لها عن تفسير فيه مجمل تفصيل الرؤية لظاهرة غامضة التفسير، غائرةَ المدى.

وأقرب مثال طروء تناقضات عدة في تفسير اختلاف حركة الشمس أو الأرض أو همـــا معـــا، والصورة التي تتخذها الأرض في الذهن لإقامة تفسيرٍ لا برهانَ، على النظام الشمسي الدقيق، حتى بدت في أفق علم الفلك نظريات ثلاث تشرح كل منها تعليل الليل والنهار والفصول الأربعة وغير ذلك مما يتعلق بهذا.

وإحـــدى هـــذه النظريات - نظرية كوبرنيقوس - يمكن القول إنها استحكمت في التصور الفكري البشري واستولت عليه، بغض النظر عن دلالات نصوصٍ دينية.

ولم يكن للقرآن أن يقبض إسهاماته في سبر البشر أغوار ظواهر الكون فأمد بما يقيم به نظرية وينفي به أخرى، ولا كمال للقبولِ لنظرية واحدة من الثلاث، بل تحتمل الآياتُ والأحاديثُ مباركةَ كلِّ نظريةٍ في طرف منها أو في بعضها الأكبر..

فحين تفترض بعض النظريات أن الأرض في شكلها كرة مفلطحة "غير كاملة الاستدارة" وتدور حول نفسها وحول الشمس ليحدث بالدورتين الليل والنهار والفصول الأربعة، ترى نظرية أخرى أن الأرض لا تدور بل ليست لها جاذبية، وتنفي بعضا مما ألفه الناس وآنسوه من نظرية كوبرنيقوس التفسيرية لحركة المجموعة الشمسية، ونجد النظرية المعارضة للمألوفة من النظريات ترى أن الأرض لا تدور وإنما تدور حولها الشمس [١] وأن سجودها تحت العرش يكون فوق المحيط في الجهة المقابلة لمركز اليابسة " مكة

(١) قصة الخلق من العرش إلى الفرش عيد ورداني. الشركة العصرية للنشر – المركز الدولي للنشر، الصفحات ٢٩٤، ٣٥٢، ٣٨٧، ٤٧٧، ٥٣٣.

المكرمة " وأن هذا الموضع لا يختلف باختلاف الأيام على مدار العام.

وتبرز نظرية ثالثة تعضد النظرية الوردانية السابقة في بعضها وتختلف عنها في أن الكون أرضي بمعنى أن الأرض ليست كروية، بل مجوفة مسقوفة بالسماء ونحن في الداخل والشمس تدور في فلكها داخل الأرض التي يحيا فيها جميع الأحياء. (١)

ولسنا بحاجة إلى ضرورة مد الأيدي لتؤيد نظرية وتلغي أخرى إلا على أساس من انبثاق وجه مرجح لإحدى النظريات الثلاث.

وما سقت هذا إلا استدلالاً على أهمية التريث في سحب المعاني من النظريات الفرضية التفسيرية للظواهر الكونية إلى معاني القرآن الكريم.

بل يجب أن لا نكترث بعدم التوافق بين النظريات العلمية والمعاني القرآنية، وحَرِيٌّ بـــنا أن نقف على مثال يؤيد أهمية الأخذ من القرآن أوّلا وابتداءً لأنه لا يعطي في بسط المعنى إلا حقائق العلم حين يتكافأ الفهم عن القرآن مع صحة النظر في الكون.

ولقد استجاب الدكتور سعد محمد محمد الشيخ المرصفي لتقرير القرآن لحقيقة كونية في كتابه " الكعبة مركز العالم "(٢) متخذا من قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ منطلقا لبحث الوسطية المذكورة في القرآن، فخرج بنتيجة علمية مركوزة على دراسات بالحاسب الآلي، مفاد هذه النتيجة أن الوسطية لا تعني الوسطية المعنوية فحَسْب، بل يُرَادُ بها كذلك الوسطية الحسية؛ حيث برهن على أن واقع الأرض – بمقاييس العلم الحديث – لا يتوسط يابسها وقراها إلا أم القرى، ومركزها هو الكعبة المشرفة، فتحقق بيان معنى ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: ٦).

ومن هذا يتضح أن ما كان البدء به من القرآن هو المعول عليه في احتسابه وجه إعجاز، أما ما استجلب من تفسير النظريات – دون الحقائق – العلمية، قد يروق في أول الأمر ثم يفارق التوافق الفهم عند بروز نظرية أخرى تناهض الأولى أو تنقضها.

- الإعجاز العددي للقرآن الكريم:

لم يغفل العَادُّون عن تناول القرآن الكريم بالعد والإحصاء، على اختلاف وجهات

---

(١) تناقض علم الفلك مع القرآن الكريم وتوافق نظرية الكون الأرضي معه. مصطفى أحمد عبد القادر.

(٢) الكعبة مركز العالم مكتبة المنار الإسلامية – الكويت، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، ومثل ذلك في كتاب الكعبة المشرفة سرة الأرض ووسط الدنيا. دكتور أحمد السيد دراج. دار العلم والثقافة القاهرة.

النظر في عد القرآن عدا يتضح منه الدقة البالغة في صياغة الآيات بألفاظ توافقية العدد بين لفظة ولفظة أخرى

ومن ذلك الإعجاز العددي للقرآن الكريم للدكتور عبد الرزاق نوفل حيث وجد توافقا عجيباً بين لفظة وأخرى بينهما تناسب.

ومن طريف ما ذكره الدكتور عبد الرزاق [١] نوفل أنه قد ورد ذكر آدم في القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة، ومثل ذلك العدد ورد ذكر عيسى ابن مريم.

وأقول: إذا كان التماثل في قول الله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ تماثلا في الخلق فما يمنع أن يكون كذلك في الذكر لهما في القرآن تأكيدا على هذه المثلية؟

وأفرد صاحبُ كتاب فكرةِ الإعجاز [٢] الدكتورَ محمد رشاد خليفة بالعناية بالبرهان على الإعجاز العددي، وليس كذلك، اللهم إلا إذا أراد انفراده بهذا على الأساس الذي ابتناه قاعدة للعد، وهو الرقم ١٩ الذي استخرجه من عدد حروف البسملة. [٣]

ومع ما يعتري هذه الفكرة من نقد إلا أنها إسهام منه استجلى به بعض الفوائد في كتابه، حيث عدَّ دقة العدد سرًا يحتوي الدليل القاطع على أن القرآن لا يمكن أن يكون مفترى، وأن هذا السر المختفي كما أسماه يوجد في سورة المدثر، بل إن كلمة المدثر تعني " السر المختفي " [٤] ويعرف كل ذلك بواسطة الرقم ١٩ المذكور في قول الله تعالى في هذه السورة ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ٣٠ المدثر.

وحين يستقيم هذا السر في عد الكثير من كلمات القرآن في سور يكون برهانا على أنه ما افتراه بشر، بل هو كلام الله تعالى، وإلا لما كان يحوي مثل هذه الأسرار.

وتأتي نظريتان أسماهما مؤلفهما المعجزة: أبان في الأولى منهما علاقة عددية بين أجزاء وأجزاء الآية الواحدة [٥]، ووضح في النظرية الثانية معالجة القرآن لبعض المفاهيم عن مثل القدر والروح والنفس والزمن وغير ذلك.

---

(١) الإعجاز العددي للقرآن الكريم دكتور عبد الرزاق نوفل ص ٢٤٣.

(٢) فكرة إعجاز القرآن ص ٤٥٦.

(٣) معجزة القرآن الكريم دكتور رشاد خليفة كان خبيراً فنياً بمنظمة التنمية الصناعية هيئة الأمم المتحدة. إمام مسجد مدينة توسان.

(٤) معجزة القرآن الكريم دكتور رشاد خليفة ص ٢، ٥، ٦.

(٥) المعجزة النظرية الأولى مهندس عدنان الرفاعي ص ٤ القدر النظرية الثانية نظرية قرآنية في مسائل القضاء والقدر.

ونكتفي بهذه النواحي التي وُجِّهَ نحوها الحديث إلقاءً للضوء على مدى العناية من الوجهة العلمية البحتة في بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم ولا يغني ما ذكر عن سرد مؤلفات في هذه الفروع العلمية أو بعضها على النحو التالي فإلى ذلك بعون الله.

- مؤلفات في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم

ألمح الحديث فيما سبق إلى بعض ما عرض له الباحثون في الوجوه العلمية لإعجاز القـــرآن وها هي مؤلفات أولت هذه الوجوه عنايةً كبيرةً منها ما تناول وجها ومنها ما بحث وجوها:

١- معجزة القرآن الكريم ٤ أجزاء الشيخ محمد متولي الشعراوي.

٢- أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية - دكتور موريس بوكاي.

٣- خلق الإنسان بين الطب والقرآن - دكتور محمد علي البار.

٤- الصيام معجزة علمية - دكتور عبد الجواد الصاوي.

٥- الظاهرة القرآنية - مالك بن نبي.

٦- المعجزة " النظرية الأولى"، القدر " النظرية الثانية " جزءان - مهندس عدنان الرفاعي.

٧- معجزة القرآن الكريم - دكتور رشاد خليفة

٨- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم مع آيات الله في السماء والأرض جزءان - أ د/حسن أبو العينين.

٩- معجزة القرآن - نعمت صدقي.

١٠- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - محمد سامي محمد علي.

١١- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم د/ السيد الجميلي.

١٢- الإعجاز الطبي في القرآن الكريم - د/ السيد الجميلي.

١٣- إعجاز القرآن في خلق الإنسان - د/ محمد كمال عبد العزيز.

١٤- قصة الخلق من العرش إلى الفرش - عيد ورداني.

١٥- الكعبة مركز العالم - د/ سعد محمد محمد الشيخ المرصفي.

١٦- هندسة النظام البيئي في القرآن الكريم - د/ عبد العليم عبد الرحمن خضر.

١٧- معالم القرآن في عوالم الأكوان - الشيخ أحمد محيي الدين العجوز.

١٨- تـــناقض علم الفلك مع القرآن الكريم وتوافق نظرية الكون الأرضي معه -

مصطفى أحمد عبد القادر.

١٩- الإعجاز العددي للقرآن الكريم - د/ عبد الرزاق نوفل.

٢٠- تفسير الجواهر للجوهري - للشيخ الطنطاوي الجوهري.

٢١- تفسير المراغي - للشيخ أحمد مصطفى المراغي.

٢٢- موسوعة الأعداد في القرآن الكريم - مهدي سعيد رزق كريزم.

٢٣- ظواهر كونية في القرآن الكريم - محمد فيض الله الحامدي.

٢٤- رسائل في " أحدث تفسير لآيات القرآن الكريم - عبد الغني محمد.

٢٥- الكعبة المشرفة سرة الأرض ووسط الدنيا - دكتور أحمد السيد دراج.

٢٦- إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض - محمد محمود إبراهيم.

هذا ما يسر الله تعالى لي الاطلاع عليه من مؤلفات تناول أصحابها من العلوم الحديثة ما قبل التوافق مع إشارات القرآن الكريم ولو بالتأويل البعيد.

وقد سبق القول بأن هناك اختلافا بين خصائص القرآن الكريم وإعجازه وإن كان الأمران برهانين على أن القرآن كلامُ الله تعالى أنزله على نبيه محمد ﷺ.

ومن عجيب أمر هذا الكتاب نزوله منجما حسب أحداث سني نزوله، ويأتي ترتيبه علـــى غير ترتيب النزول، ومع هذا لم يكن أوله نزولا بأقل في البلاغة والبيان من آخره، لذا تجد نظمه من فاتحته إلى خاتمته غاية في الجمال، وهذا لا يتأتى مثله لأحد، ولا يبلغ مداه مهما فصح لسانه وبلغ بيانه متكلمٌ.

وهـــو كتاب هداية، يعالج في عَرْضِه كل ما يعرض للنفس وما يعتريها، ومع هذا فغايته واحدة نلقي عليها بعضا من الضوء في المبحث التالي.

- موضوع المنهج القرآني ووحدته:

لا تعني الوحدة الموضوعية احتواء القرآن الكريم على موضوع واحد، وإنما إذا كان القرآنُ الكتابَ المقروء، والكون هو الكتابَ المنظور، فإن محتواهما واحد، بمعنى أن الكون تمتد منه شواهدُ كثيرةٌ لكن دلالاتها واحدة، هي أن للكون إلهًا، والقرآن هو القصة الصادقة الوحيدة للإنسان وما يحيط به، بكل ما ترامت أطراف اتصافه، وبكل أبعاد آثار وجوده وفكره وحركته في الحياة، فالقرآن قضيته واحدة هي التوحيد، يُصَرِّفُ الدافعَ إليه نحو كل نمط من أنماط السلوك البشري لئلا يكون للناس على الله تعالى حجة.

والقرآن يُصَرِّفُ الأيات الكونية في اعتبار القارئ ليستجمع دلائل التوحد بين كلام

الله المقــــروء وكلامه المنظور، ثم لا يجد المرء نفسه إلا بين خيارين، إقرارِهِ بالعبودية لله لأنـــه لا يمكن أن يخرج من إطار ما سيق من صفات بشرية في القرآن بحجة أنه لم يكن فـــيه ما لا يريده القرآن ولا تحدث عنه، وكذلك لا يخرج بحال عن قوة حاجته إلى ما يحيط به من مكونات مخلوقة لله تقوم بها حياةُ ذلك الإنسان، فأنَّى يُصْرف.

والأمـــر الـــثاني أو الخيار الآخر جحوده لكل ما حوله من أعلام القول الأفقي في الكـــون بأن للكون خالقا هو الإله الحق الله ، وأعني بالقول الأفقي أن الإنسان يدرك في عمـــره بسطة أفقية مكانية على قدر سيرِه في الأرض يتبين من خلالها جلائل الآيات في الأرض على عظمة الخالق الناطق بها عظمةُ المخلوق.

ويأتيه القرآن بأعلام الكون المستطيل مضروبا على الزمن بكل ما يحتويه من آيات الأحداث تاريخًا للآثار البشرية على طول الزمن في عَرْضِ الكون.

فالقرآن بأسلوبه الفريد يستحيي في قارئه الشعورَ بجلال المتكلم في جمال الكلام فيدرك في الأشياء أسرارها على نحو ما أقامها الله في آفاق الخلائق إقرارا منها بلسان تعيه القلوب فتجيبها بأنه لا إله إلا الله، وجمال الكلام وبروز العجائب فيه تستنطق من العجز قدرة الشهادة بأن محمدا رسول الله.

صـــرفت آيات القرآن، فالقصص آيات، والأحكام آيات، والأمر آيات، والنهي آيات، والوعد آيات، والوعيد آيات، ويمكنك أن تقول: القرآن آيات، ولا يمكنك قول القرآن قصص أو أحكام أو أوامر أو نواه أو وعد أو وعيد. لأنك حين تقول هذا تكون مخطـــئا من وجهين: أحدهما أنك صنفت المخاطَبَ على نحو واحد، والناس على أنحاء عدة، ثانيهما: أن القرآن استجمع صفاتِ المكلفين مخاطبًا كلا بما يليق به، فمن يرى في حياته عبرة تُنَبِّهُ فيه اليقينَ بأن الإنسان خُلِقَ ضعيفًا أو خَلْقٌ ضعيف أَوْكَلَتْ آياتُ القصص شـــعورَه إلى الاعتبار إلى الماضي، ليعيد نفسه على أساس أنه بذاته سيكون ماضيا كمن سبقه.

وليس للمطيع خطاب الوعيد كالعاصي، والناس صور تَنَاوَلَهَا القرآن ممزوجة كي يـــنقب كـــل إنسان فيه عن دخائلِ نفسِه، فإنه حين يتوزع القرآن على مجموع الصفات البـــشرية، كل بحسب ما يوافقه، فإن الشخصيات النفسية يضفي الحديث عنها توافقا أو إحساسا بالتوافق بين الكلام وبين نفس القارئ، وليس فيه من ذلك شيء، وحين يُبْسَط الحديثُ بسطًا مصروفا من كذا إلى كذا وتصادف النفسُ حقائقَ تحرِّك في القارئ شعورًا

بحقـيقة العلاقة بين الخالق والمخلوق، لا يكون من الإنسان إلا صدق الالتجاء إلى حمى ربه وخالقه سبحانه.

فالوحدة الموضوعية للقرآن يراد بها أن إلي ربك المنتهى، إذ تنتهي الآيات كلها إلى الرجوع من الإنسان عن الخلق إلى الخالق سبحانه وتعالى.

- عناية دولية بالإعجاز:

تجدر الإشارة إلى أن إعجاز القرآن لم تتوقف العناية به على الجهود الفردية المكتوبة كما انطوت عليه الصفحات السابقة ولكن بعض الجهات تُولي هذه الموضوعات جهودًا تبذل على المستوى الجماعي الدولي.

ولن نخرق علما لأحد بتجهيله أمر وسائل الإعلام على اختلاف أنماط إعلامها بما تقوم به من نشر ما عَنَّ للقائمين على البرامج العلمية الدينية من إعجاز القرآن أو السنة أو هما معا.

وهـناك جهـة ذات قـدر عظيم وخطر جليل وهي رابطة العالم الإسلامي بمكة المكـرمة شرفها الله تعالى. هذه الجهة تضم ضمن هيئاتها هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

وإسهامات هذه الهيئة كما جاء في غلاف كتاب " الصيام معجزة علمية " للدكتور عبد الجواد الصاوي ترمي إلى:

١- وضـع القواعد والمناهج وطرق البحث العلمي التي تضبط الاجتهادات في بيان الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٢- إعـداد جيل من العلماء والباحثين لدراسة المسائل العلمية والحقائق الكونية في ضوء ما جاء في القرآن والسنة.

٣- صبغ العلوم الكونية بالصِّبَغ الإيمانية وإدخال مضامين الأبحاث المعتمدة في مناهج تعليمية في شتى مؤسساته ومراحله.

٤- الكـشف عـن دقائق معاني الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالعلوم الكونية في ضوء الكشوف العلمية الحديثة ووجوه الدلالة اللغوية ومقاصد الشريعة الإسلامية دون تكلف.

٥- إمداد الدعاة والإعلاميين في العالم أفرادا ومؤسسات للأبحاث المعتمدة للانتفاع بها. كُلٌّ في مجاله.

٦- نشر هذه الأبحاث بين الناس بصورة متناسبة مع مستوياتهم العلمية والثقافية وترجمة ذلك إلى لغات المسلمين المشهورة واللغات الحية في العالم.

ومع هذا فإن هذه الهيئة لم يرد ضمن أهدافها أنها ذات سلطة رقابية على ما يؤلف بعيدا عنها مما يورد من وجوه الإعجاز مما لم يقبله عقل أو يقل به أحد.

والأمل أن تُمْلي هذه الهيئة شروطها على دور النشر حتى لا يكون الإعجاز منطلقا لهدم الكيان التقديسي للقرآن الكريم والسنة في نفوس المسلمين، كما يحدث بإثارة الشبهات في مثل هذه المؤلفات دون الرد عليها.

وإذ يكون خضوع ما يؤلف في الإعجاز العلمي لمثل هذه الهيئة، سبيلا إلى خدمة الجوانب العلمية في الكتاب والسنة على نحو صحيح، فإنه يلزم فرض رقابة يمكن أن تتمثل في عرض الكتاب على هيئة الإعجاز أولاً قبل الموافقة منها على طباعته في أي مكان من العالم.

أما ما طرح من مؤلفات في أسواق الكتب فيمكن عقد دوريات تقوم بدور المحيز أو المانع لنشر الكتاب في هدوء واستقرار لا يطمح من ورائه مؤلفٌ شهرةً ذائعةً لكتابه، حتى لا يكون السبيل مخالفا للغرض.

❖ ❖ ❖

هكذا تمالأت الدراسات عاكفة على مدى بلوغ سرائر الكتاب المجيد، فسلكت أشمن نظام من أطهر وأقدس كتاب، وما أخذت غير قطر من بحر، وما طاولت غير أفكارها في فهومه، وظل يطوي عنها ما به يستحث البحث جيلا بعد جيل، حتى آنست أنها لم تكن غير دقائق من فيضٍ جليل، فأشرت في ربوع العلم تفرد الكتاب عن جملة ما في تاريخ الأرض من كتب، فإنه لم تنل علومٌ شرف امتياز الكثرة والتكثر في نظر كتاب غيره، وما تداول الباحثون موضوعا حتى استَجَدَّ لهم الكثيرُ من أمره. فأعجز الناس طرا حَصْرُ متناوله، وكأنهم يرون في كل لمحة بصيرةٍ جدةً تنزله، ولم يوص سالف خليفته في أخذ وجهة تحدد من مساره، بل تبرق لإبداعات الرؤى فيه أنماط تفك المقلد من إساره، فإذا لكل باحث مهجة يظن بها بلوغ النهاية، وما هو إلا في عداد وجوه الإعجاز برهانُ عَجْزٍ وآية، وأنَّى يبلغ مبتدئٌ بخُطْوَةِ دَرْسِهِ آفاقَ غاية ؟



الفصل الثاني / الأحرف المقطعة عند علماء الإسلام

ويشتمل على النقاط التالية:

- فواتح السور معناها، وأنواعها.

- تحقيق اسمية الحروف المقطعة.

- رسمها في المصحف، وكيفية النطق بها.

- حكمة تفريق وتكرير الأحرف المقطعة في القرآن الكريم.

- حكمة تنوعها من فرادى إلى ثنائية حتى الخماسية.

- هل الأحرف المقطعة تعد آية بمفردها، وكيفية الوقف عليها، وإعرابها.



- فواتح السور معناها، وأنواعها:

فواتح القرآن: أوائل السور، الواحدة فاتحة.

وفاتحة كل شيء مبدؤه الذي يفتح به ما بعده، وأم الكتاب يقال لها: فاتحة القرآن، وسميت بذلك؛ لأنه يفتتح بها القراءة في الصلاة.

يقال افتتح فلان كذا أي ابتدأه، وفتح عليه كذا: أعلمه ووقفه عليه، قال تعالى ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾(١).

والفتحُ: أن تفتَحَ على مَنْ يَستقرئُكَ، وهو نقيضُ الإغلاق، يقال: فَتَحَهُ يَفتَحُهُ فَتْحًا، وافتَتَحَهُ وفَتَّحَهُ فانفَتَحَ وتَفتَّحَ.

والفتحة في الشيء الفرجة، والجمع فُتَح مثل: غرفة وغرف.

والاستفتاح: الاستنصار، وهو طلب الفتح أو الفتاح.

قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾(٢).

أي: إن طلبتم الظفر أو الفتاح أي الحكم، أو طلبتم مبدأ الخيرات فقد جاءكم ذلك بمجيء النبي ﷺ(٣).

والسور: جمع سورة، وفي نطق السورة لغتان:

أولهما:

«السؤرة» بالهمز، مشتقة من (أسار) أي أبقى، والسؤر: البقية التي تبقى من شرب

---

(١) سورة البقرة الآية: ٧٦. (٢) سورة الأنفال آية: ١٩.

(٣) المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢ هـ -كتاب الفاء ص ٣٧٠- تحقيق محمد سيد كيلاني- الطبعة الأخيرة ١٣٨١هـ -١٩٦١م- مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

ولسان العرب لابن منظور مادة: «فتح» -جـ ٤/ ٣٣٣٧ وما بعدها- ط دار المعارف، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز تأليف/ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ. تحقيق الأستاذ/ عبد العليم الطحاوي جـ ٤/ ١٦٤-المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي- القاهرة ١٤١٢هـ -١٩٩٢م، والقاموس المحيط للعلامة الفيروز آبادي إعداد وتقديم/ محمد عبد الرحمن المرعشلي مادة: «فتح » باب الحاء- فصل الفاء (١/ ٣٥٠)- دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي- بيروت- لبنان- الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ -٢٠٠٠م- والمصباح المنير للعلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ -كتاب الفاء ص ٢٧٤ دار الحديث -القاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠م.

الشارب في الإناء، وسميت سؤرة كان السؤرة بقية جملة القرآن، وقطعة منه.

ثانيهما:

«السورة» -بدون همز- ومعناها في اللغة: المنزلة والشرف وما طال من البناء وحسن، والعلامة، وسميت السورة سورة لارتفاعها وشرفها، وكونها علامة على صدق من جاء بها، ودليلا على أن هذا القرآن من عند الله، وهي تشبه السور-سور المدينة- من وجهين:

الأول:

أن السور له علو حسيّ، والسورة لها علو معنوي.

الثاني:

أن السور يقوم بناؤه على لبنات بعضها فوق بعض، والسورة يقوم بناؤها على آيات يتبع بعضها بعضًا[١].

والجمع «سور» بفتح الواو، ويجوز أن يجمع على «سورات» بسكون الواو وفتحها[٢].

وأما في الاصطلاح: فهي طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع.

وسور القرآن مختلفة طولا وقصرا، فأقصر سورة فيه سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات قصار، وأطول سورة فيه البقرة، وهي خمس وثمانون أو ست وثمانون ومائتا آية، وأكثر آياتها من الآيات الطوال، ومرجع الطول والقصر والتوسط وتحديد المطلع والمقطع إلى الله وحده، لحكم سامية[٣].

ومعرفة سور القرآن الكريم من حيث بداية كل سورة ونهايتها توقيفي، لا مجال

---

(١) دراسات في علوم القرآن الكريم - أ. د. / فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي- أستاذ الدراسات القرآنية كلية المعلمين - الرياض- ص ١٠٤، ١٠٥- الطبعة الحادية عشرة ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م، وينظر لسان العرب مادة «سور» جـ ٣/ ٢١٤٧، والقاموس المحيط- مادة «سور» باب الراء -فصل السين جـ ١/ ٥٧٨، ٥٧٩، وبصائر ذوي التمييز- جـ ٣/ ٢٧٤-، وينظر البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى ٧٩٤هـ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم جـ ٣/ ٢٦٣، ٢٦٤- دار الفكر- الطبعة الثالثة- ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٢) مختار الصحاح للشيخ الإمام/ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي -مادة « س و ر » باب السين ص ١٨٢- دار الحديث- القاهرة.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن بقلم الشيخ -محمد عبد العظيم الزرقاني- تحقيق/ أحمد بن علي- جـ ١/ ٢٩٥- دار الحديث- القاهرة ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.

للاجتهاد فيه[1].

إن طبيعة النفس البشرية تميل إلى الافتتاح بالجميل، ولهذا فطن الشعراء والأدباء، منذ وقت مبكر إلى أهمية مطالع الأعمال قصيدة كانت -في جاهليتهم-، أو خطبة، أو رسالة، أو مقالة... الخ، لذلك توالت التوصية بالفواتح من قبل العلماء، والأدباء.

وكانوا يقولون: «أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات، فإنهن دلائل البيان»[2].

وعدوا الشعر قفلا، أوله مفتاحه[3]، إذ المطلع أول ما يقع في السمع من القصيدة، والدال على ما بعده، المتنزل من القصيدة منزلة الوجه والغرة فإذا كان الابتداء حسنًا بديعًا، ومليحًا رشيقًا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام.

ولقد كانت عناية العلماء بفواتح القرآن على جانب كبير من الأهمية، فقد عقد الإمام العلوي -رحمه الله- فصلا من فصول كتابه «الطراز» للمبادئ والافتتاحات، أكد فيه على كل من يتصدى لمقصد من المقاصد أن يكون مفتتح كلامه ملائما لذلك المقصد دالا عليه، وذهب فيه إلى أن هذا الفصل ركن من أركان البلاغة، تجب مراعاته في النظم والنثر كليهما، ويستحب الالتزام به في جميع أجناس الأدب، من الخطب والرسائل، والتصانيف، فحيث يكون المطلع جاريا على ذلك فهو من الافتتاح الحسن، وحيث يكون جاريا على عكسه فهو معدود من القبيح[4].

وعلى هذا فإن فواتح السور القرآنية تعد في ذروة البلاغة والبيان عند علماء البيان.

وذكر الإمام السيوطي[5] رحمه الله:

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم -د/ محمد محمد أبو شهبة- أستاذ علوم القرآن بجامعة الأزهر ص ٣٢١- الطبعة الثانية.

(٢) الصناعتين الكتابة والشعر للعلامة أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري المتوفى ٣٩٥هـ- تحقيق/ مفيد قميحة دكتوراه في الأدب العربي- ص ٤٨٩- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - لابن الأثير- ضياء الدين نصر الله بن محمد المتوفى سنة ٦٣٧هـ تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد جـ ٢/ ٢٣٦- مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - ط ١٩٣٩م.

(٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلامة/ يحيى بن حمزة العلوي المتوفى سنة ٧٤٩هـ -جـ ٢/ ٢٦٦، ٢٦٧- ط المقتطف مصر ١٩١٤م.

(٥) الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ- النوع الستون في فواتح السور - جـ ٣/ ٣١٧، ٣١٨- دار التراث- القاهرة.

«أن من البلاغة حسن الابتداء؛ وهو يُتأنق في أول الكلام؛ لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محررا أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسن، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ، وأجزله وأرقه وأسلسه، وأحسنه نظمًا وسبكًا، وأصحه معنى، وأوضحه، وأخلاه من التعقيد، والتقديم، والتأخير الملبس، أو الذي لا يناسب، وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه، وأبلغها وأكملها، كالتحميدات، وحروف الهجاء، والنداء، وغير ذلك. ا هـ.

وذكر الدكتور/ زكي مبارك عددًا من الصفات تفرد بها القرآن عن الآثار النثرية، فكان منها: الابتداء بهذه الحروف، وختم كلامه بأن هذا النمط من الابتداء لم نجده في النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية[1].

لقد تدبر العلماء فواتح السور القرآنية، فبينوا أنواعها، وحصروا أقسامها، وبينوا معانيها، وكشفوا بعض أسرارها.

أنواع فواتح السور:

افتتح اللّه سبحانه وتعالى سور القرآن الكريم بصيغ متنوعة جاءت على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها وأوضحها وأحلاها وأشملها على المقاصد، وأحسنها في الابتداء، وأبرعها في الاستهلال، وقد حصر بعض العلماء هذه الصيغ في عشرة أنواع من الكلام «لا يخرج شيء من السور عنها»[2].

النوع الأول: الاستفتاح بالثناء على الله - تعالى - :

والثناء قسمان:

١ -إثبات لصفات المدح نحو: ﴿الحمد لله﴾[3]، و﴿تَبَارَكَ﴾[4].

٢ -التنزيه، نحو: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾[5] و﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[6].

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع للدكتور/ زكي مبارك- ط دار الكتب المصرية مصر ١٩٣٤م.

(٢) البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي جـ ١/ ١/ ١٦٤: ١٨١، وينظر الإتقان في علوم القرآن للحافظ السيوطي جـ ٣/ ٣١٦، وما بعدها- النوع الستون في فواتح السور- بتصرف، ولطائف الإشارات للقسطلاني (١/ ٢٠).

(٣) سورة الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر.

(٤) سورة الفرقان، والملك.

(٥) سورة الإسراء الآية: ١.

(٦) سورة الأعلى الآية: ١.

و﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١] و﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾[٢].

وجاء ذلك في أربع عشرة سورة، إما بالإشارة إلى إثبات صفات الكمال والتعظيم والتبجيل، وإما بالإشارة إلى نفي صفات النقص عنه، فلا ند له ولا شريك، ولا نظير ولا مثيل.

وقد جاءت خمس سور مفتتحة بالتحميد «الحمد لله»[٣] وجاءت «تبارك» في سورتين[٤].

وجاءت سبع سور مفتتحة بالتسبيح[٥] «سبحان – سبَّح – يسبح – سبِّح».

ويلاحظ في هذا النوع من الفواتح أن السور المفتتحة بالتحميد جاءت أربع منها بالثناء على الله تعالى ووجوب الحمد له وحده، فهو الله الذي لا إله غيره، الخالق البارئ المصور للسموات والأرض وما فيهما من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة، وهو المنعم المتفضل بجميع صنوف الإنعام والإكرام للخلق اجمعين ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ﴿الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّه فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

أما السورة الخامسة[٦] فقد أشارت إلى وجوب الحمد له تعالى، والثناء عليه، وتعظيمه وإجلاله، وعبادته وتوحيده، وطاعته واتباعه، لإنزاله هذا القرآن المبين الواضح الذي فيه ولا تفاوت. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف].

وجاءت «الفرقان» المفتتحة بـ «تبارك» بحديث عن القرآن العظيم، المفرق بين الحق والباطل، المنزل من العليم الخبير، ليكون للعالمين نذيرًا ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[٧]، وجاءت الملك المفتتحة بـ «تبارك» بتعظيم العلي الكبير القادر الكريم، الواحد القهار، المعز المذل، الذي أحيا وأمات، الغالب في انتقامه للمشركين، الغفور لعباده المؤمنين ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

---

(١) فواتح سور الحديد، والحشر، والصف. (٢) فاتحة سورتي الجمعة، والتغابن.

(٣) الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر. (٤) الفرقان، والملك.

(٥) الإسراء والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى.

(٦) الكهف وهي السورة رقم ١٨ بترتيب المصحف الشريف نزلت بمكة، وآياتها: مائة وعشر.

(٧) سورة الفرقان رقم ٢٥ في المصحف مكية وآياتها: سبع وسبعون.

• ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[١].

أمـــا السور السبع المفتتحة بـــ التسبيح، فقد جاءت الصيغة «سبحان»[٢] خاصة به تعـــالى، دالة على كماله التام، بتنزيهه سبحانه عن كل نقص، وقد جمعت السور الست بالباقـــية مـــشتقات «التـــسبيح»، فبعد أن جاءت هذه الصيغة على صورة المصدر في «الإسراء» ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ جاءت صيغة «التسبيح» بعد ذلـــك بـــصورة الماضـــي في ثلاث سور[٣]، والماضي هو أصل الأزمنة في الفعل ويأتي المـــضارع بـــــ التعـــريف بحرف يدخل على الماضي لذلك جاء «يسبح» بعد السور المفتتحة بـــ «سبح» حسب ترتيب المصحف في سورتين[٤].

ثم أتـــت بعد ذلك صيغة الأمر التي تدخل على وجوب الإيمان بالتسبيح، وذلك في سورة الأعلى المكية[٥].

ويـــدل هـــذا النظم البديع في ترتيب «المسبحات» من المصدر للماضي للمضارع للأمـــر – على عناية الله تعالى بترتيب كتابه العزيز – سوره وآياته ترتيبا عجيبا رائعا لا يمكن لبشر أن يأتي بمثله، إنه ترتيب الحكيم الخبير، الذي أوحى به لرسوله الأمين، فدونه الصحابة كما أخذوه عن النبي صلى الله عليه وسلم، مرتبًا محفوظًا كما أنزله رب العالمين، قـــال الكـــرماني في متـــشابه القرآن: "التسبيح كلمة استأثر الله بها فبدأ بالمصدر في بني إســـرائيل لأنه الأصل، ثم بالماضي في الحديد والحشر لأنه أسبق الزمانين، ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن ثم بالأمر في (الأعلى) استيعابا لهذه الكلمة من جميع جهاتها"[٦].

النوع الثاني: الاستفتاح بالنداء:

وجـــاء ذلـــك في عـــشر ســـور مـــن ســـور القـــرآن الكـــريم خمـــس مـــنها بـــنداء الـــنبي صـــلى اللـــه علـــيه وســـلم[٧]، ثـــلاث بلفـــظ ﴿يَـــا أَيُّهَـــا

(١) سورة الملك رقم ٦٧ في المصحف بمكية وآياتها: ثلاثون.

(٢) الإسراء رقم ١٧ مكية وآياتها: ١١١.

(٣) الحديد رقم ٥٧ وآياتها: ٢٩ مدنية، والحشر رقم ٥٩ وآياتها: ٢٤ مدنية، والصف مدنية رقم ٦١ وآياتها: ١٤.

(٤) الجمعة رقم ٦٢ مدنية وآياتها: ١١، التغابن مدنية رقم ٦٤ وآياتها: ١٨.

(٥) السورة رقم ٨٧ وآياتها: ١٩.

(٦) الإتقان في علوم القرآن (٢/١٠٦).

(٧) الأحزاب، والطلاق، والتحريم، والمزمل، والمدثر.

﴿النَّبِيُّ﴾(١) وفي سورتين بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾(٢)، وفي سورة المدثر بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وفي سورة المزمل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، وثلاث بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٣).

وفي نداء النبي صلى الله عليه وسلم تنويه بشأنه، وتنبيه بمنزلته، وتكريم لشخصه، وإشارة إلى سمو مكانه عند ربه، بالإضافة إلى ذكر أحداث وتوجيهات للرسول خاصة، وللمؤمنين عامة، لأدائها أو تركها.

وفي نداء المؤمنين بصفة الإيمان تكريم لهم، وتشريف حيث إنهم صدقوا الله ورسوله، لذلك أراد سبحانه تعليمهم شؤون دينهم في الحياة الدنيا والآخرة، فبين لهم القواعد والأسس التي تحفظ على الأمة أمنها واستقرارها وتحقق لها عزتها وقوتها في حياتها، في بيتها، ومجتمعها ومع غيرها، وفي نداء الناس دعوة لهم جميعا لتوحيد الخالق العظيم، الذي يطلع على الأفئدة، والذي أعد الآخرة أمنًا وسلامًا للمتقين، وجحيمًا وعذابا للكافرين.

النوع الثالث: الاستفتاح بالجمل الخبرية:

وذلك في ثلاث وعشرين سورة، ففي الأنفال ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾، وفي التوبة ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ وفي النحل ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾، وبقية السور هي:

الأنبياء، والمؤمنون، والنور، والزمر، ومحمد، والفتح، والقمر، والرحمن، والمجادلة، والحاقة، والمعارج، ونوح، والقيامة، وعبس، والبلد، والقدر، والبينة، والقارعة، والتكاثر، والكوثر.

وقد جاءت بالإثبات المجرد تارة كقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٥)، وتعالج هذه الافتتاحية موضوع الغنائم التي كانت من بدر، وما في الغزوات من أسس وتشريعات ترد إلى الله ورسوله وتعمل بها الأمة وتطيعها، لأنها الأمة المؤمنة الصادقة.

وقد أتت بعض السور من هذا النوع بالإثبات المؤكد مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٦) والتي توضح الصفات الجليلة، والمآثر الخالدة، والفضائل الكريمة للموحدين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، ومن الإثبات المؤكد كذلك ورد قوله

---

(١) سورة الأحزاب، والطلاق، والتحريم.

(٢) سورة النساء، والحج.

(٣) سورة المائدة، والحجرات، والممتحنة.

(٤) الأنبياء رقم ٢١ مكية وآياتها: ١١٢.

(٥) الأنفال رقم ٨ مدنية وآياتها: ٧٥.

(٦) المؤمنون رقم ٢٣ مكية وآياتها: ١١٨.

تعـالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١). وفيها توضيح لرسالة نوح وتكليفه بالتبليغ والإنذار من عذاب الله إن أمعن قومه في الضلال، وأكثروا من العصيان فلم يزدهم دعاء نوح لهم إلى الإيمان إلا فرارا وإعراضا عنه، وسد آذانهم عن سماع دعوته فكان جزاؤهم الغرق بالطوفان، ودخول جهنم.

وفي قصة نوح وقومه تذكير وإنذار للعاصين، وفيها، تسلية للنبي والمؤمنين وحث لهم على الصبر، والتضحية من أجل نصرة الدين الحنيف.

وهناك بعض السور التي أتت بالنفي كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾(٢)، وفيها حديث عن اليهود والنصارى والمشركين الذين كفروا بالرسول رغم معرفتهم بوصفه في كتبهم ورغم انتظارهم بعثته، ومجيئه، لكنهم أنكروه وعاندوه وكفروا به بعد مجيئه.

ولقد جاءت افتتاحية الجملة الخبرية المثبتة إثباتًا مجردًا والمثبتة إثباتًا مؤكدًا، والمنفية في ثلاث وعشرين سورة من سور القرآن الكريم.

النوع الرابع: الاستفتاح بالقسم:

ومثال ذلك قوله تعالى:

﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿وَالشَّمْسِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ﴾ ﴿وَالضُّحَى﴾، ﴿وَالتِّينِ﴾ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ ﴿وَالْعَصْرِ﴾

وجاء ذلك في خمس عشرة سورة(٣)، وكان المقسم به مخلوقات لله تعالى إظهارا لجلال قدرها، وتنبيها على عظم شأنها، وتذكيرا بمنافعها وفوائدها، فالملائكة الأبرار في «الصافات» والأفلاك ولوازمها في البروج، والطارق والنجم والقمر، والشمس، والليل، والضحى والعصر، والقيامة وما فيها من أهوال وشدائد، وانقسام الناس فيها إلى سعيد يدخل الجنة، وشقي يدخل السعير، والبلد الحرام الذي هو مكة بلا جدال أقسم الله بها تشريفا لها، وتمجيدا لشأنها، ففيها البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، وفيها مولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومسكنه، ومبعثه ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ

---

(١) نوح رقم ٧١ مكية وآياتها: ٢٨. (٢) سورة البينة رقم ٩٨ مدنية وآياتها: ٨.

(٣) وهي: الذرايات، الطور، النجم، القيامة، المرسلات، البروج، الطارق، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر.

حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

وقد أجمع العلماء الثقات على أن المقصود بـــ(البلد) مكة المكرمة، التي أقسم الله بها وجعلها بقعة شريفة، كثيرة الخير والنعمة، لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم لكن بعض التــــراجم الأجنبية للقرآن الكريم حاولت إخفاء هذا التكريم للبلد الأمين جهلاً أو تعسفًا فـــنقلت هذه الكلمة المعرفة الدالة على مكان معين من الأرض هو (مكة) إلى كلمة عامة تطلق على أي موقع من الأرض.

قال (آرثر أربري) « Arther Arberry» في كتابه: «القرآن مفسرًا»[1] « The Koran Interpreted» عند تناوله لسورة البلد، التي نقلها حرفيا إلى لغته، فقال عن الآيتين الأولى والثانية:

«No! I swear by this land and thou art a lodger in this land».

وقال «مارمادوك بكثول» «Marmaduke Pickthall» في ترجمته:

the Glorious Koran القرآن المجيد[2]، قال عن الآيتين السابقتين:

«Nay, I swear by this city and thou art an indweller of this city».

وفي رســـالة القــــرآن[3] The Message of Quran نقل المترجم كلمة البلد إلى: BALAD بلد بحذف الألف واللام.

ويلاحـــظ في هذه الترجمات إهمال التعريف بالبلد الأمين، وتقديمها في هذه التراجم بـــصورة عادية دالة على أي موقع من الأرض، أو آية مدينة فيها، وكان على هؤلاء أن يتحدثوا عن المراد من اللفظ، وأنه مكان معين مقصود لكن ترجماتهم جاءت متساوية عند كـــل الآيات التي ورد فيها لفظ بلد المراد به أي مكان، ولفظ البلد المراد به مكة، ففي قـــوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا... ﴾[4] كان المراد من البلد الآمن مكة إلا أن التراجم لم تشر لذلك. فذكر هاشم أمير أنها: Town[5] وذكـــر آربري أنه a land[6] وعند بكتال: a region ولم يوضحها كذلك محسن خان عندما قال: this city لم تكن التراجم للبلد المعروف من الآية الذي هو مكة Makkah

---

(١) (٣٣٩/٢)، الطبعة الثالثة عام ١٩٧١م ط إنجلترا.

(٢) ص٨٠٧ – الطبعة الخامسة ١٩٦٩م ط إنجلترا.

(٣) ص٢٨ من كتابه الهدى، الطبعة الأولى عام ١٩٧٤م ط طوكيو باليابان.

(٤) سورة البقرة من الآية ١٢٦.

(٥) ص ٤١٦.

(٦) (١٤٤/١).

بمختلفة عن البلد غير المعين في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ... ﴾(١).

فجاءت تعبيرات التراجم عن بلد مقصود به أي موضع من الأرض متساوية مع البلد المقصود به مكة، فقيل في آية الأعراف a land عند بكتال ومحسن خان وغيرهما، وقد كان عليهم أن يفرقوا بين هذا اللفظ الذي جاء مختلفا في مقصده، وإن اتفق في شكله اللفظي، فالبلد الأمين في سورة التين هو مكة، لكن البلد الطيب في سورة الأعراف(٢): المكان الطيب في أي أرض كريمة تنبت النبات الطيب، والثمرة الشهية، ولكن التراجم لم تدرك هذا الفارق الدقيق حين عبرت عن المفهومين المختلفين بمفهوم واحد، وتلك جناية على الكتاب الكريم بصفة عامة، وعلى البلد الأمين مكة بصفة خاصة، ذلك البلد الذي ذكر في مواطن كثيرة في القرآن لشرفه وعزته، وجاء مقسما به في السورة التي تحمل اسم البلد كأنه لا بلد غيرها فهي أم القرى البلد الحرام من يوم أن خلقت السموات والأرض وإلى أن تقوم الساعة.

وهذه السور المفتتحة بالقسم تدفع إلى التطلع لمعرفة الشيء المقسم عليه فقد أقسم الله تعالى بالتين والزيتون، وطور سنين، والبلد الأمين، وكان المقسم عليه: تكريم الإنسان وخلقه في أحسن صورة، وأبدع هيئة، وأتم تلاؤم، فهو عاقل حكيم في جنة المتقين، حين يطيع الرحمن ويعمل بالقرآن، ولكنه جاهل خبيث قبيح ضال في الدرك الأسفل من النار حين يعصي ربه. ويكذب بآياته البينات...

وقد يكون القسم مذكورا كما في العاديات(٣) التي افتتحت بالقسم بخيل الغزاة التي تعدو مغيرة على الأعداء فتسمع لأنفاسها ذلك الصوت الجهير، ويتطاير الشرر من حوافرها حين تغدو سريعة على الأرض، لتهجم على العدو وتغير عليه في خيوط الصباح الأولى، إنها خيل نشيطة، تجاهد في سبيل الله، وتلقي الفزع والرعب في قلوب الأعداء، لقد كان القسم بهذه الخيل المجاهدة الصابرة حافزا للمسلمين، يدفعهم للتضحية بنفوسهم وأموالهم في سبيل عزة الأمة وحمايتها من المغيرين عليها، والطامعين فيها، وإذا كانت الخيل عظيمة بهذا الشكل الذي وصفت به في هذه الآيات، فمن باب أولى أن يكون أصحابها من عظماء المجاهدين.

أما المقسم عليه فكان مذكورا في السورة كذلك، وهو كفر الإنسان بالنعم وجحوده

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٧. (٢) آية: ٥٨.

(٣) السورة رقم ١٠٠ مكية وآياتها: إحدى عشرة.

ونسيانه المنعم الكريم، وبالرغم من إفاضة النعم عليه لكنه أهمل شكر ربه، ونسي ما كان يدعو إليه، وأشرك بالله، وذلك لشدة حبه للمال وانشغاله بجمعه ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ.... ﴾.

وقـــد يكون القسم محذوفا كما في سورة الفجر(١) فقد أقسم سبحانه وتعالى ببعض آياته العظيمة في هذا الكون العجيب، بالصبح إذا أسفر، وبالليالي العشر المباركات في ذي الحجـــة، التي هي أفضل الأيام، كما قال ﷺ فيهن: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجـــلا خـــرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء» وعن جابر مرفوعا قال: العشر: عشر الأضحى(٢).

وأقسم الله بالزوج والفرد من كل شيء، أو بالمخلوقات التي هي ذكر وأنثى وأقسم تعالى بآية الليل العجيبة الدالة على قدرته تعالى ونعمته على عباده.

لكـــن المقـــسم عليه بهذه المخلوقات العظيمة الشأن محذوف دل عليه ما بعده من تكـــذيب الأمم السابقة - كعاد، وثمود، وفرعون - برسل الله فصب الله عليهم العذاب صبا، ودمرهم وأهلكهم بسبب طغيانهم وإجرامهم، وتقدير جواب القسم: أن يقال مثلا: أقسم الله بالأشياء المذكورة في فاتحة السورة على تعذيب كفار مكة كما عذب السابقون بسبب كفرهم وعنادهم، وفي ذلك تخويف وزجر لهم، وحملهم على الإقلاع عن خصالهم المرذولة، وعقائدهم الفاسدة.

ويلاحظ أن التراجم الأجنبية قد عجزت عن إدراك جواب القسم المحذوف في مواقعه الكثيرة في القرآن الكريم، فلم تشر إلى أي جواب قسم محذوف في أي موقع كان(٣). إن في هذه الأشياء المقسم بها قسما عظيما لكل ذي عقل سليم، ولب مستنير، ولب نظيف، يـــدرك عظمـــة هذه المخلوقات، ودلالتها على تفرده تعالى بالخلق والإيجاد، والإبداع، والـــرعاية والإكرام، لقد جاء هذا الأسلوب الرائع في أوائل السور لإثبات قضايا أساسية كوحدانية الله تعالى، وموقف الإنسان من الخالق الحكيم.

---

(١) السورة رقم ٨٩ مكية وآياتها: ثلاثون.

(٢) الإمام أحمد بن حجر العسقلاني - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب التفسير ج٨، ص ٧٠٢.

(٣) انظر القرآن مفسرا (٣٤٩/٢) ط لندن، النص الإنجليزي.

النوع الخامس: الاستفتاح بالشرط:

وجاء ذلك في سبع سور هي[١]:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾.

وذلك دفعًا وحثًا لذوي العقول السليمة لإدراك الأشياء العجيبة المذكورة في الجملة الشرطية وما فيها من وصف للقيامة وأحوالها، والساعة وأهوالها وثواب المؤمنين بوحدانية الخالق المبدع والصانع الحكيم وعقاب الضالين المتكرين للبعث الذي أخبر به القرآن العظيم ﴿إذا وقعت الواقعة﴾.

وجاءت افتتاحية المنافقين لتكشف عن صفاتهم الذميمة، وتفضح معتقداتهم الزائفة، وتحذر المسلمين من خطرهم وكفرهم فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾.

إن هذا النوع من الافتتاحيات يدفع إلى التطلع إلى معرفة محتوى الجملة الشرطية، والتفكر فيه وتدبره.

وأدوات الشرط كثيرة، ولكن القرآن قد استخدم في السور المفتتحة بالشرط إذا متلوة بالفعل الماضي دائما للتأكيد على تحقق وقوع ما ورد في الشرط، فانتصار المسلمين وفتح مكة، أخبر به الرسول قبل وقوعه، وذلك في سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ... ﴾ فالتعبير بالماضي بعد إذا أفاد تحقق وقوعه، فهو بشري من الله أخبر بها المؤمنين ليسعدوا، وأخبر بها الناس جميعا قبل وقوعها لتكون دليلا على تنزيل القرآن من العزيز الحكيم ولتكون دليلا على صدق الرسول في دعواه الرسالة، فقد وقع ما أخبر به القرآن ودخل الناس في دين الله أفواجا.

أما جواب الشرط فيكون تارة مذكورا، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[٢] فهو جواب ﴿إذا السماء انفطرت﴾ وما تكرر من الجمل الشرطية بعدها، حيث لم يأت لها جميعا سوى الجواب المذكور.

---

(١) سورة الواقعة، وسورة المنافقون، وسورة التكوير، وسورة الانفطار، وسورة الانشقاق، وسورة الزلزلة، وسورة النصر.

(٢) الانفطار: ٥.

وتارة يكون الجواب محذوفًا لغرض بلاغي، كما في قوله تعالى: ﴿إذا السماء انشقت﴾[١] وما عطف عليها من الجمل الشرطية بعدها من الآيات التي تبين هول القيامة وكوارث الساعة، ثم حذف الجواب بعد قوله تعالى: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾[٢] للتهويل من شأن القيامة وشدائدها، لقد حذف حتى يكتنفه الغموض وتذهب النفس فيه مذاهب شتى وإننا لا نرى أثرا لجواب الشرط المحذوف في تلك التراجم الحرفية الأجنبية، وذلك لقلة إدراكها للنظم القرآني البديع، وبيانه العجيب، ومعانيه المتآلفة، وأهدافه ومراميه البعيدة، التي تستأصل الخصال المرذولة، وتعد النفوس للبناء الصالح القوي المتين.

النوع السادس: الاستفتاح بالأمر:

وذلك في ست سور[٣] هي:

﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

النوع السابع: الاستفتاح بالاستفهام:

وذلك في ست سور هي: ﴿هَلْ أَتَى﴾[٤]، ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾[٥]................ ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾[٦]، ﴿الم نَشْرَحْ﴾[٧]، ﴿الم تَرَ﴾[٨]، ﴿أَرَأَيْتَ﴾[٩].

وذلك لالتزام المأمور به، والإذعان له، وتدبره، لما فيه من الخير الوافي، والنعمة العظيمة، والرفعة والعزة.

ففي الجن[١٠] يؤمر الرسول بإخبار القوم عن استماع نفر من الجن للقرآن الكريم، وتأثرهم به، وإيمانهم بهذا الوحي، وبمنزلة رب العالمين، وتوحيدهم له، وإفراده تعالى بالعبادة، وتنزيهه عن النقائص كلها، فليس له شريك، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وفي أخبار القرآن عن موقف الجن، وإيمانهم بالله، وبالوحي القرآني الذي يهدي إلى الرشد؛ توبيخ للكفار في مكة الذين لا يؤمنون بالوحي رغم ما فيه من هداية ورشد، ورغم إيمان الجن به، فإنهم لم يكفوا عن عنادهم وفسادهم.

---

(١) الانشقاق: ١. (٢) الانشقاق: ٥.
(٣) سورة الجن، والعلق، والكافرون، والإخلاص، والفلق، والناس.
(٤) سورة الإنسان. (٥) سورة النبأ.
(٦) سورة الغاشية. (٧) سورة الشرح.
(٨) سورة الفيل. (٩) سورة الماعون.
(١٠) سورة ٧٢ مكية وآياتها: ٢٨.

وفي العلــق[1] أمر بالقراءة وتحصيل العلم الذي ترتفع به الأمة إلى أعلى الدرجات، وتصل إلى أكرم الغايات في الدنيا والآخرة.

وفي الكافرون[2] تيئيس لكفار مكة من تغيير موقف الرسول من آلهتهم، فقد طلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة...، فنزلت السورة لتقضي على كل أمل لهم في استسلام الرســول لآلهــتهم، لأنه صلى الله عليه وسلم يعبد الإله الحق رب العالمين، وهم يعبدون الأوثــان والأصنام، وينغمسون في الشرك والضلال، ولما تلا عليهم الرسول هذه السورة الكريمة آذوه وآذوا أصحابه أكثر فأكثر، لكن الرسول لم يتوقف عن تبليغ وحي الله الذي أمــر بتبليغه مهما كان العذاب الذي ينزل عليه وعلى المؤمنين جزاء ثبوته وثبوتهم على الحق، وفي ذلك دليل على صدق الرسول في دعواه، وعلى أن القرآن كلام رب العالمين، فمحمــد مأمور بتنفيذ ما ينزل عليه، فرغم غضبهم وإيذائهم لم يبال بطواغيتهم، وبلغهم هذه السورة التي تفضحهم، وتصمهم بالكفر الشديد على مرأى ومسمع من الجميع.

وفي الإخــلاص[3] أمــر للرســول بوصف الله تعالى كما جاء في هذه السورة التي تحــدثت عنه تعالى، وأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا شبيه ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، إنها السورة التي تفضح مزاعم المشركين، المستهزئين، الذين يثبــتون النقائص ويقولون على الله ما لا يعلمون، إنها السورة التي توضح صفات الجلال والكمال، وتنفي صفات النقص والعجز في أسلوب موجز رائع بليغ.

وفي الفلق[4] توجيه للنبي والمؤمنين إلى الالتجاء، والاعتصام برب الصباح والنور، ورب المخلــوقات كلها من شر ما يحدث عن الإنس والجن، والدواب والهوام والنفوس، ومن شر السحر وأهله، ومن شر الحساد الذين يتمنون زوال النعم، ومن شر كل مؤذ في هذا الكون.

وفي الناس[5] ثانية المعوذتين أمر للرسول بما يقوله عند الاستعاذة كي يعتصم بالله، ويلجأ إليه من شر الشيطان الماكر الذي يغري بالعصيان سواء كان من شياطين الجن أم من شياطين الإنس الذين هم أشد خطرًا، ودعاء الله تعالى رب العالمين جميعا، والاحتماء به وقاية من شر الإنس والجن فهو الخالق العظيم مالك الملك وهو على كل شيء قدير.

---

(١) سورة العلق رقم ٩٦ مكية وآياتها: ٩٦.

(٢) سورة الكافرون رقم ١٠٩ مكية وآياتها: ست.

(٣) سورة الإخلاص رقم ١١٢ مكية وآياتها: أربع.

(٤) سورة الفلق رقم ١١٣ وآياتها: خمس.

(٥) سورة الناس خاتمة القرآن الكريم رقم١١٤ مكية، وآياتها: ست.

النوع الثامن: الاستفتاح بالدعاء.

وذلك في ثلاث سور[1] هي:

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾، ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

ففـــي المطففين دعاء بكلمة ويل التي هي كلمة عذاب، وقيل: بأنه واد في جهنم لو أرســلت فـــيه الجبال لماعت من حره[2]، لذلك استعملتها السورة في الدعاء على الذين ينقضون القليل في المكيال والميزان - فما بالك بمن يسرق الكثير.

والغـــرض مـــن هـــذه الافتتاحية تحذير هذه الطائفة التي تغش المسلمين في الكيل والميـــزان، وفي كل شيء تحذيرهم وترهيبهم من العقاب الشديد يوم الفزع الأكبر الذي يـــسجن فـــيه الشقي في أسفل سافلين جزاء ما قدمه في دنياه من خيانة وغش، وتطفيف وسطو على حقوق المسلمين وأموالهم.

وفي الهمـــزة دعاء بالويل والهلاك والعقاب للسفهاء الذين لا يقيمون للأخوة وزنا ولا يـــرون للحـــق مكانا هم يغتابون الناس ويعيبونهم في أخلاقهم وأعراضهم ودينهم وتهدف الافتتاحـــية إلى التحذير من الفتنة والنميمة، فمهما كان صاحبها غنيا، أو سلطانا قويا، فلن يـــنفعه ما جمعه وسيصلى نارا مسعرة، تحطم عظمه، وتأكل لحمه، وتنهش فؤاده، جزاء فتنته وفساده.

وفي المـــسد[3] دعـــاء بالخسران، والهلاك بلفظ تبت على عبد العزى بن عبد المطلب وامـــرأته العـــوراء أم جميل أخت أبي سفيان، لعداوتهما للرسول، صلى الله عليه وسلم ومحاولـــة صد الناس عن الدين الحق وقد عدل القرآن عن اسم عبد العزى إلى الكنية أبي لهب لما في الاسم من الشرك، فالعزى صنم، ولما في كنيته من اللهب الذي يصير إليه في جهـــنم، فناســـب حاله في النار كنيته التي ذكر بها، وقد دعيت امرأته في السورة بوصف ذمـــيم، حمّالـــة الحطـــب كناية عن النميمة التي تمشي بها بين الناس، أو حصلها الشوك والحسك فتنثره بالليل في طريق النبي لإيذائه.

وفي افتتاحية هذه السورة تحذير للذين يصدون عن آيات الله ويؤذون النبي صلى الله علـــيه وسلم، والذين آمنوا معه، ويقفون في طريق الدعوة الصحيحة، فمصير هؤلاء نار موقدة تطلع على الأفئدة، وتشد الأعناق لتهوي بها في قرار سحيق.

---

(١) - المطففين السورة رقم ٨٣ مكية وآياتها ست وثلاثون.
- الهمزة: السورة رقم ١٠٤ مكية وآياتها: تسع.
- المسد: السورة رقم ١١١ مكية وآياتها: خمس.

(٢) مختار الصحاح كلمة ويل. ص٧٣٩.

(٣) السور رقم ١١١ مكية آياتها: خمس.

النوع التاسع: الاستفتاح بالتعليل:

وجاء ذلك في سورة واحدة وهي: قريش ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾[١]، وفيها تذكير بنعم اللـــه على قريش، وتسهيل التجارة لهم، وتكثير المنافع، وتوفير الأمن، فعليهم أن يؤدوا واجب الشكر لصاحب هذه النعم، بتوحيده وطاعته، وعبادته وحده لا شريك له.

النوع العاشر: الاستفتاح بأحرف التهجي وذلك في تسع وعشرين سورة - وهو موضوع هذا البحث:

وقد وردت هذه الحروف المقطعة في هذه السور المتنوعة في خمسة أنواع، وعلى أربعة عشر شكلاً[٢].

وردت هذه الحروف المقطعة في أوائل تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم ولم تكـــن كلها صورة واحدة بل كانت على أشكال مختلفة، فمنها ما جاء على حرف واحد، وذلك في ثلاث سورة هي:

أ - ص والقرآن ذي الذكر[٣].

ب- ق والقرآن المجيد[٤].

جـــ- ن والقلم وما يسطرون[٥].

ومنها ما جاء على حرفين: وذلك في تسع سور مكية وهي: طه - طس (النمل) يس - حم (غافر) حم (فصلت) حم (الزخرف) - حم (الدخان) حم (الجاثية) - حم (الأحقاف).

ومنها ما ألف من ثلاثة أحرف، وذلك في ثلاث عشرة سورة هي:

الم (البقرة) مدينة الم (آل عمران) مدنية.

الم (العنكبوت) مكية الم (الروم) مكية.

الم (لقمان) مكية الم (السجدة) مكية.

الر (يونس) مكية الر (هود) مكية.

الر (يوسف) مكية الر (إبراهيم) مكية.

---

(١) رقم ١٠٦ نزلت بمكة وآياتها: أربع.

(٢) وممن حصر هذه الحروف في الســور حسـب بنيتها ابن أبي الإصبع المصري وهو -عبد العظيم بن عبد الواحد العدواني المتوفى ٦٥٤ هــ -ينظر الخواطر السوانح في إسرار الفواتح لابن أبي الإصبع - ص ٧٥، ٧٦، تحقيق/ د. حفني محمد شرف- مطبعة الرسالة- مصر- ط ١٩٦٠م.

(٣) السورة رقم ٣٨ مكية وآياتها: ٨٨.

(٤) السورة رقم ٥٠ مكية وآياتها: ٤٥.

(٥) السورة رقم ٦٨ مكية وآياتها: ٥٢.

الر (الحجر) مكية طسم (الشعراء) مكية.

طسم (القصص) مكية.

ومنها المؤلف من أربعة أحرف وذلك في سورتين هما:

أ - المص (الأعراف) مكية.

ب- المر (الرعد) مكية.

ومنها المؤلف من خمسة حروف وذلك في سورتين، هما:

أ - كهيعص (مريم).

ب- حم عسق (الشورى) مكية.

ويلاحظ أن ثمان وعشرين سورة من هذه السور المفتتحة بهذه الحروف قد جاءت ضمن الخمسين سورة الأولى في المصحف الشريف، ولا يوجد منها في بقية السور سوى سورة القلم[1].

وقد أتى بعد افتتاحية كل سورة من هذه السور حديث عن القرآن، وتنزيله وصفته، ولم يخرج عن هذا السنن إلا الروم والقلم، ويمكن القول بأنهما تحدثتا عن القرآن وآياته كذلك في داخل كل منهما، أما السور الأخرى فقد اتبعت حروفها المقطعة بذكر القرآن الكريم مما يوحي بوجود رابطة متينة بين الحروف والكتاب، وستتضح هذه الملاحظة في موقع آخر من هذه الدراسة بمشيئة الله تعالى.

ويمكن حصر هذه الفواتح في أربعة عشر شكلا، إذا حذفت الفواتح المكررة.

(١) ص (٢) ق (٣) ن (٤) حم (٥) طه (٦) طس (٧) يس (٨) الم (٩) الر (١٠) طسم (١١) المص (١٢) كهيعص (١٤) حم عسق.

ومجموع هذه الحروف الواردة: ثمانية وسبعون حرفًا، إذا حذف المكرر منها، أصبحت: أربعة عشر حرفًا، وهي نصف حروف الهجاء المعروفة، الثمانية والعشرين حرفًا[2].

---

(١) سورة القلم هي السورة ٦٨.

(٢) رأي سيبويه: أن عدد حروف العربية تسعة وعشرون حرفا هي: ء ا هـ ع ح غ خ ك ق ض ج ش ي ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و » ينظر اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور/ تمام حسان ص ٥١- ٥٢، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣.

وقد رتبت الحروف حسب مخارجها على رأي الأقدمين -بدءا من الحنجرة حتى الشفتين.

ويرجع الاختلاف في عدد حروف العربية إلى سبب الخلط بين ألف المد، والهمزة، إذ أن الف المد قد اشتركت مع الهمزة (سواء كانت قطعا أو وصلا) في رمز واحد -فالاشتراك بين هذين الصوتين كان سببا أساسيا في الاختلاف حول إحصاء الأبجدية حيث ينظر البعض إلى هذين

وأكثـــر الحروف ورودا هي الألف ثم اللام، لكثرة وقوعهما في تراكيب الكلم، لذا جاءا في ثلاث عشرة افتتاحية وأقل الحروف ورودا الكاف والنون.

وتقـــرأ هذه الفواتح بأسماء الحروف التي وردت فيها فتقول في "المر" الرعد ألف لام، ميم را.

الصوتين على أنهما حرفا واحد فتصبح الأبجدية بذلك ثمانية وعشرون حرفا، والبعض الآخر يميز بينهما فتصبح تسعة وعشرين حرفا، وهو الصحيح. والله أعلم.

ينظر كتاب: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث للدكتور/ عبد الصبور شاهين ص ١٧ وما بعدها- حيث إنه تصدى لمشكلة الخلط بين الألف والهمزة بتوسع - ط مكتبة الخانجي.

كما أن أسماء هذه الحروف العربية جاءت على وتيرة واحدة من جعل صوت الحرف صدر اسمه نحو: باء أوله (ب)، وتاء أوله (ت) وهكذا، إلا الألف فإنه الاسم الوحيد من أسماء حروف المعجم الذي لا يحمل شيئًا من مسماه، وقد ذكر العلماء أن الهمزة قد استعيرت لتوضع في صدر الألف قياسًا على الحروف الأخرى.

وقد عبر الإمام الزركشي -رحمه الله- عن هذا الكلام تعبيرًا واضحًا أثناء حديثه عن مسألة تنصيف الأبجدية حيث قال:

«انحصارها -(الحروف المقطعة) في نصف حروف المعجم؛ لأنها أربعة عشر حرفًا على ما سبق تفصيله، وهذا واضح على من عد حروف المعجم ثمانية وعشرين حرفًا، وقال «لا » مركبة من اللام والألف؛ والصحيح أنها تسعة وعشرون حرفًا، والنطق «بلا » في الهجاء كالنطق في «لا رجل في الدار »، وذلك لأن الواضع جعل كل حرف من حروف المعجم صدر اسمه إلا الألف؛ فإنه لما لم يمكن أن يبتدأ به لكونه مطبوعًا على السكون فلا يقبل الحركة أصلا توصل إليه باللام؛ لأنها شابهته في الاعتداد والانتصاب، ولذلك يكتب على صورة الألف، إلا إذا اتصل بما بعده، فإن قلت: فقد تقدم اسم الألف في أول حروف الهجاء! قلت: ذلك اسم الهمزة لوجهين: أحدهما أنه صدره، والثاني، أنها صدر ما تصدر من حروف المعجم لتكون صورته ثلاثًا.. وجوابه على هذا المذهب أن الحرف لا يمكن تنصيفه، فيتعين سقوط حرف لأنه الأليق بالإيجاز».

ينظر البرهان في علوم القرآن (١/١٧٦، ١٧٧)، باختصار.

من هذا كله يتأكد أن مجيء الحروف المقطعة بعددها المعروف من غير المكرر «أربعة عشر حرفا» إشارة إلى بقية حروف المعجم ليس فيه أي إشكال؛ لأن الأبجدية وهي تسعة وعشرون حرفا لا يمكن تنصيفها لأن العد فردي، والفردي لا يمكن تنصيفه فيتعين سقوط حرف.

كما أن اختيار القرآن لحرف الألف دون الهمزة ضمن الحروف المقطعة فيه تأكيد لعدد حروف المعجم على الوجه الصحيح.

يقول الإمام الزركشي -رحمه الله-: "والأولى أن الأحرف إنما جاءت في تسعة وعشرين سورة لتكون عدة السور دالة لنا على عدة الحروف، فتكون السور من جهة العدد مؤدية إلى الحروف من جهة العدة، فيعلم أن الأربعة عشر عوض عن تسعة وعشرين. ينظر البرهان في علوم القرآن ص ١٧٨.

وليس: أ لَ مَ رَ كما يقرأ بعض الأجانب، وحين نقلت بعض التراجم الأجنبية هذه الحـــروف المقطعـــة إلى الحـــروف الـــرومية أو اللاتينية، أخطأت خطأ كبيرا، لا سبيل لإصلاحه، لأن كثيرا من الحروف العربية غير موجود في الأبجديات الأخرى، لذلك يتعذر تمامـــا نقل كثير من الحروف العربية إلى مناظر لها في اللغات الأخرى، فكيف ينقل الظاء والطـــاء وغيرهما كالخاء والضاد والعين والقاف؟ لذلك نجدهم يستخدمون حروفا مختلفة للكلمـــات التي أخذوها عن العربية، فعندما لم يجدوا حرفا يقابل القاف في لغتهم؛ لذلك نرى أن آرثر آربري قد أخطأ عندما نقل افتتاحية سورة (ص) إلى: sad[1] وتقرأ ساد.

وتأتي هذه الكلمة الإنجليزية بهذه الصورة بمعنى حزين، وبذلك يكون اسم السورة (ص) ومعـناه قد تغير تمامًا بسبب نقله لأبجدية أخرى، يضاف إلى ذلك أن بعض التراجم لم تنقل بعـــض هذه الفواتح بأسمائها، بل نقلت الحروف فقالت عن (الم)[2] (AAH.LH.MH) مع أنك قد عرفت أنها أسماء مسمياتها الحروف التي ركبت منها فليست هذه الفاتحة (الم) آه – له – مه، وإنما هي ألف – لام –ميم.

وبالإضافة إلى ذلك نرى أن نقل هذه الفواتح إلى حروف أجنبية يبعدها تماما عن النطق الـــصحيح، ففي (الم) نقول: (ألف) بدون مد لأنه حرف مكون من ثلاثة أحرف، وليس به حـــرف مد ساكن في وسطه، أما اللام فإنها تمد مدًا لازمًا بمقدار ست حركات، لأن هجاء اللام ثلاثة أحرف أوسطها ألف المد، وآخرها الميم الساكنة المدغمة في الميم بعدها، والميم تمد كذلك؛ حيث إن هجاءها ثلاثة أحرف أوسطها مد، وآخرها حرف ساكن غير مدغم فيما بعده، فأين هذه المدود اللازمة عند تلاوتها في النقل الأجنبي لهذه الفواتح؟

روى أن ابـــن مسعود اعترض على قراءة رجل قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ مرسلة بدون مد، فقال للرجل: ما هكذا أقرأنيها رسول الله، فقال الرجل: كيف أقرأكها يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: ﴿للفقراء والمساكين﴾ ومدها[3].

لا تقوم هذه الحروف مقام (الم) لا في مخرجها ونطقها، ولا في... ولا في وزنها وتركيبها، ولا في معناها ومغزاها، وما ذلك إلا لتميز العربية بصفة عامة ولغة القرآن بصفة خاصة – عن غيرهـــا من اللغات، لا في كلمات وتعابيرها وتراكيبها فحسب، بل في حروفها كذلك فقد عجـــزت هـــذه اللغات عن نقل بعض الحروف العربية التي لا نظير لها في لغاتهم، لذا نرى أن العربية قد تميزت بفن النطق في الحروف والكلمات والتراكيب ولا يمكن للغة أخرى نقلها

---

(١) القرآن مفسرا – الجزء الثاني ص١٥٨ ط/لندن (الترجمة الإنجليزية).

(٢) القرآن المجيد – عبد الله يوسف علي ص١٧ في ترجمته (الم) البقرة الترجمة الإنجليزية.

(٣) القرآن مفسرًا لآرثر آربري (١/ ٣٠)، ط/لندن ١٩٥٥م.

نقلا حرفيًا ويمكن أن يكون النقل بالشرح والتفسير والتوضيح. لذلك كانت الترجمة الصحيحة للقرآن الكريم هي تلك التي تنقل المعاني المفسرة للآيات القرآنية، وليست تلك الترجمة الحرفية التي تحاكي اللفظ القرآن بإحلال مرادف أجنبي له يقوم مقامه.

ويرى الكوفيون أن الفواتح في السور كلها من غير تفرقة - آيات، أما البصريون فلم يعدوا شيئا من ذلك آية[1].

ويرى الزمخشري أن ذلك علم توقيفي لا مجال للقياس فيه[2]. ونحن مع الزمخشري في هذا الرأي السديد حيث إن بعض هذه الفواتح عد آية، مثل الم في سورها الست، والبعض الآخر لم يعد آية مثل المر الرعد، وكذلك الر ليست آية في سورها الخمس، بل إن فاتحة الشورى عدت آيتين لا آية واحدة حم (*) عسق (*).

وقد تناول العلماء هذه الحروف بالبحث والتفصيل، وتشعبت جوانب الحديث حولها من وجوه مختلفة ومعاني متعددة، كما سيتضح فيما يأتي -إن شاء الله.

والبحث في هذا جد رحيب، وفيما يأتي إلمام سريع ببعض الجوانب التي لا يعفى عن إغفالها في هذا الصدد.

- تحقيق اسم الحروف المقطعة:

أولا: معنى الأحرف:

حرف الشيء طرفه، وجمعه أحرف وحروف.

يقال: حرف السيف، وحرف السفينة، وحرف الحبل، وحروف الهجاء أطرف الكلمة.

والحرف من كل شيء طرفه وشفيره وحده، والحرف واحد حروف التهجي.

وكل كلمة يقرأ على الوجوه من القرآن تسمى حرفا، فالحرف في الأصل: الطرف، والجانب، وبه سمي الحرف من حروف الهجاء.

يقال: فلان على حرف من أمره أي ناحية منه، إذا رأى شيئًا لا يعجبه عدل عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[3].

قالوا على وجه واحد، وهو أن يعبده على السراء دون الضراء.

وسميت الحروف حروفًا؛ لأن الحرف حد منقطع الصوت.

وقد قيل: إنها سميت بذلك؛ لأنها جهات للكلام ونواح، كحروف الشيء

(١) الآلوسي - روح المعاني (١/١٠٥).

(٢) الكشاف (١/١٠٦).

(٣) سورة الحج الآية: ١١.

وجهاته[١].

مـــن ذلـــك يتبين أن الأصل في كلمة حرف في الاستعمال العربي أن يكون معناه الجانـــب ثم أطلقت على حروف الهجاء، وقد استعملت في الدلالة على وجه من الكلمة التي تقرأ على عدة وجوه في القرآن الكريم.

ومعنى مقطعة: أن كل حرف ينطق بمفرده.

ثانيا: تحقيق القول بأن هذه الأحرف المقطعة أسماء أريد بها مسمياتها:

وبيان ذلك:

إن المنطوق به من هذه الحروف أسماء مسمياتها الحروف الهجائية المعروفة.

وقد أعلن هذا الإمام الزمخشري -رحمه الله- في صراحة حيث قال[٢]:

«اعلم أن الألفاظ التي يتهجى بها أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، فقولك -ضاد- اسم سمي به «ضه» من ضرب إذا تهجيته، وكذلك: را، با: اسمان لقولك: ره، به، وقد روعيت في هذه التسمية لطيفة، وهي أن المسميات لما كانت ألفاظا كأساميها، وهي حروف وحدان، والأسامي عدد حروفها مُرْتَقٍ إلى الثلاثة، اتجه لهم طريق إلى أن يدلوا في التسمية على المسمى فلم يغفلوها، وجعلوا المسمى به صدر كل اسم منها كما ترى، إلا الألف؛ فإنهم استعاروا الهمزة مكان مسماها؛ لأنه لا يكون إلا ساكنا، ومما يضاهيها في إيداع اللفظ دلالة على المعنى: التهليل، والحوقلة، والحيعلة، والبسملة.

فإن قلت: لم قضيت لهذه الألفاظ بالاسمية؟ وهلا زعمت أنها حروف كما وقع في عبارات المتقدمين؟

قلت: قد استوضحت بالبرهان النير أنها أسماء غير حروف، فعلمت أن قولهم خليق بأن يصرف إلى التسامح، وقد وجدناهم متسامحين في تسمية كثير من الأسماء التي لا يقدح

---

(١) ينظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني كتاب الحاء ص ١١٤، ولسان العرب لابن منظور مادة حرف (٨٣٧/١، ٨٣٨)، والقاموس المحيط للفيروز آبادي مادة «حرف» باب الفاء - فصل الحاء (١٠٦٦/٢)، ومختار الصحاح للشيخ الرازي — ص ٨٣، باب الحاء، وسر الفصاحة للأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي المتوفى سنة ٤٦٦هـــ -ص ١٥- فصل في الحروف- تحقيق/ علي فودة- مكتبة الخانجي- القاهرة- الطبعة الثانية ١٤١٤ هـــ - ١٩٩٤م.

(٢) تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف الإمام/ أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـــ- (٣١/١، ٣٠) رتبه وضبطه وصححه/ محمد عبد السلام شاهين- وبحواشيه أربعة كتب- منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية -بيروت لبنان- الطبعة الأولى ١٤١٥هـــ ١٩٩٥م.

إشـــكال في اسميـــتها كالظروف وغيرها بالحروف، مستعملين الحروف في معنى الكلمة، وذلك أن قولك «ألف» دلالته على أوسط حروف قال، وقام دلالة «فرس» على الحيوان المخـــصوص، لا فضل فيما يرجع إلى التسمية بين الدلالتين، ألا ترى أن الحرف، ما دل على معنى في غيره، وهذا كما ترى دال على معنى في نفسه؛ ولأنها متصرف فيها بالإمالة كقـولك.با، تا، وبالتفخيم كقولك: يا، ها، وبالتعريف، والتنكير، والجمع، والتصغير، والوصف، والإسناد، والإضافة وجميع ما للأسماء المتصرفة.

ثم إني عثرت من جانب الخليل على نص في ذلك قال سيبويه: قال الخليل يومًا، وسأل أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك، والباء التي في ضرب؟ فقيل: نقول: باء، كاف، فقال: إنما جئتم بالاسم، ولم تلفظوا بالحرف، وقال: أقول: كه، به، وذكر أبـــو علي في كتاب الحجة في (يس): وإمالة يا، أنهم قالوا: يا زيد، في النداء؛ فأمالوا وإن كان حرفًا، قال: فإذا كانوا قد أمالوا في لا يمال من الحروف من أجل الياء، فلأن يميلوا الاسم الذي هو يس أجدر، ألا ترى أن هذه الحروف أسماء لما يلفظ بها؟ ا هــ.

والإمالة من خواص الاسم والفعل، ولا تجري في الحروف إلا نادرًا على سبيل التشبيه، والإلحاق كإمالة «بلى» مع أنها من حروف الإيجاب إلا أنها أشبهت الفعل من حيث استقلت جـــوابًا، وأغـــنت عن الجملة المذكورة في السؤال كما في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[1] أي: بلى أنت ربنا، وكاملة «يا» النداء لكونه قائما مقاما ادعوا[2]».

ومما يدل أيضًا على أنها أسماء، اعتوار أحوال الأسماء عليها مثل التعريف، حين تقول: الألـــف والـــباء، ومثل الجمع حين تقول: الميمات، الجيمات، وحين الوصف تقول: ألف

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٧٢.

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زاده محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوري الحنفي المتوفى سنة ٩٥١ هـــ -على تفسير القاضي البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥هـــ -ضبطه وصححه وخرج آياته/ محمد عبد القاهر شاهين- ج/ ١١٤- منشورات محمد علي بيضون- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٤١٩هـــ- ١٩٩م.

وينظر إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر للشيخ/ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي الشهير بالبناء المتوفى سنة ١١١٧هـــ - ص ١٠٢ باب الفتح والإمالة، ص ١٢٠ فصل في إمالة أحرف الهجاء في فواتح السور- وضع حواشيه الشيخ/ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي الشهير بالبناء المتوفى سنة ١١١٧ هـــ - ص ١٠٢ باب الفتح والإمالة، ص ١٢٠ فصل في إمالة أحرف الهجاء في فواتح السور — وضع حواشيه الشيخ/ أنس مهرة- الطبعة الأولى ١٤١٩ — ١٩٩٨م — دار الكتب العلمية- بيروت لبنان.

ممدودة(١).

ومما روي عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- قال:

«من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الم﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(٢).

فالمراد بالحرف في هذا الحديث، إنما هو الكلمة التامة دون الحرف الاصطلاحي، لأن الحرف الذي ذكره النبي -ﷺ- مثالا هو: ألف، لام، وميم- جعل اللفظ كاملا وهو «ألف».

وإنما «سماه حرفًا مجازًا لكونه اسمًا للحرف، وإطلاق اسم أحد المتلازمين على الآخر مجاز مشهور(٣).

فهو ليس على الإطلاق الذي حدده أئمة الصناعة من أن الحرف هو ما يقابل الاسم والفعل، وذلك لدفع توهم التجوز، وزيادة تعيين إرادة المعنى الحقيقي، ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية بل بعدد حروفها المكتوبة في المصحف.

والمعنى: لا أقول إن مجموع الأسماء الثلاثة حرف، بل مسمى كل منها حرف(٤).

فالأحرف المقطعة التي في فواتح بعض السور القرآنية -إنما هي كلمات لا حروف، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليه، ولا ينفرد وحده في الصورة، ولا ينفصل مما يختلط به، وهذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصلة كانفراد الكلم وانفصالها، فلذلك سميت كلمات لا حروفًا(٥).

والراجح أن هذه الحروف المقطعة أسماء بالمعنى الاصطلاحي، حروف بالمعنى

---

(١) التحرير والتنوير للعلامة الشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور المتوفى سنة ١٣٩٣هـ - جـ ١ ٢٠٧- دار سحنون- تونس.

(٢) رواه الترمذي في السنن- كتاب فضائل القرآن- باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر جـ ٥/ ١٧٥- ٢٩١٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه - ط الحلبي بمصر.

(٣) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري -المتوفى سنة ٦٠٤هـ- المجلد الأول- ج٢/ ٣- دار الفكر- بيروت- لبنان- ط ١٤١٥هـ -١٩٩٥م.

(٤) ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للقاضي أبي السعود العمادي المتوفى سنة ٩٥١ هـ جـ(١/ ٢٠) بتصرف وتلخيص ط دار إحياء التراث العربي.

(٥) ينظر الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ -ج/ (٤/ ٨٤)، راجعه وضبطه وعلق عليه د/ محمد إبراهيم الحفناوي -خرج أحاديثه أ. د/ محمود حامد عثمان- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الثانية ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

اللغوي.

والحق إن الإمام الزمخشري -رحمه الله- هو الذي أفاض في شرح اسمية هذه الحروف، والبرهنة عليها فاضطر كل من تعرض لهذا الجانب بعده أن يعتمد على أقواله.

وقد أكد الإمام ابن تيمية -رحمه الله- ما ذكره الإمام الزمخشري وهو أن:

الحروف التي ينطق بها مفردة مثال: ألف، لام. ميم، ونحو ذلك، فهذه هي الحقيقة أسماء الحروف[(١)]. ا هـ.

ثالثًا: رسمها في المصحف، وكيفية النطق بها:

وإنما كتبت في المصاحف على صورة مسمياتها أ، ب، ت... الخ لا على صور أسمائها ألف، به، ته... إلخ. لأنه أدل على كيفية التلفظ بها.

يقول الطاهر بن عاشور[(٢)] -رحمه الله-:

«وإنما كتبوها في المصاحف بصور الحروف التي يتهجى بها في الكلام التي يقوم رسم شكلها مقام المنطوق به في الكلام، ولم يكتبوها بدوال ما يقرؤونها به في القرآن فقد رسمت حروفًا: الألف (أ)، واللام (ل)، والميم (م) إلا أنهم وصلوها، وقد علل الإمام الزركشي -رحمه الله- ذلك بقوله[(٣)]:

كتبوا ﴿الم﴾ و﴿المر﴾ و﴿الر﴾ موصولا. إن قيل: لم وصلوه والهجاء مقطع لا ينبغي وصله؛ لأنه لو قيل لك: ما هجاء زيد؟ قلت: زاي، ياء، دال، وتكتبه مقطعا، لتفرق بين هجاء الحروف وقراءته؟

قيل: إنما وصلوه لأنه ليس هجاء لاسم معروف؛ وإنما هي حروف اجتمعت يراد بكل حرف معنى.

فإن قيل: لم قطعوا ﴿حم عسق﴾ ولم يقطعوا ﴿المص﴾ و﴿كهيعص﴾ ؟

قيل: (حم) قد جرت في أوائل سبع سور، فصارت اسمًا للسور، فقطعت مما قبلها.

وجوزوا في ﴿قَ وَالقُرآنِ﴾ و﴿صَ وَالقُرآنِ﴾ وجهين: من جزمهما فهما حرفان، ومن كسر آخرهما فعلى أنه أمر كتب على لفظهما ا هـ.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ - ١٢/ ٤٤٨، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد ط ١٣٩٨هـ تصوير عن الطبعة الأولى- الرياض.

(٢) التحرير والتنوير ج (١/ ٢٠٦).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٣٠، ٤٣١).

وقد ذكر الإمام السيوطي -رحمه الله- فائدة عند تعليله لهذا حيث قال[١]:

«كتبت فواتح السور على صورة الحروف أنفسها لا على صورة النطق بها اكتفاءً بشهرتها، وقطعت ﴿حَم عسق﴾، دون ﴿المص﴾ و﴿كهيعص﴾ طردا للأولى بأخواتها الستة» اهـ.

وللإمام الشعراوي -رحمه الله- ملحظ نفيس في ذلك حيث قال[٢]:

والقرآن الكريم لا يؤخذ على نسق واحد حتى تنتبه ونحن نتلوه أو نكتبه، لذلك نجد مثلا ﴿بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مكتوبة بدون ألف بين الباء والسين، ومرة تجدها مكتوبة بالألف في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٣].

وكلمة تبارك مرة تكتب بالألف، ومرة بغير الألف... ولو أن المسألة رتابة في كتابه القرآن لجاءت كلها على نظام واحد، ولكنها جاءت بهذه الطريقة لتكون كتابة القرآن معجزة، وألفاظه معجزة» اهـ.

وقبل كل ذلك وبعده فإن خط المصحف مما لا يناقش فيه، بمخالفة القياس، حيث هو سنة توقيفية، هكذا علمها الرسول الخاتم -ﷺ- لكتاب هذا الوحي المعصوم من الاختلاف والتناقض والتحريف، ومن كل شيء ونقص.

يقول الإمام الزمخشري[٤] -رحمه الله- فيما ذكره عن عبد الله بن دستوريه في كتابه «الكتاب المتمم في الخط والهجاء»:

خطان لا يقاسان خط المصحف لأنه سُنَّة، وخط العروش، لأنه يثبت فيه ما أثبته اللفظ ويسقط عنه ما أسقطه اللفظ»[٥].

فالخط تصوير الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها، والوقف عليها، ولذا حذفوا صورة التنوين، وأثبتوا صورة همزة الوصل، والهجاء هو التلفظ بأسماء الحروف لا مسمياتها لبيان مفرداتها وجاء الرسم على المسمى[٦].

(١) الإتقان في علوم القرآن -النوع السادس والسبعون في مرسوم الخط- جـ ٤/ ١٥٨.

(٢) تفسير الشعراوي-خواطر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم - ج (١/١٠٧)، راجع أصله وخرج أحاديث أ. د. أحمد عمر هاشم- ط أخبار اليوم- قطاع الثقافة.

(٣) سورة العلق الآية: ١.

(٤) تفسير الكشاف ج (١/ ٣٧).

(٥) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ص: ١٥، فصل في ذكر جملة من مرسوم الخط.

(٦) سورة الشرح آية: ١.

أمـــا عـــن كيفية النطق بهذه الحروف، فإنها تنطق بأسمائها مع مد المطلوب مدة، فتـــنطق ﴿الم﴾ بـــ ألف. لام. ميم، و﴿ص﴾ تنطق صاد و﴿ق﴾ وتنطق قاف، وهكذا فهـــي تقـــرأ بطريقة خاصة غير بقية الكلمات المركبة، إذ تقرأ حرفًا حرفًا على طريقة التهجـــي الـــسماعي وليس التهجي القياسي المعروف، كما أن لهذه الحروف أحكامها التجويدية الخاصة بكل حرف هجائي منها، من حيث المد، والتفخيم، والترقيق، وغيرها.

وعلـــى الـــرغم مـــن أن نفس هذه الحروف تنطق في فواتح بعض السور الأخرى بمسمياتها، مع أن الكتابة واحدة في الاثنين، وذلك مثل صدر سورة «الشرح» قال تعالى: ﴿الم نَـــشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وصدر سورة «الفيل» قال تعالى ﴿الم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـــبِ الْفِيلِ﴾[1].

وإنمـــا نطـــق رسول الله -ﷺ- فواتح بعض السور المفتتحة بهذه الحروف، مرة بأسمائها، وأخرى بمسمياتها، كما سمعها من أمين الوحي سيدنا جبريل -عليه السلام- فقد بلغها إليه هكذا عن رب العزة -تبارك وتعالى.

وقـــد حدثنا القرآن الكريم عن حرص النبي ﷺ على متابعة القراءة والنطق بالألفاظ باهـــتمام وحـــرص؛ لـــيكون متقنًا لها، كما ينطقها له أمين الوحي سيدنا جبريل -عليه الـــسلام- وأمره ربه بالإصغاء لآيات الكتاب الحكيم وعدم التعجل بنطقها، قال تعالى: ﴿لاَ تُحَـــرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[2].

فكـــان الرســـول ﷺ بعد ذلك إذا آتاه سيدنا جبريل -عليه السلام- ينصب فإذا ذهب وجد القرآن مجموعًا في صدره.

إن الكـــتابة قـــيد الألفـــاظ، والأصل أن يطابق المكتوب المنطوق تمام المطابقة، وبالنظر إلى رسم المصحف وكتابته نجد اختلافا في كتابة الآيات ونطقها، والسر في ذلك، وهـــو فائدة عظمى -حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من حفاظ ماهرين في القراءة، فلا يـــتكلوا علـــى التلقـــي المكتوب، إذ أن للتلاوة أحكامًا ينبغي أن يأخذ بها تالي القرآن، كالقلقة، والإخفاء، والإقلاب، والإظهار، والإدغام ونحو ذلك.

فالفـــرق بين من يتلقي القرآن عن شيخ، وبين من يقرأه بنفسه من غير تلمذة على علمـــاء القرآن الكريم، يتضح في كثير من الكلمات القرآنية التي يتوقف نطقها الصحيح

---

(١) سورة الفيل آية: ١.. (٢) سورة القيامة آية (١٦، ١٩).

على التلقي، إذ أن حروفًا في القرآن الكريم، وكلمات لا يمكن أداؤها من واقع الكتابة أداء صحيحًا، بل لا بدّ من تلقي النطق الصحيح من فم المقرئ، ومن هذه الكلمات الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور القرآنية.

ولهذا قرر العلماء -رحمهم الله تعالى- أنه لا يصح التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بدّ من التلقي عن حافظ متقن وكانوا يقولون: (من أعظم البلية تشيخ الصحيفة)[١]، ويقولون: «لا تأخذوا القرآن من مصحفي، ولا العلم من صحفي»[٢].

كما أن أعلام حفاظ القرآن -يميزون الحفظ بالتلقي، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: «**حفظت من في رسول الله ﷺ بضعة وسبعين سورة**»[٣].

ويبين عمن أخذ باقيه فيقول في رواية أخرى: «**وأخذت بقية القرآن عن أصحابه**»[٤].

ومما يؤكد على أن الإنسان لا يستطيع قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة إلا بالتلقي والمشافهة، وأن الخط في المصحف وحده لا يدل على القراءة الصحيحة أن النبي ﷺ كان يبعث القراء إلى من يدخل في الإسلام لتعليمهم التلاوة، وكان بإمكانه ﷺ أن يكتب لهم، واقتدى بسنته من بعده الخلفاء الراشدون.

وكيف يدل الخط على القراءة الصحيحة، وقد نصوا على أن مصحف سيدنا عثمان -رضي الله عنه- قد جرد من النقط والشكل ليحتمل ما صح نقله، وثبت تلاوته عن النبي -ﷺ- إذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط[٥].

من هذا يتضح أن المعول عليه في قراءة القرآن الكريم، هو التلقي الشفاهي لهذا

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم لـ بدر الدين بن جماعة ص ٨٧- دار الكتب العلمية- بيروت.

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري - ص ١٠ تحقيق/ عبد العزيز أحمد- الناشر مصطفى الحلبي -مصر- الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣هـ.

(٣) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن -باب القراءة من أصحاب النبي -ﷺ- ج (١٠٢/٦) تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي- رئاسة إدارات البحوث العلمية- الرياض- ط ١٤٠٠هـ.

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج (٤٨/٩) حيث قال: «زاد عاصم عن بدر عن عبد الله ثم ساق النص» -تصحيح/ عبد العزيز بن باز- ترقيم/ محمد عبد الباقي- دار الفكر- تصوير عن الطبعة السلفية.

(٥) ينظر النشر في القراءات العشر للحافظ أبي الخير محمد بن الدمشقي الشهير بابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ -أشرف على تصحيحه ومراجعه فضيلة الأستاذ/ علي محمد الضباع شيخ عموم المقارئ بالديار المصرية- ج (٧/١) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الكتاب العزيز، عن الشيوخ الحافظين له، المجيدين لنطق ألفاظه، وذلك كما توراثته هذه الأمة خلفًا عن سلف، وتناقلته جيلاً بعد جيل بسند متصل عن رسول الله ﷺ.

يقول الإمام ابن حزم[١] رحمه الله: «ونحن- إن شاء الله تعالى- نذكر صفة وجوه النقل الذي عند المسلمين لكتابهم ودينهم» إلى أن قال: «إن نقل المسلمين لكل ما ذكرنا ينقسم أقساماً ستة أولها شيء ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلا جيلا، لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة، وهو القرآن المكتوب في المصاحف، في شرق الأرض وغربها، لا يشكون ولا يختلفون في أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أتى به وأخبر أن الله -عز وجل- أوحى به إليه، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا». ا هـ.

ومما لا شك فيه اتصال السند برسول الله -ﷺ- في القرآن كله سوره، وآياته، وكلماته، وحروفه بهيئاتها وحركاتها، وكيفية نطقها بطريق التواتر، وهو من خواص هذا الكتاب الذي امتاز به على سائر الكتب، ومن خواص هذه الأمة التي امتازت به على سائر الأمم.

إن التأكيد على هذا الأمر محل اهتمام ورعاية، فمعذرة إن طال الحديث حوله، كما أن له صلة بالحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور القرآنية.

رابعًا: حكمة تفريق وتكرير الأحرف المقطعة في القرآن الكريم:

المتأمل للحروف المقطعة التي بدأت بها بعض سور القرآن الكريم يجدها قد جاءت مفرقة، والبعض جاء مكررًا.

فجاءت سورتا «البقرة، آل عمران» متواليتين، وتكرر افتتاحهما بقوله تعالى ﴿الم﴾، ثم بعد ثلاث سور تأتي سورة الأعراف مفتتحة بقوله تعالى ﴿المص﴾ منفردة، ثم بعد سورتين تأتي بعد السور المفتتحة بقوله تعالى: ﴿الر﴾ متتابعات، ما عدا سورة الرعد مفتتحة بقوله تعالى ﴿المر﴾ وهذه السور هي «يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر» وهكذا.

وقد تكرر بعض الحروف المقطعة في فواتح بعض السور دون غيرها وهي: ﴿الم﴾ جاءت في ست سور، و﴿الر﴾ في خمس سور، و﴿حم﴾ في سبع سور، و﴿طسم﴾ في سورتين.

وهكذا نجد أن السور المفتتحة بهذه الحروف لم ترد بأجمعها في أول القرآن، ولم

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ،ج (٨١/٢)، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ.

تـــأت كلها متتابعة، بل جاءت مفرقة في القرآن الكريم وتكرر بعضها في أكثر من موضع من القرآن الكريم.

وللجواب عن ذلك يقول الإمام الزمخشري[١] رحمه الله:

«لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحـــد أوصل إلى الغرض، وأقر له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره» ا هـــ.

يقول الشريف الجرجاني[٢] معلقًا على قول الإمام الزمخشري:

«وكـــذلك مذهب كل تكرير»: «أي تكرير سائر المعاني كإعادة التنبيه مع طلب التمكن، إما مع اتحاد اللفظ كـــ ﴿الم﴾ في سورها، و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[٣]، وإما بدونـــه كـــــ ﴿ص﴾ و﴿حم﴾، والقصص المكررة بعبارات مختلفة، ومعلوم أن الفواتح ألفـــاظ فيها غرابة، وفي ذلك إمارة الإعجاز، وأن إعادة الإغراب، وتكرير إمارة الإعجاز أوفى بالمطلوب» ا هـــ.

ويقول الإمام الزركشي[٤] -رحمه الله- متحدثًا عن التكرار وأثره:

وفائدته العظمى التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر.

وذلك أن الله -عز وجل- حين يريد أن يوضح معنى من المعاني ويؤكده لا يذكره مرة واحدة بل يردده كثيرًا حتى يستقر في ذهن المتلقي، وذلك لأن رسالة سيدنا محمد ﷺ قـــد جاءت على فترة من النبوات، ومن خطاب السماء، فكان لا بدّ من تكرر ما يريد إيضاحه، وعلى هذا النمط جاء قول الحق -سبحانه وتعالى- في فواتح السور «الأحرف المقطعة»، حيث تكرر في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز تأكيدًا للمعاني، أو تأكيدًا للسر الذي وضعه الله في هذه الحروف وإن لم نكن ندرك ذلك السر[٥].

كمـــا أن القـــرآن نزل بلسان العرب، فجاءت مخاطباته جريا على عادة العرب في خطاباتها، وذلك أنها إذا اهتمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه كررته توكيدًا، وكأنها تقـــيم تكراره مقام المقسم عليه، فجاء القرآن الكريم جريا على ما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة[٦].

---

(١) تفسير الكشاف ج (١/ ٤٠).

(٢) حاشية السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني على تفسير الكشاف ج (١/ ١٠٤) — ط الحلبي.

(٣) سورة المرسلات تكررت فيها عشر مرات. (٤) البرهان في علوم القرآن ج (٣/ ١٠).

(٥) ينظر تفسير الشيخ الشعراوي جـــ (٢/ ١٢٥٧) بتصرف.

(٦) ينظر البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي جـــ (٣/ ٩) بتصرف.

وإذا بهـذا الكلام المكرر المعاد هو الفصاحة كلها، حواها من أطرافها، وإذا هو الحسن كله، قد جمعه من جميع وجوهه! ﴿فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ﴾(١).

خامسًا: حكمة تنوعها من فرادى إلى ثنائية حتى الخماسية:

لما كان القرآن الكريم، عربيا وأسلوبه عربي على طريقة العرب في فنون كلامهم، وتنوع أساليبهم، وتصرفهم فيه على طرق شتى، ومذاهب متنوعة، من هنا جاءت فواتح السـور على هذه الصيغ المتنوعة جريًا على إعادة اقتنائهم في أساليب الكلام، وتصرفهم فـيه علـى طـرق شتى ومذاهب متنوعة، من هنا جاءت فواتح السور على هذه الصيغ المتـنوعة جـريًا علـى إعادة افتنانهم في أساليب الكلام، وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوعة، وكما أن أبنيه كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك"(٢).

وقـد قـصد بها التحدي والإعجاز، إذ لو كانت على غير الأسلوب العربي من بنية تراكيب كلماتهم وأساليبهم المتنوعة لكان ذلك مضعفًا لإعجازها وتحديها للعرب، ولوجد المشركون فيها ثغرة يطعنون بها في القرآن العزيز، ولكن حاشا للقرآن العظيم ذلك.

فإن قلت: فما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التي اختصت بها؟

قلـت: إذا كـان الغرض هو التنبيه، والمبادئ كلها في تأدية هذا الغرض سواء لا مفاضـلة، كـان تطلب وجه الاختصاص ساقطا، كما إذا سمي الرجل بعض أولاده زيدًا والآخـر عمرًا، لم يقل له: لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمرو؟! لأن الغرض هو التمييز وهو حاصل»(٣).

يقول الإمام الرازي(٤) رحمه الله: فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر؟ فلا يعلم تمام السر إلا الله، ومن أعلمه الله به» ا هـ.

سادسًا: هل الأحرف المقطعة تعد آية بمفردها؟ وكيفية الوقف عليها، وإعرابها:

مـن المقرر عند الإثبات أن عد بعض هذه الفواتح آية، وبعضها جزءًا من آية إنما هو مبني على التوقيف الذي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، وذلك لأن النبي -ﷺ- كان يقف على رؤوس الآي تعليما لأصحابه أنها رؤوس آي.

روى الإمام أبو داود في سننه بسنده من حديث أم سلمة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ

---

(١) سورة الانشقاق آية (٢٠، ٢١). (٢) تفسير الكشاف جـ (١/ ٤٠).
(٣) تفسير الكشاف جـ (١/ ٤٠، ٤١).
(٤) مفاتيح الغيب -المجلد الثالث عشر- جـ (٢٦/ ٤١).

كـــان إذا قـــرأ قطـــع قراءته آية آية، فيقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم يقف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـــلَمِينَ﴾ ثم يقف ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم يقف»[١].

فتـــرتيب آيات القرآن وسورة لا مجال للاجتهاد فيه إذ هو أمر توقيفي بمعنى أن ذلك يتوقف على النقل عن النبي ﷺ كما كان يعلمه له أمين الوحي سيدنا جبريل -عليه السلام-.

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده المتصل من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعه صدري، وقال: «تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»[٢].

فالرســـول ﷺ قـــد دل عمر -رضي الله عنه- على مواضع تلك الآية من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾[٣].

وغـــير ذلـــك من الأحاديث التي بينت أن ترتيب الآيات أمر توقيفي من عند الله -تعـــالى-، وإيضاحًا لهذا الأمر يقول الإمام الزرقاني[٤] -رحمه الله-: «انعقد إجماع الأمة علـــى أن تـــرتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم بالمصاحف، كان بتوقيف من النبي ﷺ عن الله -تعالى-، وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، بل كان سيدنا جـــبريل -عليه السلام- ينزل بالآيات على الرسول ﷺ ويرشده إلى موضع كل آية من ســـورتها، ثم يقرأها النبي ﷺ على أصحابه، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها معينا لهم السورة التي تكون فيها الآية، وموضع الآية من هذه السورة، وكان يتلوه عليهم مرارا وتكرارا في صلاته وعظاته، وفي حكمه وأحكامه، وكان يعارض به سيدنا جبريل -عليه السلام- كل عام مرة، وعارضه به في العام الأخير مرتين، كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في

(١) سنن أبي داود للإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي المتوفى سنة ٢٧٥ هـ -راجعه وضبط أحاديث/ محمد محي عبد الحميد- كتاب الحروف والقراءات- جـ ٤/ ٣٦/ ٤٠٠١- ط دار الحديث -القاهرة -١٤٠٨هـ -١٩٨٨م، وأخرجه الدار قطني علي بن عمر - كتاب الصلاة- باب وجوب قراءة بسم الله الرحمن في الصلاة والجهر بها، وقال: إسناد صحيح وكلهم ثقات- ينظر سنن الدارقطني (ط/ ٣١٣/١) ط عالم الكتب -مكتبة المتنبي- القاهرة، وأخرجه الحاكم في المستدرك- كتاب الصلاة جـ (٢٣٢/١)، وقال: صحيح على شرطه الشيخين وأقره الذهبي.

(٢) أخرجه الإمام مسلم -كتاب الفرائض -باب ميراث الكلالة- ينظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ (٥٧/١١) ط الريان.

(٣) سورة النساء الآية: ١٧٦.

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن ج (٢٩٢/١).

المصاحف» ا هـ.

ولا غرابة في عد بعض هذه الفواتح -من الأحرف المقطعة- آية رغم قصرها، ومع كونها لا تزيد عن كلمة واحدة شأنها في ذلك شأن كلمة ﴿الرحمن﴾ آية، وكلمة ﴿مدهامتان﴾ آية، وكلمة ﴿الحاقة﴾ آية، وكلمة ﴿القارعة﴾ آية.

مما يدل على أن الحروف المقطعة في فواتح السور لا تسير على قاعدة محددة، وإنما هي خصوصية في كل حرف من الحروف.

يقول الإمام الزمخشري[1] رحمه الله: «فإن قلت: ما بالهم عدوا بعض هذه الفواتح آية دون بعض؟

قلت: هذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، أما ﴿الم﴾ فآية حيث وقعت من السور المفتتحة بها وهي ست، وكذلك ﴿المص﴾ آية، و﴿المر﴾ لم تعد آية، و﴿الر﴾ ليست بآية، و﴿حم﴾ آية في سورها كلها، و﴿حم عسق﴾ آيتان، و﴿كهيعص﴾ آية واحدة و﴿ص ق ن﴾ ثلاثتها لم تعد آية، هذا مذهب الكوفيين ومن عداهم، لم يعدوا شيئًا منها آية.

فإن قلت: فكيف عد ما هو في حكم كلمة واحدة آية؟

قلت: كما عد الرحمن وحده، ومدهامتان وحدها آيتين على طريقة التوقيف» ا هـ.

وأما عن كيفية على هذه الحروف المقطعة في فواتح السور، يقول الإمام الفراء[2] رحمه الله: «الهجاء موقوف في كل القرآن، وليس بجزم يسمى جزمًا، إنما هو كلام جزمه نية الوقوف على كل حرف منه؛ فافعل ذلك بجميع الهجاء فيما قل أو كثر. وإنما قرأت القراءة ﴿الم الله﴾ في آل عمران ففتحوا الميم؛ لأن الميم كانت مجزومة لنية الوقف عليها، وإذا كان الحرف ينوي به الوقوف نوى بما بعده الاستئناف، فكانت القراءة ﴿ا ل م الله﴾ فتحركت العرب همزة الألف من الله فصارت فتحتها في الميم لسكونها، ولو كانت الميم جزمًا مستحقًا للجزم لكسرت، كما في ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾[3] ا هـ.

وقد ذهب أيضًا أبو عبيدة -رحمه الله- إلى أن هذه الحروف سكنت؛ لأنها هجاء

(١) تفسير الكشاف ج (٤١/١).
(٢) معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ- تحقيق أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار -جـ (٩/١) دار السرور.
(٣) سورة يس آية: ٢٦.

ولا يدخل في حروف الهجاء إعراب[١].

والدليل على أنها موقوفة، قول الشاعر[٢]:

أقبلتُ من عند زياد كَالخَرِف
تَخُطُّ رِجْلايَ بِخَطٍّ مُختَلِف
تكتبانِ في الطريقِ لام ألف

فجزمه لأنه هجاء.

كأنــه قــال: لام ألف، بسكون «لام» ولكنه ألقى حركة همزة «ألف» على الميم ففتحها[٣].

«فإجماع النحويين أن هذه الحروف مبنية علي الوقف لا تعرب، ومعنى قولنا «مبنية على الوقف» أنك تقدر أن تسكت على كل حرف منها، فالنطق:

ألف، لام، ميم، ذلك، والدليل على أنك تقدر السكت عليها جمعك بين ساكنين في قــولك «لام» وفي قولك «ميم» ذلك، والدليل على أنك تقدر السكت عليها جمعك بين ساكنين في قولك «لام » وفي قولك «ميم ».

والدليل على أن حروف الهجاء مبنية على السكت كما بنى العدد على السكت:

أنك تقول فيها بالوقف مع الجمع بين ساكنين، كما تقول إذا عددت واحد، اثنان، ثلاثــة، أربعة...، ولو أنك تقدر السكت لقلت: ثلاثة، بالتاء، كما تقول: ثلاثا يا هذا، فتصير الهاء تاء مع التنوين واتصال الكلام[٤].

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي المتوفى سنة ٢١٠ هـــ -علق عليه د/ محمد فؤاد سركين- جـــ ١/٢٨- الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٢) هو أبو النجم العجلي، يصف حالة سكر له، وزياد هو صديقه الذي شرب عنده، يريد أنه كان يتمايل فتخط رجلاه في الطريق ما يشبه «لام ألف»، وأبو النجم هو الفضل ابن قدامة، من بني بكر بن وائل كان راجزًا وشاعرًا أوصف من العجاج، وكان معاصرا له. ينظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، شرح على شواهد الكافية لعبد القادر البغدادي جـــ ١/ ٤ ط بولاق ١٢٩٩، وكتاب المخصص لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي الأندلسي المعروف بابن سيدة – جـــ ١/ ١٧– ط التاسعة ١٣١٦هـــ بولاق.

(٣) ينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج- أبي إسحاق إبراهيم بن السري المتوفى سنة ٣١١هـــ – تحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي- خرج أحاديث أ/ علي جمال الدين محمد- جـــ ١/ ٦٠- دار الحديث –ط الثانية- ١٤١٨هـــ -١٩٩٧م.

(٤) المرجع السابق ج ١/٥٩.

وذكـــر المفسرون: «أنها إنما يوقف عليها وقف التمام إذا قدرت بحيث لا تحتاج إلى مـــا بعـــدها، فالوقف فيها على السكون ما لم تلها العوامل فتسكن أعجازها كأسماء الأعداد، ولا يقال: إنها معربة لأنها لم يدخل عليها عامل فتعرب، ولا يقال: أنها مبنية لعدم سبب البناء، لكن أسماء حروف المعجم قابلة لتركيب العوامل عليها فتعرب تقول: «هذه ألــف، وكتبت ألفا، ونظرت إلى ألف »، وهكذا كل اسم عمدت إلى تأدية ذاته فحسب قبل أن يحدث فيه شيء من تأثيرات العوامل الداخلة عليه فحق أن تلفظ به موقوفًا.

ويحكم للحروف المفرقة بهذا الوقف إذا لم تجعل أسماء للسورة المفتتحة بها، ونعق بها كما ينعق بالأصوات؛ نحو غاق –في حكاية الغراب–، أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله عز قائلا: ﴿الم﴾ أي هذه الم ثم ابتداء فقال: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾[1].

إعراب هذه الحروف:

القـــول في إعراب هذه الحروف الفواتح ينبني على معناها لأن الإعراب فرع عن المعنى، ولكن وجه من المعنى مقتضاه من الإعراب أو البناء.

فعلـــى القـــول بأن هذه الحروف من المتشابه المستأثر بعلمه، وعلى تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد، فهي أسماء حروف التهجي، وفائدتها الإعلام بأن هذا القرآن منـــتظم مـــن جنس ما تنظمون منه كلامكم، ولكن عجزتم عنه، فلا محل لها حينئذ من الإعراب لعدم المقتضى والعامل، وإنما جيء بها لهذه الفائدة.

يقـــول العلامة الزمخشري[2] رحمه الله: فإذا قلت: من أي قبيل هي من الأسماء: معربة أم مبنية؟

قلـــت: بل هي أسماء معربة، وإنما سكنت سكون زيد وعمرو وغيرهما من الأسماء حيث لا يمسها إعراب لفقد مقتضيه وموجبه، والدليل على أن سكونها وقف وليس ببناء: أنها لو بنيت لحذف بها حذو: كيف، وأين، وهؤلاء، ولم يقل: ص، ق، ن. مجموعا فيها بين الساكنين ا هــ.

---

(١) ينظر تفسير الكشاف جـــ ١/ ٣٠، ٤١، والبحر المحيط في التفسير لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي المتوفى سنة ٧٥٤هـــ جـــ ١/ ٥٦– دار الفكر ط ١٤١٢هـــ – ١٩٩٢م–بتصرف، وينظر أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده ج ١/١١٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للقاضي أبي سعود جـــ ١/ ٢١.

(٢) تفسير الكشاف جـــ ١/ ٣١.

وقـــد خصص العلامة سيبويه -رحمه الله- بابًا في كتابه لإعراب الحروف المقطعة. فأبان أن:

ص: لا يصرف.

ن: يجوز صرفه عند من يصرف هند، فيجوز رفعه ونصبه.

ص ويس: يجوز بناؤهما على الفتح.

حـــم وطـــس ويس: لا ينصرف، جعلته اسما للسورة، أو أضفته إليه، لأنهم أنزلوه بمنزلة الاسم الأعجمي.

طـــسم: إن شئت بنيته على فتح الجزأين- كاسين ميم- بمنزلة بعلبك، وإن شئت حكيته، وتركت الحروف ساكنة على حالها.

كهيعص المر: ليس فيه إلا الحكاية[1].

وعلى القول بأنها أسماء لله -تعالى- أو للقرآن الكريم، أو للسور، فإنها تكون ذات حظ من الإعراب، وهي في ذلك على ضربين:

أحدهما: ما لا يتأتى فيه إعراب، نحو كهيعص، والمر.

والثاني: ما يتأتى فيه الإعراب، وهو إما أن يكون اسما فردًا كـــ ص، وق، ون، أو أســـاء عـــدة بمجموعها على زنة مفرد كـــ حم، طس، يس، فإنها موازنة لقابيل وهابيل، وكذلك ﴿طسم﴾ يتأتى فيها أن تفتح نونها وتصير ميما مضمومة إلى طس، فيجعلا اسما واحـــدا، كدار بجرد، فالنوع الأول محكي ليس إلا؛ وأما النوع الثاني فسائغ فيه الأمران: الإعراب، والحكاية؛ قال قائل محمد بن طلحة السجاد، وهو شريح بن أوفى العبسي:

يذكـــرني حامـــيمَ والـــرُمْحُ شَاجر فهـــلاَ تَـــلا حَامـــيمَ قبلَ التقدُم[2]

فأعرب حاميم ومنعها الصرف، وهكذا كل ما أعرب من أخواتها؛ لاجتماع سببي مـنع الـــصرف فيها، وهما: العلمية، والتأنيث، والحكاية أن تجيء بالقول بعد نقله على

---

(١) الكتاب لسيبويه سنة ١٨٠ هـــ جـــ ٣/ ٢٥٦: ٢٥٩، دار الجيل- بيروت- لبنان. الطبعة الأولى.

(٢) لشريح بن أوفى العبسي يوم الجمل حين أمر أبو طلحة محمد بن طلحة أن يبرز للقتال وكان من قرابة الرسول -ﷺ- فكان كلما حمل عليه رجل قال: نشدتك بـــ حم لما فيها من آية ﴿ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ حتى حمل عليه العبسي فقتله.

ينظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور- بحاشية تفسير الكشاف للإمام الزمخشري – جـــ ١/ ٣٢.

استبقاء صورته الأولى كقولك: دعني من تمرتان، وبدأت بالحمد لله[1].

فـــ (الم) وأخواتها، فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: الرفع على الابتداء وما بعدها الخبر أو أنها خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الله أو القرآن أو السور الم.

والثاني: النصب، وهو على أحد وجهين:

الأول: إما بإضمار فعل لائق تقديره: اقرأ، أو اذكر: الم.

وإمـــا بإسقاط حرف القسم، فهو منصوب على تقدير حذف القسم، كما يقول: الله لأفعلن، والناصب فعل محذوف تقديره: التزمت الله؛ أي اليمين به.

وكقول الشاعر:

إذامـــا الخبـــز تأدمـــه بلحـــم فـــذاك أمانـــة الله الثـــريدُ[2]

يريد وأمانة الله.

وكـــذلك هذه الحروف أقسم الله تعالى بها، وقد ورد الإمام الزمخشري، هذا الوجه بما معناه: «إن القرآن في ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ و(القلم) في ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ عطوف بهما لظهور الجر فيهما، وحينئذ لا يخلو أن تجعل الواو الداخلة عليهما للقسم أو للعطف، والأول: يلزم منه محذور وهو الجمع بين قسمين على مقسم واحد، قال: وقد استكرهوا ذلك.

والـــثاني: ممنوع لظهور الجر فيما بعدها، والفرض أنك قدرت المعطوف عليه في محـــل نصب، وهو رد واضح إلا أن يقال: هي في محل نصب إلا فيما ظهر فيه الجر بعده كما في الموضعين المتقدمين، و﴿حم وَالْكِتَـــابِ الْمُبِينِ﴾، ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، ولكن القائل بذلك لم يفرق بين موضع وموضع فالرد لازم له.

والوجه الثاني للنصب: هي مفعول بها، وتقديره: اتل الم.

والوجه الثالث: لإعراب: الأحرف المقطعة: الجر على القسم: وهو أنها مقسم بها، حذف حرف القسم وبقي عمله بعد الحذف؛ لأنه مراد فهو كالملفوظ به، كما قالوا «الله لأفعلن » و«الله لتفعلن» في لغة من جر.

(١) تفسير الكشاف ج/ ٣١، ٣٢.

(٢) يقول: إذا كان الخبز مأدوما باللحم وممزوجًا به، فذلك هو الثريد دون ما عداه وحق أمانة- ينظر مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف -جـــ ١/ ٣٥.

وهذا ضعيف؛ لأن ذلك من خصائص لفظ الجلالة المعظمة لا يشركها فيه غيرها.

وخلاصة ما تقدم:

أن في ﴿الم﴾ وأخواتها ستة أوجه وهي:

أنهـــا لا محـــل لها من الإعراب، أو لها محل وهو الرفع بالابتداء أو الخبر، والنصب بإضمار فعل أو حذف حرف القسم، والجر بإضمار حرف القسم[١]».

---

(١) رجعت في إعراب هذه الحروف إلى: تفسير الكشاف (١/٣١: ٣٥)، والتبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري -المتوفى سنة ٦١٦هـ وضع حواشيه/ محمد حسين شمس الدين جـ ١/ ٢٢- دار الكتب العلمية بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للإمام شهاب الدين أبي العباس بن يوسف بن محمد بن إبراهيم المعروف بالسمين الحلبي- تحقيق/ الشيخ علي محمد معوض وآخرون- جـ ١/ ٨٨، ٨٩- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ -١٩٩٤م، والبيان في غريب إعراب القرآن لأبو البركات بن الأنباري- تحقيق د. طه عبد الحميد طه- جـ ١/ ٤٣- ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م. والفتوحات الإلهية بتوضيح بتفسير الجلالين تأليف/ سليمان بن عمر العجيلي المتوفى سنة ١٢٠٤هـ جـ ١/ ١٠- ط دار إحياء الكتب العربية.

الفصل الثالث / موقف العلماء من الخوض في بيان معنى الأحرف المقطعة

لقد كانت فواتح السور «الأحرف المقطعة» التي افتتحت بها بعض السور القرآنية، مجال بحث وحوار، ومثار تفكر وتأمل ذهب فيها علماء الأمة من السلف والخلف مذاهب متعددة في تحديد معناها وبيان حكمة الله -تعالى- فيها، وسر مجيئها على هيئتها في أوائل السور.

وهـــناك اتجاهان رئيسيان للعلماء في مسألة الخوض فيها لبيان معناها، وفهم المراد منها:

الاتجاه الأول:

يـــرى أن هذه الفواتح من المتشابه(١) الذي استأثر الله -تعالى- بعلمه- فهي سر محجـــوب، وعلم مستور لا يجوز لأحد أن يحوم حوله، أو يطمع في فهم حقيقته، فنحن نؤمن بظاهرها، ونَكِلُ علمها إلى الله -تعالى- وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها. وأصحاب هذا الاتجاه من السلف كثيرون، وتبعهم عليه بعض الخلف من المفسرين.

فمن السلف الخلفاء الأربعة -رضي الله عنهم أجمعين- وغيرهم.

عـــن أبي بكـــر الصديق ﷺ قال: «في كل كتاب سر، وسر الله في القرآن أوائل السور(٢)».

---

(١) يقصد بالمتشابه هنا ما كان غير معروف المعنى -واستأثر الله بعلمه، بغض النظر عن تعريفات العلماء المختلفة للمتشابه.

(٢) الأثر في تفسير البغوي المسمى معالم التنـــزيل للإمام أبو محمد الحسين بن مسعود المعروف بالفراء البغوي الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٥١٠ هـــ جـــ ١/ ٤٤، ط دار المعرفة - بيروت، وفي زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧هـــ جـــ ١/ ١٦- دار الفكر بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٤٠٧هـــ -١٩٨٧م ومفاتيح الغيب للفخر الرازي جـــ ٢/ ٤، وتفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنـــزيل للإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن المتوفى سنة ٧٢٥ هـــ -جـــ ١/ ٢٢- دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٤١٥هـــ - ١٩٩٥م، والتسهيل لعلوم التنـــزيل للإمام محمد بن أحمد بن جزي

وعن علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- قال: «لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي»[١].

وحكى أبو الليث السمرقندي[٢] عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: «الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر»[٣].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «عجزت العلماء عن إدراكها»[٤].

وسئل الشعبي عن هذه الحروف، فقال: «سر الله فلا تطلبوه»[٥].

وعن داود بن أبي هند قال: كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور قال: «يا داود لكل كتاب سر، وإن سر هذا القرآن فواتح السور، فدعها وسل عما بدا لك»[٦].

وقال أبو حاتم بن حبان: «لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله تعالى بها»[٧].

المتوفى سنة ٧٤١ هـ - جـ ١/ ٥٣ ط دار الكتاب العربي- بيروت..

(١) الأثر في تفسير البغوي جـ ١/ ٤٤، ومفاتيح الغيب جـ ٢/ ٤، وتفسير الخازن جـ ١/ ٢٢، والتسهيل لعلوم التنزيل جـ ١/ ٥٣، وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري المتوفى سنة ٧٢٨ هـ جـ ١/٢٣٩، تحقيق أ. د. حمزة النشرتي وآخرون- مؤسسة الأهرام- القاهرة.

(٢) تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم للإمام نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي المتوفى في سنة ٣٧٣هـ جـ ١/ ٤٧- تحقيق د. محمود مطرحي- دار الفكر- بيروت- لبنان الطبعة الأولى ١٤١٨ ١٤١٨ هـ -١٩٩٧م.

(٣) تفسير عبد الله بن مسعود ص ١٨ شركة الطباعة العربية -السعودية- الرياض- الطبعة الأولى ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.

(٤) التفسير البسيط للإمام المفسر أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ - جـ ١/٤٥ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٣، ومفاتيح الغيب جـ ٢/ ٤، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ ١/ ٢٤٠، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ ١/ ٢٤.

(٥) المراجع السابقة.

(٦) أخرجه الإمام السيوطي عن ابن المنذر وأبو الشيخ ابن حبان في التفسير ينظر تفسير الدر المنثور في التفسير المأثور للإمام جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١ هـ جـ ١/ ٥٩ -دار الفكر ط ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

(٧) حكاه عنه أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ في كتابه: معاني القرآن الكريم جـ ١/ ٧٨، تحقيق الشيخ/ محمد علي الصابوني -المملكة العربية السعودية- مكة المكرمة- مركز إحياء التراث الإسلامي- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م. وحكاه عنه أيضًا الإمام القرطبي. ينظر الجامع لأحكام القرآن جـ ١/ ١٧٢.

ذكـــر الإمام القرطبي[1] رحمه الله عن أب يبكر الأنباري بسنده عن الربيع بن خيثم أنه قال: «إن الله -تعالى- أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما مــا اســتأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون ».

كما قال أبو بكر الأنباري: فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جمــيع العالم، اختبارًا من الله -وامتحانًا، فمن آمن بها أثيب وسعد، ومن كفر وشك آثم وبَعُــد» اهـــ. وممن نحا إلى هذا الاتجاه أيضًا، ذكر الإمام ابن عطية -رحمه الله: سفيان الثوري وجماعة من المحدثين[2].

واتفق الإمام الرازي -رحمه الله- على تفويض علم الحروف المقطعة إلى الله، حيث ذكــر، «أن الكـــلام في أمثالها يضيق، وفتح باب المجازفات مما لا سبيل إليه، فالأولى أن يفوض علمها إلى الله »[3] اهـــ.

كمــا ذهب أيضًا العلامة أبو حيان -رحمه الله- إلى القول بأنها من المتشابه حيث قــال[4]: «والذي أذهب إليه: أن هذه الحروف التي في فواتح السور هو المتشابه، الذي استأثر الله بعلمه، وسائر كلامه تعالى محكم » اهـــ.

وقد تابع السلف على هذا الاتجاه من الخلف، الشيخ محمد عبده -رحمه الله- حيث قال[5]: نفوض الأمر فيها إلى المسمى - سبحانه ويسعنا في ذلك ما وسع صحابة رسول الله ﷺ وتابعـــيهم، وليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل، التي قلما يسلم مخترعها من الزلل» اهـــ.

وأيـــضا مـــن الخلـــف الإمامـــان الجلـــيلان «جلال الدين المحلي، وجلال الدين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـــ ١/ ١٧٢.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦ هـــ - تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد جـــ ١/ ٨١- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٤١٣هـــ -١٩٩٣م.

(٣) مفاتيح الغيب المجلد ١٤- جـــ ٢٧/ ١٤٢.

(٤) البحر المحيط في التفسير جـــ ١/ ٦٠.

(٥) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار تأليف/ السيد الإمام محمد رشيد رضا المتوفى سنة ١٩٣٥م -تحقيق/ إبراهيم شمس الدين جـــ ١/ ١٠٦- منشورات محمد علي بيضون- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٤٢٠هـــ -١٩٩٩م.

السيوطي[١] فإنهما يقولان عن تفسير هذه الحروف: «الله أعلم بمراده بذلك»[٢].

يقول العلامة الصاوي[٣]: أنهما أشار بهذا إلى أرجح الأقوال في هذه الأحرف.

وإلى هـــذا القول نحا العلامة الألوسي[٤] -رحمه الله- أيضا- حيث قال: «والذي يغلب على الظن أن تحقيق ذلك علم مستور، وسر محجوب عجزت العلماء كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- عن إدراكه، وقصرت خيول الخيال عن لحاقه ».

وذكر قولي الصديق والشعبي السابقين.

ثم قال:

بَـــيْنَ المُحـــبينَ سِـــرٌ لـــيْسَ يُفشيه قـــولٌ ولا قلـــمٌ للخلـــق يَحكـــيهِ

ثم قال: وجهل أمثالنا بالمراد منها لا يضر، وفي ذلك ما فيه من كمال الانقياد من المأمور للآمر.

لـــو قال تيها قف على جمر الغضى لـــوقفت متمـــثلا ولم أتوقـــف

ومن المفسرين المحدثين الذين ذهبوا إلى هذا القول، ومالوا إليه:

الإمام الشوكاني[٥] -رحمه الله- حيث قال بعد أن ذكر أقوال العلماء في الأحرف المقطعـــة: «والـــذي أراه لنفسي، ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة، أن لا يـــتكلم بـــشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة الله- عز وجل- لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي إليها أفهامنا» ا هـــ.

---

(١) جلال الدين المحلي هو: إمام الحرمين العلامة جلال الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم المحلي الشافعي تفتازاني العرب المتوفى سنة ٨٦٤هـــ.

وجلال الدين السيوطي هو: الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الشافعي المتوفى سنة ٩١١هـــ.

(٢) تفسير القرآن العظيم المسمى بتفسير الجلالين للإمامين جلال الدين السيوطي جـــ ١/ ٢، وجلال الدين المحلي جـــ ٢/ ٩٠- ط دار إحياء الكتب العربية- عيسى الحلبي.

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين للشيخ أحمد الصاوي -جـــ ١/ ٦- دار إحياء الكتب العربية- الحلبي- وينظر الفتوحات الإلهية للجمل جـــ ١/ ١٠.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي -المتوفى سنة ١٢٧٠ هـــ - جـــ ١/ ١٦٧، ١٦٨- دار الفكر- بيروت- لبنان، ط ١٤١٤ هـــ -١٩٩٤م.

(٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـــ جـــ ١/ ٤١- ط دار المعرفة- بيروت- لبنان.

والإمــام محمــد أبو زهرة[١] حيث قال: «والمعنى الذي تدل عليه الحروف غير معلــوم علــى وجه اليقين، والله أعلم بمراده منها، ولا يستطيع عالم يعتمد على الحقائق العلمـية أن يقرر المراد من هذه الحروف، والمعنى المحرر لها، وأقصى ما ذكره العلماء لها حكم يدل عليها ذكرها ا هــ.

ويقول الشيخ محمد متولي الشعراوي[٢] -رحمه الله- في تفسيره: «هنالك سر في هذه الحروف، وهذا السر هو من أسرار الله -تعالى- التي يريدنا أن ننتفع بقراءتنا دون أن نفهمها... وعدم فهمنا لا يمنع أن نستفيد من سر وضع الله في كتابه، ونحن نستفيد من أســرار الله في كــتابه فهمــناها أم لم نفهمها... فلا يصح أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحــروف... فالله سبحانه -وتعالى- شاء أن يبقى معناها في الغيب عنده... وإذا كنا لا نفهم هذه الحروف، فوسائل الفهم والإعجاز في القرآن الكريم لا تنتهي» ا هــ.

وقد خشي بعض العلماء أن يتخذ متخذ من غموض الحروف المقطعة متكأ للطعن في القرآن الكريم، فأعلن الإمام الرازي -رحمه الله-: «أن وجود هذا المجمل في كتاب الله لا يقدح في كونه بيانًا؛ لأن كل مجمل وجد في كتاب الله -تعالى- قد وجد في العقل، أو في الكتاب، أو في السنة بيانه، وحينئذ يخرج عن كونه غير مفيد[٣].

وأعلن الإمام الزرقاني -رحمه الله- وهو في معرض الرد على شبهات المنكرين: «أن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا ينافي وصف القرآن بأنه بيان للناس وهدى ورحمة، فإن هذه الأوصاف يكفي في تحقيقها ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه لا باعتــبار تفصيله وعمومه الشامل لكل لفظ فيه،... وكون هذه الحروف المقطعة من الأســرار الــتي استأثر الله بعلمها، ولم يطلع عليها أحدًا من خلقه، إنما ذلك لحكمة من حكمه -تعالى- السامية، وهي ابتلاؤه -سبحانه-، وتمحيصه لعباده، حتى يميز الخبيث من الطيب، وصادق الإيمان من المنافق، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه، ودلائل هدايته، وشواهد رحمــته، في غير تلك الفواتح من كتابه، بين آيات وسور كثيرة، لا تعتبر تلك الفواتح في جانــبها إلا قطرة من بحر، أو غيضا من فيض، فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حــق من عند ربهم، ولو لم يفهموا معناها، ولم يدركوا مغزاها، ثقة من لدن حكيم عليم

(١) زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة ص ١٠٩٨ دار الفكر العربي.
(٢) خواطر حول القرآن الكريم جــ ١/ ١٠٦: ١٠٩- بتصرف واختصار.
(٣) مفاتيح الغيب- المجلد الأول -ج ٢/ ١٢.

عمت حكمته ما خفي وما ظهر من معاني كتابه، ووسع علمه كل شيء عرفه الخلق أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله. ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾(١).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٢)(٣) اهـ.

وقد احتج أصحاب هذا القول بالآية، والخبر، والمعقول على ما ذكر الإمام الرازي -رحمه الله-: أما الآية: فهو أن المتشابه من القرآن الكريم غير معلوم لنا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(٤).

فالوقف واجب على لفظ الجلالة- لوجوه:

أحدها: أن قوله -تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لو كان معطوفًا على قوله ﴿إِلا اللهُ﴾ لبقي ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ منقطعا عنه وإنه غير جائز، لأنه وحده لا يفيد.

لا يقال: إنه حال؛ لأنا نقول حينئذ يرجع إلى كل ما تقدم فيلزم أن يكون الله - تعالى- قائلا ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ منقطعا عنه وإنه غير جائز؛ لأنه وحده لا يفيد.

لا يقال: إنه حال؛ لأنا نقول حينئذ يرجع إلى ما تقدم فيلزم أن يكون الله تعالى قائلا ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ وهذا كفر.

ثانيها: أن الراسخين في العلم لو كانوا عالمين بتأويله لما كان لتخصيصهم بالإيمان بسه وجه، فإنهم لما عرفوه بالدلالة لم يكن الإيمان به إلا كالإيمان بالمحكم فلا يكون في الإيمان مزيد مدح.

ثالثها: أن تأويلها لو كان مما يجب أن يعلم لما كان طلب ذلك التأويل ذما، لكن جعله -الله تعالى- ذما حيث قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾

وأما الخبر: فهو أن القول بأن هذه الفواتح غير معلومة مروي عن أكابر الصحابة

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٢) سورة آل عمران الآية: ٧.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن جـ ١/ ١٩٢، ١٩٣- بتصرف يسير واختصار، وينظر في ذلك أيضًا المدخل لدراسة القرآن الكريم تأليف أ. د محمد محمد أبو شهبة - ص ٢٤٩- دار اللواء- ط الثالثة ١٤٠٧ - ١٩٨٧م. المملكة العربية السعودية- الرياض.

(٤) سورة آل عمران الآية: ٧.

فوجب أن يكون حقا، لقول النبي ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[(١)].

وقـــال بعض العارفين: العلم بمنزلة البحر: فأجرى منه واد، ثم أجرى من الوادي نهر، ثم أجرى من النهر جدول، ثم أجرى من الجدول ساقيه، فلو أجرى إلى الجدول ذلك الـــوادي لغـــرقه وأفسده، ولو سال البحر إلى الوادي لأفسده، وهو المراد من قوله تعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[(٢)].

فـــبحور العلم عند الله -تعالى- فأعطى الرسل منها أودية، ثم أعطت الرسل من أوديتهم أنهارًا إلى العلماء، ثم أعطت العلماء إلى العامة جداول صغارًا على قدر طاقتهم، ثم أجرت العامة سواقي إلى أهاليهم بقدر طاقتهم.

وعلى هذا ما روي في الخبر: «للعلماء سر، وللخلفاء سر، وللأنبياء سر، ولله -مـــن بعد ذلك كله- سر، فلو اطلع الجهال على سر العلماء لأبادوهم، ولو أطلع العلماء على سر الخلفاء لنابذوهم، ولو اطلع الخلفاء على سر الأنبياء لخالفوهم، ولو اطلع الأنبياء علـــى ســـر الملائكة لاتهموهم، ولو أطلع الملائكة على سر الله لطاحوا حائرين، وبادوا بائـــرين، والـــسبب في ذلك أن العقول الضعيفة لا تحتمل الأسرار القوية، كما لا يحتمل

---

(١) هذا حديث ضعيف ذكر في: كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس للعلامة إسماعيل بن محمد العجلوني جـــ ١/ ١٤٧، د دار الكتب العلمية ط الأولى قال: رواه البيهقي وأسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ: «أصحابي بمنـــزلة النجوم في السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم» وينظر إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين للحافظ الزبيدي جـــ ٢/ ٢٢٣ دار الفكر، وينظر الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـــ جـــ ٤/ ٩٤- ط دار المعارف- بيروت، وينظر موسوعة أطراف الحديث النبوي لأبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول جـــ ١/ ٥٥٣- دار الفكر ط الأولى ١٩٨٩م، ويعقب على حكم هذا الحديث: بأن هذا الحديث وإن كان ضعيفًا إلا أنه صحيح المعنى، وذلك لورود أحاديث كثيرة صحيحة في فضل صحابة رسول الله ﷺ فرادى وجماعات، منها على سبيل المثال لا الحصر: أخرج الإمام البخاري -رحمه الله- في صحيحه بسنده المتصل من حديث عمران بن حصين -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» وأخرج أيضا الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه بسنده المتصل من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» صحيح البخاري كتاب البخاري باب مناقب المهاجرين جـــ ٢/ ١٧٨، ١٨١- ط البهية المصرية.

(٢) سورة الرعد الآية: ١٧.

أبصار الخفافيش نور الشمس، فلما زيدت الأنبياء في عقولهم قدروا على احتمال أسرار النبوة، ولما زيدت العلماء في عقولهم قدروا على احتمال أسرار ما عجزت العامة عنه، وكذلك علماء الباطن -وهم الحكماء- زيد في عقولهم، فقدروا على احتمال ما عجزت عنه علماء الظاهر.

وأما المعقول: فهو أن الأفعال التي كلفنا بها قسمان: منها: ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا: كالصلاة، والزكاة، والصوم؛ فإن الصلاة تواضع محض، وتضرع للخالق، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير، والصوم سعي في كسر الشهوة.

ومنها: ما لا نعرف وجه الحكمة فيه، كأفعال الحج فإننا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة، والرمل... إلخ.

ثم إن المحققين على أنه كما يحسن من الله -تعالى- أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن الأمر منه بالنوع الثاني؛ لأن الطاعة في النوع الأول لا تدل على كمال الانقياد لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله وجه المصلحة فيه، أما الطاعة في النوع الثاني فإنه يدل على كمال الانقياد ونهاية التسليم؛ لأن لما لم يعرف فيه وجه مصلحة البتة لم يكن إتيانه به إلا لمحض الانقياد والتسليم، فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال فلم لا يجوز -أيضًا- أن يكون الأمر كذلك في الأقوال؟ وهو أن يأمرنا الله -تعالى- تارة أن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر.

بل فيه فائدة أخرى: وهي أن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه عن القلب، وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه متلفتًا إليه أبدًا، ومتفكرًا فيه أبدًا، ولباب التكليف إشغال السر بذكر الله -تعالى- والتفكر في كلامه، فلا يبعد أن يعلم الله -تعالى- أن في بقاء العبد ملتفت الذهن مشتغل الخاطر بذلك أبدًا مصلحة عظيمة له، فيتعبده بذلك تحصيلا لهذه المصلحة »[1] اهـ.

مناقشة هذه الأدلة:

«لا نسلم أن ما استدلوا به من أدلة يفيد قطعًا ما ذهبوا إليه، فاستدلالهم بقوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ قائلين بوجوب الوقف هنا... إلخ».

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢/ ٦، ٧- وينظر حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي جـ ١/ ١٣٢، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري- جـ ١/ ٢٤٠، ٢٤١.

حيث يفيد قولهم: أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله، لا يسلم لهم ويتعقب بالآتي:

يقول الشيخ محيي الدين شيخ زاده[١] رحمه الله: «أكثر أهل العلم على أن الراسخين في العلم يعلمون المتشابه، ومنهم العلماء الشافعية، فإنهم ممن ذهبوا إلى تأويل المتشابهات ولا يوقف على قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ قائلين، وقول الصحابة استأثر الله بعلمه، ومعناه المتشابهات، أي استقل واستفرد به أنه لا يعلمها أحد بنفسه إلا الله، لا أنه لا يعلمها أحد من البشر أصلا لجواز أن يعلمها البعض ممن اصطفاه الله -تعالى- من خلقه كما في الغيب فإن الله -تعالى- اختص بعلمه مع أن الأنبياء، والأولياء يعلمونه بإلهامه -تعالى- وإن لم يعلموه بأنفسهم» ا هـ.

وأما ما ذكروه في الوجه الأول من الأوجه الموجبة للوقف على لفظ الجلالة، إذا عطف ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ عليه يجعل ما بعده وهو قوله ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ منقطعا، وفي هذه الحال لا يصلح أن يكون حالا إذ يلزم عليه حينئذ أن يكون راجعًا على كل ما تقدم، فيلزم أيضا أن يكون الله قائلا آمنا به... وهذا كفر، فهو منقوض بالآتي: جواز إتيان الحال من المعطوف فقط دون المعطوف عليه، أي يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالا من المعطوف فقط، وهو قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ دون المعطوف عليه، وهو لفظ «الله» وعليه يكون المعنى: والراسخون في العلم يعلمون تأويله كذلك، قائلين آمنا به كل من عند ربنا.

ومن أمثلة رجوع الحال إلى المعطوف دون المعطوف عليه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٢] فقوله (صفا) حال من المعطوف، وهو (الملك) دون المعطوف عليه وهو لفظ (ربك) ومن ذلك أيضا، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

والآية -كما ترى- معطوف على الآية السابقة عليها وهي، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ

(١) حاشية محيي شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي جـ ١ / ص ١٤٣.

(٢) سورة الفجر آية: ٢٢.

(٣) سورة الحشر آية: ١٠.

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

فهــل قال أحد، أو له أن يقول بأن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ حال راجعة إلى كل ما تقدم، أي المعطوف والمعطوف عليه؟

اللهم لا، بل الظاهر البين الظهور أنها حال من المعطوف فقد دون المعطوف عليه، وعليه فيما يجوز هنا يجوز هناك في آية آل عمران، والأدلة على ذلك كثيرة.

ولــو استــشكل علينـــا مستشكل آخر وقال: لو سلمنا لك ذلك يكون التقدير (والراســـخون في العلــم يعلمون تأويله قائلين آمنا به) وذلك لا يجوز فعامة أهل اللغة ينكرونه؛ لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا، ولا تذكر حالا إلا مع ظهور الفعل، فلا يجوز أن يقال عبد الله راكبا: في أقبل عبد الله راكبا، وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل.

قلت: هذا استشكال ساقط؛ لأن الفعل العامل في الحال المذكورة غير مضمر؛ لأنه مذكور في قوله (يعلم)، ولكن الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما علمت[٢].

فالراســـخون في العلم إذن معطوفون على اسم الله -عز وجل- وداخلون في علم المتـــشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به، وقوله تعالى بعد ذلك يقولون في موضع نصب على الحال من الراسخين كما قال الشاعر:

والـــريح تبكـــي شـــجوها والـــبرق يلمـــح في غمامـــة

أراد: والــبرق لامعًا في غمامةٍ تبكي شجوَه أيضا، أي أنه جعل «البرق» معطوفًا علــى الريح، وجعل «يلمع» حالا له، ولو لم يكن البرق يشركُ الريح في البكاء، لم يكن لذكره البرق ولمعَه معنى[٣].

---

(١) سورة الحشر آية: ٩.

(٢) ناقش هذه الأدلة الدكتور/ عبد الله الشمندي عبد الله محمود الغواري مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين-بالقاهرة- في بحث بعنوان الحروف المقطعة في أوائل بعض السور القرآنية- بمجلة كلية أصول الدين بالقاهرة- العدد ١٦- ص ٣١٩: ٣٢١- سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

وينظر ذلك في: اضواء البيان في تفسير القرآن للشنقيطي جـ ١/ ٢٣٨، ٢٣٩، مطبعة المدني ط ١٣٨٦هـ.

(٣) ينظر تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ تحقيق السيد أحمد صقر -ص ١٠١- دار التراث- القاهرة- ط الثانية ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م، وينظر الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي جـ ٤/ ٢١، والبرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ٢/ ٧٣، وأضواء على متشابهات القرآن بقلم/ الشيخ خليل ياسين ص ١٢٤، ١٢٥- مطبعة الأديب -

ثم إن الله -سبحانه- مدحهم بالرسوخ في العلم، فكيف يمدحهم وهم جهال!.

وقد قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «أنا ممن يعلم تأويله[١]».

وقال مجاهد[٢] -رضي الله عنه- في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾

قال: يعلمون تأويله و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

يقول الإمام ابن قتيبة[٣] -رحمه الله-: «ولسنا ممن يزعم: أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم. وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى.

ولم ينزل الله شيئًا من القرآن إلا لينفع به عباده، ويدل به على معنى أراده.

فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال، وتعلق علينا بعلة، وهل يجوز لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ، لم يكن يعرف المتشابه؟!

وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ جاز أن يعرف الربانيون من صحابته؛ فقد علم عليا. التفسير، ودعا لابن عباس فقال:

«اللهم علمه التأويل، وفقهه في الدين»[٤].

وروى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «كل القرآن أعلم إلا أربعًا: غسلين، وحنانا، والأواه، والرقيم ».

وكان هذا من قول «ابن عباس » في وقت، ثم علم ذلك بعد.

وعن مجاهد -رضي الله عنه- قال: «تعلمونه وتقولون: آمنا به ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ في المتشابه إلا أن يقولوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

= الجديدة- بيروت- لبنان ط ١٩٦٩م - ١٣٨٨هـ.

(١) الأثر ذكره الإمام ابن عطية في المحرر الوجيز جـ ١/ ٤٠٣، وأخرجه الإمام السيوطي عن ابن المنذر من طريق مجاهد في الإتقان جـ ٣/٥.

(٢) تفسير الإمام مجاهد بن جبر المتوفى سنة ١٠٢ هـ -تحقيق/ محمد عبد السلام أبو النيل- ص ٢٤٩- دار الفكر الإسلامي الحديثة- الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ -١٩٨٩م، وينظر البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي جـ ٢/ ٧٣.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٩٨- ١٠٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الوضوء- باب وضع الماء عند الخلاء جـ ١/ ٦٦/ ١٤٣- تحقيق / مصطفى أديب النجا- بيروت- دار ابن كثير- الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل عبد الله بن عباس جـ ٤/ ١٩٢٧- ٢٤٧٧- تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

وبعد: فإنا لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمروه كله على التفسير، حتى فسروا «الحروف المقطعة » في أوائل السور مثل: الر، وحم، وطه، وأشباه ذلك » ا هـ.

ويقول القاضي عبد الجبار[1] -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾.

اعلم أن الأولى في معنى قوله تعالى: «﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أن يكون عطفا على ما تقدم، ودالا على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله؛ بإعلام الله إياهم، ونصب الأدلة على ذلك، فيكون قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ دلالة على أنهم برسوخهم في العلم يجمعون بين الاعتراف، والإقرار، وبين المعرفة؛ لأن الله تعالى مدحهم بذلك، ولا يتكامل مدحهم إلا بضم الإيمان والتصديق وإظهار ذلك إلى المعرفة بتأويله» ا هـ.

وليس معنى المتشابه -في الآية- المغلق الذي عميت سبله، وطمست معالم الفهم منه، إنما هو ما احتمل أكثر من وجه من وجوه الرأي والنظر... وذلك خلاف المحكم الذي لا يحتمل إلا قولا واحدًا، ولا تتباعد فيه المسافات بين مطارح النظر وقد بذل العلماء جهودهم للوقوف على معنى المحكم والمتشابه تعريفًا، وتوضيحًا- فيراجع ذلك في مظانه[2].

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار الهمداني المتوفى سنة ١٤١٥هـ - جـ ١٦/ ٣٧٨، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

(٢) ينظر العدة في أصول الفقه للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٤٥٨هـ -تحقيق الدكتور أحمد بن علي سير المباركي جـ ٢/ ٦٨٤: ٦٨٨- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

والمستصفى من علم الأصول للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ جـ ١/ ١٠٦، وما بعدها- م الأميرية ببولاق- مصر- الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ.

وينظر نفائس الأصول في شرح المحصول للإمام الفقيه شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي المصري المعروف بالقرافي المتوفى سنة ٦٨٤هـ - ص ٦٤٠ وما بعدها- تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض- الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة- الرياض- ط الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

والبحر المحيط في أصول الفقه للإمام الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ جـ ١/ ٤٥٠ وما بعدها- قام بتحريره/ الشيخ عبد القادر عبد الله العاني وراجعه د/ عمر سليمان الأشقر- وزارة الأوقاف =

وما يقصد في آية سورة آل عمران، أن حقيقة تأويل المحكم والمتشابه لا يعلمه إلا الله، أمـــا محاولة الوقوف على المعنى، وهي مرتبة الإمكان التي لا يتجاوزها علم العالمين فلـيس بمحظـــور، حـــيث إنه لا يقع في وسع العالمين حصر تأويل نهائي لمعاني القرآن العظيم، والجزم بمراد الله، ومرتبة الإيمان تقتضي تفويض علم حقيقة كلامه -عز وجل- إليه سبحانه.

وهذا هو ما يقتضيه الوقوف عند لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾.

وهـــناك فرق بين تفسير كلام الله -تعالى- أو تأويله، وبين إتيان تأويله: «فالأول معرفة الخبر، والثاني هو نفس وقوع المخبر به[١] ».

وشـــتان ما بينهما، فمعرفة الخبر هو معرفة تفسيره، ومعرفة المخبر به هو حقيقة تأويله التي لا يعلمها إلا الله تعالى[٢].

وبناء على ذلك فإن آية سورة آل عمران لا يحتج بها في خطر تأويل المتشابه، وقد بيـــنت الآيـــة موقف أهل الزيغ من كتاب الله -تعالى- ويدخل تحت هذا المسمى: أهل الشرك والكفار والمنافقون والملاحدة ومن على شاكلتهم.

يقول الإمام الماتريدي[٣] -رحمه الله-:

«المتـــشابه في القرآن هو الذي تعلق به كثير من المشركين، حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾[٤].

والشؤون الإسلامية بالكويت- ط الثانية ١٤١٣هـ -١٩٩٢م.
والميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي جـ ٣/ ٢٠ وما بعدها- منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت لبنان الطبعة الخامسة ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
وينظر علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه -د/ عدنان محمد زرزور- ص ١٦٣ وما بعدها- المكتب الإسلامي- بيروت- دمشق ط الثانية ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

(١) محاسن التأويل للعلامة جمال الدين القاسمي المتوفى سنة ١٣٣٢هـ جـ ٤/ ٧٦٠- ط الحلبي.
(٢) ينظر مقدمة التحقيق لكتاب البرهان في متشابه القرآن للإمام محمود بن حمزة بن نصر الكرماني المتوفى نحو ٥٠٥ هـ -تحقيق/ أحمد عز الدين عبد الله خلف الله- ص ٤٧- دار الوفاء- المنصورة- ط الأولى ١٤١١هـ -١٩٩١م.
(٣) تأويلات أهل السنة لأبي منصور محمد بن محمد الماتريدي السمرقندي المتوفى سنة ٣٣٣هـ جـ ١/٦٤- ط ١٣٩١هـ -نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
(٤) سورة آل عمران آية: ٧.

وعن السيدة عائشة -رضي الله عنها- قالت: تلا رسول الله -ﷺ- هذه الآية:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾، قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذي سمى الله فاحذرهم»[١].

فهؤلاء يقصدون من تأويل المتشابه، تسخير التنزيل لخدمة مذاهبهم أو أغراضهم الدنيوية كائنة ما كانت.

كما أن التأويل الذي يريد أهل الزيغ أن يطلعوا عليه هو: معرفة عين الحقائق المخبر عنها، وهو ما أخبر القرآن عنه في أمور الغيب، وهذا بالتأكيد لا يعلمه إلا الله إذ أن التأويل قد ورد في القرآن الكريم على معان كثيرة[٢].

وقد ذمهم الله -تعالى- في الآية الكريمة، والراسخون في العلم ليسوا كذلك؛ لأنهم أهل اليقين الثابت الذي لا اضطراب فيه، فالله تعالى يفيض عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع فهم المحكي، ومن المحال أن يتساوى الراسخون في العلم مع أهل الزيغ في الحكم.

والآية تعطي أن الراسخين لهم نصيب في العلم بمحكمه ومتشابهه للأمور الآتية:

١- أن تفويض العلم بحكم التنزيل ومتشابهه إلى الله -تعالى- مطلوب من كل مؤمن، ولا فضل في ذلك للراسخين على غيرهم. وهذا خلاف ما دلت عليه الآية من مدح للراسخين وهو أنهم قد وهبهم الحق -تبارك وتعالى- الفقه في كتابه الكريم فكان علمهم بمحكمه ومتشابهه موافقا للكتاب والسنة، وهم مع رسوخهم في العلم يفوضون إلى الله -تعالى- العلم بكلامه -عز وجل.

٢- أن عدم تعيين الآيات المتشابهات فيه إباحة للتأويل الموافق للكتاب والسنة، إذ لا تكليف إلا بأمر معين.

٣- لو كان الراسخون لا يعلمون شيئًا من متشابهه، فكيف يستطيعون رده إلى محكم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن -سورة آل عمران- باب: منه آيات محكمات جـ ٨/ ١٥- بشرح فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني -تحقيق/ محب الدين الخطيب- المكتبة السلفية- الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

(٢) ينظر في ذلك الإكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية- أبو العباس أحمد بن عبد الحليم المتوفى سنة ٧٢٨هـ - ط ١٢ وما بعدها- المكتبة السلفية ط ١٣٩٤هـ.

٤- لـــيس في الآية حظر على من أوتي نصيبًا في فهم ما تشابه منه أن يبينه، وأن يعلن على العالمين ما فيه من أسرار ودلائل إعجاز.

٥- لـــو اتجه الأمر إلى حظر النظر في تأويل ما تشابه منه مطلقًا لما كانت هناك حاجة إلى تخصيص أهل الزيغ بالذكر، ولوصف كل ناظر في متشابهه بالزيغ، وهذا ما لا تعطيه الآية مطلقًا، بل هو مخالف لنصها، ولم تلتفت الفاصلة إليه.

٦- لو كان تفويض العلم بتأويله إلى الله -تعالى- معناه النهي عن تأويله، لكان تأويل المحكم داخل في النهي أيضًا وهذا يتعارض مع النص.

٧- إن الإيمان بأن حقيقة تأويل القرآن لا يعلمها إلا الله -تعالى- لا يعني حظر تأويل متشابهه بقصد بيان ما فيه من أسرار ودلائل وإعجاز [1]».

ومـــا يترجح هنا، بل إنه الراجح، وهو ما أميل إليه، ما رجحه الإمام عبد الكريم الخطيب -رحمه الله- حيث قال[2]:

«وإذن فالـــرأي الـــذي ينبغـــي أن نراه في القرآن، هو أن كل ما فيه من حروف وكلمـــات وآيات هو محكم، بمعنى أنه غير محجوب عن أنظار الناظرين، ولا محجوز عن فهـــم المتدبـــرين والمتذكرين ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[3].

وهذا الفهم لكلام الله على هذا الوجه الذي يحفظ وحده هذا الكتاب، ويجعل منه آية واحدة من آيات الله، التي تشيع الحكمة من كل جانب منها، وتنفجر ينابيع الهدى من كل جهة من جهاتها، أما إذا قيل إن من القرآن ما هو متشابه لا يدنو منه نظر، ولا يتجه إليه عقل فإن ذلك من شأنه أن يمزق وحدة القرآن، وأن يقيم فيه الحواجز والسدود، وأن يجعـــل بعضه قرآنا، وبعضه أصواتًا، تنطق ولا تفهم! وقد ذم اليهود إذا ذهبوا بالكتاب الذي بين أيديهم مذهبًا يعملون فيه بعضه، ويهملون بعضه، فقال تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِـــتَابِ وَتَكْفُـــرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[4].

---

(١) ينظر مقدمة تحقيق كتاب البرهان في متشابه القرآن للإمام الكرماني- ص ٧٥، ٥٨.

(٢) إعجاز القرآن الكريم في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها تأليف عبد الكريم الخطيب -جـــ ١/ ٤١٠- دار الفكر العربي- ط الأولى ١٩٦٤م.

(٣) سورة ص آية: ٢٩.

(٤) سورة البقرة آية: ٨٥.

وإذا كان الذين يقولون بوجود المتشابه في القرآن لا يكفون به، بل يؤمنون به كما يؤمنون بالمحكم، فإن إيمانهم هذا على وجه واحد، وعلى درجة واحدة- إيمان عجز واستلام- أما الإيمان بالمحكم فإيمان قائم على نظر، وفهم، وإقناع، على أن الإيمان بالمتشابه إيمان قلق مذعور ليس له جذور وتمسك به في قلب صاحبه » ا هـ.

وأود أن أنبه أن المقام هنا ليس مقام استقصاء، لما ورد في معنى آية سورة آل عمران؛ لأن الحديث ليس تنصيصًا على المحكم والمتشابه، وإنما الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل بعض السور القرآنية، وما ذكرته من شيء من هذا القبيل، إنما هو اجتزاء له اتصال وثيق بموضوع هذا البحث.

وأما ما استدلوا به من الخبر فمنقوض أيضًا:

ذكر الطاهر بن عاشور -رحمه الله-: «أن ما نسب إلى الخلفاء الأربعة، وغيرهم من أن الحروف المقطعة، مما استأثر الله تعالى بعلمه- وارد بروايات ضعيفة»[(١)]. ا هـ.

وفوق ذلك كله، فإن هناك كثيرًا من الأقوال التي أُثِرت عن كبار الصحابة والتابعين في معنى الحروف المقطعة -حسبما سيأتي الحديث عنه- إن شاء الله-

ومثل هذا لا يدل إلا على التبحر في التأويل والبصر بوجوهه المختلفة غير المتناقضة؛ لأن بحار معاني القرآن الكريم لا تنفد.

وما ذكروه عن بعض العارفين: «فإن هذان النصان غير منسوبين، ففيم الحديث سندًا؟ أما المتن فإن الجهة منفكة كما يقول الأصوليون، وما ورد من المصطلحات المتعارضة ينفي إمكان الإطلاق ويثبت المشاحة التي أشار إليها البلاغيون، والسمات الصوفية ذات المغزى الخاص تعم الأسلوب، وتعمي الفكرة، وما علينا والتعليل المساق باطل، فما كان اصطفاء الأنبياء عن زيادة في العقول -وهم درجات وما زيادة العقول لتحمل الأسرار، وهم المأمورون بالتبليغ؟ وفيم اختصاص علماء الباطن دون علماء الظاهر وكلاهما ذوو علم؟ »[(٢)].

وأما استدلالهم بالمعقول، فمنقوض أيضًا:

وذلك إذا سلمنا بأن الله -عز وجل- أن يتعبدنا بما لا نقف على حقيقته كوقت

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١/ ٢٠٧.

(٢) ينظر براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور للدكتور/ محمد بدري عبد الجليل مدرس البلاغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية- ص ١١٧، ١١٨- الطبعة الأولى ١٩٨٠م -الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية.

قيام الساعة، وحقيقة الروح، وبعض الأفعال... وغير ذلك، فلا نسلم ذلك في الأقوال؛ لأن الله -تعالى- لم يستأثر بمعنى كلمة في القرآن، ولا في غيره من الشرائع،وكذلك النبي ﷺ فالاستئثار بمعنى الكلام لا يمكن، أما الاستئثار بالغيب فممكن، كما أنه لا يعقل أن يخاطبنا الله -تعالى- بما نجهله، ثم يطالبنا بالتحدي.

يقول الإمام الطبري[1] -رحمه الله-: غير جائز يخاطب -جل ذكره- أحدًا من خلقه إلا بما يفهمه المخاطب، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولا برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل إليه؛ لأن المخاطب والمرسل إليه إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه، فحاله -قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده -سواء، إذا لم يفده الخطاب والرسالة شيئًا كان به قبل ذلك جاهلا، والله -جل ذكره- تعالى عن أن يخاطب خطابا أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت إليه، لأن ذلك فينا من فعل هل النقص والعبث، والله -تعالى- عن ذلك متعال، ولذلك قال -جل ثناؤه- في محكم تنزيله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[2].

وقال لنبيه محمد -ﷺ- ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

فغير جائز أن يكون به مهتديًا، من كان بما يهدي إليه جاهلا:

وقال أيضا بعد أن ذكر قوله تعالى:

﴿نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[4].

وأنى يكون مبينًا ما لا يعقله ولا يفهمه أحد من العالمين؟

وفي إخبار الله -جل ثناؤه- عنه أنه عربي مبين، ما يكذب هذه المقالة، وينبئ عنه أن العرب كانوا به عالمين »[5] اهـ

ولقد هاجم الحافظ بن كثير -رحمه الله- من ذهبوا إلى أنها لتأكيد العبادة، فقال: «ومن

---

(١) جامع البيان عن تأويل/ القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ -تحقيق/ محمود محمد شاكر، وخرج أحاديث/ أحمد محمد شاكر جـ ١/ ١١- الطبعة الثانية- دار المعارف بمصر..

(٢) سورة إبراهيم الآية: ٤.

(٣) سورة النحل الآية: ٦٤.

(٤) سورة الشعراء الآية: ١٩٣- ١٩٥.

(٥) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢٢٣- ٢٢٤.

قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له، فقد أخطأ خطأً كبيرًا»[١] ا هـ.

وقال الشيخ ابن عاشور[٢] -رحمه الله- في معرض رده على القائلين بأن الحروف المقطعة غير معروفة المعنى قال: «وكيف يزعم زاعم أنها واردة في معان غير معروفة مع ثبوت تلقي السامعين لها بالتسليم من مؤمن ومعاند، ولولا أنهم فهموا منها معنى معروفًا دلّت عليه القرائن لسأل السائلون وتورك المعاندون.

ثم قال: قال القاضي أبو بكر بن العربي: لولا أن العرب كانوا يعرفون له مدلولا متداولا بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ، بل تلا عليهم ﴿حم﴾ فصلت، ﴿ص﴾ وغيرهما فلم ينكروا ذلك مع تشوفهم إلى عثرة، وحرصهم على زلة» ا هـ.

ويختم المقال في هذا المقام بما أشار إليه الدكتور/ جودة المهدي: من أن فريقًا من أئمة المحققين الراسخين في العلم يقولون: إن الاستئثار بعلم أسرار الفواتح إنما هو استئثار نسبي وليس مطلقا، فقد استأثر الحق -سبحانه وتعالى- بعلم هذه الفواتح المتشابهة لنفسه، ولمن اصطفى من عباده دون عامتهم، وهذا الاتجاه مرتضى الكثير من السلف والمحققين[٣].

وما ذكره الإمام الرازي -رحمه الله- من مقولة بعض العارفين مؤكدة لهذا الاتجاه.

كما أشار القاضي البيضاوي -رحمه الله- إلى هذا حيث قال[٤]: «ولعلهم أرادوا أنها أسرار بين الله -تعالى- ورسوله، ورموز لم يقصد بها إفهام غيره، إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد » ا هـ.

وقد علق المفسر العلامة الشهاب -رحمه الله- على قول القاضي البيضاوي -رحمه الله- بقوله:

«وإنما أول بما ذكر، اقتداء بالإمام، وانتصارا لمذهب الشافعي -رضي الله عنه- في المتشابه وأن الله والراسخين يعلمونه... والذي اختص الله -تعالى- به من بعض علم

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ جـ ١/ ٣٧ مطبعة الفجالة الجديدة ط الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.

(٢) التحرير والتنوير ج/ ١/ ٢١٠، وقد ذكر الإمام السيوطي قول القاضي أبو بكر بن العربي في الإتقان- النوع الثالث والأربعون- جـ ٣/ ٢٧.

(٣) ينظر ثمار الجنان في أفنان من علوم القرآن -للاستاذ د/ جودة محمد أبو اليزيد المهدي- ص ٨٧ - ط ٢٠٠٠م.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جـ ١/ ١٤٣، ١٤٤.

الغيب هو علمه تفصيلا ذاتًا وزمانًا من غير واسطة أصلا، فلا ينافيه علم بعض الأولياء - عليهم الصلاة والسلام- له بواسطة ذلك، أو إلهام من الله »[١] ا هـ.

ويتضح من ذلك أن فريقا من أصحاب هذا الاتجاه يرى أن الله -تعالى- اختص بعلم هذه الأحرف المقطعة نبيه -ﷺ- وذكروا أن هذا أمر متعارف إذ «التخاطب بالحروف المفردة سنة الأحباب في سنن المحاب، فهو سر الحبيب مع الحبيب بحيث لا يطلع عليه الرقيب.

بين المحبين سرٌ ليس يفشيه قول ولا قلم للخلق يحكيه[٢]

فهي على هذا «من قبيل المواضعات المعميات بالحروف بين المحبين لا يطلع عليه غيرهما، وقد وضعها الله -تعالى- مع نبيه- عليه الصلاة والسلام- في وقت لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ليتكلم بها معه على لسان سيدنا جبريل -عليه السلام- بأسرار وحقائق لا يطلع عليها سيدنا جبريل -عليه السلام- ولا غيره.. [٣]..

وهو أمر صوفي صرح به فارس، وردده تركي، وما قرره عربي وبناءً على ذلك فإن هذه الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور القرآنية -لدى أصحاب هذا الاتجاه إما أن علمها لله خاصة أو بين الله ورسوله، أو لدى جماعة دون العالمين يحتاج إفشاؤها إلى ما يريدون مما لا علم لنا به.

الاتجاه الثاني:

هو القول بإمكان تأويل «الأحرف المقطعة » وبيان تفسيرها ومعرفة مدلولها، بل هناك من لم يقنع بمجرد الإمكان، وتصدى لتأويلها فعلا، والتماس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها، والأخذ فيها بالإشارات الصحيحة التي لا تعارض شرعًا، ولا تصادم عقلا، وأصحاب هذا الاتجاه بعض من السلف، وقد تبعهم على هذه التأويلات كثير من الخلف الذين وافقوهم، بل وجدوا تأويلات توافق الشرع الصحيح، ولا تصادم مسلمات العقول، فهو اتجاه جمهور المفسرين، وجُلّ أهل التأويل. وقد وصلت إلينا أقوال من السلف ومن غيرهم، وممن تبعهم في الأجيال التي تفسر بعض الحروف -كما سيتضح

---

(١) حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير القاضي البيضاوي للعلامة أحمد بن محمد الشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩هـ - جـ ١/ ١٧٨، دار صادر بيروت.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري جـ ١/ ٢٣٩.

(٣) ينظر تفسير روح البيان للإمام الشيخ إسماعيل حقي البروسوي المتوفى سنة ١١٣٧هـ - جـ ١/ ٢٨- دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان- ط السابعة ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.

فيما بعد -إن شاء الله-.

وقد أعلن أبو إسحاق الزجاج -رحمه الله- ذلك صراحة فقال: «اذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى »[١].

وقد ذكر الإمام ابن فارس -رحمه الله- أن الحروف المقطعة من السر الذي لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم[٢].

وقال الإمام الواحدي[٣] -رحمه الله- في تفسيره: «والأكثرون من أهل التفسير تكلموا في معاني هذه الحروف، واستنبطوا لها وجوهًا من التأويل، وقالوا: لا يجوز أن يلغى شيء من كتاب الله -تعالى- لأنه ﴿بلسان عربي مبين﴾ ا هـ.

وذكر الإمام ابن عطية- رحمه الله- أن جمهور العلماء يرون أنه لا يوجد في كتاب الله ما لا يفهم، بل يجب أن يتكلم فيها، وتلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها، وهو ما رجحه حيث قال[٤].

«والصواب ما قاله الجمهور، أن تفسر هذه الحروف ويلتمس لها التأويل».

إذ ليس كونها في القرآن مما تنكره العرب في لغتها، فينبغي إذا كان من معهود كلام العرب أن يطلب تأويله ويلتمس وجهه » ا هـ.

وقد أنكر المتكلمون أن يكون في القرآن ما لا يفهم معناه، وقالوا: «لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهومًا للخلق»[٥].

وأقاموا على ذلك عدة أدلة ذكرها الإمام الرازي في تفسيره[٦] فقد احتجوا على ذلك بالآيات، والأخبار، والمعقول.

أما الآيات فأربعة عشر:

أحدها: قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٧].

أمرهم بالتدبر في القرآن، ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي جـ ١/ ١٧٣.

(٢) ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١/ ١٧٤.

(٣) التفسير البسيط جـ ١/ ٤٥.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز جـ ١/ ٨٢، ٨٣.

(٥) مفاتيح الغيب جـ ٢/ ٥.

(٦) ينظر المرجع السابق جـ ٢/ ٥، ٦.

(٧) سورة محمد آية: ٢٤.

ثانيها: قوله: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾(١).

فكيف يأمرهم بالتدبر فيه لمعرفة نفي التناقض والاختلاف، مع أنه غير مفهوم للخلق؟

ثالثها: قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(٢).

فلو لم يكن مفهومًا، بطل كون الرسول منذرا به، وأيضا قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ يدل على أنه نازل بلغة العرب، وإذا كان الأمر كذلك، وجب أن يكون مفهوما.

ورابعها: قوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾(٣).

والاستنباط منه لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه.

خامسها: قوله: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(٤) وقوله ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(٥).

وسادسها: قوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾(٦)، ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(٧).

وغير المعلوم لا يكون هدى.

وسابعها: قوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾(٨) وقوله ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٩) وكل هذه الصفات لا تحصل في غير المعلوم.

وثامنها: قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾(١٠).

وتاسعها: قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

---

(١) سورة النساء آية: ٨٢.
(٢) سورة الشعراء آية ١٩٢، ١٩٥.
(٣) سورة النساء آية: ٨٣.
(٤) سورة النحل آية: ٨٩.
(٥) سورة الأنعام آية: ٣٨.
(٦) سورة البقرة آية: ١٨٥.
(٧) سورة البقرة آية: ٢.
(٨) سورة القمر آية: ٥.
(٩) سورة يونس آية: ٥٧.
(١٠) سورة المائدة آية: ١٥.

لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

وكيف يكون الكتاب كافيا، ويكون ذكرى، مع أنه غير مفهوم؟

عاشرها: قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾(٢).

فكيف يكون بلاغ، وكيف يقع الإنذار به مع أنه غير معلوم؟

وقال في آخر الآية: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(٣).

وإنما يكون كذلك لو كان معلومًا.

الحادي عشر: قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾(٤).

فكيف يكون برهانًا ونورًا مبينا مع أنه غير معلوم؟

الثاني عشر: قوله ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾(٥) فكيف يمكن إتباعه والإعراض عنه مع أنه غير معلوم.

الثالث عشر: قوله ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٦).

فكيف يكون هاديا مع أنه غير معلوم؟

الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾(٧) إلى قوله تعالى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ والطاعة لا تمكن إلا بعد الفهم.

فوجب كون القرآن مفومًا.

وأما الأخبار فقوله -عليه الصلاة والسلام-:

«إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلوا: كتاب الله وسنتي»(٨).

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٥١.

(٢) سورة إبراهيم آية: ٥٢.

(٣) سورة إبراهيم آية: ٥٢.

(٤) سورة النساء آية: ١٤٧.

(٥) سورة طه آية: ١٢٣، ١٢٤.

(٦) سورة الإسراء آية: ٩.

(٧) سورة البقرة آية: ٢٨٥.

(٨) أخرجه الإمام مالك بن أنس في الموطأ -كتاب القدر- باب النهي عن القول بالقدر ص-٦٤٤/ ٣ بلفظ «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه» تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي- ط دار الحديث- القاهرة ١٩٤٢هـ ٢٠٠١م.

وأخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ متقارب -كتاب العلم- جـ ١/ ٩٣- دار الكتاب العربي- بيروت- وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي في التلخيص جـ ١/ ٩٣، وقد حكم عليه الألباني

فكيف يمكن التمسك به وهو غير معلوم؟

وعـــن علي -كرم الله وجهه- أنه -عليه الصلاة والسلام- قال: «عليكم بكتاب الله، فـــيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تـــركه مـــن جـــبار قصمه الله، ومن اتبع الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلـــق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»(١).

وأما المعقول فمن وجوه:

أحـــدها: أنه لو ورد شيء لا سبيل إلى العلم به، لكانت المخاطبة به تجري مجرى مخاطبة العربي باللغة الزنجية، ولما لم يجز ذلك، فكذا هذا.

وثانيها: أن المقصود من الكلام الإفهام، فلو لم يكن مفهومًا لكانت المخاطبة به عبثًا وسفهًا، وإن ذلك لا يليق بالحكيم.

وثالثهما: أن التحدي وقع بالقرآن، وما لا يكون معلومًا لا يجوز وقوع التحدي به.

«بمعنى: أن هذه الألفاظ إما أن تكون مفهومة، أو غير مفهومة، والثاني باطل، لأنه لـــو جاز ذلك كان الخطاب بها كالخطاب بالمهمل، والتكلم مع العربي بلغة الزنجي، ولم يكـــن القرآن بأسره هدى وبيانًا، فوجب أن تكون هذه الألفاظ مفهومة لتحقيق ما أراده الله لكتابه العزيز من البيان والهدى، وإمكان التحدي به »(٢).

= بالصحة وذكره في سلسلة الأحاديث الصحيحة جـــ ٤/ ٣٥٥، تحت رقم ١٧٦١- ط مكتبة دار المعارف.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب -فضائل القرآن- باب ما جاء في فضل القرآن جـــ ٥/ ١٧٢، ١٧٣/ ٢٩٠٦- ط عيسى الحلبي، قال الترمذي: هذا حديث لا نعرف إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول أ. هـــ.

قلت: هذا الحديث وإن كان ضعيف الإسناد إلا أنه صحيح المعنى.

وأخرجه الدارمي في سننه كتاب فضائل القرآن- باب فضل من قرأ القرآن جـــ ٢/ ٤٣٥- ط دار الكتب العلمية- بيروت، وأخرجه الحاكم في المستدرك كتاب فضائل القرآن- باب فضل من قرأ القرآن -جـــ ١/ ٥٥٥، وقال عنه: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) ينظر مفاتيح الغيب جـــ ٢/ ١٠- وتفسير القاضي البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جـــ ١/ ١٣١- روح المعاني للآلوسي جـــ ١/ ١٦٥- بتصرف.

وبعد....

فقد اتضح بما ذكره من الحجة النيرة التي دعمت بالأدلة الدامغة، أن القول بأن هذه «الأحـــرف المقطعة » غير معلومة، وغير معروفة المعنى للجميع، وأنها من الأمور الذي استأثر الله بعلمها، ولم يطلع عليها أحد من خلقه لحكمة يعلمها الله! وهو قول مرجوح، وأن القول الراجح: أنها معروفة المعنى، وهو الذي يعول عليه، وممن رجح هذا القول من المحدثين: الدكتور/ عدنان زرزور[١]، حيث رأى أن الاتجاه القائل بعدم الخوض في تفسير هذه الحروف أصلاً؛ لأنها -فيما قيل- مما استأثر الله -تعالى- بعلمه، رآهم أضعف دليلا، واســتند في رأيــه إلى الآيات السالفة الذكر[٢]، ثم ختم بأن قال: «وكل ذلك يدل على ضرورة تدبره والاستنباط منه، وذلك لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه، ولا خلاف على أن الغـــرض من الخطاب الإفهام! وعلى أن الصحابة والتابعين والعلماء تكلموا في معنى هذه الحروف » ا هـــ.

وكـــشف الدكتور/ محمد غلاب أن فريقًا من العلماء رأى أن محاولة الاجتهاد في كشف معانيها، وفهم مراميها واجبة شرعًا، للوقوف على أسرارها والانتفاع بها، تحقيقا للهـــدف الذي رمى إليه القرآن من ذكرها، وإلا فلو أراد الله أن تبقى مخبوءة، لكان من العبث الإكثار من ذكرها إلى الحد الذي بلغ تسعًا وعشرين مرة، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا »[٣]. ا هـــ.

وأستطيع القول بأن:

١- ما نسب إلى العلماء في الاتجاه الأول، إنما هو من باب خوفهم من التهجم على كتاب الله بغير علم، فتوقفوا عن القول في معناها.

٢- أن المـــراد مـــن كونها «سرًا »، هو صعوبة الوصول إلى المراد منها ومعرفة كـــنهها ولـــيس يعني بالضرورة عدم الخوض فيها، إذ هو سر الله تعالى المودع في كتابه العزيز، وهو مضنون به على غير أهله.

أن غاية ما يقال بشأن الحروف المقطعة، والخلاف حول تأويلها: أنها من مدلولات القرآن وأسراره التي لا تنكشف للناس دفعة واحدة فالقرآن مثله كمثل هذا الكون الكبير

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه- د/ عدنان محمد زرزور- ص ١٥٣، ١٥٤.

(٢) ص ٨١، ٨٣ من الرسالة.

(٣) نظرات استشراقية في الإسلام للدكتور/ محمد غلاب- ص ٣٨، ٤٤- دار الكتاب العربي – مصر- المؤســسة المصرية العامة للتأليف والنشر- وزارة الثقافة.

الذي لا ينطق بأسراره مرة واحدة، وإنما يتكشف منه في كل يوم جديد حسب اجتهادات البشر في فهمه... ولعل ذلك معنى من معاني وصف الرسول-ﷺ- القرآن بأنه «لا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه فهو لا يبلى بكثرة التلاوة والتأمل والتدبر، وإنما هو جديد فياض دائمًا بعطائه »[١].

ولقد كثرت أقوال العلماء وتنوعت في هذا الاتجاه الثاني التماسًا لمفهوم لها ودلالة عليها.

فقـــد شغل المفسرون بها قديما وحديثا، فلا يكاد يخلو كتاب تفسير من التعرض لبـــيان معـــنى هذه الحروف، وغالبًا ما يأتي كلامهم فيها عند تفسير فاتحة سورة البقرة ﴿الم﴾ إذ هي أول سورة في ترتيب المصحف، مفتتحة بهذه الحروف، ونصوا على ذلك إجمالا، وعرضوا له تفصيلا.

وقد أورد الإمام الطبري -رحمه الله- في تفسيريه لفاتحة سورة البقرة ما انتهى إلى عـــصره مـــن أقوال في الفواتح، ولا تكاد تخرج آراء المتأخرين عن تلك الأقوال، إلا أن يختاروا منها قولاً يزيدونه تفصيلاً وبيانًا وإيضاحًا.

وقـــد ســـاق الإمام الرازي -رحمه الله- واحدًا وعشرين وجهًا لها[٢]، والإمام أبو حيان -رحمه الله- ثلاثة وعشرين وجهًا[٣]، والإمام السيوطي -رحمه الله- قال:

«تَحَصَّلَ لي فيها عشرون قولا وأزيد، ثم زاد على العشرين أربعة أخرى»[٤].

هـــذا إلى جانب ما استحدث من الآراء، والأقوال فيها، ولكن من هذه الأقوال ما هو مقبول ولا يصادم مسلمات العقول، كما هو في قول الكثير من النحاة من استنباطات جيدة، ما خلا القليل المتباعد-، ومنها ما هو فاسد لمعارضته الشرع الصحيح، وما عليه إجماع أهل السنة.

كما سيتضح من الفصول الآتية- إن شاء الله.

---

(١) الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة للدكتور/ السيد عبد المقصود جعفر -كلية الآداب- جامعة بنها- ص ١٩، ٢٠- دار الطباعة والنشر الإسلامية- ط الأولى ١٤١٢هـ -١٩٩٢.

(٢) ينظر مفاتيح الغيب جـ ٢/ ٧: ١٠.

(٣) ينظر البحر المحيط في التفسير جـ ١/ ٥٨، ٥٩.

(٤) ينظر الإتقان في علوم القرآن تحت النوع الثالث والأربعون جـ ٣/ ٢١: ٣٠.

الفصل الرابع / معاني الأحرف المقطعة (عرض وتحليل)

تمهيد

للعلمـــاء والدارسين قديما وحديثا آراء كثيرة في تفسير هذه الأحرف المقطعة أو تأويلـــها، حيث قالوا فيها أقوالا بعضها يعزي إلى أصحاب رسول ﷺ وبعضها يعزى إلى التابعين، وبعضها الأخر من إعمال العقل والاجتهاد.

فقـــد اخـــتلفوا في معنى هذه الحروف اختلافًا كبيرًا وفي هذا الفصل من البحث ليس المقصود فقط استعراض جميع الأراء بغثها وسمينها، ثم عدم الخروج بشيء في نهاية المطاف.

ولكـــني أعرض هنا لأشهر الأقوال التي قال بها طائفة من العلماء والمفسرين، بعد حـــذف متداخلها، وتوحيد متشاكلها مع مناقشتها والتعقيب عليها، مما يؤول إلى بضعة أقوال، وليس إلى أكثر من عشرين قولا كما أخبر بعضهم.

محاولة التماس أدلة الترجيح لبعض هذه الأقوال على البعض الآخر.

هذا وقد دمجت أقوال العلماء المتقدمين مع أقوال العلماء المحدثين.

وقبل ذكر أقوال العلماء في الأحرف المقطعة، ينبغي التنبيه على بعض الأمور التي لا بدّ منها:

أولاً: أنه لم يثبت عن الرسول ﷺ حديث صحيح مرفوع إليه في معنى ومغزى هذه الأحـــرف التي جرى التواتر غير المنقطع على قراءتها بأسمائها (ألف. لام. ميم) فقد نفى الإمام الطبري -رحمه الله- تعرض النبي ﷺ للحروف المقطعة بالتفسير حيث قال[1]:

«لـــو أراد الله بها، أو بشيء منها، الدلالة على معنى واحد مما تحتمله، دون سائر المعـــاني، لأبان ذلك لهم رسول الله ﷺ إبانة غير مشكلة، إذ كان -جل ثناؤه- إنما أنزل كتابه على رسوله ﷺ ليبين لهم ما اختلفوا فيه» ا هـــ.

وقـــد نفى أيضًا الإمام الشوكاني -رحمه الله- ذلك حيث قال[2]: «فإن قلت: هل

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن جـــ ١/ ٢٢٢.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير جـــ ١/ ٤٠، ٤١.

ثبت عن رسول الله ﷺ في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به؟

قلت: لا أعلم أن رسول الله ﷺ تكلم في شيء من معانيها، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها.

ولو كان شيء مما قاله الصحابة مأخوذًا عن النبي ﷺ في هذه الفواتح شيء يصلحُ للتمسك به؟

قلت: لا أعلم أن رسول الله ﷺ تكلم في شيء من معانيها، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها.

ولـــو كان شيء مما قاله الصحابة مأخوذًا عن النبي ﷺ لاتفقوا عليه، ولم يختلفوا كسائر ما هو مأخوذ عنه، فلما اختلفوا في هذا علمنا أنه لم يكن مأخوذًا عن النبي ﷺ، ثم لو كان عندهم شيء عن النبي ﷺ في هذا لما تركوا حكايته عنه ورفعه إليه، لا سيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه، ولا مدخل لها » ا هـــ.

وقـــد ســـار على هذا الدرب الشيخ/ محمود شلتوت- رحمه الله- حيث حذر من الخوض في معاني هذه الحروف، ودعا الناس إلى الكف عن الخوض فيما لا سبيل إلى علمه وقال: «لم يصح عن الرسول ﷺ بيان المراد منها»(١).

ووافقهـــم علـــى هـــذا الدكتور/ محمود بسيوني فودة حين قال(٢): «لم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه تكلم في شيء من معانيها».

وعلـــى هـــذا فإن القول في تفسير هذه الحروف لا سند له من الكتاب أو السنة الصحيحة.

ثانيًا: إن افتتاح الكلام بالأحرف المقطعة أسلوب لم يكن معروفا عند العرب من قبل، ومن ثم فإنه ليس له شاهد من كلام العرب.

ثالـــثًا: إن تفـــسير هـــذه الأحرف إذا لم يكن قد ورد في الكتاب، ولا في السنة الـــصحيحة، كما أنه ليس له شاهد في لغة العرب، فإن الأقوال فيها محض تخرصات، لا يـــصلح أبدًا أن ي جزم أحد بأن مراد الله منها كذا، وذلك كما ذكر الإمام الشوكاني –

---

(١) تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت ص ٦١- دار الشروق الطبعة السادسة ١٣٩٤هـــ.

(٢) المرشد الوافي في علوم القرآن –د/ محمود بسيوني فودة أستاذ التفسير المساعد بكلية أصول الدين- جامعة الأزهر ص ٢١٧- مطبعة الأمانة – ط ٢ ١٤٠٢هـــ ١٩٨٢م.

رحمه الله- قال[١]:

«اعلم أن تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازمًا بأن ذلك هو ما أراده الله -عز وجل- فقد غلط أقبح الغلط وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرها به راجعا إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معدودًا عنده من الرطانة » ا هـ.

ومع هذا فإن من أقوال العلماء في تفسير هذه الحروف ما هو مقبول وقريب إذ لا يعارض الشرع الصحيح، وما عليه إجماع أهل السنة، ولا عيب فيه إلا عدم الدليل، ومن هذه الأقوال ما هو بعيد وغريب فوق أنه لا دليل عليه، بل وقد يصل إلى حد الشطط والتكلف، وأعرض هنا لأهم أقوال العلماء في بيان معنى الأحرف المقطعة التي جاءت عن بعض السلف والخلف، والتي منها ما هو مقبول ويصلح أن يكون معنى لها، ومنها ما بعيد عن الصواب.

القول الأول:

أن هذه الحروف الفواتح أسماء للسور المصدرة بها، وبيانه: «أن القائل إذا قال قرأت ﴿المص﴾ عرف السامع أنه قرأ السورة التي افتتحت بـ ﴿المص﴾»[٢].

وقد خرج الإمام ابن جرير -رحمه الله- هذا القول بسنده عن زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن[٣] وهو مروي -عن الحسن البصري وغيره[٤].

يروي عن الحسن أنه قال: ﴿الم﴾، وسائر حروف التهجي في القرآن أسماء للسور[٥].

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير جـ ١/ ٣٨، ٣٩.
(٢) تفسير البغوي جـ ١/ ٤٤.
(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢٠٦، وذكره أيضا الإمام الماوردي وهو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي المتوفى ٤٥٠هـ -في تفسيره المسمى النكت والعيون جـ ١/ ٦٣- دار الكتب العلمية بيروت -لبنان الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، وذكره الإمام ابن عطية في المحرر الوجيز جـ ١/ ٨٢، وابن كثير في تفسيره جـ ١/ ٢٥٠ تحقيق مصطفى السيد محمد وآخرون ط الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م- مكتبة أولاد الشيخ للتراث.
(٤) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عماد الدين أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد المتوفى سنة ٤١٥هـ ص ١١، دار النهضة الحديثة، بيروت- لبنان، وتفسير التبيان للشيخ الطوسي جـ ١/ ٤٧- تحقيق/ أحمد حبيب قصير العالمي- منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات جـ ١/ ٤٧ - بيروت- لبنان مكتبة الأمين- النجف الأشرف.
(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للإمام المفسر أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ -جـ ١/ ٢٦- تحقيق وتقديم/ محمد حسن أبو العز الزفيتي- القاهرة ١٤٠٦هـ. ط

وذكره الإمام الزمخشري -رحمه الله- في تفسيره أثناء استعراضه للأوجه الواردة في تأويل الفواتح الهجائية فقال: أحدها- أي أحد هذه الأوجه- وعليه إطباق الأكثر أنها أسماء للسور وأن سيبويه جعل عنوان الباب الذي خصصه لها في حد ما لا ينصرف «باب أسماء السور»(١).

أي أن سيبويه في كتابه النحوي المشهور قد عقد بابا خاصا سماه «باب أسماء السور» تحدث فيه عن الحروف المقطعة على أنها أسماء للسور، مبينا أحكامها من ناحية قبول التنوين وعدمه.

وذكر الفخر الرازي أن هذا القول هو المختار عند أكثر المحققين واختيار الخليل ابن أحمد وسيبويه (٢)..

وأوضح الإمام ابن قتيبة -رحمه الله- هذا القول فقال(٣): «فإن كانت أسماء فهي أعلام تدل على ما تدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء وتفرق بينها، فإذا قال القائل قرأت ﴿المص﴾ أو ﴿ص﴾ أو ﴿ن﴾ دل ذلك على ما قرأ، كما تقول: لقيت محمدًا، وكلمت عبد الله، فهي تدل بالاسمين على العينين، وإن كان قد يقع بعضها مثل ﴿حم﴾ و﴿الم﴾ لعدة سور، فإن الفصل قد يقع بأن تقول: حم السجدة، الم البقرة، كما يقع الوفاق في الأسماء، فتدل بالإضافات وأسماء الآباء والكنى ا هـ.

وقد بين الإمام للزمخشري وجه تسمية هذه السور بهذه الألفاظ خاصة، إنما هو للإشعار بأن القرآن الكريم والفرقان المبين ليس إلا كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ فهو من جنس ما ينظمون منه كلامهم(٤).

كما قال عز من قائل: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٥).

وهذا التوجيه هو أيضًا ما ذكره الإمام البيضاوي، والقاضي أبو السعود من أنها إنما سميت بها إيذانًا بأنها كلمات معارضتها، ومن ثم يكون في التسمية بها إيماء إلى الإعجاز والتحدي على سبيل الإيقاظ، فلولا أنه وحي من الله- عز وجل- لما عجزا عن

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث.

(١) تفسير الكشاف جـ ١/ ٣١.

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٢/ ٧.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٣٠٠.

(٤) تفسير الكشاف جـ ١/٣٦- بتصرف.

(٥) سورة الزمر آية: ٢٨.

معارضته[١]، ويفهم من هذا التوجيه: أن هذه الحروف أسماء للسور، وفي نفس الوقت إشارة إلى التحدي والإعجاز.

وقد ذكر الإمام الخازن هذا القول ونسبه إلى جماعة من المحققين[٢].

ويعتضد لهذا القول ما ورد في الصحيحين[٣] عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال «كان النبي ﷺ يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر ﴿الم﴾ السجدة، و﴿هل أتى على الإنسان﴾»[٤].

فقد تعينت هذه السورة بمسماها، وأصبح المقصود منها السورة التي بين لقمان والأحزاب، وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها كسورة ﴿طه، يس، ص، ق﴾ ويحتج لصحة هذا القول ما ذكره الإمام الرازي عن عبد الله بن أحمد المروزي المعروف بأبي بكر القفال، بأن ذلك جار على مألوف العرب في كلامهم فقال:

«وقد سمت العرب بهذه الحروف أشياء، فسموا بلام والد حارثة بن لام الطائي، وكقولهم للنحاس صاد، وللنقد عين، وللسحاب غين، وقالوا: جبل قاف، وسموا الحوت نونًا»[٥].

وقد أفاض الإمام الرازي -رحمه الله- في الدفاع عن هذا القول وإيراد ما استدلوا به، وما قد يوجه إلى هذا القول من اعتراضات والرد عليها، مستخدمًا في ذلك براعته الكلامية الجدلية المعروفة.

واستدل أصحاب هذا القول: «إن هذه الحروف إما أن يكون المراد منها جعلها أسماء الألقاب أو أسماء المعاني، والثاني باطل لما يأتي:

أولاً: إن هذه الألفاظ غير موضوعة في لغة العرب لهذه المعاني التي ذكرها المفسرون، فيمتنع حملها عليها، لأن القرآن نزل بلغة العرب، ولا يجوز حملها على ما لا يكون حاصلاً في لغة العرب.

---

(١) ينظر تفسير القاضي البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جـ ١/ ١٣٠، ١٣١، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ ١/ ٢١- بتصرف يسير.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل جـ ١/ ٢٣.

(٣) ينظر تفسير ابن كثير جـ ١/ ٢٥٠.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجمعة- باب ما يقرأ في صلاة الفجر جـ ٢/ ٥، ومسلم -كتاب الجمعة- باب ١٧ حديث ٨٧٩.

(٥) ينظر مفاتيح الغيب جـ ٢/ ٧.

ثانيًا: إن المفسرين ذكروا وجوهًا مختلفة، وليست دلالة هذه الألفاظ على بعض ما ذكروه أولى من دلالتها على الباقي، فإما أن يحمل على الكل، وهو متعذر بالإجماع، أو لا يحمل على شيء منها.

واعترض على هذا: بأنه لا نزاع في إنها وحدها غير موضوعة لشيء، ولكن لم لا يجوز أن يقال: إنها مع القرينة المخصوصة يفيد معنى معينًا؟

ورد على هذا الاعتراض: بأن لو فتحنا هذا الباب لانفتحت أبواب تأويلات الباطنية وسائر الهذيانات، وذلك مما لا سبيل إليه ولما بطل هذا القسم وجب الحكم بأنها أسماء للسور[١]:

ويقول الطاهر بن عاشور[٢]: «ويعضده وقوع هته الحروف في أوائل السور، فتكون هاته الحروف قد جعلت أسماء بالعلامة على تلك السور » ا هـ.

وقد عضد كلامه هذا بقول القفال ثم قال: وأقول: وحاء قبيلة من مذحج، وقال شريح بن أوفى العبسي:

يُذكـرُني حَامـيمَ والـرُمْحُ شاجرٌ فَهَـلا تـلا حَامـيمَ قبلَ التقدُم[٣]

وقد أورد العلماء عدة اعتراضات على هذا القول، وإتماما للفائدة أذكر هذه الاعتراضات، وأجوبتها لتتضح الرؤى.

الاعتراض الأول:

القول بأنها للسور يؤدي إلى اشتراك عدة سور في اسم واحد، حيث إننا لا نجد سورا كثيرة اتفقت في التسمية بـ ﴿الم﴾ كسورة البقرة وآل عمران و﴿حم﴾ في سبع سور، مما يؤدي إلى الاشتباه، فالاشتباه حاصل فيها بهذا الاشتراك، والمقصود من اسم العلم إزالة الاشتباه، فلم يحصل هذا المقصود من التسمية بهذه الحروف[٤].

ولا يمكن الاستدلال الاشتراك الحاصل في الأعلام، لأن الأعلام تفيد التعيين والتبرك، بخلاف هذه الحروف، فلا فائدة فيها سوى التعيين، فإذا لم تفده كانت التسمية

---

(١) ينظر المرجع السابق جـ ٢/ ١٠، ١٢.

(٢) التحرير والتنوير جـ ١/ ٢١١.

(٣) سبق ذكره في ص ٤٩.

(٤) ينظر مفاتيح الغيب للرازي جـ ٢/ ١١، غرائب القرآن، ورغائب الفرقان للنيسابوري جـ ١/ ٢٤٦.

بها عبثًا محضًا.

وقد أورد الإمام الطبري هذا الاعتراض، وأجاب عنه حيث قال: «وإن أشكل معنى ذلـــك على امرئ فقال: وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك، نظائر ﴿الم﴾ و﴿الر﴾ في القرآن جماعة من السور؟ وإنما تكون الأسماء إمارات إذا كانت مميزة بين الأشخاص، فإما إذا كانت غير مميزة فليست إمارات.

قيل: إن الأسماء، وإن كانت قد صارت، لاشتراك كثير من الناس في الواحد منها، غير مميزة إلا بمعان أخر معها من ضم نسبة المسمى بها إليها أو نعته أو صفته، بما يفرق بينه وبين غيره من أشكالها، فأنها وضعت ابتداء للتمييز لاشك، ثم احتيج عند الاشتراك إلى المعـــاني المفرقة بين المسمين بها، فكذلك ذلك في أسماء السور، جعل كل اسم في قول قائل هذه المقالة، أمارة للمسمى به من السور، فلما شارك المسمى به فيه غيره من سور القرآن، احتاج المخبر عن سورة منها أن يضم إلى اسمها المسمى به من ذلك، ما يفرق به السامع بين الخـــبر عـــنها، وعن غيرها، من نعت وصفة أو غير ذلك، فيقول المخبر عن نفسه أنه تلا سورة البقرة، إذا سماها باسمها الذي هو ﴿الم﴾: قرأت (الم البقرة)، وفي آل عمران: قرأت (الم آل عمـــران)، (الم ذلك الكتاب)، و ﴿الم اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[1]، كما لو أراد الخبر عن رجلين اسم كل واحد منهما، «عمرو»، غير أن أحدهما تميمي والآخر أزدي للزمه أن يقول لمن أراد إخباره عنهما: لقيت عمرًا التميمي وعمرًا الأزدي، إذا كان لا يفـــرق بينهما وبين غيرهما ممن يشاركهما في أسمائهما، إلا نسبتهما كذلك، فكذلك ذلك في قول من تأول في الحروف المقطعة إنها أسماء للسور» اهـــ.

ومـــا ذكـــره الإمـــام الطبري في هذا المقام، هو ما استند إليه جماعة من العلماء، وذكروه في كتبهم، سواء في ذلك القدامى والمحدثين[2].

فمعنى هذا أن المقصود من التسمية إزالة الاشتباه، وهو حاصل بتميز كل اسم منها بعلامة أخرى، كما أن هذا الاشتراك حاصل أيضا في أكثر الأعلام، فإن كثيرين يتسمون بمحمـــد، ولا ينافي هذا الاشتراك العلمية، ولا يبعد أن يوجد مع هذا الاشتراك في الاسم حكمة أخرى خفية»[3].

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢١١، ٢١٢.

(٢) ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي جـــ ١/ ١٤٧.

(٣) مفاتيح الغيب جـــ ٢/ ١١، ١٢، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان جـــ ١/ ٢٤٦ بتصرف.

فإن الوفاق الذي يقع بين الأسماء إنما يفصل بينها بالإضافات وأسماء الآباء والكنى.

وقد رجح العلامة محمد رشيد رضا[١] كونها أسماء للسور، وقال: «ولا يضر وضع الاسم الواحد كـ ﴿الم﴾ لعدة سور، لأنه من المشترك الذي يعين معناه اتصاله بالمسمى» اهـ.

الاعتراض الثاني:

لو كانت هذه الألفاظ اسمًا للسور، لوجب أن يعلم ذلك بالتواتر؛ لأن هذه الأسماء ليست على قوانين أسماء العرب، والأمور العجيبة تتوافر الدواعي على نقلها لاسيما فيما لا يتعلق بإخفائه رغبة أو رهبة، ولو توفرت الدواعي على نقلها لصار ذلك معلومًا بالتواتر، وارتفع الخلاف فيه، فلما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنها ليست من أسماء السور[٢].

وقد أجيب عنه: بأن تسمية السورة بلفظة معينة ليست من الأمور العظام التي تتوفر الدواعي على نقلها، حيث أنها ليس مما يعلم من الدين بالضرورة، فجاز أن لا يبلغ في الشهرة إلى حد التواتر[٣].

الاعتراض الثالث:

إن القرآن الكريم إنما نزل بلسان العرب، فقد جاء على أساليبهم واستعمالاتهم، والعرب لا يسمون بأكثر من اسمين وهما الكنية والاسم مثل: أبو القاسم محمد، وأبو حفص عمر، ونحو: معد يكرب وبعلبك، فالتسمية بثلاثة أسماء نحو ﴿الم﴾ وبأربعة نحو ﴿المر﴾ وبخمسة نحو ﴿حم عسق﴾، مستكره عندهم، فالقول بأنها أسماء للسور حقيقة يخرجها إلى ما ليس في لغة العرب، وأنه غير جائز[٤].

وقد أجيب عنه:

١- إنه نظير قول الناس: فلان يروي: قفا نبك، وعفت الديار، ويقول الرجل لصاحبه: ما قرأت؟ فيقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[٥] و ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[٦].

---

(١) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار جـ ١/ ١٠٦، جـ ٣/ ١٢٩.

(٢) ينظر مفاتيح الغيب للرازي جـ ٢/ ١١.

(٣) المرجع السابق جـ ٢/ ١٢- بتصرف.

(٤) ينظر تفسير الكشاف جـ ١/ ٣٨، مفاتيح الغيب للرازي جـ ٢/ ١١، ١٢، وغرائب القرآن، ورغائب الفرقان للنيسابوري،جـ ١/ ٢٤٦، ٢٤٧، وحاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـ ١/ ١٣٧، ١٣٩، وروح المعاني للألوسي جـ ١/١٦٦- بتصرف.

(٥) أول سورة الفاتحة.

(٦) أول سورة التوبة.

و﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾(١) و ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(٢)، وليست هذه الجمـــل بأســـامي هذه القصائد، وهذه السور والآي، وإنما تعني رواية القصيدة التي ذاك استهلالها، وتلاوة السورة أو الآي، وإنما تعني رواية القصيدة التي ذلك استهلالها، وتلاوة الســـورة، أو الآية التي تلك فاتحتها، فلما جرى الكلام على أسلوب من يقصد التسمية، واستفيد منها ما يستفاد من التسمية، قالوا ذلك على سبيل المجاز لا الحقيقة.

٢- إن التـــسمية بـــثلاثة أسماء فصاعدا مستنكرة، وخروج عن كلام العرب إذا جعلـــت الأسماء اسمًا واحدًا يعرب آخره، كـــ حضر موت،، بعلبك، وأما التسمية بأسماء التـــسمية بما حقه أن يحكي حكاية، كما سموا: بتأبط شرًا، وبرق نحره، وشاب قرناها، وكما لو سمي: بزيد منطلق، أو بيت شعر، وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة، والبيت من الشعر، وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم، دلالة قاطعة على صحة ذلك.

٣- وأما تسمية السورة كلها بفاتحتها فلا يؤدي ذلك إلى اتحاد الاسم والمسمى؛ لأنها تسمية مؤلف بمفرده، والاتحاد إنما يلزم إذا كان المفرد نفس المؤلف، والمؤلف غير المفرد، فقد جعلوا اسم الحرف مؤلفا منه ومن حرفين مضمومين إليه، كقولهم: صاد، فلم يكن من جعل الاسم والمسمى واحد حيث كان الاسم مؤلفا والمسمى مفردًا(٣).

الاعتراض الرابع:

إن التسمية بهذه الحروف تؤدي إلى اتحاد الاسم والمسمى، حيث أن هذه الألفاظ داخلـــة في السور، فيكون الاسم حينئذ جزءا من المسمى وهو السورة، ولا مغايرة بين الجـــزء والكل، وجزء الشيء متقدم على الشيء بالرتبة والشيء متأخر عن الشيء بالرتبة، فلو جعلناها اسمًا للسورة لزم التقدم والتأخر معًا، وهو محال.

ولـــيس هذا كتسميتهم صادا للحرف الأول منه، فإن هذا كتسمية الفرد بالمؤلف، فلا يلزم إلا تأخر المركب عن المفرد بوجهين، وذلك غير مستحيل، وهذا تسمية المؤلف بالمفرد ويلزم المحال المذكور، بمعنى لو جعلنا المفرد اسمًا للمركب لزم من حيث إنه مفرد كونه متقدمًا، ومن حيث إنه اسم كونه متأخرًا، وذلك محال(٤).

---

(١) سورة النساء الآية: ١١.

(٢) سورة النور الآية: ٣٥.

(٣) ينظر تفسير الكشاف جـــ ١/ ٣٨- بتصرف يسير.

(٤) ينظر مفاتيح الغيب للرازي جـــ ٢/ ١٣، ١٤، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري جـــ ١/ ٢٤٦، ٢٤٧- بتصرف.

وفي ذلك يقول الإمام الطاهر بن عاشور[١] -رحمه الله-: ويبعد هذا القول بعد ما (وهو القول بأن هذه الحروف أسماء للسور) إن الشأن أن يكون الاسم غير داخل في المسمى، وقد وجدنا هذه الحروف مقرؤة مع السور بإجماع المسلمين» ا هـ.

وقد أجيب عنه:

إن تسمية السورة كلها بفاتحتها لا يؤدي ذلك إلى اتحاد الاسم والمسمى؛ لأنها تسمية مؤلف بمفرده، والاتحاد إنما يلزم إذا كان المفرد نفس المؤلف، والمؤلف غير المفرد، فقد جعلوا اسم الحرف مؤلفًا منه ومن حرفين مضمومين إليه كقولهم:

صاد فهما متغايران ذاتًا وصفة، فلم يكن من جعل الاسم والمسمى واحدًا، حيث كان الاسم مؤلفًا والمسمى مفردًا فالمسمى هو مجموع السورة، والاسم جزؤها فلا اتحاد، وهو مقدم من حيث ذاته ومؤخر باعتبار كونه أسماء فلا دور لاختلاف الجهتين.

والاسم لفظ دال على أمر مستقل بنفسه من غير دلالة على زمانه المعين، ولفظ الاسم كذلك، فيكون الاسم اسمًا لنفسه، فإذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكون جزء الشيء اسما له، ثم إن مغايرة الكل لجزئه لا تستلزم مغايرته لكل جزء منه، فلا نسلم أن مغايرة الشيء للشيء تستلزم كونه مغايرا لمجموع الأجزاء، ولا شك أن جميع الأجزاء مغايرا لكل جزء، ثم إن تقدمها باعتبارها جزءا إنما هو لذاتها، وتأخرها باعتبارها اسمًا إنما هو بحسب وصفها، وتأخر ما هو متقدم باعتبار آخر غير مستحيل[٢].

ويقول الإمام النيسابوري[٣] في الجواب عن هذا الاعتراض: «إن تأخر ما هو متقدم باعتبار آخر غير مستحيل » ا هـ.

الاعتراض الخامس:

إن هذه الحروف لو كانت أسماء للسور لوجب اشتهار هذه السور بها، لكنها اشتهرت بغيرها، نحو سورة البقرة، وآل عمران، وسورة الأعراف، وسورة مريم، وما إلى ذلك فلو كانت أسماء للسور كما يقولون لتواترت على ألسنة أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١/ ٢١١.

(٢) ينظر الكشاف جـ ١/ ٣٨، مفاتيح الغيب جـ ٢/ ١٣، تفسير البيضاوي بحاشية شيخ زاده جـ ١/١٣٩، ١٤٠، وحاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي جـ ١/ ١٣٩، ١٤٠، وغرائب القرآن، ورغائب الفرقان جـ ١/ ٢٤٧، وروح المعاني جـ ١/ ١٦٦- بتصرف.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري جـ ١/ ٢٤٧.

وعلى ألسنة المؤمنين جيلا بعد جيل[١].

وقد أجيب عنه: أنه لا يبعد أن يصير اللقب أكثر شهرة من الاسم الأصلي فكذا ها هنا[٢].

وأجاب عنه الألوسي[٣] بقوله: بأنه ورد عنه ﷺ: «يس قلب القرآن[٤]، ومن قرأ حم حفظ إلى أن يصبح[٥]» وإذا ثبت في البعض ثبت في الجميع إذ لا فارق مع أن شهرة أحد العلمين لا يضر علمية الآخر، فكم من مسمى لا يعرف اسمه إلا بعد التنقير فلاشتهاره بغيره كأبي هريرة، وذي اليدين، وعدم اشتهار بعضها لكونها مشتركًا فترك لاحتياجه إلى ضميمه (كالم) هنا ا هـ.

الاعتراض السادس:

لو كانت هذه الحروف أسماء للسور، لوجب أن لا تخلو سورة من سور القرآن من اسم على هذا الوجه، ومعلوم «أنه غير حاصل»[٦].

وقد أجيب عنه: إن وضع الاسم إنما يكون بحسب الحكمة، ولا يبعد أن تقضي الحكمة وضع الاسم لبعض السور دون بعض، على أن القول الحق: أنه تعالى يفعل ما

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب جـ ٢/ ١١، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ ١/ ٢٤٦، وروح المعاني جـ ١/ ١٦٦، وتفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت –جـ ١/ ٥٥– بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب جـ ٢/ ١٣.

(٣) روح المعاني جـ ١/ ١٦٦.

(٤) رواه الترمذي في سننه.. عن قتادة عن أنس قال قال النبي –ﷺ– «وإن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءته قراءة القرآن عشر مرات» قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن، وبالبصرة لا يعرفون من حديث قتادة إلا من هذا الوجه، وهارون أبو محمد شيخ مجهول، وفي الباب عن أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– ولا يصح لضعف إسناده، وعن أبي هريرة منظور فيه. ينظر الجامع الصحيح لأبي عيسى الترمذي كتاب فضائل القرآن –باب ما جاء في فضل يس –جـ ٥/ ١٦٢، ١٦٣/ ٢٨٩٢– إعداد الشيخ هشام سمير البخاري –دار إحياء التراث العربي– بيروت– لبنان ط ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

(٥) رواه الترمذي في سننه.. عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك».
قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وعمر بن أبي خثعم يضعفه، قال محمد، وهو منكر الحديث –ينظر الجامع الصحيح للترمذي– كتاب فضائل القرآن– باب ما جاء في فضل حم الدخان– جـ ٥/ ١٦٣/ ٢٨٩٣.

(٦) مفاتيح الغيب للرازي جـ ٢/ ١٢، ١٣.

يشاء[١].

وقد رجح القاضي عبد الجبار كون هذه الحروف أسماء للسور فهي اسم لقب السورة، على أن لله -تعالى- ما يشاء[٢].

وذكر الإمام الطوسي -رحمه الله- أن أحسن الوجوه التي قيلت قول من قال: إنها أسماء للسور خص الله تعالى بها بعض السور بتلك، كما قيل للمعوذتين: المقشقشتان، أي تبرئان من النفاق، وكما سميت الحمد أم القرآن، وفاتحة الكتاب[٣].

وقد عقبت د/ عائشة عبد الرحمن قائلة: ولا يعني هذا عنده الإمام الزمخشري إنها أسماء السور حقيقة، بل هي التسمية بما افتتحت به واستهلت ونظيره قولهم: فلان يروي قفا نبك، وعفت الديار، وقول القائل: قرأت من القرآن ﴿الحمد لله﴾ و ﴿براءة﴾[٤].

وذكر الدكتور/ يوسف خليف أن من مؤدي هذا الرأي من يستدلون عليه بوجود أربع سور سميت بالحروف صراحة، وليس لها أسماء غيرها، وهي: سورة طه، ويس، وص، وق[٥].

وقد عد بعض المحدثين هذا القول من أوجه الآراء التي ذكرت في معنى هذه الحروف[٦].

وبعد........

يتضح من هذا كله، أن القول بأن هذه الحروف المقطعة أسماء للسور، هو من أقدم تأويلات هذه الحروف، وأنه قد لقي قبولا عاما، كما أن الإمام الزمخشري والإمام الرازي -رحمهما الله- هما اللذان أفاضا في توضيح هذا القول والدفاع عنه.

القول الثاني:

إن هذه الحروف الفواتح أسماء للقرآن الكريم، وقد ذكر الإمام ابن جرير هذا القول

---

(١) المرجع السابق جـ ٢/ ١٢، ١٣.

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١١.

(٣) تفسير التبيان جـ ١/ ٤٩.

(٤) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق للدكتور/ عائشة عبد الرحمن «بيت الشاطئ» (ت: ١٤١٩هـ)- ص ١٢٩ - دار المعارف بمصر.

(٥) دراسات في القرآن والحديث للدكتور/ يوسف خليف - ص٨٢- مكتبة غريب- مصر.

(٦) ينظر في علوم القرآن دراسات ومحاضرات للدكتور/ محمد عبد السلام كفافي، وعبد الله الشريف- ص ١٣٤- دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت- لبنان ط ١٩٨١م.

بأسانيده عن قتادة، ومجاهد، وابن جريج[١].

وعزاه الإمام البغوي في تفسيره إلى قتادة[٢].

كما أخرج عبد الرازق وابن أبي حاتم عن قتادة قوله: «كل هجاء في القرآن فهو اسم من أسماء القرآن»[٣].

وعزاه الإمام الرازي إلى قتادة، والكلبي، والسدي»[٤].

وروى الإمام ابن عطية عن قتادة قوله: هما أسماء للقرآن كالفرقان والذكر[٥].

ومن ثم فإن ﴿الم﴾، ﴿المر﴾، ﴿ص﴾، ﴿ق﴾ وبقية هذه الفواتح، كلها أسماء للقرآن الكريم كالفرقان والذكر والتنزيل أي أسماء لمجموعه.

قال ابن كثير -رحمه الله-: «وهكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم »[٦]، وهو أن ﴿الم﴾ اسم من أسماء القرآن.

وروى الإمام ابن قتيبة أن الكلبي ذهب إلى أن ﴿كهيعص﴾ مختصرة من صفات للقرآن، وذكر أنه قال: هو كتاب كافٍ، هادٍ، حكيمٌ، عالمٌ، صادقٌ[٧].

وقد ساق الإمام ابن جرير بعد ذكره لهذا القول توجيه، حيث قال[٨]: فأما الذين قالوا: ﴿الم﴾ اسم من أسماء القرآن، فلقولهم ذلك وجهان:

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢٠٥، وذكرهم الإمام الطوسي في تفسيره التبيان جـ ١/ ٤٧، وابن الجوزي في زاد المسير جـ ١/ ١٨، والطبرسي في مجمع البيان في تفسير القرآن جـ ١/ ٤٥- تحقيق/ إبراهيم شمس الدين- منشورات محمد علي بيضون- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.

(٢) معالم التنزيل جـ ١/ ٤٤.

(٣) ينظر تفسير القرآن للإمام عبد الرازق بن همام الصنعاني المتوفى سنة ٢١١هـ -جـ ١/ ٣٩ تحقيق / د. مصطفى مسلم محمد- مكتبة الرشد- الرياض- الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٨٦م.

وينظر تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله -ﷺ- والصحابة والتابعين -تأليف/ الإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي بن أبي حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هـ -تحقيق/ أسعد محمد الطيب- جـ ١/ ٣٣- الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م- مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة- الرياض، والأثر ذكره الإمام السيوطي في الإتقان جـ ٣/ ٢٥.

(٤) مفاتيح الغيب جـ ٢/ ٧٢، وينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري جـ ١/ ٢٤١.

(٥) المحرر الوجيز جـ ١/ ٨٢، وذكره الإمام السيوطي في الإتقان جـ ٣/ ٢٥.

(٦) تفسير ابن كثير جـ ١/ ٢٥١.

(٧) تأويل مشكل القرآن ص ٢٩٩.

(٨) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢١١.

أحدهما: أن يكونوا أرادوا أن ﴿الم﴾ اسم للقرآن، كما الفرقان اسم له، وإذا كان معنى قائل ذلك كذلك، كان تأويل قوله: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، على معنى القسم، كأنه قال: والقرآن، هذا الكتاب لا ريب فيه.

والآخر منهما: أن يكونوا أرادوا أنه اسم من أسماء السورة التي تعرف به، كما تعرف سائر الأشياء بأسمائها التي هي لها إمارات تعرف بها، فيفهم السامع من القائل بقول: قرأت اليوم ﴿المص﴾ و ﴿ن﴾ أي السور التي قراها من سورة القرآن، كما يفهم عنه إذا قال: لقيت اليوم عمر وزيدًا، وهما يزيد وعمرو عرافان من الذي لقي من الناس » ا هـ.

وعلق الإمام ابن كثير -رحمه الله- على هذا القول بقوله[1]:

ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه اسم من أسماء ﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ﴾[2]، و﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ﴾[3] ا هـ.

ولعل ابن عاشور أراد بكلامه هذا، أن الذين ذهبوا بالقول أن هذه الحروف المقطعة أسماء القرآن، قد استندوا في ذلك إلى ورود ذكر القرآن أو الكتاب بعد هذه الحروف مباشرة، فهو يبطل هذا القول، بأن بعض السور التي استهلت بحروف التهجي لم تتعرف للحديث عن القرآن أو الكتاب بعد هذه الحروف لا تصريحًا ولا تلميحًا نحو سورة مريم، وسورة العنكبوت، وسورة الروم، ففي سورة مريم ذكر بعد الحروف المقطعة فيها دعاء سيدنا زكريا -عليه السلام-، والعبرة من قصته، وفي سورة العنكبوت جاء الحديث بعد هذه الحروف عن الابتلاء والاختبار، وأنه منحة من الله تبارك وتعالى للمؤمنين، وفي سورة الروم جاء الحديث بعدها عن إنباء الله تعالى بشيء من علم الغيب ألا وهو، ما سيكون لأهل الروم على الفرس من الغلبة والنصر المبين.

وقد رفض هذا القول د/ رمضان عبد التواب. حيث ذكر أن هذا الرأي صحيح، يمكن أن يسقط من حسابنا، واعتمد في ذلك على وجود فرق بين التسميتين، قال: فإن الفرقان، والذكر، والكتاب.. إلخ لها معان واضحة مفهومة، بعكس تلك الرموز، وحتى لو سلمنا بأن التسمية قد تكون أحيانًا عديمة المعنى؛ كأن يسمي إنسان ابنه «بشخنعب» مثلا، فإن الكلام لا يستقيم، إذا رفعنا الكثير من هذه الرموز، ووضعنا بدلاً منها لفظ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١/ ٢٥١.
(٢) سورة الروم آية: (١، ٢).
(٣) سورة العنكبوت آية: (١/ ٢).

القرآن، مثل ﴿كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[1]، القرآن ذكر رحمة ربك عبده زكريا. [2]. اهـ.

كما رفض هذا القول أيضًا الدكتور عبد الجبار شرارة، معتمدًا في ذلك على نقض الإمام ابن كثير رحمه الله-، وعلى ما ذكره الدكتور رمضان عبد التواب، وأضاف إليهما أن التسمية بهذه الأحرف للقرآن لم تشتهر بين العلماء، وليس للتسمية بها وجه حكمة معقولة[3].

ولكن ما أميل إليه وأرجحه، أن الحروف المقطعة لا تعد اسمًا من أسماء القرآن الكريم.

وذلك لما يلي:

أولاً: أنها لو كانت اسمًا من أسماء القرآن، لما ذكر بعدها اسم القرآن، إذ المناسب أن يذكر وصفه؛ لأن ذلك يعد تكرارًا للاسم فمثلاً: لو كانت ﴿الم﴾ اسمًا للقرآن، كان المعنى:

القرآن ذلك الكتاب، وفي هذا تكرار للمسمى.

وكونها أسماء للقرآن يقتضي أن تكون الآية (الم ذلك لا ريب فيه)، ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ !! وهذا لا يصح.

ثانيًا: أن الحق تبارك -وتعالى- قد سمى القرآن بأسماء وأوصاف، جاءت في مواضع كثير من القرآن الكريم منها على سبيل المثال لا الحصر:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[4].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[6].

---

(١) سورة مريم آية: ١.

(٢) حول فواتح بعض سور القرآن الكريم للدكتور/ رمضان عبد التواب مدرس فقه اللغة بكلية الآداب جامعة عين شمس ص ١٧٠- مجلة كلية الآداب بجامعة عين شمس القاهرة- المجلد الثامن- سنة ١٩٦٣.

(٣) الحروف المقطعة في القرآن الكريم للدكتور/ عبد الجبار محمد حسين شرارة ص ٣٠، ٣١، مطبعة الإرشاد بغداد – ط ١٩٨٠.

(٤) سورة يوسف آية: ١.

(٥) سورة الزخرف آية: ٣.

(٦) سورة الحجر آية: ٩.

وقـــوله -عز وجل- ﴿اللَّهُ نزلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُـــودُ الَّـــذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[١].

إلى غـــير ذلـــك من الأسماء والأوصاف التي سمى الله -عز وجل- بها كتابه المجيد، وجاء ذكرها في آيات القرآن الحكيم.

وكـــذلك عنيت السنة النبوية المطهرة، بأسماء القرآن الكريم، وأوصافه، فمنها ما رواه الإمـــام مالـــك في موطأه أن رسول الله ﷺ قال: «تركت فيما أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله، وسنة نبيه»[٢].

وأخـــرج الإمـــام التـــرمذي والإمام الدارمي -رحمهما الله- بسندهما من حديث الحارث الأعور أنه قال:

«مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي، فقلت: يا أمير المؤمنين ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث؟

قال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومـــن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين،وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.... »إلخ[٣].

ومن هذه الآيات والأحاديث نفهم أن الله -تبارك وتعالى- قد سمى القرآن الكريم بأسماء متعددة، ولو كانت هذه الحروف اسمًا من أسماء القرآن لكان الحق -تبارك وتعالى- دلنا عليها، ووضحها لنا النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي.

القول الثالث:

إن هذه الحروف الفواتح أسماء الله تعالى افتتح بها بعض سور القرآن. وهذا القول وارد عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وعن سعيد بن جبير، عن ابن مسعود، والشعبي، وعامر، والسدي وغيرهم، وقد أثر عن الإمام علي -كرم الله وجهه- من القول ما يفيد ذلك.

---

(١) سورة الزمر آية: ٢٣.

(٢) سبق تخريجه في ص ٨٣.

(٣) سبق تخريجه.

أخـــرج ابن جرير[١]، وابن أبي حاتم[٢] عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: ﴿الم﴾ اسم من أسماء الله الأعظم».

وروى الإمام الطبري عن محمد بن المثنى، عن أبي النعمان، عن شعبة، عن السدي، عـــن مـــرة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال عن هذه الحروف: «هي اسم الله الأعظم »[٣].

وقد وصف الإمام السيوطي هذا السند بالصحة[٤].

وأخرج ابن جرير[٥] بأسانيده عن الشعبي قال: «فواتح السور من أسماء الله ».

وقـــد ذكر الإمام ابن عطية في تفسيره[٦]، أن الإمام علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- وابن عباس -رضي الله عنهما- قالا:

«الحروف المقطعة في القرآن، هي اسم الله الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها ».

وأخرج البيهقي في[٧] -الأسماء والصفات- عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قـــال في قـــوله تعـــالى: ﴿كهيعص﴾، ﴿طه﴾، و ﴿طس﴾، و ﴿طسم﴾، و ﴿يس﴾، و﴿ص﴾، و ﴿حم عسق﴾، و ﴿ق﴾، ونحو ذلك:

قسم أقسمه الله تعالى، وهي من أسماء الله -عز وجل-.

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن جـــ ١/ ٢٠٦.

(٢) تفسير ابن حاتم جـــ ١/ ٣٢، كما أخرجه عنه أيضًا من طريق السدي.

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن جـــ ١/ ٢٠٦، وينظر تفسير ابن مسعود ص ١٧، وتفسير النسفي للإمام الجليل أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي المتوفى سنة ٧١٠ هـــ -جـــ ١/ ٩- دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان.

(٤) الإتقان في علوم القرآن جـــ ٣/ ٢٤- وقد أخرج الإمام السيوطي هذا القول أيضا عن ابن مسعود من طريق ابن جريج في الدر المنثور في التفسير المأثور جـــ ١/ ٥٧.

(٥) جامع البيان عن تأويل القرآن جـــ ١/ ٢٠٦.

(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز جـــ ١/ ٨٢، وفتح القدير للشوكاني جـــ ١/ ٣٧.

(٧) كتاب الأسماء والصفات للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـــ تحقيق/ عبد الله بن محمد الحاشدي- جـــ ١/ ٢٣٠- ط الأولى ١٤١٣هـــ ١٩٩٣م – جدة- المملكة العربية السعودية-، والأثر رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهم- ينظر صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم ص ٧٧- تحقيق/ راشد عبد المنعم الرجال -مكتبة السنة- الدار السلفية لنشر العلم -القاهرة- ط الأولى ١٤١١هـــ - ١٩٩١ م، والأثر أخرجه الإمام الطبري في تفسيره عنه أيضًا جـــ ١/ ٢٠٨-، وأورده الإمام السيوطي في الدر المنثور في التفسير المأثور جـــ ١/ ٥٦، ٥٧، وعزاه إلى ابن جرير، وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس.

وأخرج البيهقي[1] أيضا في -الأسماء والصفات-:

عن السدي قال: «فواتح السور من أسماء الله -عز وجل- »

وروى عن الإمام علي -كرم الله وجهه- أنه كان يقول: «يا كهيعص، يا حم عسق»[2].

وقد أثبت الإمام السيوطي هذا القول في إتقانه وهو أن ﴿الم﴾ و ﴿طسم﴾ و﴿ص﴾ وأشباهها «أنها برمتها أسماء الله تعالى ».

ويؤيده ما أخرجه ابن ماجه في تفسيره من طريق نافع بن أبي نعيم القارئ، عن فاطمة بنت علي بن أبي طالب أنها سمعت علي بن أبي طالب يقول: يا (كهيعص) اغفر لي، وما أخرجه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله ﴿كهيعص﴾ قال: يا من يجير ولا يجار عليه »[3].

وعلق الإمام ابن عطية -رحمه الله- على هذا الدعاء، بأنه يحتمل أن يكون ﴿كهيعص﴾ اسمًا من أسماء الله، ويحتمل أن يكون عليٌ أراد أن ينادي الله بجميع الأسماء التي تضمنها ﴿كهيعص﴾، كأنه أراد أن يقول: يا كريم، يا هادي، يا علي، يا عزيز، يا صادق، اغفر لي، فجمع هذا كله باختصار في قوله ﴿كهيعص﴾[4].

وقد تعقب الإمام البيضاوي قول الإمام علي -كرم الله وجهه- وأوله بتقدير مضاف حيث قال: «ولعله أراد يا منزلهما »[5].

وقد علل محيي الدين شيخ زاده تأويل الإمام البيضاوي لقول الإمام علي -كرم الله وجهه- بقوله[6]: لم يرض الفاتحتين المذكورتين من أسماء الله تعالى بل أولهما بتقدير المضاف بناء على أنه علم بالاستقراء أن أسماء الله تعالى لا تخلو من أن تدل على تعظيم

(١) الأسماء والصفات جـ ١/ ٢٣٣.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ٩/ ٤٤- دار الفكر- بيروت- لبنان ط ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م – فقد أخرجه بسنده عن فاطمة ابنة علي قالت: كان علي يقول: «يا كهيعص اغفر لي»، وأخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير- باب تفسير سورة مريم جـ ٢/ ٤٠٣، وقد ذكره الإمام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب جـ ٢/ ٧، وذكره أيضًا البيضاوي في تفسيره جـ ١/ ١٤٢.

(٣) الإتقان في علوم القرآن جـ ١/٣٤- النوع الثالث والأربعون.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز جـ ٩/ ٤٢٤.

(٥) ينظر تفسير البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جـ ١/ ١٤٢.

(٦) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـ ١/ ١٤٢، ١٤٣.

أو تنزيه ما يرجع إليهما، والفواتح ليست كذلك، فلذلك أول قوله أي قول الإمام علي - رضي الله عنه- بحمله على ما يدل على التعظيم، لاسيما أن أسماء الله تعالى توفيقية، ولم يرد من الشرع إذن صريح بإطلاق هذه الفواتح عليه تعالى. ا هـ.

وقال القاضي عياض -رحمه الله- في ﴿ق﴾: اسم الله[١].

ونقل الإمام القرطبي[٢] -رحمه الله- إن أشهب سأل مالكًا:

هل ينبغي لأحد أن يتسمى بـ ﴿ياسين﴾؟

قال: ما أراه ينبغي لقول الله تعالى ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[٣].

يقول: هذا اسمي يس.

قال ابن عربي[٤]: هذا كلام بديع، وذلك أن العبد يجوز له أن يتسمى باسم الرب، إذا كان فيه معنى منه، كقوله: عالم، وقادر، ومريد، ومتكلم، إنما منع مالك من التسمية بـ ﴿يس﴾؛ لأنهما اسم من أسماء الله لا يدري معناه؛ فربما كان معناه ينفرد به الرب، فلا يجوز أن يقدم عليه العبد.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿سَلاَمٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[٥]؟

قلنا: ذلك مكتوب بهجاء فتجوز التسمية به، وهذا الذي ليس بمتهجي هو الذي تكلم.

الوجه الثاني لهذا القول: - على اعتبار أن ما ذكر في أول هذا القول يعد وجهًا أول فالوجه الثاني: أنها أبعاض أسماء الله تعالى بعضها يعلم كيفية تركيبه منها وبعها لا يعلم.

قال قوم: إنها حروف، إذا وصلت كانت هجاء لشيء يعرف معناه، وقد أوتي بعض الناس علم ذلك، وذلك أن بعضهم كان يقول: ﴿الر﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿ن﴾ هذا اسم الرحمن -جل وعز- وما بقي منها فنحو هذا.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى اليحصبي المتوفى سنة ٥٤٤هـ جـ ١/ ٣٤- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٥- ٨.
(٣) سورة يس الآية: (١، ٢).
(٤) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي المتوفى ٥٤٣هـ - جـ ٤/ ١٦٠٨- تحقيق/ علي محمد البجاوي- ط دار الفكر.
(٥) سورة الصافات الآية: ١٣٠.

وقالــوا: إن قــوله ﴿كهيعص﴾ كاف هاد عالم صادق، فأظهر من كل اسم منها حرفا ليستدل به عليها »[١].

وممــا يدل لهذا الوجه ما أخرجه ابن جرير[٢] بأسانيده عن سعيد بن جبير -رضي الله عــنه-، وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قالا: (الر، حم، ونون) هو اسم الرحمن، فهي حروف الرحمن مقطعة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم... عن عامر أنه سئل عن (الم، والر، وحم، ص) قال: «هي اسم من أسماء الله مقطعة بالهجاء، فإذا وصلتها كانت اسمًا من أسماء الله »[٣].

وأخـــرج ابـــن أبي حاتم[٤]... عن السدي في (الم) أما (الم) فهو حرف اشتق من حروف اسم الله.

وروى البغوي في تفسيره[٥] عن سعيد بن جبير قال:

«هي أسماء الله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم ».

وأخرج البيهقي في[٦] -الأسماء والصفات-: عن ابن مسعود -رضي الله عنه- وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ:

(الم. ذلــك الكتاب)، أما (الم) فهو حرف اشتق من حروف هجاء أسماء الله -عز وجل-».

وأخرج أيضًا عن السدي قال: «فواتح السور من أسماء الله ﴿عز وجل﴾[٧].

وأخرج الإمام السيوطي عن سعيد بن جبير -رضي الله عنه- في قوله: (حم)، قال: جاء اشتقت من الرحمن، وميم اشتقت من الرحيم »[٨].

---

(١) معاني القرآن للأخفش الأوسط الإمام أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي البصري المتوفى سنة ٢١٥ هـــ جـــ ١/٢١- تحقيق د/ فائز فارس- ط الثانية ١٤٠١هـــ -١٩٨١م.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن جـــ ٧/ ٧٩، وينظر تفسير ابن أبي حاتم جـــ ١/ ٣٢.

(٣) ينظر جامع البيان جـــ ٧/ ٧٩، وتفسير ابن أبي حاتم جـــ ١/ ٣٢، والدر المنثور جـــ ١/ ٥٧.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم جـــ ١/ ٣٢.

(٥) تفسير البغوي جـــ ١/ ٤٥، والأثر رواه أيضا الإمام الواحدي في تفسيره البسيط جـــ ١/ ٤٥.

(٦) الأسماء والصفات جـــ ١/ ص ٢٣٢ وينظر تفسيره ابن مسعود ص ١٧.

(٧) الأسماء والصفات للبيهقي جـــ ١/ ٢٣٣- وجاء في تحقيقه أن إسناده حسن- وينظر الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي جـــ ١/ ٥٧.

(٨) الإتقان في علوم القرآن جـــ ٣/ ٢٣.

كما أخرج البيهقي[١] أيضًا في -الأسماء والصفات- عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهم- في قوله تعالى- ﴿كهيعص﴾ قال:

«كاف من كريم، وها من هادي، ويا من حكيم، وعين من عليم، وصا من صادق».

وقد أخرج ابن جرير بسنده[٢] عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قال: ﴿كهيعص﴾ ليس منها حرف إلا وهو اسم من أسماء الله تعالى.

وروى البغوي في تفسيره[٣] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله ﴿كهيعص﴾ قال: «الكاف من كريم وكبير، والهاء من هاد، والياء من رحيم، والعين من عليم وعظيم، والصادق من صادق».

وذكر ابن الجوزي أنها حروف من أسماء، فإذا ألقت ضربًا من التأليف كانت أسماء من أسماء الله -عز وجل-.

ونقل عن علي بن أبي طالب: هي أسماء مقطعة لو علم الناس تأليفها علموا اسم الله الذي إذا دعي به أجاب[٤].

ومما يعتضد لهذا الوجه أيضًا، ما روي عن الأئمة ابن عطية والقرطبي، وأبو حيان في تفاسيرهم عن الإمام علي -كرم الله وجهه- وابن عباس -رضي الله عنهما- أنهما قالا: الحروف المقطعة في القرآن هي اسم الله الأعظم، إلا أنا لا نعرف كيفية تأليفه منها[٥]».

ونقل الإمام الرازي عن سعيد بن جبير قال: «قوله (الر، حم، ن) مجموعها اسم

---

(١) الأسماء والصفات جـ ١/ ٢٣٠، ٢٣١، وجاء في تحقيقه: إسناده ضعيف من أجل عطاء ابن السائب فإنه اختلط بآخره، وبقية رجال السند ثقات، والأثر أخرجه الحاكم في المستدرك جـ ٢/ ٣٧١، ٣٧٢، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
وينظر جامع البيان جـ ٩/ ٤١: ٤٤، وينظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٩٩.

(٢) جامع البيان جـ ٩/ ٤٥.

(٣) معالم التنزيل جـ ١/ ٤٤، والأثر رواه عنهما أيضا الإمام عبد الرازق في تفسيره جـ ٢/ ٣ بلفظ قال: (كهيعص) قال: (كاف) من كافي، و (يا) من حكيم، و (عين) من عليم و (ها) من هاد، و (صاد) من صادق.

(٤) زاد المسير في علم التفسير جـ ١/ ١٦.

(٥) ينظر المحرر الوجيز جـ ١/ ٨١، البحر المحيط جـ ١/ ٥٨، والجامع لأحكام القرآن جـ ١/ ١٧٣.

الرحمن، ولكنا لا نقدر على كيفية تركيبها في البواقي »[1].

ونقل السمرقندي في تفسيره[2]: عن علي -رضي الله عنه- أنه قال: «هو اسم من أسمـــاء الله تعـــالى فرقت حروفه في السور» يعني أن هاهنا قد ذكر (الم)، وذكر (الر) في موضع آخر، (حم) في موضع آخر، (نون) في موضع آخر فإذا جمع يكون الرحمن، كذلك سائر الحروف إذا جمع يصير اسمًا من اسماء الله » ا هـــ.

وقال الإمام القشيري[3] -رحمه الله-:

«المـــر: أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه أن هذه آيات الكتاب الذي أخبرت أني أنزله عليك، فالألف تشير إلى اسم الله، واللام تشير إلى اسم اللطيف، والميم تشير إلى اسم المجيد، والراء تشير إلى اسم الرحيم، فقال: بسم الله اللطيف المجيد الرحيم أن هذه آيات الكتاب الذي أخبرت أني أنزله على محمد ﷺ» ا هـــ.

وقد ذكر الشيخ الطاهر بن عاشور هذا الوجه وعده من ضمن الأقوال في الحروف المقطعـــة، فهـــو عنده حسب تصنيفه القول الحادي عشر حيث قال: «إن كل حروف مـــركبة منها هو اسم من أسماء الله، رووا[4] عن علي -كرم الله وجهه- أنه كان يقول يا كهيعص يا حم عسق، وسكت عن الحروف المفردة فيرجع بها إلى ما يناسبها أن تندرج تحـــته مـــن الأقوال. وأبطل هذا القول، فقال: ويبطله عدم الارتباط بين بعضها وبين ما بعده، لأن يكون خبرًا أو نحوه عن اسم الله مثل:

﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، و ﴿المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ا هـــ.

الوجه الثالث:

أن كـــل حرف من الحروف المقطعة رمز إلى اسم من أسماء الله تعالى، وصفة من صفاته -بمعنى أن كل حرف منها مفتاح لاسم من أسمائه تعالى أو صفة من صفات الذات أو الأفعال لله تعالى.

كما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال في (الم).

---

(١) مفاتيح الغيب جـــ ٢/ ٧.

(٢) تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم جـــ ١/ ٤٧.

(٣) لطائف الغشارات لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـــ - جـــ ٢- ٢١٥- تحقيق أ.د/ إبراهيم بسيوني – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب –ط الثانية ١٤٠١هـــ – ١٩٨١م- مصورة عن ط الأولى ١٣٩١ هـــ- ١٩٧١م.

(٤) ينظر جامع البيان للطبري جـــ ٩/ ٤٤، والتحرير والتنوير جـــ ١/ ٢١١، ٢١٢.

الألف إشارة إلى أن الله تعالى أحد، أول، آخر، أزلي، أبدي، واللام إشارة إلى أنه لطيف، والميم إشارة إلى أنه مالك مجيد منان»[١].

ويكون معناه: الله اللطيف المجيد أنزل الكتاب[٢].

وروى عـــنه أيضا: «الألف من الله، واللام من لطيف، والميم من مجيد، أو الألف من آلائه، واللام من لطفه، والميم من مجده»[٣].

وروى الإمام البغوي في تفسيره، عن محمد بن كعب:

«الألف آلاء الله، واللام لطفه، والميم، ملكه»[٤].

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي، قال (المص) الألف من الله، والميم من الرحمن، والصاد من الصمد».

وأخرج ابن أبي حاتم[٥] عن محمد بن كعب في قوله (طسم): قال: «الطاء من ذي الطول، والسين من القدوس، والميم من الرحمن.

وأخرج عنه أيضًا: في قوله (حم عسق) قال: «الحاء والميم من الرحمن، والعين من العليم، والسين من القدوس، والقاف من القاهر».

وحكى الكرماني في قوله: (ق) إنه حرف من اسمه قادر، وقاهر.

وحكى غيره في قوله: (ن) إنه مفتاح اسمه تعالى: نور، وناصر»[٦].

وقـــد ذكر الإمام الرازي هذا الوجه متشعبًا في الوجهين الخامس والسابع حسب تـــصنيفه، وعـــد كلا منها وجوهًا مستقلة في المراد من الأحرف المقطعة، ولكن باعتبار مطلق الدلالة على أن كل حرف من الحروف الفواتح تدل على اسم أو أكثر أو صفة من صـــفات الـــذات أو الأفعال لله تعالى، لا باعتبار كون كل حرف منها مفتاحًا لاسم من أسمائه تعالى، أو صفة من صفاته.

ففـــي الوجه الخامس قال: "إن كل واحد منها دل على اسم من أسماء الله تعالى،

(١) مفاتيح الغيب جـ ١/ ٧، وحاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـ ١/ ١٣٢.

(٢) تفسير السمرقندي جـ ١/ ٤٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١/ ١٧٣، وينظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس لأبي طاهر يعقوب الفيروز آبادي ص ٣- دار الفكر- بيروت- طبعة الأنوار المحمدية.

(٤) معالم التنـــزيل للبغوي جـ ١/ ٤- وينظر الدر المنثور للسيوطي جـ ١/ ٥٧، ٥٩.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم جـ ٨/ ٢٧٤٧.

(٦) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٣/ ٢٢، ٢٣.

وصفة من صفاته، وذكر قول ابن عباس السابق ذكره، وقوله في (كهيعص) إنه ثناء من الله تعالى على نفسه، والكاف يدل على كونه كافيا، والهاء يدل على كونه هاديا، والعين يدل على العالم، والصاد يدل على الصادق.

وذكـــر ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- إنه حمل الكاف على الكبير والكريم، والياء على أنه يجير، والعين على العزيز والعدل"[١].

وقد استشعر الإمام الرازي أنه قد تناول في هذا الوجه، قولين لابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير (كهيعص) ففرق بينهما قائلا:

«والفـــرق بين هذين الوجهين: أنه في الأول خصص كل واحد من هذه الحروف باسم معين، وفي الثاني ليس كذلك.

ثم قـــال في الـــوجه السابع: كل واحد منها [أي من الحروف المقطعة] يدل على صـــفات الأفعال، فالألف آلاؤه، واللام لطفه، والميم مجده، قاله محمد بن كعب القرظي، وقال الربيع بن أنس: ما منها حرف إلا في ذكر آلائه ونعمائه »[٢].

ويلاحظ أيضا أن الإمام الرازي في الوجه الخامس عشر حسب تصنيفه قال[٣]:

روى ابـــن الجوزي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن هذه الحروف ثناء أثنى الله -عز وجل- به على نفسه» ا هـــ.

فقـــد اعتبره وجها مستقلا ضمن الوجوه التي ذكرها في المراد بالحروف الفواتح، علـــى الرغم من أنه ذكر ضمن الوجه الخامس حسب تصنيفه عند ذكر قول ابن عباس - رضي الله عنهما- في قوله (كهيعص) فقال: إنه ثناء من الله تعالى على نفسه.

وقـــد تعقـــب الطاهر بن عاشور هذا الوجه وهو أن هذه الحروف مفاتيح لأسماء وصفات لله تعالى بقوله: وعلى هذا يحتاج في بيانها إلى توقيف وأنى لهم به[٤] ا هـــ.

إذ أن أسماء الله تعالى لا نقف عليها إلا بالنصوص الصريحة.

الوجه الرابع:

أن هـــذه الحروف الفواتح بعضها يدل على أسماء الذات وبعضها يدل على أسماء الصفات أو الأفعال.

---

(١) مفاتيح الغيب جـــ ٢/ ٧.
(٢) مفاتيح الغيب جـــ ٢/ ٨، ٩.
(٣) المرجع السابق.
(٤) التحرير والتنوير جـــ ١/ ٢٠٧.

أخرج ابن جرير[١] بسنده عن الربيع بن أنس في قوله تعالى:

(الم) قال: «ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو في آلائه وبلائه ».

وقال: الألف مفتاح اسمه «الله »، واللام مفتاح اسمه «لطيف »، والميم مفتاح اسمه «مجيد ».

الألف آلاء الله، واللام لطفه، والميم مجده ».

وأخرج أيضًا بسنده[٢] عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال في تفسير (الم): «أنا الله أعلم ».

وقد ذكر هذا التفسير أيضًا في (الم) عن سعيد بن جبير[٣].

وقال الضحاك بن مزاحم: كل (الم) في القرآن: «أنا الله أعلم »[٤].

وأخرج البيهقي في[٥] -الأسماء والصفات-... عن شريك عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس -رضي الله عنهما-:

(المص) قال: أنا الله أفصل، (المر) قال: أنا الله أرى ».

وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهم- أنه قال: معنى (الم) أنا الله أعلم، ومعنى (المص) أنا الله أعلم وأفصل، ومعنى (الر) أنا الله أرى، ومعنى (المر) أنا الله أعلم وأرى »[٦].

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢٠٨، وينظر زاد المسير لابن الجوزي جـ ١/ ١٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢٠٧، وينظر تفسير ابن أبي حاتم جـ ١/ ٣٢، وتنوير المقياس من تفسير ابن عباس ص ٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢٠٧، وينظر معاني القرآن الكريم للنحاس جـ ١/ ٣٧.

(٤) تفسير الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد وقيل أبو القاسم صاحب التفاسير المتوفى سنة ١٠٥ هـ جـ ١/ ٢٤٢- تحقيق د/ محمد شكري أحمد الزاويتي- دار السلام- القاهرة- ط الأولى ١٤١٩هـ -١٩٩٩م.

والأثر ذكره الإمام الواحدي في تفسيره الوسيط جـ ١/ ٢٥، عن الضحاك ثم قال: وهذا اختيار الزجاج -وأيضا في تفسيره البسيط جـ ١/ ٤٦.

(٥) كتاب الأسماء والصفات جـ ١/ ٢٣٢- وجاء في تحقيقه: إسناده ضعيف فيه شريك وهو ابن عبد الله القاضي ضعيف، وعطاء بن السائب مختلط وبقية رجاله ثقات معروفون، والله أعلم - ينظر هامش ص ٢٣٢ من كتاب الأسماء والصفات.

(٦) معالم التنزيل للبغوي جـ ١/ ٤٤- وأخرجه السيوطي عن ابن أبي حاتم وغيره من طريق أبي الضحى- ينظر الإتقان جـ ٣/ ٢١، ومفاتيح الغيب للرازي جـ ١/ ٧، ٨، والجامع لأحكام =

وأخرج السيوطي عن الضحاك في قوله: (المص) قال: «أنا الله الصادق»[١].

كما حكى السيوطي عن الكرماني في (الر) معناه: «أنا الله أعلم وأرفع»[٢].

وقيل: في (المص) أنا الله الملك الصادق[٣].

وقـال الكلبي في (كهيعص) معناه: «كاف لخلقه هاد لعباده يد فوق أيديهم عالم سريتهم صادق في وعده »[٤].

فهي حروف مأخوذة من صفات الله -تعالى- الكاف من كاف، والهاء من هاد.. إلى آخره[٥].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: (كهيعص) قال:

«يقول: أنا الكبير الهادي، عليُّ، أمين صادق »[٦].

وقد تعقب الإمام ابن عاشور هذا الوجه بقوله[٧]:

«ويوهنه أنه لا ضابط له، لأنه أخذ مرة بمقابلة الحرف بحرف أول الكلمة، ومرة بمقابلته بحرف وسط الكلمة أو آخرها » ا هـ.

ويقول الدكتور/ عدنان زرزور[٨] معقبا على هذا الوجه: «ولكن الذي يؤخذ على هـذا التفسير التحكم والافتقار إلى قاعدة مطردة، أو منضبطة فقوله تعالى: (المص) مثلا ليس هنالك ما يؤكد حمله على تفسير ابن عباس السابق، دون تقول مثلا: أنا الله أفضل أو أصور، والميم من (الم) ربما كانت من المجيد والماجد إلى آخره».

القرآن للقرطبي جـ ١/ ٨٢، وتفسير السمرقندي والمسمى بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي جـ ١/ ١٤٦، والتحرير والتنوير لابن عاشور جـ ١/ ٢٠٩.

(١) الإتقان في علوم القرآن جـ ٣/ ٢٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) معالم التنزيل للبغوي جـ ١/ ٤٤.

(٤) المرجع السابق.

(٥) ينظر التبيان في تفسير غريب القرآن للإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري المتوفى سنة ٨١٥ هـ - ص ٥٤- تحقيق د. فتحي أنور الدابولي الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية -جامعة الأزهر- دار الصحابة للتراث بطنطا- الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢م.

(٦) الإتقان في علوم القرآن جـ ٣/ ٢٣.

(٧) التحرير والتنوير جـ ١/ ٢٠٩.

(٨) مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه ص ١٥٤، ١٥٥.

الوجه الخامس:

أن هذه الحروف الفواتح بعضها يدل على أسماء الله تعالى، وبعضها يدل على أسماء غير الله.

ويستند هذا الوجه إلى ما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- والضحاك في قوله (الم):

«الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، كأنه قيل: أنزل الله الكتاب على لسان جبريل إلى محمد -عليهما الصلاة والسلام-»(١).

وقد عقب الإمام ابن الجوزي على هذا قائلا: «فإن قيل: إذا كان قد تنول من كل اسم حرفه الأول اكتفاء به، فلم أخذت اللام من جبريل وهي آخر الاسم؟!

فالجواب: أن مبتدأ القرآن من الله -تعالى-، فدل على ذلك بابتداء أول حرف من اسمه، وجبريل انختم به التنزيل والإقراء، فتنول من اسمه نهاية حروفه، ومحمد مبتدأ في الإقراء، فتنول أول حروفه »(٢).

وذهب الدكتور/ علي حلمي موسى(٣): إلى أن هذه الحروف أسماء أنبياء واستدل على ذلك بعقد صلة بين كل فاتحة واسم النبي أو الأنبياء المذكورين في سورتها، حيث قال: «أثبت الإحصاء القرآن ورود أسماء الأنبياء في ٤٩ سورة من سور القرآن، منها ١٨ سورة وردت بها أسماء الأنبياء بكثرة، وهي البقرة وآل عمران، والنساء والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، ومريم وطه، والأنبياء والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والصافات، وص. ومنها ثلاث مسماه بأسماء الأنبياء، يونس، وهود، ويوسف، وخمس لابتدأ بحروف، وعشر إذا رتبت تاريخيًا ظهرت في ثلاث مجموعات كالآتي:

---

(١) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية جـ ١/ ٨٢، ومفاتيح الغيب للرازي جـ ٢/ ٨، وحاشية محي الدين زاده على تفسير البيضاوي جـ ١/ ١٣٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١/ ١٧٣، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري جـ ١/ ٢٤٢، وتنوير المقباس لابن عباس ص ٣- والتسهيل لابن جزي جـ ١/ ٦٠-ومجمع البيان للطوسي جـ ١/ ٤٥، ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني جـ ١/ ١٩٧.

(٢) زاد المسير في علم التفسير جـ ١/ ١٧، ١٨.

(٣) الدكتور علي حلمي موسى متخصص في الفيزياء، وقد قام بعمل بعض الدراسات الإحصائية عن ترددات الحروف العربية في جذور أهم معاجم اللغة عن طريق الكمبيوتر -ينظر جريدة الأهرام بتاريخ ٣/ ٣/ ١٩٩٣م - ص١٣.

الأولى: ص، والمص، وكهيعص:

الثانية: طه، طسم، طس.

الثالثة: الم

وبالدراســـة المتأنـــية نستنتج أن حرف الصاد هو للدلالة على ورود أسماء الأنبياء ويشير حرف الكاف في (كهيعص) إلى زكريا، والهاء، إلى إبراهيم، والياء إلى يحيى، والعين إلى عيسى، ويظهر الهاء في سورة (طه) رمزا إلى هارون لأنه ورد في هذه السورة أكثر من أي سورة أخرى » ا هـــ.

وقد استبعد ابن عاشور هذا الوجه فقال وهو في معرض التعقيب عليه(١):

«ولا بدَّ من توقيف في كل فاتحة منها» ا هـــ.

وقد استبعدت الدكتورة عائشة هذا التفسير(٢).

وهذه الأوجه التي ذكرت، كلها راجعة إلى قول واحد وهو: أنها حروف مقطعة، كـــل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى أو صفة من صفاته، فهذه الوجوه كلها ترجع إلى ما هو معهود في لغة الضاد من الاكتفاء ببعض الكلمة عن كلها، فهو معهود في العـــربية، فهذه الحروف المقطعة دالة على كلمات أخذت منها وحذفت بقيتها، وهو ما أشار إليه ابن قتيبة ووضحه بأن مثل ذلك وهو الاكتفاء ببعض الكلمة عن كلها، إنما هو فن من اختصار العرب فهو معهود في كلامهم واستعمالاتهم، موضحًا ما أشار إليه بأمثلة مـــن استعمالات العرب في كلامهم، مما يشعر بأنه قد اطمأن إلى هذا الرأي، فأخذ يثبت أن انتحاء القرآن هذا النحو ليس شيئًا غريبًا أو شاذًا في لغة العرب، وهو أول من دافع عن هذه المختصرات حيث قال:

«وإن كانت حروفًا مأخوذة من صفات؛ فهذا فن من اختصار العرب؛ وقلما تفعل العرب شيئًا في الكلام المتصل الكثير إلا فعلت مثله في الحرف الواحد المنقطع.

فكما يستعيرون الكلمة فيضعونها مكان الكلمة لتقارب ما بينهما، أو لأن إحداهما سبب للأخرى؛ فيقولون للمطر: سماء؛ لأنه من السماء ينزل، ويقولون للبنات: ندى؛ لأنه بالندى ينبت، ويقولون: ما به طرق؛ أي ما به قوة، وأصل الطرق: الشحم، فيستعيرونه مكان القوة؛ لأن القوة تكون عنه.

(١) التحرير والتنوير جـــ ١/ ٢٠٧.

(٢) الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق ص ١٢٩، ١٣٧.

كـذلك يستعيرون الحـرف في الكلمة مكان الحرف فيقولون: «مدهته» بمعنى «مدحته»؛ لأن «الحاء» و«الهاء» يخرجان جميعا من مخرج واحد، ويقولون للقبر: حدث وجدف، في أشباه، لهذا كثيرة يبدلون فيها الحرف من الحرف؛ لتقارب ما بينهما.

وكمـا يقلبون الكلام ويقدمون ما سبيله أن يؤخر، ويؤخرون ما سبيله أن يقدم، فيقولون: «كان الزناء فريضة الرجم ». أي كان الرجم فريضة الزنا.

ويقولون: اعرض الناقة على الحوض، يريدون أعرض الحوض على الناقة ».

وكـذلك يقدمـون الحروف في الكلمة وسبيله التأخير، ويؤخرون الحرف وسبيله التقديم، فيقولون: جَذبَ وجَبَذَ، وبئر عميقة ومعيقة، وأحجمتُ عن الأمر وأحجمتُ...

وكما يزيدون في الكلام الكلمة والمعنى طرحها، كقول الشاعر:

فَما ألومُ البيضَ الا تسْخَرا

يريد: أن تسخر.

ويزيدون إذ، واللام، والكاف، والباء، وأشباه لهذا مما ذكرناه.

في باب المجاز كذلك يزيدون في الكلمة الحرف، كما قال المفضل العبدي:

وبَعضُهُمُ على بُعضٍ حنيقُ

أي حنق:

وكما يحذفون من الكلام البعض إذا فيما أبقوا دليل على ما ألقوا، فيقولون: والله أفعل ذاك، يريدون: لا أفعل، ويقولون: أتانا فلان عن مغيب الشمس، أو حين، أي حين كادت تغيب..

وقال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾[1] أراد لكان هذا القرآن، فحذف.

وكـذلك يحذفـون من الكلمة الحرف والشطر والأكثر ويبقون البعض والشطر والحـرف، ويوحـون به ويؤمنون، يقولون «لم يك » فيحذفون النون مع حذفهم الواو لاجـتماع الساكنين، ويقولون: «لم أبل » يريدون: لم أبال، ويقولون: ولاك افعل كذا، يريدون، ولكن... ويحذفون في الترخيم[2]، فيقولون: يا صاح، يريدون يا صاحب، ويا

---

(١) سورة الرعد آية: ٣١.

(٢) الترخيم في اللغة: ترقيق الصوت، وفي الاصطلاح: حذف أواخر الكلم في النداء مثل: يا سعا، والأصل: يا سعاد- ينظر ابن عقيل جـ ٣/ ٢٨٧- ط مصر للطباعة.

حار يريدون: يا حارث.

وقرأ بعض المتقدمين: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[١] أي يا مالك.

ولم نزل نسمع على ألسنة الناس: الألف: آلاء الله، والباء: بهاء الله، والجيم: جمال الله، والميم: مجد الله- فكأنا إذا قلنا: (حم) دللنا بالحاء على حليم، ودللنا بالميم على مجيد. وهذا تمثيل أردت أن أُرِيَكَ به مكان الإمكان.

وعلى هذا سائر الحروف، ومن ذهب إلى هذا المذهب فلا أراه أراد أيضا إلا القسم بصفات الله، فجمع بالحروف المقطعة معاني كثيرة من صفاته، لا إله إلا هو.

وروى أن بعض السلف وأحسبه «عليًا » -رحمة الله عليه- قال: «الرحيم هو من الرحمن » اهـ.

كما وضح ذلك أيضًا الإمام الطبري أن مثل ذلك، وهو كون هذه الفواتح حروف دالة على كلمات أخذت منها وحذفت بقيتها إنما هو ظاهر في كلام العرب واستعمالاتهم، وهو أن ينقص من الكلمة حروفًا بشرط أن يكون ما بقي منها دلالة على ما حذف منها، ويزيد فيها ما ليس منها إذا لم تؤد هذه الزيادة إلى لبس، فإن مثل هذا وأراد في لغة العرب، وقد ذكر هذا وفصله عند توجيهه لهذا القول حيث قال[٢]:

«وأما الذين قالوا: هذه حروف مقطعة بعضها من أسماء الله -عز وجل- وبعضها من صفاته، ولكل حرف من ذلك معنى غير معنى الحرف الآخر، فإنهم نحوا بتأويلهم ذلك نحو قول الشاعر:

قلنا لها قفي لنا قالتْ قَافْ
لاَ تَحْسَبِي أنَا نَسينا الإيجافْ

يعني بقوله: «قالت قاف»، قالت: قد وقفت، فدلت بإظهار القاف من «وقفت»، على مرادها من تمام الكلمة التي هي «وقفت » فصرفوا قوله (الم) وما أشبه ذلك، إلى نحو هذا المعنى فقال بعضهم: الألف ألف «أنا »، واللام لام «الله، والميم ميم «أعلم » وكل حرف منها دال على كلمة تامة، قالوا: فجملة هذه الحروف المقطعة إذا ظهر مع كل حرف منهن تمام حروف الكلمة، «أنا الله أعلم » قالوا: وكذلك سائر جميع ما في

(١) سورة الزخرف آية: ٧٧، وهي قراءة شاذة- ينظر المحتسب في شواذ القراءات للعلامة ابن جني جـ ٢/ ٢٥٧- ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن ١/ ٢١٢: ٢١٤.

أوائـــل سور القرآن من ذلك، فعلى هذا المعنى وبهذا التأويل، قالوا: ومستفيض ظاهر في كلام العرب أن ينقص المتكلم منهم من الكلمة الأحرف، إذا كان فيما بقي دلالة على ما حــذف مــنها، ويزيد فيها ما ليس منها إذا لم تكن الزيادة ملبسة معناها على سامعها، كحـــذفهم في النقص في الترخيم من «حارث» الثاء «فيقولون: يا حار، ومن «مالك» الكاف، فيقولون: يا مال، وما أشبه ذلك، وكقول راجزهم:

باالخير خيرات وإن شرًّا فَا

يريد: فشرًّا.

ولا أريدُ الشرَّ إلا أنْ تَا

يريد: إلا أن تشاء.

فاكتفـــى بالـــتاء والفاء في الكلمتين جميعا، من سائر حروفها، وما أشبه ذلك من الشواهد التي يطول الكتاب باستيعابه.

قالوا: فكذلك ما نقص من تمام حروف كل كلمة من هذه الكلمات التي ذكرنا أنها تـــتمة حروف «الم» ونظائرها -نظير ما نقص من الكلام الذي حكيناه عن العرب في أشعارها وكلامها. ا هـــ.

وهذا القول قد اختاره أبو إسحاق الزجاج حيث قال[1]:

«والـــذي اختاره من هذه الأقوال التي قيلت في قوله -عز وجل- (الم) بعض ما يروي عن ابن عباس -رحمة الله عليه- وهو أن المعنى: (الم) أنا الله أعلم، وأن كل حرف مـــنها له تفسيره، والدليل على ذلك أن العرب تنطق بالحرف الواحد تدل به على الكلمة التي هو منها» ا هـــ.

وقد ساق عدة أبيات من الشعر تدل على ما ذكره، من ذلك.

نادوهمـــو أن الجمـــوا: ألاتـــا قالـــوا جمـــيعا كلـــهم ألافـــا

تفسيره: نادوهموا أن ألجموا، ألا تركبون، قالوا جميعا: ألا فاركبوا، فإنما نطق بتاء وفاء كما نطق الأول بقاف ثم قال: «فهذا الذي اختاره في هذه الحروف والله أعلم بحقيقتها».

وقد نقل هذا الاختيار الإمام البغوي في تفسيره[2]، كما نقله أيضا القرطبي فقال[3]:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج جـــ ١/ ٦٢، ٦٣.

(٢) معالم التنزيل جـــ ١/ ٤٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـــ ١/ ١٧٣، وينظر الإتقان في علوم القرآن جـــ ٣/ ٢٤.

واختار هذا القول الزجاج وقال: أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التي الحروف منها » ا هـ.

قال ابن فارس[١]: وهذا وجه جيد وهو أن كل حرف من الحروف الفواتح مأخوذ من اسم من أسمائه سبحانه وتعالى وله في كلام العرب شاهد » ا هـ.

وقد استدل القرطبي أيضًا على هذا القول بالحديث حيث قال[٢]: وفي الحديث «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة ».

قال شقيق: «هو أن يقول في اقتل: اق[٣] ».

وفي الحديث أيضا: «كفى بالسيف شا ». أي شاهدا[٤] -وقيل: شافيا.

تعقيب:

وبالنظر إلى هذا القول يتضح أنه قد ضم ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول:

يرى أن كل حرف من هذه الحروف المقطعة يدل على أحد أسماء الله -تعالى-، دون أن يوجب أن يكون هذا الحرف هو أول الاسم أو وسطه أو آخره.

الاتجاه الثاني:

يرى أن هذا الحرف المقطعة الموزعة في سورة متعددة، يمكن أن تتجمع في أسماء متعددة تحتوي على هذا الحرف.

هذا إلى جانب أن هذا الحرف قد يدل على اسم من أسماء الله -تعالى- أو صفة من صفاته، أو أفعال، وقد يدل على اسم غير الله تعالى.

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١/ ١٧٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ١/ ١٧٤.

(٣) رواه ابن ماجه في الديات -باب التغليظ في قتل مسلم ظلما برقم ٢٦٢٠ - جـ ٢/ ٨٧٤، ط المكتبة العلمية -بيروت- ورواه المنذري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال قال رسول الله ﷺ «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله» وقال المنذري: رواه ابن ماجه والأصبهاني وزاد قال سفيان بن عيينة: هو أن يقول: اق، بمعنى لا يتم كلمة اقتل- وقد سكت عنه- ينظر الترغيب والترهيب للمنذري المتوفى سنة ٦٥٦ هـ -جـ ٣/ ٢٨٠- تحقيق/ أيمن صالح شعبان - ط الأولى ١٤١٥هـ -١٩٩٤م- دار الحديث- القاهرة.

(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي جـ ٦/ ٢٦٤- وقال: فيه الفضل بن دلهم ثقة وبقية رجاله ثقات- ط دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

وقــد خالــف ابن جني كل من سلف، حيث إنه استدل بقراءة ابن مسعود، وابن عــباس -رضي الله عنهم- إذ إنهما قرأ بفاتحة سورة الشورى (حم عسق) بدون عين - علــى أنها ليست من أسماء الله -تعالى-، ولو كانت أسماء لله لما جاز تحريف شيء منها؛ لأنهمــا لو كانت كذلك لكانت أعلاما كــ زيد وعمرو، والأعلام لا طريق إلى تحريف شيء منها، بل تؤدي بأعيانها[١].

وقــد تعقب الحافظ ابن كثير هذا القول بأن: ما أنشدوه من الشواهد على صحة إطــلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة، فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا[٢]». ا هــ.

أي أن الاكتفاء بالحرف الواحد عن بقية الكلمة في هذه الشواهد الواردة من كلام العــرب، إنما هو ظاهر من دلالة سياق الكلام والمقام، بخلاف ما نحن بصدده من هذه الحروف المقطعة فإنه ليس لها ألفاظ أو معان تدل عليها سلفًا.

وقد انتقض هذا القول، وتعقبه الإمام البيضاوي مفندًا ما ارتكزوا عليه من الأدلة، بــأن كــون هــذه الحــروف الفواتح دالة على كلمات أخذت منها وحذفت بقيتها، واستشهادهم على ذلك بأمثلة من الشعر فهو شاذ لا يقاس عليه، وما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في مثل ذلك لا يعتبر تفسيرًا لهذه الحروف، وتخصيصًا لها بمثل هذه المعاني دون غيرها، حيث إنه لا يوجد ما يدل على هذا التخصيص لفظًا ومعنى، وإنما هو مجرد تنبيه على أن هذه الحروف منبع أسماء الله تعالى، وصفاته، ومبادئ الخطاب مشيرًا إلى ذلك بأمثلة حسنة، ونص ما قاله[٣] بأن هذه الحروف. لم تستعمل للاختصار من كلمات معينة في لغتهم، أما الشعر فشاذ، وأما قول ابن عباس -رضي الله عنهما- فتنبيه على أن هــذه الحروف منبع الأسماء، ومبادئ الخطاب وتمثيل بأمثلة حسنة، ألا ترى أنه عد كل حرف من كلمات متباينة لا تفسير وتخصيص هذه المعاني دون غيرها إذ لا مخصص لفظًا ولا معنى » ا هــ.

---

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها -لأبو الفتح عثمان ابن جنى المتوفي سنة ٣٩٢هــ -جــ ٢/ ٢٤٩- تحقيق / علي النجدي ناصف، والدكتور/ عبد الفتاح إسماعيل شلبي- ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة ١٤٢٠هــ -١٩٩٩م، وينظر الإتقان في علوم القرآن للحافظ السيوطي جــ ٣/ ٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير جــ ١/ ٢٥٣.

(٣) تفسير القاضي البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جــ ١/ ١٣٨.

وفي توضيح ما ذكره الإمام البيضاوي يقول محيي الدين شيخ زاده[١]: «وتقريره أن كون تلك الأسماء إشارة إلى الكلمات التي هي مأخوذة منها، إنما يصح إذا استعملت تلك الأسماء في كلام العرب للاختصار منها وهو ممنوع، فلما أثبت القائل استعمالها للاختصار بالصورة المذكورة ما جاء في استعمالاتهم من الشعر وبعض الكلمات دفعه بقوله: «أما الشعر فشاذ لا يقاس بقوله.

وأما قول ابن عباس -رضي الله عنهما- فليس تفسيرًا وتخصيصًا للأسماء المذكورة بهذه المعاني لكونها مأخوذة ومختصرة منها بل هو تنبيه على أن الحروف التي دل عليها بهذه الأسماء منبع أسماء الله تعالى مطلقا، ومبادئ ما يخاطب به من الكلام أي كما كان، وتخصيص ما ذكر بالذكر من جملة ما تركب من تلك الحروف من قبيل التمثيل بأمثلة حسنة لا يكون بخصوصه مراد من الأسماء لكونها مختصرة منه، ألا ترى أنه يصح عد كل حرف من كلمات متباينة، حيث عد الألف تارة من الآلاء، وتارة من «أنا»، وتارة من «الرحمن» وعد اللام تارة من «لطف الله»، وتارة من «أعلم»، وتارة من «جبريل»، وجعل الميم تارة من «ملك الله»، وتارة من «الرحمن»، وتارة من «محمد»، ولا يصح استعمال لفظ واحد بإطلاق واحد من معان متعددة » اهـ.

وقد قال الشيخ ابن عاشور في معرض تعقيبه على هذا القول أيضًا: «ويوهنه أنه لا ضابط له لأنه أخذ مرة بمقابلة الحرف بحرف أول الكلمة، ومرة بمقابلته بحرف وسط الكلمة أو آخرها».

ثم قال بعد أن ذكر جملة من الشواهد السابقة التي عرضناها في كلام العلماء في هذا الصدد: وقد أكثرت من شواهده توسعة في مواقع هذا الاستعمال الغريب، ولست أريد بذلك تصحيح حمل حروف فواتح السور على ذلك؛ لأنه لا يحسن تخريج القرآن عليه، وليس معها ما يشير إليها مع التورية بجعل مر من المرور.

ثم ذكر بعد ذلك: «أن ما استشهدوا به من بيت زهير وغيره وهي شواهد الشعر فهو من نوادر كلام العرب، ومما أخرج مخرج الألغاز والتلميح، وذلك لا يناسب مقام الكتاب المجيد[٢]» اهـ.

وقد أوجب ابن خلدون شرطًا لقبول هذه الاختصارات في هذا التأويل وهو: أن

---

(١) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي جـ ١/ ١٣٨.

(٢) التحرير والتنوير جـ ١/ ٢٠٩: ٢١١.

يكون بنقل صحيح، ثم أعلن أن النقل صحيح متعذر[١].

ووضع السيد رشيد رضا شرطًا لقبول التأويل، فقال: إنما يصح أن يكون فيها إشارة إلى ما ذكر... بشرط أن تتفق مع هداية القرآن.

وعلى الرغم من ذلك صرح أنه: لا يصح أن يقال إنها ما أراد الله تعالى[٢].

والقرآن الكريم منزه عن ذلك قال تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾، والإحكام والتفصيل ينافي مثل ذلك.

ولم يرتض هذا القول أيضا، ويطمئن إليه الدكتور/ محمود شلتوت حيث قال:

«إن القول بأنها رموز للأسماء أو الصفات أو لقضايا وصفية لله سبحانه، قول لا يكاد قلب يطمئن إليه، إذ لا مستند له يعتمد عليه، ولا قانون يرجع إليه، فلكل ناظر أن يختار ما لا يخطر على باله من أسماء أو صفات أو قضايا ويجعل الحروف رمزا له[٣]» ا هـ.

وقال الدكتور/ صبحي الصالح معقبًا على ذلك أيضا بقوله:

«ومن المؤكد أن مثل هذه التخرصات في تفسير أوائل السور لا تتناهى، ولا تقف عند حد، وما هي إلا تأويلات شخصية مردها هوى كل مفسر وميله[٤]» ا هـ.

وأود أن أوضح في هذا التعقيب أنني ممن لا يميلون إلى ترجيح هذا القول، وذلك:

إن هذه الآراء التي قيلت تحت هذا القول، لا ينبني أي منها على قاعدة مضبوطة، أو معايير محددة، وإنما هو الاختلاف الكبير في معنى الحرف الواحد، وعدم الاتفاق عليه.

فالحروف المقطعة، هل هي رموز لأسماء الله -تعالى، وأن الحرف الواحد رمز لاسم واحد أو لصفة واحدة، أم أن الحرف الواحد يدخل تحته جملة من الأسماء والصفات؟

ولماذا لا تكون القاف مثلا الحرف الأول من اسم الله القاهر، لا من اسمه القدوس أو القدير أو القوي؟ ولماذا تدل العين على العليم لا العزيز، والنون على النور لا على

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٥٢- عبد الرحمن بن محمد المتوفى ٨٠٨ هـ -تحقيق/ د. علي عبد الواحد وافي – ط الأولى ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م- لجنة البيان العربي- مصر.

(٢) تفسير المنار جـ ٨/ ٢٦٤- باختصار وتصرف.

(٣) تفسير القرآن الكريم للدكتور/ محمود شلتوت جـ ١/ ٥٥.

(٤) مباحث في علوم القرآن للدكتور/ صبحي الصالح أستاذ الإسلاميات وفقه اللغة في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية ص ٢٤٠- دار العلم للملايين- بيروت – لبنان- ط السادسة عشرة سنة ١٩٨٥- مطبعة العلوم بيروت – لبنان.

الناصر، والصاد على الصادق لا على الصمد؟

ومن أين لنا أن (الم) هي الأحرف البارزة في (الرحمن) لا في (الرحيم)؟

أم أن هذه الحروف أسماء للنبي ﷺ؟

أم أنها أسماء للملائكة؟

ماذا نختار من ذلك؟

وإذا كانت هذه الحروف المقطعة، هي حروف من أسماء النبي ﷺ وصفاته، أو من اسم سيدنا جبريل -عليه السلام- فما المانع أن ترمز لأسماء الصحابة أيضًا؟

وقد كان من الآراء التي قيلت:

أن (ص) في قوله تعالى: ﴿المص﴾، ترمز إلى الصديق أبي بكر -رضي الله عنه-، فالمـيم إشارة إلى سيدنا محمد ﷺ والصاد إلى الصديق، وفيه إشارة لمصاحبة الصاد الميم، وأنها تابعة لها كمصاحبة الصديق لمحمد ومتابعته له[1]».

إن مـثل ذلك وما ذكر من اتجاهات في هذا القول، بعيد كل البعد ولا يستند إلى نقـل صـحيح، ولا إلى فهـم واضح صريح، فمن الممكن أن نجد من يبحث في هذه الحروف أيضا عن أسماء الخلفاء الراشدين أو غيرهم من أئمة المسلمين وولاتهم وعلمائهم، إن مـثل ذلك باب مفتوح لكل من أراد أن يدخل منه ما يشاء، أو أن يقول فيه ما يريد بمجرد الظن والوهم والتخمين.

وإذا كانـت هذه التأويلات للحروف المقطعة قد اتسعت أمام المسلمين المؤمنين بالقـرآن الكـريم، فذكـروا مـثل هذه الأقوال والآراء، فإنها من باب أولى تتسع أمام المستـشرقين الذين لا يؤمنون بهذا الكتاب أصلا، ويعتقدون أنه كتاب بشري من صنع سيدنا محمد ﷺ.

إذ كـان ممـا يحـيط بهذه الحروف من خلاف حول تأويلها مجالا خصبًا لهؤلاء المستـشرقين بالفعل، يمرحون فيه ويسرحون لينشروا من خلاله كل ما يروج اعتقادهم الباطل عن مصدر القرآن الكريم.

ومـن أبـرز الذين تحدثوا منهم عن هذه الحروف: تيودر نولدكه **Noldeke**[2]،

---

(١) ينظر ذلك في البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١/ ١٧٠.

(٢) كتابه المشهور: تاريخ القرآن ص ٢١٥، وما بعدها- ط الأولى جوتنجن ١٨٦٠ م، وقد شاركه في إصداره في الطبعة الثانية من هذا الكتاب شفالي Schwally سنة ١٩١٩ ليبـزج- جـ ٢/ ٦٨، وما بعدها.

وهانز بور **Hans Bauer**[١]، وإدوارد جوسنز **Eduard Goosens**[٢].

فيرى «نولدكه» أن هذه الحروف رموز أو اختصارات لأسماء مالكي النسخ التي استعملها «زيد بن ثابت» في جمع القرآن في مصحف واحد، وقد قام بهذه الاختصارات أصحاب النسخ أنفسهم، لكن غفلة زيد بن ثابت هي التي جعلته يعتقد أن هذه الاختصارات من نصوص الوحي، فأضافها إليه [٣].

ويمضي «نولدكه» فيبحث عن تكملة لبعض هذه الاختصارات، فيرى أن: (الر) اختصار للزبير، و ﴿المر﴾ اختصار للمغيرة، و ﴿طه﴾ اختصار لطلحة بن عبيد الله، و﴿حم﴾ اختصار من عبد الرحمن... إلخ.

ولم يحاول أن يتابع تكملاته لبقية الرموز، بل قال بنفسه إن هذه التكملات غير مؤكدة؛ لاحتمال الرمز الواحد لتكملات مختلفة[٤].

وقد رد عليه الدكتور/ رمضان عبد التواب بأن: «مالكو النسخ التي استخدمها فيما بعد زيد بن ثابت، لجمع القرآن في مصحف واحد، لو أنهم كانوا قد كتبوا حقًا اختصارًا لأسمائهم على النسخ التي كانوا يملكونها، فإن المعقول أنهم كانوا يضعون ذلك على رأس النسخة، قبل النص، وقبل البسملة، التي توجد على رأس السورة، فمن الذي نقل هذه الرموز من أماكنها قبل البسملة إلى أماكنها الحالة بعد البسملة؟ إننا لا نقبل القول الذي يقول بأن زيد بن ثابت أضاف هذه الرموز إلى النص سهوا منه، أو لمجرد أنه رآها مكتوبة في بعض النسخ، فإن الروايات تذكر أنهم لم يكونوا يكتفون في جمع القرآن بنص مكتوب

---

(١) ما كتبه بعنوان: ترتيب السور، والرموز الغامضة في القرآن في مجلة ZDMG جـ ٧٥/ ١ وما بعدها.

(٢) وهو ما كتبه عام ١٩٢٠، تقدم به لدرجة الدكتوراه، ونشر في مجلة الإسلام Der Islam الألمانية سنة ١٩٢٣ م – جـ ١٣/ ١٩١، وما بعدها– تحت عنوان: «أصل الرموز القرآنية ومعناها».

(٣) وهذا محال طبعًا لأن الله –عز وجل– حفظ هذا الكتاب عن أي زيغ أو تضليل أو تحريف {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}.

(٤) ينظر بحث الدكتور/ رمضان عبد التواب بعنوان: «حول فواتح بعض سور القرآن الكريم» ص ١٧٥– من حوليات كلية الآداب– جامعة عين شمس– العدد الثامن سنة ١٩٦٣م. وهو ما اعتمدت عليه في عرض آراء هؤلاء المستشرقين، كما أن هذه الأقوال للمستشرقين ذكرها ايضا د/ رمضان عبد التواب في مجلة منبر الإسلام تحت عنوان المستشرقون والقرآن الكريم –السنة التاسعة والعشرون– العدد ٩، ١٠، ١١، ١٢، –سنة ١٣٩١هـ –١٩٧١م.

وينظر مباحث في علوم القرآن للدكتور/ صبحي الصالح – ص ٢٤١، ٢٤٢.

وينظر نظرات استشراقية في الإسلام د/ محمد غلاب ص ٤٢.

في الصحف، بل لا بدّ أن يكون هناك حافظان -على الأقل- لمثل هذا النص[١] ا هـــ.

فقـــد رد عليه أيضا من جهة الثبوت القطعي لكون هذه الحروف جزءا من النص القرآني الذي كان يتلوه رسول الله ﷺ.

ووصـــم الدكتور / صبحي الصالح هذا القول بأنه أغرب ما في هذا الباب، وأبعده عن الحق والصواب[٢].

ورمـــي قائل هذا القول بأنه كان جاهلا أن هذه الأحرف كانت مقروءة ومحفوظة ومكـــتوبة في ســـورها قبل كتابة المصاحف المتعددة في خلافة سيدنا عثمان -رضي الله عنه- ولو علم أن الصحابة والتابعين كانوا يتشددون في تجريد المصحف من كل ما ليس قرآنا حتى إنهم امتنعوا من العجم [نقط الحروف] والشكل وكتابة أسماء السور، لاستحيا من أن يقول هذا القول[٣].

وقريب من هذا الافتراء ما ذكره الإمام الزرقاني -رحمه الله- ونقضه، حيث أبان أن الدعوى كانت تزعم «أن هذه الألفاظ من وضع كتبة محمد من اليهود تنبيهًا على انقطاع كـــلام واستئناف آخر، ومعناها » أوغر إلى محمد أو « أمرني محمد » يشيرون بذلك إلى براءتهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابته[٤].

ونقـــض الإمام الزرقاني -رحمه الله- هذا الافتراء بما يلي: أنه لم يكن للرسول ﷺ كتبة من اليهود أبدًا، وها هو التاريخ حاكم عادل لا يرحم ولا يحابي، فليسألوه إن كانوا صادقين.

١ - أنـــه لا دليل لهم أيضًا على أن فواتح هذه السور تستعمل في تلك المعاني التي زعموها وهي: أوعز إلي محمد أو «أمرني محمد»، لا عند اليهود ولا عند غيرهم في أية لغة من لغات البشر.

٢ - أن الـــيهود لم يعـــرف عنهم الطعن في القرآن بمثل هذا، ولو كان هذا مطعنا عـــندهم لكانوا أول الناس جهرًا به، وتوجيهًا له؛ لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للنبي ﷺ والمـــسلمين، ويتمنون أن يجدوا في القرآن مغمزا من أي نوع يكون، ليهدموا به دعوة

(١) حول فواتح بعض سور القرآن الكريم ص ١٧٦.

(٢) مباحث في علوم القرآن ص ٢٤١.

(٣) نقض مطاعن في القرآن الكريم للأستاذ/ محمد أحمد عرفة- ص ٧٩، ٨٠- ط المنار- مصر- ط الأولى ١٣٥١هـــ.

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن جـــ ١/ ١٩١.

الإسلام، كيف وهم يكفرون به حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق؟[١] ا هـ.

وقال الدكتور/ محمد غلاب ردًا على هذا الافتراء.

«ما رأى الراتي ذلك إلا لأنه -لفرط جهله وسطحيته- يتصور أن السور التي بدئت بالفواتح مدنية، خضع فيها الرسول ﷺ لتأثير اليهود، وقد فاته أن سبعًا وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية، وليس بينها من السور المدنية سوى اثنتين، ولكنه الجهل، وكفى بذلك وبالا[٢] ا هـ.

أما بور وجوسنز فقد ذهبا إلى أن الحروف المقطعة ليست إلا اختصارات للأسماء القديمة للسور، وقد حاول كل واحد منهما متعسفًا تكملة ما سماه اختصارًا

فـ (يس) = -يسعى (في آية١٩).

و (ص) = الصافنات (في آية٣٠).

و (ق) = قرينة (في آية٢٢، ٢٦).

و (حم، عسق) = الحميم+ لعل الساعة قريب (في آية ١٧) إلى آخر هذه التخمينات والتعسفات التي تحدث عنها الدكتور/ رمضان عبد التواب قائلا:

«ولما لم يجد أي جوسنز في بعض السور تكملة مناسبة للرمز الموجود في أولها، ارتكب مشقة كبيرة، فافترض أن سورتين كانتا في القديم متحدتين، ثم انفصلتا فيما بعد، كما يفترض أن آيات معينة نقلت من مكانها القديم إلى مكان آخر، إلى غير ذلك من الحماقات التي لم يكن لها مبرر سوى الهوى والغرض »[٣] ا هـ.

وقد أردت بذكر أباطيل المستشرقين بشأن الحروف المقطعة، أن أؤكد على تهافت هذه التأويلات التي عقبت عليها بكل هذه التعقيبات؛ إذ إنها لعدم انضباطها بأي قاعدة ومعايير محددة تفتح الباب واسعًا لمثل هذه الأباطيل وأشباهها.

القول الرابع:

أن هذه الحروف فواتح وفواصل ذكرت للفصل بين السور فهي حروف مزيدة للتنبيه، دالة على انقطاع كلام واستئناف آخر، كما يقولون في أول الإنشاء لشهير القصائد «بلى» و«لا بل».

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن جـ ١/ ١٩٢.

(٢) نظرات استشراقية في الإسلام ص ٤٢.

(٣) ينظر بحث: حول فواتح بعض سور القرآن الكريم ص ١٧٩: ١٨٢، وما قال: المستشرقون والقرآن الكريم ص ٦٠: ٦٢- العدد العاشر من مجلة منبر الإسلام.

وهو قول أهل العربية[١]، وقد استقوا قولهم هذا مما روي عن الإمام مجاهد -رضي الله عنه- أنه قال:

﴿الم﴾، ﴿حم﴾ و ﴿المص﴾ و ﴿ص﴾ فواتح افتتح الله بها القرآن»[٢].

ومثل هذا القول ذكره الإمام الحسن البصري[٣].

كما استقى هذا القول أيضا الإمام ابن عطية من رواية الإمام مجاهد -رضي الله عنه- من قوله: «هي فواتح السور»، ثم قال: «نحا هذا النحو: أبو عبيدة والأخفش»[٤].

وقد استشهد الإمام الرازي لهذا القول بما نقله عن أحمد بن يحيى بن ثعلب: "أن العرب إذا استأنفت كلامًا فمن شأنهم بأن يأتلوا بشيء غير الكلام الذي يريدون استئنافه، فيجعلونه تنبيهًا للمخاطبين على قطع الكلام الأول واستئناف الكلام الجديد"[٥].

وقد نقل الإمام ابن جرير، قول أهل العربية هذا -حيث ذكروا أن فواتح السور الأحرف المقطعة، هي حروف يستفتح الله بها كلامه، وإنما جيء بها لأمرين: وهو الدلالة على الانقطاع، والدلالة على الاستئناف ليعلم أن السورة التي قبلها قد انقضت، وأنه قد ابتدأ في أخرى.

ونص ما ذكروه هو: «الحروف التي هي فواتح السور حروف يستفتح الله بها كلامه، فإن قيل: هل يكون شيء من القرآن ليس له معنى؟ فإن معنى هذا أنه ابتدأ بها، ليعلم أن السورة التي قبلها قد انقضت، وأنه قد أخذ في أخرى.

فجعل هذا علامة لانقطاع ما بينهما وذلك موجود في كلام العرب، ينشد الرجال منهم الشعر فيقول:

بلْ وبلدة ما الإنسُ من أهالِهَا

ويقول:

لا بَلْ ما هاج أحْزَانًا وشَجُوا قد شجَا

---

(١) ينظر معاني القرآن -للأخفش الأوسط جـ ١/ ٢٥١.

(٢) لتأصيل هذه الرواية ينظر أربع روايات مناظرة في تفسير الطبري جامع البيان جـ ١/ ٢٠٥، ٢٠٦، وتفسير ابن أبي حاتم جـ ١/ ٣٣، وينظر تفسير التبيان للشيخ الطوسي جـ ١/ ٤٧، ويتبين أنه ورد عن الإمام مجاهد روايتين: الأولى أنها اسم من أسماء القرآن، والثانية أنها فواتح افتتح الله بها القرآن العظيم.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم جـ ٢٧٤٧/٨.

(٤) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية جـ ١/ ٨٢، والبحر المحيط لأبي حيان جـ ١/ ٥٨.

(٥) ينظر مفاتيح الغيب جـ ٢/ ٩، وحاشية شيخ زاده علي البيضاوي جـ ١/ ١٣٤.

فـــ «بل» ليست من البيت، ولا تُعد في وزنه، ولكن يقطع بها كلاما ويستأنف آخر»[١] اهـــ.

ولم يرتض الإمام الطبري أن تكون الحروف المقطعة فواتح لا معنى لها، فعلق على هـــذا القول مبينًا خطأه من عدة وجوه حيث قال[٢]: «وأما الذي زعم من النحويين أن ذلك نظير «بل» في قول المنشد شعرًا.

بل مَا هَاجَ أحزانًا وشجْوا قدْ شجا

وأنه لا معنى له، وإنما هو زيادة في الكلام معناه الطرح، فإنه أخطأ من وجوه شتى:

أحـــدها: أنه وصف الله -تعالى- ذكره- بأنه أطب العرب بغير ما هو من لغتها، وغير ما هو في لغة أحد من الآدميين، إذ كانت العرب- وإن كانت قد كانت تفتتح أوائل إنـــشادها ما أنشدت من الشعر بـــ «بل» فإنه معلوم منها أنها لم تكن تبتدئ شيئًا من كلامهـــا بـــ ﴿الم﴾ و ﴿الر﴾ و ﴿المص﴾، بمعنى ابتدائها ذلك بـــ «بل»، وإذا كان ذلـــك ليس من ابتدائها، وكان الله -جل ثناؤه- إنما خاطبهم بما خاطبهم من القرآن بما يعـــرفون مـــن لغاتهم، ويستعملون بينهم من منطقهم في جميع آية، فلا شك أن سبيل ما وصـــفنا من حروف المعجم التي افتتحت بها أوائل السور، التي هن لها فواتح سبيل سائر القـــرآن في أنـــه لم يعـــدل بها عن لغاتهم التي كانوا بها عارفين، ولها بينهم في منطقهم مستعملين، لأن ذلك لو كان معدولاً به عن سبيل لغاتهم ومنطقهم كان خارجا عن معنى الإبانة التي وصف الله -عز وجل- بها القرآن فقال تعالى ذكره:

﴿نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٣].

وأنى يكـــون مبيـــنا مما لا يعقله ولا يفهمه أحد من العالمين، في قول قائل هذه المقالة، ولا يعرف في منطق أحد من المخلوقين في قوله؟ وفي إخبار الله -جل ثناؤه- عنه إنـــه عـــربي مبين ما يكذب هذه المقالة، وينبئ عنه أن العرب كانوا به عالمين، وهو لها مستبين، فذلك أحد أوجه خطئه.

والوجه الثاني: من خطئه في ذلك: إضافته إلى الله -جل ثناؤه- أنه خاطب عباده

(١) ينظر معاني القرآن للأخفش الأوسط جـــ ١/ ٢١، وجامع البيان جـــ ١/ ٢١٠.

(٢) جامع البيان جـــ ١/ ٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) سورة الشعراء آية: (١٩٣- ١٩٥).

بما لا فائدة لهم فيه، ولا معنى له، من الكلام الذي سواء الخطاب فيه وترك الخطاب به أي يستوي فيه الخطاب وتركه، وذلك من إضافة العبث الذي هو منفي في قول جميع الموحدين عن الله -إلى الله تعالى ذكره.

والوجه الثالث من خطئه: «بل » في كلام العرب مفهوم تأويلها ومعناها، وأنها تدخلها في كلامها رجوعا عن كلام لها قد تقضي، كقولهم: ما جاءني أخوك بل أبوك، وما رأيت عمرًا بل عبد الله، وما أشبه ذلك من الكلام، كما قال أعشى بني ثعلبة:

ولأشربن ثمانيا وثمانيا وثلاث عشرة واثنتين وأربعا

ومضى في كلمته حتى بلغ قوله:

بالجلسان وطيب إرادته بالون يضرب لي يكر الإصبعا

ثم قال:

بل عد هذا قريض غيره واذكر فتى سمح الخليقة أروعا

فكأنه قال: دع هذا وخذ في قريض غيره، فـ «بل » إنما يأتي في كلام العرب على هذا النحو من الكلام، فأما افتتاحا لكلامها مبتدأ بمعنى التطول-الزيادة- والحذف، من غير أن يدل على معنى، فذلك مما لا تعلم أحدا ادعاه من أهل المعرفة بلسان العرب ومنطقها سوى الذي ذكرت قوله، فيكون ذلك أصلا يشبه به حروف المعجم التي هي فواتح سور القرآن التي افتتحت بها لو كانت به مشبهة، فكيف وهي من الشبه به بعيد؟» ا هـ.

ومن ذكر هذا القول أيضا الإمام البيضاوي[1] وعزاه إلى قطرب وهو قوله: أنها مزيدة للتنبيه لا معنى لها في حيزها، وإنما جيء بها لأمرين: الدلالة على الانقطاع، والدلالة على الاستئناف.

وتعقبه محيي الدين شيخ زاده: بأن مثل هذا إنما يصح لو عهد في كلام العرب حيث قال[2]:

«إنما يصح لو عهد في كلام العرب كونها لمجرد الدلالة على الانقطاع من غير أن يكون لها معان في حيزها ولم يعهد ذلك، وأن الاستئناف لا يختص بهذه الفواتح التي هي أسماء الحروف بل يلزمها وغيرها مما يفتتح به السور نحو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [3] و ﴿تَبَارَكَ

---

(١) تفسير البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جـ ١/ ١٣٧.

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـ ١/ ١٣٧، ١٣٨.

(٣) سورة الفاتحة آية: ١.

الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[١]، وغيرهما، وكونها للاستئناف لا يقتضي أن يكون لها معنى في حيزها حتى يستلزم ذلك لأن يحكم عليها بكونها مزيدة لا معنى لها، ألا ترى، أن ما سمي فصل الخطاب من نحو «هذا»، وأما «بعد» إنما يقال عند تمام الكلام والشروع في آخر: فلا جرم يدل على انقطاع كلام واستئناف آخر أن له معنى في نفسه ولا يحكم عليه بالزيادة» ا هـ.

كما ضعف هذا القول أيضا الإمام الحافظ ابن كثير بعدما ألمح إليه حيث قال[٢]:

«وهذا ضعيف؛ لأن الفصل حاصل بدونها، فيما لم تذكره فيه، وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة » ا هـ.

وقد وجه بعض العلماء القول بأنها: فواتح يستفتح الله بها القرآن بأن المراد منها التنبيه قصد بها إيقاظ ذهن السامع، وخروجه عن غفلته، وشغل باله إلى ما حقه أن يلتفت إليه ويشغل به باله، فيقبل عليه ويتنبه لما سيلقي عليه، ويقرع سمعه، وإيضاحًا لذلك يقول صاحب المنار[٣]: «إن عدم إعرابها الحروف المقطعة يرجح أن حكمة افتتاح بعض السور المخصوصة بها للتنبيه لما يأتي بعدها مباشرة من وصف القرآن والإشارة إلى إعجازه » لأن المكي منها ما كان يتلى على المشركين للدعوة إلى الإسلام، ومثل هذه السورة وما بعدها [البقرة وآل عمران] لدعوة أهل الكتاب إليه وإقامة الحجج عليهم به.

وقد وضح السيد محمد رشيد رضا قوله هذا في تفسير سورة الأعراف، وأن هذا القول -كونها للتنبيه- هو ما ارتضاه في المراد من هذه الفواتح، لما في ذلك من عظيم فائدة وجليل منفعة، وهو إثبات التحدي والإعجاز للقرآن الكريم المنزل على خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ وأنه لا ريب فيه حيث إن كل من هذه السور المفتتحة بالحروف المقطعة معنى يتعلق بإثبات النبوة والكتاب، منها ما ذكر بعده مباشرة القرآن والكلام عن إعجازه، ومنها ما ذكر تلميحًا، وفي ذلك يقول السيد محمد رشيد رضا[٤].

والمختار عندنا أن حكمة افتتاح هذه السور وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى مفهوم غير مسمى تلك الحروف التي يتركب منها الكلام هي تنبيه السامع إلى ما سيلقي إليه هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته منه شيء، فهي كأداة الافتتاح «ألا »، و«هاء» التنبيه، وإنما خصت سور معينة من الطوال والمئين والمثاني والمفصل بهذا الضرب من

---

(١) سورة الملك آية: ١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١/ ٢٥٦.
(٣) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار جـ ١/ ١٠٦.
(٤) تفسير المنار جـ ٨/ ٢٦١، ٢٦٢.

الافتتاح؛ لأن النبي ﷺ كان يتلوها على المشركين بمكة لدعوتهم بها إلى الإسلام وإثبات الوحي والنبوة، وكلها مكية إلا الزهراوين البقرة، وآل عمران، وكانت الدعوة فيهما موجهة إلى أهل الكتاب، وكلها مفتتحة بذكر الكتاب إلا سورة مريم وسورتي العنكبوت والروم وسورة «ن» وفي كل منهما معنى مما في هذه السور يتعلق بإثبات النبوة والكتاب، فأما سورة مريم فقد فصلت فيها قصتها بعد قصة يحيى وزكريا المشابهة لها، ويتلوهما ذكر رسالة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس مبدوءا كل منها بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾[1] والمراد بالكتاب القرآن، فكأنه قال في كل من قصة زكريا ويحيى وقصة مريم وعيسى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾، وذكر هذه القصص في القرآن من دلائل كونه من عند الله تعالى؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يعلم هذا لا هو ولا قومه كما صرح به في سورة هود بعد تفصيل قصة نوح مع قومه بقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وختمت هذه السورة أي سورة مريم بإبطال الشرك، وإثبات التوحيد، ونفي اتخاذ الله تعالى للولد وتقرير عقيدة البعث والجزاء، فهي بمعنى سائر السور التي كانت تتلى الدعوى ويقصد بها إثبات التوحيد والبعث ورسالة خاتم النبيين وصدق كتابه الحكيم... وهكذا في بقية السور المفتتحة بهذه الحروف.

وأثبت الإمام السيوطي هذا القول في إتقانه ذاكرًا ما قاله العلماء فيه[3].

وقيل: هي تنبيهات كما في النداء، عند ابن عطية مغايرا القول بأنها فواتح، والظاهر أنه بمعناه[4].

قال أبو عبيدة: ﴿الم﴾ افتتاح كلام[5].

وفي المحتسب لابن جني أن ابن عباس قرأ ﴿حمسق﴾ بلا عين قال ابن جني: «وفي هذه القراءات دليل على أن الفواتح فواصل بين السور، ولو كانت أسماء الله لم يجز تحريف شيء منها، لأنها لا تكون حينئذ، والأعلام تؤدي بأعيانها، ولا بحرف شيء

(١) سورة مريم آية: ١٦، ٤١، ٥٢، ٥٤، ٥٦.

(٢) سورة هود آية: ٤٩.

(٣) الإتقان في علوم القرآن جـ ٣/ ٢٥.

(٤) المرجع السابق، وينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز جـ ١/ ٨٢.

(٥) مجاز القرآن جـ ١/ ٢٨.

منها[١] ».

فــابن جني يريد بهذه القراءة أن يقرر أن هذه الحروف المقطعة هي فواتح يستفتح الله بها كلامه العزيز، المراد منها الفصل بين السور، وفي نفس المقام يبطل القول بأن كون هذه الفواتح أسماء لله تعالى.

واســتنتج الكرماني في قوله تعالى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ﴾[٢]: أن وجود الاستفهام هــنا عقــب ﴿الم﴾ يــدل على انقطاع الحروف عما بعدها في هذه السورة وغيرها[٣] فالكرماني هنا يقرر أيضًا ما أراده ابن جني من القراءة التي ذكرها.

وسار الإمام الألوسي في ركابهم فقال عنها: هي من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة على إحدى الروايتين عن مجاهد، بل قيل: هي كذلك عند جمهور المتقنين[٤].

وقــد ارتضى هذا القول أيضا د/ صبحي الصالح، وأبدى رضاه بقوله: أنه أصرح رأيًا وأوضح تفسيرًا في بيان الغرض من أوائل السور[٥].

وقد ذكر الإمام الطاهر بن عاشور هذا القول، مستشهدًا بما ذكره الإمام الرازي في تفــسير سورة العنكبوت، حيث قال[٦]: «إنها حروف قصد منها تنبيه السامع مثل النداء المقــصود به التنبيه في قولك يا فتى، لإيقاظ ذهن السامع، قاله ثعلب، والأخفش، وأبو عبيدة.

قال الفخر الرازي في تفسيره سورة العنكبوت: «إن الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة، أو مشغول البال يقدم على الكلام المقصود شيئًا ليلفت المخاطب إليه بسبب المقــدم، ثم يــشرع في المقــصود، فقد يكون ذلك المقدم كلاما مثل النداء، وحروف الاستفتاح، وقد يكون المقدم صوتًا كمن يصفق ليقبل عليه السامع، فاختار حكيم للتنبيه حــروفًا مــن حروف التهجي لتكون صلتها على قصد التنبيه متعينة، إذ ليس لها مفهوم فتمخضت للتنبيه على غرض مهم[٧] اهـــ.

(١) ينظر المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني جـــ ٢/ ٢٤٩.
(٢) سورة العنكبوت آية (١، ٢).
(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـــ ٣/ ٢٧، ٣٠.
(٤) روح المعاني جـــ ١٦/ ١٤٨- ط دار الفكر- بيروت ١٣٩٨هـــ - ١٩٧٨م.
(٥) مباحث في علوم القرآن ص ٢٤٣.
(٦) التحرير والتنوير جـــ ١/ ٢١٤، ٢١٥.
(٧) مفاتيح الغيب جـــ ٢٢/ ٢٦، ٢٧، والملاحظ هنا أن الإمام الرازي اضطرب اضطرابًا واضحًا بشأن هذه الفواتح الهجائية، حيث إنه وقف عند القول: بأن الله أعلم بمراده منها، ثم بعد ذلك =

إلا أن الإمام الرازي جعل هذا التنبيه موجه إلى النبي ﷺ حيث قال بعد الكلام السابق ذكره: إذا ثبت هذا فنقول: إن النبي ﷺ وإن كان يقظان الجنان، لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن، فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفًا هي كالمنبهات[١].

ولم يقف الإمام الرازي عند هذا الحد، بل أخذ يقرر ما ذهب إليه أهل العربية من أنها فواتح للتنبيه لا معنى لها بقوله:

«ثم إن تلك الحروف - إذا لم تكن بحيث يفهم معناها- تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى؛ لأن ذلك المقدم- إذا كان كلاما منظومًا وقولا مفهومًا- ربما ظن سامعه أنه كل المقصود، ولا كلام له بعد ذلك، فيقطع الالتفات إليه، أما إذا سمع منه صوتًا بلا معنى فإنه يقبل عليه، ولا يقطع نظره عنه، ما لم يسمع غيره، لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود، فإذن تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع، على الكلام المقصود، فيه حكمة بالغة[٢] ا هـ.

ويرد عليه في ذلك بما قاله الإمام الطبري وذكره من الأدلة على أنه لا يليق بالقرآن الكريم مثل ذلك.

ولم يقصر الإمام الرازي التنبيه على نفاسة المضمون بل ضم إليها نفاسة الشكل حيث قال[٣]: «الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ليبقى السامع مقبلا على استماع ما يرد عليه، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق، والمعنى الفائق » ا هـ.

كما أن الإمام أحمد بن خليل بن سعادة الخوبي (ت: ٦٣٧هـ) قد استجاد القول بأن الحروف تنبيهات، واتفق مع الإمام الرازي في أن هذا التنبيه موجه إلى النبي ﷺ فقال[٤]: «القول بأنها تنبيهات جيد، لأن القرآن كلام عزيز وفوائده عزيزة، فينبغي أن يرد سمع متنبه فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كون النبي ﷺ في عالم البشر مشغولا، فأمر جبريل -عليه السلام- بأن يقول عند نزول ﴿الم﴾ و ﴿الر﴾

= نراه قد اختار في أول تفسيره لسورة البقرة، أن الفواتح أسماء للسور، وانتصر لهذا القول ورد ما عليه من اعتراضات، وهو هنا في تفسيره لأول سورة العنكبوت يقول إنها للتنبيه.

(١) المرجع السابق جـ ٢٢/ ٢٦.

(٢) المرجع السابق جـ ٢٢/ ٢٦، ٢٧.

(٣) مفاتيح الغيب جـ ٢٨/ ١٤٦.

(٤) ينظر الإتقان في علوم القرآن جـ ٣/ ٢٧، وتفسير المنار جـ ٨/ ٢٦٧.

و﴿حم﴾ ليسمع النبي صوت جبريل فيقبل عليه، ويصغي إليه، قال: إنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كألا، وأما؛ لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبه الكلام فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد، لتكون أبلغ في قرع سمعه » اهـ.

وقد رد هذا القول، وأجاب عنه مبينًا ضعفه السيد محمد رشيد رضا، حيث قال[1]:

«وأقول: إن جعل التنبيه للنبي ﷺ مستبعد، وقد كان يتنبه وتغلب الروحانية على طبعه الشريف بمجرد نزول الوحي الأمين عليه ودنوه منه كما يعلم مما ورد في نزول الوحي من الأحاديث الصحيحة، ولا يظهر فيه وجه تخصيص بعض السور بالتنبيه، وإنما كان التنبيه أولاً وبالذات للمشركين في مكة ثم لأهل الكتاب في المدينة لدعوتهم إلى الإسلام وإقامة الحجج عليهم به، إذ كان المؤمنون يتوجهون بكل قواهم إلى ما يتلوه الرسول ﷺ عليهم، وكله عندهم سواء، فهم مقصودون بهذا التنبيه بالدرجة الثانية» اهـ.

فالقول بأن كون هذه الحروف الفواتح إنما هي للتنبيه، وأن هذا التنبيه يقصد به النبي ﷺ حيث إنه في بعض الأوقات يكون مشغولا عن الوحي، فهو قول مستبعد تمامًا بل ويستحيل مثل ذلك على النبي ﷺ حيث إنه كان دائمًا في انتظار نزول الوحي، ويترقبه في أي وقت وبمجرد نزول الروح الأمين عليه يتنبه له ويعي عنه كل ما يقوله، ويغلب على طبعه الشريف الجو الروحاني، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في كيفية نزول الوحي على النبي ﷺ مبينة أوضاعه في استقباله للروح القدس.

أخرج البخاري في صحيحه بسنده الصحيح المتصل من حديث عائشة أم المؤمنين: -رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام -رضي الله عنه- سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس**[2]**، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي**

---

(١) تفسير المنار جـ ٨/ ٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) الصلصلة- بفتح الصادين -وهي الصوت المتدارك قال الخطابي: معناه: إنه صوت متدارك يسمعه ولا يثبته أول ما يقرع سمعه حتى يفهمه من بعد ذلك، قال العلماء والحكمة في ذلك أن يتفرغ سمعه ﷺ ، ولا يبقى فيه ولا في قلبه مكان لغير صوت الملك، ومعنى (وعيت): جمعت وفهمت وحفظت، ومعنى الحديث:

أن الملك يفارق على أن يعود، ولا يفارقه مفارقة قاطع لا يعود- ينظر صحيح مسلم بشرح النووي - جـ ٨/ ٩٧، ٩٨- تحقيق / عصام الصبابطي، وآخرون ط الرابعة ١٤٢٢هـ -

ملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة -رضي الله عنها-: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقًا»(١).

وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة التي توضح كيف كان نزول الوحي على النبي ﷺ وحالته -عليه أفضل الصلاة والسلام- عندما كان يأتيه.

وإذا كانت السنة النبوية المطهرة قد وضحت حالة المصطفى ﷺ حينما كان يأتيه الوحي فإن الحق تبارك وتعالى قد بين مراتب الوحي وجاء ذلك في قوله جل ثناؤه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

فالنبي ﷺ لم يكن محتاجًا عند نزول الوحي عليه إلى تنبيه حتى يبدأ الروح الأمين له بأداة تنبيه قبل إلقاء وحي الله إليه، فإن ما ورد من الأحاديث الصحيحة في كيفية نزول الوحي عليه توضح، بل تؤكد مدى استعداد النبي ﷺ لاستقبال الروح القدس، وقبول وحي الله منه، حتى أنه كان يردد ما يسمعه من سيدنا جبريل -عليه السلام- خوفًا من أن يتفلت منه شيء فنهاه ربه عن ذلك وطمأنه قال تعالى:

﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(٢).

وأشد ما كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس فيلتبس الملك به حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن رحالته لتبرك إلى الأرض إذا كان راكبها، وأصحابه ﷺ كانوا يشاهدون حالته في أغلب نزول الوحي إليه، فقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها(٣) (أي تكسر) كما أن رسول الله ﷺ كان

٢٠٠١م – دار الحديث.

(١) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي- باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ وقول الله جل ذكره- ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ سورة النساء آية: ١٦٣ جـ ١/ ٣.

(٢) سورة القيامة آية ١٦: ١٩.

(٣) من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله -ﷺ- أملى عليه ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي فقال يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت- وكان أعمى- فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض أي تكسر فخذي، ثم سري عنه فأنزل الله ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ رواه البخاري في التفسير برقم ٤٥٩٢.

يتـــشوق دائما إلى نزول الوحي -ويترقبه وينتظره في أي وقت، فلا يعقل أن يكون عند نزول وحي الله إليه، أن يكون مشغولا في عالم البشر أيما كان الشاغل عن وحي الله وهو بهذا الشوق إليه -فحاشاه ﷺ أن ينشغل عن الوحي بأمور الدنيا، وهو الذي ذمها، وحذر أمـــته من الانشغال بها والتلهف عليها فهذا يؤكد ضعف ما قاله الإمام الرازي، وما ذكره الإمام الخويي ويدحض قولهم، بل ويبعده تمامًا.

يتضح من ذلك كله أن أصحاب هذا القول، وقفوا عند مرحلة من مراحل تفسير هـــذه الحروف المقطعة وهي أنها: فواتح وفواصل، أي علامات تفصل بين ما مضى وما يأتي من كلام الله تعالى ويرجع ذلك إلى خشيتهم أن يقولوا بالرأي في أمر يتصل بكتاب الله.

إلا أن هـــذا القول اقتضى أن تكون علامات خالية من المضمون، أي لا معنى لها حقهـــا الطرح، وقد تصدى الإمام الطبري -رحمه الله- لذلك ورفضه، وأتى بالأدلة على أنه لا يليق بالقرآن الكريم مثل ذلك، وتابعه بعض العلماء على ذلك.

القول الخامس:

أدوات تنبيه لما يلقي بعدها من القرآن، وقد أعلن الكثيرون من العلماء هذا القول وعبروا عنه في صيغ متنوعة، وهي أن هذه الحروف المقطعة في بعض السور القرآنية هي فواتح استفتح الله بها كلامه العزيز، وإنما جيء بها لفتح أسماع المشركين لاستماع القرآن الكريم.

قال قوم: روي أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها، فيفتحوا لها أسماعهم فيسمعوا القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة[١] ».

وقد ذكر هذا القول الإمام ابن جرير[٢]، وهو عنده من ضمن أقوال أهل العربية في المراد من الأحرف المقطعة.

ونقـــل الإمام ابن الجوزي عن أبي روق عطية بن الحارث الهمداني: «كان النبي ﷺ يجهـــر بالقـــراءة في الصلوات كلها، وكان المشركون يصفقون، ويصفرون، فنزلت هذه الحروف المقطعة، فسمعوها فبقوا متحيرين[٣].

والمشركون كانوا إذا سمعوا القرآن أعرضوا عنه وتوصوا باللغو عند تلاوته، وهو ما

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية جـ ١/ ٨٢، وينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١/ ١٧٣، والبحر المحيط لأبي حيان جـ ١/ ٥٩، وفتح القدير للشوكاني جـ ١/ ٣٧.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢١٠.

(٣) زاد المسير في علم التفسير جـ ١/ ١٧.

حكاه المولى -عز وجل- على لسانهم: قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(١).

فأراد الله -عز وجل- لما أحب من صلاحهم ونفعهم أن يورد عليهم ما لا يعرفونه، ويسمعهم شيئًا لم يكونوا يسمعونه رغبة في إصغائهم، ليكون ذلك سببًا لاستماعهم لما يرد عليهم من القرآن، فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه، فكانوا إذا سمعوه قالوا كالمتعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد -عليه الصلاة والسلام- فإذا أصغوا، هجم عليهم القرآن فكان ذلك سببًا لاستماعهم القرآن، وطريقا إلى انتفاعهم به، فيكون تعجبهم سببًا لاستماعهم، واستماعهم سببًا لاستماع ما بعده، فينتج من ذلك: إما أن ترق القلوب وتلين الأفئدة فيحصل لهم الانتفاع به، وإما أن تلزمهم الحجة به.

قاله ابن روق وقطرب(٢).

وذكر الإمام القرطبي: أن محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، قال: هي تنبيه(٣):

وجمع الإمام ابن عطية قولي ابن روق والمبرد في إجمال فقال: قال قوم: هي تنبيه كـ «يا » في النداء(٤).

فالحروف المقطعة على هذا المعنى هي للتنبيه لما يأتي بعدها من الكلام، كقولك «ألا و«أما » أي هي في معنى أداة التنبيه، وهو ما ذكره محيي الدين شيخ زاده في توضيحه لهذا القول حيث قال(٥): «فهي في المعنى كالتنبيه لما يأتي بعده من الكلام كقولك: «ألا » و« أما » وذلك لأن الإنسان مجبول على الحرص لما يفهمه، والميل إلى ما منع منه فكان تصدير السور بهذه الألفاظ سببًا لإصغائهم إلى القرآن، وتدبرهم في مقاطعة ومطالعة رجاء أنه ربما جاء كلام يعير ذلك المبهم، ويوضح ذلك المشكل، فصار ذلك وسيلة إلى

(١) سورة فصلت آية: ٢٦.

(٢) ينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج جـ ١/ ٦٢، وتفسير السمرقندي جـ ١/ ٤٧، ومفاتيح الغيب للرازي جـ ٢/ ٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١/ ١٧٣، والبرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١/ ١٧٥، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري جـ ١/ ٢٤٣، وحاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـ ١/ ١٣٣، وتفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا جـ ٨، ٢٦٧، وفتح القدير للشوكاني جـ ١/ ٣٧، والتحرير والتنوير لابن عاشور جـ ١/ ٢١٥- بتصرف.

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ٨/ ٢٨٣، وينظر معاني القرآن الكريم للنحاس جـ ١/ ٧٦.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز جـ ١/ ٨٢.

(٥) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـ ١/ ١٣٣.

استماعهم القرآن، وانتفاعهم به ا هـــ.

وقـــد صاغ الإمام الألوسي هذا المعنى في عبارات تفصح عن هذا القول إفصاحًا وإيضاحًا فقال -رحمه الله-[١]: «وإن شئت فقل فيها جلب لإصغاء، الأذهان، وإلجام كل مـــن يلغـــوا مـــن الكفار عند نزول القرآن، لأنهم إذا سمعوا ما لم يفهموه من هذا النمط العجيب تركوا اللغط، وتوفرت ذراعيهم للنظر في الأمر المناسب بين حروف الهجاء التي جـــاءت مقطعة، وبين ما يجاورها من الكلم رجاء أنه ربما جاء كلام يفسر ذلك المبهم ويوضح ذلك المشكل، وفي ذلك رد شر كثير من عنادهم وعتوهم ولغوهم، الذي كان إذ ذاك يظهر منهم، وفي ذلك رحمة منه تعالى للمؤمنين ومنه للمستبصرين » ا هـــ.

فقد فتح الله سبحانه وتعالى -للمستبصرين بابًا من أبواب النجاة، وأوقد لهم سراجًا ينتفع به من اتبع هداه بعد توجيه النظر وتنبيه الفكر إلى ما يتلى بعد هذه الحروف المفرقة من الذكر الحكيم، فإن هذا التنبيه ينتفع به من السامعين من أراد الله صلاحهم وسبق لهم في علمه هدايتهم.

واقتـــصر الإمام المراغي في تفسيره على هذا الرأي، مما يوحي بأنه الراجح عنده حيث ذكر: «أن الرأي الذي عليه المعول أن الحروف المقطعة التي وقعت في أوائل السور «هي حروف للتنبيه، كـــ «ألا، يا »، مما جاء في أوائل الكلام، مما وضع لإيقاظ السامع إلى مـــا يلقي بعدها من حديث يستدعي العناية بفهمه، فهنا جاءت للفت نظر المخاطب إلى وصف القرآن الكريم، والإشارة إلى إعجازه، وإقامة الحجة على أهل الكتاب إلى نحو ذلك مما جاء في أثناء السورة[٢] ا هـــ.

يتضح من ذلك أن هذا القول يندرج تحت القول السابق ذكره، وبالتحديد تحت توجيه القول بأنها فواتح يستفتح الله بها كلامه، حيث كان توجيه بعض العلماء أنها فواتح جيء بها للتنبيه لإيقاظ ذهن السامع إلى ما سيلقي عليه فيقرع سمعه ويقع في قلبه ما أريد إسماعه، فينتبه إلى ما بعد ذلك من ذكر القرآن والإشارة إلى إعجازه[٣].

وقد تعقب الإمام الحافظ ابن كثير هذا القول وضعفه بعد أن أشار إلى أنه قد حكاه

---

(١) روح المعاني جـــ ١/ ١٧١.

(٢) تفسير المراغي لفضيلة الأستاذ/ أحمد مصطفى المراغي جـــ ١/ ٣٩، ٩٢، بتصرف مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر – ط الخامسة ١٣٩٤هـــ ١٩٧٤م.

(٣) ينظر القول الرابع ص ١٥٢.

الطبري حيث قال[١]: حكاه ابن جرير، وهو ضعيف؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها، بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك أيضا لانبغى الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك.

ثم إن هذه السورة والتي تليها أعني البقرة وآل عمران مدنيتان ليس خطابًا للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه ا هـ.

ورده الإمام السيوطي حيث قال[٢]: «وإنما يصلح هذا مناسبة لبعض الأقوال، لا قولا في معناه، إذ ليس فيه بيان معنى »، ا هـ ولقد رد السيد محمد رشيد رضا على الإمام ابن كثير ونقده في تعقبه لهذا وتضعيفه له، حيث بين الحكمة من افتتاح بعض سور القرآن بهذه الحروف المقطعة، وهي أنها للتنبيه وذلك لما يأتي بعدها مباشرة من ذكر القرآن وبيان إعجازه[٣]، وليس معنى أن هذه الحروف للتنبيه جيء بها لفتح أسماع المشركين لحملهم على الاستمتاع إلى القرآن فهو خطاب للمشركين فحسب، وبناء على ذلك فإن السور المكية المفتتحة بالحروف المقطعة فقط هي المراد بهذا المعنى، وأما سورتا البقرة وآل عمران ليستا خطابا للمشركين حيث إنهما مدنيتان وبالتالي ينتقض هذا القول، وهو ما استند إليه الإمام الحافظ ابن كثير، لكن الإمام محمد رشيد رضا قد وضح الحكمة من افتتاح هذه السور بالحروف المقطعة والغرض منها، فالمكية منها هي لدعوة المشركين إلى الإسلام، وإثبات النبوة والوحي، وأن الكتاب حق، وهو المنزل من العلي القدير على سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ لا ريب فيه، وأما الزهروان البقرة، وآل عمران فمدنيتان، فهما لمجادلة أهل الكتاب وإقامة الحجة عليهم به، ومما يدل على ذلك ذكر القرآن الكريم بعد هذه الحروف مباشرة في بعض السور منها، وبعضها ذكر تلميحًا وتضمينًا -وقد وضح ذلك بالتفصيل، وهو ما ذكر في القول السابق-[٤].

وبعد توضيح السيد محمد رشيد رضا، وتفصيله لهذه الحكمة من افتتاح بعض

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١/ ٢٥٦.

(٢) الإتقان في علوم القرآن جـ ٣/ ٢٧.

(٣) والملاحظ أيضًا على ما قاله السيد رشيد رضا في شأن قضية الفواتح الهجائية، أنه قد اضطرب أمره فيها، كما حدث عند الإمام الرازي- حيث قال في أول تفسيره لسورة البقرة، إنهما أسماء للسور، ثم قال بعد ذلك إنها للتنبيه لما يأتي بعدها مباشرة من وصف القرآن والإشارة إلى إعجازه، وهذا كان له فضل إيضاح أكثر ممن سبقه.

(٤) يراجع القول الرابع ص ١٥٢، ١٥٣.

السور بهذه الفواتح قال: «ولو رأى مثل هذا البيان ابن كثير لما ضعف هذا الوجه إذ نقله موجز مجملا عن ابن جرير»[١].

كما تعقب الدكتور محمد إسماعيل قول الحافظ ابن كثير أيضا بقوله: وما قاله ابن كثير -رحمه الله- ليس بلازم؛ لأن هذه الفواتح جاءت للتنبيه على أصول العقيدة، ما سواها داخل فيها، فإذا استمعوا إلى هذه الأصول التي كانوا يفرون من سماعها وتدبرها، وفهموا محتواها، فهموا ما هو داخل فيها ومندرج تحتها.

ولهذا نجد هذه الفواتح قد وليها الحديث عن نزول القرآن، ونفي الريب عنه، والحديث عن التوحيد وقواعده، وعن الرسول ﷺ والرسالة، وعن إيمان المؤمنين، وعن البعث، والوعد والوعيد...

فهذه الفواتح إنما جاءت في أوائل سورها للتنبيه على الأصول الاعتقادية، ولهذا جاءت على غير ما ألف العرب، لتكون أجلب لانتباههم، وأقرع لآذانهم وقلوبهم.

وقوله -يعني ابن كثير- إن سورتي البقرة وآل عمران ليستا خطابا للمشركين لأنهما مدنيتان- غير مسلم، فالمشركون كانوا في مكة والمدينة، وفي غيرهما من البلاد والبوادي، والخطاب عام للمشركين وغيرهم من أهل الريب والزيغ والضلال »[٢]. اهـ.

ومن المحدثين الذين انتصر للإمام محمد رشيد رضا، وأعجب بما أوضحه من الغرض من افتتاح بعض السور القرآنية بهذه الحروف المقطعة، الدكتور/ صبحي الصالح حيث قال[٣]: «ويبقى السيد رشيد رضا في نظرنا خير من أوضح الغرض من افتتاح بعض السور القرآنية بهذه الحروف المقطعة، ونحن لذلك نقول معه مستعيرين عباراته بنصها: «من حسن البيان وبلاغة التعبير، التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير، أن ينبه المتكلم المخاطب إلى مهمات كلامه والمقاصد الأولى بها، ويحرص على أن يحيط علمه بما يريده هو منها، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها «ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها لكيلا يفوته شيء منها، وقد جعلت العرب منها هاء التنبيه وأداة الاستفتاح، فأي غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حد الإعجاز في البلاغة وحسن البيان، ويجب أن يكون الإمام المقتدي، كما أنه هو الإمام في الإصلاح والهدى؟ ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من

---

(١) تفسير المنار جـ ٨/ ٢٦٨.

(٢) دراسات في علوم القرآن للدكتور/ محمد بكر إسماعيل ص ٢٤٢، ٢٤٣، دار المنار- ط الأولى ١٩٩١م.

(٣) مباحث في علوم القرآن للدكتور/ صبحي الصالح ص ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦.

رفع الصوت، وتكييف بما تقتضيه الحال من صيحة التخويف والزجر، أو غنة الاسترخام والعطف أو رنة النعي وإثارة الحزن، أو نغمة التشويق والشجو، أو هيعة الاستصراخ عند الفـــزع، أو صـــخب التهويش وقت الجدل، ومنه الاستعانة بالإشارات وتصوير المعاني بالحـــركات، ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة أو وضع خط فوقها أو تحتها. [(١)]».

وقد أعلن السيد رشيد رضا في موضع آخر أن الحروف المقطعة أقوى في التنبيه من حرف الهاء الموضوع له في أسماء الإشارة، ومن كلمة «ألا » الاستفتاحية[(٢)].

ثم يـــسترسل د/ صبحي الصالح في كلامه، مؤكدا ما قاله الإمام محمد رشيد رضا فيقول: «وإن انطباق هذه الحكمة على الواقع النفسي لمن كان القرآن موجهًا إليهم حين نـــزول الوحي، لا يزيدنا إلا استمساكًا بهذا الرأي، ولأمر ما افتتحت جميع السور التي في أولهـــا حروف مقطعة بذكر الكتاب أو معان تتعلق بالوحي والنبوة، ومن المعلوم أن هذه الـــسور كلها مكية إلا البقرة وآل عمران، فأما المكية فلدعوة المشركين إلى إثبات النبوة والوحي، وأما الزهراوين المدنيتان فلمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وكانت تلك الفـــواتح كفـــيلة بتنبيه هؤلاء وأولئك إلى ما كان يلقي عليهم حتى لا يفوتهم شيء، وما تـــنفك هـــذه الفواتح من عوامل الاستغراب، ولا يخلق الاستغراق إلا الاهتمام، ولا يثير الاهـــتمام إلا التنبيه، ولن ينبه الناس ويقرع أسماعهم صوت أجل وقعا من هذه الحروف المقطعة الأزلية التي همستها السماء في أذن الأرض » ا هـــ.

وقد ذكر أيضا في هامش كتابه ما يأتي: «ويزداد هذا الرأي وضوحًا إذ سلمنا بأن الزهـــراوين كانتا من أوائل السور نزولا في المدينة كما هو المشهور، وبنزولهما مفتتحين بهـــذه الحـــروف المقطعة، تمت الحكمة الإلهية من تنبيه اليهود إلى الدعوة الجديدة وإثارة اهـــتمامهم بها، فلم يعد في استمرار الافتتاح بتلك الحروف بعد الزهراوين حكمة ظاهرة باهـــرة، ولـــذلك نزل الوحي بعدهما خاليا من تلك الفواتح، فلا ضرورة للتسليم بصحة الاعتراض الذي وجهه ابن كثير في تفسيره إلى هذا القول بسبب مدنية البقرة وآل عمران، وكـــونها ليستا خطابا للمشركين؛ لأن الحكمة من تخصيص الزهراوين بهذه الفواتح تكون

---

(١) ينظر تفسير المنار للإمام محمد رشيد رضا جـ ٨/ ٢٦٤، ٢٦٥- باختصار.
(٢) تفسير المنار ج ١١/ ١٢.

على ما بيناه- بالغة دامغة[١]» ا هـــ.

فهـــو بذلك يرجع الرأي القائل بأن المراد من الأحرف المقطعة المفتتحة بها بعض الـــسور القرآنية أنها للتنبيه وقرع الأسماع، ويدلل على ذلك بمنطقة وفي نفس الوقت يرد على ابن كثير الذي ضعف هذا الرأي.

وقـــد مال إلى هذا القول ورجحه الدكتور/ محمد عزة دروزة، من بين الأقوال التي قيلت فيها حيث قال[٢]: «وهناك قول معزو إلى ابن عباس -رضي الله عنهما- بأنها للتنبيه واستدعاء الأسماع، أي من نوع هلا، ألا... ونحن نرجح هذا القول».

وقـــال: «إن روحها تلهم أنها جاءت بسبيل التوكيد والتنبيه واستدعاء الأسماع إلى القرآن وآياته وعبره وحكمته وإحكامه.. [٣]» ا هـــ.

وذهب عبد الوهاب حمودة إلى أن هذا الوجه يقويه ويسنده على ما يلي: أولاً: أن هـــذا أسلوب من أساليبهم في استخدامهم حروفا لا معنى لها، ولا مقصد منها إلا التنبيه، وقـــد جاء ذلك كثيرًا في أحاديث النبي ﷺ عندما يريد أن ينبه أذهان الصحابة إلى خطورة مـــا يرشـــدهم إليه، وليس بعجيب أن يراعي القرآن عرف المخاطبين، فإن هذه المراعاة الخطابـــية، تـــساعد على التأثير، واجتذاب النفوس إلى الإقناع والإذعان، وهذا وجه من بلاغة القرآن التي أفادت في تثبيت النبوة وبث الدعوة[٤].

ثانـــيًا: أن هذه السورة كلها مكية إلا الزهراوين -البقرة وآل عمران- على أن في موضوعها ما يشبه الموضوعات المكية، إذ كانت الدعوة فيهما موجهة إلى أهل الكتاب، فلمـــا كانت هذه السور مكية، وأهل مكة أهل عناد وغفلة وإعراض، وأكثر ما يستعمل هـــذا الأســـلوب في مخاطـــبة الغافلين أو الجاهلين المعرضين، جاءت هذه السور بتلك الافتتاحات للتنبيه والإيقاظ[٥].

ورفـــض الدكـــتور/ رمضان عبد التواب هذا الرأي قائلا: «ليس هذا الرأي في

---

(١) ينظر هامش كتاب مباحث في علوم القرآن ص ٢٤٥، ٢٤٦.

(٢) التفسير الحديث جـــ ١/ ٣٦١- ط الثانية ١٤٢١هـــ- ٢٠٠٠ م- دار الغرب الإسلامي - بيروت.

(٣) المرجع السابق: جـــ ١/ ٣٦١.

(٤) المرجع السابق جـــ ١/ ٢٣٩، ٢٤٠.

(٥) رأي في تأويل فواتح السور- مجلة رسالة الإسلام- العدد الأول- ص ٧٧ السنة الثانية عشر- رجب/ رمضان ١٣٧٩ هـــ -يناير/ مارس ١٩٦٠م.

حاجـة إلى تبيين فساده، أو خطئه؛ فإن القرآن الكريم نزل بلغة العرب كما قال في أكثر في موضـع منه، والعرب تستخدم في كلامها أدوات للتنبيه مثل ألا، وأما... إلخ، وليست هذه الرموز التي استعملها القرآن من بين تلك الأدوات التي يستعملها هؤلاء للتنبيه، إذ لم ترد في كلامهم، لا شعرا، ولا نثرا... وبعيد أن يبتدع القرآن أدوات للتنبيه والخطاب، غير التي كانت معروفة لدى العرب، فما عهدنا فيه ذلك في آية ظاهرة لغوية أخرى، وعلى فرض صحة ذلك، فلماذا لم يستعملها المسلمون في هذا المعنى -فيما بعد- تقليدًا للقرآن الكريم؟

ولن يغني عن أصحاب هذا الرأي قولهم: «إن القرآن كلام لا يشبه الكلام، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد؛ لتكون أبلغ في قرع السمع »؛ لأنه لو كان القرآن قد أتى حقًا بأدوات تنبيه غير معهودة لدى السامع، لتحولت هذه الأدوات لديه من أدوات تنبيه إلى أدوات تحيير؛ لأنه سينصرف إلى محاولة فهم معنى هذه الأدوات الجديدة، ولن يلقي بالاً لما يأتي بعدها، فتضيع بذلك فائدة التنبيه[1]» اهـ.

تعقيب:

يتضح من هذا القول، والقول السابق عليه أن الحروف المقطعة فواتح عند الجميع، لكـن لكـل مـن هؤلاء، وجهة نظره بعد ذلك في المراد من هذه الفواتح، وتوجيه ما يذكرون. كما أن هذا القول سار في طريقين:

الطريق الأول:

يعلن أن التنبيه موجه إلى من أنزل إليهم القرآن، لجذب أسماعهم ثم أفكارهم إليه.

والطريق الثاني:

يعلـن أن التنبـيه موجه إلى النبي ﷺ، ويكاد الإمام الرازي والإمام الخويي ينفردان بالسير فيه.

أقول: هذا التنبيه لمن؟

إذا كان يقصد به الناس، وخاصة المشركين لفتح أسماعهم، وجذب أفكارهم، فهو ليس محصورًا في الأحرف المقطعة؛ لأن الناس يتنبهون بمجرد سماع القرآن والقرآن أداء، وقـد وردت آيـات كريمة تأمر بالسماع، وتحث عليه، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ

---

(١) حول فواتح بعض سور القرآن الكريم – ص ١٧٣، ١٧٤- باختصار.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٢٠٤.

مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾[(١)].

إذًا فالقضية ليست قضية سماع بما هو قرآن كما أن الحجة قائمة عليهم، ملزمة لهم سمعوا أم لم يسمعوا، فعدم سماعهم عناد مقصود يستلزم الحساب المرصود قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾[(٢)].

وقال -عز وجل- ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾[(٣)].

وهذا التنبيه الذي يشيرون إليه هو في سور محدودة لا تعدو تسعًا وعشرين سورة فبقيت خمس وثمانون سورة دون تنبيه.

وأما إذا كان التنبيه مقصودًا به النبي ﷺ فأي انشغال هذا؟ وهو يتشوق لنزول الوحي، وحزنه إذا تأخر عنه، وما يعتريه عند نزوله من العرق المتصبب منه، والمعاناة التي يعانيها في مباشرة الوحي له، وحرصه -عليه الصلاة والسلام- على عدم النسيان.

أضف إلى هذا أن القرآن الكريم نزل عليه ﷺ منجمًا على حسب الأحداث التي تأتيه تترى، وما كان يواجه من الأسئلة والتساؤلات.

فأي تنبيه مثل هذا يقال في حقه -عليه أفضل الصلاة والسلام؟ !!

وبناء على ذلك، فالتنبيه مردود- ورده هنا أنه لا يصلح أن يكون قولا قائما بذاته في معنى الحروف المقطعة، وإنما يصلح كما ذكر الإمام السيوطي أن يكون مناسبة لبعض الأقوال لا قولا في معناه، إذ ليس فيه بيان معنى.

والحق إنها فواتح وذلك لا جدال فيه، ولكنني مع الذين يرون أن لها معان، وأهدافا أبعد من ذلك.

القول السادس:

إن هذه الحروف المقطعة: قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه.

وقد ذكر هذا القول ابن جرير بأسانيده عن ابن عباس قال: «هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله»[(٤)].

---

(١) سورة الحج الآية: ٧٣.

(٢) سورة فاطر الآية: ١٤.

(٣) سورة الجاثية الآية: ٨.

(٤) جامع البيان جـ ١/ ٢٠٦، ٢٠٧، وينظر الأسماء والصفات للبيهقي جـ ١/ ٣٢٠، وتنوير المقياس من تفسير ابن عباس للفيروزآبادي ص ٣.

وعن عكرمة قال: «﴿الم﴾ قسم»[١].

وعلـــل الأخفش الأوسط الحلف بالحروف لذاتها فقال: «أقسم الله تعالى بالحروف المعجمـــة إظهـــارًا لشرفها وفضلها من حيث إنها مبادئ كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومباني أسمائه الحسنى وصفاته العلى وأصول كلام الأمم، بها يتعارفون ويذكرون الله تعالى ويـــوحدونه، ثم إنه تعالى اقتصر على ذكر بعضها والمراد هو الكل، كما تقول: «قرأت الحمـــد لله» و«قل هو الله أحد»، وتريد السورتين بتمامها، فكأنه تعالى قال: أقسم بهذه الحروف أن هذا الكتاب هو ذلك الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ [٢]».

وممـــن روى هـــذا القول أيضًا، الكلبي قال: هي قسم أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها، وهي من أسمائه».

أقسم الله تعالى بالقرآن إن هذا الكتاب الذي أنزل على قلب محمد ﷺ هو الكتاب الذي أنزل من عند الله تعالى لا ريب فيه »[٣].

وأجـــاز ابن قتيبة -رحمه الله-[٤] القسم بالحروف المقطعة كلها حيث قال: «وإن كانت أقسامًا، فيجوز أن يكون الله -عز وجل- أقسم بالحروف المقطعة كلها، واقتصر علـــى ذكر بعضها من ذكر جميعها، فقال: ﴿الم﴾، وهو يريد تعلم هذه الأحرف الأربعة دون غيرها من الثمانية والعشرين، ولكنه لما طال أن يذكرها كلها، اجتزأ بذكر بعضها... إلا أن الـــناس يدلـــون بأوائل الأشياء عليها فيقولون: قرأت «الحمد لله » يريدون فاتحة الكتاب، فيسمونها بأول حرف منها هذا الأكثر، وربما دلوا بغير الأول أيضا، أنشد الفراء:

لمـــا رأيـــتُ أنهـــا في حُطـــي اخـــذتُ مـــنها بقـــرون شمـــط

يريد في أبي جاد[٥] «فدل بحطي كما دل غيره بأبي جاد.

---

(١) ينظر جامع البيان جـ ١/ ٢٠٧، وتفسير ابن أبي حاتم جـ ١/ ٣٣.

(٢) هذا القول للأخفش عزاه إليه: الإمام البغوي في معالم التنـــزيل جـــ ١/ ٤٤، والفخر الرازي في مفاتيح الغيب جـ ٢/ ٩، والإمام البيضاوي ينظر حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـ ١/ ١٣٤، والإمام النيسابوري في غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ ١/ ٢٤٤، والعلامة أبو حيان في البحر المحيط جـ ١/ ٥٩.

(٣) تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم جـ ١/ ٤٦، كما ذكر رواية الكلبي أيضًا الإمام القرطبي جـ ١/ ١٧٤-، وأثبت هذه الرواية أيضا الشوكاني في كتابه فتح القدير جـ ١/ ٣٧.

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣٠٠: ٣٠٢- باختصار.

(٥) أبو جاد: الكلمة الأولى من الكلمات الثماني التي تجمع حروف الهجاء العربية: أبجد هوز حطي كلمن.. " ويقال: إن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لقي أعرابيًا- فسأله: هل تحسن القراءة؟ =

وإنما أقسم الله بحروف المعجم، لشرفها وفضلها، ولأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومباني أسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وأصول كلام الأمم... وقد أقسم الله في كتابه بالفجر، والطور، والعصر، وبالتين، والزيتون، وهما جبلان ينبتان التين والزيتون، يقال لأحدهما: طور زينا، وللآخر، طور تينا بالسريانية، من الأرض المقدسة، فسماها. مما ينبتان وأقسم بالقلم؛ إعظاما لما يسطرون، ووقع القسم بها في أكثر السور على القرآن فقال ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾[1]؛ كأنه قال:

وحروف المعجم هو الكتاب لا ريب فيه، و ﴿الم اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[2]، اي وحروف المعجم هو ﴿الم اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم نزلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾[3]، و ﴿المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[4]، اي، وحروف المعجم، هو كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه، و ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[5]، ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[6]، و ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[7] كله أقسام » اهـ.

فقد اتفق الإمام الطبري مع ابن قتيبة في الدفاع عن القسم بالحروف المقطعة، فقال: ولا شك في صحة معنى بالله وأسمائه وصفاته؛ لأن هذه الحروف كانت عنده

=

فقال: نعم، قال: فاقرأ أم القرآن، فقال الأعرابي: والله ما أحسن البنات فكيف الأم؟ ! فضربه عمر، وأسلمه إلى الكتاب، فمكث حينا ثم هرب، ولما رجع إلى أهله أنشدهم:

أتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أسطر متتابعات
وخطوا لي ابا جاد وقالوا تعلم سعفصا وقريشيات
وما أنا والكتابة والتهجي وما حظ البنين مع البنات

ينظر المعجم الكبير لأبي القاسم الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠ هـ جـ ١/ ٢٢، ٢٣، تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي — ط بغداد وزارة الأوقاف.

وينظر تاج العروس من جواهر القاموس للإمام محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي- جـ ٤/ ٣٤٢- باب الدال- فصل الباء- تحقيق/ علي شيري- دار الفكر- بيروت- لبنان.

(١) سورة البقرة آية: ١، ٢.
(٢) سورة آل عمران آية: ١، ٢.
(٣) سورة آل عمران آية ٢، ٣.
(٤) سورة الأعراف آية: ١، ٢.
(٥) سورة يس: آية ١ ٢.
(٦) سورة ص: آية ١.
(٧) سورة ق: آية ١.

كذلك[١]».

وقد أوضح الإمام ابن القيم ذلك شارحًا له شرحًا موفيًا بالغرض المقصود، وهو كون هذه الحروف الفواتح أقسام أقسم الله- عز وجل- بها لما فيها من عظيم فائدة، وجليل منفعة من حيث امتنانه -عز وجل- على عباده باقتدارهم على البيان بتلك بالتكلم بها، فهي دالة دلالة واضحة على كمال قدرته سبحانه، ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته، وعنايته بخلقه ولطفه بهم، وتمام نعمته عليهم، فالقسم بها أولى من غيرها لشرفها وعظم قدرها، إذ هي مباني كلامه وكتبه التي يتكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله وهدى بها عباده، فحقيق أن تفتح بها السورة مما يؤكد أن القرآن كلام الله حقًا، أنزله على رسوله صدقًا[٢].

وقد أشار إلى هذا القول وأثبته الإمام الزركشي في برهانه مبينًا أن كونها قسمًا يدل على رفعة وجلالة قدر هذه الحروف، حيث إنها مادة البيان، مما يؤكد أنه كتاب الله المنزل على سيدنا محمد ﷺ لا شك فيه، حيث قال[٣]:

«إن الله أقسم بهذه الحروف بأن هذا الكتاب الذي يقرؤه محمد هو الكتاب المنزل لا شك فيه، وذلك يدل على جلالة قدر هذه الحروف إذا كانت مادة البيان، وما في كتب الله المنزلة باللغات المختلفة، وهي أصول كلام الأمم بها يتعارفون، وقد أقسم الله تعالى بـ الفجر، و(الطور) فكذلك شأن هذه الحروف في القسم بها » اهـ.

وقد ذكر هذا القول أيضًا الطاهر بن عاشور، فهو القول الثالث حسب تصنيفه ومندرجًا عنده تحت النوع الثالث في أن هاته الحروف حروف هجاء مقصودة بأسمائها لأغراض داعية لذلك، حيث قال[٤]:

«إن هاته الحروف أقسم الله تعالى بها كما أقسم بالقلم تنويها بها؛ لأن مسمياتها تألفت منها أسماء الله تعالى وأصول التخاطب والعلوم. قاله الأخفش » اهـ.

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢٢٢.

(٢) التبيان في أقسام القرآن للعلامة الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية – المتوفى سنة ٧٥١هـ جـ ١/ ٣٦٥: ٣٦٩- بتصرف كبير- حققه وعلق عليه بعض التعليقات الدافعة/ محمد زهري النجار من علماء الأزهر الشريف- ملتزم الطبع والنشر/ المؤسسة السعيدية بالرياض لصاحبها فهد بن عبد العزيز السعيد.

(٣) البرهان في علوم القرآن جـ ١/ ١٧٣.

(٤) التحرير والتنوير جـ ١/ ٢١٢.

وقد تحرز الإمام الرازي من هذا القول فأعلن: أنه قد ثبت أن الحلف لا يصح بهذه الحروف، وما ماثلها من ظواهر، بل الحلف بإله هذه الأشياء، فيكون التقدير: ورب حم، ورب الكتاب المبين[(١)].

وقد رد بعض العلماء من أهل اللغة هذا القول فقال:

بــأن مــا روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وعن الكلبي لا يصح أن يكون قسمًا، لأن جواب القسم معقود على حروف مثل: إن، وقد، ولقد، وما، واللام، وهنا لم يوجد حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يمينًا.

والجواب أن يقال: موضع القسم قوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾ فلو أن إنسانًا حلف فقال: والله هذا الكتاب لا ريب فيه، لكان الكلام سديدًا، وتكون «لا » جواب القسم، فثبت أن قول الكلبي وما روي عن ابن عباس سديد صحيح[(٢)] ».

قال ابن الأنباري: جواب القسم محذوف، تقديره: وحروف المعجم لقد بين لكم السبيل، وأنهجت لكم الدلالات بالكتاب المنزل، وإنما حذف لعلم المخاطبين به، ولأن في قوله ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ دليلاً على الجواب[(٣)].

وفي هذا القول، يقول الإمام البيضاوي[(٤)]:

«وجعلــها مقسمًا بها، وإن كان غير ممتنع لكنه يحوج إلى إضمار أشياء لا دليل عليها» ا هــ.

وقد تعقب هذا القول بأن فيه وهنا، إذ لو كانت مقسمًا بها لذكر حرف القسم، إذ لا يحذف إلا مع اسم الجلالة عند البصريين، بأنها قد ورد بعدها بعض المواضع قسم نحو ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ و ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[(٥)].

قــال صاحب الكشاف: وقد استكرهوا الجمع بين قسمين على مقسم واحد حتى قال الخليل في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾[(٦)].

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢٧، ٢٣٦، ٢٣٧.
(٢) ينظر تفسير السمرقندي جـ ١/ ٤٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١/ ١٧٤.
(٣) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي جـ ١/ ١٦.
(٤) تفسير القاضي البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جـ ١/ ١٣٩.
(٥) سورة الزخرف آية: ١، ٢، وسورة الدخان آية، ١، ٢.
(٦) سورة الليل آية ١، ٢.

إن الواو الثانية هي التي تضم الأسماء للأسماء أي واو العطف[١].

والجواب عن هذا: أن اختصاص الحذف باسم الجلالة مختلف فيه، وأن كراهية جمع قسمين تندفع بجعل الواو التالية لهاته الفواتح واو العطف على أنهم قد جمعوا بين قسمين، قال النابغة.

والله والله لـــنعم الفـــتى الـــ ـــحـــارث لا النكس ولا الخامل[٢]

فـــإن قـــيل: ما الحكمة في القسم من الله تعالى، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين، مصدق، ومكذب، فالمصدق يصدق بغير قسم، والمكذب لا يصدق مع القســم؟

قـــيل له: القرآن نزل بلغة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه، أقسم على كلامه، فالله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده»[٣].

القول السابع:

أنها للتحدي والإعجاز:

وبيانه:

أن هذه الحروف المقطعة، قد وردت هكذا مسرودة على نمط التعديد للدلالة على إعجاز القرآن، والتحدي للعرب وإقامة الحجة عليهم، فهي للإعجاز والتحدي؛ حيث إن القـــرآن الكـــريم نـــزل بلغة العرب فهو من جنس الحروف التي يؤلفون منها كلامهم، ويـــنظمون منها شعرهم ونثرهم، فهو عربي مبين كما جاء وصفهم في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٤].

وهم كذلك عرب، فكانت هذه الفواتح بمثابة التحدي والإعجاز لهم، وكأن الله - تعـــالى- يقـــول لهؤلاء المعارضين في أن القرآن من عند الله -تعالى- هاكم القرآن ترونه مؤلفا من حروف، وكلمات، وجمل هي من جنس ما تؤلفون من كلامكم، ومنظومًا من حـــروف هي من عين الحروف التي تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فأتوا بمثله، بأن تنظموا كلامًا مثل ما جاء به الرسول الكريم ﷺ وادعوا

(١) ينظر الكشاف للزمخشري جـــ ١/ ٣٥.
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور جـــ ١/ ٢١٢.
(٣) ينظر تفسير السمرقندي جـــ ١/ ٤٦، والجامع لأحكام القرآن القرطبي جـــ ١/ ١٧٤.
(٤) سورة الشعراء آية: ١٩٢، ١٩٥.

من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك.

ومفهوم التحدي هذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

وقـــوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢].

ومـــع ذلـــك لم يستطيعوا الإتيان بمثله، ولا بسورة من مثله وهذا القول هو أحد الآراء المشهورة في المراد من الأحرف المقطعة، وإليه يميل الأكثرون.

وهو الرأي الذي انتصر له كبار علماء اللغة والتفسير من أمثال، قطرب، والفراء[٣]، والمبرد[٤].

والعلامة الزمخشري[٥] الذي يكاد يكون من أبرز من انتصر لهذا الرأي وخدمة من اللغويين والبلاغيين، فقد قرره في كشافه، ونصره أتم نصر.

كما انتصر له أيضا الإمام البيضاوي[٦]، وابن كثير[٧]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[٨]، والحـــافظ أبـــو الحجاج المزي، والنسفي[٩]، وسيد قطب[١٠]، والطاهر بن عاشور[١١]، والصابوني[١٢]، وغيرهم من العلماء القدامى منهم والمحدثين.

نقـــل الأنـــباري عن الفراء: قوله ﴿طه﴾ بمنزلة ﴿الم﴾ ابتداء الله -عز وجل- بها مكتفيا بها من جميع حروف المعجم ليدل العرب على أنه أنزل القرآن على نبيه باللغة التي

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٣.
(٢) سورة يونس آية: ٣٨.
(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١/ ١٧٣، وفتح القدير للشوكاني جـ ١/ ٣٧.
(٤) ينظر مفاتيح الغيب للرازي جـ ٢/ ٨، وحاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـ ١/ ١٣٣.
(٥) الكشاف جـ ١/ ٣٧، ٣٨.
(٦) تفسير البيضاوي بحاشية محي الدين شيخ زاده جـ ١/ ١١٩، ١٢٠.
(٧) تفسير ابن كثير جـ ١/ ٢٥٦، ٢٥٧.
(٨) ينظر مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ١٢/ ٤٤٨.
(٩) تفسير النسفي جـ ١/ ٩.
(١٠) في ظلال القرآن جـ ١/ ٣٨، جـ ٣/ ٣٦٤.
(١١) التحرير والتنوير جـ ١/ ٢١٢، ٢١٣.
(١٢) صفوة التفاسير- تأليف/ محمد علي الصابوني الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى -مكة المكرمة- القسم الأول- ص ١٧، ١٨، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١- دار القرآن الكريم- بيروت.

يعلمونها، والألفاظ التي يعقلونها، كي لا تكون لهم على الله حجة[١].

وقال قطرب وغيره: هي إشارة إلى حروف المعجم، كأنه يقول للعرب إنما تحديتكم بنظم من هذه الحروف التي عرفتم، فقوله ﴿الم﴾ بمنزلة قولك: أ، ب، ت، ث... لتدل بها على التسعة والعشرين حرفًا[٢]».

ونقل أبو الليث السمرقندي عن بعضهم -أهل العربية ولم يسم-: «إن المشركين كانوا يقولون: لا نفقه هذا القرآن؛ لأنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾[٣]، فأراد الله أن يبين لهم أن القرآن مركب على الحروف التي ركبت عليها ألسنتكم، فما لكم لا تفقهون؟ وإنما أراد بذكر بعض الحروف تمام الحروف، كما أن الرجل يقول: علمت ولدي: ألف، باء، تاء، ثاء، وإنما يريد جميع الحروف ولم يرد به الحروف الأربعة خاصة[٤]» ا هـ.

أما العلامة الزمخشري -رحمه الله- فقد أفاض في توضيح هذا المعنى، حيث قال[٥]:

أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد، كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن وبغرابة نظمه، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا إن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة -وهم[٦] أمراء الكلام، وزعماء الحوار، وهم الحراص على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتهالكون على الافتنان في القصيدة والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزت بلاغة كل ناطق، وشقت غبار كل سابق، ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء - إلا لأنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر، وهذا القول من القوة والخلاقة بمنزل » ا هـ.

---

(١) ينظر الأضداد لابو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري المقرئ النحوي المتوفى سنة ٣٠٤ هـ -تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم -ص٤٠٤، ٤٠٥، ط المكتبة العصرية -لبنان ١٤٠٧هـ.

(٢) ينظر المحرر الوجيز جـ ١/ ٨٢، والجامع لأحكام القرآن جـ ١/ ١٧٣، وزاد المسير جـ ١/ ١٦.

(٣) سورة فصلت الآية: ٥.

(٤) تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم جـ ١/ ٤٧.

(٥) الكشاف جـ ١/ ٣٧، ٣٨.

(٦) من قوله «هم» أعين البصراء جملة اعتراضية.

وقد أتى الإمام الرازي بهذا القول، وذكر أنه[١]: «قاله المبرد واختاره جمع عظيم من المحققين- أن الله -تعالى- إنما ذكرها احتجاجًا على الكفار، وذلك أن الرسول ﷺ لما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة فعجزوا عنه أنزلت هذه الحروف تنبيهًا على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف، وأنتم قادرون عليها، وعارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من البشر » اهـ.

ويقول الإمام الزركشي في بيان إعجاز هذه الحروف، ومدى قوة صداها في النفس عند من سمعها من الفصحاء والبلغاء، فتوقظ الهمم للنظر فيها، وفيما يأتي بعدها من الذكر الحكيم قال[٢]: «إنها كالمهيجة لمن سمعه من الفصحاء والموقظة للهمم الراقدة من البلغاء لطلب التساجل، والأخذ في التفاضل...».

وقال القاضي البيضاوي[٣] إنها: «إيقاظًا لمن تحدى بالقرآن، وتنبيهًا على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم مما ينظمون منه كلامهم ».

ثم وصف هذا القول بأنه: «أقرب إلى التحقيق وأوفق للطائف التنزيل، وأسلم من لزوم النقل ووقوع الاشتراك في الأعلام[٤]...» اهـ.

وقال الإمام أبو السعود[٥]: «وإليه جنح أهل التحقيق، قالوا: إنما وردت هكذا ليكون إيقاظًا بمن تحدى بالقرآن، وتنبيهًا لهم على أنه منتظم من عين ما ينظمون منه كلامهم، فلولا أنه خارج عن طوق البشر، نازل من عند خلاق القوى والقدر، لما تضاءلت قوتهم، ولا تساقطت قدرتهم وهم فرسان حلبة الحوار، وأمراء الكلام في نادي الفخار، دون الإتيان بما يدانيه فضلا عن المعارضة بما يساويه مع تظاهرهم في المضادة والمضارة وتهالكهم على المعازة والمعارة» اهـ.

وقد ذكر الإمام النسفي في غالب تفسيره لمطالع السور المبدوءة بتلك الحروف: أن الظاهر أنها إعجاز للعرب فهو تعديد للحروف على طريق التحدي والتنبيه على

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢/ ٨، وينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري جـ ١/ ٢٤٢، وحاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـ ١/ ١٣٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن جـ ١/ ١٧٣، باختصار.

(٣) تفسير البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جـ ١/ ١١٩، ١٢٠.

(٤) المرجع السابق جـ ١/ ١٤٠.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ ١/ ٢١، ٢٢.

الإعجاز، مما يشعر بأن هذا القول هو ما اختاره، ورجحه في المراد من تلك الحروف الفواتح حيث قال في تفسيرها: «أن الظاهر من هذه الحروف الفواتح، إنما هو تعديد للحروف على سبيل التحدي، لإظهار إعجاز القرآن والتنبيه عليه، وصحة أنه من عند الله لا من عند البشر لمن تدبرها، فهي الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم[١]» ا هـ.

واختار هذا القول ورجحه أيضا الشهيد سيد قطب من بين الأقوال التي قيلت في تفسيرها، ولم يتعرض لغيره حيث قال[٢]:

«وقد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة، نختار منها وجهًا أنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب، ولكنه مع هذا هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغون من تلك الحروف مثله، الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، وبسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابًا!

والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق الله جميعًا، وهو مثل صنع الله في كل شيء وصنع الناس.. وهكذا القرآن حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا، ويجعل منها الله قرآنا وفرقانا، والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض، هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة!».

وقد أوضح في بداية سورة آل عمران أن اختياره لهذا القول إنما هو على سبيل الترجيح لا الجزم، حيث قال[٣]: «وهذا الوجه اخترناه في تفسير هذه الأحرف في أوائل السور على سبيل الترجيح لا الجزم- يتمشى معنا بيسر في إدراك مناسبات هذه «الإشارة» في شتى السور، ففي سورة البقرة كانت الإشارة تتضمن التحدي الذي ورد في السورة بعد ذلك: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤].

فأما هنا في سورة «آل عمران» فتبدو مناسبة أخرى لهذه «الإشارة» هي أن هذا

---

(١) تفسير النسفي جـ ٢/ ١٥٢، ٢١٠، جـ ٣/ ١٧٨، جـ ٤/ ٣٣، بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن بقلم/ سيد قطب- المتوفى سنة ١٣٧٨هـ جـ ١/ ٣٨، الطبعة الشرعية الثالثة ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م – دار الشروق بيروت- القاهرة باختصار.

(٣) في ظلال القرآن جـ ٣/ ٣٦٤.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٣.

الكـــتاب منزل من الله الذي لا إله إلا هو، وهو مؤلف من أحرف وكلمات شأنه في هذا شـــأن ما سبقه من الكتب السماوية التي يعترف بها أهل الكتاب -المخاطبون في السورة فليس هناك غرابة في أن ينزل الله هذا الكتاب على رسوله بهذه الصورة » ا هـــ.

واختار هذا القول ورجحه أيضا الإمام ابن عاشور، فقد ذكره أولاً شارحًا له قبل أن يوضـــح تعليله لاختياره لهذا القول، وسبب ترجيحه له، فهو عنده القول الرابع عشر حـــسب تـــصنيفه حيث قال: «إنها سبقت مساق التهجي مسرودة على نمط التعديد في التهجـــية، تبكيتًا للمشركين، وإيقاظًا لنظرهم في أن هذا الكتاب المتلو عليهم وقد تحدوا بالإتـــيان بـــسورة مثله، هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم كأنه يغريهم بمحاولة المعارضة ويستأنس لأنفسهم بالشروع في ذلك بتهجي الحروف، ومعالجة النطق تعريضًا بمعاملـــتهم معاملـــة من لم يعرف تقاطيع اللغة، فيلقنها كتهجي الصبيان في أول تعلمهم بالكتاب حتى يكون عجزهم عن المعارضة بعد هذه المحاولة عجزًا لا معذرة لهم فيه »[(١)].

ثم ذكر أن من ذهب إلى هذا القول: المبرد[(٢)] وقطرب والفراء[(٣)]، وهو ما ارتضاه الزمخشري ورجحه قال في الكشاف: وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل[(٤)] ثم قـــال[(٥)]: «وقلـــت وهو الذي نختاره، وتظهر المناسبة لوقوعها في فواتح السور، أن كل سورة مقصودة بالإعجاز، لأن الله -تعالى- يقول: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ﴾[(٦)]، فناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتمهيد لمحاولته، ويؤيد هذا القول إن التهجي ظاهر في هذا المقصد، فلـــذلك لم يـــسألوا عنه لظهور أمره، وأن التهجي معروف عندهم للتعليم، فإذا ذكرت حـــروف الهجـــاء علـــى تلك الكيفية المعهودة في التعليم في مقام غير صالح للتعليم عرف الـــسامعون أنهـــم عوملوا معاملة المتعلم؛ لأن حالهم كحاله في العجز عن الإتيان بكلام بليغ، ويعضد هذا الوجه تعقيب هاته الحروف في غالب المواضع بذكر القرآن وتنزيله» ا هـــ.

هـــؤلاء العلماء هم أبرز القائلين بهذا الرأي، وغيرهم كثير، وقد حرصت على أن أسوق عباراتهم في هذا القول لما يأتي:

---

(١) التحرير والتنوير جـــ ١/ ٢١٢/ ٢١٣.

(٢) ينظر مفاتيح الغيب للرازي جـــ ١/ ٨، وحاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـــ ١/ ١٣٣.

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـــ ١/ ١٧٣، وفتح القدير للشوكاني جـــ ١/ ٣٧.

(٤) الكشاف جـــ ١/ ٣٨.

(٥) التحرير والتنوير جـــ ١/ ٢١٢، ٢١٣.

(٦) سورة البقرة آية: ٢٣.

أولاً: بيان كثرة القائلين بهذا الرأي، ومدى قبولهم له، وحرصهم على تقريره وبسطه.

ثانيًا: توثيق لصحة نسبة الرأي إلى قائله، وذلك بذكر نص العبارة.

فهؤلاء العلماء قد اتفقت غايتهم في ترجيح هذا القول، وإن اختلفت عباراتهم.

ويتضح مما سبق أن الحروف المقطعة دليل الإعجاز، ونزولها نزول تحد احتجاجًا على الكفار، وتبكيتًا لهم وإيقاظًا لنظرهم على أنها من عين حروف كلامهم، مما يستدعي الانتباه والتيقظ، والنظر في هذا الكتاب المعجز، فهو المعجزة الخالدة المنزلة على سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد ﷺ تصديقًا له فيما جاء به عن رب العزة، وشاهد على صحة نبوته وصدقه.

أدلة أصحاب هذا الرأي:

ومما يدل على أن هذه الحروف الفواتح دليل الإعجاز، ويؤيد أنها نزلت للتحدي ما يلي:

الدليل الأول:

أن هذه الحروف المقطعة ترد في الغالب مقرونة بذكر القرآن الكريم، فالآيات التي تلي هذه الحروف تتحدث صراحة أو ضمنًا عن الكتاب المنزل، وبيان إعجازه ومدى عظمته، وتأكد من الله -تعالى- أنه هو الذي نزله على رسوله الحق، ولذا فإننا نجد أن كثيرا من الآيات التي تلي الحروف المقطعة تتصدر صراحة باسم الإشارة الذي يعود إلى القرآن كما في قوله تعالى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، أو ضمنا كما في قوله تعالى: ﴿المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾.

وأيضًا بالتأمل في كل سورة من هذه السور المفتتحة بهذه الحروف المقطعة من أولها إلى آخرها، نجد أن من أهدافها الأساسية بيان مدى إعجاز القرآن الكريم، وإثبات صحة الرسالة المحمدية عن طريق هذا الكتاب الذي جعله الله -تعالى- معجزة لنبيه محمد ﷺ.

ولذا نجد الإمام ابن كثير قد رجح القول بأن هذه الحروف الفواتح إنما نزلت للتحدي والإعجاز، وارتضاه لما علم أن كل سورة افتتح بهذه الحروف لا بدّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، حيث قال[1]: «إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١/٢٥٧/ ٢٥٧.

هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ا هـ.

وقد ذكر هذا أيضًا الطاهر بن عاشور[(١)]، والسيد محمد رشيد رضا[(٢)]، والشيخ محمود شلتوت[(٣)].

وحول هذا المعنى يقول الأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي[(٤)]: «إن الآيات التي تلي هذه الحروف المقطعة نراها تتحدث صراحة أو ضمنًا عن القرآن الكريم وعن كونه من عند الله -تعالى- وعن كونه معجزة للرسول ﷺ ففي مطلع سورة البقرة يقول الله تعالى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٥)]

وهكذا نجد أن معظم الآيات التي تلي الحروف المقطعة منها ما يتحدث عن أن هذا القرآن من عند الله - سبحانه- ومنها ما يتحدث عن وحدانية الله -تعالى-، ومنها ما يتحدث عن صدق الرسول ﷺ في دعوته.

وهذا كله لتنبيه الغافلين إلى أن القرآن الكريم من عند الله، وأنه المعجزة الخالدة للرسول ﷺ» ا هـ.

وممن أسهم في هذا القول من المحدثين إسهامًا جيدًا، الدكتورة عائشة عبد الرحمن:

حيث إنها ركزت على ما نبه إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بشأن اقتران هذه الفواتح الهجائية بالانتصار للقرآن، والاستدلال على إعجازه.

وقد تناولت السور التي استثناها البعض، وهي سور: مريم، العنكبوت، الروم، بالتدبر واستخراج ما بها من آيات تدل على أنها لا تخرج عن هذه القاعدة، وهو ما لحظه الإمام ابن كثير حيث قال: «يذكر فيها...».

لا يقيد الانتصار للقرآن بالآيات التالية للفواتح، وإنما يطلقه فيجيء في أي موضع

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١/ ٢١٣.

(٢) تفسير المنار جـ ١/ ١٢٢، وقد سبق ذكر كلامه في القول الخامس بما يغني عن إيراده هنا.

(٣) تفسير القرآن الكريم ص ٦١، ٦٢.

(٤) تفسير الوسيط لسورة يوسف ص ٣٤ -باختصار ط الثالثة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م -مكتبة السعادة.

(٥) سورة البقرة ١، ٢.

من السورة[١].

فمـــثلاً وضحت في سورة مريم، أن الله -عز وجل -ذكر فيها الكتاب- هو القرآن- خمس مرات ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾[٢].

وهو نوع من الاعتداد بالقرآن وتعظيمه، مما يطرد ملحظ ابن كثير في هذه السورة أيـــضا، ومـــزيدًا من التأييد لكلامها قامت بترتيب السور المفتتحة بهذه الحروف حسب تـــاريخ النزول، ثم استقراء موضوعاتها، وآياتها استقراء يكشف عن مدى صلتها الوثيقة بقضية الإعجاز والتحدي.

وقد جاء حديثها أولاً: عن نزول سورة القلم بعد سورة العلق - أول السور نزولا - مبـــتدأة بحرف (ن) وذلك للفت النظر: "إلى سر الحرف الذي هو مناط القراءة والعلم والبـــيان، تنطق به في حروف التهجي، منفردا منقطعا فلا يعطي أي معنى أو دلالة، وما يخرج عن مجرد صوت. ثم يأخذ الحرف موضعه من الكلمة في تجلي سره الأكبر..."[٣].

ثم أشـــارت بعـــد ذلك إلى المواضع اللاحقة لباقي السور المتتالية لسورة القلم في الـــنزول، مؤكدة في استقرائها لهذه السور أنها ما افتتحت بهذه الفواتح الهجائية إلا ليكون ذلك أدعى إلى التأمل في لبنات اللغة الأساسية لبنة لبنة، في تمهل وتؤدة، وتفكر وتدبر، أن هـــذه اللبنات - في حد ذاتها - غير معجوز عنها، لكنها حين تنضم إلى بعضها البعض، وينسج منها كلمات وأساليب لا تدخل في طاقة بشر.

الدليل الثاني على أنها للإعجاز:

أن ورودها هكذا مفرقة على السور في القرآن الكريم حيث لم ترد كلها في مكان واحـــد، كأن الحق - تبارك وتعالى - ينبه أعداءه هؤلاء المعارضين لهذه المعجزة الكبرى بـــين الحين والحين إلى أمر التحدي، بأن يثير فيهم حميتهم وغيرتهم القوية، ويوقظ هممهم الأبـــية لكي يعاودوا النظر، ويدخلوا ميدان المبارزة مرة، ومرة، ومرة حتى يتبين لهم أنه الحـــق، وفي ذلك أيضا تنبيه على إعجازه ومدى عظمته، فهو يثير فيهم بين آونة وأخرى داعية الفكر والتأمل في هذا الكتاب المتلو عليهم، وتكريرها هكذا على هذا النمط ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت، فيكون بذلك أوصل إلى الغرض المقصود، وهو تمكين المكرر

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص ١٤٣.

(٢) ذكرت في سورة مريم آية ١٦، ٤١، ٥٤، ٥٦.

(٣) الإعجاز البياني للقرآن ص ١٤٦، ١٤٧، وينظر التفسير البياني للقرآن الكريم للدكتورة عائشة عبد الرحمن" بنت الشاطئ" جـــ ٢/٤٣ - دار المعارف بمصر- ط الثانية.

في الأسماع والقلوب وتقريره، فإن فائدة التكرير بزيادة التأكيد بأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وأنه دليل صدق رسوله ﷺ وأن كل ما جاء به حق، وكل ما حدث به صدق، وأنـــه يلزم من بلغه وسمعه أن يستمسك به ويعض عليه بالنواجذ، ويعتصم به فهو الهدى الذي لا هدى بعده، وتأكيدا لهذا المعنى يقول صاحب الكشاف[١]:

فإن قلت: فهلا عددت بأجمعها في أول القرآن؟ وما لها جاءت مفرقة على السور؟

قلـــت: لأن إعـــادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض، وأقر له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره" ا هـــ.

وفي إيضاح هذا يقول أيضا محيي الدين شيخ زاده[٢]: "ولما كان تقديم ما يدل على الإعجـــاز في معـــنى التحدي بالقرآن والتنبيه على إعجازه كان في التفريق إعادة وتكرير لـــذلك الـــتحدي والتنبيه، وكان في التفريق على السور الكثيرة البالغة إلى تسع وعشرين سورة مبالغة في كل واحد منها، ومن المعلوم أن نفس الإعادة والتكرير والمبالغة فيهما لا تـــصلح فائدة للتفريق إلا بملاحظة مرادها، وهو تمكن المعنى المكرر، وتقرره في النفس فإنه كلما ازداد تكرره زاد تقرره كما يقال: المعنى إذا تكرر تقرر، وهذا هو الوجه في كل مـــا جـــاء في القـــرآن مكررا سواء كان باتحاد اللفظ كقوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكـــذبان﴾[٣]. وآيات غيرها، أو بدونه كما في القصص المكررة بألفاظ أخر، فالمقصود منه تمكين المقرر في الأسماع والقلوب وتقريره فيها " ا هـــ.

الدليل الثالث:

أن هذه الحروف الفواتح لم تأت على وتيرة واحدة بل جاءت مختلفة، فمنها ما جاء علـــى حرف واحد مثل (ص، ق، ن)، ومنها ما جاء على حرفين مثل (طه، طس، يس، حـــم)، ومنها ما جاء على ثلاثة أحرف مثل (الم، الر، طسم) ومنها ما جاء على أربعة أحرف مثل (المص، المر)، ومنها ما جاء على خمسة أحرف مثل: (كهيعص، حم عسق)، وذلك يتناسب مع أبنية الكلام الذي يتكلم به العرب فهو لا يخرج عن هذا العدد، ولذا سلك القرآن الكريم هذا المسلك في هذه الفواتح موافقة لتصرف العرب في أبنية كلماتهم

---

(١) الكشاف للزمخشري جـــ ١/ ٣٠.

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـــ ١/ ١٢٩.

(٣) سورة الرحمن / آية (١٣).

على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف أصول، فهي مناسبة لأبنية الكلمات العربية.

يقول الإمام العلامة الزمخشري[١]: فإن قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة؟ ولم اختلفت أعداد حروفها... ؟

قلـــت: هذا على عادة افتنانهم في أساليب الكلام، وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوعة، وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك". ا هـــ.

وقد ذكر هذا الإمام الرازي[٢]، وأبو السعود[٣]، والنسفي[٤].

الدليل الرابع:

وممـــا يؤيد القول بأن هذه الحروف الفواتح نزلت للتحدي والإعجاز، أن معظم السور القرآنية المفتتحة بهذه الحروف المقطعة، نزلت بمكة.

يقـــول الإمـــام الطاهـــر بن عاشور[٥]، بعد أن ساق القول بأنها نزلت للتحدي والإعجـــاز: " ويؤيده أن معظم مواقع هذه الحروف في أوائل السور المكية عدا البقرة – علـــى قـــول من جعلوها كلها مدنية – وآل عمران، ولعل ذلك لأنهما نزلتا بقرب عهد الهجرة من مكة وأن قصد التحدي في القرآن النازل بمكة قصد أولي " ا هـــ.

وذلك أن أهل مكة أهل عناد وغفلة، وإعراض ومعارضة، وأكثر مما يستعمل هذا الأسلوب في مخاطبة الغافلين والجاهلين والمعرضين، جاءت هذه السور بتلك الافتتاحيات للإيقاظ والتحدي بآيات الكتاب الخالد المعجز المبين.

وثمـــة دليل آخر على أن هذه الحروف المقطعة إنما نزلت للتحدي والإعجاز، وهـــو نطق الرسول ﷺ بأسماء هاته الحروف على هذا الوجه الذي نقرؤها عليه، ففي ذلك إعجاز، وأي إعجاز!

بيان ذلك:

أن النطق بأسماء الحروف لا ينطق بها إلا من درس وتعلم، أما الأمي الذي لم يسبق له تعلم فلا يستطيع أن يتلفظ بأسماء الحروف، بخلاف مسمياتها فيستوي في إمكان النطق

---

(١) الكشـاف جـــ ١/٣٠، ٣١.
(٢) مفاتيح الغيـب جـــ ١٤/٢.
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـــ ٢٢/١.
(٤) تفسير النسفي جـــ ١٠/١.
(٥) التحرير والتنوير جـــ ٢١٣/١.

بهـا المـتعلم والأمي، فمثلا لفظ "ضرب" يستوي في النطق به المتعلم والأمي ولكن إذا طلـب من كل منهما أن يتلفظ بأسماء الحروف المكون منها هذا اللفظ على نمط التهجي فـيقول: ضاد - راء - باء، فإنه وإن استطاع ذلك غير الأمي وهو مستطيع لا محالة، إلا أنه مستبعد من الأمي استبعاد الخط والتلاوة.

والـنبي ﷺ حين بعث كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ولم يجلس إلى معلم قط، وعلى الرغم من ذلك كان ينطق بأسماء هاته الحروف، وبمسمياتها، فكيف استطاع ﷺ أن ينطق بأسماء هاته الحروف وهو بهذه الصفة؟

وقد شهد على أميته - عليه الصلاة والسلام - من عاصروه بل وقد اشتمل القرآن الكـريم على الكثير من الآيات التي تشهد بأميته، فقد بين سبحانه وتعالى أن في أميته ﷺ وعـدم معرفته القراءة والكتابة منعا لريبهم أن القرآن هو من عند الله فقال تعالى: ﴿وما كـنت تـتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾(١) كما أن الكـتب السماوية السابقة التي بشرت به - عليه الصلاة والسلام - قد ذكرت أن هذه صفته وهي الأمية، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل.....﴾(٢).

﴿وكـذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾(٣).

فنجده ﷺ كان ينطق بـ (الم) كيفما نزل بها سيدنا جبريل - عليه السلام - وهذه الحروف الثلاثة جاءت مركبة أيضا في قول المولى - عز وجل-:

﴿ألم نـشرح لـك صدرك﴾(٤)، وكان النبي ﷺ ينطق بها كما علمه أمين الوحي جـبريل - علـيه السلام-، فكون النبي ﷺ نطق بأسماء هاته الحروف على هذه الكيفية، والإتـيان بهـا في الجمل القرآنية في عبارات جزلة قوية على الأساليب البليغة الفصيحة العربية، مع اشتهاره بأنه لم يكن ممن درس وخط، لدليل مادي أمام الناس جميعًا على أنه لم يـأت بهـذا القرآن من عند نفسه كما تقول المتقولون فقد حكاه عنهم المولى - عز

---

(١) سورة العنكبوت / آية (٤٨).
(٢) سورة الأعراف / آية (١٥٧).
(٣) سورة الشورى/ آية (٥٢).
(٤) سورة الشرح / آية (١).

وجل - في قوله تعالى: ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾[١].

وإنمـــا ذلك حاصل له من جهة الوحي، فهو يتلقاه من لدن حكيم عليم، مما يدل على أن هذا القرآن هو من عند الله، وعلى صدقه ﷺ فيما يبلغ به عن رب العزة، وشاهد عدل على صحة نبوته - عليه أفضل الصلاة والسلام-.

وقد تحدث الإمام الزمخشري عن هذا القول بتفصيل أكثر،مما يدل على تقويته وأيد له، حيث قال[٢] ما نصه:

"أن تـــرد الـــسورة مـــصدرة بتلك [الأحرف المقطعة] ليكون أول ما يقرع الأسمـــاع مـــستقلا بوجه من الإغراب، وتقدمه من دلائل الإعجاز، وذلك أن النطق بالحـــروف أنفـــسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام: الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامي الحروف، فإنه كان مختصا بمن خط وقرأ، وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مستغربا مستبعدا من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة كما قال - عز وجل-:

﴿ومـــا كـــنت تـــتلو مـــن قـــبله مـــن كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾[٣].

فكان حكم النطق بذلك مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئا من أهله - حكم التنـــصيص المذكور في القرآن، التي لم تكن قريش ومن دان بدينها في شيء من الإحاطة بهـــا، في أن ذلـــك حاصل له من جهة الوحي، وشاهد بصحة نبوته، وبمنزلة أن يتكلم بالرطانة من غير أن يسمعها من أحد " ا هــ.

وقـــد اعتبر الزمخشري أن هذا وجه مستقل في المراد من الأحرف المقطعة[٤]، كما تبعه في ذلك كثير من العلماء كالإمام الرازي[٥]، وأبي السعود[٦]، وغيرهم[٧].

---

(١) سورة المدثر / آية (٢٥).

(٢) الكشاف جـــ ١/٣٨، ٣٩، وينظر البيضاوي بحاشية شيخ زاده جـــ ١/ ١٢٠، ١٢١.

(٣) سورة العنكبوت / آية (٤٨).

(٤) ذكر الزمخشري في معاني هذه الفواتح وجوها ثلاثة: أولها أنها أسماء للسور، وثانيها: أنها وردت هكذا على أسماء الحروف للإيقاظ، وثالثها: أنها مقدمة لدلائل الإعجاز - ينظر الكشاف جـــ ١/ ٣١: ٣٩.

(٥) مفاتيح الغيب - جـــ ٢/٩، في القول السابع عشر حسب تصنيفه.

(٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـــ ١/ ٢٢.

(٧) وقد قال به كذلك الشيخ طنطاوي جوهري في تفسره - ينظر الجواهر في تفسير القرآن الكريم

وأيضا تبعه الإمام البيضاوي[١] في صنيعه، وتعقبه محيي الدين شيخ زاده[٢] بقوله:

"والفرق بين هذا الوجه، والوجه الأول مع اشتراكهما في الدلالة على أن المقصود من هذه الفواتح التنبيه على إعجاز المتلو عليهم، أن الوجه الأول يدل على إعجاز القرآن في نفسه مع قطع النظر عن حال مبلغه من حيث إنه منظوم مما ينظمون منه كلامهم مع أنهم عجزوا عن معارضته، والوجه الثاني: يدل على إعجازه بالنظر إلى حال مبلغه ومن تكلم به، فإن النطق بأسماء الحروف يختص بمن خط أي كتب ودرس أي قرأ الكتاب، فإذا نطق الأمي بأسماء الحروف من غير أن يتعلم، ظهر أن علمه بذلك إنما هو بطرق الوحي، وإن لم يوح إليه عاجز عن مثله" اهـ.

وهو بذلك يوضح أن الوجهين يشتركان في الإشارة إلى أمارة الإعجاز، ويفترقان بأن الأول: معجز بالنظر إلى حال الكلام المنزل، والثاني: معجز ولكن بالنظر إلى حال المتكلم به.

ولذلك عند ترجيحه للآراء، اعتبروهما وجها واحدا حيث قال: والوجه الأول: أقرب إلى التحقيق.. "[٣].

وذلك لاشتراكهما في الدلالة على أن المقصود من هذه الفواتح التنبيه على إعجاز المتلو منهم مع قطع النظر عن كونه معجزا في نفسه، أو بالنسبة إلى جريانه على لسان من حق به من الأمي.

وقد ساق محيي الدين شيخ زاده اعتراضًا على الوجه الثاني الذي ذكره البيضاوي وأجاب عنه، وهو:

واعترض على الوجه الثاني: بأن نطق الأمي بها لا يدل على الإعجاز، لإمكان تعلمها في أقصر مدة ولو بسماع من صبي.

وأجيب عنه: بأن المستغرب ليس بمجرد التلفظ بها بل هو مع رعاية لطائف ذكرت متصلة بهذا الكلام ولا يمكن رعايتهما لأمي إلا بالوحي.

وأجيب عنه أيضا: بأن تعلم أسماء الحروف في أقصر مدة ولو بطريق السماع من

جـ ٢/٧ – ط ١، مصطفى الحلبي – ط الثانية ١٣٤٠هـ.

(١) تفسير البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جـ ١/ ١٢٠، ١٢١.

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي – جـ ١/ ١٢٠.

(٣) تفسير البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جـ١/١٤٠.

صـــبي، وإن كان أمرا ممكنا في نفسه إلا أن ذلك ليس يمكن في ذلك الزمان؛ لأن العلم بأسماء الحروف لم يكن في جملة قبائل قريش في ذلك الوقت سوى اثنين أو ثلاثة من أهل الخط والهجاء، فكأن المعترض قاس ذلك الزمان بالزمان الذي هو فيه(١)" ا هـــ.

وهذا الاعتراض هو ما أبطل به هذا القول الإمام الطاهر بن عاشور، حيث قال بعد أن ذكـــر أن كـــون النبي الأمي الذي لا يقرأ قد نطق بأصول القراءة، كما ينطق بها مهرة الكتبة، فيكون النطق بها معجزة، فهي إعجاز بالفعل قال: " وهذا بين البطلان؛ لأن الأمي لا يعسر عليه النطق بالحروف(٢)".

وقـــد ذهـــب الطاهر بن عاشور بعيدا عن موضع المناقشة، إذ الكلام في أسامي الحروف لا في الحروف نفسها.

كمـــا أن هـــذا القول له صلة وثيقة بالقول: إنها للتحدي والإعجاز، ومن ثم فهو داخل في هذا القول دخولا أوليا وليس قولا منفردا.

وحتى يستقيم هذا القول لقائليه، لا بد من عرض ما يوجه إليه من اعتراضات حتى تنجلي صحته.

وبالنظـــر إلى مـــا يمكـــن أن يوجه إلى هذا القول من اعتراضات، إنما هي تعتبر اعتراضـــات عامة يمكن أن ترد على كل قول ذكر في معنى الأحرف المقطعة - من هذه الاعتراضات:

أنه لا يلزمه من ذكر القرآن ووصفه بعد هذه الفواتح، أن يكون المراد من الفواتح مـــا ذكروه من الإشارة إلى التحدي والإعجاز، إذ لا مانع من أن يكون المراد منها كونها أسماء القرآن، أو السورة، أو لله تعالى الذي أنزله، أو غير ذلك، ولا يخفى مناسبة الحديث عـــن القرآن بعده لمثل ذلك أيضا، فلا يتعين ما ذكروه والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال(٣)".

ويمكن الرد على ذلك إجمالا خوفا من الإطالة، وتكرار ما ذكرته عقب كل قول في الأحرف المقطعة:

أن كونها إشارة إلى التحدي والإعجاز، لم يجزم أحد من العلماء بأن هذا المعنى هو

---

(١) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـــ ١/ ١٢٠.

(٢) التحرير والتنوير جـــ ١/ ٢١٥.

(٣) ينظر مختصر البيان في فواتح سورة القرآن للدكتور / حسن يونس عبيدو – ص ١٩ – ط مركز الكتاب للنشر – القاهرة ١٤١٣هـــ.

المـــراد منها، وإنما غاية ما يذكرونه ويريدونه من هذا القول هو: الحكمة من إيرادها مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها.

وقد اعتبر الطاهر بن عاشور هذا القول معنى كنائيا لا معنى صريحا، حيث قال:

"... لأن لها دلالة تعريضية كنائية، إذ المقصود إظهار عجزهم أو نحو ذلك، فهي تطابـــق مقتـــضى الحال مع ما يعقبها من الكلام، ولا يشترط في دلالة الكلام على معنى كنائي أن يكون له معنى صريح.. [١] " ا هـــ.

وصرح السيد رشيد رضا بأن هذا القول بمجرد إشارة إلى الحكمة فقال:

" اقتصر على جعل حكمتها الإشارة إلى إعجاز القرآن بعض المتحققين من علماء اللغة وفنونها.. ." [٢].

وقـــال أيضًا: "... إن عدم إعرابها - يقصد الأحرف المقطعة - يرجح أن حكمة افتـــتاح بعـــض السور المخصوصة بها للتنبيه لما يأتي بعدها مباشرة من وصف القرآن، والإشارة إلى إعجازه[٣]" ا هـــ.

ومـــن القـــائلين بهذا الرأي أيضًا الشيخ محمود شلتوت مع تفويضه العلم بمعناها، وتحذيـــره مـــن الخوض فيما لا سبيل إلى علمه، حيث قال بعد ذلك: "... وحسبهم أن يعـــرفوا أن الإتـــيان بهذه الفواتح على هذا الأسلوب الذي لم يكن مألوفا في الكلام، ولا معـــروفا عـــند العرب، كان قرعا لأسماع أولئك الجاحدين الذين تواصوا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن وأن يلغوا فيه... كان هزا لقلوبهم، ودفعها بهم إلى إلقاء السمع، وتدبر ما يلقى، وقد جاء بعد هذه الحروف في الأعم الأغلب نبأ ذلك الشأن العظيم وهو كتاب الله...[٤]".

وقـــد أشـــار إلى هذا المعنى أحد الباحثين فقال: " ولعل مراد المفسرين القائلين بالأقـــوال الأخرى كونها حكما أو فوائد، تستفاد من الفواتح دون القصد إلى كون هذه الأقوال هي المعنى المراد من الفواتح".

وقال: "ولا مانع من وجود حكم أو فوائد تعرف من هذه الفواتح كأن يتحقق بها

(١) التحرير والتنوير جـــ ١/ ٢١٨.

(٢) تفسير المنار جـــ ١/ ١٠٦.

(٣) المرجع السابق جـــ ١/ ١٠٦.

(٤) تفسير القرآن الكريم ص ٦١.

الإعجاز للمخاطبين[١]..".

وبعد هذا العرض المفصل الوافي الذي أظهر صحة هذا القول، وكثرة القائلين به من علماء اللغة والتفسير، القدامى منهم والمحدثين، ووجوه استدلالهم وحججهم على ما ذهبوا إليه، مما جعله فيما أرى أصح الآراء وأظهرها بل أقواها، وهو المختار عندي.

إن من خلال التأمل والتفكر في هذه الحروف المقطعة يظهر إعجاز القرآن وتحديه في كـــل موضع منها، إذ إن المولى - عز وجل - قد أمعن في التحدي وكرره في تسع وعشرين سورة، كما تحداهم صراحة في مواضع كثيرة من كتابه العزيز ومع ذلك لم يأتوا بشيء من مثله، فقد باؤوا بالهزيمة والخزي والبوار، فكان التحدي هو أنجح الأساليب في إثبات أن القرآن الكريم كلام خالق القوى والقدرة، وهو وإن كان على أساليب الخلق إلا أنه قوة صاحبه.

قال تعالى: ﴿كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[٣].

وفي تكريـــر التحدي لهم بتكرير فواتح السور بالحروف المقطعة وتنوعها قرع لهم بالعـــصا، وإيقاظا لهممهم الأبية، واستثارة لغيرتهم وحميتهم القوية، لكي يعاودوا النظر في الكـــتاب المـــتلو عليهم مرة ومرة حتى يتبين لهم أنه الحق، وما ذلك إلا رحمة من الله - ســبحانه وتعـــالى - بعباده، واعتناء بخلقه، وغيرته على كتابه ورسوله، حيث يفتح لهم فـــرص الـــتأمل والتفكـــر بين الحين والحين لينقذهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراطه المستقيم.

ولم يستعمل الافتتاح بالأحرف المقطعة في كل السور اكتفاء بالبعض، إذا الإعجاز القـــرآني إذا تحقق في البعض تحقق في الكل، ولو افتتحت الأحرف المقطعة بكل السور لكن مغيرا للأسلوب العربي؛ فإن كلام العرب ليس على نظام واحد في الإفهام.

القول الثامن:

إن هـــذه الحروف المقطعة رموز لمدة دوام هذه الأمة، فإن كل حرف منها إشارة إلى مدة أقوام وآجال آخرين، وهذا معناه أن هذه الحروف لها قيمة عددية، وهو المعروف

(١) مختصر البيان في فواتح سور القرآن ص ٩٥.

(٢) سورة هود/ آية (١).

(٣) سورة فصلت / آية (٤١، ٤٢).

بحساب الجمل[(١)]، فيكون إيراد هذه الفواتح للإشارة بها إلى مدة بقاء الإسلام أو الأمم أو الدنيا، وهي طريقة حسابية أدخلها اليهود وتلقوها عن سحرة بابل[(٢)] ويستخدمها السحرة والمنجمون والكهان في طلاسمهم ورموزهم.

أما في التفسير فإن هذا القول معزو إلى أبي العالية حيث قال: "ما منها حرف إلا في مدة قوم وآجال آخرين[(٣)]".

ويستدل أصحاب هذا القول بما جاء في الخبر عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس وجابر بن عبد الله بن رئاب قال: مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة: ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ فأتى أخاه حيي بن أخطب في أولئك النفر من يهود فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل الله - عز

---

(١) حساب الجمل: بضم الجيم وتشديد الميم المفتوحة هو جعل أعداد لكل حرف من حروف المعجم بأن يرمز لكل حرف برقم، والأحرف على الترتيب الأبجدي المعروف: "بأبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ"، فيجعلون للألف: ١، وللباء: ٢.. وهكذا إلى ١٠، ويليه الكاف ٢٠، ثم مضاعفاتها إلى ١٠٠، ثم الراء ٢٠٠، ثم مضاعفاتها إلى ١٠٠٠، ورقم ١٠٠٠ لحرف الغين آخر حروف أبجد.

وحساب الجمل له طريقان: صغير وكبير، فالمعروف المتداول يقال الصغير، وأما الكبير فيسحبونه بالبينات.

ينظر تاج العروس من جواهر القاموس جـ ٤/ ٣٤٢ - باب الدال - فصل الباء.

وكشاف اصطلاحات الفنون للشيخ العلامة محمد علي بن علي بن محمد التهانوي الحنفي المتوفى سنة ١١٥٨ هـ - جـ ١/ ٣٤٤ - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - ط الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ويراجع دائرة المعارف الإسلامية مادة أبجد جـ ١ ١/ ٥٩: ٦٣ - مركز الشارقة للإبداع الفكري - ط الأولى ١٤١٨ - ١٩٩٨م.

وينظر مادة "حساب" بالموسوعة العربية الميسرة - إعداد إبراهيم مدكور وآخرين - ط بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

(٢) ينظر رسالة شريفة فيما يتعلق بـ الأعداد للحروف.. إلخ - لـ محمد بن إسماعيل الصنعاني - ص ١٥ - تحقيق/ مجاهد بن محسن - مكتبة دار القدس - صنعاء - ط الأولى ١٤١٢هـ.

وينظر المعجم في فواتح السور للدكتور/ محمد أحمد أبو فراخ - ص ٤٩ - شركة مكتبة البخاري - الكويت ط الثانية ١٤١٣ هـ.

(٣) أخرجه ابن جزي في تفسيره جـ ١/ ٢٠٨، وابن أبي حاتم جـ ١/٣٣، ونسبه ابن عطية في تفسيره إلى أبي العالية، وغيره ينظر المحرر الوجيز جـ ١/ ٨٢، وغرائب التفسير وعجائب التأويل للشيخ تاج القراء/ محمود بن حمزة الكرماني جـ ١/ ١١٠ - تحقيق / د. شمران سركال يونس العجلي - ط الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م - دار القبلة للثقافة الإسلامية جدة، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، وينظر مفاتيح الغيب للفخر الرازي - جـ ٢/٨.

وجل- عليه ﴿الم ذلك الكتاب﴾ فقالوا: وأنت سمعته؟ قال: نعم، قال: فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿الم ذلك الكتاب﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى!

فقالوا: أجاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال: نعم!

قالوا: لقد بعث الله - جل ثناؤه- قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك!، فقال حيي بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ قال: ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: نعم قال: ماذا؟ قال: (المص) وقال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون فهذه مائة وإحدى وستون سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم قال: ماذا؟ قال: (الر) قال: هذه والله أثقل وأطول الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة، فقال هل مع هذا غيره يا محمد ؟ قال: نعم (المر) قال: فهذه والله أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة.

ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلا أعطيت أم كثيرا؟ ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، ومائتان وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون، فذلك سبعمائة سنة وأربع وثلاثون ! فقالوا: لقد تشابه علينا أمره ! ويزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾[1]"[2].

---

(١) سورة آل عمران / آية (٧).

(٢) رواة الطبري في تفسيره جـ ١/٢١٦: ٢١٨، والبخاري في التاريخ الكبير ٢/٢٠٧، ٢٠٨ دار الفكر – ط الثانية ١٣٨٥هـ – ١٩٦٢م، وابن هشام في السيرة النبوية جـ ٢/١٩٤، ١٩٥ تحقيق / مصطفى السقا وآخرون مطبعة مصطفى الحلبي – القاهرة ١٣٥٥هـ، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور جـ ١/ ٥٧، ٥٨- وزاد نسبته في الدر لابن إسحاق، وقال أخرجه ابن المنذر من وجه آخر عن ابن جريج، كما أورد الإمام الماوردي هذه الرواية في تفسيره جـ ١/ ٦٤، ٦٥، وأوردها الحافظ ابن كثير في تفسيره جـ ١/ ٢٥٧، ٢٥٨.

=

وقــد ذكر الإمام الطبراني توجيه أصحاب هذا القول القائلين بأنها: " حروف من حروف حساب الجمل دون ما خالف ذلك من المعاني، فإنهم قالوا: لا نعرف للحروف المقطعـة معنى يفهم سوى حساب الجمل، وسوى تهجي قول القائل: (الم) قالوا: وغير جائـز أن يخاطـب - جل ثناؤه- عباده إلا بما يفهمون ويعقلون عنه، فلما كان ذلك كذلك، وكان قوله (الم) لا يعقل لها وجه توجه إليه إلا أحد وجهين اللذين ذكرنا، فبطل أحـد وجهيه، وهو أن يكون مرادًا بها تهجي (الم)، صح وثبت أنه مراد به الوجه الثاني، وهـو حساب الجمل، لأن قول القائل: (الم) لا يجوز أن يليه من الكلام (ذلك الكتاب) لاستحالة معنى الكلام وخروجه عن المعقول، إن ولى (الم) (ذلك الكتاب)[1].

واحتجوا لقولهم هذا بالحدث السابق ذكره إلى أن قالوه في نهايته: «فقد صرح هذا الخبر بصحة ما قلنا في ذلك من التأويل، وفساد ما قاله مخالفونا فيه[2] ». وهم مع ذلك قد احتجوا بدليل عقلي ونقلي.

وقد تعقب هذا القول من العلماء قديمًا وحديثًا، خاصة وأن ما استدلوا به غير موجود في كتب السنة الصحاح.

أمـا الدليل العقلي فقد ورده المنكرون لهذا القول بأن: قصر المراد من الفواتح على وجهين: التهجي، وحساب الجمل غير مسلم، فالأقوال كثيرة وليس بعضها أولى من بعـض، وإذا سلمنا جدلاً بقصر المراد على هذين الوجهين فأنى لهم إبطال الأول منهما، وقد قال به جمهرة من المفسرين ثم أنى لهم تعيين الثاني وليس له مستند من النقل ولا من العقل[3]».

أمـا الدلـيل النقلي: فقد رده المنكرون لهذا القول من جهة السند ومن جهة المتن:

أمـا السـند: فهو مرفوض، وقد ضعف شيخ المفسرين الإمام الطبري إسناده حين قال وقال بعضهم: هي حروف من حساب الجمل -كرهنا ذكر الذي حكى ذلك عنه، إذ

يقول الأستاذ/ أحمد شاكر عند تحقيقه لهذا الحديث: " وقوله في آخره: ويزعمون أن هؤلاء الأيات..، وهو من تتمة الرواية، وهو من كلام ابن إسحاق حكاية عمن روى عنهم " ينظر هامش تفسير الطبري جـ ١/ ٢٢٠.

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري جـ ١/ ٢١٦: ٢٢٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) مختصر البيان في فواتح سور القرآن د. حسن عبيدو ص ٤٤.

كان الذي رواه مما لا يعتمد على روايته ونقله [١]».

وقـــال الحافظ ابن كثير: «فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد[٢]».

وقـــد نص الإمام السيوطي بصدد حديثه عن طرق ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: «وأوهى طرقه طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب[٣]».

وقال الإمام الشوكاني: سنده ضعيف[٤]».

وقال المحقق الأستاذ/ أحمد محمد شاكر[٥]:

هذا حديث ضعيف الإسناد جهله ابن إسحاق، فجاء به معلقا بصيغة التمريض..».

ثم سرد جميع الطرق، وأقوال المحدثين والمفسرين في القديم والحديث مبيّنًا من خلال ذلك مدى ضعف هذه الرواية، ونقدها المحقق المدقق، مستغرقًا في ذلك على ما يزيد عن صفحتين.

أمـــا المتن: روى الإمام السيوطي عن ابن حجر أنه قال[٦]: «وهذا باطل لا يعتمد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس –رضي الله عنهما– الزجر عن عد أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر ».

قال الحافظ[٧]: وليس ذلك ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة».

وقد أورد الإمام الكرماني في كتابه «غرائب التفسير وعجائب التأويل » هذا القول مبينًا بطلانه من ثلاثة أوجه:

أحدهما: أن هذه دعوى معرفة القيامة، وذلك مما استأثر الله بعلمه، فقال: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾[٨] وأمثالها من الآيات.

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ج ١/ ٢٠٨.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١/ ٢٥٨.

(٣) الإتقان في علوم القرآن جـ ٤/ ٢٠٩– النوع الثمانون في طبقات المفسرين.

(٤) فتح القدير جـ ١/ ٣٩.

(٥) ينظر جامع البيان عن تأويل القرآن للإمام الطبري جـ ١/ ٢١٨: ٢٢٠– هامش.

(٦) الإتقان في علوم القرآن جـ ٣/ ٢٦، ٢٧.

(٧) المرجع السابق.

(٨) سورة الأعراف آية ١٨٧، سورة الأحزاب آية ٦٣.

والثاني: أن العرب لم تكن تعرف حساب الجمل، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، وإنما كان هذا علمًا يتعاطاه اليهود في ذلك الزمان، بدليل الخبر الذي رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في ﴿الم﴾ قال: إن رهطًا من اليهود... إلى آخر الخبر المروي.

الثالث: أنه أخذ حساب الجمل غير مكررًا، ولو أخذه مكررًا لكان أضعافًا[١]:

وأبطل الإمام البيضاوي هذا القول حيث قال، والحديث لا دليل فيه لجواز أنه تبسم -عليه الصلاة والسلام- تعجبا من جهلهم[٢]».

وفيه بحث لأنه لم يستدل بتبسمه -عليه الصلاة والسلام- بما بعد التبسم من تلاوته -عليه السلام- إياها عليهم بالترتيب المخصوص، وتقريرهم على استنباطهم، وكما جاز كون تبسمه -عليه الصلاة والسلام- لما ذكر جاز أيضا أن يكون تعجبًا من إطلاقهم على المراد، وقد يرجع هذا الاحتمال بمقارنة التلاوة والتقرير، فالتعرض لتبسمه- عليه الصلاة والسلام -لا طائل تحته [٣]».

وفي معرض التعقيب على هذا القول من جهة المتن يقول الحافظ ابن كثير[٤]:

«وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وصار في غير مطاره، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته».

وقال: «ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحًا أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها يبلغ منه جملة كثيرة، وإن حسبت مع التكرار فأعظم وأعظم، والله أعلم» ا هـ.

وقال ابن خلدون[٥]: «لا يقوم من القضية دليل على تقدير الملة بهذا العدد؛ لأن دلالة هذه الحروف على الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية، وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل، نعم إنه قديم مشهور، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة، وليس أبو ياسر وأخوه حيي ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلا، ولا من علماء اليهود؛ لأنهم كانوا بادية بالحجاز، غفلا من الصنائع والعلوم، حتى عن علم شريعتهم وفقه كتابهم

(١) انظر غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني جـ ١/ ١١٠: ١١٢.
(٢) ينظر تفسير القاضي البيضاوي بحاشية محيي الدين شيخ زاده جـ ١/ ١٣٨، ١٣٩. بتصرف.
(٣) ينظر حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي جـ ١/ ١٣٩.
(٤) تفسير ابن كثير جـ ١/ ٢٥٧، ٢٥٨.
(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٩- ط دار الشعب- القاهرة.

وملتهم، وإنما يتلقفوا مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة » اهـ.

وقد نقل الإمام الشوكاني هذا الحديث أيضا قاصدًا بذلك تفنيد ما احتجوا به وتضعيف ما استندوا إليه مبينًا غرضهم الأساسي من فهمهم لتلك الفواتح، هو عدم دخولهم في شريعته ﷺ والاستجابة لدعوته حيث قال(١): «وانظر كيف فهم اليهود عند سماع ﴿الم﴾ فإنهم لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز إلى ما يصطلحوا عليه من العدد الذي يجعلونه لها ثم ذكر الحديث وقال في نهايته: «فانظر ما بلغت إليه أفهامهم من هذا الأمر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب في شيء، وتأمل أي موضع أحق بالبيان من رسول الله ﷺ من هذا الموضع، فإن هؤلاء الملاعين قد جعلوا ما فهموه عند سماع ﴿الم ذَلِكَ الكِتَابَ﴾ من ذلك موجبًا للتثبيط عن الإجابة له والدخول في شريعته، فلو كان ذلك معنى يعقل ومدلول يفهم، لدفع رسول ﷺ ما ظنوه بادئ ذي بدء حتى لا يتأثر عليه ما جاؤوا به من التشكيك على من معهم » اهـ.

وممن أبطل هذا القول أيضا الإمام محمد رشيد رضا، حيث إنه لم يلقي إليه بالا، ولم يذكر ما قيل فيه من الروايات بل استسخفه واكتفى في ذلك بالإشارة إلى ضعف هذا القول حيث قال(٢): «إن أضعف ما قيل في هذه الحروف وأسخفه أن المراد بها الإشارة بأعدادها في حساب الجمل إلى مدة هذه الأمة، أو ما يشابه ذلك وروى ابن إسحاق حديثًا في ذلك عن بعض اليهود عن النبي ﷺ وهو ضعيف » اهـ.

ويقول الطاهر بن عاشور(٣) في معرض الرد على هذا القول: «وليس في جواب رسول الله ﷺ إياهم بعدة حروف أخرى من هذه الحروف المقطعة في أوائل السور تقرير لاعتبارها رموز لأعداد مدة هذه الأمة، وإنما أراد إبطال ما فهموه، بإبطال أن يكون مفيدًا لزعمهم على نحو الطريقة المسماة بالنقض في الجدل ومرجعها إلى المنع والمانع لا مذهب له، وأما ضحكة ﷺ فهو تعجب من جهلهم اهـ.

ويقول الدكتور صبحي الصالح(٤): وأدخل تلك الآراء في معنى الغموض قول من عد هذه الحروف على حساب الجمل، ليستنبط منها مدة بقاء الأمة الإسلامية، أو التنبيه

---

(١) فتح القدير للإمام الشوكاني جـ ١/ ٣٩، ٤٠.

(٢) تفسير المنار جـ ١/ ١٠٦.

(٣) التحرير والتنوير جـ ١/ ٢٠٨، ٢٠٩.

(٤) مباحث في علوم القرآن ص ٢٣٧.

على كرامة شخص، أو شيعة معينة».

ويقول المحقق بالحاج بن سعيد شريقي[1] صاحب تحقيق (تفسير كتاب الله العزيز) الشيخ هود بن محكم الهواري: «وحساب الجمل هذا من مناكير الإسرائيليات التي يحرم اعتقاد صحتها، ومن العجيب أن نرى اليوم بعض الدجالين ممن يدعي العلم يحاول أن يتنبأ اعتمادًا على هذه الحروف المقطعة، والأعداد الوهمية بنهاية هذه الأمة، أي: بقيام الساعة، وهذا كفر صراح، ومصادفة وقحا لنصوص القرآن القطعية، وللآيات البينات التي وردت في أمر قيام الساعة، وهذا مما استأثر الله بعلمه، وأرشد رسوله ﷺ أن يقول لمن يسأله عنها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾[2].

فكيف يزعم زاعم -وإن أوتي من العلم ما أوتي أنه يمكن لبشر أن يعرف أكل هذه الأمة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم » اهـ.

استدراك:

هذا وعلى الرغم من أن الإمام الطبري قد أبطل هذا القول بتضعيفه لهذه الرواية كما ذكرنا بادئ ذي بدء عند تعقيب العلماء على هذا القول، إلا أننا نجد أنه قد ارتضى هذا القول فيما بعد عند توفيقه بين الأقوال، وترجيحه للآراء، حيث ذكر أنه لا مانع من إرادة جميع أقوال سائر المفسرين بما في ذلك أنها من حروف حساب الجمل، بل إنه صرح بعد ذلك في كلامه «أنهن من حروف حساب الجمل[3]، وابن جرير نفسه عند ذكره لهذا القول، لم يذكر من روى هذا القول معللا ذلك بأنه مما لا يعتمد على روايته ونقله، وهذه صيغة صريحة في تضعيف القول.

وقد استدرك المحقق الأستاذ/ أحمد محمد شاكر علي ابن جرير قوله هذا، عند تحقيقه لحديث حساب الجمل: فبعد أن وضح أن هذا الحديث ورد بعدة أسانيد ضعاف من عدة كتب وبين جهة ضعفه ذاكرا في ذلك أقوال المفسرين والمحدثين قديما وحديثا

---

(١) ينظر هامش تفسير الكتاب العزيز للشيخ/ هود بن محكم الهواري من علماء القرن الثالث الهجري- حققه وعلق عليه/ بالحاج بن سعيد شريقي جـ ١/ ٧٩- الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠ – دار الغرب الإسلامي بيروت –لبنان.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٨٧.

(٣) ينظر جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري جـ ١/ ٢٢٢.

وذكـــر أن من ضمن من ضعف هذا جدا الإمام الطبري وتعجب بعد ذلك حيث قال[١]: «والطبري نفسه قد ضعفه جدا فيما مضى، إذ أشار إلى رواية عن ابن عباس: «روى جميع ذلـــك عن ابن عباس، وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله »، ثم ذكر أن الذي روى ذلك «الكلبي عن أبي صالح »، ووصف الحديث الذي رواه من طريقه بأنه «خـــبر في إســـناد نظر »، فكان عجبًا منه بعد هذا، أن يحتج بهذه الروايات المتهافتة، ويرضي هذا التأويل المستنكر بحساب الجمل!... بل هو يصرح بعد ذلك أن من المعاني التي ارتضاها: «أنهن من حروف حساب الجمل » !! ا هــ.

وعلـــى الرغم من النقد الذي وجهه لهذا القول من العلماء قديمًا وحديثًا، وإثبات مدى ضعفه بشتى الطرق، إلا أن هناك بعض العلماء من أخذ بهذا القول وارتضاه، منهم الإمام السهيلي حيث قال[٢]:

«وهذا القول من أحبار يهود، وما تأولوه من معاني هذه الحروف محتمل حتى الآن أن يكـــون من بعض ما دلت عليه هذه الحروف المقطعة، فإن رسول الله ﷺ لم يكذبهم فيما قالوا من ذلك ولا صدقهم » ا هــ.

وعلـــى مـــتن هذا الشطط ذكر الإمام الخويي: أن بعض الأئمة استخرج من قوله تعـــالى: ﴿الم غُلِـــبَتِ الرُّومُ﴾، أن بيت المقدس يفتحه المسلمون في سنة ثلاثة وثمانين وخمـــسمائة، ووقع كما قال[٣]: وذكر الإمام الألوسي عن العز بن عبد السلام أن سيدنا عليا -رضي الله عنه- استخرج وقعة معاوية من (حم. عسق)[٤].

ورأى بعـــض الشيعة في هذه الحروف الفواتح ما يستأنس به لخلافة الأمير علي -كـــرم الله وجهه- فإنه إذا حذف منها المكرر يبقى ما يمكن أن يخرج منه «صراط علي حـــق نمـــسكه »، ويرد عليهم بعض السنين الظرفاء بخطاب مستنبط من الفواتح نفسها

---

(١) ينظر هامش تفسير الطبري جــ ١/ ٢٢٠/ باختصار.

(٢) الروض الأنف في تفسير السيرة لابن هشام للفقيه المحدث أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ هــ جــ ٢/ ٤٠٣، ٤٠٤، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان ط الأولى ١٤١٨هــ- ١٩٩٧/.

(٣) ينظر الإتقان في علوم القرآن للـــيوطي جــ٣/ ٢٦، والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكاني -تحقيق، خديجة الحديثي وأحمد مطلوب- رئاسة ديوان الأوقاف العراق- ط الأولى ١٣٩٤هــ، ومباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص ٢٣٧.

(٤) روح المعاني جــ ١/ ١٧٠، وينظر فوائد في مشكل القرآن لعز الدين بن عبد السلام ص ٦١ تحقيق/ د. سيد رضوان على- دار الشروق- جدة- ط الثانية ١٤٠٢هــ.

بحروفها ذاتها غير المكررة «صح طريقك مع السنة »[١].

وفي ذلك يقول الإمام النيسابوري[٢]: سمعت بعض الشيعة يقول: هذه الفواتح إذا حذف منها المكررات يبقى ما يمكن إذا تركت منه « على صراط حق نمسكه »، وهذا غريب مع أنه متكلف، فلهذا أوردته » ا هـ.

ومن الخرافات التي بنيت على هذا القول، تحديد يوم القيامة عند بعض الدارسين المحدثين، بأنه سيكون في ١٧١٠ هـ اعتمادًا على حساب الجمل[٣]. وغير ذلك مما تناقلته الكتب.

يقول الدكتور/ عدنان زرزور[٤] عن حساب الجمل: «هو لون من ألوان الرجم بالغيب، استنبط منه بعضهم زمان وقوع بعض الحوادث، أو الدلالة على كرامة رجل بعينه وطائفة بعينها، مما لا تدل عليه هذه الحروف بأصل الوضع اللغوي، وربما كان ما استنبط منها أو حمل عليها يتعارض مع أبسط القواعد القرآنية نفسها » ا هـ.

وهكذا نجد أن بعض العلماء قد ارتضى هذا القول، والبعض الآخر قد شدد في إنكار هذا النوع من الاستخراج الحسابي الذي يعرف باسم «عد أبي جاد » والزجر عنه.

ولا ارتضى تفسير هذه الحروف المقطعة بحساب الجمل الذي قال به بعض العلماء:

أولاً: لأنهم استندوا في هذا التأويل إلى حديث موضوع فهذه الرواية من الروايات المتهافتة المستنكرة التي لا يستدل بها خاصة في هذه المواطن.

ثانيًا: إن حساب الجمل لم يكن معروفا لدى العرب، وعلى فرض معرفة العرب لهذا النوع من الحساب، فإنه يظل لا مدلول له.

ثالثًا: أن ممن يدعي العلم يحاول أن يتنبأ بهذه الأعداد الوهمية إلى نهاية هذه الأمة، وهذا كفر محض، وقد أبطل القرآن والسنة وحاربها مثل هذه الشعوذات والأباطيل الضالة، فضلا عن أن القرآن الكريم منزه عن مثل هذا الشيء الذي لا يفيد في قليل ولا كثير من الأهداف السامية التي جاء بها ومن أجلها القرآن العظيم.

---

(١) ينظر روح المعاني جـ ١/ ١٧٢، ومباحث في علوم القرآن د/ صبحي الصالح ص ٢٣٧.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ ١/ ٣٤٥.

(٣) حروف المعجم –د محمد أبو فراخ ص ٥٢، ونسب هذا القول إلى د/ رشاد خليفة.

(٤) القرآن ونصوصه –الدكتور عدنان زرزور– ص ١٤٨، ١٤٩– مطبعة خالد بن الوليد. دمشق ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠م.

وقـد شـدد الائمـة النكير على مثل ذلك، روى الإمام عبد الرازق في مصنفه، والبيهقـي في سننه[١] عن ابن عباس –رضي الله عنهما– أنه قال: «إن قوما يحسبون أبا جاد، وينظرون في النجوم، ولا أرى لمن فعل ذلك من خلاق».

رابعًا: أن معرفة الآجال هو علم غيبي، وهو مما استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يطلع عليه أحد من خلقه، فكيف يزعم من يدعي معرفة حساب حروف الجمل معرفة حساب العدد والأجال بهذا النوع من الحساب، والمولى تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢]

وعلـى هذا فإنه يحرم اعتقاد صحة ذلك، وبناء عليه فإنه لا يجب الخوض في مثل ذلك بأي طريقة كانت.

وبعد:

فإذا ثبت بطلان هذا القول من أصله، فإن ما يبني عليه باطل لا أساس له، ومن ثم لا يـصح تفـسير القرآن الكريم بمثل هذه الأوهام والتكهنات، والخرافات، لاسيما وقد علمنا أن السحرة والكهان هم الذين يستخدمون مثل هذه الأحرف والأرقام، والطلاسم في تنبؤاتهم التي نهينا عن تصديقها، وكذب المنجمون ولو صدقوا، والله أعلم.

القول التاسع:

إنها حرف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة، فهي شاملة لكل المعاني السالفة الذكر في المراد من الأحرف المقطعة، فهي إشارات إلى أسمائه تعالى وآلائه وبلائه ومدة الأقوام وأعمارهم وآجالهم.

وهـذا القول معزو إلى أبي العالية، والربيع بن أنس فقد أخرج الإمام ابن جرير[٣]، وابـن أبي حـاتم[٤]... عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله: ﴿الم﴾ قال: «هذه

---

(١) المصنف للإمام عبد الرازق الصنعاني جـ ١١/ ٢٦، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي المكتب الإسلامي– ط الثانية ١٤٠٣هـ.

(٢) سورة لقمان: آية ٣٤.

(٣) جامع البيان للطبري جـ ١/ ٢٠٨.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم جـ ١/ ٣٣، والرواية التي أخرجها ابن جرير موقوفة على الربيع بن أنس، وقد ذكر هذه الرواية أيضا ابن كثير جـ ١/ ٢٥٢، ٢٥٣، بعضها بالإسناد وبعضها دون الإسناد، وذكرها الإمام الزركشي في البرهان جـ ١/ ١٧٤، وذكرها الإمام السيوطي في الدر المنثور جـ ١/ ٥٩، كما سردها أيضا مع غيرها من الروايات في الإتقان كـ ٣/ ٢٦.

الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفًا دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو في آلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم، فالألف مفتاح اسمه: الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه: مجيد، فالألف آلاء الله، واللام لطف الله، والميم مجد الله، فالألف سنة، واللام ثلاثون، والميم أربعون».

ولفظ هذه الرواية لابن أبي حاتم: وأُعجب ابن فارس بهذا القول وعده قولا حسنا لطيفا، لأن الله تعالى أنزل على نبيه الفرقان، فلم يدع نظمًا عجيبًا، ولا علمًا نافعًا إلا أودعه إياه، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله [1]».

وقد ارتضى الإمام الطبري هذا القول وقال به، إلا أنه عاب على الربيع بن أنس بأنه، قصر دلالة كل حرف على ثلاث معان، فقط، واستصوب أن كل حرف منها يحوي ما قاله الربيع، وما قاله غيره من المفسرين، لم يستثن من ذلك إلا ما عابوه، حيث قال[2]:

«والصواب من القول عندي في تأويل مفاتح السور، التي هي حروف المعجم، أن الله -جل ثناؤه- جعلها حروفا مقطعة ولم يصل بعضها ببعض فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف؛ لأنه -عز ذكره- أراد بلفظه الدلالة بكل حرف منه على معان كثيرة، لا على معنى واحد، كما قال الربيع بن أنس، وإن كان الربيع قد اقتصر به على معان ثلاثة، دون ما زاد عليها.

والصواب في تأويل ذلك عندي: أن كل حرف منه يحوي ما قاله الربيع، وما قاله سائر المفسرين غيره فيه».

ثم أورد سؤالا وجوابه مدللا بذلك على أنه يجوز أن يكون حرفًا واحدًا شاملاً الدلالة على معان كثيرة، فقال ما نصه[3]: فإن قال لنا قائل: وكيف يجوز أن يكون حرف واحد شاملا الدلالة على معان كثيرة مختلفة؟

قيل: كما جاز أن تكون كلمة واحدة تشتمل على معانٍ كثيرة مختلفة كقولهم للجماعة من الناس: أمة، وللحين من الزمان: أمة، وللرجل المتعبد المطيع لله: أمة، وللدين

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١/ ١٧٤.
(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ ١/ ٢٢٠.
(٣) المرجع السابق جـ ١/ ٢٢١: ٢٢٣- باختصار.

والملــة: أمة، وكقولهم للجزاء والقصاص: دين، وللسلطان والطاعة: دين، وللتذلل دين، وللحــساب: دين، في أشباه لذلك كثيرة يطول الكتاب بإحصائها مما يكون من الكلام بلفظ واحد، وهو مشتمل على معان وكثيرة، وكذلك قول الله -جل ثناؤه-:

﴿الم﴾ و ﴿الر﴾ و ﴿المص﴾، وما أشبه ذلك من حروف المعجم التي هي فواتح أوائل السور، كل حرف منها دال على معان شتى.

ولو أراد الله -جل ثناؤه- بذلك أو بشيء منه الدلالة على معنى واحد مما يحتمله ذلك دون سائر المعاني غيره؛ لأبان ذلك لهم رسول الله ﷺ ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وفي تركه ﷺ إبانة ذلك، أنه مراد به من وجوه تأويله البعض دون البعض، أوضح الدليل على أنــه مراد به جميع وجوهه التي هو لها محتمل، إذ لم يكن مستحيلا في العقل وجه منها أن يكون من تأويله ومعناه، كما كان غير مستحيل اجتماع المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة باللفظ الواحد في كلام واحد.

ومن أبي ما قلنا في ذلك، سئل الفرق بين ذلك، وبين سائر الحروف التي تأتي بلفظ واحد مع اشتمالها على المعاني الكثيرة المختلفة، كالأمة والدين وما أشبه ذلك من الأسماء والأفعــال، فلن يقول في واحد من ذلك قولا إلا ألزم في الآخر التي وصفنا، عن البرهان علــى دعواه من الوجه الذي يجب التسليم له، ثم يعارض بقول مخالفه في ذلك، ويسأل الفــرق بينه وبينه، من أصل، أو مما يدل عليه أصل فلن يقول في أحدهما قولا إلا ألزم في الآخر مثله» ا هــ.

والإمــام الطبري هنا قد جمع تقريبا بين كافة الأقوال الأساسية التي مرت في تأويل الأحرف المقطعة، فرأى أنها «فواتح »، وأنها قسم، وأنها من حروف حساب الجمل على الرغم من رده لهذا القول الأخير- كما سبق وأشرت إليه- وأنها أسماء للسور هذا بالإضافة إلى أنها رموز لمعان متعددة وهو الوجه الذي اختاره قبل ذلك.

وسار الإمام ابن فارس على درب الإمام الطبري فذهب إلى: «أن الله -جل وعلا- افتتح السور بهذه الحروف إرادة منه للدلالة بكل حرف منها على معان كثير لا على معنى واحــد، فــتكون هــذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحًا، وأن يكون كل واحد منها، مأخــوذًا من اسم من أسماء الله تعالى، وأن يكون الله -عز وجل- قد وضعها هذا الوضع فــسمي بها، وأن كل حرف منها في آجال أقوام وأرزاق آخرين، وهي مع ذلك مأخوذة مــن صفات الله تعالى في إنعامه وإفضاله ومجده، وأن الافتتاح بها سبب لأن يسمع القرآن

من لم يكن سمع، وأن فيها إعلاما العرب أن القرآن الدال على نبوة محمد ﷺ بهذه الحروف، وأن عجزهم عن الإتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعالمة بينهم دليل على كفرهم وعنادهم وجحودهم، وأن كل عدد منها إذا وقع أول كل سورة فهو اسم لتلك السورة.

قال: وهذا هو الجامع للتأويلات كلها... وإنما قلنا هذا؛ لأن المعنى فيها لا يمكن استخراجه عقلا من حيث يزول به العذر، ولأنه المرجع إلى أقاويل العلماء ولن يجوز لأحد أن يعترض عليهم بالطعن وهم من العلم بالمكان الذي هم به، ولهم مع ذلك فضيلة التقدم ومزية السبق، والله أعلم بما أراد من ذلك»[١]. ا هـ

وقد تعقب هذا القول من الناقد البصير الحافظ ابن كثير حيث ذكر حاصل كلام الإمام ابن جرير، وتوجيهه لما ذكر من الأقوال، ثم وضح أن ما نقله الربيع بن أنس عن أبي العالية، ليس كما ذكره أبو العالية، وأن لفظه الأمة وغيرها من الألفاظ المشتركة في معان كثيرة مختلفة، إنما تدل على معنى واحد دل عليه سياق الكلام في موطن الكلام نفسه، فلفظة الأمة تطلق ويراد بها عدة معاني في القرآن الكريم، فهي تطلق ويراد بها الدين، كقوله تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾[٢].

وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

وتطلق ويراد بها الجماعة كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾[٥].

وتطلق ويراد بها الحين من الدهر كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[٦].

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لأبي الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ ص ١٣٤- تحقيق مصطفى الشويمي -مطابع بدران -بيروت ١٩٦٤م. وينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١/ ١٧٥.

(٢) سورة الزخرف آية: ٢٢.

(٣) سورة النحل آية: ١٢٠.

(٤) سورة القصص آية: ٢٣.

(٥) سورة النحل آية: ٣٦.

(٦) سورة يوسف آية: ٤٥.

فقـــال مـــا نصه[١]: «هذا حاصل كلامه موجهًا، ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالـــية، فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا وعلى هذا، وعلى هذا معًا، ولفظة الأمـــة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح إنما دل في القرآن في كل موطن علـــى معنى واحد دل عليه سياق الكلام، فأما حمله على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول، ليس هذا موضع البحث والله أعلم.

- ثم إن لفظـــة الأمة تدل على كل من معانيها في سياق الكلام بدلالة الوضع، فأما دلالـــة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى مـــن الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره، فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف، والمسألة مختلف فيها، وليس فيها إجماع حتى يحكم به » ا هـــ.

ولقـــد مـــال إلى هذا القول وارتضاه الإمام الواحدي، حيث أورد النص عن أبي العالية، وقال[٢].

«وقـــد ذكرت عيون أقاويل أهل التأويل، وليس يبعد أن يقال: عن جميع ما ذكر من هـــذه التأويلات كلها مرادة بهذه الحروف مودعة فيها، ولا تنافي في هذه الأقوال؛ لأنه ليس كون هذه الحروف مفاتح أسماء الله -تعالى- بمانع أن تكون مما أقسم الله بها، ولا أن يشير بها إلى مدة قوم وآجال أناس، عرف الله نبيه -عليه السلام- ذلك على الخصوص » ا هـــ.

وعاد الإمام الآلوسي إلى درب الطبري فذكر: «أن كل ما ذكر الناس فيها رشفة من بحـــار معانـــيها، ومـــن ادعى قصرًا فمن قصوره، أو زعم أنه أتى بكثير فمن قلة نوره، والعارف يقول باندماج جميع ما ذكروه في صدف فرائدها، وامتزاج سائر ما سطروه في طمطـــام فوائدها، فإن شئت فقل كما أنها مشتملة على هاتيك الأسرار يشير كل حرف منها إلى اسم من أسمائه -تعالى- وإن شئت فقل:... وإن شئت فقل غير ذلك حدث عن البحر ولا حرج »[٣].

أيضًا من المحدثين الذي قال بهذا الرأي ورجحه.

د/ عدنان زرزور حيث قال[٤]: «ليس هناك ما يمنع أن يراد بهذه الفواتح أكثر من معـــنى، وأنها جاءت لتؤدي أكثر من غرض في الكتاب الكريم... والذي يترجح عندنا أنه

(١) تفسير ابن كثير جـــ ١/ ٢٥٣.
(٢) التفسير البسيط جـــ ١/ ٤٨.
(٣) روح المعاني جـــ ١/ ١٧٠، ١٧١ باختصار.
(٤) مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه ص ١٦٢ باختصار.

أريد بها -والله أعلم- المعنيان الرئيسيان: التحدي والإعجاز من ناحية، والدلالة الموسيقية والتمهيد النفسي والشعوري من جهة أخرى، وهذا لا يتعارض مطلقا مع ما ذهب إليه بعض السلف من اعتبارها أسماء للسور القرآنية، بل إن فيما ذهب إليه السلف ما يشير إلى هذا الرأي الأخير؛ لأنهم قالوا في الفواتح: إنها أسماء السور ومفاتحها » ا هـ.

ويقول الدكتور/ جودة المهدي بعد أن ساق أقوال العلماء من السلف والخلف:

«فإنني لا أرى بأسًا من الجمع بين هذه الأقوال جميعها والإفادة من مضامينها الثرية المعطاءة المتعددة[1]» ا هـ.

ومن ثم فإن القول في ذلك مثل ما قال الإمام الباقوري -رحمه الله- بعد ما سرد الكثير من الآراء والوجوه في فواتح السور: «ولا ينبغي أن يخفى على أهل النظر أن هذه الآراء المختلفة ليس اختلافها اختلاف تضاد، بل اختلاف تنوع[2]».

والحق في رأيي أن القول باحتمال الحروف المقطعة لجميع الآراء التي قيلت فيها، هو قول غير منضبط بل ويسمح بفتح الباب على مصراعيه لكل من أراد أن يتكلم في هذه الحروف بما يعقل وبما لا يعقل، ومثل هذا لا يمكن قبوله.

كما أن هذا القول يدل على مدى حيرة أصحابه، ويعبر عن ترددهم في فهم المراد من هذه الأحرف مما جعلهم لا يستطيعون الحسم بترجيح قول منها أو حتى بترجيح بعض الآراء، واتخاذ موقف واضح في فهمها.

كلمة أخيرة:

فإن هذا بعض الأقوال التي ذكرت في معنى الأحرف المقطعة، إن لم تكن أهم الأقوال التي لاقت بعض القبول لدى بعض العلماء قديمًا أو حديثًا.

ولكن الذي أطمئن إليه في هذا الأمر وأقوله، بعد هذه الأقوال والتعقيبات التي مرت بنا في هذا الفصل: أن من هذه الأقوال ما لا يقبل أبدًا، ومنها ما هو مرجوح، ومنها ما هو راجح إن لم يكن الأرجح من زوايا معينة، وعلى معنى مخصوص كما تم توضيح ذلك آنفًا.

وقد لقي بأن الحروف آية التحدي والإعجاز، الرضا العام، ويكاد يقبل من غيره

---

(١) ضياء الفرقان في تفسير القرآن الأستاذ الدكتور/ جودة محمد أبو اليزيد المهدي جـ ١/ ١٥٨ ط ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

(٢) معاني القرآن بين الرواية والدراية للدكتور/ أحمد حسن الباقوري ص ٣٨- مركز الأهرام للترجمة والنشر -ط الأولى ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.

من الأقوال.

هـــذا مـــع الأخذ في الاعتبار أن المسلمين في عصر النبوة، كانوا يدركون مغزاها ومـــرماها، ولم يرفضها المناوؤون للإسلام من العرب، بل لم يغتمز أحد فيها بهفوة، ولم يجـــدوا فـــيها ثغرة وكان الأمر كما نقل الإمام السيوطي عن القاضي أبي بكر بن العربي قال[1]:

«والذي أقوله: إنه لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولا بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ بل تلا عليهم ﴿حم﴾ فصلت، و ﴿ص﴾، وغيرها، فلم ينكروا ذلـــك، بـــل صـــرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوفهم إلى عثرة وغيرها، وحرصهم على زلة، فدل على أنه كان أمرا معروفا بينهم لا إنكار فيه » ا هـــ.

والحقيقة التي لا أرى بأسًا أن يعد ما صح من هذه الأقوال حول الأحرف المقطعة من باب استخراج الحكم من وراء وجودها في القرآن العظيم، والله أعلم.

(١) الإتقان في علوم القرآن جـــ ٣/ ٢٧، النوع الثالث والأربعون: المحكم والمتشابه.

الفصل الخامس / وجوه الإعجاز القرآني للأحرف المقطعة

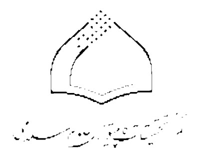
ويشتمل هذا الفصل على النقاط التالية:

-الإعجاز العددي.

-الإعجاز الصوتي.

-الإعجاز التركيـــبي.

-الإعجاز الدلالي.



الإعجاز العددي

إن الإعجـــاز العـــددي للقرآن موضوع هام بالفعل، وله أسسه الصحيحة التي يقوم علـــيهن وله نتائجه الحقيقية الملموسة أيضا، لكن بعض الذين تكلموا فيه لم يعدوا له العدة الكافـــية من الدراية بعلوم التفسير وأصوله، ففهموا أشياء في القرآن على غير وجهها، وبنوا علـــى ذلك نتائج فيما يرمون إليه غير صحيحة ولا متوافقة مع المقاصد الحقيقية لكتاب الله تعالى.

بـــل إن بعض هؤلاء قد دخل إلى هذا الموضوع مُظهرًا تحمسه للإسلام والقرآن، وهو في حقيقة أمره ينوى له الشرّ، حيث أخذ عن طريق مسألة "الإعجاز العددي" يبث كثير من السموم، ويروج لمذاهب ضالة باطلة.. وبخاصة أنه يقدم ما يقدمه تحت ستار العمل العلمي المضبوط بجهاز الكمبيوتر، مع أن الكل يعلم أن هذا الجهاز لا يأتي بشيء من عنده، وأنه يعطي ما يعطيه بناء على ما يقدم إليه من معلومات، بناء على الأسس التي تقوم عليها هذه المعلومات.. إن كانت صحيحة أو فاسدة.

ولعل أبرز مثال على ذلك هذا البحث الذي قام به أحد المصريين المقيمين بأمريكا (الدكـــتور محمد رشاد خليفة) بعنوان "معجزة القرآن الكريم- دلالة الحروف الغامضة"[(١)] حـــيث حاول أن يثبت فيه بإحصاءات العقل الإلكتروني تفوق تردد الحروف المقطعة في ســـورها علـــى تـــرددها في الـــسور الأخرى.. مع اهتمام خاص بإظهار أن نتائج هذه الإحـــصاءات تكوّن دائما الرقم "١٩" أو أحد مضاعفاته، حتى إنه توسَّع في إحصاءات أخـــرى لا صلة لها بموضوع الحروف المقطعة كي يبرز هذه المسألة. وقد بُهر الكثيرون بعملـــه هـــذا، دون أن يسألوا عن سبب تركيزه على هذا الرقم من بين الأرقام الأخرى الواردة بالقرآن، ودون أن يُسألوا: ماذا لو فعلنا مع أحد هذه الأرقام ما فعله هو مع الرقم "١٩" وأتيـــنا بنـــتائج على نفس النمط الذي أتى به.. وهو أمر غير مستحيل؟! ما فائدة ذلك وما معناه؟!

لكن صاحب الرقم "١٩" أجاب بنفسه عن هذا السؤال بعد سنوات، حين ظهرت حقيقته بانتمائه للبهائية.. الجماعة الضالة الخارجة عن الإسلام، والرقم "١٩" عندها رقم

---

(١) الذي وقع لنا بالعربية مختصر صغير له بعنوان "معجزة القرآن الكريم" نشره بطنطا سنة ١٩٧٩م إبراهيم مندور (إمام وخطيب) ومحمد إبراهيم مصطفى (موجه بالتعليم الثانوي).

مقدس،(١) فكأنه كان يمهد لترويج أفكار هذه الجماعة أو بث الدعوة إليها من حيث لا يشعر الناس. بل الأدهى من ذلك أنه هو قد ادعى النبوة ودعا لنفسه أخيرًا(٢).

ولـــولا أن المجال هنا ليس عن الحديث في هذا الموضوع أساسا لضربت فيه أمثلة مفـــصلة، لكـــني أردت فقط أن أنبه إلى أن الإعجاز العددي- وإن أساء إليه البعض - جانـــب حقيقي من جوانب إعجاز القرآن، ما دام يصدر من منطلق حقيقي ويعتمد على أسس سليمة واضحة، بلا تكلف أو تعسف أو شطط.

أما المنطلق الأساسي الذي أصدر عنه في مسألة الإعجاز العددي للفواتح الهجائية، فإنـــه -أساســـا- ما ذكرناه من قبل عن مجيء هذه الفواتح على سبيل التحدي بالقرآن والدلالة على إعجازه.

وقـــد كان أحد الأدلة التي قُدِّمت في ذلك أن حروف هذه الفواتح جاءت "أربعة عـــشر حرفا".. ممثلة نصف الأبجدية العربية لتكون بهذا التنصيف إشارة واضحة إلى أنها تنوب عن كل حروف المعجم الثمانية والعشرين أو التسعة والعشرين.. كما سوف نعرف بعد قليل.

ومن الأدلة التي قُدِّمت أيضًا، أن هذه الحروف- بعددها هذه - قد ترددت بصيغ مختلفة في فواتح "تسع وعشرين سورة".. وكان الذي فصلناه في ذلك هو ما يوجد في هذه السور من اقتران واضح بين ورود هذه الحروف في بداياتها وبين ما يرد فيها من ذكر القرآن والدفاع عن إعجازه.

لكن الذي لم نفصله، أن كون هذه السور بهذا العدد خاصة (٢٩) إنما هو لتأكيد الحقيقة الأساسية، وهي أن عدد حروف الفواتح إشارة إلى حروف المعجم كلها (٢٩ حرفا). وإذا كان هذا العدد في الفواتح قد جاء "أربعة عشر" بالتحديد مع أن الأبجدية (٢٩ حرفا) فلأن تنصيف الأبجدية -وهي بهذا العدد- غير ممكن، فلما ترددت حروف الفواتح

---

(١) فالصوم عند البهائيين -على سبيل المثال- (١٩) يوما، والسنة (١٩) شهرا، ولديهم ضريبة على الدخل قدرها (١٩%)، وتتكون مجالسهم الروحية والإدارية من (٩) أعضاء أو من (١٩) عضوًا. انظر دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخرين، مادة: "بهائية" و"بهاء الله" ٨/ ٢٣٧- ٨/ ٢١٥ وما بعدها.

(٢) انظر: جريدة "أخبار العالم الإسلامي، التي تصدرها "رابطة العالم الإسلامي" بمكة المكرمة، العدد (١١٠٣) لسنة ١٤٠٩هـــ حيث أوردت في عنوانها الرئيس تحذير الأمين العام للرابطة من أفكار رشاد خليفة واختراعه نظرية "١٩" في القرآن الكريم وادعائه مؤخرا بأنه رسول الله.

في بدايات بعض السور جاء عدد هذه السور (٢٩) ليؤكد هذه الحقيقة المقصودة من حروف الفواتح، وليزيل أي شك يمكن أن يعترضها بسبب مشكلة التنصيف السابق ذكرها.

ومما جاء واضحًا في هذه المسألة قول الزركشي: "والأولى أن الأحرف إنما جاءت في تسعة وعشرين سورة لتكون عدة السور دالة على عدة الحروف، فتكون السور من جهة العدة مؤدية إلى الحروف من جهة العدة، فيُعلم أن الأربعة عشر عوض عن تسعة وعشرين" (١).

فالذي نرمي إليه إذن بشأن الإعجاز العددي للفواتح الهجائية، أنه لما كان الهدف من هذه الفواتح -بحسب ما أرجحه- هو أن تكون إشارة إلى التحدي بالقرآن وإعجازه.. فإن تحديدها بأربعة عشر حرفًا هو أدق تحديد حين يُراد بهذا العدد أن يُشار بنصف الأبجدية إلى نصفها الآخر، كما أن تحديد السور التي افتتحت بها بتسع وعشرين سورة هو أيضًا أدق تحديد حين يراد به تأكيد الإشارة المقصودة من الحروف، على اعتبار أن عدد الأبجدية هو -حقا- تسعة وعشرون حرفًا.

ولا يبقى الآن إلا أن نوضح هذا الكلام ببعض الحقائق اللغوية عن حروف الأبجدية العربية ومسألة تنصيفها، وهي حقائق لا أذكرها لذاتها، وإنما لأنه لا بدّ منها لإيضاح الكلام السابق من ناحية.. ولأن نتائجها -من ناحية أخرى- مما يؤكد إعجاز القرآن الكريم، من حيث إن مبلّغه ﷺ لم يكن يدري شيئا عن علوم اللغة العربية وأبحاثها، ولا كان شيء من ذلك قد ظهر أصلاً على عهده ﷺ.

الحروف والأصوات:

من المعلوم أن هناك فرقًا بين "حروف اللغة" و"أصوات اللغة"، فالحرف رمز كتابي يدل على الحرف في عمومه الذي يندرج تحته عدد من الأصوات يمكن أن تُعد كلها صفات لهذا الحرف، كأن تكون إدغامًا له أو إقلابًا أو إخفاءً أو إمالةً.. إلى آخره (٢).

وعلى ذلك فإن أصوات اللغة -بالطبع- تزيد عددًا عن حروفها، ونحن هنا حين نتحدث عن الفواتح الهجائية -من حيث العدد- إنما نتحدث عنها بوصفها "حروفا" لا "أصواتا".. لأن القرآن قد ذكرها "حروفًا" ولم يذكرها "أصواتا"، واختارها بعدد معين

---

(١) البرهان ١/ ١٧٨.

(٢) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها، للدكتور تمام حسان، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ص ٥٠، ٥١.

وفي أوائل سور بعينها لتكون إشارة إلى معنى معين أيضًا.

إحصاء الأبجدية وتصنيفها:

"رأى سيبويه (وهو رأي شيوخه وأصحابه كذلك) أن أصول حروف العربية (يقصد الأصوات الرئيسية لحروفها) تبلغ في عددها تسعة وعشرين حرفا، هي: ء ا ه ع ح غ خ ك ق ض ج ش ى ل ر، ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و"[1].

وهذا هو الرأي الصحيح -بلا شك- عن عدد الحروف العربية.

أما الذين يعدونها "ثمانية وعشرين" فقد وهموا في ذلك. ولهذا الوهم أسباب أرى من المهم إيضاحها.

وهي تبدأ -على ما أظن- من كون أصوات العربية (كأي لغة) تنقسم إلى قسمين:

أولهما: الأصوات الصامتة (٢٨ صوتا) وهي: ء (همزة القطع) ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م، ه و (في نحو ولد، يوم) ى (في نحو يلد، بيت).

وثانيهما: أصوات المد أو الحركات، وهي الفتحة والكسرة والضمة، وقد تكون قصيرة أو طويلة. ويشار إلى الحركات القصيرة في الكتابة بالعلامات التقليدية المعروفة [-]؛ أما الطويلة وهي المعروفة - عند القدماء - بحروف المد، أو حروف المد واللين أو حروف اللين - فعلامتهما الألف في نحو: قال (= فتحة طويلة)، والياء في نحو: القاضي (= كسرة طويلة)، والواو في نحو: يدعو (=ضمة طويلة)[2].

غير أن الأصوات الصامتة هي التي أولاها علماء العربية عناية خاصة ووجهوا إليها

---

(١) المصدر السابق ص ٥١، ٥٢ وقد رتبت الحروف حسب مخارجها- على رأي القدماء- بدءا من الحنجرة حتى الشفتين.

(٢) الصفة التي تجمع بين أصوات المد أو الحركات هي: أنه عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم في ممر ليس فيه حوائل تعترضه. في حين أن الأصوات الصامتة إما أن ينحبس معها الهواء انحباسًا محكما فلا يُسمح له بالمرور لحظة من الزمن يتبعها ذلك الصوت الانفجاري أو يضيق مجراه فيحدث النفس نوعا من الصفير أو الحفيف. أما الواو والياء -كما هما في المثالين السابقين- فيسميان "أنصاف الحركات" لشبههما الحروف الصامتة من حيث وجود نوع من اعتراض الهواء أثناء النطق بهما، ولشبههما بالحركات أيضا من حيث وجود نوع من الحرية أثناء مرور هذا الهواء. انظر: دكتور كمال بشر -علم اللغة العام، القسم الثاني: الأصوات، ط دار المعارف ١٩٧٣ ص ٨٣ وما بعدها. ودكتور إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ط الأنجلو المصرية ١٩٧٩ ص ٢٦.

معظـــم جهـــودهم وبحوثهم الصوتية وأطلقوا عليها اسم "الحروف" دون الحركات التي كانت الإشارة إليها دائمًا سطحية، لا على أنها من بنية الكلمات بل كعرض يعرض لها ولا يكوِّن منها إلا شطرًا فرعيًا (١).

وربما كان من أسباب ذلك أن الكتابة العربية منذ أقدم نقوشها قبل الإسلام تكاد تخلو من أي رموز خاصة بالحركات.. إلا ألف المد التي اشتركت مع الهمزة (سواء كانت قطعا أم وصلا) في رمز واحد (٢).

وقـــد كان هذا الاشتراك من أسباب الخلط الذي ظهر بوضوح بين هذين الصوتين لدى علماء العربية (٣)... وهو -بالتالي- ما كان سببا أساسيا في الاختلاف حول إحصاء الأبجديـــة، حين ينظر البعض إلى هذين الصوتين على أنهما حرف واحد فتصبح الأبجدية بذلك: "ثمانية وعشرين" حرفا.. أو يميز البعض بينهما -كما هو الصحيح- فتصبح "تسعة وعشرين" حرفا.

ومما أسهم في هذا الخلط أيضًا مسألة تسمية الحروف العربية. حيث إن أسماء هذه الحـــروف قد جاءت عموما على وتيرة واحدة من جعل صوت الحرف صدر اسمه، فباء أولـــه (ب)، وجيم أوله (ج)، وعين أوله (ع).. وهكذا إلا الألف، فإنه لما كان حركة خالـــصة لم يمكن أن يستقل بنفسه ولا أن يُضبط له صوت يوضع في صدر اسمه، فجاء الاسم الوحيد من أسماء حروف المعجم الذي لا يحمل شيئا من مُسمّاه.

وقـــال بعض العلماء إن الهمزة قد استعيرت لتوضع في صدر الألف.. قياسا على الحروف الأخرى التي يوضع كل منها في صدر اسمه (٤).

ومن الصور التي تعبر عن الكلام السابق تعبيرا واضحا قول الزركشي خلال حديثه

---

(١) انظر: المصدر السابق للدكتور بشر ص ٧٥- ٧٦. والمصدر السابق للدكتور أنيس ص ٣٧.

(٢) هذا الرمز في أقدم النقوش قريب الشبه من رقم (٦) بالإنجليزية، ثم أخذ شكلا قريبا من الفاصلة (٤) ثم أخذ الشكل الحالي (١). أما الرسم الحالي للهمزة (ء) فلم يوضع إلا بعد الإسلام على يد الخليل بن أحمد. انظر د. عبد العزيز الدالي – الخطاطة والكتابة العربية. ط الخانجي ١٩٨٠م ص ٢٩ وما بعدها وص ٦٢ وما بعدها.

(٣) من ذلك – مثلا – قول الجوهري في "الصحاح" (مادة: ألف): "والألف من حروف المد واللين، واللينة تُسمى الألف، والمتحركة تسمى الهمزة، وقد يُتجوز فيها فيقال أيضًا: ألف. وممن تصدوا بتوسع لمشكلة الخلط بين الألف والهمزة الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه: "القراءات في ضوء علم اللغة الحديث" ط الخانجي. انظر ص ١٧ وما بعدها.

(٤) انظر: الكشاف ١/ ١٩- ٢٠.

عن مسألة تنصيف الأبجدية: "انحصارها أي الحروف المقطعة- في نصف حروف المعجم، لأنها أربعة عشر حرفا على ما سبق تفصيله، وهذا واضح على من عدَّ حروف المعجم ثمانية وعشرين حرفا وقال "لا" مركبة من اللام والألف. والصحيح أنها تسعة وعشرون حرفا، والنطق "بلا" في الهجاء كالنطق في "لا رجل في الدار"، وذلك لأن الواضع جعل كل حرف من حروف المعجم صدر اسمه إلا الألف، فإنه لما لم يمكن أن يُبتدأ به لكونه مطبوعا على السكون[1] فلا يقبل الحركة أصلا تُوصِّل إليه باللام.. فإن قلت: فقد تقدم اسم الألف في أول حروف الهجاء، قلت: ذلك اسم الهمزة..."[2].

ويقصد الزركشي من هذا الكلام أن الحروف المقطعة نصف حروف المعجم على رأي من يعدها "ثمانية وعشرين"، وأن من يعدها كذلك لا يدخل في حسابه الألف التي في أول الأبجدية على أساس أنها تعد مع اللام التي ألحقت بها قبل آخر الأبجدية وننطقها "لام ألف".

والحق إن عدم إدخال الألف في الحساب -على هذا الأساس- صحيح، لكنه لا يغير من الأمر شيئًا إذا دخلت الهمزة في الحساب صوتًا مستقلاً.. أي ستكون الأبجدية أيضا تسعة وعشرين حرفا. فالظاهر إذن أن هذا الرأي الذي يعدها "ثمانية وعشرين" ينظر إلى "الألف" و"الهمزة" على أنهما حرف واحد.

وهذا ما يشهد له بالفعل بقية كلام الزركشي، إذ يصحح هو العدد الأخير "٢٩" ويرد على صاحب الرأي الأول بأن الألف التي في "لا" يجب ألا تنطق بها "ألف".. فلا نقول: "لام ألف" وإنما يجب أن نقول: "لا" كما نقول: "لا رجل في الدار". والذي يرمي إليه الزركشي من ذلك أن الألف التي في أول الأبجدية ليست هي ألف المد التي في "لا" وإنما هي "الهمزة". وذلك واضح تمامًا من سؤاله وجوابه في آخر كلامه.

فالزركشي إذن يدرك تماماً أن الأبجدية "تسعة وعشرون" حرفا، وأن "الهمزة" و"ألف المد" صوتان متمايزان.. لكنه يرى أن اسم "الألف" الذي في أول الأبجدية يُقصد به "الهمزة" ولا يقصد به "ألف المد" حسبما استقر عليه الأمر بين اللغويين. ودليله على ذلك أن الهمزة هي صدر اسم "الألف" أو هي أول حرف من كلمة "ألف" جريًا على

---

(١) وصف الألف بالسكون غير دقيق، والذي يقصده -عمومًا- من الكلام السابق أن النطق الصحيح "بلا" ليس "لام الف" وإنما "لا" حتى يتحقق الغرض من نطق الصوت -وهو ألف المد- الذي لا يمكن النطق به مستقلاً فألحق باللام ليُمكن من هذا النطق.

(٢) البرهان ١/ ١٧٦.

المألوف في بقية أسماء الحروف من جعل الحرف صدر اسمه.

وعلى أي حال، فإن الزركشي في نهاية كلامه قد أجاب إجابة واضحة في مسألة "تنصيف الأبجدية" التي تناولها في حديثه قائلا: "وجوابه على هذا المذهب أن الحرف لا يمكن تنصيفه، فيتعيّن سقوط حرف لأنه الأليق بالإيجاز"(١).

أي أننا إذا أخذنا بالمذهب القائل بأن حروف المعجم "تسعة وعشرون" فإنه في تنصيفها لا بدّ أن يسقط حرف لأن العدد "٢٩" فردي وتنصيف الفردي غير ممكن.

وبناء على ما سبق فإننا يمكن أن نستخلص النتائج التالية:

أولا: العدد الصحيح لحروف اللغة العربية هو "تسعة وعشرون" حرفا، وليس "ثمانية وعشرين".

ثانيا: إن الذي أدى إلى وجود الرأي القائل بأن الأبجدية "ثمانية وعشرون" حرفا، سببان:

أولهما: أن اهتمام اللغويين القدماء قد انصب أساسا على الحروف الصوامت من هذه الأبجدية دون الحركات، فإذا أحصيت الأبجدية -بناء على هذه النظرة- فإنها ستكون فعلا "ثمانية وعشرين". بمعنى أن الذي يُستبعد من الإحصاء هو حرف الألف فقط، لأنه الحرف الوحيد الذي يمثل حركة خالصة في جميع أحواله.. بخلاف الواو والياء اللذين لا يوجد بشأنهما إشكال في هذا الإحصاء لشبههما من بعض النواحي بالحروف الصامتة، ومن ثمّ يسميان -كما هو معلوم- بأنصاف الحركات.

الثاني: هو الخلط الذي أشرنا إليه بين صوتي الهمزة وألف المد، حين تصورهما البعض حرفا واحدا، فكان أحدهما يدخل ضمن الإحصاء أحيانا دون الآخر. أو العكس، وبالتالي فإنه لا بدّ أن يسقط حرف من هذا الإحصاء، فتكون الأبجدية بذلك "ثمانية وعشرين" حرفا.

ثالثا: إن اختيار القرآن لحرف الألف (دون الهمزة) ضمن الحروف المقطعة فيه تأكيد قاطع لعدد حروف المعجم على الوجه الصحيح، لأن هذا الحرف هو الذي يسقط من الإحصاء في حالة النظر إلى الأبجدية على أنه تضم فقط الحروف الصوامت.. أما الهمزة فلم تكن تسقط في هذه الحالة.

رابعًا: يتأكد لدينا -بعد كل ذلك- أن مجيء الحروف المقطعة بعددها

(١) البرهان ١/ ١٧٧.

المعروف "١٤" ليكون إشارة إلى بقية الحروف ليس فيه أي إشكال،لأن الأبجدية -وهي (٢٩) حرفا- لا يمكن تنصيفها، وإذا كان هذا العدد "١٤" قد جاء أقل من النصف فإنه لا يصح أن يقال: ولمَ لم يأت أكثر من النصف فيكون "١٥" مثلا. والجواب واضح، وهو: أن الأبجدية إذا كانت قد أحصيت على رأي "٢٨" حرفا وعلى رأي "٢٩" حرفا، فإنها لم تُحص على أي حال ثلاثين حرفًا.. فإذا كان هناك مبرر للنقص -وهو استحالة التنصيف- فلن يكون هناك أي مبرر للزيادة.

وبذلك كله نخلص إلى النتيجة الأساسية التي نرمي إليها، وهي إعجاز القرآن الواضح في اختياره للفواتح الهجائية بهذا العدد المشار إليه، وفي إشارته الواضحة لعدة حروف المعجم على الوجه الصحيح، وفي إشارته الواضحة لعدة حروف المعجم على الوجه الصحيح حين أورد هذه الفواتح في بدايات "٢٩" سورة بالتحديد، وفي تأكيده لهذه الإشارة باختياره لألف المد ضمن حروف الفواتح وقد كان إهماله لدى البعض أحد أسباب الاختلاف في إحصاء الأبجدية.

ولا يفوتني بعد ما سبق أن أشير إلى أن صاحب تفسير "الجواهر" -الشيخ طنطاوي جوهري- كان قد تحدث عن هذا العدد السابق للحروف المقطعة، وحاول أن يرى فيه نوعا من الإعجاز الذي يتفق مع اتجاهه المعروف في هذا التفسير، حيث رأى أن هذا العدد يحمل إشارة إلى التناسق بين القرآن والسنن الكونية.

ومن كلامه في ذلك قوله: إن "العالم المشاهد فيه عدد ٢٨" في:

١. مفاصل اليدين[١] في كل يد (١٤).

٢. وفي خرزات عمود ظهر الإنسان منها (١٤) في أسفل الصلب و(١٤) في أعلاه.

٣. خرزات العمود التي في أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقر والجمل والحمر والسباع وسائر الحيوانات التي تلد وترضع أولادها منها (١٤) في مؤخر الصلب و(١٤) في مقدم البدن.." [٢].

ويستمر المؤلف في تدعيمه لهذا الرأي، فيذكر عدد الريشات في أجنحة بعض الطير وعدد الفقرات في أذناب وأصلاب أنواع أخرى من الحيوانات والسمك والحشرات.

ثم يدعم رأيه أيضا بأن "لغة العرب التي هي أتم اللغات (٢٨) حرفا منها (١٤)

---

(١) يقصد مفاصل أصابع اليدين.

(٢) الجواهر ٢/ ٧.

يدغم فيها لام التعريف وهي: ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل، -و(١٤) لا تدغم فيها وهي: ا ب ج ح خ ع غ ف ق ك م هـ و ى[١] والحروف التي تخط بالقلم قسمان، منها (١٤) غير معلمة وهي: أ ح د ر س ص ط ع ك م و هـ ل لا، وهذا الحرف[٢] هو الألف التي هي من حروف العلة أما الأولى فهي الهمزة.. فهذه (١٤) حرفا. بقيت الياء، وهي تنطق في وسط الكلمة ولا تنطق في آخرها، فأصبحت الحروف المعلمة (١٤) وغير المعلمة (١٤) والحرف التاسع والعشرون مُعْلَم وغير معلم[٣] لتكون القسمة عادلة"[٤].

فهو يقصد من هذا الكلام إذن، أن اختيار القرآن للحروف بهذا العدد (١٤) المحدد فيه دلالة على أن القرآن من عند الله تعالى، بما أن هذا العدد يأتي متوافقا مع هذه الأمور التي ذكرها.. ومتوافقا أيضًا مع حروف اللغة العربية نفسها.

وأنا أرى أن هذا الاجتهاد إنما هو قائم على التخمين البحت، وليس له أسس يمكن ضبطها أو الاستناد إليها. فهو لا يعدو أن يكون نوعا من هذه التأويلات الرمزية وهي متنوعة متداخلة في كل اتجاه دونما أسس واضحة تقوم عليها.

الإعجاز الصوتي

لقـــد أوضحنا فيما سبق أن بناء الفواتح الهجائية على "أربعة عشر" حرفًا بالتحديد إشـــارة إلى تمثيلها لبقية حروف المعجم.. وذلك في إطار الغرض الذي تنزلت من أجله هـــذه الفواتح، وهو -كما رجحنا- تحدي العرب بالنظم القرآني المؤلف من نفس هذه الحروف.

ومـــع ذلـــك، فإن هذه الحروف "الأربعة عشر" لم تكن مجرد مجموعة مُقتطعة من الأبجديـــة كيفما اتفق، بل هي منتقاة انتقاءً دقيقًا يخدم أيضًا هذا الغرض المذكور، حيث نجـــد أنها تمثل أنواع الأصوات العربية وخصائصها أفضل تمثيل، كما أنها من أسهل هذه

---

(١) أول حرف من هذه المجموعة كتبه المؤلف برسم الألف (ا) والصحيح أن يكتب همزة (ء) لأن هذا ما يتوافق مع قصده، كالهمزة التي في كلمة "أدب" أو "أكل" نقول: الأدب والأكل دون إدغام اللام في الهمزة. أما ألف المد التي في مثل (قال) فلا صلة لها بهذا الموضوع.

(٢) يقصد الألف في (لا) التي ينطقها المعلمون "لام ألف".

(٣) هذا الكلام عن النقط كلام طريف، لولا أن المؤلف قد اضطر من أجل أن يستقيم له إلى تغيير ما أعلنه سابقا من أن الأبجدية (٢٨) حرفًا، فبنى كلامه هنا على أنها (٢٩) حرفًا. أضف إلى ذلك أن عملية نقط الحروف نفسها لا صلة لها بأصل اللغة وإنما هي عملية تعليمية بحتة قام بها العلماء بعد الإسلام حسبما هو مشهور.

(٤) الجواهر ٢/ ٧.

الأصوات مخارج ومن أوضحها سمعًا ومن أكثرها انتشارًا في الكلام العربي؛ وكأن القرآن بــذلك يقــول للعرب: إنني لا أتحداكم بأصعب لغتكم أو أغربها بل أتحداكم بأيسرها وأطوعها لديكم وأكثرها انتشارًا على ألسنتكم. وهو يكرر هذه الحروف على أسماعهم في الفواتح ليتكرر إحساسهم بالعجز، وليقولوا: إن هذه الحروف -حقًا- هي ما يشيع بيننا ومــا نسيغه على ألسنتنا وأسماعنا، لكننا لا نستطيع أن نكون منها سورة واحدة من مثل هذا القرآن.

ثم إن انــتقاء هــذه الحروف على السورة التي ذكرناها (وانتقاء تراكيبها أيضًا كما سنعرف في الفصل القادم) لا يُقصد به الغرض السابق فقط، وإنما يقصد به أيضًا التلاؤم مع المستوى الرفيع للبيان القرآني، فلا يتردد على لسان قارئه أو سمعه -أثناء تلاوة الفواتح الهجائية -ما يشق عليه من أصوات اللغة أو ما لا يألفه منها، بل يتردد على لسانه وسمعه أحب هذه الأصوات إليه نطقًا وسمعًا واستعمالا.

وإذا كــان يمكــن القول بأن العربي الأول كان يتجه في لغته نحو هذه الأصوات الأخيرة اتجاهًا فطريًا تلقائيًا، فإنه لا يمكن القول إطلاقًا بأنه حاول في إحدى المرات أن يــستقرئ حروف هذه اللغة حرفًا حرفًا، ليعرف أيها أسهل مخرجًا أو أقوى سمعًا أو أكثر انتشارًا... ولا كانت الوسائل العلمية على عهده تعينه أصلا على شيء من ذلك.

فإذا تحقق ذلك فعلاً على يد أحدهم فإنه لا يمكن أن يكون مصادفة عشوائية، ولا يمكن أن يكون غير معجزة حقيقية، وهذا ما أود الكشف عنه في هذا الجزء من البحث، من خلال دراسة الخصائص الصوتية للحروف المقطعة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة.

وأود في الــبداية أن أقــدم بعض الملاحظات الهامة بشأن المنهج الذي اتبعته في إخضاع الفواتح الهجائية للدراسات اللغوية، وفي مقارنتها بما ورد في هذه الدراسات من الناحية الصوتية أو من أي ناحية أخرى.

أولاً: إن اختيار القرآن لحروف الفواتح الهجائية -وإن دل على إعجازه حين يُنظر إلــيه في ضــوء الدراســات اللغوية- إلا أنه لم يُبن أصلاً على أساس أن يكون في جملته وتفــصيله نــسخةً من التقسيمات والتصنيفات المتبعة في هذه الدراسات.. بل إن هذا الاختــيار قد بُني على أساس الغرض الذي أراده القرآن من ذكر هذه الحروف، وهو أن تــشير بخصائــصها الصوتية والتركيبية العامة إلى جميع حروف اللغة وتراكيبها وأن تشير أيــضًا إلى أسهلها وأكثرها انتشارًا، إبرازًا للمعنى الذي عرفناه من قبل، وهو أن الله تعالى

يتحدى العرب بنفس لغتهم وبما هو مألوف شائع منها في جميع أنشطتهم اللغوية.

فهذا الاختيار -إذًا- يتصل بالدراسات اللغوية ونتائجها بالقدر الذي يحقق الغرض منه، وبالقدر الذي يدل على إعجازه أيضًا.. وليس بقدر المحتوى الفعلي لهذه الدراسات بأقسامها وتصانيفها وإحصاءاتها المختلفة.

ثانيًا: إن القرآن كتاب له طبيعته الخاصة، وله أهدافه المحددة، وله وسائله البيانية أيضًا في تحقيق هذه الأهداف.. ويدخل في هذه الوسائل بلا شك -على أي وجه من الوجوه- الفواتح الهجائية في أوائل السور. وفي ضوء هذه الأهداف والوسائل يتحدد منطلق القرآن في اختيار حروف هذه الفواتح وفي اختيار تراكيبها أيضًا.

فليست الفواتح منزلة -إذًا- كي تكون تابعًا لمسألة أقسام الحروف وأنواعها، أو لتُصبَّ صبًا في قوالبها، وإنما هي تابعة أصلا لأهداف الكتاب الذي أنزلت فيه ولوسائله البيانية الخاصة، وإن كانت مع ذلك موافقة لهذه الأقسام والأنواع في عمومها، وإذا أردنا أن نوضح هذا الكلام فإننا نمثل له بالشاعر الذي يمارس نشاطه الشعري في حدود موسيقي الشعر، ببحورها وأوزانها المعروفة المحددة.

إن ممارسته هذه تدل دلالة واضحة على التزامه بهذه الموسيقى ومعاييرها المختلفة، لكنه -على أي حال- لا يمكن أن يكون في ديوانه نسخة من كتب موسيقى الشعر، من حيث عدد البحور وأقسامها وما هو شائع منها وما هو مهجور. إنه -بوجه عام- ينظم في إطارها، وفي الأكثر شيوعًا منها، ولكنه قد يركز على بعضها أو يتوسع فيه دون بعضها الآخر لأمور تتعلق بتجاربه وبأهدافه الخاصة وبوسائله الفنية التي يراها محققة لهذه الأهداف. فهو -إذًا- يتطابق معها بصفة عامة، لكنه أيضًا يختلف معها نوعًا من الاختلاف لأمور تخصه ولمنطلقه الذي يختلف عن منطلقها.

إن منطلق هذه الكتب أن تكون دراسات معيارية شاملة لموسيقى الشعر، لكن منطلق الشاعر هو الممارسة الفعلية لهذه الموسيقي.. وشتان بين الأمرين.

فكذلك القرآن -ولله المثل الأعلى- نجد أن حروف الفواتح التي اختارها تتوافق في خصائصها الصوتية والتركيبية مع ما هو ثابت في الدراسات اللغوية بصفة عامة.. لكنه لم يقصد منها -في ذات الوقت- أن تكون انعكاسًا لكل ما ورد في هذه الدراسات بأقسامها وأنواعها المختلفة.

بل إن القرآن كان له منطقه الخاص الواضح في التعامل مع هذه الأقسام والأنواع،

حين يركز -مثلا- على نوع فيختار معظم حروفه ضمن فواتحه الهجائية، أو يأخذ النصف من نوع آخر، أو يستبعد مجموعة بتمامها فلا يأخذ شيئًا منها.. وهكذا، في توازن تام بين محتوى هذه الأقسام والأنواع وبين أهدافه هو ومقاصده الخاصة.

ثالثًا: ليس هناك اتفاق تام أصلاً بين اللغويين والباحثين على نتائج هذه الدراسات اللغوية.. خصوصًا بين القدماء والمحدثين، بل بين المحدثين أنفسهم أحيانًا.

ففي صفات الحروف مثلا، نجد أن الطاء والقاف من الأصوات المجهورة عند القدماء.. وهما الأصوات المهموسة عند المحدثين. وكذلك الضاد، من الأصوات الرخوة قديمًا.. وهي من الأصوات الشديدة حديثًا. ويعلل البعض ذلك بأنه قد يرجع إلى اختلاف النطق بيننا وبينهم في هذه الأصوات.

والهمزة أيضًا، يرى بعض المحدثين أنها صوت لا هو بالمهموس ولا بالمجهور، وعدها بعضه الآخر صوتًا مهموسًا، على حين قرر علماء العربية القدامى أنها صوت مجهور(١).

فبأي معيار نأخذ لو أردنا -ولو تكلفا- أن نضبط حروف الفواتح على أساس أن فيها النصف من كل نوع من أنواع الحروف؟!.

رابعًا: إن هذا الضبط الذي ذكرناه أمر مستحيل أصلا -على أي معيار- في أغلب التصنيفات الخاصة بصفات الحروف، لأن هذه التصنيفات متعددة متنوعة. فمنها ما هو زوجي العدد ومنها ما هو فردي، ومنها ما هو حرف واحد، ومنها ما هو متميز ومنها ما هو مندرج في غيره.

فالأصوات الاحتكاكية (الرخوة) مثلا، ثلاثة عشر صوتًا، والمستعلية سبعة، والمنخفضة واحد وعشرون، وحروف القلقلة خمسة، وحروف الصفير ثلاثة، والمكرر صوت واحد، والجانبي صوت واحد، وفي الوقت نفسه نجد أن حروف الصفير داخلة ضمن الأصوات الاحتكاكية، لكنها تُعد أحيانًا مجموعة متميزة لوضوح خاصية الحفيف معها أو الصفير أكثر من غيرها. والحروف المطبقة أيضًا تدخل مع المستعلية، لكنها تتميز كذلك في مجموعة مستقلة لخاصية الإطباق التي تنفرد بها.. وهكذا.

فكيف يمكن الإتيان بالنصف -إذًا- من العدد الفردي أو من الحرف الواحد؟ وهل نكتفي بالنوع العام أم نعتد أيضًا بما يدخل تحته من أنواع أو مجموعات أخرى؟

---

(١) انظر في الاختلافات السابقة: علم اللغة العام - الأصوات للدكتور كمال بشر ص ٨٧ - ٨٨ وص ٩٨- ٩٩.

ولعل أبرز من واجه مثل هذه التساؤلات من أسلافنا ابن المنير الإسكندري في تعليقاته على "الكشاف". فهو يوافق الزمخشري على ما ذكره بشأن الحروف المقطعة واشتمالها على أنصاف أجناس الحروف، ثم يستدرك عليه في أجناس لم يذكرها، ومنها حروف الصفير التي قال عنها: "لما كانت ثلاثة: السين والصاد والزاي لم يكن لها نصف فذكر (أي القرآن) منها اثنين: السين والصاد. وتلك العادة المأنوسة فيما يُقصد إلى تنصيفه فلا يمكن فيتم الكسر". ثم طبق قاعدته هذه على كل ما هو حرف واحد من هذه الأجناس، لأنه لا يمكن تنصيفه أيضًا. ثم تحدث عن حروف "الذلاقة" والحروف "المصمتة"، وقال: إن الصحيح أن لا يُعَدَّا صنفين أو "أنهما صنفان ضعيف تميّزهما، فلم يُعتبر جريانهما على النمط المستمر في غيرهما[1] من الأصناف البين امتيازها"[2].

فابن المنير -كما رأينا- قد بالغ حين حاول أن يطبق رأي الزمخشري على كل أصناف الحروف، فوقع في مآزق أكثر، وحاول الخروج منها بهذه القاعدة التي اتخذها منطلقًا في مسألة التصنيف، فكلف نفسه شططًا، وكانت قاعدته وسيلة للتخلص أكثر منها قاعدة حقيقية منضبطة.. وإلا فكيف يُقبل تنصيف المجموعة المكونة من ثلاثة أحرف على النحو الذي قام به مع حروف الصفير، حيث إن تنصيفها إذا كان مستحيلا فإن البديل عنه لا يكون حرفين ولا حرفًا واحدًا أيضًا، لأننا بذلك إما أن نزيد إلى الثلثين أو ننقص إلى الثلث. وهذا تفاوت كبير، لا يمتّ بصلة إلى ما ذكره عن إتمام الكسر أو جبره الذي ينتج عنه عادة زيادة لا تذكر، لا زيادة تصل إلى ثلثي العدد الكلي.

مخارج الحروف المقطعة وصفاتها:

إن إلقاء نظرة سريعة على الحروف المقطعة، مع مقارنتها بتقسيمات اللغويين المشهورة للأصوات حسب مخارجها وصفاتها المختلفة، لتدل بوضوح على أن اختيار هذه الحروف لا يمكن أن يكون عشوائيًا، بل هو اختيار دقيق مقصود مبني على علم يستحيل أن يكون متاحًا لأحد من البشر على عهد نزول القرآن. ويكفي لإيضاح ذلك ما يأتي:

أولا: حسن توزّع هذه الحروف وتناسقها، من حيث مخارجها أو مواضعها في جهاز النطق.

---

(١) أي: لا يصح أن يطبق عليهما ما يطبق على باقي الأصناف.

(٢) انظر: تفسير الكشاف بتعليق ابن المنير ١/ ٢٩.

وتفصيل ذلك أن الأصوات الصامتة في اللغة العربية تنقسم بحسب مخارجها -على المشهور- إلى أحد عشر نوعًا،[١] هي (بترتيب المخارج من الشفتين إلى الحنجرة) كالتالي:

١. أصوات شفوية (ب م).
٢. أسنانية شفوية (ف).
٣. أسنانية أو أصوات ما بين الأسنان (ث ذ ظ).
٤. أسنانية لثوية (ت د ض ط ل ن).
٥. لثوية (ر ز س ص).
٦. لثوية حنكية (الجيم الفصيحة والشين).
٧. أصوات وسط الحنك (ى).
٨. أصوات أقصى الحنك (خ غ ك و).
٩. أصوات لهوية (ق).
١٠. أصوات حلقية (ع ح).
١١. أصوات حنجرية (ء هـ).

فنجد أن الحروف المقطعة "الأربعة عشر" قد توزعت على هذه المخارج كالتالي:

الميم في المجموعة الأولى -الطاء واللام والنون في المجموعة الرابعة- الراء والسين والصاد في المجموعة الخامسة - الياء في المجموعة السابعة - الكاف في المجموعة الثامنة - القاف في المجموعة التاسعة - العين والحاء في المجموعة العاشرة - الهاء في المجموعة الأخيرة.

أما الألف فهي -كما عرفنا من قبل- حركة خالصة تعتمد على انطلاق الهواء بحرية من الرئتين إلى خارج الفم.

ولعل أهم الملاحظ التي تبدو لنا من التوزيع السابق ما يأتي:

١. عدم تجاور مخارج الحروف المقطعة أو عدم تركزها كلها أو معظمها في منطقة واحدة من جهاز النطق.

ومعنى ذلك أنها تجنبت التقارب في هذه المخارج، وهو سبب أساسي من أسباب صعوبة النطق ببعض ألفاظ اللغة وتراكيبها.

---

(١) اعتمدت -بصفة أساسية- في هذا التقسيم وفي غيره مما يتعلق بخواص الأصوات في هذا المبحث على كتاب د. كمال بشر المذكور سابقًا في الأصوات.

(تجـنب هذا السبب هو ما عبر عنه البلاغيون بسلامة الكلمة من تنافر الحروف، وهـو مـا يجعلونه من شروط فصاحتها، ويضربون مثالا لافتقاده -كما هو مشهور- بكلمتي "الهُعخُع" و"مُستَشزِرات"،[١] حيث لا يخفى ما فيهما من ثقل على اللسان بسبب تركز مخارج كل منهما في منطقة بعينها من جهاز النطق.

٢. كثـرة انتشار هذه الحروف في المخارج الأمامية، وقلتها في المخارج الداخلية بدءًا من أقصى الحنك إلى الحنجرة.. حيث ورد منها تسعة في النوع الأول وخمسة فقط في النوع الثاني.

وهـذا مما يتوافق مع الطابع العام للاستعمالات اللغوية في اتجاهها نحو المخارج الأسـهل الـتي تتمثل في المخارج الأمامية أكثر مما تتمثل في الداخلية. ومن هنا كانت حـروف هذه المخارج الأخيرة هي الأصعب تعلمًا ونطقًا على الدارسين للعربية من غير أهلـها، حيث تتحول الغين عند بعضهم -كما يُلاحظ- إلى الجيم القاهرية والقاف إلى كاف والعين إلى همزة والحاء إلى هاء.

٣. مـن حـروف المخارج الأمامية ستة أحرف يسميها علماء العربية القدامى "حـروف الذلاقـة"[٢] وهي: (ر ل ن مـ ب ف)[٣] ثلاثتها الأولى من طرف اللسان وثلاثتها الأخيرة من الشفتين، ويقصدون أنها الحروف التي يسهل النطق به، وهم مصيبون في ذلـك، لأنها تصدر من مخارجها بأقل جهد، وتبتعد تمامًا عن منطقة المخارج الخلفية والداخلية التي تكلف جهاز النطق نوعًا من الجهد والمشقة.

ومـن أجـل ذلك نجد أن الفواتح الهجائية قد ركزت على أحرف هذه المجموعة فتضمنت منها أربعة (أو الثلثين) وهي: الراء واللام والميم والنون.

٤. تجـنب الحـروف المقطعة تمامًا لحروف النوع الثالث من المخارج الخاصة بأصوات ما بين الأسنان، وهي (الثاء والذال والظاء) التي أثبتت الإحصاءات المعجمية أنها

---

(١) الهعخع: شجرة صحراوية يتداوى بورقها. و"مستشزرات" أي: مفتولات ومتجهات إلى أعلى كما في قول امرئ القيس: "غدائره مستشزرات إلى العلا". انظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ١/ ١٨٥.

(٢) الذلاقة معناها: حدة اللسان أو مهارته في النطق، ولذلك يوصف المتكلم الحاذق بأنه ذلق اللسان. انظر: لسان العرب، مادة: ذلق.

(٣) انظر: سر صناعة الإعراب لابن جني، دارسة وتحقيق د. حسن هنداوي، دار القلم ط١ دمشق ١٤٠٥- ١٩٨٥، ١/ ٦٤، ٦٥.

بالفعل من أقل الحروف انتشارًا في اللغة العربية[١].

وربما كان ذلك لنوع من الصعوبة في نطق هذه الأصوات، للالتزام معها بإخراج اللسان إلى ما بين الأسنان، ويصدِّق ذلك ورود هذه الحروف بالجدول المشار إليه وفق ترتيبها السابق، لأن الثاء أيسر في النطق نسبيًا من الذال والظاء، حيث تقل نسبة الاحتكاك والضغط على اللسان أثناء النطق بها عما تكون عليه حال النطق بالحرفين الأخيرين اللذين يأتيان آخر الحروف العربية إطلاقًا في درجة الانتشار.

ولعل هذا الكلام يتأيد أيضًا بواقعنا اللغوي الحاضر في أغلب المجتمعات العربية، حيث نجد أن هذه الحروف الثلاثة من أبرز ما تفلّت من اللسان العربي بعد إهماله لنطق الأصوات العربية حسب أصولها الأولى.

٥. تجنب الحروف المقطعة لحرف "الضاد" أيضًا، حيث كان -حسب نطقه القديم- من أصعب الحروف مخرجًا،[٢] حتى كان يضرب به المثل في الاقتدار على النطق،[٣] وحتى سمِّيت اللغة العربية بسببه "لغة الضاد". ويصدِّق ذلك أيضًا وروده قبل الذال والظاء مباشرة في هذه الإحصاءات التي أشرنا إليها.

ثانيًا: حسن توزّع الحروف المقطعة أيضًا على الصفات المختلفة للأصوات العربية، وأهمها:

١. الأصوات المجهورة:[٤] وهي خمسة عشر صوتًا (ب ج د ذ ر ز ض ظ ع غ ل م، و -في مثل: ولد، حوض- ى -في مثل: يترك، بيت-) مضافًا إليها جميع الحركات، ومنها ألف المد بالطبع.

فنجد أنه ورد من الحروف المقطعة ضمن المجموعة السابقة ستة من الأصوات الصامتة، وهي (ر ع م ن ى)، إضافة إلى ألف المد من الحركات، فيكون المجموع "سبعة".

ويضاف إلى هذه الحروف: الطاء والقاف، حسب رأي القدماء. ومن ثمَّ، كانت

---

(١) انظر: الجدول رقم "٢" ص ١٨٩- ١٩٠ من هذا الكتاب.

(٢) ذكر أنه كان يخرج من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس. ويقول ابن جني: "إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر". انظر: علم اللغة العام- الأصوات ص ٩١ وص ١٠٤ وما بعدها.

(٣) كما في قولهم المشهور عن عمر بن الخطاب: إنه كان يخرج الضاد من أي شدقيه شاء. انظر: علم اللغة العام -- الأصوات ص ١٠٦.

(٤) الأصوات المجهورة: هي التي يتذبذب الوتران الصوتيان (الموجودان بالحنجرة) أثناء النطق بها، والمهموسة عكسها أي التي لا يتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق بها.

الحروف المقطعة -على رأي الزمخشري- تضم نصف "الأصوات المجهورة" على أساس أنه يضيف الألف والطاء والقاف إلى الأصوات الخمسة عشر السابقة، فتصبح "ثمانية عشر"، ويكون نصفها "تسعة" من الحروف المقطعة بدلا من "سبعة" حسب الطريقة الحديثة.

لكن طريقة الزمخشري -برغم ذلك- لا يزال فيها نوع من اللبس، لأن الهمزة أيضًا من الأصوات المجهورة على رأي القدماء.. وبذلك سيكون عدد هذه الأصوات "تسعة عشر" وليس ثمانية عشر". فإما أنه لم يدخل الهمزة في الحساب،وإما أنه -كي يستقيم له الحساب- اعتبرها مع الألف حرفًا واحدًا على طريقة خلط القدماء أحيانًا بين هذين الصوتين، وإما أنه رأى ما رأى على سبيل التجوّز أو التقريب..وقد كان هذا أمرًا معتادًا في أساليب القدماء.

٢. الأصوات المهموسة: اثنا عشر صوتًا هي: (ت ث ح خ س ش ص ط فإذا ق ك ه) ورد فيها من الحروف المقطعة "سبعة" هي: ح س ص ط ق ك ه).

وينقص من هذه المجموعة -على رأي القدماء- الطاء والقاف لأنهما يدخلان في المجهور عندهم كما ذكرنا سابقًا، فيصبح عددها "عشرة" بدلا من "اثني عشر"، ويكون فيها من الحروف المقطعة النصف بالضبط على رأيهم.

٣. الأصوات الانفجارية (أو الشديدة):[1] ثمانية هي: (ب ت د ض ط ك ق ء) منها ثلاثة من الحروف المقطعة هي: (ط ك ق).

وهذا النوع عند القدماء ثمانية أصوات أيضًا، لكنه لا يدخل فيها الضاد، كما يزيد فيها الجيم. وهذا راجع لاختلاف النطق بيننا وبينهم في هذين الحرفين، مما يجعل الضاد عندهم من الأصوات الرخوة ويجعل الجيم من الأصوات الشديدة. لكن هذا الاختلاف لا يغير من الأمر شيئًا فما يتعلق بالحروف المقطعة الداخلة في هذا النوع، فإنها -على طريقتنا أو طريقتهم- هي الثلاثة المذكورة.

ومع ذلك، فإن الزمخشري قد احتسبها "أربعة" بإضافة الألف، وأثار بذلك لبسًا شبيهًا بهذا الذي ذكرناه مع النوع الأول، لأن "الهمزة" هي التي من الأصوات الشديدة

(١) الأصوات الانفجارية هي التي ينحبس الهواء عند مخرج كل منها انحباسًا لا يسمح بمروره حتى ينفصل العضوان فجأة فيحدث النفس صوتًا انفجاريًا. أما "الاحتكاكية" فعند النطق بها لا ينحبس الهواء انحباسًا محكمًا، وإنما يكون مجراه عند مخرج الصوت ضيقًا جدًا فيترتب على ذلك أن يحدث النفس أثناء مروره بالمخرج نوعًا من الصفير أو الحفيف تختلف نسبته تبعًا لنسبه ضيق المجرى.

وليس "الألف"[١].

٤. الأصوات الاحتكاكية (أو الرخوة): ثلاثة عشر صوتًا، هي: (ف ث ذ ظ ز س ص ش خ غ ح ع هـ) منها خمسة من الحروف المقطعة هي: (س ص ح ع هـ).

غير أن الزمخشري يذكر من الحروف المقطعة "عشرة" على أنها نصف الحروف الرخوة. ومعنى ذلك أن الحروف الرخوة عنده "عشرون".

وسبب هذا التفاوت الكبير بيننا وبينه في العدد أنه أكثر منا توسعًا في الاصطلاح، حيث يرى أن " الرخو" هو كل ما عدا "الشديد".

وقد كانت الحروف الشديدة "ثمانية" كما عرفنا، فيكون الباقي "عشرون" هو الرخو. أما نحن فقد أخرجنا من هذا العشرين أنواعًا أخرى، منها المكرر وهو "الراء"[٢] والجسماني وهو "اللام"[٣] والأنفي وهو "الميم والنون"..[٤] وأخرجنا أيضًا "انصاف الحركات" وهي "الواو والياء"، فتلك ستة أصوات، يضاف إليها الضاد التي هي أصلا من الأصوات الرخوة عند القدماء فيكون الجميع "سبعة" وهي الزائدة عند الزمخشري على الحروف الثلاثة عشر التي سبق ذكرها.

٥. أنواع أخرى: ذكر الزمخشري أن الفواتح الهجائية فيها من الحروف المطبقة[٥] نصفها (ص ط)، ومن المنفتحة نصفها (ا ل مـ ر ك هـ ى ع س ح ن)، ومن المستعلية[٦] نصفها (ق ص ط)، ومن المنخفضة نصفها (ا ل مـ ر ك هـ ى ع س ح

---

(١) وقد كان هذا اللبس أوضح عند ابن المنير في تعليقه على الكشاف (١/ ٢٩)، حيث تحدث عن الحروف الشديدة قائلا: "وقد ذكر الله تعالى نصفها: الهمزة المعبر عنها بالألف. إلخ" وفي موضع آخر يذكر الألف بما يدل على أنها ألف المد وليس الهمزة. فالأمر مختلط عنده أشد اختلاط، ومن عجب أنه في الصفحة التالية مباشرة يصف الزمخشري بالاضطراب في هذين الصوتين.

(٢) وذلك لتكرار ضربات اللسان على اللثة أثناء النطق به، مع كون اللسان مسترخيًا في طريق الهواء الخارج من الرئتين.

(٣) لأن الهواء أثناء النطق به يجد له منفذًا من جانبي الفم أو من أحدهما.

(٤) أثناء النطق بهذين الحرفين يُحبس الهواء حبسًا تامًا في موضع من الفم، ولكن يُخفض الحنك اللين فيتمكن الهواء من النفاذ عن طريق الأنف.

(٥) الإطباق: ارتفاع مؤخر اللسان نحو الحنك الأقصى مع تأخره قليلا نحو الجدار الخلفي للحلق. وحروفه أربعة (ص ض ط ظ) وما عداها الحروف المنفتحة.

(٦) الاستعلاء هو تصعُّد اللسان إلى الحنك الأعلى انطبق أو لم ينطبق، وحروفه سبعة (ص ض ط ظ خ غ ق) وهي كلها مفخمة بسبب هذا الاستعلاء، لكن الأربعة الأولى يرتفع معها اللسان من مؤخرته وطرفه (وهذا هو الإطباق) أما الثلاثة الأخيرة فيرتفع اللسان معها من مؤخرته فقط.

ن)، ومن حروف القلقلة[1] نصفها (ق ط).

ومن الواضح هنا أن طريقة التنصيف لا تستقيم للزمخشري أيضًا مع المجموعات السابقة. فنصف "المطبقة" حرفان فعلا، لكن نصف "المنفتحة" ليس "اثني عشر" حيث إن جملتها خمسة وعشرون حرفًا. ونصف "المستعلية" ليس "ثلاثة" لأن جملتها "سبعة"، ونصف المنخفضة هو "الأحد عشر" التي ذكرها لأن جملتها "اثنان وعشرون" حرفًا. ونصف حروف القلقلة ليس "اثنين" لأن جملتها خمسة.

وعلى أي حال، فإن ما ذكرناه سابقًا كاف جدًا للدلالة على أن الحروف المقطعة قد توزعت على صفات الحروف العربية توزعًا واضحًا متناسقًا.. لا يقوم على الأخذ بالنصف من كل نوع -كما تكلف ذلك الزمخشري ومن تابعه- وإنما يقوم على الانتقاء أو التركيز على أصوات بعينها سواء وصلت إلى نصف النوع أو أقل أو أكثر، حسب أهداف القرآن ومنطلقاته الخاصة.

وهذا الانتقاء أو التركيز أشبه ما يكون بعمل الرسام الذي يضع أمامه جميع الألوان، لا ليأخذ النصف من كل لون.. ولا ليأخذ من كل لون أيضًا، وإنما ليختار منها ما يريد وليأخذ مما اختار بالقدر الذي يريد أيضًا، كي يصل في النهاية إلى لوحة أو صورة بعينها. وبذلك يكون التناسق أو التوازن الذي في لوحته غير قائم على الكم المتساوي من جميع الألوان، وإنما هو قائم على الكم المناسب من كل لون حسب ما يحقق الشكل النهائي الذي يريد التوصل إليه.

ثالثًا: خاصية الوضوح السمعي:

إن الوضوح السمعي للأصوات اللغوية أمر في غاية الأهمية، فهو أساس من الأسس التي تعتمد عليها اللغة في نجاحها وأدائها لمهمتها بوصفها أداة تعبيرية منطوقة ومسموعة، مما يستوجب وضوح أصواتها وقوة رنينها وجرسها.

ومن الطبيعي أن هذا الوضوح لا يتوافر لكل أصوات اللغة بدرجة واحدة، بل هي في ذلك متفاوتة، وعلى أي حال، فإن أهم الحقائق التي قررها علماء اللغة في هذا

والحروف المنخفضة أو المستفلة هي ما عدا المستعلية. انظر: اللغة العربية معناها ومبناها ص ٦٣ والأصوات للدكتور كمال بشر ص ١٠٢.

(١) القلقلة صفة تلحق بعض الحروف عند إرادة تحقيق نطقها حال السكون، حيث يتجه به اللسان نحو الحركة قليلا. وحروفها هي (ق ط ب ج د).

الموضوع ما يلي:

١. إن الأصوات الصامتة أقل وضوحًا في السمع من أصوات المد واللين، وأن أبرز خاصية من خواص أصوات المد (الحركات الخالصة) هي قوة الوضوح السمعي. ولذلك قرر علماء اللغة أن هذا النوع من الأصوات هو الأكثر شيوعًا في جميع اللغات [١].

ولعلــه لذلك نجد أن المدود -بجميع أنواعها- لها مكانة خاصة في تجويد تلاوة القــرآن، وأنهــا هي التي تعطي الفرصة للقارئ الذي يريد أن يظهر تفوقه أو قوة صوته بسبب تمكنه من إطلاق النفس مع هذه الأصوات في حرية تامة.

ثم إن ألــف المد -بوجه خاص- هي أقوى هذه الأصوات وضوحًا، لأن ظاهرة حرية مرور الهواء وانطلاقه أثناء النطق بها تكون أوضح ما تكون، ولذلك يصفها ابن جني (ت ٣٩٢هــ) بأنها "أوسع حروف المد وأليتها" [٢].

٢. أن مجمــوعة الحــروف الأربعة (اللام والميم والنون والراء) هي أكثر الأصوات الــصامتة وضــوحًا وأقربها إلى طبيعة أصوات المد أو الحركات. فهي تُعد حلقة وسطى بين النوعين، لأن فيها من صفات الصوامت أن مجرى النفس معها تعترضه بعض الحوائل، وفيها من صفات الحركات أنها لا يكاد يُسمع لها أي نوع من الحفيف وأنها أوضح إسماعًا. ولذلك فإن علماء اللغويات يسمونها "الأصوات المتوسطة"، ويسمونها أيضًا "أشباه الحركات" [٣].

٣. أن الأصوات المجهورة أكثر شيوعًا في الكلام من الأصوات المهموسة، لأن هذه الأصــوات الأولى هي ما يكسب اللغة "عنصرها الموسيقي ورنينها الخاص الذي نميِّز به الكــلام من الصمت والجهر من الهمس والإسرار". ومن ثم فقد "برهن الاستقراء على أن نــسبة شــيوع الأصوات المهموسة في الكلام لا تكاد تزيد على الخمس أو "عشرين في المائة" في حين أن أربعة أخماس الكلام تتكون من أصوات مجهورة" [٤].

فإذا ما نظرنا إلى الفواتح الهجائية في ضوء الحقائق السابقة وجدنا أن لها مما تضمنته حظًا موفورًا.

ففيما يتصل بالحقيقة الأولى، نجد أن هذه الفواتح لم تهمل أصوات المد واللين، بل تــضمنت أقــوى هذه الأصوات وهو ألف المد، كما تضمنت الياء أيضًا، التي تكون في

---

(١) انظر: الأصوات للدكتور كمال بشر ص ٧٤، والأصوات اللغوية للدكتور أنيس ص ٢٦- ٢٨.

(٢) انظر الكتاب السابق للدكتور كمال بشر ص ٨٢.

(٣) انظر: الأصوات اللغوية ص ٢٧ والأصوات ص ٧٤ وما بعدها.

(٤) الأصوات اللغوية ص ٢١.

بعض حالاتها قريبة من الحركات الخالصة في قوة الوضوح السمعي، كما ينطق بها مثلا في كلمة "بيت" حال الوقوف عليها في التلاوة ومدها -حسب السكون العارض لآخر الكلمة- من حركتين إلى ست حركات كما هو في علم التجويد [١].

وفيما يتصل بالحقيقة الثانية نجد أن الفواتح الهجائية قد تضمنت أيضًا جميع هذه الحروف التي تُسمى بالمتوسطة أو بأشباه الحركات، وهي: اللام والميم والنون والراء، ولعل ذلك يؤكد القصد القرآني الواضح في اختيار هذه الحروف، حيث تحدثنا من قبل عما تتمتع به من سهولة المخارج، ثم رأينا هنا ما تتمتع به أيضًا من الوضوح السمعي.

وفيما يتصل بالحقيقة الثالثة الخاصة بانتشار الأصوات المجهورة في الكلام وأثرها في وضوحه السمعي، نجد أن الحروف المقطعة قد ضربت في ذلك بسهم كبير أيضًا، برغم أن ظاهر ما ذكرناه من قبل يوحي بغير ذلك.

تردد الحروف المقطعة في اللغة العربية:

من الأمور التي لم يهملها علماء العربية القدامى محاولة استقراء حروف المعجم، ومعرفة أيها أكثر أو أقل انتشارًا في الكلام العربي. وكان رأيهم واضحًا في أن سهولة النطق بالحروف عامل هام، عوامل شيوعها أو ندرتها في الكلام، كما سبق أن رأينا في حديثهم عن حروف "الذلاقة" التي تبينًا أن أكثرها يجمع أيضًا إلى خاصية سهولة النطق خاصية الوضوح السمعي.

ولقد أتوا في محاولاتهم الاستقرائية هذه بنتائج تعد -حسب إمكاناتهم- متقدمة ومقاربة جدًا لنتائج الإحصاءات الحديثة.

ومن أمثلة ذلك، ما ذكره ابن دريد (توفي ٣٢١هـ) في "الجمهرة" عن أقل الحروف استعمالا، مرتبًا إياها من الأدنى إلى الأعلى على النحو التالي: الظاء - الذال - الثاء - الشين - القاف - الخاء - العين - النون - اللام - الراء - الباء - الميم [٢].

فلو عكسنا نحن هذا الترتيب فجعلناه من الأعلى إلى الأدنى، ثم قارناه بإحصاءات التردد الواردة بالجدول رقم "٢" لوجدنا بالفعل تقاربًا مدهشًا بين ما ذكره ابن دريد وبين ما ورد في هذه الإحصاءات.

---

(١) لا يقصد بذلك أن الياء التي ينطق به في الفواتح كهذه التي في كلمة "بيت"، بل هي اسم الحرف نفسه (مثل ياسين)، ولذلك فإننا في هذا الفصل نتحدث عن الصوت عمومًا. دون اقتصار على حالة أو أخرى من حالاته التي لا محل لها إلا في التراكيب أو الاستعمالات اللغوية المختلفة.

(٢) جمهرة اللغة، ط دار صادر - بيروت ١/١٢.

ولقد علمنا من قبل أن مما توخاه القرآن في اختياره لما اختار من حروف الفواتح الهجائية أن تضم في زمرتها أكثر الحروف انتشارًا في الكلام العربي وأسهلها مخارج وأوضحها سمعًا.. وإن شئنا فلنقل: إن وضوحَها السمعي وسهولة مخارجها هما سبب هذا الانتشار، أو من أقوى أسبابه على الأقل.

وقد قلنا في بداية هذا الفصل إن العربي الأول كان يمكن أن ينحو في لغته بالسليقة نحو أسهل الألفاظ، والأصوات، لكنه لم يكن يخطر بباله أن يستقرئ هذه الأصوات واحدًا واحدًا ليختار منها أكثرها انتشارًا.

لكن ذلك ما حدث بالفعل في حروف الفواتح الهجائية، ليكون دلائل الإعجاز المدخرة في كتاب الله، حتى يأتي الوقت المناسب للكشف عنها، وهو ما نحاول أن نوضحه في هذا المبحث من خلال جانبين: أولهما عن تردد هذه الحروف حسب الإحصاءات المعجمية، والثاني عن ترددها حسب الاستعمالات اللغوية الواقعية.

الجانب الأول: التردد حسب الإحصاءات المعجمية:

لو أحصينا نسب تردد حروف الفواتح الهجائية في جذور معجم "تاج العروس" لوجدنا أن مجموع هذه النسب هو (٥٦,٧٥%) من تردد الحروف كلها في جذور هذا المعجم.

وفي ذلك دلالة واضحة على أن هذه الحروف هي الأكثر انتشارًا بالفعل في الكلام العربي، وبخاصة إذا تذكرنا أن عددها (١٤) أقل من نصف عدد الحروف العربية، وإذا تذكرنا أيضًا أن ألف المد لا تدخل في هذا الإحصاء.

ولو أردنا أن نبرز الحقيقة السابقة بصورة أخرى أو بطريقة ترتيب الحروف من الأعلى إلى الأدنى ترددًا في هذا الجدول، نقول: إننا إذا نظرنا إلى الحروف الخمسة الأعلى ترددًا في "تاج العروس" وهي: (ر ن ب ل م) فسنجد أنها دخلت كلها في الفواتح الهجائية ما عدا الباء. وإذا نظرنا مقابلها إلى الحروف الخمسة الأقل ترددًا وهي: (غ ث ذ ض ظ) فسنجد أنه لم يدخل منها شيء في هذه الفواتح.

ولو توسعنا أكثر، فنظرنا إلى الحروف العشرة الأكثر ترددًا وهي: (ر ن ب ل م ع د ق س ف) لوجدنا أنها تدخل كلها في الفواتح الهجائية إلا ثلاثة (ب د ف). ولو نظرنا إلى الحروف العشرة الأقل ترددًا وهي: (خ ت ى ص ء غ ث ذ ض ظ) لوجدنا أنه لم يدخل منها في هذه الفواتح إلا حرفان (ى ص).. مع كونهما في مواقع متقدمة أيضًا من

هذه المجموعة.

ولقد قدم صاحبا الدراسة الإحصائية للتاج مقارنة خاصة بتردد حروف الجذور الثلاثية[١] في كل من التاج واللسان، من خلال مجموعات ثلاث: الأولى ذات التردد العالي، والثانية ذات التردد المتوسط، والثالثة ذات التردد الضعيف، وهي مقارنة تفيد أيضًا في تجلية الحقيقة التي نتحدث عنها في هذا الجانب، وهي مقارنة تفيد أيضًا في تجلية الحقيقة التي نتحدث عنها في هذا الجانب، بمجرد إلقاء نظرة على نصيب الحروف المقطعة في كل من هذه المجموعات[٢].

الجانب الثاني: التردد حسب الواقع اللغوي:

قد ينشأ سؤال بعد قراءة هذا العنوان يقول: وهل تردد الحروف حسب الإحصاءات المعجمية السابقة لا يعبر تمامًا عن ترددها في الواقع اللغوي الحقيقي.. أو ليس هذا هو ذاك؟

في الحقيقة إن الجواب على ذلك، بالنفي، لأن هذه الإحصاءات إنما تقوم على أساس أصول الكلمات فقط أو جذورها الواردة في المعجم. وهي ترد عادة مجردة من أحرف الزيادة، فذاكر مثالا- تأتي في "ذكر" ومجيب تأتي في "جوب" وكروه تأتي في "كره".. وهكذا.

وورود الجذور بهذا التجريد يترتب عليه -فيما يتصل بموضوع هذا المبحث- أمران هامان:

الأول: أن هذه الإحصاءات لا تعكس نسب التردد الحقيقية للأصوات العربية إلا فيما يختص بالأصوات الصامتة فقط. دون الحركات الطويلة.

وإذا أردنا أن نتصور مدى الفارق بين غياب الحركات عن الإحصاءات وبين ترددها الفعلي في الاستعمالات اللغوية، فلننظر -مثلا- إلى كلمة "سمع" التي نجد أن حروفها الثلاثة "س م ع" لا تتردد في الكلام إلا في حالتين:

الأولى: في هذه الحالة السابقة، وهي مادة "سمع" وما يتصل بها من باقي المشتقات: سامع - مسموع - سميع.. إلخ.

---

(١) وهي تمثل الكم الأعظم من جذور العربية كما هو معروف.

(٢) انظر: دراسة إحصائية لجذور معجم "تاج العروس" للدكتور علي حلمي موسى والدكتور عبد الصبور شاهين- مطبوعات جامعة الكويت ١٩٧٣ م ص ٤٦- ٤٧.

الثانـــية: حين يدخل أي حرف منها في كلمات أخرى، مثل السين في "كسر" أو الكاف في "كتب" أو العين في "بعث".

ثم لننظـــر في مقابل ذلك -على سبيل المثال أيضًا- إلى الحركات الطويلة في نحو "قـــال -يقول- قيل" حيث تدخل في المشتقات المتصلة بمادة "سمع"، وتدخل أيضًا في جمـــيع المشتقات الأخرى التي تشكل الجانب الأعظم من ألفاظ اللغة وأبنيتها المختلفة. ولعـــل ذلك من أسباب تقرير علماء اللغة -كما ذكرنا من قبل- أن الحركات هي أكثر الأصوات انتشارًا في جميع اللغات.

والذي يهمنا على أي حال من هذه الحركات هو "ألف المد" بوصفه أحد حروف الفـــواتح الهجائية، حيث نستخلص من الكلام السابق أن هذه الإحصاءات المعجمية لا تمثل إطلاقًا نسبة شيوعه الحقيقية أو تفوقه في الاستعمال اللغوي. أما ظهوره في إحصاءات "اللسان" و"الصحاح" فإنه لا يعكس تردده في الحقيقة، بل يعكس تردد حرفي الواو والياء المـــبدلين "ألفـــا" في الموقـــع الثالث من الجذر الثلاثي.. الأمر الذي استدرك في طريقة إحصاءات "التاج" بعدم إحصاء الألف وردها إلى أصلها إن كان واوًا أو ياء[١].

الأمـــر الـــثاني: هو أن هذه الإحصاءات لا تعكس شيئًا أيضًا عن التردد الحقيقي لأحرف الزيادة العشرة (التي تُجمع في كلمة: سألتمونيها) طالما أن جذور المعاجم ترد -كما ذكرنا- مجردة منها.

فإذا كانت هذه الأحرف هي عماد الاشتقاقات اللغوية، وإذا كانت -ما عدا الألف بالطبع- لا ترد في إحصاءات المعاجم إلا حالة كونها من الحروف الأصلية.. فإن مستوى تـــرددها أو تفوقها في واقع الاستعمالات اللغوية لا يمكن أن يقارن بما ورد عنها في هذه الإحصاءات.

وإذا كانت الفواتح الهجائية تتضمن سبعة من هذه الأحرف (ل ى م ن س ا هـــ) فـــإن ذلـــك -بالـــتالي- يضيف بعدا أو تأكيدًا جديدًا إلى الحقيقة التي توضحها في هذا المبحث عن تضمن هذه الفواتح لأكثر حروف اللغة انتشارًا.

ومما يجدر الإشارة إليه في هذا المقام عبارة ذكرها الإمام ابن كثير أثناء حديثه عن الحـــروف المقطعة، حيث يقول: "وهي نصف الحروف عددًا، والمذكور منها أشرف من

(١) انظر الدراسة الإحصائية لجذور "تاج العروس" ص ٢١- ٢٢.

المتروك، وبيان ذلك من صناعة التصريف"(١).

فليس من المستبعد أنه كان يقصد تضمن هذه الفواتح لهذا العدد الكبير من أحرف الـزيادات التي لها دورها المعروف كما ذكرنا في مباني اللغة ومشتقاتها.. أو في "صناعة التصريف" كما يقول.

ومما نخلص إليه أيضًا من حديثنا في هذا الجانب -ومما يؤيده في الوقت نفسه- أن القـرآن حينما ركز في فواتحه الهجائية على أكثر الحروف انتشارًا.. لم يقصد الإشارة إلى انتـشارها في أصـول الكلمـات فقط، وإنما قصد الإشارة إلى انتشارها الفعلي في زاقع الاستعمال اللغوي، سواء كانت من الصوامت أم الحركات أم الزيادات.

وهـو لم يكن يتحدى العرب بأصول الكلمات في حد ذاتها، فإن هذه الأصول في متناول الجميع كما أن حروف المعجم أيضًا في متناول الجميع.. وإنما كان يتحداهم بأن يـركبوا من هذه الحروف والأصول آيات أو سورًا مثل آياته وسوره، وهذا لا يتم بأبنية اللغة ومفرداتها المتفرقة الجامدة، وإنما يتم بها في استعمالاتها الحية وممارساتها الفعلية.

الإعجاز التركيبي

تـدور هذه النقطة حول تراكيب الفواتح الهجائية أو صيغها أو أبنيتها اللفظية، التي تـبلغ أربع عشرة صيغة، هي حسب ترتيبها في المصحف: (الم - المص - الر - المر - كهيعص - طه - طسم - طس - يس - ص - حم - عسق - ق - ن).

وقد حاولت فيما سبق أن أوضح أن اختيار حروف هذه الصيغ أو مفرداتها لم يكن أمرًا جزافيًا وعشوائيًا، بل كان -من عدة وجوه- اختيارًا محسوبًا معجزًا.. وهذا ما أحاوله في هذا الفصل أيضًا، وإن كان على مستوى التراكيب نفسها لا على مستوى مفرداتها.

ولعلي مع بداية هذه المحاولة لا أكون بحاجة إلى إعادة ما ذكرته في المبحث الأول من الفصل السابق، بشأن المنهج الذي يجب اتباعه في دراسة الفواتح الهجائية على ضوء الإحـصاءات أو الدراسات اللغوية، فما يصدق هناك بشأن منهج تناول هذه الفواتح من الناحية الصوتية يصدق أيضًا -من حيث الإطار العام- على تناولها من الناحية التركيبية.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٩. وقريب من كلامه هذا حديث شيخه ابن تيمية عن الحروف المقطعة أيضًا، حيث ذكر أن فيها النصف من كل أجناس الحروف -كما قال الزمخشري- وأنها "أشرف النصفين". انظر: مجموعة فتاوى ابن تيمية -جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم- ط المكتب التعليمي السعودي ١٢/ ٤٤٨.

أي أن ما سوف نقدمه هنا في هذه الناحية الأخيرة إنما يمثل الظواهر العامة -التي نرى فيها أدلة كافية على ما نريد- ولا يمثل كل التفاصيل التي يأخذ منها القرآن أو يدع أو يرتب حسب أهدافه وطرائقه الخاصة التي تقتضي إيراد هذه الفواتح وفق تراكيب مخصوصة ونظام مخصوص في تأليف حروفها أو ترديدها، أو علاقتها بسورها.. ونحو ذلك.

وسوف أتناول موضوع هذا الفصل من خلال ثلاثة مباحث أيضًا.

أنواع تراكيب الفواتح الهجائية:

لم تــرد أبنــية الفواتح الهجائية على نمط واحد، وإنما جاءت على أنماط أو صيغ متــنوعة، هــي هذه الأربع عشرة التي ذكرناها من قبل. ومنها ثلاثة جاءت على حرف واحد (ص - ق - ن) وأربع على حرفين (طه - طس - يس - حم) وثلاثة على ثلاثة أحرف (الم - الر - طسم) واثنتان على أربعة أحرف (المص - المر) واثنتان على خمسة أحرف (كهيعص - حم - عسق).

وقد ورد كل من هذه الصيغ في الفواتح الهجائية مرة واحدة إلا أربعة، هي:

١. الــم، تكررت ست مرات.

٢. الــر، تكررت خمس مرات.

٣. طسم، تكررت مرتين.

٤. حــم، تكررت بمفردها ست مرات، وتكررت مرة سابعة في الصيغة الخماسية (حم - عسق).

فــيكون مجموع المكرر تسع عشرة صيغة، وغير المكرر عشر صيغ، وذلك كله تسع وعشرون صيغة، هي التي افتتحت بها تسع وعشرون سورة من القرآن الكريم.

حــروف أم أصــوات؟

ونحن حين نتكلم عن مباني هذه الصيغ نواجه سؤالا هو: هل نحدد بنية كل صيغة على أساس أنها تتألف من عدد من الحروف -سواء كانت حرفًا واحدًا أو أكثر- أم على أساس أنها عدد من الأصوات؟ وبتعبير آخر، هل نقول: إن (ص) -مثلا- بنية من حرف واحد هو هذا المكتوب سابقًا أم بنية من ثلاثة أصوات هي الصوت الأول والثاني والثالث من كلمة (صاد)؟

الحــق إن اللغة -كنظام نطقي في المقام الأول- تقتضي منا أن نحدد بنياتها تحديدًا نطقيًا أو صوتيًا.

غـــير أن أسلافنا المفسرين -ومنهم لغويون كبار الزمخشري- قد اعتادوا أن يتحدثوا عن بنيات الفواتح الهجائية على أساس أنها حروف، كل حرف قائم بذاته، فيصنفوها باعتبار ما ورد على حرف ثم ما ورد على حرفين.. وهكذا، كما مر بنا في بداية هذا المبحث.

والحق الذي أعتقده في هذه المسألة أمران:

الأول: أنـــه إذا كان الحديث عن هذه الفواتح متعلقًا بالجانب الموسيقي البحت، حين يُنظر إلى تأليف كل بنية من جهة حسن التناسق والتناغم بين أصواتها أو من جهة هذا التناسق والتناغم بينها وبين ما يليها من آيات السورة.. فإنه لا مناص -حينئذ- من الأخذ بالأساس النطقي، أو الصوتي البحت، والحديث عن البنية على أنها مجموعة من الأصوات المتناســقة المتواصــلة التي لا ينفصل أحدها عن غيره، كما سوف نتعرض له في بعض مباحث هذا الفصل.

الثاني: أنه إذا كان الحديث عن هذه الفواتح مما لا صلة له بهذا الجانب الموسيقي، فإن الأفضل النظر إلى بنياتها على الأساس الأول وهو أنها حروف، وذلك لعدة اعتبارات خاصة أهمها:

١. إن النطق التوقيفي لهذه الفواتح أثناء التلاوة، إنما هو بأسامي الحروف. فنحن لا نـــنطق (الم) أو غيرهـــا بأصوات حروفها فنقول: (أَلَمْ) كأجل وعمل.. وإنما ننطقها بأســـاء هـــذه الحـــروف (ألف لام ميم). أي أن هناك قصدًا للتعريف بأن هذه الفواتح "حروف" وليست "كلمات" مؤلفة من أصوات كما هو المعتاد في الاستعمالات اللغوية.

كمـــا أنهـــا كُتبت في المصاحف منذ أول الأمر برسم الحروف أيضًا وليس برسم أسمائهـــا..وفي ذلك يقول السيوطي: "كتبت فواتح السور على صورة الحروف أنفسها لا علـــى صـــورة النطق بها اكتفاءً بشهرتها"(١) أي أن كل من يتلوها يعرف أنه ينطق أسماء حروف لا أصوات كلمات.. فلم يجدوا حاجة لكتابتها بصورة النطق.

٢. إن المعلـــوم أن بنيات هذه الفواتح وإن كان لها أغراض يمكن فهمها.. إلا أنها ليس لها معانٍ في حد ذاتها، فنقول: إن هذه البنية (طسم) معناها كذا و(حم) معناها كذا.. كما نفعل ذلك عادة مع الأبنية اللغوية الأخرى. ومن هنا فإن هذه الأبنية الأخرى لا تُنطق حروفًا متفرقات، فلا أنطق كلمة "قمر" مثلا: (قاف ميم راء) لأنه لا يكون لها معنى بهذه الصورة ولا تدل على معناها إلا بنطقها الأول المعهود.. أما البنية التي ليس لها مدلول في

(١) الإتقان: النوع السادس والسبعون في مرسوم الخط ٢/ ٢١٧.

حد ذاتها، فإنها قد فقدت مبرر النطق بها كبقية كلمات اللغة، بل الأصح -والحال كذلك- أن تُـــنطق أسماء حروف متفرقات، حتى يعلم كل من يسمعها أنها ليست إلا "حروفًا" بصرف النظر عن الدور الذي يمكن أن يؤديه أو المغزى الذي تحمله وهي على هذه الصورة.

٣. إن رسول الله نفسه ﷺ قد سماها "حروفاً" في حديثه المشهور: "اقرؤوا القرآن، فإن الله يأجركم عن قراءته بكل حرف حسنة، لا أقول: (الم) حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف" (١). فقارئ القرآن يؤجر عن كل حرف حسنة، كما لو قرأ أثناء تلاوتـــه: "خلق" فإنها تحسب ثلاثة أحرف، أما لو قرأ: "ألف" فإنها تحسب حرفًا واحدًا بـــرغم أنهـــا حـــسب نطقها ثلاثة أحرف (الألف واللام والفاء). و(الم) التي وردت في الحديث السابق تسعة أحرف حسب نطقها، لكن الرسول ﷺ قرر أنها "ثلاثة". فهي -إذًا بنـــية مكونة من ثلاثة أحرف، كما أن (قاف) بنية مكونة من حرف واحد، و(حم) بنية مكونة من حرفين.. وهكذا.

تفريق الصيغ وتنويعها:

وفي ضـــوء هـــذه الاعتبارات، ننتقل إلى مسألة هامة في هذا المبحث. وهي عن حـــروف هذه الفواتح: لماذا جاءت مفرقة على أوائل بعض السور ولم تذكر بأجمعه مرة واحـــدة فإذا مكان واحد؟ ولماذا جاءت في صورة صيغ أو تراكيب متنوعة على حرف وحرفين أكثر ولم تأت على نمط واحد كلها؟

هذان سؤالان -سألهما وأجاب عنهما- من قبل -الزمخشري.

أما السؤال الأول: فقال فيه: "فإن قلت: فهلا عُدِّدت -أي الحروف- بأجمعها في أول القرآن؟ وما لها جاءت مفرقة على السور؟ قلت: لأن إعادة التنبيه على أن المتحدَّى بـــه مؤلـــف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد، أوصل إلى الغرض، وأقَرّ له في الأسمـــاع والقلـــوب من أن يُفرَد ذكرُهُ مرة. وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره" (٢).

وهذا جواب سديد -بالطبع- في ضوء ما علمناه من قبل عن الغرض الذي تنزلت مـــن أجله الحروف المقطعة، وهو تحدي العرب بلغتهم المؤلفة من نفس هذه الحروف..

---

(١) أخرجه البخاري في تاريخه والترمذي والحاكم. وغيرهم. انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ط دار الفكر بيروت ١٤٠٣- ١٩٨٣، ١/ ٥٥.

(٢) الكشاف ١/ ٣٠.

وقد علمنا أن هذا التحدي كان أشبه بمعركة ظلت محتدمة لعدة سنوات طيلة الفترة المكية علــى وجه الخصوص. فكان المطلوب -إذًا- تكرير هذه الحروف على أسماعهم، ليتكرر التحدي لهم على امتداد سنواته في هذه الفترة السابقة.

وأمـــا الـــسؤال الثاني: فقال فيه: "فإن قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة؟ ولم اختلفت أعداد حروفها.ز قلت: هذا على عادة افتنانهم في أساليب الكلام، وتصرّفهم فيه على طرق شتى متنوعة، وكما أن أبنية كلامهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سُلِك بهذه الفواتح ذلك المسلك" [١].

فيريـــد الزمخشري بذلك أن يقول: إن حروف الفواتح تشكلت في تراكيب مختلفة لـــتلفت العرب إلى أن القرآن ليس فقط من حروف لغتهم، وإنما أيضًا من نفس تراكيب هذه اللغة وأساليبها المتنوعة التي يعجزون أن يكونوا منها كتابًا مثله.

كمـــا أن أبنـــية هذه الفواتح جاءت على حرف واحد وحرفين إلى خمسة أحرف لتلفتهم أيضًا إلى أبنية لغتهم التي لا تتجاوز في تكوينها هذا العدد من الحروف.

والذي يقصده الزمخشري بالأبنية هو أشكال الكلام العربي عمومًا.. حروفًا كان أو أسماء أو أفعالا، معربًا أو مبنيًا، جامدًا أو متصرفًا. فما هو على حرف واحد -مثلا- في الكـــلام: الكـــاف (للتـــشبيه والخطـــاب) والسين (للاستقبال) ومما هو على حرفين: (للإضراب) وهل (للاستفهام) ومما هو على ثلاثة: "أسد" و"فهم"، ومما هو على أربعة "وسوس"، ومما هو على خمسة "سَفَرْجَل" [٢].

ومـــن المعلـــوم أن غالب أبنية اللغة وأكثرها ترددًا النوع الثلاثي، وأن أقلها النوع الرباعي ثم الخماسي.

فـــإذا ألقينا نظرة على أبنية الفواتح الهجائية وجدناها تتوافق أيضًا مع هذا النظام. فهي أربع عشرة صيغة كما نعلم، ورد فيها من الثلاثي ثلاث صيغ: (الم – الر – طسم) تكررت الأولى منها ست مرات، وتكررت الثانية خمس مرات، وتكررت الثالثة مرتين.. فـــيكون هذا النوع قد ورد في الفواتح على ثلاث صور وتكرر ثلاث عشرة مرة. وورد فيها من الرباعي صيغتان لم تتكررا هما: "المص" و"المر". وورد فيها من الخماسي صيغتان لم تتكررا أيضًا هما: "كهيعص" و"حم. عسق".

---

(١) الكشاف ١/ ٣٠- ٣١.

(٢) السفرجل: نوع من الفاكهة.

إلا أن هذه الصيغة الأخيرة يمكن ألا تعد خماسية خالصة، نظرًا لتكوينها المشترك من صيغتين: إحداهما ثنائية وهي "حم" والأخرى ثلاثية وهي "عسق". ودليل ذلك أنه قد اشتهر إطلاق اسم "الحواميم" على سبع سور،[1] منها ست تبدأ بـــ "حم" فقط، وواحدة هي التي تبدأ بالصيغة المشتركة السابقة.. ومعنى ذلك أن أصحاب هذه التسمية يشعرون بــنوع مــن الانفصال أو التركيب المشترك في هذه الصيغة على النحو الذي ذكرناه[2]. ودليل آخر أيضًا، هو أن هذه الصيغة لم ترد في المصحف آية واحدة أو جزءًا من آية كما هـــو في بقية الصيغ، وإنما وردت آيتين، الأولى "حم" والثانية "عسق". وعلى ذلك يمكن أن نقول: إن الصيغة الخماسية الخالصة هي فقط "كهيعص".

فمــــن الواضـــح -إذًا- أن الصيغ الثلاثية في هذه الفواتح هي الأكثر تنوعًا وترددًا، تلـــيها الرباعية ثم الخماسية.. وهو ما يتوافق مع الحقيقة المعروفة عن أنواع الأبنية العربية ودرجات انتشارها.

الدلالة العددية للتراكيب:

ومما تجدر الإشارة إليه في ختام هذا المبحث -ومما يناسب موضوعه أيضًا- هذا العدد "١٤" الذي وردت عليه صيغ الفواتح الهجائية، فإن المعلوم أن حروف هذه الفواتح "١٤" أيــضًا، وقد تحدثنا من قبل عن دلالة هذا العدد على حروف الأبجدية كلها (التي هي تسعة وعشرون حرفًا) أو على حروف اللغة التي تنزل بها القرآن.. ثم إنه قد اتضح لنا من هذا المبحث أن الصيغ السابقة قد جاءت على طريقة مخصوصة من حيث أبنيتها لتشير أيضًا إلى تراكيب هذه اللغة.

وفي ضـــوء ذلك، يصبح من الممكن أن نقول: إن هذا العدد الذي وردت به صيغ الفواتح له مغزاه المقصود -كما أن عدد الحروف كان كذلك أيضًا -وهو إشارته إلى كل تـــراكيب اللغة التي يمكن أن تتكون من حروف الأبجدية التسعة والعشرين كما كان عدد

---

(١) انظر: الإتقان ١/ ٧٥- ٢/ ١٤٥.

(٢) ولعل هذا الاشتراك هو ما ساعد على خطأ الزركشي في إحصائه لصيغ الفواتح، إذ قال في البرهان (١/ ١٦٧) إن الثلاثي منها "اثنتا عشرة" وليس "ثلاث عشر" كما ذكرنا، بينما الثنائي عنده "عشر" وهو في الحقيقة "تسع". وذلك لأنه يحصي الجزء الأول من هذه الصيغة "حم. عسق" مع "الحواميم" ثم يحصي الصيغة كلها مرة أخرى على أنها خماسية. ويتم له عدد الصيغ كلها تسعًا وعشرين فيتوهم أن إحصاءه صحيح، وهو غير ذلك، لأن ما نقص منه خطأ في الصيغ الثلاثية هو ما زاد خطأ أيضًا حين أحصى هذه الصيغة السابقة مرتين.

الحروف يشير أيضًا إلى هذه الأبجدية. فأحد العددين -بعبارة أخرى- يحمل دلالة على اللغة من حيث هي "حروف" والآخر يحمل دلالة عليها من حيث هي تراكيب. وبذلك يعضد كل منهما الآخر، ويقويان معًا جوانب الإعجاز التي نحاول الكشف عنها في الفواتح الهجائية.

أسس بناء التراكيب:

كيف تتردد الحروف المقطعة داخل صيغها؟ لماذا يكثر تردد بعضها ويقل تردد البعض الآخر؟ وهل تم تأليف الصيغ من هذه الحروف كيفما اتفق أم هو أمر مضبوط وفق أسس دقيقة؟

الحق إن تراكيب الفواتح الهجائية قد بنيت وفق أسس في غاية الدقة، نحاول بيان أهمها فيما يأتي:

الأساس الأول: أكثر الحروف انتشارًا داخل الصيغ:

حينما نرجع إلى الجدول رقم "١" الملحق بهذا البحث، يسهل علينا أن ندرك أن مجموع حروف الفواتح الهجائية -مع المكرر- ثمانية وسبعون حرفًا.

كما يسهل علينا أن ندرك أيضًا أن بعض هذه الحروف يتفوق تردده في هذه الفواتح على البعض الآخر. ومما يبدو واضحًا في ذلك حروف "الميم واللام والراء" التي ترددت "٣٦ مرة"، أي ما يقرب من نصف المجموع السابق، بمقدار "١٧ مرة" للميم و"١٣مرة" للام و"٦ مرات" للراء.

وحين نلقي نظرة على الجدول رقم "٢" يسهل علينا أن ندرك أيضًا أن هذه الحروف الثلاثة من أعلى الحروف ترددًا كذلك على مستوى الإحصاءات المعجمية، حيث يبلغ مجموع ترددها تحديدًا (١٩,٧٣%) من مجموع تردد الحروف كلها في جذور "تاج العروس". ويبلغ أكثر من ذلك -بالطبع- على مستوى التردد الواقعي في الاستعمالات اللغوية، باعتبار أن الميم واللام من حروف الزيادات التي تحدثنا من قبل عن الفرق بين ترددها المعجمي وترددها اللغوي الواقعي.

فهل كان التوافق بين كثرة تردد هذه الحروف في اللغة وبين كثرة ترددها داخل الفواتح أمرًا عفويًا بلا قصد؟ إن الإجابة عن ذلك بالنفي القطعي، لأننا لو تذكرنا الخواص الصوتية لهذه الحروف الثلاثة لأدركنا سر ترددها المرتفع في هذه الفواتح، حيث إنها -كما نعلم- من أيسر الحروف نطقًا ومن أقواها إسماعًا في الوقت نفسه.. ومن ثم، كان ارتفاع

ترددها أيضًا على مستوى اللغة بوجه عام. وكأن القرآن بذلك يريد أن يجعل أكثر الأصوات ترددًا على أذن سامعه في هذه الفواتح هي الأكثر ترددًا على أذنه أيضًا في الواقع اللغوي عمومًا. فهو يراعي ما تألفه هذه الأذن وما ترتاح إليه -من ناحية- ويؤكد تحدي العرب بما يألفونه ويشيع بينهم من ناحية أخرى.

وهذه الحقيقة التي حاولنا إيضاحها سابقًا. مما لم يفت الزمخشري أيضًا في إسهاماته العظمى التي قدمها في قضية الفواتح الهجائية، حيث ألمح إليها في معرض حديثه عن تضمين هذه الفواتح أكثر الحروف انتشارًا، فيقول في ذلك: "ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعًا في تراكيب الكلمات، أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين، وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر"[١].

ولا يفوتني في الحديث عن هذا الأساس الأول أن أشير إلى سؤال يمكن أن ينشأ عن حرف "النون" لماذا لم يرد الفواتح إلا مرة واحدة، أو: لماذا لم يكثر تردده فيها كما هو الشأن في الحروف الثلاثة السابقة مع أنه يشاركها في نفس الخواص المذكورة؟

فأوضح أن هذا السؤال -في الحقيقة- له وجه سائغ مقبول، ووجه آخر فاسد مردود.

أما الوجه الأول: فهو أن نقصد من السؤال دراسة أبنية الفواتح من مختلف جوانبها لنصل في النهاية إلى الجواب عن هذا السؤال ونحوه.. وهذه الدراسة هي ما نحاوله بالفعل في هذا الفصل، كي نثبت أن الأبنية المذكورة تقوم على أسس دقيقة في تراكيبها ونظام تردد أصواتها.. ومنها حرف النون -بالطبع- الذي سيرد بشأنه بيان خاص عند الحديث عن الأساس الثالث الخاص بالإيقاع الصوتي.

وأما الوجه الآخر: فهو أن نقصد بهذا السؤال المقارنة أو المطابقة الحرفية بين أبنية هذه الفواتح وبين تفاصيل الدراسات اللغوية. وهذا هو المسلك الخاطئ الذي سبق أن نبهت إليه تفصيلا في المبحث الأول من الفصل الماضي، وإن كنت لا أملّ من التذكير به

---

(١) وينضم أيضًا إلى هذه الحروف الأكثر ترددًا في الفواتح: حرفا الألف والهاء. أما الألف -التي ترددت ١٣ مرة مثل اللام- فقد عرفنا من قبل أنها أيضا من أكثر الأصوات اللغوية انتشارًا، لكنني لم أذكرها مع الحروف الثلاثة لعدم دخولها في الإحصاءات المعجمية. وأما الهاء فسأرجئ الحديث عنها إلى موضع أنسب سيأتي بعد في هذا المبحث.

كلما ظهر مثال عملي يستدعي ذلك -فأؤكد هنا أن المنهج الصحيح أن يُبحث عن هذه المطابقة من حيث الحقائق الأساسية فقط، أما التفاصيل.. من ناحية ظهور شيء منها أو اختفائه أو التركيز عليها من جانب وإهمالها من جانب آخر، فإن القرآن له في كل ذلك مسلكه الخاص الذي يلائم طبيعته وأهدافه وأساليبه الخاصة أيضًا.

وبإدراك هذه الحقيقة المنهجية، نعصم أنفسنا من الزلل الذي ينشأ من الخلط بين الحقائق الأساسية الثابتة وبين تفاصيل هذه الحقائق، ونعصم أنفسنا -بالتالي- من البلبلة التي يمكن أن تنشأ حين نعجز عن فهم شيء أو آخر من هذه التفاصيل.. حيث يجب في هذه الحال أن نتهم قدراتنا نحن، دون أن نجعل هذا العجز سببًا لهدم الحقائق الأساسية التي توصلنا إليها.

الأساس الثاني: مراعاة أصول التتابعات اللغوية:

إن مما اهتمت به الإحصاءات المعجمية التي نرجع إليها، مسألة التتابع الصوتي في أصول الأبنية العربية، حيث قدمت في ذلك مجموعة من الجداول التي يمكن أن تدلنا على حقائق كثيرة، من أهمها ما يتعلق بمسألتين:

الأولى: عن التتابعات أو الثنائيات الصوتية الممتنعة التي لا يمكن أن ترد في أصول هذه الأبنية، كالهمزة مع الهمزة والتاء مع الظاء والثاء مع الذال والشين مع الضاد.. إلخ.

والثانية: عن أكثر الحروف تتابعًا في أصول الأبنية، أو أكثرها تجاورًا في هذه الأصول.

فنريد أن نضع أمامنا نتائج الإحصاءات السابقة فيما يتعلق بهاتين المسألتين، ثم نستعرض في ضوئها صيغ الفواتح الهجائية لنعرف إلى أي مدى تتوافق مع هذه النتائج.

ففي المسألة الأولى -وهي عن التتابعات الممتنعة- نجد أن الإحصاءات المذكورة قد قدمت بيانًا لما يتعلق منها بالجذور الثلاثية. والذي يهمنا من هذا البيان هو ما ورد فيه من حروف الفواتح الهجائية. وهي تسعة حروف نقدمها -كما وردت- على النحو التالي:

١. الحاء: ح+خ[1] - خ+ح - ح+ع - ح+غ - ح+هـ.

٢. السين: س+ث - ث+س - س+ز - ز+س - س+ش - س+ص - س+ض - س+ظ - ظ+س.

٣. الصاد: ص+ث - ث+ص - ص+س - ص+ش - ص+ص - ص+ظ -

---

(١) هذا معناه أن الحاء لا يأتي بعدها الخاء ثم الخاء لا يأتي بعدها الحاء. وهكذا إلى آخر الثنائيات.

ظ+ ص – ض+ ص – ز+ص.

٤. الطاء: ط+ ص – ط+ض – ط+ظ.

٥. العين: ع+همزة – ع+ح – ع+خ – ع+غ.

٦. القاف: ق+ج – ق+ك – ظ+ق.

٧. الكاف: ك+ق.

٨. الميم: م+ب.

٩. الهاء: هـ+ح – هـ+خ [١].

فهذه سبعة وثلاثون من التتابعات أو الثنائيات الممتنعة في الجذور الثلاثية، ليس منها ثنائي واحد واردًا في صيغ الفواتح الهجائية، سواء كان مشتركًا بين أحد الحروف الداخلة في هــذه الفواتح وأحد الحروف التي لم تدخل مثل (م+ب) أو كان كله داخلا في الفواتح مثل (هـ+ح).. فكلاهمــا غــير وارد في صــيغها، ثنائية كانت هذه الصيغ أم ثلاثية أم رباعية أم خماسية، برغم أن القاعدة لا تلزمنا بتطبيق التتابعات السابقة على غير الصيغ الثلاثية.

كمــا أننا حين نستخرج من الإحصاءات التتابعات الممتنعة بالجذور الرباعية[٢] لا نجد فيها أيضًا أي ثنائي وارد بالصيغتين الرباعيتين في الفواتح الهجائية.

أما الجذور الخماسية، فلا يمكن أصلا إصدار حكم بشأن الممتنع من تتابعاتها، لأن مــا ورد منها قليل جدًا لدرجة توجب علينا -كما جاء في دراسة التاج[٣] -أن نتساءل عمــا ورد مــنها، لا عما اختفى وامتنع، وهي بالتحديد لا تمثل أكثر من (٢,٥%) من جذور التاج كلها.

وفي المسألة الثانية: -وهي عن أكثر الحروف تجاورًا في التتابعات الصوتية- تبين لــنا جداول إحصاءات "التاج" أن أكثر الحروف ترددًا في مواقع الأبنية المختلفة هو أيضًا أكثرها تجاورًا في هذه المواقع. ومما يتضح فيه ذلك نفس الحروف الثلاثة التي تحدثنا عنها في الأساس الأول، وهي: اللام والميم والراء[٤].

وقد كان هذا الحديث عن التوافق بين كثرة انتشارها في اللغة وكثرة انتشارها أيضًا في الفــواتح الهجائــية. أما هنا، فنوضح التوافق بين كثرة تجاوره في الأبنية اللغوية وكثرة

---

(١) انظر: دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس ص ٤٩– ٥٠.

(٢) انظر إحصاءات التاج، الجداول رقم ١٣، ١٤، ١٥ ص ٩٩ وما بعدها.

(٣) ص ٥٦، ٥٧.

(٤) انظر الجداول الواردة بهذه الإحصاءات ص ٧٥ وما بعدها وص ٨١ وما بعدها.

تجاورها أيضًا في هذه الفواتح.

ويبدو ذلك جليًا في هذه الصيغ الأربعة: "الم" و"الر" و"المص" و"المر"، حيث لم تخل صيغة من الصيغ الثلاث الأولى من حرفين متجاورين من هذه الأحرف، ثم تجاورت واجتمعت كلها في الصيغة الأخيرة.. فضلا على أن هذا التجاور -أو التلازم- قد تردد في صيغ الفواتح الهجائية ثلاث عشرة مرة؛ حيث تكررت "الم" -كما نعرف- ست مرات، و"الـر" خمـس مرات، ووردت كل من "المص" و"المر" مرة واحدة. وهذا يُعدّ أعلى مـستوى من التلازم فيما بين ثلاثة أحرف من هذه الفواتح، باستثناء الألف التي تكررت أيـضًا مـن الحروف الثلاثة في جميع الصيغ السابقة. لولا أنها -كما نعلم- لا تدخل في الإحصاءات المعجمية التي نرجع إليها.

ولا يفوتنا في هذه المسألة الثانية، أن ننظر في ثنائي آخر من الفواتح الهجائية، وهو الحـاء والمـيم في صيغة "حم" التي تكررت وحدها من دون "الصيغ الثنائية" كلها سبع مـرات.. بينما كل من الصيغ الأخرى في هذا النوع قد ورد مرة واحدة،[1] فهل تم هذا التكرار بغير قصد؟

لقـد حاولت أن أجد تفسيرًا لذلك من خلال جداول التتابع الواردة بإحصاءات "التاج"[2] فلحظت بالفعل تلازمًا شديدًا بين حرفي الحاء والميم، بحيث يمكن القول بأن "الميم" من أقوى الحروف أو من أكثرها ترددًا بعد "الحاء".. لا يسبقها شيء في جذور "الصحاح"[3]

ولعـل ذلـك يوضح السر في كثرة تردد الحاء في الفواتح الهجائية[4] مع أنها أصلا ليـست من المجموعة العالية التردد -بل من المتوسطة التردد- على مستوى اللغة عمومًا. فالـسر في ذلك هو اقترانها الشديد بالميم التي هي من أعلى الحروف ترددًا على مستوى اللغة وأعلاها إطلاقًا على مستوى الفواتح.. فكأن الحاء قد ارتفعت بها داخل هذه الفواتح وإن كانت خارجها أقل ارتفاعًا.

---

(١) انظر الجدول رقم "١" في نهاية هذا الكتاب.

(٢) ص ٨١ وما بعدها.

(٣) كان مما اهتم به صاحب الدراسة الإحصائية لهذا المعجم تقديم جدول خاص عن "أقوى حرف سابق وأقوى حرف لاحق" في جذور الصحاح، فظهر من هذا الجدول (ص ٣٤) أن الميم هي أقوى الحروف ترددًا بعد الحاء.

(٤) بالرجوع إلى الجدول رقم "١" المشار إليه من قبل نجد أن تردد الحاء (٧مرات) يأتي في المرتبة الرابعة بعد اللام وقبل الراء.

وخلاصة كل ما سبق في هاتين المسألتين، أن ترتيب الحروف المقطعة وترددها في صيغها لم يكن أمرًا جزافيًا، وإنما كان أمرًا دقيقًا تمامًا قائمًا على قاعدتين:

أولاهما: تجنب جميع التتابعات أو الثنائيات الممتنعة على مستوى اللغة.

الثانية: مراعاة ما تعتاده الأذن في سماعها للأصوات العربية من ناحية أكثرها تجاورًا وتلازمًا في الأبنية المختلفة.

الأساس الثالث: الإيقاع الصوتي:

ليس من شك أن الجانب الصوتي أو الموسيقي للغة يُعدّ -في حد ذاته- قيمة هامة، بصرف النظر عن مدلولات الألفاظ أو التراكيب، حيث إن المرء يمكن أن يجد راحة ومتعة في بعض ما يسمعه -وإن لم يدرك معناه- بسبب ما فيه من حسن الإيقاع والتنسيق والتنغيم... ومن هنا كان هذا الجانب أحد المعايير الأساسية في تقويم الأعمال الأدبية، إن لم يكن -في حد ذاته- ركنًا أساسيًا في فن الشعر بوجه خاص.

ولسنا هنا بحاجة إلى الحديث عن القيم الصوتية والموسيقية في أساليب القرآن، التي تعد أحد مقومات مكانتها الأدبية الرفيعة.

وعلى ذلك، فإن صيغة "الم" مثلا لن تكون -حسب قصدنا هذا- ثلاثة أحرف هي الألف واللام والميم، وإنما ستكون أحد عشر صوتًا هي: (ء+فتحة قصيرة - ل+كسرة قصيرة - ف - ل+ فتحة طويلة - م - م+كسرة طويلة - م) وهي مكونات أسماء الحروف الثلاثة السابقة. وكذلك صيغة "يس" لن تكون حرفين هما الياء والسين، وإنما ستكون خمسة أصوات هي: (يـ ا - يـ ـ) أي: الياء والألف والسين والكسرة الطويلة والنون. وصيغة "ن" أيضًا ليست حرفًا واحدًا، وإنما ثلاثة أصوات (ن و ن) هي: النون ثم الضمة الطويلة ثم النون.. وهكذا في بقية الصيغ.

ونحن في تناولنا لهذه الصيغ من المنظور السابق، إنما نتناوله حسب طريقة النطق بها في التلاوة كما أثرت عن الرسول ﷺ.

وأسماء الحروف المقطعة حسب هذه الطريقة تنقسم إلى قسمين:

أولهما، الأسماء التي تنتهي بالهمزة، وهي: (حاء - ياء - طاء - هاء - راء) وهذه طريقتها في التلاوة القصر[1] مع إهمال الهمز فتنطق: (حا - يا - طا - ها - را) ومقدار المد فيها كمقداره في "قال" و"قائل"، وهو ما يسمى في أحكام التلاوة بالمد الطبيعي.

---

(١) أي: عدم المد الزائد.

وثانيهما، الأسماء التي لا تنتهي بالهمزة، وهي: (سين - نون - قاف - صاد - عين - لام - مــيم - كاف) وهذه تُمد الحركات فيها -سواء كانت فتحًا أو ضما أو كسرًا- مدًا زائــدًا لازمًا، وهو (كما يقدر في أحكام التلاوة) ثلاثة أضعاف المد الطبيعي.. وبطريقة علماء القراءات يُمد ست حركات في مقابل المد الطبيعي الذي يُمد حركتين فقط[١].

وعلى ذلك، تكون طريقة تلاوة صيغ الفواتح الهجائية الأربع عشرة كالتالي: "ألف لام مــيم"، "ألف لآم ميم صاد"، "ألف لآم را"، "ألف لآم ميم را"، "كآف ها ياعين[٢] صـــآد"، "طاها"، "طا سين ميم"، "طا سين"، "ياسين"، "صاد"، "حاميم"، "حاميم. عين سين قاف"، "قآف"، "نون".

وبإحـــصاء أصوات هذه الصيغ كلها، يتبين أنها -بالمكرر- واحد وأربعون ومائتا صوت،[٣] يتوافر لها عند أدائه في التلاوة كل عناصر التناسق والوضوح والجمال الصوتي، وسوف نقدم فيما يلي أهم هذه العناصر:

١. هــذه الأصــوات كلها تخلو من جميع التتابعات أو الثنائيات الممتنعة في أبنية الكـلام العـــربي[٤]، وقد تحدثنا من قبل عن انعدام هذه التتابعات داخل الصيغ بوصفها حـــروفًا، لكـــن الـــذي نقصده هنا هو انعدامها أيضًا داخل الصيغ بوصفها مجموعة من الأصوات.

٢. كثرة انتشار الحركات عند تلاوة الصيغ السابقة.. وقد علمنا أن الحركات -ولا سيما الطويلة- هي أعلى الأصوات اللغوية وضوحًا في السـمع.

فإذا أحصينا الحركات في الأصوات في هذا الصيغ، وجدنا أنها تبلغ بالتحديد (٩١) صوتًا.. بنسبة (٣٣,٧٥%) من مجموع أصواتها الذي ذكرناه سابقًا. وغالبها من الحركات الطـــويلة التي تبلغ (٦٣) صوتًا، بواقع (٤٠) صوتًا للفتحة الطويلة (ألف المد)، و(٢٢) صوتًا للكسرة الطويلة، وصوت واحد للضمة الطويلة في صيغة (نون).

---

(١) انظر: رسالة في قواعد التلاوة لكمال الدين الطاي. ط دار الحرية. بغداد ﷺ ٣٨ وما بعدها.

(٢) المد في هذا الاسم ليس ناشئًا -في الحقيقة- عن الفتحة التي على العين، وإنما عن إطالة النفس في نطق الياء الساكنة بسبب السكون العارض للنون. ومثل هذا المد كمثله في "الصيف" و"البيت" من سورة قريش. وكذلك الشأن في صيغة "حم. عسق".

(٣) انظر الجدول رقم "١" في نهاية الكتاب.

(٤) راجع البيان الشامل لهذه التتابعات ص ٤٩ وما بعدها من الدراسة الإحصائية لمعجم تاج العروس.

فهذا الكم الكبير من الحركات -وبخاصة الطويلة- يوضح بجلاء أن هذه الصيغ قد توافر لها عنصر عظيم من عناصر الوضوح السمعي والجمال الإيقاعي، وبخاصة أن معظم هـــذه الحركات الطويلة -كما يتبين من طريقة التلاوة التي ذكرناها -يُمدّ مدًّا زائدًا، مما يعطي النفس معها- أو الصوت- أقصى درجات انطلاقه وقوته.

٣. يكثـــر أيـــضًا في هـــذه الصيغ انتشار مجموعة الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، وهي: الميم واللام النون والراء.

وقد تحدثنا في بداية هذا المبحث عن انتشار هذه الأصوات -باستثناء النون - في صـــيغ الفـــواتح بوصفها حروفًا، ونحن الآن نتحدث عن انتشارها في صيغ هذه الفواتح بوصـــفها أصواتًا، حيث بلغت في ذلك بالتحديد (٨٨) صوتًا.. بنسبة (٣٦,٥١%) من المجمـــوع الكلـــي، منها (٤٧) صوتًا للميم[١] و(٢٦) صوتًا للام و(٩) أصوات للنون[٢] و(٦) أصوات للراء.

وقد علمنا من قبل أن هذه الأصوات الأربعة تلي الحركات من حيث قوة الوضوح السمعي، مما جعل علماء اللغة يطلقون عليها "أشباه الحركات".

ويـــرى بعـــض الباحـــثين أنه مما يزيد في درجة إسماعها "أنها أصوات استمرارية يـــصحب نطقهـــا رنين خاص يأخذ شكل (الغُنّة) الأنفية في صوتي النون والميم، ويأخذ شكل (التكرير المرتعش) في صوت الراء، ويأخذ شكل (الانطلاق) في صوت اللام"[٣].

أضف إلى ذلك، أن هذه الأصوات -من جهة أخرى- تُعدّ من "حروف الذلاقة" الستة التي تتميز كما نعلم بخفتها على اللسان.

٤. يتـــردد في صيغ الفواتح الهجائية -حسب واقعها الصوتي- ثلاثة من الأصوات الـــصامتة الـــتي لا تدخل أصلا ضمن الأربعة عشر حرفًا التي تكوِّن أسماؤها هذه الصيغ، وهي: الهمزة والفاء والدال،[٤] وهي كلها -تقريبًا- من الأصوات الشائعة لغويًا،[٥] فضلا على أن الفاء -التي تدخل ضمن حروف الذلاقة بميزتها المعروفة- أكثر هذه الثلاثة ترددًا،

---

(١) ويرتفع هذا العدد -حسب النطق الفعلي- إلى (٤٩) مرة بسبب إدغام النون في الميم الأولى من "طا سين ميم" التي تتكرر مرتين- حيث تصبح هذه الميم مضعّفة أو ميمين.

(٢) ينقص هذا العدد أيضًا إلى سبعة فقط لنفس السبب المذكور في الهامش السابق.

(٣) انظر: دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس ص ٤٠.

(٤) ترد الهمزة فإذا في "ألف" والفاء في "ألف وقاف وكاف" والدال في "صاد".

(٥) راجع الجدول رقم "٢" في نهاية الكتاب.

بـــل إنها تأتي في الموقع الخامس على مستوى أصوات الفواتح كلها، حيث ترددت (١٦ مرة) بنسبة (٦،٦٣٪) من المجموع الكلي [١].

أما الهمزة فهي أقل الثلاثة ترددًا وأصعبها نطقًا أيضًا.. لكنّ صعوبة نطقها لا تظهر إلا في مواقع بعينها من بنية الكلمة، كأن تتعاقب مع أحد أصوات الحلق أو تقع ساكنة بعد مد. وهي في الفواتح بعيدة عن كل ذلك، حيث ترد دائمًا في كلمة "ألف".. فهي متحركة في أول الكلمة من ناحية، وبعيدة دائمًا عن مخرج ما بعدها -وهو صوت اللام- من ناحية أخرى [٢].

٥. يتـــردد أيضًا في صيغ هذه الفواتح صوت جميل الوقع، هو صوت الغنة، الذي يكـــون له رنين أو دويّ خاص عند التقاء النون والميم الساكنتين ببعض الحروف [٣] وعند تشديدهما كذلك. ولعله هو المقصود في حديث سيبويه عن "النون الخفية" أي التي تُخفى قبل حروف الفم الخمسة عشر (ت - ث - ج - د - ذ - ز - س - ش - ص - ض - ط - ظ - ف - ق - ك) حيث يظهر صوت الغنة عند هذا الإخفاء.

وقد تحدث سيبويه عن هذه النون (أو الغنة) ضمن ستة أصوات رأى أنها فروع من حروف المعجم الأصلية، وأنها يُؤخذ بها وتُستحسن في قراءة القرآن والأشعار [٤].

وهـــذا الـــصوت يظهر في الصيغ السابقة -تحديدًا- ثلاث عشرة مرة، منها ثماني مرات حال إدغام الميم في الميم.. وذلك في "الم" و"المص" و"المر"، ومرتان حال إدغام الـــنون في المـــيم.. وذلك في "طسم"، ومرة حال إخفاء النون في الصاد في "كهيعص" ومرتان حال إخفاء النون في السين ثم في القاف.. وذلك في "حم. عسق".

٦. يُلحظ مما ذكرناه عن أصوات الصيغ أن صوت "الميم" هو أعلاها ترددًا على وجـــه الإطلاق. وذلك يرجع -كما أرجح- إلى مجموعة من الصفات التي لا تجتمع لغير هـــذا الـــصوت، ولا يقاربـــه فيها إلا صوت "النون"، وهي -كما مرت بنا متفرقات- وضـــوحه السمعي لكونه من أشباه الحركات وإيقاعه الموسيقي الناتج عن صوت "الغنة"

---

(١) راجع الجدول رقم "١".

(٢) سوف يرد حديث آخر عن الهمزة في آخر هذه العناصر التي نتحدث عنها.

(٣) تظهر الغنة عند أخفاء النون الساكنة قبل حروف الفم التي ستذكر بعد، وعند إدغامها في الياء والنون والميم والواو، وعند إقلابها ميمًا قبل الباء. وتظهر في الميم حال إدغامها في ميم بعدها، وحال إخفائها قبل الباء.

(٤) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها ص ٥٣.

الذي تحدثنا عنه وسهولة النطق به لكونه من حروف "الذلاقة" التي نعرفها. بل أعتقد أنه أسهل هذه الحروف إطلاقًا، إن لم يكن أسهل الأصوات على مستوى اللغات البشرية عمومًا، حتى يكاد يكون هو الصوت الذي يترنم به الوليد تلقائيًا للنداء على أمه، ويكاد يكون مشتركًا أيضًا في تكوين اللفظ الدال على "الأم" في معظم هذه اللغات [١].

ولعل هذا التردد الفائق لصوت الميم في صيغ الفواتح يفسِّر لنا -من جهة أخرى- تردد صوت السنون فيها، الذي يُعد ضعيفًا إذا قورن بتردده القوي الذي نعرفه على المستوى اللغوي العام.

فلعل السبب في ذلك -لو تذكرنا أقسام الأصوات وصفاتها- أن هذين الصوتين (الميم والنون) متقاربان جدًا، وينتجان في بعض الحالات نغمة صوتية واحدة هي صوت الغنة الذي تحدثنا عنه. فكأن هذا التردد الفائق لأحد الصوتين قد أغنى عن الإكثار من الصوت الآخر، حرصًا على تناسق الأصوات وتميّز النغمات.. فضلا عن أن كلمة "ميم" بما فيها من المد الناشئ عن الكسرة الطويلة هي الأنسب لما بعدها من فواصل الآيات التي تنتهي كلها بالمد الناشئ عن الكسرة أيضًا [٢] (الحكيم - العليم - المبين.. إلخ).

٧. سبق أن ذكرنا في طريقة تلاوة الفواتح الهجائية، أن جميع أسماء الحروف المنتهية بالهمزة تُؤدَّى مقصورة أو بالمد الطبيعي، وهي خمسة أسماء يجمع علماء التجويد حروفها في كلمتي"حي طهر". أما بقية أسماء الحروف التي تنتهي بغير الهمزة [٣] فإنها تُؤدَّى ممدودة مدًا زائدًا، وهي ثمانية أسماء يجمعونها أيضًا في عبارة "سنقص علمك".

والحقيقة أن صوت الهمزة إنما يخرج من الحنجرة عند انطباق وترها الصوتيين

---

(١) هذا اللفظ في اللغات السامية -على سبيل المثل- (ame) في العبرية، و(cm) في الحبشية والآرامية، و (ummo) في الآشورية، وذلك كما ورد في "القاموس العبري - الآرامي للعهد القديم". انظر:

-Wilgclm Gesenius: Hebwräehes und Aramäis ches Hamdwörterbush über des Alte Test, Spring – Verlag ١٩٦٢, S. ٤٥.

وفي اللغات الأخرى -على سبيل المثال أيضًا -(mother) في الإنجليزية، و (mère) في الفرنسية، (mutter) في الألمانية، و(madder) في الأسبانية، و(mamo) في الروسية، و(morc) في السويدية والبشتو، و(madder) في الفارسية، و(ma) و(ammi) في الأوردية، و(amm) في البنغالية، و(om-san) في اليابانية.

(٢) إلا في سورة الروم ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ حيث إن المد في الكلمة الأخيرة ناشئ عن الضمة، لكن اختلاف الفاصلتين في نوع المد قد عوض عنه تطابقهما في صوت الميم.

(٣) باستثناء اسم "الألف" الذي يخرج من هذه المسألة أصلا لخلوه من الحركات الطويلة.

انطـــباقًا تامًـــا، ثم ينطلق عند انفتاحهما فجأة ليحدث هذا الصوت، وهذه عملية نطقية صعبة في حد ذاتها،[١] وتزداد صعوبة إذا كانت الهمزة ساكنة مسبوقة بحركة طويلة، كما هـــي في (طـــاء) و(هاء) فإن الهمز لا يتحقق في هذه الحالة إلا بإطالة النفس - أو المد- إطالـــة كافية ثم قطعة فجأة كي يتأتى الانطباق التام للوترين الصوتين ثم الانفجار الهوائي بعد ذلك[٢].

ومن هنا ندرك علة الإعفاء من الهمزة وقصر المد على حركتين في أسماء الأحرف الخمسة، التي ذكرناها، فتُقرأ "طه": "طاها" وليس: "طاء هاء"، وتُقرأ "طسم": "طا سين مـــيم" ولـــيس: "طاء سين ميم"..وهكذا، بالإضافة إلى أن القصر في هذه الأسماء يعطي القارئ كفاءة أعلى في نطق ما بعدها، لأن النفس أثناء النطق بالفتحة الطويلة (طا - ها - حـــا.. إلخ) يـــبلغ أقصى درجات انطلاقه وحريته، مما يعطي الصوت قوة ويسلمه إلى الحرف التالي قويًا كذلك.

أما أسماء الحروف الثمانية الأخرى فإنها تُمدّ مدا زائدًا بسبب الوقف على أواخرها بالسكون، حيث إن الوقف على الساكن المسبوق بحركة طويلة أو بنصف حركة،[٣] أحد سببي المد الزائد.. [٤].

والسبب الآخر هو الهمزة المسبوقة بحركة طويلة أيضًا. غير أنه قد التُزم بالمد الزائد في أسماء الحروف المتعلقة بالسبب الأول دون المتعلقة بالسبب الثاني لعلة التخفيف.

ولعل هذه العناصر التي ذكرناها سابقًا تذكرنا بما كان يحبه الرسول ﷺ ويحث عليه

---

(١) ولعل هذه الصعوبة من أسباب تخلص اللسان العربي من الهمز في بعض التراكيب بطرق متعددة كالتسهيل والتخفيف وقصر الممدود كما في "كفوًا" بدلا من "كفؤًا" و"الذاكرين" بدلا من "ءاالذكرين" و"الرضا" بدلا من "الرضاء".

(٢) ولعله لذلك أيضًا تقضى قواعد التلاوة بإعطاء المد أقصى درجاته (ست حركات) حال الوقف على الهمزة المسبوقة بمد -مثل السماء- بينما يكون حال الوصل من اربع إلى خمس حركات فقط. وقد قال صاحب شرح الشاطبية في حديثه عن حروف المد: "وإنما تُمد لخفائها وعسر الهمزة". وهذه إشارة جيدة تؤيد ما ذكرناه، إلا أن أصوات المد ليس بها خفاء وإنما هي تمد لعسر الهمزة فقط أو لتحقيقه كما ذكرنا. انظر شرح شعلة على الشاطبية للموصلي، ط الاتحاد العام لجماعة القراء. القاهرة ١٩٥٤م ص ١٠٣.

(٣) كما هو في باء "عين" من صيغتي "كهيعص" و"حم. عسق".

(٤) ويدخل في ذلك -بالطبع- المد في مثل "الطامّة" و" الضالّين" لأن ألف المد فيهما بعدها حرف مشدد، وهو -في الحقيقة- حرفان: أولهما ساكن والثاني متحرك.

من التغنّي بالقرآن. وقد عقد الإمام النووي (توفي ٦٧٦هـ) بابا لهذا الغرض في "رياض الصالحين" سماه: "باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن" وذكر فيه عدة أحاديث، منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أذن[١] الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن". ومنها ما رواه أبو داود عن أبي لبابة ﷺ أنه ﷺ قال: "من لم يتغنَّ بالقرآن فليس منا"[٢].

وليس من شك أن التغني الكلام غير ممكن -أصلا- إلا إذا كانت تراكيب الكلام نفسه تتيح من الناحية الصوتية أسباب هذا التغني.

ولقـد رأينا -فيما سبق- إلى أي مدى توافرت هذه الأسباب في تراكيب الفواتح الهجائية.

علاقات التراكيب بسورها:

إن وجـود علاقة وطيدة بين تراكيب الفواتح الهجائية وبين السور التي افتُتحت بها أمر لا شك فيه، بصرف النظر عن طبيعة هذه العلاقة أو القدرة على كشف كل جوانبها.. وذلك لعدة أسباب، أهمها:

١. إن أحـد وجـوه إعجاز القرآن -كما نعلم- الوجه اللغوي البياني الذي له مقوماته الخاصة، ومنها -بلا شك- الجانب الإيقاعي أو الموسيقي الذي له دوره الهام في النـصوص الأدبية عمومًا وفي النص القرآني بوجه خاص، حيث إن الهدف الأساسي لهذا النص هو تحريك النفوس وتغييرها. ومما يساعد على تحقيق هذا الهدف بالتأكيد أن يملك هذا النص قدرًا كافيًا وفعالا من هذا الجانب الإيقاعي المحرك للنفوس.

وإذا كـان اكتشاف علاقة معنوية محددة بين الفواتح الهجائية سورها أمرًا صعبًا أو مختـلفًا عليه، فإن اكتشاف علاقة فنية أو موسيقية بين هذه الفواتح وسورها ليس بصعب ولا مستحيل، لأننا مع هذه العلاقة الثانية لا ننظر إلى الفواتح بوصفها أبنية ذات دلالات أو معان محددة، وإنما بوصفها أبنية صوتية بحتة.. كما أن بقية ألفاظ السورة أبنية صوتية أيضًا، وإن كان لها -في حد ذاتها- دلالات محددة.

٢. إن الفـواتح الهجائية أجزاء من نفس السور التي افتتحت بها، ومن المعلوم أن كـل سورة لها كيانها الخاص المتفرد ولها أهدافها الموضوعية، والفنية التي تربط بين جميع

---

(١) أذن -هنا- أي: استمع باهتمام.

(٢) انظر: رياض الصالحين للنووي، تحقيق: عبد الله أحمد أبو زينة، ط دار الباز ص ٣٢١.

أجزائها. [١]. وبناء على ذلك، يتأكد أن هذه الفواتح ذات صلات وثيقة بسورها.

٣. إن المعلـــوم أن غالب السور المبتدأة بهذه الفواتح قد أنزلت في الفترة المكية، ولا يخفى أن القرآن المكي كان أكثر تركيزًا على الجانب الإيقاعي أو الموسيقي في سوره من القرآن المدني، تبعًا لطبيعة هذه الفترة وطبيعة المخاطبين فيها التي تحتاج إلى مثل هذا التركيـــز، إيقاظًا للغافلين وزلزلة للمتعنتين.. فلا بدّ أن الفواتح الهجائية قد شاركت أيضًا في الجانب السابق بوصفها -في معظمها- جزءًا من سور هذه الفترة، إن لم تكن بوصفها عنصرًا أصيلا فيه.

والحـــق إن طبـــيعة هذه العلاقات يمكن إيجازه في عبارة واحدة، وهي الانسجام الـــصوتي أو الموســـيقي التام بين كل صيغة من صيغ الفواتح الهجائية وبين آيات وألفاظ السورة التي ابتدئت بها.

فـــإذا أردنا شيئًا من التفصيل لهذه العبارة، قلنا: إن هذا الانسجام له عدة مظاهر، أهمها ما يأتي:

المظهر الأول:

وهو يتمثل في كون أغلب ألفاظ القرآن مؤلفًا من نفس حروف الفواتح.

فقـــد سبق أن وضحت في المبحث السابق أن حروف الفواتح الهجائية -بصورة عامة- من أعلى حروف اللغة ترددًا، ثم وضحنا في الفصل الحالي أن الذي كثر تردده من حـــروف هـــذه الفواتح على مستوى اللغة كلها هو الذي كثر تردده أيضًا على مستوى الفواتح نفسها.

ومن المعروف أن القرآن قد أنزل بلسان العرب ولغتهم.. أي أنه مكوّن من نفس مادة هذه اللغة، ويشيع في أبنيته من الحروف ما يشيع في أبنيتها ويقل فيه أيضًا ما يقل في أبنيتها، إلا إذا اقتضت الأهداف البلاغية، أو الفنية الوسع في نوع بعينه من الحروف، كما يحب الأديب أو الشاعر -ولله المثل الأعلى- أن يبرز أغراضه بنوع معين من الألفاظ أو القوافي أو حروف الرَّوِيّ.. لكن القاعدة العامة أن النص القرآني قطعة من كيان هذه اللغة، يشيع فيه ما يشيع فيها ويندر فيه ما يندر فيها.

---

(١) من المفسرين الذين بذلوا جهدًا موفقًا في إيضاح الكيان المتفرد لكل سورة الأستاذ سيد قطب في "الظلال" مع بداية تفسيرة لكل سورة. وينظر في ذلك أيضًا "النبأ العظيم" للشيخ محمد عبد الله دارز، و"موضوع كل سورة وأهدافها في القرآن" للدكتور عبد الله شحاتة.

ومعنى ذلك -إذًا- أن القرآن حين يطرق السمع في بداية السورة ببعض هذه الحروف المقطعة، فإنما يطرقه بما سوف يكثر تردده عليه بعد ذلك على امتداد آيات السورة وألفاظها، ولا يطرقه بما لا يألفه أو يندر استعماله. وفي هذا ما لا يخفى من التناسق الصوتي الذي يحقق أمرين:

أولهما: ألا تُصدم الأذن بالمفارقة التي تنتج ما لو استقبلت في بداية السورة أصواتًا بعينها ثم لم تر لها أثرًا ملموسًا بعد ذلك في آيات السورة وألفاظها.

ثانيهما: التمهيد النفسي لتلقي المحتوى الصوتي للسورة -إن صح التعبير- حين يتلقى السمع في البداية أكثر الأصوات ترددًا في هذا المحتوى.. وكأن هذه الأصوات تطرق على السامع باب التلاوة أولا، ثم تصحبه بعد ذلك إلى طرقاتها وميادينها المختلفة، أو كأنه يري في بداية رحلته أبرز ما سوف يتقلب أمامه في بقيتها على هيئات وتراكيب مختلفة فيستأنس بهذه الرؤية ويتهيأ لما بعدها.

ولعل ذلك يتأكد بما علمنا من قبل عن بعض حروف الفواتح التي تدخل في المجموعة الأعلى ترددًا على مستوى اللغة وهي الراء واللام والميم، حيث كانت هي الأكثر ترددًا أيضًا على مستوى هذه الفواتح.. لقد وردت -كما نعلم- خلال أربع صيغ هي "الم" و"المص" و"الر" و"المر" في بدايات ثلاث عشرة سورة، منها أربع من أطول سور القرآن هي "البقرة" و"آل عمران" و"الأعراف" و"يونس". وهذا ما يؤكد حرص القرآن على إبراز هذا المظهر الذي نتحدث عنه وعلى جني آثاره المتمثلة في الأمرين السابقين.

المظهر الثاني:

وهو عن التلاؤم بين خواتم الفواتح الهجائية وبين خواتم الفواصل القرآنية.

من المعلوم بداية أن القرآن لا يعتمد في إيقاعه اللغوي على الموسيقى اللفظية الظاهرة فقط، وإنما هو يزاوج أيضًا بين ذلك وبين ما يُعرف بالموسيقى الخفية، أو المعنوية.. ومن هنا، فإنه لم يتقيّد في فواصله بخواتم متماثلة أو مسجوعة من بداية كل سورة إلى نهايتها. كما يفعل الكهان في سجعهم أو الشعراء في قوافيهم، بل له هو أسلوبه الخاص الذي يقتضي التماثل التام في هذه الخواتم تارة أو التماثل الجزئي تارة ثانية أو الانتقال التام من نمط إلى آخر تارة ثالثة.

ومع ذلك، فإن هناك قدرًا كبيرًا من الفواتح الهجائية التي يتضح التلاؤم الموسيقي الظاهري بين خواتمها وبين خواتم ما تلاها من آيات السور التي افتُتحت بها. ويمكن أن

نقسمها من هذه الناحية إلى قسمين:

القسم الأول: وهو يختص بالتلاؤم الناتج عن التماثل التام بين خواتم صيغ الفواتح وبين خواتم ما بعدها من الفواصل القرآنية، كما في تماثل أصوات النون المسبوقة بالمد في قوله تعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾[النمل: ١].

وقوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[القلم: ١].

وكما في تماثل أصوات الميم المسبوقة بالمد أيضًا في قوله تعالى: ﴿الم. اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[آل عمران: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ﴾[الروم: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿الم. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[لقمان: ١، ٢].

وكذلك في فواتح سور: غافر وفصلت والشورى والجاثية والأحقاف وكما في تماثل أصوات المد في قوله تعالى: ﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى. تَنْزِيلا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾[طه: ١، ٤].

وتكاد هذه السورة كلها -وليس مطلعها فقط- تجري فواصلها على هذا النمط الصوتي.

القسم الثاني: وهو يختص بالتلاؤم الناتج عن التماثل الجزئي أو التقارب الصوتي، كما في قوله تعالى: ﴿الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿حم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[الزخرف: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[يس: ١، ٢].

فالتقارب الصوتي في هذه الأمثلة بين الميم المسبوقة بالمد في إحدى الفاصلتين وبين النون المسبوقة بالمد أيضًا في الفاصلة الأخرى، ولا يخفى ما بين هذين الحرفين من صلة صوتية وطيدة، أشرنا إليها سابقًا أكثر من مرة. وهذا النوع من التقارب الصوتي ينطبق أيضًا على فواتح سور: الشعراء والقصص والعنكبوت والسجدة والدخان.

ويضيف بعض الباحثين[1] إلى ما سبق نوعًا ثالثًا، يسميه "التناغم في المدود المردفة" كما هو في المد المتبوع بالسكون في صيغة "صاد" وما يشبهه من المدود في بقية فواصل السورة (شقاق، مناص، عجاب، يراد).. إلخ، وهو نوع له اعتباره بلا شك، وله

(١) انظر: علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور ص ١٦٠، ١٦١.

أمثلته الكثيرة في سور أخرى، كما هو في غالب فواصل سورة الرعد[1] وبعض فواصل سورة آل عمران[2].

المظهر الثالث:

وهو عن تردد بعض حروف الفواتح في سورها بدرجة أعلى من ترددها اللغوي المعتاد.

وأود أن أنبه -بداية- إلى أن المراد بهذا المظهر يجب ألا يختلط بالمراد من المظهر الأول، فالمقصود هناك بالتحديد أن أغلب ألفاظ القرآن مؤلف من نفس حروف الفواتح.. بما أن هذه الحروف هي الأكثر ترددًا وانتشارًا على مستوى اللغة عمومًا. أما المقصود هنا، فهو تردد بعض حروف الفواتح في السور التي افتتحت بها بدرجة تفوق مستوى ترددها المألوف في السور الأخرى أو في اللغة بوجه عام.

فنقول -مثلاً- إن مستوى تردد حرف النون في سورة القلم -التي افتتحت به- أعلى من مستوى تردده في غيرها من السور، آخذين في الاعتبار -طبعًا- التفاوت بين السور من حيث الطول والقصر، فيُحسب مستوى تردد حرف النون بالنسبة لكمّ سورته، ثم يُقارن بمستوى تردده في أي سورة أخرى بالنسبة لكمِّها أيضًا.. وهكذا يُقال عن تردد القاف أو الصاد أو غير ذلك من الحروف المقطعة الأخرى.

كما أحسب أن أوضح أيضًا أن هذا المظهر قد أحاط به غير قليل من اللبس، والغموض الذي كاد أن يطمس حقيقته أو يضيع ثمرته، حيث نجد المتحدثين عنه إما مبالغين في أمره دون تثبت أو تمحيص وإما مرتابين أو متوقفين.

ولعل أبرز من قال به وبالغ في أمره من القدماء ابن القيم (توفي ٧٥١هـ) في "بدائع الفوائد" ثم الزركشي الذي أخذ عنه وأضاف إليه، فيقول في سياق حديثه عن التناسب بين الحروف المقطعة وسورها: ".. وذلك أن كل سورة بدئت بحرف منها فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له، فحُقَّ لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها. فلو وُضع "ق" موضع "ن" لعُدِم التناسبُ الواجب مراعاته في كلام الله. وسورة "ق" بُدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف: من ذكر القرآن، والخلق، وتكرير القول ومراجعته مرارًا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد والرقيب، والسائق

---

(١) انظر: الآية: ٦ وما بعدها.

(٢) انظر: الآية: ٧ وما بعدها.

والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، والقلب، والقرون، والتنقيب في البلاد، وتـــشقق الأرض، وحقوق الوعيد.. وغير ذلك. وقد تكرر في سورة "يونس" من الكلم الواقع فيها "الر" مائتا كلمة أو أكثر، ولهذا افتُتحت بـــ "الر".

واشتملت سورة "ص" على خصومات متعددة، فأولها خصومة النبي ﷺ مع الكفار وقولهم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥].

ثم اختـــصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى، ثم تخاصـــم إبليس في شأن آدم ثم في شأن بنيه وإغوائهم.. وكذلك سورة "ن والقلم" فإن فواصلها كلها على هذا الوزن[١] مع ما تضمنت من الألفاظ النونية" [٢].

ومن الباحثين المحدثين الذين تحدثوا في هذا الموضوع الدكتور عدنان زرزور، الذي قال بكثرة دوران الحروف المقطعة في السور التي صُدِّرت بها، وإن لم يقدم أدلة على ذلك أكثر مما ذكره الزركشي سابقًا [٣].

وتحدثت في ذلك أيضًا الدكتورة بنت الشاطئ خلال دراستها التي تعرضنا لها من قبل، ناظرة فيما قاله الزركشي إلى التأويل والتخريج" [٤].

فالظاهـــر، موقفها العام من هذا الموضوع يغلب عليه التوقف والارتياب، بدليل اعتراضها أيضًا على بعض شواهد الزركشي السابقة بقولها: ".. كما لا يسهل أن نتصور أنهم (أي العرب) راحوا يحصون حرف القاف في (سورة ق) ومواقف الخصومة في سورة (ص)..."[٥] مع أن هذين الشاهدين من أهم ما وفّق فيه الزركشي كما سنعرف بعد.

والحق إنني أوليت هذا الموضوع مزيدًا من الاهتمام، حتى أخرج فيه برأي يقنعني أو يكون قريبًا من الصواب.

والـــذي توصـــلت إلـــيه أن إطلاق القول فيه على شاكلة ما ذكره الزركشي غير صحيح، كما أن إنكاره أو التوقف فيه غير صحيح أيضًا.

وإنمـــا الحق الذي بدا لي -كما سيظهر من الشواهد التطبيقية- أن القرآن لم يجعل تغليب حروف الفواتح في سورها قانونًا لا يحيد عنه، بل جعل فقط لبعض هذه الحروف

---

(١) يقصد الزركشي: غالبها، لأنها ليـــت كلها -في الحقيقة- على هذا الوزن.

(٢) انظر: البرهان ١/ ١٧٠ والإتقان ٢/ ١٤٤.

(٣) انظر: علوم القرآن ص ١٦٠، ١٦١.

(٤) انظر: الإعجاز البياني القرآن ص ١٣٤.

(٥) المرجع السابق ص ١٣٧.

مستوى متميزًا من التردد في سورها يفوق ما هو عليه في السور الأخرى على وجه العموم لا على الإطلاق.. أي أن تردد بعضها في غير سورها قد يقارب أحيانًا -أو يفوق- ترددها في سورها. والأمر في ذلك مرتبط -في المقام الأول- بطبيعة كل سورة وما تقتضيه من طرائق تعبيرية معينة وبخاصة من الناحية الإيقاعية أو الموسيقية.. فحينئذ يجعل القرآن من كثرة ترديد بعض هذه الحروف في سورها أحد العناصر العاملة أو المشاركة في تشكيل هذه الناحية الموسيقية.

وأعتقد أن الذي يحسم هذه المسألة هو الإحصاءات التطبيقية الموسعة لجميع حروف القرآن،[١] لكنّ هذا عمل كبير يحتاج إلى دراسة مستقلة يتم إنجازها عن طريق الكمبيوتر على شاكلة هذه الإحصاءات المعجمية التي اعتمدنا عليها من قبل. غير أن شغفي بالوصول إلى رأي- ولو قريب من الصواب- في هذا الموضوع قد دفعني إلى الاعتماد على جهدي الخاص في إجراء بعض هذه الإحصاءات.

وإنه لمن الصعب جدًا -في حدود الجهد- أن أحصي جميع الحروف في كل سورة أتناولها لمعرفة نسبة تردد حرف بعينه فيها، فكانت الطريقة التي تناسب هذا الجهد -وتقارب الصواب أيضًا- أن أحصي الحرف المراد إحصاؤه (كالنون في سورة القلم) في جميع ألفاظ سورته.. أو أي سورة أخرى أقارنها بسورته، ثم أحصي سطور السورة أيضًا، ثم أقسم مجموع تردد الحرف في السورة على مجموعة سطورها، ليكون الناتج -حسب النظام الحسابي- هو مقدار تردد الحرف في كل سطر.

ولكي أقترب من مستوى الدقة قدر الإمكان، فإنني كنت أجرد السورة أولا من مواضع ترقيم الآيات -التي تكثر في بعض السور وتقل في بعضها- وأقدر تقديرًا دقيقًا المساحة التي تشغله هذه المواضع ثم أحذفها من عدد سطور السورة، كما أجعل في الحسبان متوسط كلمات السطر.. وهو عشر كلمات -حسب الطبعة التي أعتمد عليها- فإن وجدت خلاف ذلك في السورة الخاضعة للإحصاء انقضت من سورها أيضًا أو زدت حسب هذا المتوسط الذي أتبعه.

ثم إنني أتحرى أيضًا -قدر الطاقة- أن تكون السور الخاضعة للإحصاء مما يبدو فيه تردد متميز أو متفوق للحرف الذي أريد إحصاءه، ليكون ذلك أدل على النتيجة التي

(١) فكرة إحصاء حروف القرآن لها جذور قديمة، بدليل "النوع التاسع عشر" في الإتقان، وهو عن "عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه".

أطمح إليها.

وهذه هي أهم الإحصاءات والنتائج التي توصلت إليها[1]

أولا: فـــيما يختص بالسور الثلاث التي افتتح كل منها بحرف واحد، وهي: "ص"، و"ق"، و"ن"، وجدت أن كل حرف من هذه الحروف يتميز تردده في سورته فعلا تميزًا واضحًا، بدليل ما يأتي:

(أ) حرف الصاد: تردد في سورته (٢٩) مرة خلال (٦٤,٦٦) سطرًا =٤٤. لكل سطر.

بينما نجد تردد هذا الحرف في بعض السور الأخرى كالتالي:

تردد في سورة "الشورى" (٢٨) مرة خلال (٧٥,٦٦) سطرًا = ٣٧. لكل سطر.

وفي سورة "مريم" (٢٥) مرة خلال (٨٩,٨٣) سطرًا = ٢٧. لكل سطر.

وفي سورة "فصلت" (١٩) مرة خلال (٧١,٧٥) سطرًا= ٢٦. لكل سطر.

وفي سورة "الزخرف" (١٦) مرة خلال (٧٥,٥٨) سطرًا= ٢١. لكل سطر.

وفي سورة "الجاثية" (٩) مرات خلال (٤١,٩١) سطرًا= ٢١. لكل سطر.

(ب) حرف القاف: تردد في سورته (٤٧) مرة خلال (٣٢,٢٥) سطرًا= ١,٤٥ لكل سطر.

بينما نجد تردده في بعض السور الأخرى كالتالي:

في سورة "القمر" (٤٣) مرة خلال (٣٠,٤١) سطرًا= ١,٤١ لكل سطر.

وفي سورة "الذاريات" (٤٤) مرة خلال (٣٢) سطرًا= ١,٣٧ لكل سطر.

وفي سورة "الطور" (٢٧) مرة خلال (٢٧,٩١) سطرًا= ٩٦. لكل سطر.

وفي سورة "الحجرات" (٢٨) مرة خلال (٣١) سطرًا= ٩٠. لكل سطر.

وفي سورة "الواقعة" (٣١) مرة خلال (٣٥) سطرًا= ٨٨. لكل سطر.

ولقد أحصيت حرف "الراء" أيضًا في سورة "ق" فوجدت أنه تردد (٤٨) مرة أي بمـــستوى قريب جدًا من مستوى تردد القاف (٤٧) مرة، مع أن هناك فرقًا كبيرًا بينهما مـــن حيث التردد على مستوى اللغة عمومًا كما علمنا سابقًا من الإحصاءات المعجمية. وهذا يؤكد أن تردد "القاف" في سورتها مرتفع جدًا عن المستوى المعتاد.

(١) مع الاعتذار سلفًا عما يكون فيها من بعض أخطاء أظن –إن وُجد– أنها طفيفة جدًا وغير مؤثرة على الحقائق الأساسية.

(ج) حـــرف الـــنون: تردد في سورته (١٣٢) مرة[1] خلال (٢٧,٦٦) سطرًا= ٤,٧٣ لكل سطر.

بينما نجد تردده في بعض السور الأخرى كالتالي:

في سورة "الدخان" (١٤٨) مرة خلال (٣٢,٣٥) سطرًا= ٤,٥٧ لكل سطر.

وفي سورة "الرحمن" (١٣٦) مرة خلال (٣٣,٥٠) سطرًا= ٤,٠٥ لكل سطر.

وفي سورة "ق" (١٠٨) مرة خلال (٢٧,٦٦) سطرًا= ٣,٣٤ لكل سطر.

وقد يظهر هنا سؤال يقول: ولماذا لا نقارن النون بالقاف فإذا سورتها كما قارناها بالـــراء، وهي -كما نرى في هذا الإحصاء الأخير- متفوقة على كلا الحرفين؟ فأقول: إن هذه المقارنة لا تصح، لأن النون من حروف الزيادة (دون الراء) ومن ثَمَّ فإنها أكثر منها مـــشاركة وانتـــشار في الأبنية اللغوية المختلفة. وقد كانت الإحصاءات المعجمية -كما نعلم- تقوم على إحصاء الجذور مجردة من الزيادات.

غـــير أننا إذا ألقينا نظرة على الحروف الثلاثة السابقة (الصاد والقاف والنون) في بعض قصار السور بالجزء الأخير من القرآن وجدنا الأمر يختلف، حيث نجد أن الصاد - مثلا- ترددت في سورة البلد- حسب طريقتنا الإحصائية السابقة- بواقع (١,٧٧) لكل ســـطر، وأن النون ترددت في سورة التين بواقع (٥,٨٠) لكل سطر. وهذه كلها نسب أعلى مما رأيناه لهذه الحروف في سورها التي افتتحت بها.

فالـــراجح أن ظاهرة تميّز هذه الحروف إنما تبدو حال مقارنة السور المبتدأة بها مع الـــسور الـــتي تقاربها كمًا أو تزيد عليها، ويقل ظهورها كلما كانت المقارنة مع السور الأقـــصر، ولعل من أسباب ذلك ضآلة المحتوى اللغوي لهذه السور، مما لا يتيح الفرصة أصلا لظهور الأصوات اللغوية بالصورة التي تصلح لإصدار حكم دقيق عن مدى تردد كل منها.

ثانـــيًا: فيما يختص بالسور الأخرى التي افتتح كل منها بأكثر من حرف فإن هذا التميّز السابق لا يطّرد فيها كلها، وقد يبدو في بعض حروف صيغها دون البعض الآخر.

---

(١) منها مرتان من اسم الحرف نفسه (نون) في بداية الـسورة، لأنه وإن كان حرفًا واحدًا حسب رسمه الكتابي (ن) في أول السورة إلا أنه في التلاوة اسم مكون من ثلاثة أحرف. والجدير بالذكر أن رشاد خليفة (ص ١٠ من مختصر كتابه: معجزة القرآن الكريم) قد ذكر أن النون تكررت في سورتها (١٣٣) مرة، والرقم الصحيح هو الذي ذكرناه، وهذا يدل على تدليسه المتعمد لتسنى له القول بأن ١٣٣= ١٩× ٧ ترويجًا لضلالاته التي أشرنا إليها من قبل، ولعله لأجل ذلك كان مصرعه أخيرًا حيث وُجد مقتولا بمنـــزله بأمريكا. انظر جريدة "المسلمون" عدد ١٤ رجب ١٤١٠هـــ.

ومن أمثلة ذلك سورة فصلت التي تبدأ بصيغة "حم"، حيث نجد أن الحاء ترددت فيها (٤٥) مرة = ٠.٦٤ لكل سطر، بينما نجد أن ترددها في سورة فاطر (٤٠) مرة= ٠.٥٨ لكل سطر، وفي سورة سبأ (٢٨) مرة= ٠.٣٧ لكل سطر. فهي متميزة التردد في سورتها فعلا.

فإذا انتقلنا إلى الميم لم نجد لها مثل هذا التميّز، حيث إن ترددها في سورتها (٢٦٠) مرة= ٣,٤٤ لكل سطر، بينما هو في سورة فاطر (٢٣٩) مرة= ٣,٥٠ لكل سطر وفي سورة سبأ (٢٨٠) مرة= ٣,٧٠ لكل سطر.

وفي صيغة "المر" قمت بإحصاء تردد الراء في سورة الرعد المبتدأة بهذه الصيغة، فوجدت أنه (١٣٣) مرة= ١,٧١ لكل سطر، بينما وجدت أنه في سورة "ص" (١١٧) مرة= ١,٨٠ لكل سطر. فهو إذن غير متميز في سورته.

أما صيغة "كهيعص" التي افتتحت بها سورة "مريم" فقد تأملت بعدها قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [ص: ١].

فلفتني تردد صوت الكاف في هذه الآية ثلاث مرات، وأحسست أيضًا بموسيقى هذا الصوت واضحة في بقية آيات السورة، فلما أحصيته تبيّن لي تميّزه الفعلي، حيث تكرر (١٣٤) مرة= ١,٤٩ لكل سطر، بينما تكرر في سورة الفتح (٧٩) مرة= ١,٣٩ لكل سطر وفي سورة "ص" (٨٥) مرة= ١,٣١ لكل سطر وفي سورة الصافات (٨٤) مرة= ١,٠٩ لكل سطر.

كما أن الصاد لها نوع من التميّز أيضًا في هذه السورة، حيث يأتي ترددها المرتبة الثالثة من السور السبع التي أحصينا فيها هذا الحرف.. كما مر بنا في بداية تقديمنا لهذه الإحصاءات.

وأعتقد أن الياء لها تفوق مؤكد أيضًا. ويكفي دليلا على ذلك ترددها في نهاية أربع وستين فاصلة من فواصل هذه السورة الثماني والتسعين مثل: نبيًا. سويًا. عصيًا. وليًا.. إلخ فضلا عن الياءات المنتشرة في الكلمات الأخرى.

فلعل هذه الإحصاءات -على قلة إمكاناتها- تثبت فعلا كما ذكرنا من قبل أن كثرة دوران حروف الفواتح في سورها ليست حقًا مطلقًا وليست وهمًا مطلقًا أيضًا، وأنها أمر يرتبط أولا وآخرًا بطبيعة السورة وأهدافه وبنائها الإيقاعي.

ولا يفوتني أن أعلق على الاعتراض الذي ذكرته من قبل للدكتورة بنت الشاطئ حينما قلت: إنه لا يسهل أن نتصور أن العرب راحوا يحصون حرف القاف في سورة

"ق" ومواقـــف الخصومة في سورة "ص".. فالحق إن البناء الموسيقي للنص لا يحتاج من السامع -أيًا كان- أن يحصي عناصره المختلفة، إذ إن (المر) في هذا البناء لا يعتمد على الإحصاء العقلي وإنما على الشعور أو التأثر الوجداني..

والمعلوم أن الموسيقى في النصوص الأدبية لا تتألف من عنصر واحد بل من عناصر لا تكاد تُحصى: بدءًا من الإيقاعات الظاهرة المتصلة بالقوافي وحروف الروِيّ أو الفواصل ونهاياتهـــا وألوان السجع والجناس وغيرها.. إلى جميع أبنية الألفاظ المكونة لهذه النصوص وجميع أنواع حروفها وأصواتها.

ولـــيس من الضروري أن أحس بكل صوت من ذلك منفردًا، أو أن أحصيه على حدة... وليس هذا بمطلوب أصلاً، بل الإيقاعات والأصوات كلها متواصلة متشابكة كأنها لبنات لبناء واحد قد أستطيع إدراك تفاصيلها وقد لا أستطيع لكن ذلك -على أي حال- لا يؤثر في طبيعة هذا البناء ولا في قيمة كل لبنة من لبناته.

الإعجاز الدلالي

من المعلوم أن الدلالات اللغوية إنما ترتبط بألفاظ اللغة وأبنيتها المختلفة، من حيث دلالة كل لفظ أو بنية على معنى بعينه.

فما الذي يتصل من ذلك بالفواتح الهجائية وهي حروف متفرقات أو صيغ ليس لها في حـــد ذاتهـــا نوع معين من الدلالات؟! وبمعنى آخر: ما أقصده بالإعجاز الدلالي لهذه الفواتح؟

إن الـــذي أقصده في الحقيقة أن نلقي نظرة مقارنة على كل من مجموعتي الحروف: التي وردت في الفواتح الهجائية والتي لم ترد، ونحاول أن نعرف مدى الفعالية -الدلالية- إن صح التعبير -لكل مجموعة منفصلة عن الأخرى.

والذي وجهني إلى هذا القصد في الحقيقة -وهو مفتاحه أيضًا في الوقت نفسه- ما حكـــاه المفسرون من عبارات حاول البعض أن يضمِّنها جميع الحروف المقطعة الأربعة عشر.. بمعنى أن تكون العبارة مكونة فقط من هذه الحروف دون زيادة أو نقص.

وأظن أن الكثيرين يمكن أن يعدو مثل هذا العمل نوعًا من الطرائف التي يستقبلونها مبتسمين، أو يرونه على أحسن الأحوال كهذه العبارات التي كان يصوغها أسلافنا تيسيرًا للحفـــظ والتعلـــيم، كما جمعوا الحروف المهموسة في قولهم "فحثه شخص سكت" أو حروف الزيادة في قولهم "اليوم تنساه" أو "سألتمونيها".. ونحو ذلك.

لكنني حين تأملت هذه العبارات المتعلقة بالفواتح الهجائية وجدت أمرًا أعمق من ذلك، وهو دلالتها الواضحة على الثراء الدلالي العجيب لحروف هذه الفواتح بتقبلها لتكوين عبارات متنوعة يدور معظمها وأكثرها انضباطًا حول القرآن نفسه.. دفاعًا عنه أو ثناءً عليه أو إعلان إعجازه، مما جعلني أعيد النظر في هذه الحروف وأقلّبها على جميع وجوهها، فأجد أنها لا تكوّن عبارات إلا في إطار الموضوع السابق ولا تكاد تخرج عنه إلا بنحو من التكلف أو النقص أو التكرار.

وممن تحدثوا في هذه المسألة الحافظ ابن كثير حينما قال: "مجموع هذه الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفًا وهي: (ا ل م ص ر ك ه ى ع ط س ح ق ن) يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر" (1).

وتوسع في ذلك أكثر بدر الدين الزركشي، حيث حكى العبارة السابقة وعبارات أخرى كقولهم: "ألم يسطع نور حق كُرِه؟"، "طرقَ سمعَك النصيحةُ"، و"صُن سرًّا يقطعك حمله"، "عليٌّ صراطُ حقٍّ نُمسكه"، "سرٌّ حصين قُطع كلامه" (2).

وتحدث في هذه المسألة أيضًا شهاب الدين الألوسي قائلا: "ومن الطرائف أن بعض الشيعة استأنس بهذه الحروف لخلافة الأمير عليّ كرم الله وجهه.. فإنه إذا حُذف منها المكرر يبقى ما يمكن أن يخرج منه: "صراطُ عليٍّ حقٌّ نُمسكه" ولك أيها السنيّ أن تستأنس بها لما أنت عليه فإنه بعد الحذف يبقى ما يمكن أن يخرج منه ما يكون خطابًا للشيعي وتذكيرًا له بما ورد في حق الأصحاب رضي الله عنهم أجمعين وهو: "طرق سمعَك النصيحةُ" وهذا مثل ما ذكره حرفًا بحرف، وإن شئت قلت: "صحَّ طريقُك مع السنة" ولعله أولى وألطف...وبالجملة عجائب هذه الفواتح لا تنفد ولا يحصرها العد" (3).

ولا يدعي أحد أن هذه العبارات السابقة مقدسة -بما أنها في إطار فواتح القرآن الهجائية- أو أنها كلها خالية من التكلف أو التعسف في تكوينها.. بل هي بالطبع خواطر واجتهادات بشرية بحتة، لكنها -مع ذلك- تدعّم الحقيقة التي سعينا إلى الكشف عنها وتأكيده، وهي الاختيار المقصود المعجز لحروف هذه الفواتح الهجائية.

والتجربة متاحة أمام أي إنسان: أن يختار من الأبجدية -بنظام القرعة مثلا- أربعة

(1) تفسير ابن كثير ١/ ٥٩.
(2) البرهان ١/ ١٦٧.
(3) روح المعاني ١/ ١٠٤.

عشر حرفًا، ثم ينظر: هل يستطيع أن يؤلف بينها لتكوّن عبارة متسقة في موضوع بعينه.. شريطة ألا يُنقص شيئًا من هذه الحروف أو يزيد عليها أو يكررها؟ وليجر المحاولة أي عدد من المرات يشاء. إنه بغير شك لا يمكن أن يصل إلى هذا الهدف لسبب يسير، وهو أن الصدفة أو العشوائية لا يمكن أن تُنتج شيئًا منظمًا متناسقًا، إنما يمكن أحيانًا أن تؤدي إلى نتائج جزئية أو غير مترابطة، لكنها لا يمكن أن تؤدي إلى كيان شامل متكامل، وبخاصة فيما يتعلق بالأمور المعنوية أو القضايا الفكرية.

ولقد حاولت أن أصل إلى أقصى ما أستطيع في فهم حقيقة هذه العبارات السابقة، وفي استكناه دلالاتها على إعجاز الفواتح الهجائية، وذلك من خلال ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى:

هي مراجعة هذه العبارات السابقة وتبيّن أكثرها انضباطًا وموافقة للحروف المقطعة نوعًا وعددًا[1] ومحاولة لتكوين عبارات أخرى من هذه الحروف.

وأهم ما توصلت إليه في ذلك ما يأتي:

١. أبعد هذه العبارات عن موافقة الحروف المقطعة نوعًا وعددًا هو قولهم: "طرق سمعك النصيحة" وقولهم: "صحّ طريقك مع السنّة".

أما من حيث العدد، فإن حروف كلتا العبارتين لا تتم "أربعة عشر" إلا إذا أحصيت بنظام الكلمات المتفرقات وليس بنظام العبارة المتصلة بسبب همزة الوصل في كلمتي "النصيحة" و"السنة" وهي لا تظهر -كما هو معروف- إلا في ابتداء الكلام.. وبذلك يكون عدد الحروف حال القراءة المتصلة "ثلاثة عشر" وليس "أربعة عشر".

وأما من حيث النوع، فإن في كلتا العبارتين إشكالا في ثلاثة أحرف.

أولها: هذه الهمزة التي ذكرناها، حيث يخلط أصحاب العبارتين بينها وبين "ألف المد"، المعروف أنهما صوتان مختلفان، وأن المذكور في الفواتح الهجائية هو الألف وليس الهمزة.

والثاني: هو اللام الشمسية في كلمتي "النصيحة" و"السنة" التي لا يصح احتسابها لامًا، لأنها لا تظهر إطلاقًا في النطق لا وصلا ولا ابتداءً، وإنما الذي يظهر بدلا منها هو

(١) والملاحظ أن الذين ذكروه من القدماء لم يقوموا بشيء من هذه المراجعة، وكذلك فعل الدكتور بدري عبد الجليل ص ٩١ من كتابه "براعة الاستهلال." حيث تقبل هذه العبارات برمتها وقال عنها: "عبارات جامعة وأساليب ضابطة".

الصوت الأول من الحرف المشدّد بعدها (النون في النّصيحة) (والسين في السنّة).

والثالث: هو "التاء" من نفس الكلمتين السابقتين، فقد احتُسب "هاء" بسبب الوقف، والحقيقة أنه تاء، والتاء -كما نعلم- لا يدخل في الحروف المقطعة.

٢. أقل مما سبق بُعدًا قوله: "صن سرًا يقطعك حمله" فإنه لا إشكال فيه إلا في ألف المد من كلمة "سرًا" حيث لا تظهر في النطق إلا حالة الوقف، أما في الوصل فإنها تنقلب إلى تنوين، وهو -بالطبع- صوت آخر غير ألف المد، وبذلك ينقص من العبارة حرف من الحروف المقطعة.

وكذلك قولهم: "ألم يسطع نور حق كُرِه" ليس فيه إشكال إلا من حيث همزة الاستفهام التي في أوله، وقد علمنا أن الهمزة غير الألف الواردة في الحروف السابقة.

٣. أما قولهم: "نص حكيم قاطع له سر" وهو أشهر ما ذُكر من هذه العبارات، فليس فيه إشكال إطلاقًا إلا في حرف "الياء" الذي يُنطق به في الفواتح الهجائية صوتًا صامتًا كما في أول سورة مريم "كهيعص".. وهو هنا -في كلمة حكيم- ليس كذلك وإنما هو كسرة طويلة أو كسرة مُكبَّرة حسب وجهة النظر الحديثة في دراسة الأصوات.

وما قيل في العبارة السابقة ينطبق أيضًا على قولهم: "سر حصين قطع كلامه" من حيث الياء في كلمة "حصين"، وينطبق أيضًا على عبارة أخرى بدت لي أثناء تأملي في هذه المسألة وهي: "نص كريم له حقٌ ساطع" من حيث الياء في كلمة "كريم".

٤. هناك بعد ذلك عبارات تخلو من جميع الإشكالات السابقة كقولهم: "عليٌّ صراطُ حق نُمسكه" أي: القرآن عليٌّ وصراط حق وليس علي بن أبي طالب ﷺ كما في عبارة الشهاب الألوسي "صراطُ عليٍّ حقٌّ نمسكه" على أن (صراط) مبتدأ و(عليّ) مضاف إليه و(حق) خبر.

ويمكن أيضًا أن نقول: "صراطُ حقٍّ عليٌّ نمسكه" أي: هو صراط حق وهو عليّ كما في المعنى الأول.

كما يمكن أن نعدّل قولهم: "نص حكيم قاطع له سر" إلى قولنا: "نص حاكم قطعيّ له سر" حتى نتخلص من قضية الياء التي ذكرناها سابقًا[1].

---

(١) وكذلك يمكن للقائلين بأن الألف هي الهمزة أن يصوغوا القول السابق على نمط آخر وهو "نص قطعي أحكِم له سر".

وكـــذلك قولهم: "لِمَ يُكره نص حق ساطع".[(١)] فهو خالٍ تمامًا من أي إشكال، وربما كان -مع القول السابق له- أسوغ الأقوال وأبعدها عن التكلف.

٥. لعلـــه يتـــضح جيدًا مما سبق أن أكثر العبارات خروجًا على الحروف المقطعة عـــددًا ونوعًا كانت هي الأكثر بُعدًا عن قضية القرآن وإعجازه.. وأن أكثرها استقامة في ذلـــك كانـــت هي الأقرب إلى هذه القضية، وهو ما يؤكد ما نراه من إعجاز دلالي لهذه الحـــروف من حيث إنها بعددها ونوعها دون زيادة أو نقص لا تقبل تكوين أي عبارة إلا في إطار القضية السابقة.

٦. إن من الاحتمالات التي طرحتها أيضًا بعد كل ما سبق أن تكون هذه الحروف الأربعـــة عـــشر قابلة أيضًا لتكوين عبارة تمثّل الطعن في القرآن أو تكذيبه كما أنها قبلت تكوين أكثر من عبارة في إثبات صدقه وإعجازه.. فتكتمل بذلك الدائرة أو تكتمل أركان القضية بوجود الاتهام من ناحية ووجود الدفاع أو القول الحق من ناحية أخرى.

فأخـــذت أقلِّب هذه الحروف على كافة وجوهها، وكان الخيط الأول أني وجدت منها ما يكوّن كلمة "ساحر" وهي أبرز الاتهامات التي رمى بها المشركون رسول الله ﷺ بعد طول تفكير وتقدير كما هو في سورة المدثر قال تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[المدثر، الآيات: ١٨، ٢٥].

ثم حاولـــت بعـــد ذلـــك أن أؤلف من هذه الحروف عبارة تتضمن هذا الاتهام، فتوصـــلت إلى أكثر من تركيب، لكنه لم يتيسَّر إطلاقًا أن يأتي أي منها منضبطًا تمامًا مع القاعدة التي نعرفها، وهي موافقة العبارة للحروف المقطعة تمامًا نوعًا وعددًا بلا زيادة أي نقص أو تكرار.. وكان أوضح ما توصلت إليه في ذلك عبارة تقول: "منطق يصنعه لكم ساحر" فهي تضم الأربعة عشر حرفًا بالفعل لكن بتكرار حرفي النون والميم، فأحسست أن مـــا واجهني من صعوبة في استخراج هذه العبارة وأن استعصاءها على التكوين دونما تزيُّد أو تكلف كأنما يحمل إشارة واضحة إلى ما كان يتكلفه المكابرون والمعاندون أيضًا من الجهد والمشقة في تكذيبهم للرسول ﷺ وإلى ما كانوا يلجأون إليه من التعسّف والتزيّد في حججهم واتهاماتهم التي يوجهونها إليه.

ثم إنني -مع ذلك- قلبت الحروف المقطعة مرة أخرى، لعلي أجد فيها ما يرد على

(١) برفع كلمة "ساطع" على أنه صفة لنص أو بخفضها على أنها صفة لحق.

هـــذه العـــبارة السابقة ردًا صريحًا، فوجدت أنه يتكوّن منها هذا الرد: "قل: نصه ساطع حيركـــم".. وهو يتضمن الأربعة عشر حرفًا بتمامها دون أي زيادة أو نقص ودون أي تكلـــف أيضًا، مع تصديره بالخطاب الواضح (قل...) الذي يطلب ممن يستمع إلى اتهام المكـــذبين الـــسابق أن يتصدى له بهذا الرد الحاسم، وهو أن القرآن حق ساطع قد تحيّر أعداؤه في مواجهته فلم يجدوا إلا الادعاءات والاتهامات الباطلة.

المرحلة الثانية:

وهـــي التي وجهت فيها نظري إلى مجموعة الحروف الأخرى التي تُركت أو التي لم تدخل في الفواتح الهجائية، وهي: (ء ب ت ث ج خ د ذ ز ش ض ظ غ ف و) لأعرف مدى إمكاناتها الدلالية قائمة بذاتها كما فعلت ذلك من قبل مع المجموعة السابقة.

أي: هـــل يمكن أن يكوّن حروف هذه المجموعة عبارات شبيهة بتلك التي تحدثنا عنها من قبل وبنفس شروطها.. أي أن تؤلف من هذه المجموعة فقط دون نقص أو تكرار وأن تكون متصلة أيضًا بقضية القرآن وإعجازه سواء له أو عليه؟

لقـــد حاولت ذلك مرارًا فلم يمكن، وكان مما توسلت به في محاولتي أن أستخرج أولا من حروف هذه المجموعة كل ما يمكن أن تكوّنه من جذور أو أبنية لفظية -سواء عن طريق المعاجم أو بطريقتي الخاصة- حتى تتسع الفرصة أمامي فأختار منها ما يساعدني في هذه المحاولة.

فكان بين يديّ كلمات وجذور مثل: أبد - أدب - جد - جدث - فوز - ضوء - ضـــد - شأو - غزو - غدو - شوب - ضغث - شجو - خوف - بتّ - تبّ - جذب - أزف - شبح - شذّ - شبّ - أخذ - وفد - وثب - وجب - فتيء - فجأ - شـــغف - وأد - بوأ.. إلى آخره، مع تقليب كل ذلك وغيره على كافة ما يقبله من الاشتقاقات والتصريفات، لكنني - كما أسلفت- لم أصل إلى شيء.. وكان من الحقائق التي تنبهت إليها وأكدت لي أن ما أريده مستحيل ما يأتي:

١. خلـــو هذه المجموعة من معظم الحروف الكثيرة الانتشار كالراء واللام والميم والنون والعين.. وهي التي لا بدّ منها في تكوين طائفة كبيرة من ألفاظ اللغة العربية.

٢. خلوّها أيضًا من غالب أحرف الزيادة العشرة؛ حيث لا تضم منها إلا ثلاثة (ء ت و) وهي الأحرف التي لا غنى عنها -كما نعلم- في معظم الاستعمالات والاشتقاقات اللغوية.

٣. عجـــزها الـــتام أن تكوِّن وحدها أي لفظ من الألفاظ التي لا بدّ من بعضها لتكوين العبارات التي نقصدها.. مثل: كتاب - قرآن - كلام - قول...

فكأن هذه المجموعة إذًا فقدت كل المقومات الأساسية لتكوين البنيات أو الدلالات اللغـــوية، أو نُـــزعت هذه المقومات منها فوقفت هامدة عاجزة في الموضوع الذي بين أيدينا.. إن لم تكن عاجزة أيضًا على مستوى التعبير اللغوي بوجه عام.

بينما المجموعة الأولى لو أعدنا التأمل فيها وفي كل ما يمكن أن تكوِّنه من تصاريف وتـــراكيب لغـــوية لوجدنا فيها سعة وثراء بوجه عام، ولوجدنا فيها كثيرًا مما يمكن أن يشارك في الحديث عن القرآن أو وصفه بوجه خاص، ومنه مثلا: قرآن[١]- كلام - نص - منطق - كريم - حكيم - حاكم - حكم - حق - ساطع - ناصع - قاطع - طاهر - عاطر - رحيق - عاصم - حصن محصن - منار - علم - عليّ - حاسم - صارم - حاطم - صاعق (للباطل).. ونحو ذلك.

المرحلة الثالثة:

هـــذه المـــرحلة طـــرحت فيها تساؤلا بشأن الكلام السابق قد يصدر من بعض المكابـــرين أو الجاحـــدين الذين يدعون أن القرآن كلام محمد ﷺ وليس كلام الله -عز وجل- فيقولون إن اختيار الحروف المقطعة التي تكون هذه العبارات والدلالات إذا كان مستحيلا عن طريق الصدفة فما المانع أن يكون محمد قد وضع هذه العبارات -كلها أو بعضها- من أول الأمر ثم فرّق حروفها بعد ذلك على الفواتح الهجائية.

وأول مـــا أبدأ به في الإجابة عن هذا التساؤل هو أنه لا يمكن أن يصدر أصلا من إنسان عربي اللسان إلا على سبيل الجدل أو المكابرة.. فهو بالمستشرقين وأمثالهم أولى، لأن كـــل من له دراية بأساليب العربية وتطورها يدرك لأول وهلة أن هذه العبارات التي ذكـــرناها بعيدة تمامًا عن طابع هذه الأساليب على عهد الرسول ﷺ وعن طابع أسلوب الرسول ﷺ نفسه الذي يتضح بجلاء من أحاديثه النبوية.

ويمكـــن أن يثـــبت ذلك يقينًا أي دراسة تحليلية لمفردات هذه العبارات مقارَنةً بمفردات وتراكيب الحديث النبوي... ومقارنةً من باب أولى بأساليب القرآن نفسه طالما أنه -على زعمهم- من كلام محمد ﷺ.

ويكفـــي على سبيل المثال أن نعلم، كلمة "نص" التي لا بدّ من وجودها في أكثر

(١) بالمد وليس بالهمزة، كما في قراءة ابن كثير أحد القراء السبعة.

العبارات المذكورة استقامة وانضباطًا لم تكن تُعرف على هذا العهد الأول بمعناها الذي عُرفت به في العهود التالية وهو "القول" أو "الكلام" المنقول عن الغير.

وقد جاء في لسان العرب والصحاح: النص: رفعك الشيء. نصُّ الحديث ينصُّه نصًّا رفعه. وكل ما أظهر فقد نُصّ. ومنه "منصة العروس" بكسر الميم. ونصُّ كل شيء منتهاه... ونصنص الشيء حرّكه[(١)].

فهذه هي معاني الكلمة على هذا العهد الأول. ومما يتصل منها بالاستعمال المتأخر لهذه الكلمة قولهم: نصَّ الحديث إلى فلان، أي نسبه أو أسنده إليه.. لكنها لم تُطلق في ذاك الوقت على نفس القول أو الكلام، بل حدث ذلك -كما ذكرت- في مرحلة تالية.

ثم كيف تُوضع عبارة من أول الأمر لتؤدي معنى معينًا فيتفق مع ذلك أيضًا أن تكون حروف هذه العبارة ذات خصائص صوتية وتركيبية دقيقة مقصودة على النحو الذي فصلناه سابقًا في هذا البحث.. إذًا نكون قد رجعنا مرة أخرى إلى القول بالصدفة فيما لا يمكن أن يتم بالصدفة.. فضلا عما علمناه من أن هذه الخصائص -بما يلزمها من استقراءات وحسابات- لا يمكن أصلا أن تخطر على قلب بشر إبّان ذلك العهد الأول.

المرحلة الرابعة:

وهي التي طرحت فيها أيضًا تساؤلا آخر قد يخطر ببال كل من قرأ هذا البحث وما ذكر فيه من قبل عن ذلك التأويل الرمزي للحروف المقطعة وما يسيطر عليه من التخمينات والشطحات.. فيُقال: ألا يُوجد شبه بين طريقة تكوين العبارات السابقة من هذه الحروف وبين هذا النوع من التأويل؟

فأقول إن هذا الشبه بعيد جدًا طريقةً ومضمونًا.

فمن حيث الطريقة في هذا النوع نجد أنها فضفاضة جدًا حيث يرمز كل حرف إلى كلمة.. سواء كان مأخوذًا من أولها أو من وسطها، بل يمكن أن يُستخدم الرسم الكتابي للحرف أيضًا في هذا الرمز. ومن حيث المضمون نجد أنه فضفاض أيضًا، حيث يمكر كل من أوحت له تلك الحروف بشيء أن يقول به، فتكون رموزًا لأسماء الله تعالى أو أسماء الملائكة أو الأنبياء، أو تكون أقسامًا أقسم الله بها أو تكون مبنية على حساب الجُمل أو تكون من حيث الرسم الكتابي ذات دلالات على معانٍ معينة عند بعض الصوفية.

أما العبارات التي ذكرناها في هذا الفصل فإنها تقوم على قاعدة صارمة جدًا من

---

(١) راجع اللسان والصحاح، مادة: نصص.

ناحية الطريقة والمضمون.

أما من الناحية الأولى: فيُشترط أن تتكون جميع حروف العبارة من نفس الحروف المقطعة وبنفس عددها دون نقص أو تكرار.

وأما من الناحية الثانية: فيُشترط أن يكون مضمون العبارة مرتبطًا بموضوع محدد أو قـــضية محددة.. وقد كانت القضية التي تدور حولها تلك العبارات هي ما يتعلق بالقرآن وإعجازه.. وهي قضية لم تُحدد ولم تُفرض من أحد، بل الحروف الأربعة عشر نفسها هي الـــتي تفرضها حين تتحول إلى كلمات ودلالات، حتى أن مضمون هذه العبارات -كما رأيـــنا- ليـــزداد بُعدًا عن هذه القضية كلما حدث أي إخلال بطريقة تكوينها وفق هذا الشرط الذي ذكرناه.

الفصل السادس / من وجوه الإعجاز القرآني

مقدمة

منذ فترة من الزمن، ظهر على الإنترنت كلام مسجوع من تأليف عربي لا يدين بالإسلام، يعيش في أمريكا، يحاول فيه أن يقلد النسق القرآني، من حيث تقسيم الكلام إلى عبارات مسجوعة تنتهي بحرف الميم أو النون مسبوقة بمد يائي أو واوي. وظن المسكين أنه قد أتى بما لم تستطعه الأوائل، كما قال الشاعر:

وإني وإن كـــنت الأخـــيرة زمانـــه　　لآت بمـــا لم تـــستطعه الأوائـــل[1]

كما ظن أنه بعمله هذا قد أبطل التحدي الذي تحدى الله به الإنس والجن حين قال سبحانه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2]. وكأنه يقول: هاأنذا قد أتيت بمثله! وإذًا فقد أبطلت التحدي، وأبطلت دعوى الإعجاز القرآني الذي قامت عليه رسالة محمد ﷺ.. وإذًا فالإسلام ليس من عند الله، إنما هو صناعة بشرية قام بها محمد ﷺ!

ولعل المسكين لم يعلم أن مسيلمة الكذاب قد قام بمثل هذا العمل من قبل، وأتى بسجعات مثل سجعاته قال إنها مثل القرآن. ومر الزمن وبطلت سجعات مسيلمة، وبقي القرآن يتحدى الإنس والجن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن هذه الأضحوكة الساذجة التي قام بها مسيلمة المتأمرك- وإن لم يدع بها النبوة كسلفه الجاهلي- حفزتني إلى الكتابة حول هذا الموضوع، وهو موضوع الإعجاز الشامل للقرآن الذي لا ينحصر في الإعجاز البياني، الذي توجه إليه الاهتمام الأكبر في كتابات الأقدمين، لأسباب لا يصعب إدراكها.

لقد كان العرب في جاهليتهم قوما أولي فصاحة نادرة، وكانوا يعتزون بفصاحتهم إلى الحد الذي أطلقوا على غير الناطقين بلغتهم لفظة العجم ووصفوهم بـــ (العجمة)، وفيها إشارة واضحة إلى أنهم يعدونهم دونهم لا لسبب إلا لأنهم لا يستطيعون الكلام باللغة

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري.

(٢) سورة الإسراء: ٨٨.

الفصيحة- لغتهم هم- التي يتميزون بها!

وإذ كان ديدن الرسالات السماوية أنها تتحدى المنكرين بمعجزة تفوق قدراتهم البشرية، ليستيقنوا أنها من عند الله، ولو جحدوها ظاهرًا، إمعانًا في الكفر والعناد كما قال سبحانه وتعالى عن موقف آل فرعون من معجزات موسى عليه السلام: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(١).

إذ كان هذا ديدن الرسالات، فقد تحدى الله سبحانه وتعالى كل قوم فيما برعوا فيه وعدوه موضع فخرهم. فتحدى قوم فرعون بآيات تفوق السحر الذي كانوا بارعين فيه، وكانوا يستخدمونه لفتنة الناس عن ربهم، وتأليه الفرعون بدلا من الله وتحدى قوم عيسى عليه السلام بآيات تفوق براعتهم في الطب الذي كانوا يمارسونه ويعتزون بإتقانه؛ فأعطاه القدرة على نفخ الحياة في الطين، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، ليستيقنوا أنه من عند الله:

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٢).

فلما بعث الله الرسول الخاتم ﷺ في العرب، كان من المناسب أن تكون الآية التي يتحدى بها المنكرين فصاحة من نوع ودرجة لا يقدرون على الإتيان بمثلها، لتستيقنها أنفسهم ولو جحدوا بها ظاهرًا كقوم فرعون، فكانت معجزته الكبرى ﷺ هي هذا القرآن، الذي تحداهم أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فلم يستطيعوا، بصرف النظر عن المحاولة العابثة التي قام بها مسيلمة الكذاب، والمحاولة الأخرى التي قامت بها المتنبئة سجاح، فلم تستطع هذه ولا تلك أن تقنع العرب بأن القرآن يمكن أن يأتي أحد بمثله. (هذا بالإضافة إلى أن الله قد أراد أن تكون معجزة الرسول ﷺ باقية على الزمن، لا تذهب بذهاب القوم الذين شاهدوها، لأن الله أراد أن يكون محمد ﷺ خاتم النبيين، وأن تكون رسالته هي الرسالة الخاتمة، الباقية إلى آخر الزمان).

إذا أدركنا ذلك، أدركنا سر اهتمام القدامى من الكتاب العرب بالإعجاز البياني في

(١) سورة النمل: ١٤.

(٢) سورة آل عمران: ٤٩

القرآن، حيث كان هو موضع التحدى، وحيث كان عجز العرب- المعتزين بفصاحتهم- عن الإتيان بمثله، دليلا يقينيا على أن هذا القرآن هو كلام الله، وليس من كلام البشر، وأنه- بهذه الصفة- هو دليل صدق الرسول ﷺ في رسالته.

نعم.. ولكن القرآن لم يكن معجزا في بنائه اللفظى وحده وإن كان إعجازه اللفظى كافيا- وحده- للدلالة على أنه من عند الله، وكافيا- وحده- لإقامة التحدى أمام الإنس والجن إلى قيام الساعة!

القرآن معجز في جميع مجالاته، وعلى جميع أصعدته..

وإذا كان القدامى- لأسباب مفهومة- قد وجهوا أكبر اهتمامهم للإعجاز البيانى، الذي تحدى القرآن به الجاهلية العربية وآلهتها المزيفة، فقد آن لنا أن نتدبر جوانب الإعجاز الأخرى في هذا الكتاب المعجز، التي لا تقل إعجازًا عن الإعجاز البيانى، والتى نحن في حاجة إلى تدبرها، وبيانها، وإبرازها، لتحدى الجاهلية المعاصرة، التي تتخذ صورة العلمانية، وترفع شعارات العلم والعقلانية والتنوير؛ لتفتن الناس عن ربهم ودينهم، وتؤله الإنسان بدلا من الله، وتسعى- بحماقة- إلى تدمير الإنسان، بإبعاده عن مصدر النور الحقيقى:

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(١).

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(٢).

ولن يفي كتاب واحد- مهما تضخمت صفحاته- بالحديث عن كل مجالات الإعجاز في القرآن، فهي في حاجة إلى أن يتفرغ لها كتاب وباحثون، بحيث تتكون من مجموع بحوثهم مكتبة كاملة من إعجاز القرآن، سواء الإعجاز البيانى الذي لا تنفد عجائبه، أو الإعجاز الدعوى، بوصفه كتاب دعوة قد أبرز عقيدة التوحيد الصافية كما لم يبرزها كتاب قط، ودخل بها إلى قلوب البشر من جميع منافذها وأقطارها كما لم يفعل كتاب قط، أو الإعجاز التشريعي الذي تضمن شريعة متكاملة وافية بحياة البشر ومتطلبات وجودهم لا في زمان نزولها فحسب، بل مهما امتد بهم الزمن وتعددت مجالات الوجود، أو الإعجاز التربوى الذي أخرج خير أمة أخرجت للناس، أو الإعجاز العلمى الذي

(١) سورة النور: ٣٥.

(٢) سورة الصف (٨، ٩).

تتكشف آياته كلما زاد البشر علمًا بما حولهم من الكون..

ولكن ضخامة الجهد المطلوب، وسعة الميادين المفتوحة للدراسة والبحث، لا تمنعنى أن أدلي بجهدى المتواضع الذي لا أبغى به أكثر من أن يكون مجرد إرشادات، لعلها تحفز الباحثين إلى أن يبحثوا، والمفكرين إلى أن يتدبروا كما أمرهم الله: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾[1].

من الإعجاز البياني:

كتب الكثير عن الإعجاز البيانى للقرآن، ولست هنا أضيف شيئًا إلى ما قيل، وإنما هي وقفات سريعة تمثل بعض إنطباعاتى في هذا المجال.

إن ما يطلق عليه ظاهرة التكرار نادر جدا في القرآن الكريم لا يتجاوز آيات معدودة جاءت بنصها في أكثر من سورة. ولكن الظاهرة الحقيقية ليست هي التكرار إنما هي التشابه الذي يؤدى إلى التنوع، وقلت إنها كثمار الجنة تبدو لأول وهلة أنها هي هي، ولكنها عند المذاق يتبين الفرق بينها وبين ما كان من قبل: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾[2].

وهذا التشابه الذي يؤدى إلى التنويع هو ذاته لون من الإعجاز. فالموضوع الواحد يعرض مرارا، ولكنه يعرض في كل مرة مختلفا عما سبقه نوعا من الاختلاف، فيكون جديدا في كل مرة، ويكون- مع التلاوة المستمرة للقرآن- متجددا على الدوام.

وقد يكون الاختلاف في حرف واحد، ولكنه يغير الصورة!

خذ هذا النموذج:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[3].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[4].

---

(١) سورة النساء (٨٢).

(٢) سورة البقرة (٢٥).

(٣) سورة البقرة (٤٩).

(٤) سورة إبراهيم (٦).

هناك نوعان من الاختلاف بين الآيتين - وإن كان موضوعهما واحدا - فالآية الأولى خطاب من الله تبارك وتعالى إلى بنى إسرائيل يذكرهم بنعمه عليهم، ويمن عليهم بأنه نجاهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب، والثانية خطاب من موسى عليه السلام إلى قومه يذكرهم بنعم الله عليهم، ويذكرهم بالذات بتلك النعمة الكبرى، وهي تنجيتهم من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب، بالإضافة إلى التغيير في صيغة الفعل: نجيناكم وأنجاكم، أحدهما متعد بالتضعيف والآخر متعد بالهمزة، وأحدهما بضمير المتكلم والثاني بضمير الغائب.

ولكن انظر إلى الجزء الخاص بالعذاب الذي كان يوقعه آل فرعون ببنى إسرائيل. إن فيه اختلافا بين الآيتين يحدث تغييرا في الصورة:

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

إن الفارق بين العبارتين حرف واحد، هو الواو التي جاءت في الآية الثانية قبل كلمة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، ولكن انظر كم أحدث الحرف الواحد من الاختلاف بين الصورتين!

في الصورة الأولى ينحصر العذاب في قتل الأولاد واستحياء النساء، وفي الثانية يصبح هذا الأمر واحدا فقط من ألوان العذاب التي تصب على بني إسرائيل، وإن كان السياق يوحى بأنه من أبرزها، وأشدها وأخبثها. إذ أجمل ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وفصل قتل الأولاد واستحياء النساء.

ذلك مجرد نموذج ينفي خاطر التكرار الذي يتوهمه قارئ القرآن لأول وهلة، ويبرز بدلا منه ظاهرة التشابه التي تؤدى إلى التنويع، والتى تشبه ثمار الجنة الموصوفة في القرآن الكريم.

فـــإذا تدبرنا مجالين بالذات يوهمان بالتكرار للوهلة الأولى، بينما حقيقتهما التشابه ولـــيس التكرار، فذانك هما قصص الأنبياء مع أقوامهم، وصور النعيم والعذاب في اليوم الآخر، وهما من أكثر الموضوعات ورودا في القرآن الكريم، ولكن بشكل مختلف في كل مرة، وذلك - في ذاته - كما أشرنا من قبل لون من الإعجاز، لا يرد بهذه الصورة في كلام البشر المحدودى القدرة في مجال التعبير.

خذ هذا النموذج من قصة نوح في ثلاث سور من سور القرآن.

من سورة هود:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *..... وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١)

ومن سورة الأعراف:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾(٢).

ومن سورة الشعراء:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٣).

إنها قصة واحدة.. قصة نوح مع قومه، وجدالهم معه، وردوده عليهم، وتكذيبهم له، وإغراقهم في النهاية ونجاة المؤمنين.

ولكن هل هي واحدة في السرد القرآني، أم إنها صور متعددة وإن تشابهت في عمومياتها، وفي بدئها وفي نهايتها؟

---

(١) سورة هود: (٢٥ – ٤٤).

(٢) سورة الأعراف: (٥٩–٦٤).

(٣) سورة الشعراء: ١٠٥ – ١٢٢.

إن اختلاف الصور في طرق السرد المختلفة هو في ذاته جمال، لأنه يعطى في كل مرة جوا مختلفا للقصة في نفس القارئ، والسامع، فكأنها قصة جديدة، مع أن الأشخاص هم هم، والوقائع هي هي في النهاية.

ولكن القصص في القرآن لا يرد لمجرد القصص، وإن كان مشتملا من الناحية الفنية الجمالية على عناصر الجمال الفنى التي تجعل له مدخلا لطيفا إلى النفس، فيكون أبلغ تأثيرا فيها، مما لو كان مجرد فكرة أو قضية تخاطب العقل وحده ولا تخاطب الوجدان.

ولكن الروعة في هذه القصص أنه - مع جماله الفنى - يؤدى هدفا دعويا مما يشتمل عليه كتاب الدعوة الأعظم، في تناسق كامل بين الهدف الدعوى والجمال الفنى.. وإذ كانت الأهداف الدعوية كثيرة ومتعددة ومختلفة، يجئ القصص القرآني في صورة مختلفة في كل مرة، متناسقة مع الهدف المقصود من إيراد القصة، مع توافر الجمال الفنى في كل مرة.

ولنراجع قصة نوح في السور الثلاث التي أثبتناها منذ قليل، لنرى تناسقها في كل مرة مع الهدف من إيراد القصة..

الهدف من إيراد القصة في سورة هود - كما هو مذكور في سياق السورة - ثلاثة أمور:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[١]

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

فهي إنذار للناس لكي يحذروا عذاب الآخرة ويتقوه.. وهي تثبيت لقلب الرسول ﷺ، وهي موعظة وذكرى للمؤمنين.

وكان من المناسب لهذه الأهداف الثلاثة تطويل العرض، والإكثار من ذكر التفاصيل فيما وقع بين كل رسول وقومه. وكان ذلك مناسبا بصفة خاصة للهدف المتعلق بتثبيت

(١) سورة هود: ١٠٠ - ١٠٣.
(٢) سورة هود: ١٢٠.

قلب الرسول ﷺ وهو يلقى العنت من قومه: من تكذيبهم وجدلهم واللدد في خصومتهم.. فها هو ذا رسول سابق من رسل الله قد لقي مثل ذلك العنت، وصبر عليه، ثم نجاه الله وقضى على الذين كذبوه..

أما الهدف في سورة الأعراف - كما جاء في سياق الصورة - فهو هذا البيان:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(١).

فالتركيز هنا هو على الأخذ المباغت، وليس على ما جرى من أحداث بين الرسول وقومه، فلا يركز عليها في السياق.

وأما في سورة الشعراء فهدف إيراد القصة - كما هو مذكور في السورة - أن الكفار يطالبون الرسول ﷺ بآية تجعلهم يصدقون أنه رسول من عند الله. فجاء التركيز في القصة على الآية، وهي إهلاك المكذبين وتنجية المؤمنين، وليس على تفاصيل الأحداث كما كان الحال في سورة هود.

وهكذا يتم للقصة جمالها الفني مع وفائها - في كل مرة - بالهدف من إيراد القصة، وتتنوع الصور في كل مرة بما يناسب سياق العرض..

وذلك من الإعجاز..

* * *

والشأن كذلك في مشاهد القيامة، وهي كثيرة متنوعة، تعرض أحيانا في اختصار شديد، في كلمات معدودات، وأحيانا بالتفصيل في آيات متواليات، وفي كل مرة تعطى جوا خاصا، يتناسب - من جهة - مع قصر السورة أو طولها، ومن جهة أخرى مع السياق المعروض في السورة، ولكل سورة من سور القرآن جوها الخاص وسياقها الخاص، وإن اشتركت جميعا في هدف واحد كبير مشترك، هو هداية للناس إلى ربهم، وتعريفهم به، وبما يجب عليهم تجاهه - سبحانه - من خالص العبادة وخالص الطاعة.

خذ مثالاً من أمثلة الإيجاز البليغ، سورة القارعة:

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ

---

(١) سورة الأعراف: ٩٤، ٩٥.

رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾(١)

وخذ صورة أخرى أكثر تفصيلاً، ولكن في غير طول، في سورة الغاشية:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾(٢).

وخذ وصفًا أكثر تفصيلاً للعذاب، في سورة الحج:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٣).

أو هذا المشهد من سورة الواقعة:

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾(٤)

ثم خذ هذا المشهد المفصل للنعيم، من سورة الإنسان:

﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا * عَيْنًا فِيهَا

---

(١) سورة القارعة: ١-١١.

(٢) سورة الغاشية: ١ - ١٦.

(٣) سورة الحج: ١٩-٢٢.

(٤) سورة الواقعة: ٤١-٥٦.

تُسَمَّى سَلْسَبِيلا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾(١).

ماذا تجد في نفسك حين تتبع هذه المشاهد في القرآن الكريم؟

إنك أولاً في عرض متنوع على الدوام، سواء من حيث الإيجاز والتطويل، أو من حيث مفردات الوصف للنعيم والعذاب، التي تختلف في كل معرض عنها في المعرض الآخر، والتي تشكل في كل مرة صورة مختلفة عن الصورة الأخرى، حتى إن اتحدت في عموميتها.

وأنت ثانيًا في عرض حي متدفق الحيوية، لا تملك ألا تنفعل به نفسك، ويتأثر به وجدانك. بل لا تملك إلا أن تعيش فيه كأنه حاضر أمامك اللحظة، يحيط بك من كل جانب، ويأخذ عليك أقطار نفسك، بل يصل التأثر به أن يعيش الإنسان فيه كأنه حاضر، وكأن الحياة الدنيا- التي هي الحاضر في الحقيقة- كانت واقعا قديما، حدث ذات يوم ثم مضى وانقضى، وليست هي التي يعيشها الإنسان في هذه اللحظة، فيظل خاطر الآخرة حيا في النفس لا يفارقها، بما تشتمل عليه من صور النعيم والعذاب، الأولى تدفع الشوق إلى الجنة، والثانية تحذر من الوقوع في العذاب. وذلك من الإعجاز..

وثمة مجال ثالث يبدو فيه التنويع- لا التكرار- أوضح ما يكون، ذلك مجال الآيات الدالة على قدرة الله..

إن القرآن- كما قلنا- كتاب هداية، مهمته الأولى هداية الناس إلى ربهم، وإلى الصراط المستقيم:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢)

وأوسع الأبواب التي ترد في القرآن لتعريف الناس بربهم هو الآيات الدالة على قدرة الله، والتي تؤدي بالقلب البشري- حين يتدبرها على حقيقتها- أن ينبذ الآلهة الزائفة كلها، ويتعلق بالإله الحق، الذي لا إله غيره، ويعبده وحده بلا شريك.

(١) سورة الإنسان ١١-٢٢.

(٢) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

وفي مكان آخر من الكتاب سنتكلم عن هذه النقطة في مجال الإعجاز الدعوى، والإعجاز التربوى. إنما نريد هنا أن نتحدث عنها من ناحية دخولها في ظاهرة التنويع، التي يخيل للإنسان للوهلة الأولى أنها تكرار، ولكنها ليست تكرارًا في الحقيقة، إنما هي عرض متنوع على الدوام.

الآيات في مجملها واحدة: خلق السموات والأرض، وخلق الناس، وتدبير الكون، والهيمنة التامة على كل ما في الوجود ومن في الوجود، سواء في الماضى أو الحاضر أو المستقبل، والحاكمية المطلقة على كل شيء في الكون المادى أو في حياة البشر.

ولكن هذه الأمور لا تأتى في صورة واحدة.. بل في مئات الصور في القرآن من أوله إلى آخره.

وتختلف الصور.. مرة من حيث الطول والقصر، ومرة من حيث المفردات المذكورة في كل منها، ومرة من حيث الحجم الذي تأخذه كل مفردة من المفردات في سياق السورة.

فخلق السموات والأرض ربما كان أكثر الآيات ورودًا في معرض إثبات قدرة الله التي لا تحدها حدود. ولكن هذه القضية الواحدة ترد في صور شتى تجعلها جديدة وقائمة بذاتها في كل مرة:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ

---

(١) سورة البقرة: ٢٩.

(٢) سورة البقرة: ١٦٤.

لآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[١]

فكيف ترى في هذه الآيات ؟!

أهي ذات المشاهد المألوفة التي يتبلد عليها الحس لأنها مكروورة أمامه؟ أم إنها أمر آخر جديد يهز الوجدان ويحرك المشاعر؟!

وما الجديد فيها؟!

إن الجديد فيها شيئان يبرزهما السياق. الأول أن السياق يعرضها لا على أنها مرئيات أمام الإنسان يطلب منه أن يشاهدها، أو حتى أن يلتفت إليها التفاتا خاصا.. إنما يصلها مباشرة بالقدرة القادرة التي أوجدتها، والتي تحركها وتدبر أمرها.. تصلها بالله؛ فيشاهدها الإنسان - مع السياق القرآني- في ثوب جديد غير ذلك الذي تبلد عليه الحس. فتنتفض حية في الوجدان، لأن الوجدان يتابع فيها يد الصانع القادر الجليل، في كل شيء بمفرده، وفي المجموع الذي تكونه المفردات.. فينبض القلب بالتأثر العميق[٢].

أما الشيء الآخر فهو التنوع المستمر في العرض.. إن له خاصية ذات تأثير، هي إحياء المشهد المعروض كأنه في كل مرة جديد..

وذلك من الإعجاز..

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن التنويع ذاته هو آية من آيات الله التي يشار إليها نصا في معرض الحديث عن آيات الله في الخلق.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[٣].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ

---

(١) سورة النحل: ١٠-١٧.

(٢) سنتعرض لهذه النقطة مرة أخرى في الحديث عن الإعجاز الدعوي.

(٣) سورة الروم: ٢٢.

غَفُورٌ﴾(١).

ويلفت النظر في هذا النص الأخير أن التعبير عن التنويع جاء من خلال التنويع في بعض ألفاظ العبارة ذاتها، ما بين التذكير والتأنيث، والرفع والنصب:

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾

خذ كذلك هذا النص من سورة الأنعام:

﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

إن التنويع في عبارات الآيات واضح بصورة تلفت النظر..

ففي الآية الأولى لم يقل: يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي كما هو المعتاد في الآيات الأخرى، ولكن قال: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهذا تنويع....

وفي الآية الثانية لم يقل: فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا كما هو المعتاد في عطف الاسم على الاسم، ولكن قال: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ وهذا تنويع..

وفي الآية الرابعة لم يقل: هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فجعل لها مستقرا ومستودعا كما يتوقع أن يكون السياق العادى فيجرى العطف بين فعل وفعل، إنما حذف الفعل الثانى وجئ بمعموله مرفوعًا كأنه نائب فاعل (فجعل لها مستقر ومستودع) وهذا تنويع..

وفي الآية الخامسة تكرر الفعل (فأخرجنا) ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ في الزمن الماضى وجاء

(١) سورة فاطر: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة الأنعام: ٩٥-٩٩.

بعده المضارع (نخرج) وفي هذا تنويع.. ثم تجاور في العبارة اسمان مرفوعان بالضمة (قنوان دانية)، واسمان أحدهما منصوب بالكسرة والثاني مجرور بالكسرة (وجنات من أعناب) واسمان منصوبان بالفتحة (والزيتون والرمان). وأخيرًا جاءت كلمة في صيغتين مختلفتين (مشتبهًا) و(متشابه) وذلك كله تنويع..

وذلك من الإعجاز.

ثم يلفت النظر نوع آخر من التنويع في عرض آيات القدرة الربانية..

ففضلاً عن كون التنويع يذكر - في ذاته - على أنه من آيات الله الدالة على القدرة التي لا تحدها حدود، والتي لا تخلق فحسب، بل تخلق أنواعا مختلفة من كل شيء، وفضلا عن التنويع الذي يرد في العبارات ليلفت النظر إلى ظاهرة التنويع في الخلق، فإن إيراد آيات القدرة يأخذ في كل مرة (جو) السورة الذي ترد فيه.

فالآيات في مجملها واحدة كما أشرنا من قبل: خلق السموات والأرض، وخلق الناس، وتدبير الكون، والهيمنة التامة على كل ما في الوجود وكل من في الوجود، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، والحاكمية المطلقة على كل شيء في الكون المادي أو في حياة البشر.. ولكنها حين تعرض في سورة يغلب عليها جو الرضا الرباني على المؤمنين، أو التذكير اللطيف الذي يدعو الناس إلى الإيمان، تأخذ صورة مختلفة عنها هي ذاتها حين تعرض في سورة يغلب عليها جو الغضب الرباني على الكفار أو جو النذير..

ولنعد إلى المثال الذي ذكرناه آنفا من سورة الأنعام، الذي جاء في آخره قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بمعنى أنه جاء في معرض التذكير بآيات الله لدعوة الناس إلى الإيمان. ولنضع إلى جانبه هذه الآيات من سورة يس، التي تشمل الموجودات نفسها أو الآيات نفسها، ولكن في جو مشحون بالغضب على الكافرين المعاندين، ولننظر كيف تختلف طريقة العرض:

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ * وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ * إِلا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾[1].

فالعيون تفجر، والليل يسلخ منه النهار، والظلام يسود فجأة، وآخر صورة للقمر هي كونه كالعرجون القديم، والشمس لا تدرك القمر ولا ينبغى لها والليل لا يسبق النهار، ولا ينبغي له. والفلك مشحون. وهم منذرون بإمكان إغراقهم في وضع لا ينجدهم فيه أحد ولا يسعى لإنقاذهم أحد!

وما أبعد هذه الصورة عن الصورة الواردة في سورة الأنعام، وإن كانت كلتاهما تتحدث عن الشمس والقمر والزرع والثمار!

وذلك من الإعجاز..

كـــنا حـــتى الآن نتحدث عن ظاهرة واحدة من ظواهر الإعجاز البياني في القرآن الكـــريم، هي ظاهرة التنويع، وذلك في مجالات رئيسية ثلاثة: قصص الأنبياء مع أقوامه، ومـــشاهد القـــيامة، وآيات الله في الكون. ولكن الظاهرة لا تنحصر - كما ألمحنا في أول الكـــلام - في هذه المجالات الثلاثة، فهي ظاهرة عامة في القرآن كله، وفي كل موضوعاته، ضربنا لها مثلا في قوله تعالى في (سورة البقرة: ٢٥) ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَـــاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾. وقوله تعالى في (سورة إبراهيم: ٦) ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، والأمثلة كثيرة في القرآن الكريم تلفت انتباه كل قارئ يقرأ بوعي، سواء أدرك الحكمة فيها أم لم يدركها، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِـــنْ أَقْـــصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾[3]، فالتركيز في الأولى على المجئ من أقصى المدينة، بما يوحي بأهمية الأمر الذي حفز الرجل على قطع تلك المسافة الكبيرة، والتركيز في الثانية على الرجل ذاته، بما يوحي باهـتمامه الخاص بالأمر، وأنه حريص على سلامة موسى عليه السلام (والراجح أنه هو الـــرجل المؤمن من آل فرعون الذي ناصر موسى فيما بعد في مواجهة فرعون). وقوله

تعـــالى عن اليهود ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[١] وقوله عنهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[٢]. ففي الأولى يشير إلى تحريفهم لكلام الله، وما في ذلك من لؤم والتواء، وفي الثانية يشير إلى تجرئهم على الله سبحانه وتعالى بأن يقرر الأمر فيقرروا غيره من بعد تقريـــر الله لـــه، وما في ذلك من توقح وتمرد على رب العالمين. وفي مثل تلك المواضع يكون للتنويع دلالة خاصة تضاف إلى مجرد التنويع، الذي هو في ذاته هدف مقصود. وذلك من الإعجاز..

ولكـــن ظاهرة التنويع - على تعدد مجالاتها في القرآن الكريم - ليست وحدها التي تحمـــل الإعجاز البياني فيه. فللإعجاز البياني في القرآن تجليات كثيرة في مجالات كثيرة، لـــيس من الضروري أن تكون ظاهرة عامة في كل مرة، فقد تكون في آية، وقد تكون في حـــرف مـــن آيـــة، كما ستضرب الأمثلة من أماكن متفرقة من كتاب الله الكريم، لمجرد التوضيح لا على سبيل الحصر.. فالأمر يفوق الحصر!

في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في سورة البقرة، وردت هذه الآيات:

﴿وَإِذْ يَـــرْفَعُ إِبْـــرَاهِيمُ الْقَـــوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ الـــسَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُـــبْ عَلَيْـــنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لاحظ نغمة المد في هذه الكلمات بما يناسب جو الدعاء (منا إنك) ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً﴾ ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ﴾...

ثم لاحظ تغير النغمة بما يوحي بانتهاء الدعاء: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ..﴾.

إن حـــركات المـــد في العبارات الأولى تشعرك بالاستغراق في الدعاء، والرغبة في التعبير عن مشاعر عميقة تملأ قلبيهما وهما يتوجهان هذا التوجه الخاشع بين يدى الله وهما يقيمان قواعد البيت، بينما الياء في كلمة (ويزكيهم) توحي بأن الدعاء قد وصل إلى غايته، وأنـــه يوشك أن ينتهي، بعد أن بثا مشاعرهما لله العلي العظيم. وحين تصور الكلمات - وهي مجرد كلمات - مشهدًا كاملاً جياشًا على هذا النحو، وتعطى صورة الأكف المرفوعة بالـــضراعة، ثم حركة الأكف وقد أوشكت أن تفرغ من الدعاء هابطة إلى أسفل.. يكون

(١) سورة المائدة: ١٣.

(٢) سورة المائدة: ٤١.

هذا من الإعجاز.

في سورة آل عمران ترد هذه الآيات:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(١).

المشهد هو مريم منقطعة للعبادة في المحراب، وزكريا لا يفتأ يدخل عليها يتفقد أحوالها، فهو كفيلها المسؤول عن تربيتها ورعايتها، فيجد عندها رزقا متجددا فيسألها: من أين لها هذا وهي لا تبارح المكان ولا تسعى على الرزق، فتجيبه في براءة وبساطة: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. فتجيش نفس زكريا بمشاعر هائلة، وهو يرى الفيض الإلهي يفيض على مريم، وهي الطفلة التي لا حول لها ولا طول. فيشتاق.. يشتاق إلى الذرية، ولم يكن قد رزق بالولد بعد، ويشتاق إلى أن يفيض الله عليه من نعمائه كما أفاض على هذه الطفلة الصغيرة التي كلفه الله برعايتها.. ﴿هُنَالِكَ﴾ دعا زكريا ربه..

﴿هُنَالِكَ﴾.. ما دلالة اللام في هنالك؟!

إن اللغويين والبلاغيين يقولون إنها تعبر عن البعد. فالشيء يشار له بكلمة ﴿هُنَا﴾ إذا كان حاضرا قريبا تدركه العين أو اليد لقربه. ويشار إليه بكلمة هناك إذا كان بعيدًا عن متناول اليد.. ثم إذا اشتد بعده يشار إليه بكلمة ﴿هُنَالِكَ﴾ بزيادة اللام لتعطي مزيدا من البعد..

فأين البعد هنا ؟

هذا هو المحراب، وهذه هي مريم، كلاهما حاضر قريب. وهذا هو زكريا معها في نفس المكان..

لا بعد في المكان، ولا بعد في الزمان.

إنما البعد في أغوار النفس!

﴿هُنَالِكَ﴾ في أعماق نفس زكريا تحرك الشوق.. الشوق إلى الذرية. والشوق إلى الفيض الإلهي الذي يفيض بالخير، وبالرحمة وبالعطاء، وبالرضوان..

هل تحس مدى العمق في المشهد.. العمق الواغل في أعماق النفس؟

إنه الإعجاز..

---

(١) سورة آل عمران: ٣٧، ٣٨.

يقول تعالى في سورة فاطر:

﴿.. وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

فماذا يوحى إليك النص؟ وما الصورة التي تتبادر إلى ذهنك؟

إن المقصود بالنص هو النفس الإنسانية المثقلة بالذنوب، يقف صاحبها يوم القيامة مثقلاً بذنوبه، كما ورد في نصوص أخرى.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

.. ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلا﴾.

.. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

نعم.. ولكن!

إن حذف الموصوف (نفس) مع إبقاء الصفة (مثقلة) وتأنيثها، وإطلاقها بغير موصوف معين، يورد على الخاطر صورة المرأة الحامل، المثقلة بحملها.. كم تعانى منه؟!

وإن تـــدع البشر جميعاً إلى حملها - فضلا عن أولى القربى - فهل يستطيع أحد أن يحمل عنها حملها أو يخفف عنها شيئًا مما تعانيه من ذلك الحمل؟!

إنـــه حملها الخاص الذي لا يملك أحد على وجه الأرض كلها أن يحمل شيئا منه، وهي معاناتها الخاصة التي لا يستطيع أحد أن يعاونها فيها، فضلا عن أن يخففها عنها..

كم تبلغ هذه الصورة في تعميق المعنى المقصود، الذي يرد أحيانا بصيغ أخرى:

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[١]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٢]..

وكم تؤثر هذه الصورة في نفس من﴿كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٣] إنه الإعجاز..

يقول تعالى في سورة الرعد:

﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ

---

(١) سورة الإسراء: ١٥.

(٢) سورة المدثر: ٣٨.

(٣) سورة ق: ٣٧.

أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾. (١)

الأمثال لها وقع خاص في النفوس، لأنها ترسم صورة موازية للمعنى المقصود.. تحوى غالبًا أمورًا من مألوفات الحياة، يستطيع الناس بسهولة أن يتعرفوا عليها ويتمثلوها في أذهانهم. ثم يقطع الخيال رحلة ممتعة ينتقل فيها من هذه الأمور المألوفة إلى المعنى الموازى، فيتجسم المعنى وينبض بالحيوية حين يدرك الإنسان وجه الشبه بينه وبين الصورة الواردة في المثل، ويتضاعف حجمه في الحس لأن الإنسان يراه مرتين: مرة في الصورة المجردة، ومرة في المثل المضروب.

وفي القرآن ترد أمثال كثيرة، تجسم المعاني التي يراد تجسيمها، وتضاعف وقعها في النفوس. وتجئ الإشارة إلى ذكر الأمثال في القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (٢).

ولكن هذا المثل المضروب في سورة الرعد له خصوصية حتى بين الأمثال:

إنه يبدأ بكلام لا تحسبه في بادئ الأمر مثلا يضرب، لأنه حقيقة واقعة من حقائق الطبيعة التي خلقها الله، تجئ في معرض ذكر القدرة الإلهية: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾....

ولكن هذه الحقيقة مرتبطة بالمثل. فهي حقيقة وهي مثل يضرب ذات الوقت..

هذا الماء الذي نزل بقدرة الله سالت منه أودية، كل واد بحسب سعته، وجرى الماء في الوديان فاحتمل السيل زبدا رابيا.. إلى هنا يتم تقرير هذه الحقيقة الواقعة التي تقع في الطبيعة، ويسجل السياق وجود الزبد مع اندفاع الماء، وهذه أيضًا حقيقة تقع في الطبيعة..

ولكن يأخذ المثل في التشكل عند هذه النقطة، ثم يمضى شوطا آخر..

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾.

فالزبد ليس حادثا في الطبيعة فقط، بل فيما يصنع الإنسان كذلك. فالناس يوقدون على الذهب والفضة، ليصهروهما، ثم يشكلون من المادة المنصهرة حليًا ومتاعا متعددة

---

(١) سورة الرعد: ١٦، ١٧.

(٢) سورة الروم: ٥٨.

الأشكال، ولكن ظاهرة الزبد تلاحقهم أيضا فيما يصنعون.. وإلى هنا تقرر حقيقة جديدة: أن الزبد ظاهرة ملازمة سواء في الطبيعة التي خلقها الله، أو فيما يصنع الإنسان بيده..

ويبدأ المثل يتشكل بصورة أوضح، وذلك حين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾. فالحق والباطل موجودان متجاورين متلازمين في حياة الناس، بقدر من الله، ولكن لفترة من الوقت، ولمرحلة من المراحل.. ثم يأتي ما قدره الله وما قرره منذ الأزل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وتلك هي النهاية التي تستقر فيها الأمور في وضعها الأخير..

ولكي ندرك مرمى المثل لا بدّ أن نشير إلى واقع الدعوة في الفترة المكية، وإلى حال المؤمنين يومئذ[١].

كان الباطل منتفشا في مكة، والمشركون ظاهرين، يجولون ويصولون، مزهوين بكثرتهم وقوتهم وغلبتهم على المؤمنين وقهرهم لهم. والمؤمنون في ضعفهم وذلهم وهوانهم على الناس كما وصف رسول الله ﷺ حاله وهو يشكو حاله إلى الله: (إليك أشكو ضعفي وذلتي وهواني على الناس)، والعذاب يصب عليهم صبا من جانب المشركين..

هنا مضرب المثل في صورتين: صورة الرابى فوق الماء، والزبد المغشى للذهب والفضة المصهورتين..

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يسرى عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين الغارقين في العذاب. إن ما هم فيه ليس هو نهاية المطاف! إنها مرحلة موقوتة.. ثم يتبدل الحال!

فأمـــا السيل فبعد فترة يصفو، وينفثئ الزبد الذي يعلوه، ويذهب جفاء.. يذهب بـــددا.. ويبقـــى الماء يسقى الحرث والنسل، وينبت الزرع، وينتفع الناس به، ويفرحون بالخير الذي جاء معه.

وأما الزبد الذي يعلو الذهب والفضة في عملية الصهر فيلقى جانبا، ويذهب بددا، وأما المعدن الصافي فيبقى نقيا خالصا ينتفع به الناس.

ذلك هو المثل. أما الصورة الموازية المطلوب إبرازها فهي أن انتفاش الباطل وهيمنة الكفار في مكة زائلان بحول الله وقوته. ويبقى الحق، ويعلو، وينتصر، ويخلص له

(١) سورة الرعد مختلف في كونها مدنية أم مكية، ويغلب على ظني، كما بينت في كتاب (دراسات قرآنية) أنها مكية تحوي آيات مدنية. والله أعلم.

الجو، ويصبح هو القوة الممكنة في الأرض، ويدخل الناس في دين الله أفواجا، بعد فترة الصراع التي يخوضها الحق مع الباطل: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(١).

إنه مثل رائع، يجسد علو الباطل فترة من الوقت، ثم تبدده في النهاية وانتصار الحق..

ولكن روعته تزداد في الحس حين ينعم الإنسان النظر في تفصيلاته..

من سنن الله أن يسبق انتصار الحق وتمكنه في الأرض فترة يعلو فيها الباطل وينتفش. ومن سنة الله في الوقت ذاته أن يبتلى المؤمنون على يد الكفار:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(٢).

ويبين الله حكمة الابتلاء في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾(٣)فمحق الكافرين يأتي بعد تمحيص المؤمنين وتمحيص المؤمنين يأتي من خلال الابتلاء..

وتبلغ الروعة في المثل قمتها في تصوير حالة الابتلاء.. إنها فتنة ينصهر فيها المؤمنون كما يفتن الذهب والفضة على النار(٤)، كما ورد في سورة العنكبوت: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(٥).

وفي عملـية الانصهار التي تتم في الابتلاء تذهب أدران النفوس، وتصفو، وتخلص لله، كما يذهب ما يعلق بالذهب والفضة من أوشاب، لا تزول إلا (بالفتنة) على النار، ثم يبقى الجوهر الصافي الذي يستمتع به الناس.

ألا إنه إعجاز..

يقول تعالى في سورة يوسف:

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ

---

(١) سورة البقرة: ٢٥١.

(٢) سورة العنكبوت: ٢، ٣.

(٣) سورة آل عمران: ١٤١.

(٤) يقال في اللغة: فتن الذهب والفضة أي صهرهما على النار لينفي منهما الخبث.

(٥) سورة العنكبوت: ٢، ٣.

أَجْمَعِينَ﴾(١).

﴿يَأْتِ﴾.. من أين يأتي؟! إن المقصود أنه يعود مبصرا في التو واللحظة. ولكن الفعل (يأتي) يظل له إيحاؤه.. فما دلالته؟

إن يعقوب عليه السلام لم يكن غائبا فيأتي! فهو جالس مكانه لا يريم! ولكنه كان كالغائب.. فحين فقد بصره لم يكن ﴿حَاضِرًا﴾ فيما حوله، يراه، ويتفاعل معه كما يتفاعل المبصرون! إنما كان غائبا ببصره عنه.. وحين يرتد بصيرا فإنه ﴿يَأْتِيَ﴾.. يأتي من غيبته التي كان فيها، ويصبح ﴿حَاضِرًا﴾ فيما يحيط به من أشخاص وأشياء..

وكلمة واحدة تعطى هذا المعنى العميق كله، وتجعل المشهد يتحرك بحركة المجئ بعد الغياب!

ألا إنه إعجاز..

يقول تعالى في سورة النور:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(٢)

إشراقة النور، ونضرة النعيم.. وهناك ظلمات مدلهمة تحيط بالكفار، تنعدم فيها الرؤية تماما، وتحيط بهم الأعاصير، والموج الرهيب يقلب أجسادهم وأفئدتهم وهم في الظلام لا يرون من أين تأتيهم الأخطار، ولكنها تتناوشهم من كل جانب..

(١) سورة يوسف: ٩٣.

(٢) سورة النور: ٣٥ - ٤٠.

لا يوجد أنور من هذا النور، ولا أظلم من هذا الظلام!

ولا يوجد أروع من هذا التقابل الذي ترسمه اللوحتان المتقابلتان، اللتان ترسمان بالألفاظ ما تعجز عن تصويره كل أدوات التصوير..

وفي سياق واحد تتقابل الصورتان جنبا إلى جنب، فتنجذب القلوب إلى النور، ثم تفزع من الظلام فتستدير إلى النور، تستروح فيه الطمأنينة والأنس والإشراق.

ويختم السياق بهذه الحقيقة الهائلة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ فكل مصدر يلتمس فيه النور غير المصدر الرباني لا ينير، وكل شيء غير نور الله ضلال، بل عبث وانقطاع، ووهم وخداع، ينتهي بصاحبه إلى الضياع في لجة الظلام..

ألا إنه إعجاز..

يقول تعالى في سورة الأعراف:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[1].

الآية في وصف الأمة اليهودية بعدما أداروا ظهرهم للهدى الرباني، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءهم بغير حق، وخالفوا أمر ربهم، وأخلدوا إلى الأرض بحثا عن المتاع الرخيص.

وفي كلمة واحدة من كلمات الآية ينكشف الوضع كله، وتتضح معالمه، وتتبين أسبابه:

﴿ورِثُوا الْكِتَابَ﴾.

هذا سر الموقف كله..

لقد صار الكتاب الذي يحمل الوحي الرباني تراثًا، يحتفظ به، ويعتز بذكراه، ويتفاخر به، ولكن لا يعمل به في واقع الحياة

إنه كتاب الآباء والأجداد، ولكنه ليس كتابهم هم! وهم ورثوه عن الآباء والأجداد، ولكنهم لا يعدونه موجها إليهم، ولا ملزما لهم ليعملوا به! إنما التزام به الآباء والأجداد الذين أنزل إليهم. أما هم ففي واد آخر، وفي شغل آخر، لا علاقة له بالكتاب! إنهم يبحثون عن عرض الحياة الدنيا، وذلك شغلهم الشاغل. ولكنهم في الوقت ذاته متعلقون

(١) سورة الأعراف: ١٦٩.

بذكرى الكتاب! وذكرى الكتاب توهمهم أنهم لن يعاقبوا على أعمالهم التي يرتكبون فيها ما حرم الله، لأن ذكرى الكتاب ستحميهم من ذلك العقاب، وستجلب لهم مغفرة الرب الذي يكفرون به وبآياته، ويزعمون في الوقت ذاته أنهم أبناؤه وأحباؤه!

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

والانشغال بعرض الدنيا ليس أمرا عارضا في حياتهم إنما هو دينهم: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ فهم يسعون دائمًا إليه، وإن جاءهم لا يفوتونه!

وليس شيء من ذلك كله عن جهل منهم بما أمرهم به الله وما نهاهم عنه.. فهم يعرفون ذلك جيدًا. فقد درسوا الكتاب.. ولكنها دراسة التراث لا دراسة العمل والتنفيذ! ويختم السياق بتذكيرهم بالحقيقة الغائبة عن حسهم: ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

إنها آية واحدة، ولكنها تصف حال أمة بأكملها، وتصفها الوصف الذي يكشف نقاط الخلل فيها، ومظاهر الانحراف وأسبابه: وراثة الكتاب، والانكباب على عرض الحياة الدنيا، ونسيان الآخرة..

هل بقي شيء من حال تلك الأمة لم تبينه تلك الآية المعدودة الألفاظ؟

ألا إنه إعجاز..

تلك مجرد نماذج من الإعجاز البياني في القرآن الكريم، من ألوان مختلفة، في مجالات مختلفة. والقرآن، حافل بمثل هذه النماذج، إلى درجة لا يملك حس ألا يتأثر بها، أو أن يتغافل عنها. فلا عجب في أن يكون القرآن هو معجزة الرسول ﷺ إلى القوم الذين يعتزون بفصاحتهم، ويتيهون بها على الخلق. ولا عجب في أن يتحداهم فيعجزوا عن إجابة التحدى، ولو جحدوا بها كبرا وعنادا وجفاء وقسوة قلب.

ولكن الإعجاز في القرآن الكريم لا ينتهي عند هذا الحد.. وإنما هذه بدايته!

إن الإعجاز البياني هدف مقصود بذاته، يتحدى المنكرين والمعاندين، ليعلموا في دخيلة أنفسهم صدق الرسالة وصدق الرسول ﷺ، ولتقوم عليهم الحجة ولو جحدوا وأنكروا..

ولكنه في الوقت ذاته وسيلة لغايات أخرا

إنه وسيلة للدعوة. ووسيلة لإخراج خير أمة أخرجت للناس. ووسيلة لبيان المنهج الرباني الذي يريد الله للبشرية كلها أن تتبعه لتنعم بالطمأنينة والبركة والفلاح في الدنيا

والآخرة..

إن الله يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد.. ولكنه يدعوهم بهذا الأسلوب الفائق الذي يبلغ حد الإعجاز.

والله يربى الأمة التي آمنت به تربية دقيقة عميقة فذة شاملة تشمل كل جوانب كيانهم. ولكنه يربيها بهذا الأسلوب الفائق الذي يبلغ حد الإعجاز.

والله يريد أن يضع لهذه الأمة منهج الحياة الذي تسير عليه ليكتب لها التمكين في الأرض، ولتكون رائدة لكل البشرية. ولكنه يبين لها المنهج بهذا الأسلوب الفائق الذي يبلغ حد الإعجاز.

وهذا نفسه إعجاز فوق إعجاز!

من الإعجاز الدعوى:

ونقصد بالإعجاز الدعوى: الإعجاز في بيان العقيدة الصحيحة بكل تفصيلاتها، والإعجاز في الوصول بها إلى مكامن النفوس بحيث تستقر فيها وترسخ نقية صافية من كل غبش، والإعجاز في تحويلها - بعد بيانها وترسيخها - إلى قوة فاعلة في شتى مجالات الوجود الإنساني.

والعقيدة التي جاءت بهذا القرآن هي التوحيد. وهي عقيدة الأنبياء جميعا من لدن آدم ونوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعا. ولكنها لم تكن قط في أي كتاب أصفى منها في القرآن الكريم، ولا دخلت إلى نفوس الناس من كل منافذها وأقطارها كما دخلت عن طريق هذا الكتاب، ولا كانت قط مؤثرة في واقع الحياة على أوسع نطاق كما انبثقت من هذا الكتاب.

ولا عجب في ذلك، فالقرآن هو كلمة الله الأخيرة إلى البشرية، التي اكتمل بها الدين، وتمت بها النعمة، وأخرجت خير أمة:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1].

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: ٣.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

إن كون الله هو الرب، وهو الخالق، عقيدة لا تحتاج إلى إرسال رسول، فهي كامنة في أعماق الفطرة:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[١].

وما أرسلنا رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها، فالفطرة تعرف ذلك بغير رسول. ولا أرسل رسول قط ليقول للناس إن هناك إلها فاعبدوه. فالفطرة تتجه تلقائيا إلى عبادة الإله الذي تؤمن به.

إنما أرسل الرسل جميعا ليقولوا للناس: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٢].

ذلك أن مشكلة البشرية الكبرى لم تكن إنكار وجود الله، إنما كانت هي الشرك. ودعك مما سرى في الجاهلية المعاصرة من إلحاد ينكر وجود الله، فقد نشأ من ظروف خاصة، وله شياطينه الذين ينفخون فيه. ولكنه لون خاص من الانحراف لم يقع بصورته تلك في أي جاهلية من جاهليات التاريخ.

والذين حكى القرآن عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾[٣] وسموا بالدهريين، كانوا على وجه اليقين منكرين للبعث، ولكن الآية لا تدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا ينكرون وجود الله. فقد نسبوا الموت إلى الدهر بمعنى مرور الزمن، أي أنهم يولدون، ويحيون حياتهم، ثم يهلكون بمرور الزمن، ثم لا يبعثون مرة أخرى بعد الموت. وهؤلاء كانوا مطموسي البصيرة بلا شك. ولكنا لا نستطيع أن نقطع بأنهم كانوا منكرين لوجود الله، وإن أنكروا قدرة الله على البعث. فقد كان مشركو العرب ينكرون البعث، ولكنهم مع إنكارهم هذا - إذا سئلوا ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ يقولون الله. وإذا سئلوا من خلقهم يقولون الله، كما سجل القرآن عليهم:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٤].

﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾[٥].

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٢.

(٢) سورة هود: ٥٠، ٦١، ٨٤.

(٣) سورة الجاثية: ٢٤.

(٤) سورة لقمان: ٢٥.

(٥) سورة الزخرف: ٨٧.

وأيـا كان الأمر، فلئن وجد في القديم قلة من الناس ينكرون وجود الله -وهو أمر مشكوك فيه - فلم يحدث قط - إلا في الجاهلية المعاصرة - أن أصبح هذا اللون من الإلحاد (دينا) يدين به ملايين من البشر، لظروف بيناها في غير هذا الكتاب، وقام شياطين الإنس بنشره في الأرض، وتبنته الشيوعية دينا رسميا لدولتها. ولكن ما أن انهارت الشيوعية حتى عـاد الـناس في روسيا ذاتها إلى معتقداتهم الدينية السابقة، وأقروا بوجود الله، أيا كان في معتقداتهم من انحراف!

المرض الأكبر إذن في الجاهليات هو الشرك، وهو الذي أرسل كل رسول لينتزعه من نفوس قومه. ثم أرسل الرسول الأعظم ﷺ لينتزعه من قلوب البشرية جمعاء، فآمن به من قدر له الهدى، وأبى من أبى بقدر من الله.

والشرك - وتوابعه - يسميها الله سبحانه وتعالى "عبادة الشيطان".

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[١].

والأصل في الفطرة هو التوحيد، ولكن الشياطين يحاولون دائما إخراج الناس من صفاء التوحيد إلى كدر الشرك:

«إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين»[٢].

وهذا الاجتلاء يأخذ صورا شتى:

منها تأليه الجن والملائكة والشمس والقمر والنجوم والحجر والشجر، والزعم بأنها آلهة تعبد مع الله أو من دونه..

ومنها ادعاء الولد لله..

ومنها الاعتقاد بأن كائنا من كان له مشاركة مع الله في الخلق أو التدبير، أو له شفاعة مقبولة عند الله فيعبد ليقرب الناس من الله زلفى..

ومنها إنكار الوحي والرسالات..

ومنها إنكار البعث..

ومنها التحليل والتحريم (أى التشريع) بغير ما أنزل الله..

ومنها اتباع الهوى والشهوات..

---

(١) سورة يس: ٦٠، ٦١.

(٢) أخرجه مسلم.

وهي كلها انحراف عن عقيدة التوحيد، ورفض لإخلاص العبادة لله وحده بلا شريك.

ولها أسباب شتى، ولكنها تؤدى في النهاية إلى شيء واحد هو الكفر بالله.

وقد ينشأ الكفر من تعظيم زائد لأشخاص من البشر يصل إلى حد التقديس، كما حدث في عبادة الأصنام.

وقـــد ينشأ من فساد في الفطرة يهبط مها عن حالتها السوية التي فطرها الله عليها، والتى تتسع للإيمان بما تدركه الحواس (عالم الشهادة) والإيمان بما لا تدركه الحواس (عالم الغيب)، فتنحصر في الإيمان بما تدركه الحواس، وتنشئ آلهة محسوسة، تتعبدها بدلا من الله الذي (لا تدركه الأبصار)[1].

وقد ينشأ من الاستكبار عن عبادة الله.

وقد ينشأ من اعتداد الإنسان بنفسه وقوته اعتدادًا زائفًا يخيل إلى صاحبه أنه ذو قوة ذاتية فاعلة بذاتها.

وقـــد ينشأ من الطغيان والتجبر على الناس، فيدعى الطاغية الألوهية لنفسه، ويلزم الـــناس بـــأداء شعائر التعبد له، أو يستعبدهم بالتشريع لهم بغير ما أنزل الله، وإخضاعهم لتشريعه، ومعاقبتهم إذا خرجوا على شرعه.

وقد ينشأ من تضخم الذات، فيعبد الإنسان ذاته، أو بالأحرى أهواءه وشهواته..

والإعجـــاز في كـــتاب الله أنـــه يعرض لهذه الأسباب كلها، لا يغادر شيئا منها. فيبرزها، ويندد بها، ثم يعالجها.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[2].

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[3].

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[4].

﴿كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[5]

(١) سورة الأنعام: ١٠٣.
(٢) سورة يونس: ١٨.
(٣) سورة سبأ: ٣٥.
(٤) سورة القصص: ٧٨.
(٥) سورة العلق: ٦، ٧.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾(١)

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾(٢)

﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٣).

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾(٤).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾(٥).

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾(٧).

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(٨).

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(٩).

﴿وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾(١٠).

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً

---

(١) سورة فصلت: ١٥.

(٢) سورة القصص: ٣٩.

(٣) سورة يس: ٧٧، ٧٨.

(٤) سورة الكهف: ٣٥، ٣٦.

(٥) سورة سبأ: ٧، ٨.

(٦) سورة ص: ٤، ٥.

(٧) سورة غافر: ٥٦.

(٨) سورة الجاثية: ٢٣.

(٩) سورة الروم: ٢٩.

(١٠) سورة إبراهيم: ٣٠.

(١١) سورة الأعراف: ٢٨.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[١].

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢]

﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ﴾[٣]

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾[٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[٥].

تلك على وجه الإجمال كانت أفكارهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم التي يعيشون فيها، والتي تصدهم عن الإيمان بالله واليوم الآخر والوحي والنبوة، ولها في حسهم ثقل الأمر الواقع من جهة، وثقل الأمر الموروث من جهة أخرى. فلا هم يتصورون إمكان تغييرها، ولا إمكان الخروج عليها، وهي تقاليد الآباء والأجداد، في بيئة شديدة المحافظة على التقاليد، وعلى موروث الآباء والأجداد. وفضلاً عن ذلك فهم يتوهمون أنهم على دين إبراهيم، ويحتفظون ببعض ما كان في دين إبراهيم عليه السلام، فيعظمون الكعبة، ويحجون إلى البيت الحرام، وإن كانوا يرتكبون في حجهم مخالفات ما أنزل الله بها من سلطان.

وكانت قريش خاصة - التي بعث من بينها رسول الله ﷺ، والتي وجهت إليها الدعوة أول ما وجهت، إذ قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[٦]. كانت تدل على العرب كلهم بسدانة الكعبة، وعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فكانت تعد نفسها الرئيسة الدينية، التي تقول فتطاع، وليست التي تتلقى أوامر من أحد، فضلا عن أن تكون الأوامر نقضا كاملا لأفكارهم ومعتقداتها.

لذلك كانت الحرب شديدة على العقيدة الجديدة، وكان اللدد في الخصومة، والعنف في المواجهة، والمبالغة في الصد..

(١) سورة النحل: ٢٤، ٢٥.
(٢) سورة لقمان: ٧.
(٣) سورة الروم: ٥٨.
(٤) سورة السجدة: ١٠.
(٥) سورة البقرة: ١٧٠.
(٦) سورة الشعراء: ٢١٤.

وكان القرآن هو الرد على ذلك كله. هو الدعوة. وهو المواجهة. وهو أداة التغيير: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(١).

﴿الـر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(٢).

ومرة بعد مرة يتنزل القرآن ليبين العقيدة الصحيحة من جهة، وليفند أوهام المشركين واعتراضاتهم من جهة أخرى، تارة ببيان ما اشتملت عليه من سخف لا يقبله منطق ولا عقل، وتارة ببيان الأسباب الدافعة لهم إلى التمسك بالشرك وعدم الإقلاع عنه، وأنها أسباب تنبع من انطماس في البصيرة، وانحراف في الفطرة، وفساد في السلوك، وكلها أمراض لا يشرف إنسانا عاقلا أن يحملها، فضلا عن أن يعتز بها وينافح عنها!

وكانت الأداة الكبرى في كل ذلك هي تعريف الناس بحقيقة الألوهية، وبتفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والرزق والإنشاء والهيمنة والتدبير، وانتفاء هذه الصفات كلها عن الآلهة المزعومة التي يتمسكون بها، بحيث يتبين عجزها وهزالها، فتسقط ألوهيتها المزعومة، ويسقط بالتالي استحقاقها للعبادة مع الله أو من دونه..

وكان الأمر في حاجة إلى مواجهة طويلة عميقة شاملة دقيقة، حتى تنجاب الصلادة التي تحجب الحق عن القلوب، فتهتدى تلك القلوب الضالة إلى الحق، وتدخل في دين الله.

إذا تأملنا سورة العلق - أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ - نتبين كيف بدأ التعريف بالله سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٣)، بدأ بذات المعلومات التي كانت معلومة عند العرب من قبل، ولكن بإضافة جديدة تجعلها حية وفاعلة.

فأما أن الله هو الخالق الذي خلق السموات والأرض وخلق الإنسان فقد كان حقيقة مسلمة عندهم لا ينكرونها ولا يجادلون فيها، كما سجل القرآن عليهم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾(٤). ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ

(١) سورة الفرقان: ٥٢.
(٢) سورة إبراهيم: ١.
(٣) سورة العلق ١-٥.
(٤) سورة الزمر: ٣٨.

﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[١]. وكونه خلق الإنسان من علق، أو من نطفة، أو من مني، يمنى، فقد كان معلوما عندهم كذلك، فقد سجل القرآن عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾[٢]. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى﴾[٣].

ولكن هذه المعلومات كانت بالنسبة لهم كالبذرة الميتة لا تنبت، لا لأن من شأنها ألا تنبت، ولكن لأن تربتها - وهي القلوب- جفت وقست، وران عليها ما طمر البذرة فقتلها، ولقد كانت قمينة لو القلوب سليمة والنفوس صحيحة أن يكون لها مقتضى في مجرى حياتهم..

فـــالآن يأتي القرآن فيرفع الران الذي طمر البذرة فمنعها من الإنبات، ويضع بذرة جديدة من ذات النوع، ولكن في تربة جديدة مهيأة للإنبات..

﴿اقْرَأْ﴾..

اقـــرأ الدلالـــة الكامنة في هذه الحقيقة الكبرى، وهي أن الله هو الخالق، وأنه خلق الإنسان من علق..

إنهـــا حقيقة هائلة حين يتدبرها الإنسان بقلب واع وفكر متفتح.. معجزة الخلق.. خلق السموات والأرض من العدم.. وخلق الإنسان من نطفة إذا تمنى..

إذا كنت لم تقرأ هذه الدلالة من قبل فاقرأها الآن على صوت هذا النداء: ﴿اقْرَأْ﴾!

اقرأها جيدا.. اقرأها مليا.. تتضح لك دلالتها..

دلالـــتها أنـــه إله واحد هو الذي ينبغي أن يعبد، وليس سواه.. الإله الذي خلق.. خلق السماوات والأرض من العدم، وخلق الإنسان من علق..

فإذا فرغت من قراءة تلك الحقيقة الهائلة، واتضحت لك دلالتها، فاقرأ حقيقة أخرى، قمينة بأن تملأ قلبك بالحب والود والتعظيم لذلك الإله الخالق.. إنه ربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

حقيقة أخرى هائلة.. فالطفل يخرج إلى الحياة بلا علم ولا معرفة ولا إدراك.. ثم يتعلم.. كيف يتعلم؟ لو لم يكن الله قد أودع فيه القدرة على التعلم فهل كان يمكن أن يتعلم؟! إن القلم هو أداة التعليم.. نعم! ولكن ضع القلم عند كائن لم يوهب القدرة على

---

(١) سورة الزخرف: ٨٧.

(٢) سورة المعارج: ٣٩.

(٣) سورة الواقعة: ٦٢.

التعلم، فهل يعلمه القلم، أم الذي يعلمه هو الذي خلقه، وخلق فيه القدرة على التعلم؟

أى إكرام من ربه الأكرم، الذي خلقه على هذا النحو، وفضله - بمزيته تلك - على كثير ممن خلق! ما الذي يجعل القلب البشرى يغفل عن تلك الدلالة الهائلة فلا يقرؤها؟!

إنه الران الذي يطمس البصيرة، ويحجب النور!

﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(١)!

هذا الوهم الضخم الذي يحيط بالإنسان فيغفل وينسى..

يغفل عن حقائق الكون والحياة، فينسى الخالق الذي خلق، الذي أوجد كل شيء بقدرته، بحوله وطوله، بقدرته وقوته، بعقله وعلمه، بفكره وإرادته، عن الله الذي خلقه فسواه فعدله، في أي صورة ما شاء ركبه..

وحين ينسى فإنه يطغى..

يطغى، فيتمرد على الخالق الذي خلقه، فلا يعبده حق عبادته، ويعبد سواه..

ويظن أنه حر يفعل ما يشاء.. يفعل ما يمليه عليه هواه.. فمن ذا الذي يحاسبه على ما يفعل؟!

كلا!

﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾(٢)!

ليس متروكا لهواه.. ليس متروكا يفعل ما يشاء بلا حساب ولا عقاب..

إنه راجع إلى ربه يحاسبه على ما جنت يداه..

وتلك المعاني كلها كانت في تلك القراءة الأولى، التي افتتح بها الوحى الربانى، والتى غيرت القلوب، فجعلت البذرة تنمو نموها السوى، فتنبت الإيمان..

وتتوالى الآيات.. تتوالى تعرف الناس بربهم، بما يعرفون وما لا يعرفون..

فأما ما يعرفون - كحقيقة أن الله هو الخالق، وهي الحقيقة الكبرى التي ركز عليها القرآن في تعريف الناس بربهم - فطريقة القرآن فيها، كما أشرنا في المثال السابق، هي إزالة الركام الذي طمرها فجعلها لا تؤدى مقتضاها الطبيعى، وهو عبادة الله وحده بلا شريك، وإحياؤها في طريقة عرضها، وربطها بالقدرة الإلهية بالطريقة التي تهز الوجدان فينفعل بها، فيتفتح للإيمان بالله.

---

(١) سورة العلق: ٦، ٧.

(٢) سورة العلق: ٨.

وأما ما لا يعرفون - أو ما ينكرون - كالبعث والنشور، والوحى والرسالة، فيضاف إلى معلوماتهم بالطريقة ذاتها التي تجعل الوجدان ينفعل فيتأثر، فيستجيب لداعى الإيمان.

وهنا يأتي دور الإعجاز البيانى، فيؤدى مهمته في هذا المجال.

فطريقة العرض أولا هي التي تحيي المشاهد، فتزيل عنها ما يصيبها في نفوس الناس من تبلد الحس عليها بسبب الألفة الطويلة، فإذا هي السياق القرآنى شيء آخر غير ما تبلد الحس عليه، جديد حى متحرك.

والتنويع كذلك يؤدى دوره. فالنفوس التي كانت منكرة أو كانت غافلة، كانت في حاجة إلى تكرار القضايا مرات ومرات حتى تزول الغفلة ويذوب الإنكار وتكرار الشيء ذاته بنفس الألفاظ ونفس الصورة يبعث السأم في النفوس. ولكن التنويع في العرض له من الجاذبية ما ينفي السآمة، بل يجدد الرغبة، ويجدد الانتباه، ويجدد التأثير. وهكذا، فالقرآن كما جاء في وصفه: «**لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد**» فهو متجدد أبدا في النفوس، يعرض الأمور في كل مرة كأنها جديدة تعرض لأول مرة.

وهذا الذي أشرنا إليه آنفا: أن الإعجاز البيانى في القرآن هدف مقصود في ذاته، وهو في الوقت ذاته وسيلة لأهداف أخرى.

ويدخل القرآن إلى النفوس في قضايا العقيدة من كل منافذها وأقطارها، فلا يترك منفذا لا ينفذ منه، ولا يترك مدخلاً لا يطرقه ليوصل العقيدة الصحيحة إلى القلوب.

وإذا كانت الوسيلة العظمى - كما أشرنا آنفا - هي تعريف الناس بربهم، ليعبدوه وحده بلا شريك، حين يدركون تفرده سبحانه بالألوهية، وعجز الآلهة المزعومة عن القيام بشيء مما يقدر الله عليه، ففي النفس البشرية منافذ فطرية، أودعها الله في الفطرة لتتعرف على خالقها، وتتوجه إليه بالعبادة، ومن هذه المنافذ بالذات - المودعة في الفطرة - ينفذ القرآن إلى النفوس، فيوقظها من غفلتها، فتنبعث متوجهة إلى الله. ولا عجب في ذلك، فالله هو خالق الفطرة، وهو منزل القرآن ليلتقى بالفطرة التقاء كاملا شاملا مفصلا دقيقا، فيلتقيان على تعارف كامل وتوافق واتساق!

﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾(١).

الكون بضخامته المعجزة يروع الحس البشرى، فيروح يتأمل في هذه الضخامة التي

---

(١) سورة الروم: ٣٠.

يعجز عن الإحاطة بها، فيرد على الخاطر سؤال فطرى لا يملك الإنسان دفعه: من خالق هذا الكون؟ فيهتدى إن كتب له الهدى، فيعلم أن الله هو الخالق، أو يضل فيتصورها إلها آخر أو آلهة أخرى غير الله ينسب لها الخلق. ولكنه - حتى في ضلاله - لا يتصور أن الكون يمكن أن يوجد بغير خالق (ودع عنك ضلالات الجاهلية المعاصرة التي أحدث نتيجة ظروف خاصة في أوربا غير مسبوقة في البشرية. وحتى هذه لم تستطع أن تتهرب من هذا السؤال الفطرى، فنسبت الخلق إلى الطبيعة! التي قال عنها دارون إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق! فابتدع إلها خالقا - غير الله - وأضفت عليه بعض صفات الله سبحانه وتعالى كالخلق والتدبير، ولكن كانت أهم صفة في هذا الإله المزعوم أنه ليست له كنيسة تضطهد النسا، وتطاردهم في يقظتهم ومنامهم! وتلك كانت عقدة الجاهلية المعاصرة التي أدت بها إلى الإلحاد!)[1].

والكون بدقته المعجزة يروع الحس البشرى كذلك. فهذا الكون ليس ضخما فقط، وليست ضخامته التي تتجاوز كل تصور هي وحدها التي تروع الحس، ولكن يروعه كذلك أنه مع ضخامته تلك دقيق إلى درجة معجزة.

وتتبدى الدقة المعجزة في مجالات عدة. فانتظام دورة الفلك، وانتظام الليل والنهار، من دلائل تلك الدقة التي تروع الحس.

وتوزيع الكائنات الحية على سطح الأرض من دلائل الإعجاز.

وتصريف الرياح، وحركة السحاب..

واختلاف الألوان في الكائنات، سواء الكائنات الحية أو الجوامد..

بل يدق الأمر أحيانًا حتى يتبدى الإعجاز في ريشة الطائر، ولون الزهرة، ورفرفة الطير، وزقزقة العصفور، فضلا عن أطوار الجنين، واختلاف طبائع البشر، واختلاف مشاعرهم ومشاغلهم وطرائق حياتهم..

دقة تروح الحس.. فيرد على الخاطر سؤال فطرى، لا يملك الإنسان دفعه: من وراء هذه الدقة المعجزة؟ من وراء هذا التنوع العجيب في الكائنات؟ من يدبر دقائق الكون ودقائق الحياة؟

ثم يهتدى الإنسان إن كتب له الهدى، فيعلم أنه الله، أو يضل فينسب الأمر إلى آلهة مزعومة، أو يغفل عن إيقاعات الكون غفلة تامة فكأنه في حسه غير موجود..

(١) انظر - إن شئت - حديثًا مفصلاً عن هذه القضية في كتاب (مذاهب فكرية معاصرة).

وظاهرة الموت والحياة مما يروع الحس البشرى..

يتوهم الطفل الصغير في مبدأ حياته أن الكائنات كلها حية، ويتعامل معها على هذا الأساس! حتى يكبر وعيه، فيعلم أن هناك جوامد وهناك كائنات حية، ثم يعلم أن الكائنات الحية تموت.. ويترك الموت في حسه أثرا لا يمحى، بل يزداد تعمقا مع الأيام.. فيرد على خاطره سؤال فطرى لا يملك دفعه: من وراء هذه الظاهرة الهائلة: ظاهرة الموت والحياة.. ثم يهتدى إن كتب له الهدى، أو يضل فيقول إنه الدهر أو غيره من قوى الوجود.

والحركة في الكون مما يروع الحس البشرى. سواء حركة الأجرام في السماء، أو حركة البشر على الأرض، وما يحدث لهم من تحولات في أثناء حياتهم، من قوة وضعف، وفقر وغنى، وعز وذل، وصحة ومرض، وحياة وموت.. فيرد على الخاطر سؤال فطرى لا يملك الإنسان دفعه: من المحرك وراء الأشياء والأحداث؟. أتحدث من تلقاء نفسها أم تحدث بتدبير؟ ومن وراء التدبير؟ وهل تحكمها سنن وضوابط، أم تجري فوضى بلا نظام؟ وهل وراءها حكمة أم هي عبث لا حكمة فيه؟ ثم يهتدى الإنسان إن كتب له الهدى، فيعلم أنه الله، ومشيئته، وسننه، ونظامه وتدبيره، أو يضل فينسب الأمر إلى آلهة مزعومة، أو يظنها فوضى لا يشملها نظام.

والمفارقة بين العجز البشرى والقدرة التي لا تحدها حدود، مما يروع الحس البشرى.. فالإنسان يتطلع إلى القوة والسيطرة والتملك، ويحصل من ذلك ما يقدر عليه، ولكنه في دخيلة نفسه لا يشبع ولا يقنع، ويتمنى لو أن له سيطرة على كل شيء، يسيره على هواه، وقوة لا تعجز عن شيء، وملك لا يبلى.. ثم يجد نفسه عاجزًا مهما سيطر، ومهما ملك، ومهما استخدم من أسباب القوة. وأشد ما يعجز عنه هو الخلق، ثم يتدرج العجز درجات!

وهذا العجز يفرض على حسه تلك المقارنة الفطرية بين ما يقدر عليه وبين القدرة القادرة التي تخلق، وتنشئ، وتسير وتدبر، ولا يعجزها شيء. ثم يهتدى فيعلم أنها قدرة الله، أو يضل فيتخيل آلهة لا وجود لها ينسب إليها ما يراه من أحداث.

وقضية الغيب مما يعرض للحس البشرى فيوقظه من غفلته إن كان من الغافلين. فالإنسان شديد التطلع إلى معرفة الغيب. يريد أن يطمئن على ما يكون من أمره في الغد القريب والغد البعيد. هل يعيش طويلا أم يخترمه الموت؟ هل سيكون سعيدا في مستقبل حياته أم تعتوره الأزمات والآفات فتنغص عليه عيشه؟ هل يكون غنيا أم فقيرا؟ هل يتزوج

أم لا يتزوج؟ هل يكون له ولد أم لا يكون؟ هل يحصل على مكانة عالية في الأرض أم يكون هملا لا وزن له؟

ويؤلمه أنه لا يستطيع أن يستكنه الغيب.. لا الغيب البعيد الموغل في المجهول، بل الغيب القريب الذي يكون غدا أو بعد ساعات.. بل غيب اللحظة المقبلة عليه الآن، والتى لا يعرف كنهها وكنه ما يجرى فيها حتى تقع بالفعل.

ويجره عجزه عن استكناه الغيب إلى مقارنة فطرية مع القوة التي تعلم الغيب، لأنه مكشوف لها غير خاف عليها منه شيء. بل التي تعلم الغيب لأنها هي التي تصنع الغيب..

ثم يهتدى، فيعلم أنه الله، عالم الغيب والشهادة، أو ينسبه لآلهة مزعومة أو يغمض عينيه ويغلق حسه ويعيش كالأنعام!

تلك مفاتيح فطرية.. أودعها الله في الفطرة لتتعرف عليّ الله..

وقد نظن أحيانًا أن هذه الأسئلة الفطرية التي تفرض نفسها على الحس البشرى، لا تجئ إلا في فترة النضوج والوعى، ولكن الحقيقة غير ذلك.

إن الطفل الصغير تبدأ هذه الأمور تخطر على حسه في مراحل مبكرة جدًا، أكثر تبكيرًا مما نحسب!

إنه في فترة باكرة، منذ بداية الوعى، يظل يسأل والديه ومن حوله أسئلة ذات دلالة واضحة، حين يسألهم عن أمور لا إجابة لها في الحقيقة إلا إجابة واحدة: إنه الله. وإنه صنع الله!

حين يسأل: لماذا تطلع الشمس بالنهار ولا تطلع بالليل؟

لماذا يكون ورق الشجر أخضر؟

لماذا لا يكبر هو بسرعة فيصبح كأبيه في الطول؟

لماذا كان ريش هذا الطائر ملونا والآخر غير ملون؟

كيف ينزل المطر من السماء؟

كيف ينبت الزرع؟

وعشرات من الأسئلة ومئات، يضيق بها الأبوان أحيانا، ويعجزان عن إعطاء إجابة تقنع ذلك الصغير الذي لا يكف عن السؤال، بينما مداركه لا تستوعب الجواب!

إنه بدء تيقظ الفطرة لتبحث عن الله!

وقد لا يدرك الطفل دلالة أسئلته.. لكننا نحن ينبغى أن ندرك أنها أسئلة الفطرة،

التي تتوجه بها - فطريا - للتعرف على الله.

ولكن الحس البشرى عرضة أن يتبلد على المنظر المكرور، والحدث المكرور، فلا تعود إيقاعات الكون تجد استجابتها الفطرية في النفس..

لا الكون بضخامته المعجزة، ودقته المعجزة، ولا ظاهرة الموت والحياة، ولا ظاهرة الحركة: حركة الأشياء والأحداث، ولا ظاهرة العجز البشرى، ولا ظاهرة العجز عن استكناه الغيب..

عندئذ يفقد الإنسان شفافيته التي خلقها الله في كيانه، ويفقد بالتالى سمته التي جعلته إنسانا، وميزته عن الحيوان، فيصبح من الذين جاء فيهم هذا الوصف القرآني:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

فيأتى القرآن ليوقظ القلوب، ويفتح الأعين، ويزيل الوقر من الآذان، فتتفتح جميعا للإيقاعات التي يرسلها الكون إلى الحس. فتحيا النفوس بعد موات، وتستيقظ بعد الغفلة.. وتتوجه إلى الله.

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

لوحة عريضة واسعة حافلة بالحيوية والحركة، والإيحاءات والدلالات..

إنها مشاهد معروضة أمام الحس البشرى، ولكن الحس يتبلد أحيانا فيغفل عما فيها من الإيحاءات والدلالات، ويمر بها لا يكاد يعيرها اهتماما. ولكن القرآن يحيي المشهد بأسلوبه الفريد، فينتفض حيا متحركا، فيلتقط الوجدان ما يرسله من الإشارات.

إن السموات والأرض المذكورة في الآية ليست هي ذلك المشهد المكرور المألوف الذي كان يراه الإنسان فلا يتحرك له، ولا يهتز له وجدانه، فيغفل عن الحقيقة الكبرى الكامنة فيه، وهي أن السموات والأرض مخلوقتان، وأن الله هو الخالق!

إن الحس المتبلد يراهما موجودتين دائمًا أمامه، فيغفل وينسى!

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٢) سورة البقرة: ١٦٣، ١٦٤.

ولكن السياق القرآني يوقظه من أول لفظة إلى الحقيقة المنسية..

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..﴾ فهما ليستا موجودتين من ذات نفسيهما، ولا هما أزليتان. إنما هما مخلوقتان، أي أنهما لم تكونا موجودتين ثم وجدتا..

وهي حقيقة هائلة، تترتب عليها - أو يجب أن تترتب عليها - حقائق أخرى.

فأما الجاهلية العربية فقد كانت تقر أن الله هو الذي خلق السموات والأرض:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1]. ولكنها لم تكن ترتب على هذه الحقيقة مقتضاها الطبيعي المباشر، وهي أن الإله الذي خلق هو الحقيق بالعبادة وحده بلا شريك.

وأما الجاهلية المعاصرة - وهي أذكى من الجاهلية العربية من ناحية، وأغبى منها من ناحية أخرى - فقد أدركت أن هذه القضية ذات شأن كبير، وأنها إحدى قضايا الوجود الرئيسة. وأدركت أنها إن أقرت بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض فقد لزمها أن تعبده، وتخلص له العبادة، وهي لا تريد - كبرا وعنادا وغطرسة وانطماس بصيرة - فنفت أن الله هو الخالق، وراحت تتخبط على غير هدى. تقول مرة إن الكون قد وجد من ذات نفسه بغير موجد، وتارة أخرى تردد قولة دارون الحمقاء: الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق!

كلتاهما جاهلية! وكلتاهما في حاجة إلى هداية الله!

ونعود إلى الآية القرآنية نستلهمها إشاراتها الدافقة، وحقائقها ذات الدلالة..

إن خلق السموات والأرض قد نشأت عنه حركة معينة في هذا الكون، هي اختلاف الليل والنهار..

ولئن كانت الحقيقة الأولى تنفذ إلى النفوس الواعية من أحد منافذها الكبرى، وهي الضخامة المعجزة في هذا الكون وما يدل عليه ذلك من عظمة الخالق، الذي يخلق تلك الأجرام الهائلة المبثوثة في السموات، فإن الحقيقة الثانية - وهي اختلاف الليل والنهار - لتنفذ إلى النفوس الواعية من منفذين في آن واحد: منفذ الحركة - حركة الأحداث في هذا الكون - ومنفذ الدقة المعجزة في خلق الكون. فإن انتظام الأفلاك، الذي ينشأ منه تعاقب الليل والنهار له دلالته الخاصة، المضافة إلى القدرة على الخلق، وهي القدرة على التنظيم الدقيق لهذا الكون، بحيث لا يختل مرة، فيكون فيه نهار بلا ليل، أو ليل بلا نهار. وتلك دلالة أخرى على عظمة

---

(١) سورة لقمان: ٢٥.

الخالق وأنه متفرد بهذه العظمة لا يشاركه فيها أحد في الوجود كله.

وتمضي الآية تعدد آيات القدرة الربانية..

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ..﴾.

إن الفلك التي تجري في البحر هي من صنع البشر في ظاهر الأمر. ولكنها ما كانت لتوجد لولا الخواص التي أودعها الله في الماء من ناحية، وفي المواد التي تصنع منها الفلك من ناحية أخرى، والتي تجعل الفلك محمولة على الماء لا تغوص فيه. ولذلك يمن الله على البشر في موضع آخر (في سورة يس) فيقول: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾[1].. فالإنسان - وكل ما يعمل - هو من خلق الله من ناحية، وكذلك فإن الخواص المودعة في المادة، والتي تجعل في إمكان البشر أن يصنعوا الفلك التي تجري في البحر، هي من خلق الله، ولولا خلق الله لها ما استطاع الإنسان أن يصنعها.

والآية لا تشير فقط إلى جريان الفلك في البحر، الذي ينفذ إلى النفس من منفذ الحركة - وهي من الأمور التي تلفت الحس البشرى بشدة وتوقظه من غفلته - ولكنها تنفذ من منفذ آخر هو المصلحة! فإنها تجري في البحر بما ينفع الناس. وهذا يذكرهم بفضل الله عليهم. فالأشياء التي تنفع الناس هي من خلق الله، وحملها في الفلك حتى تصل إلى الناس هو كذلك من خلق الله. فهو فضل مزدوج يستحق من العباد أن يشكروا ربهم عليه، لا أن يجحدوه ويعبدوا سواه.

ونقلة أخرى تنقلنا إلى مشهد آخر.

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾

إنها إشارات متواكبة متوالية تقرع الحس بشدة لتلفته إلى ما كان غافلا منه..

فإنزال الماء من السماء آية، وإحياء الأرض الميتة بهذا الماء آية، وبث الدواب في الأرض بعد إحيائها بالماء آية.. وكلها آيات تنفذ إلى النفس من منافذ شتى في آن واحد. من منفذ الدقة المعجزة في الكون، ومن منفذ الحركة المتدفقة، بالإضافة إلى القدرة على الخلق، فتتواكب الآيات لتهز الوجدان، وتنفض عنه غفلته إن كان من الغافلين..

وحين يتبلد الحس فإنه يرى المشاهد كلها يمر عليها في بلادة كأنها غير موجودة..

(١) سورة يس: ٤١، ٤٢.

أما حين يعرضها النص القرآني على هذه الصورة، فهل يملك الحس أن يفلت من تأثيرها أو يتجاهلها، إلا أن يكون حسا مغلقا في قلب مريض؟!

فالمطر لا ينزل من تلقاء نفسه! إنما هو مخلوق من مخلوقات الله يخضع لأمره، ويسير حسب سننه، ولو شاء الله لجعله على صورة أخرى فلا يملك البشر أن ينتفعوا به:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾(١).

وإحياء الأرض الميتة بالماء لا يحدث من تلقاء نفسه! فلولا خاصية أودعها الله في الماء، وخاصية أودعها في الأرض، ما أنبتت حين ينزل عليها الماء:

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(٢).

ولا تقتصر قدرة الله على إحياء الأرض بالماء فحسب، وهي في ذاتها قدرة معجزة، ولكن الله القادر، الرزاق الوهاب، يبث في تلك الأرض بعد إحيائها ألوانا شتى من الدواب، تأتي لتأكل ما أنبتت الأرض، ويتضاعف بها الرزق للإنسان، فالماء رزق، والنبات رزق والدواب التي تأكل النبات رزق. كله من خلق الله، وكله فضل يتفضل الله به على العباد.. أفيحق للإنسان بعد ذلك أن يعبد من دون الله ما لا يخلق ولا يرزق ولا يضر ولا ينفع؟

وتستمر الآية تعرض معجزات القدرة معجزات الخلق..

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

إن الرياح آية من آيات الله.. إنها لا تتحرك من ذات نفسها! إنما الله هو الذي يصرفها.. هو الذي يحدد لها وجهتها ومسارها..

وقد عرفت الجاهلية المعاصرة القوانين التي تحكم حركة الرياح، ولكنها غفلت عن خالق الرياح، وخالق تلك القوانين التي تسيرها.. ومع ذلك فالرياح لا تسير دائما حسب ما يتخيلون من حركتها بحسب تلك القوانين، فهي تفاجئهم بين الحين والحين مفاجآت لا تعليل لها عندهم.. ولا تعليل لها في الحقيقة إلا مشيئة الله!

والسحاب كذلك من آيات الله.. سواء تعليقه بين السماء والأرض، أو تسخيره

(١) سورة الواقعة: ٦٨ – ٧٠.

(٢) سورة الحج: ٥.

ليقوم بالمهام التي خلقها الله من أجله.

وفي آية واحدة من سورة واحدة يتم هذا الحشد الهائل من الإيقاعات التي يتلقاها القلب البشرى فلا يملك ألا يتأثر بها، ولا يملك - في حالته السوية - ألا يستجيب.

وكلها مشاهد يراها الإنسان على الدوام معروضة أمامه، ولكنه في أحواله العادية قد لا يفكر فيها ولا يتدبرها، أو قد ينسبها في غفلته - كما تصنع الجاهلية المعاصرة - إلى الطبيعة! فلا تؤدى في حسه ما ينبغى أن تؤديه من إيقاظ الفطرة إلى حقائق الوجود، وبالذات إلى الحقيقة الكبرى في هذا الوجود: حقيقة الألوهية، وحقيقة القدرة المعجزة التي أوجدت هذا الكون كله، وأجرت فيه ما أجرت من أحداث وأمور.

ولكن السياق القرآني يزيل هذه الغفلة بأكثر من وسيلة.

فهو بادئ ذى بدء يرد الأمور كلها، ويرد الخلق كله، إلى مصدره الحقيقى، إلى الله الذي خلق كل شيء، ويدبر كل شيء.. إلى الله الذي لا إله غيره: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[1].

ثم هو يبث الحركة في المشاهد التي يعرضها، فلا تصل إلى الحس ساكنة خامدة، كالمعلومات الذهنية التي تسكن في الذهن ولا تحرك الوجدان. إنما تصل في تتابع حى متحرك، يجعل الخيال يتابع حركتها واحدة إثر الأخرى، حتى ينتهي عرض الشريط بالكامل، والخيال هو الرسول إلى الوجدان، يحركه من مكمنه، فينفعل بالحدث أو المشهد، فيصبح الحدث أو المشهد جزءا من محتوى النفس، يؤثر فيها من داخلها، وليس شيئا خارجا عنها تملك ألا تلتفت إليه أو تنصرف عنه!

ثم يأتي الإعجاز البيانى فيشارك في التأثير، حين يرسم بالألفاظ لوحة كاملة، حية متحركة، يتملاها الخيال وينفعل بها الوجدان، كأنما هي صور متحركة لا مجرد ألفاظ.

وتتواكب التأثيرات كلها لتؤدي الهدف المطلوب، وهو إيقاظ القلب الغافل ليتوجه إلى الله..

ولكن التأثير عرضة لأن يخفت بعد حين، وتبرد حرارته في الحس، نتيجة انشغال الإنسان في حياته الدنيا بأمور كثيرة تتعلق بحياته على الأرض، سواء كانت بحثا عن الرزق في مناكب الأرض، أو استمتاعا، بشيء من متاع الحياة الدنيا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ

(١) سورة البقرة: ١٦٣.

وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾[١]

ويحتاج الإنسان دائمًا إلى التذكير، وإعادة التذكير..

ولو ذكرناه بذات النص الذي أثار انفعاله من قبل، فلن يكون له في حسه في المرة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ما كان له في أول مرة، فمن طبيعة الإنسان إزاء الشيء المكرر أن يقل إحساسه به في كل مرة عن سابقتها، حتى يمر به يوما فلا يحس به، كأنه غير موجود!

والخالق العليم الخبير يعلم منه ذلك! ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٢].

لذلك يذكره - في كل مرة - بنص مختلف عن سابقه!

وتختلف النصوص بعضها عن بعض أنواعًا مختلفة من الاختلاف. مرة في ترتيب المعروضات في النص فيحدث فيها تقديم وتأخير. ومرة بالتفصيل في بعض الجزئيات والإجمال في بعضها الآخر، ومرة في الجو النفسي الذي تعرض فيه ما بين جو الرضا وجو الغضب، وجو الترغيب وجو الترهيب، مما أشرنا إلى بعضه في الفصل السابق، ووعدنا بمزيد من الحديث عنه في هذا الفصل والذي يليه.

وخذ مثلاً النص الذي ذكرناه آنفًا، وراجع المعلومات الواردة فيه: إنها خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر، والماء النازل من السماء ليحيي الأرض، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض.

وانظر في كل واحدة من هذه المعلومات كيف ترد في نصوص أخرى..

خذ خلق السموات والأرض (ومعها في أحيان كثيرة اختلاف الليل والنهار):

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٣].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.

(٢) سورة الملك: ١٤.

(٣) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٤) سورة إبراهيم: ١٩، ٢٠.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(١).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾(٢).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٣).

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(٤).

كل نص من هؤلاء - والنصوص غيرها كثير - يذكر السموات والأرض في معرض مختلف عن الآخر.

ففي النص الأول (من سورة آل عمران) يصف أولي الألباب بأنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض، فينتهي بهم التفكر إلى أن الحياة الدنيا ليست هي نهاية المطاف، وأن هناك بعثا ونشورا، وجنة ونارًا، فيتوجهون إلى الله أن يقيهم عذاب النار.

وفي النص الثاني (من سورة هود) يذكر الهدف من خلق السموات والأرض﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

وفي النص الثالث (من سورة إبراهيم) يذكر خلق السموات والأرض في جو التهديد للكافرين بأن الذي في قدرته أن يخلق تلك السموات والأرض قادر على أن يذهبهم ويأتي بخلق جديد.

وفي النص الرابع (من سورة الجاثية) يذكر خلق السموات والأرض بالحق، ويترتب عليه جزاء كل نفس بما كسبت دون ظلم يقع على أحد.

---

(١) سورة الجاثية: ٢٢.

(٢) سورة الروم: ٨.

(٣) سورة السجدة: ٤-٦.

(٤) سورة فصلت: ١١، ١٢.

وفي النص الخامس (من سورة الروم) يذكر إلى جانب خلق السموات والأرض بالحقّ أنها موجودة إلى أجل مسمى، هو يوم القيامة، ويذكر إلى جانب ذلك أن كثيرًا من الناس يكفرون بلقاء الله في ذلك الأجل المسمى.

وفي النص السادس (من سورة السجدة) يذكر إلى جانب خلق السموات والأرض، الدال على تفرد الله بالخلق، وقدرته التي لا تحد، نفي الشفاعة عن الآلهة المزعومة التي لا حول لها ولا طول. ثم يذكر أمر آخر: أن الأمر يتنزل من السماء إلى الأرض ثم يعرج إلى الله مرة أخرى فيما يوازى ألف سنة مما يعد البشر، مما يدل على سعة الكون، وقدرة الله المعجزة التي تخلق كونا واسعا بهذا القدر.

وفي النص السابع (من سورة فصلت) معلومات جديدة عن خلق السموات والأرض، أنهما مسخرتان بأمر الله لا تحيدان عن أمره، وأن السماء كانت في منشإ أمرها دخانا. وأن الله خلق من هذا الدخان سبع سموات، ثم أوحى في كل سماء ما هي مخلوقة من أجله، وأمرها الذي قدر لها أن تسير عليه. وأنه زين السماء الدنيا بمصابيح - هي الشمس والقمر والنجوم - وأن بعض ما تشتمل عليه - وهو الشهب- من مهامه حفظ السماء من محاولات الشياطين استراق السمع والاطلاع على الغيب..

وهكذا يتجدد العرض في كل مرة، ويكون لخلق السموات والأرض في كل مرة شأن غير شأنها السابق في النص الآخر، فيتجدد المشهد، ويتجدد التأثير، وينتفي التكرار الذي يؤدى إلى تبلد الحس على المشهد المكرر!

وخذ الجزئية الخاصة باختلاف الليل والنهار.. إنها ليست صورة واحدة ولكنها صور شتى:

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾(١).

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾(٢).

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾(٣).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ

(١) سورة آل عمران: ٢٧.
(٢) سورة الأعراف: ٥٤.
(٣) سورة يس: ٣٧.

الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا﴾(٢).

فأنت مع الليل والنهار في جميع هذه الآيات – وكثير أمثالها - ولكنك في كل مرة في معرض غير الآخر وفي مشهد غير الآخر - ففي الآية الأولى أنت مع عملية متدرجة يدخل فيها الليل في النهار رويدًا رويدًا، ويدخل النهار في الليل كذلك بالتدريج. ولكنك في الآية الثانية مع مشهد مختلف فالليل يغشى النهار ولكن في حركة تشبه السباق أو الملاحقة؛ فالليل يلاحق النهار ليدركه أو يسبقه، ولكنه يظل في طلبه في حركة دائبة لا تنتهي، وهذا يمثل دوران الليل والنهار على سطح الكرة الأرضية. بينما كان المشهد في الآية الأولى يمثل بقعة واحدة منها، في اللحظات التي يتداخل فيها الليل والنهار ثم تنتهي بدخول أحدهما في الآخر واختفاء الأول من المشهد. وفي الآية الثالثة مشهد مختلف تماما عن المشاهد الأخرى كلها التي يرد فيها ذكر الليل والنهار ثم تنتهي بدخول أحدهما في الآخر واختفاء الأول من المشهد. وفي الآية الثالثة مشهد مختلف تماما عن المشاهد الأخرى كلها التي يرد فيها ذكر الليل والنهار، يناسب جو الغضب الذي ينصب في السورة على الكافرين المعاندين، وهو مشهد سلخ النهار من الليل، فإذا النور يختفي فجأة والليل يسوده الظلام(٣). أما الآية الرابعة فهي تخيل مشهدا غير موجود في الحقيقة وهو النهار السرمدى الذي لا يتلوه ليل، والليل السرمدى الذي لا يتلوه نهار، والذي يعرض لبيان فضل الله ورحمته بالناس، الذي جعل الليل والنهار خلفة، يخلف أحدهما الآخر، فيتيح للناس فترة للعمل والنشاط، وفترة للسكون والراحة. ولولا ذلك لتحولت الحياة إلى عذاب دائم، سواء في الليل السرمدى الذي لا ضياء فيه، أو النهار السرمدى الذي لا سكن فيه. وأما الآية الخامسة فتعرض مشهدًا مختلفًا فالليل والنهار آيتان، ولكن آية الليل محيت! وهذا تصوير لكون الليل مظلما من ذات نفسه، إنما هو صار هكذا لأن الله الخالق محاه، بينما جعل الله النهار مبصرا.. جعله.. فهو ليس منيرا من ذات نفسه، ولكن بجعل الله له على هذه

(١) سورة القصص: ٧١ – ٧٣.

(٢) سورة الإسراء: ١٢.

(٣) راجع ما قلناه عن هذا المشهد في الفصل السابق.

الصورة. وفي ذلك تذكير بأن الأشياء كلها تأخذ وضعها الذي هي عليه بتقدير الله وتدبيره، وليس من ذات نفسها كما يبدو للإنسان حين يغفل عن الحقيقة الكبرى، وهي أن الله خالق كل شيء، ومعطى كل شيء هيئته التي هي عليه، لا بحتمية مادية، ولا بحتمية تاريخية كما يزعم التفسير المادى، وأن الهيئة التي عليها كل شيء ليست هي الصورة الوحيدة التي كان يمكن - نظريا - أن تكون عليها - إنما هي الهيئة التي اختارها الله لها بحكمته ومشيئته وعلمه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1].

أما الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، فهي كذلك ترد في مناسبات شتى، ولأهداف مختلفة:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾[2].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾[3].

﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[4].

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5].

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[6].

فأنت في تلك النصوص كلها- وغيرها كثير- مع الفلك. ولكنك معها في كل مرة في مـــشهد مختلف، له في كل مرة تأثير في النفس مختلف. فأنت في الآية الأولى مع حقيقة

---

(١) سورة طه: ٥٠.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٢.

(٣) سورة الشورى: ٣٢ -٣٤.

(٤) سورة يونس: ٢٢، ٢٣.

(٥) سورة النحل: ١٤.

(٦) سورة الزخرف: ١٢ - ١٤.

مـــن حقائق الألوهية وحقائق الوجود، وهي تسخير الله للفلك لتجري في البحر بأمره. وهـــي من الحقائق الكثيرة التي يغفل الحس عنها حين يغفل عن الدلالات الكامنة في كل شيء في الوجود. فلولا التسخير من عند الله ما جرت الفلك في البحر مهما حاول البشر. فهـــم لا ينشؤون شيئا من عند أنفسهم، لا المادة التي تصنع منها الفلك، ولاالقوانين(أو فلنقل السنن الربانية) التي جعلها تجري في البحر. ثم إنها في كل مرة تجري بأمر الله ولو لم يصدر الله لها الأمر ما جرت: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[١].

وأنت في الآية الثانية مع سنة أخرى من سنن الله في الكون، وهي إجراء الريح التي تدفـــع الفلك في البحر فتجري، وكان يمكن أن يجعل الله الريح ساكنة فلا تجري الفلك. والإشارة بالطبع هي إلى الفلك الشراعية التي كانت تعتمد على الريح. ولقد يظن الإنسان في الجاهلية المعاصرة أنه قد تغلب على أمر الله، واستغنى عن الريح فلم يعد يعتمد عليها في تسيير السفن العملاقة التي تمخر العباب! ومثل هذا الإنسان- في جاهليته- يغفل عن أن تلك السفن تمخر العباب بسنة من سنن الله، علمها الله للإنسان، ولولا أن الله علمها للإنـــسان، وسخر له الطاقة التي يعمل بها ما تم له شيء مما قام بعمله. ومع ذلك، فالآية الثانية تدركه وهو في أوج انتفاخه وغروره وقوله كما قال قارون من قبل: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَـــى عِلْـــمٍ عِنْدِي﴾[٢]. فتقول له إن الله قادر- إذا شاء- أن يهلك تلك السفن عقابا لأهلها.. وكم من سفينة جبارة ظن أهلها أنهم قادرون عليها، فأوبقها الله بقدرته. ليفيء الإنـــسان مـــن غروره، ويعلم أنه يعمل كل شيء بتسخير من الله، لا بعلمه الذاتي، ولا بقدرة ذاتية غير مستمدة من عند الله.

وأنت في الآية الثالثة مع حالة من الحالات التي تعرض للإنسان في مجرى حياته حين يكون بعيدا عن الهدى الرباني. فهو في ساعة الشدة وساعة الخطر يلجأ إلى الله، وينكشف الغطاء، ويوقن الإنسان ألا ملجأ منه إلا إليه، فيتوجه إليه بالضراعة، واعدًا أنه إذا أنجاه الله من الكرب فسيكون من الشاكرين! فإذا قدر الله له النجاة فسرعان ما ينسى الخطر والشدة ويقول في غفلته: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾![٣]. فينسى وعده أو يتناساه، ويلج فيما كان غارقًا فيه من الغواية: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[٤]..

(١)سورة القمر: ٤٩.

(٢) سورة القصص: ٧٨.

(٣) سورة هود: ١٠.

(٤) سورة هود: ١٠.

وأنت في الآية الرابعة في معرض أنعم الله على الإنسان، التي ينساها الإنسان في غفلته، ويذكره القرآن بها ليشكر الله على نعمه. ويأتي من بين هذه النعم جريان الفلك في البحر، وابتغاء الناس من فضله عن هذا الطريق. إشارة إلى ما تقوم به السفن من حمل الأرزاق من مكان إلى مكان.

وفي الآية الخامسة توجيه في الاتجاه نفسه- وهو وجوب شكر الله على نعمه وأفضاله- ولكنه يأخذ صورة مختلفة، فهو يصور استواء الناس على ما سخر الله لهم من أدوات الركوب، سواء كانت من الأنعام التي سخرها الله للسفر في البر، أو من السفن التي سخرها للسفر في البحر، مع تلقينهم صورة معينة لشكر الله على هذه النعمة بالذات، وهي أن يقولوا حين يستوون على ظهر الدابة أو على ظهر الفلك: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾. وبذلك يشكرون الله على النعمة، ويذكرون أنفسهم أنهم حيثما ذهبوا فهم في ملك الله، وفي سلطان الله، وأنهم في النهاية راجعون إلى الله.

وهي كما ترى أجواء مختلفة، وحالات مختلفة، يتم من خلالها توجيه القلب البشرى إلى الله.

وأما الماء النازل من السماء، فله كذلك مجالاته المختلفة، وتوجيهاته المختلفة.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾(٢).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٣).

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

ففي الآية الأولى، يذكر ظاهرة الإنبات التي تنشأ عن نزول الماء من السماء، ولكن السياق يحوى في داخله إشارات مختلفة، كلها يخدم الهدف الأخير من إيراد هذه الآيات كلها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي أنها دعوة للإيمان الصحيح، الإيمان بالله وحده بلا شريك. وقد أشرنا إلى هذه الآية بالذات في الفصل السابق، في معرض الحديث عن التنويع، وذكرنا كيف يدل السياق على التنويع باللفظ المباشر، ثم بتنويع الأسلوب ذاته، ليعطى جو التنويع بالإيحاء، بالإضافة إلى الذكر الصريح.. ويلفت النظر هنا أن السياق لم يدخل إلى الوجدان من باب المصلحة أي من باب الفوائد التي يجنيها الإنسان من نزول المطر، ولكن من باب الجمال.. ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾(٣)! فقد خلق الله الكون جميلا، وخلق في الإنسان حاسة تتذوق الجمال وتعجب به. ومن خلال هذه الحاسة يوقظ الوجدان، ليتعرف على قدرة الله وعظمته، ليتوجه له بالعبادة. فللجمال في الكون، وللإحساس به عند البشر هدف مقصود: أن يتعرف الناس على ربهم تعرفا شاملا يشمل كل الجوانب، ولا يغادر جانبا لا يلم به. فانظر إلى الإنسان المؤمن كيف يكون الجمال في الكون دعوة له لعبادة الله، والإنسان الجاهلى يتخذ الجمال فتنة فيعبده من دون الله! أو ينحرف به عن العبادة الحقة لله!

وفي الآية الثانية يشير إلى ثلاثة أمور كونية في آن واحد: الأمر الأول هو الرياح اللواقح التي تكثف السحاب وتدفعه فينزل منه الماء. والأمر الثاني هو سقيا البشر من هذا

---

(١) سورة النحل: ١٠، ١١.

(٢) سورة الروم: ٤٨ -٥٠.

(٣) سورة الأنعام: ٩٩.

الماء، وهو أمر تتوقف حياتهم عليه. والأمر الثالث هو عجز البشر عن اختزان هذا الماء، ولقد يبدو لإنسان الجاهلية المعاصرة أن هذا الأمر الأخير لم يعد واردا بعد تمكن الإنسان من إنشاء الخزانات الضخمة التي تختزن الماء! وأن الإنسان قد توصل بعلمه وقدرته إلى أن يشارك الله في قدرته! وحقيقة، إن الله قد علم الإنسان ومكنه من تخزين بعض ما يجريه الله من المطر في صورة أنهار. ولكن الجزء الأكبر من الأمطار التي تنزل على الأرض إما ذاهب إلى البحار والمحيطات، وإما متبخر بفعل حرارة الشمس، وإما متسرب إلى باطن الأرض، وكله ينطبق عليه النص: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[1]!

وفي الآية الثالثة أشار إلى الماء الذي يتسرب إلى باطن الأرض ثم يخرج على هيئة ينابيع، تسقى الأرض فيخرج منها زرع مختلف ألوانه.. وذلك في معرض تذكير الناس، بمآل المتاع الأرضي، ثم يصير حطامًا لكي لا تفتنهم الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، ونعيم خالد أو شقاء.

وفي النص الرابع يشير إلى السقيا وإنبات الزرع، وإلى معجزة الخلق، التي تخلق الأنواع كلها التي تسقى بماء واحد، فتخرج مختلفة الأشكال والألوان والطعم والمذاق.

وفي النص الخامس يذكر برحمة الله التي تنزل الغيث على الناس بعد ما يكونون قد قنطوا من انقطاع المطر وأصابتهم الشدة من الجفاف، وذلك في معرض تذكيرهم بأن الذي يحيي الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الموتى، وهو ما كان المشركون يستبعدونه تماما ويرونه مستحيلا.. فيقربه إليهم بقياسه إلى ما يرونه أمامهم من آيات القدرة الربانية، وأنه لا فرق - من حيث القدرة - بين إحياء الأرض الميتة وإحياء الموتى، فالذي يقدر على هذه يقدر على تلك.

وفي الآيات كلها أنت مع الماء النازل من السماء، ولكنك في كل مرة مع مشهد مختلف، وتوجيه مختلف!

يأتي في آية البقرة (١٦٤) بعد ذلك تصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض. ونكتفي بشأن الرياح بالنماذج السابقة التي ورد فيها ذكر الرياح اللواقح، والريح الطيبة، والريح العاصفة، والريح الساكنة، وإن كانت النماذج في كتاب الله كثيرة. وننتقل الآن إلى السحاب المسخر بين السماء والأرض:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ

---

(١) سورة الحجر: ٢٢.

مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾(١).

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾(٢).

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾(٣).

﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾(٤).

﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٥).

في الآية الأولى يصف الله سبحانه وتعالى كيفية تكون السحاب التراكمى بمراحله المختلفة، وذلك في وقت لم يكن أحد قد صعد إلى الأجواء العليا ولا علم شيئا عن تراكم السحاب. وذلك أمر سنشير إليه مرة أخرى في حديثنا عن الإعجاز العلمى.

وفي النص الثانى يجئ ذكر السحاب مع ما يصحبه من رعد وبرق وصواعق، في معرض القدرة الإلهية من ناحية، وجدال الكفار حول الألوهية من جهة أخرى، لبيان تهافت هذا الجدل وقيامه على غير أساس.

وفي الآية الثالثة يجيء ذكر السحاب جزءا من لوحة الظلام المطبق التي تحدثنا عنها في الفصل الماضى، في المواجهة الرائعة بين أنور نور وأظلم ظلام.

وفي الآيتين الرابعة والخامسة إشارة إلى إرسال الله للرياح فتثير السحاب الذي يصرفه الله كيف يشاء. ولكنا نلاحظ التنويع بين قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا..﴾ وقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ

(١) سورة النور: ٤٣.
(٢) سورة الرعد: ١٢، ١٣.
(٣) سورة النور: ٤٠.
(٤) سورة الروم: ٤٨.
(٥) سورة فاطر: ٩.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا..﴾. والاختلاف مقصود للتنويع كما أشرنا في الفصل السابق. ولكن الآية الأخيرة فيها إضافة أحدثها تغير زمن الفعل (مضارع في الأولى وماض في الثانية). فقوله تعالى:.. ﴿أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ تفيد أن من شأن إرسال الرياح أن تثير سحابا. كأنما أوكل الله إلى الرياح أن تقوم بهذا الأمر، تكليفا منه سبحانه وتعالى. فحين يرسل الله الرياح تقوم هي بما كلفها الله به، فتثير السحاب! وهذا وذاك من أمر الله وتدبيره، ولكن التنويع يضيف إلى المشاهد غنى، ويجدد تأثيرها في النفس وإن تشابهت الألفاظ..

ولقد كنا حتى هذه اللحظة في مناسبة نص واحد من النصوص القرآنية التي تعرض آيات الله في الكون، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]. وتطرق بنا الحديث عن هذا النص الواحد إلى النماذج المتعددة التي تتحدث عن المفردات الواردة في هذا النص الحاشد. ولكن هذا النص ليس هو الوحيد في كتاب الله في شموله لآيات عدة من آيات القدرة الربانية.. ولو ذهبنا نتتبع كل النماذج لتشعب بنا الحديث أكثر. إنما أردنا فقط بإيراد هذا النص أن نفتح الباب للتأمل في تنوع المشاهد وتعددها حتى وإن بدت لأول وهلة مكررة، وتعدد الأجواء التي تعرض فيها المشاهد، وكيف أنها تعطي في كل مرة تأثيرًا مختلفًا في النفس، وإيقاعًا مختلفًا على أوتار القلب، فيظل القلب في تلق دائم لتلك الإيقاعات التي تجيئه من كل صوب، وتدخل إليه من كل مدخل، فلا يملك أن يتجاهلها أو ينصرف عن دلالتها..

ولكن مداخل النفس كثيرة كما أسلفنا. وكل الأمثلة التي أشرنا إليها حتى الآن هي في مجال آيات الله في الكون، سواء من جهة الضخامة المعجزة في هذا الكون، أو الدقة المعجزة فيه. ولكن القدرة الربانية لها مجالات متعددة، وليست مجالا واحدًا. وكلها مؤثر. وكلها موقظ للفطرة، لا يدع لها مجالا لأن تغفل عن الحقيقة العظمى في هذا الوجود، وهي حقيقة الألوهية.

وقد أشرنا من قبل إلى ظاهرة الموت والحياة، وقلنا إنها من أشد ما يوقظ الفطرة

---

(١) سورة البقرة: ١٦٤.

إلى حقيقة الألوهية، بعد الإعجاز البادى في الكون المادى سواء بضخامته أو دقته التي تروع الحس البشرى.

ونجد في المقابل - في كتاب الله - عناية واضحة بإبراز هذه الظاهرة، والدخول بها إلى أعماق القلب الإنسانى لتهزه من أعماقه، وتوقظه من سباته.

فالله سبحانه وتعالى - بادئ ذى بدء- يصف نفسه بأنه ﴿الْحَيّ﴾ ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾..

ثم يصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه هو الحى المميت. وتتعدد مشاهد الإحياء والإماتة فتشمل البشر، والكائنات الحية الأخرى من الدواب والنبات، كما تشمل الأرض التي تكون ميتة فيحييها الله بالماء النازل من السماء، ويبث فيها ألوانا مختلفة من الحياة، من دواب وزروع وأشجار.

ثم تركز النصوص القرآنية كثيرا على خاصية الإحياء - التي هي خاصية إلهية- لتثبت قدرة الله على إحياء البشر يوم القيامة بعد أن يكونوا قد أصبحوا عظاما ورفاتا. وتأخذ هذه القضية حيزًا واسعًا في النصوص القرآنية في مقابل الإنكار الشديد الذي كان العرب المشركون يواجهون به قضية البعث والنشور والحساب والجزاء حتى قالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾(١).

ويجيء التركيز على ظاهرة الإحياء والإماتة تارة بتعبير مباشر، وتارة في مشهد من مشاهد الحياة الدنيا، وتارة في مشهد من مشاهد القيامة، وفي جميع الأحوال نلحظ التنويع الواضح في النصوص، كما نلحظ الإحاطة بالقلب البشرى من جميع منافذه في هذه القضية كما في غيرها من القضايا، بحيث لا يملك أن يفلت من التأثر إلا أن يكون الران قد علاه كالصدأ، فلم يعد يستجيب.

ونأخذ الآن في ذكر بعض الأمثلة لما قلناه، وهي غيض من فيض..

﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(٢).

﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(٣).

---

(١) سورة سبأ: ٧، ٨.

(٢) سورة غافر: ٦٥.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٥.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾(١).

هذا في باب تعريف الناس بربهم.. أنه هو الحي بذاته سبحانه وتعالى. الحي الذي لا يستمد الحياة من غيرها، لأنه هو الحي القيوم. الحي الذي لا يدركه الفناء ولا الموت:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾(٢).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾(٣).

ولا يحتاج الحس البشرى إلى جهد ليدرك معنى هذه الخاصية من خواص الله سبحانه وتعالى. فهو يدرك بالممارسة الواقعية أن الكائنات كلها تموت، فإذا كان هناك من هو حى دائم الحياة، لا يموت أبدا، فهو الإله الذي ليس كمثله شيء، وهو الذي تتعين عبادته وحده بلا شريك، لأنه هو المتفرد بالحياة والدوام، كتفرده بالقدرة وبالتدبير.

ثم يفيض القرآن في الحديث عن الخاصية الأخرى التي يتفرد بها الله كذلك، وهي خاصية الإحياء والإماتة:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾(٤).

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾.. (٥).

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾(٦).

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(٧).

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾(٨).

وهذا إخبار مباشر بأن الله يحيي ويميت، وأنه - وحده - هو الذي يحيي ويميت.

ولكن الإخبار يأتي أحيانا في مشاهد معروضة لا في تعبير مباشر:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ

(١) سورة الفرقان: ٥٨.
(٢) سورة القصص: ٨٨.
(٣) سورة الرحمن: ٢٦، ٢٧.
(٤) سورة يونس: ٣١، الروم: ١٩.
(٥) سورة يس: ٣٣.
(٦) سورة ق: ٤٣.
(٧) سورة غافر: ٦٨.
(٨) سورة الحديد: ٢.

لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١]

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[٣]

وفي هذا المثال الأخير يفصل الله أطوار الجنين، مما سنعود إليه في الحديث عن الإعجاز العلمي. ولكنا نشير هنا إلى أن هذه الأطوار يعبر عنها في آيات أخرى بأنها موت ثم حياة، في مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤].

كما يجيء ذكر الإحياء والإماتة في معرض التعبير عن قصر الحياة الدنيا وسرعة انقضائها في مثل هذا المشهد المؤثر: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥].

وفي جميع الحالات، سواء كان التعبير مباشرًا أو من خلال مشهد من المشاهد، فإن قضية الموت والحياة تأخذ حيزا كبيرا في كتاب الله، لأن الله يعلم أنها قضية ذات شأن عميق

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) سورة البقرة: ٧٢، ٧٣.

(٣) سورة المؤمنون: ١٢ – ١٦.

(٤) سورة البقرة: ٢٨.

(٥) سورة يونس: ٢٤.

في الحس البشرى، وأنها من موقظات الفطرة، التي توقظها لتتعرف على الله وتتوجه إليه.

ولكن القضية تستخدم في كتاب الله هدف آخر، بالإضافة إلى التأثير الوجدانى الذي تحدثه في النفس، وتربط به القلب البشرى بالله. إنها تستخدم على نطاق واسع للتدليل على قدرة الله على بعث الموتى، ليحاسبوا على ما اكتسبوا في حياتهم الدنيا من خير أو شر.. وكانت هذه القضية كما أسلفنا من أشد ما وقعت بين المشركين وبين الإيمان بما أنزل إليهم من عند الله، وحسبانه من الأساطير، أو من السحر، أو من الكذب الصراح!

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾(١).

﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾(٢).

﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾(٣).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(٤).

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾(٥).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٦).

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾(٧).

وكان رد القرآن عليهم غاية في البساطة، وغاية في الوضوح، وغاية في استقامة المنطق، لولا أن الأمر في حسهم كان أعجب من أن يصدقوه، واحتاج إلى التذكير المستمر، والمناقشة المستمرة، حتى استقر في العقول والقلوب، وصار في النهاية يقينا لا يقل في قوته ووثاقته عن اليقين بوجود الله.

(١) سورة المؤمنون: ٣٥ - ٣٨.
(٢) سورة الصافات: ١٥، ١٦.
(٣) سورة مريم: ٦٦.
(٤) سورة النمل: ٦٧، ٦٨.
(٥) سورة الإسراء: ٤٩.
(٦) سورة يس: ٧٨.
(٧) سورة السجدة: ١٠.

كان الرد القرآني الواضح البسيط: أن الذي خلق أول مرة لا يعجز عن إعادة الخلق، بل هو أهون عليه!

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٣).

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٤).

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٥).

هكذا كانت القضية في غاية الوضوح. ولكنها - مع وضوحها - احتاجت إلى مجاهدة طويلة حتى استقرت. ذلك لأن حقيقة الخلق الأول - وهي الركيزة الرئيسة في النقاش حول قضية البعث - لم تكن تحتل في نفوس المشركين مساحتها الحقيقية التي ينبغي أن تأخذها. إنها أمر واقع، نعم! وهم لا ينكرونها: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾(٦). ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾(٧). ولكنها حقيقة ميتة باردة في حسهم، لا نبض فيها ولا إشعاع، لأن نفوسهم قد أكلها الصدأ، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فلم تعد الأصداء الحقيقية لحقائق الوجود تصل إليهم، سواء من ناحية تفرد الله بالألوهية وما يقتضيه ذلك من إفراد الله بالعبادة، فلا يعبد غيره، أو من ناحية الإيمان بالبعث حين يخبرهم به الوحي المنزل، ويدلل لهم عليه بأن الذي خلق أول مرة قادر على إعادة الخلق.. ولو كانت قضية الخلق من العدم - التي ذكرهم بها مرات

---

(١) سورة الروم: ٢٧.

(٢) سورة يس: ٨١.

(٣) سورة يس: ٧٨، ٧٩.

(٤) سورة الإسراء: ٥٠، ٥١.

(٥) سورة ق: ١٥.

(٦) سورة لقمان: ٢٥.

(٧) سورة الزخرف: ٨٧.

ومرات - تأخذ في حسبهم مساحتها الحقيقية، ما احتاجوا إلى كل ما احتاجوا إليه من نقاش حول قضية البعث، مهما كانت غرابتها عليهم في الوهلة الأولى. فإن خلق أبسط الكائنات، فضلا عن الإنسان، فضلا عن السموات والأرض هو أمر معجز لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى. فإذا أقروا أن الله هو الخالق- كما كانوا يقرون بالفعل - فما وجه الإنكار بالنسبة للنشأة الثانية؟!

إنها الجاهلية! ولا شيء غير الجاهلية!

واعجب إن شئت للجاهلية المعاصرة - التي تدل على التاريخ كله بما أحرزته من العلم - تنكر وجود الله أصلا، وتنكر البعث كذلك، وتنكر كل ما لا تدركه الحواس.. لا لأسباب علمية ولكن لسبب وجداني بحت، هو الهروب من إله الكنيسة الذي كانت الكنيسة تستعبد الناس باسمه، وتضيق عليهم، وتضطهدهم، وتطاردهم في يقظتهم ومنامهم، وتفرض عليهم كل أنواع الطغيان: الروحى والمالى والسياسى والعقلى والعلمى.. فهربوا إلى إله لا كنيسة له ولا رجال دين، ولا دخل له بأعمال الناس في الأرض، يهيمون على وجوههم كالأنعام دون أن يحاسبهم على أعمالهم، وسموه الطبيعة ونسبوا إليه الخلق والتدبير، وإن كانوا نفوا عنه الحكمة فقال عنه دارون: (الطبيعة تخبط خبط عشواء! Nature works haphazardly).

والجاهلية العربية لم تكن تنكر وجود الله، ولا أنه هو الخالق، ولا أنه هو مدبر الأمر، ولكنها - في جهالتها - كانت تشرك به آلهة أخرى. أما البعث فموقفها منه لا يختلف كثيرا عن موقف الجاهلية المعاصرة. فهو في جانب منه ناشئ من عدم الرغبة في أن يكون هناك رقيب يحاسبهم على أعمالهم، وينذرهم بالعقاب الأليم على ما يقترفون من تصرفات خاطئة في الحياة الدنيا، سواء كانت مظالم يمارسونها، أو شهوات يغرقون في حمأتها ولا يحبون أن يقلعوا عنها. ومن ثم يهربون من الموقف بنفي البعث أصلاً، ونفي قدرة الله عليه، حتى يستريحوا من ذلك الخاطر المزعج، خاطر الحساب على ما يقترفون من أعمال، وينطلقوا مع شهواتهم بلا ضابط!

ومن قبل، قال قوم شعيب حين طالبهم نبيهم بالاستقامة في البيع والشراء، وعدم إيقاع الظلم على الناس: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[1].

فاستهجنوا منه أن يطالبهم بشيء يضبط تصرفاتهم، ويجعل لها معيارًا غير أهوائهم

---

(١) سورة هود: ٨٧.

وشهواتهم، ورفضوا الدين كله الذي جاء به شعيب عليه السلام من أجل ذلك.

كذلك استهجن مشركوا العرب دعوى البعث والنشور، والحساب والجزاء، كراهية لأن يحاسبوا، لا اعتمادا على منطق حقيقي يبرر إنكارهم.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾(٢).

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(٣)

والسبب الأول في ذلك بطبيعة الحال هو انطماس البصيرة، والغفلة التي تعطل حواس الهداية:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٤).

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾(٥).

نعم.. ولكن القرآن - المعجز - ظل يعالج هذه القلوب المنكرة النافرة، حتى آمنت بالله، وآمنت بالبعث والنشور، وتعمق الإيمان فيها حتى صنع ما يشبه المعجزات!

جريان الأحداث، سواء في الكون المادى أو في حياة البشر، من الأمور التي تروع الحس البشرى كما أشرنا آنفا، فيروح يبحث عن المحرك الذي يحرك الأحداث، كما يروح يتساءل عن دلالاتها: هل وراءها تدبير منظم. أم تحدث فوضى بلا نظام؟ وهل وراءها حكمة أم تحدث بلا حكمة ولا هدف؟!

والقرآن - المنزل من لدن خالق الفطرة، ومودع ما أودع فيها من نوازع واتجاهات ومتسربات عميقة - يلتقى مع الفطرة، فيحدثها حديثا مستفيضا عن حركة الأشياء وحركة الأحداث:

---

(١) سورة الروم: ٢٩.

(٢) سورة غافر: ٥٦.

(٣) سورة الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨.

(٤) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٥) سورة المؤمنون: ٧٣، ٧٤.

ولنعد إلى المثال الذي ذكرناه من قبل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

إن المثال الواحد قد تكون له دلالات مختلفة؛ وإيقاعات مختلفة. فقد أوردنا هذا المثال من قبل لبيان طريقة القرآن في إحياء مشاهد الكون التي قد يتبلد عليها الحس بسبب الألفة الطويلة، فيعيدها القرآن جديدة، تصدر إشعاعها وإيقاعها، فيلتقطه القلب الغافل. والآن في مجال الحركة المؤثرة التي تحرك الوجدان ليتتبعها..

ولكن المجال الذي نحن بصدده لا ينحصر في ذلك المثال، فمثله في القرآن كثير:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾(٢).

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٣).

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾(٤).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾(٥).

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ

(١) سورة البقرة: ١٦٤.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٢ - ٣٤.

(٣) سورة يس: ٣٨ - ٤٠.

(٤) سورة الزمر: ٥.

(٥) سورة الفرقان: ٤٥، ٤٦.

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وخذ نماذج من حركة الأحداث في عالم البشر:

﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾(٣).

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤).

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة النحل: ٦٨، ٦٩.

(٢) سورة آل عمران: ٢٦.

(٣) سورة الروم: ٥٤.

(٤) سورة الأنعام: ٤٤.

(٥) سورة القصص: ٧٦ - ٨٣.

﴿.. فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

أما السؤال الذي يرد على الفطرة بشأن ما يحدث من أحداث في الكون المادى وفي حياة الإنسان، فيجيب القرآن عليه إجابة مفصلة. وسنعود إلى هذه الإجابة بتفصيل أكبر عند الحديث عن الإعجاز التربوى. ولكنا هنا نوردها لبيان أبعاد هذا الأمر في مجال الدعوة إلى العقيدة الصحيحة.

إن القرآن يقول للناس ابتداء إن كل شيء يتم بقدر يقدره الله:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٢].

وإن الله إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣].

ثم إنه لا مشيئة لأحد مع مشيئة الله:

﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[٤].

وإنه لا شيء يقف في وجه المشيئة الربانية فيمنع وقوعها:

﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[٥].

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[٦].

وإن لله - مع طلاقة مشيئته - سننا يجرى بها الأحداث في الكون المادى وفي حياة البشر، ثبتها الله سبحانه بعلمه وحكمته، وجعلها غير قابلة للتبديل ولا التحويل.

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلا﴾[٧].

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٠.
(٢) سورة القمر: ٤٩.
(٣) سورة النحل: ٤٠.
(٤) سورة الإنسان: ٣٠.
(٥) سورة الطلاق: ٣.
(٦) سورة فاطر: ٤٤.
(٧) سورة فاطر: ٤٣.

﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا﴾(١).

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٢).

وإن من بين سننه في حياة البشر أنه يعطى الدنيا للمؤمن والكافر على السواء إذا اجتهدا في تحصيلها:

﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(٣).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾(٤).

ولكن تفترق سننه - بعد ذلك - ما بين المؤمن والكافر. فقد يعطى الكافر على كفره، بل يمد له في العطاء إلى حين:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٥).

أما المؤمنون فلا يعطيهم إلا إذا وفوا بالشرط:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(٦).

وأن من سننه مداولة الأيام بين الناس

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(٧).

ومن سننه التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل لحفظ الأرض من الفساد:

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى

(١) سورة الفتح: ٢٣.
(٢) سورة آل عمران: ١٣٧.
(٣) سورة الإسراء: ٢٠.
(٤) سورة هود: ١٥.
(٥) سورة الأنعام: ٤٤، ٤٥.
(٦) سورة النور: ٥٥.
(٧) سورة آل عمران: ١٤٠.

الْعَالَمِينَ﴾(١)

ثم إن الأحداث تجري في الكون المادى وفي حياة البشر لهدف وحكمة، فلا هي تجري اعتباطا، ولا هي عبث لا غاية له:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾(٢).

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٣).

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا﴾(٤).

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٥).

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾(٦)

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾(٧).

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٨).

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٩)

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(١٠).

﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾(١١).

---

(١) سورة البقرة: ٢٥١.

(٢) سورة الكهف: ٧.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٤) سورة الإسراء: ١٢.

(٥) سورة النحل: ١٤.

(٦) سورة المؤمنون: ١١٥.

(٧) سورة ص: ٢٧.

(٨) سورة النحل: ١٥.

(٩) سورة القصص: ٧٣.

(١٠) سورة الأعراف: ١٢٩.

(١١) سورة النمل: ٤٠.

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾[١].

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[٢].

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٣].

﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[٤].

﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ﴾[٥].

فالأشياء والأحداث تتحرك على الدوام، ولكنها حركة منضبطة تحكمها النواميس من جهة، وتسير بها لغاية معينة من جهة أخرى، فلا عبث ولا فوضى ولا انفلات، ومن وراء الأشياء والأحداث قدر الله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[٦].

العجــز والقــدرة من الأشياء التي تلفت الحس البشرى كما أشرنا من قبل؛ ومقارنة العجــز البشرى بقدرة الخالق الذي لا يعجزه شيء من المنافذ الفطرية التي توقظ الفطرة إلى حقيقة الألوهية، فتهتدى - حين تهتدى- إلى الإله الحق، أو تنسب القدرة كلها أو شيئا منها - حين تضل- إلى كائنات أخرى فتنسب إليها الألوهية أو تشركها في الألوهية مع الله.

والجاهلية العربية التي خوطبت بهذا القرآن أول مرة لم تكن تمارى في قضية العجز البـــشرى، وقدرة الله التي لا يعجزها شيء. وقد سجل القرآن عليهم إقرارهم لله بالخلق والقوة والتدبير:

﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[٧].

---

(١)سورة محمد: ٤.
(٢) سورة الفرقان: ٢٠.
(٣) سورة العنكبوت: ٢، ٣.
(٤) سورة آل عمران: ١٤٠، ١٤١.
(٥) سورة الدخان: ٣٣.
(٦) سورة الرعد: ٨.
(٧) سورة المؤمنون: ٨٤ – ٨٩ .

إنما كانت مشكلتهم الكبرى كما أشرنا من قبل هي توهم وجود آلهة أخرى مع الله، واعتقاد أن لها شفاعة مستجابة عند الله، وتوجيه ألوان من العبادة لها مع الله أو من دونه، سواء كانت اعتقادًا بألوهيتها، أو توجهًا لها بالدعاء أو الصلاة أو الذبح أو النذر أو الاستغاثة أو الاستعانة..

ولقد ركز القرآن على دحض هذه الأوهام تركيزًا شديدًا حتى تتمحض العبادة لله وحده دون شريك:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ * أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمْ مَنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٢).

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾(٣).

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ

---

(١) سورة النمل: ٥٩ - ٦٤.

(٢) سورة الرعد: ١٦.

(٣) سورة الفرقان: ٣.

أَفَلا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[2].

ولقد يبدو للوهلة الأولى أن هذه الآلهة التي كان العرب في جاهليتهم يعبدونها مع الله أو من دونه قد انتهى أمرها، فلم يعد لتلك الآيات الكثيرة في كتاب الله التي تتحدث عن الشركاء مكان في عالم اليوم المتحضر المتقدم، وأن هذا القسم من كتاب الله يحفظ للذكرى! ولكن ليست له مهمة يؤديها اليوم، وليس له نداء يخاطب عقول المتحضرين! وليس هناك وهم أبعد عن الحقيقة من هذا الوهم! فهذه الجاهلية المعاصرة بالذات ربما تكون أحوج الجاهليات لهذا النداء! فإنسان الجاهلية المعاصرة قد أله نفسه، وهو أبعد الكائنات عن أن يكون إلها، مع الله أو من دونه!

لقد كانت الآلهة المزعومة في الجاهلية العربية - وغيرها - كانت أسطورية، نعم، ولكنها في وهم أصحابها كائنات فائقة، لها صفات غير عادية، تؤهلها - في ظنهم- لمشاركة الإله في ألوهيته. أما الجاهلية المعاصرة التي تؤله الإنسان فهي هي التي تصفه بأنه ذلك الحيوان (الدوارويني) المتطور، الذي تطور عن أحد القردة العليا: الشمبانزي والغوريلا والأورانج أوتانج (إنسان الغاب) والجيبون.. فيا له من إله!

الإله الذي سفك من الدماء في هذا القرن الأخير وحده ما لم تسفكه وحوش الأرض ربما في تاريخها كله! والذي جعل قانونه الأسمى هو قانون الغاب: القوى يأكل الضعيف أو يزيحه من الطريق. والذي لم يكذب في تاريخ البشرية كلها أحد مثله ما بين الشعارات المرفوعة والواقع الفعلى، الذي لا يمت بصلة للشعار المرفوع! والذي سخر عقله الذي منحه الله إياه في صنع الشر أضعاف أضعاف ما سخره في فعل الخير، والذي

نشر من الفساد والانحلال الخلقي في الأرض ما تعف عنه كثير من الحيوانات ذات الفطرة السوية التي لم تفسدها حضارة ذلك الإله المزعوم. ومع ذلك يقول قائلهم: إن الإنسان قد خضع لله في الماضي بسبب عجزه وجهله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله![1].

ونعوذ بالله من الكفر..

ونعود إلى كتاب فنجده قد تعرض لتبجح المتبجحين اليوم، كأنما نزل الآن ليرد على تبجحهم، مع أنه قد أنزل من قبل أربعة عشر قرنا.. وإن هذا ذاته لمن الإعجاز!

إن الذي ألم بالجاهلية المعاصرة - بسبب ما حصلت عليه من المعرفة - أشنع بكثير مما كان يلم بالجاهلية العربية بسذاجة أفكارها وسذاجة معتقداتها، فضلا عما تتصف به هذه الجاهلية الحديثة من الغرور العلمي الذي يخيل إليها أنها (شبت عن الطوق، ولم تعد في حاجة إلى وصاية الله[2]! والذي يخيل إليها من جانب آخر أنها سيطرت على البيئة!

إن زلزلة واحدة كالزلزال الذي حدث في تركيا وخسف القاعدة الحربية البحرية التي تطاول فيها أحد ضباطهم على رب العرش في علاه، ومزق المصحف وداسه بأقدامه، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وراح ضحية الزلزال عشرة آلاف من البشر[3]، وإن عاصفة واحدة كالعاصفة التي اجتاحت شمالي فرنسا فاقتلعت أربعين ألف شجرة راسية شامخة، وقتلت من قتلت، وحطمت ما حطمت في شتاء عام ١٤٢٠ هـ (١٩٩٩م).. لكفيلة أن ترد الناس إلى صوابهم، لو كانوا يعقلون..

ولقد أنذرهم الله في كتابه الذي أنزله قبل أربعة عشر قرنًا، ولا يزال الإنذار قائمًا إلى قيام الساعة:

﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[4].

﴿أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلا فِي

---

(١) هذه قولة جوليان هكسلي في كتابه ((الإنسان في العالم الحديث Man in the modern world)).

(٢) هذه قولة شائعة في كتاباتهم.

(٣) حدث هذا الزلزال في صيف عام ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م).

(٤) سورة الملك: ١٦، ١٧.

غُرُورٍ﴾[١].

إن العلم هبة من عند الله سبحانه وتعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾[٢].

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٣].

وهو قمين في النفس السوية بأن يجعل الإنسان أكثر تقربًا إلى الله وخشية له:

﴿.. إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٤].

ولكن الجاهلية المعاصرة - التي تستمد مفاهيمها ومشاعرها من التراث الروماني الإغريقي الوثني - قد ورثت فيما ورثت من ذلك التراث أن العلم شيء انتزعه الإنسان من الإله على كره منه، فهو يستخدمه للتمرد على سلطان الله، وتأليه نفسه بدلا من الله[٥]، حتى يقول ذلك الملحد الذي أشرنا إليه من قبل - جوليان هكسلي - إن الإنسان كلما ازداد علما ارتفع في حس نفسه درجة، وهبط الإله في حسه في ذات الوقت درجة، حتى يأتي اليوم الذي يخلق فيه الإنسان الحياة، فيصبح هو الله!

نعوذ بالله مرة أخرى من الكفر..

ونعود إلى كتاب الله فنجد فيه الرد على تبجح المتبجحين اليوم، كأنما أنزل اليوم ليرد عليهم:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ﴾[٦]

﴿أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾[٧].

فلو حجب عنهم العلم فكيف كانوا يعلمون؟ ولو أمسك عنهم الرزق فكيف يعيشون؟

وهم أنفسهم - أو عقلاؤهم على الأقل- قد بدؤوا يدركون أن ما كشفه لهم العلم

---

(١) سورة الملك: ٢٠.

(٢) سورة البقرة: ٣١.

(٣) سورة العلق: ٣-٥.

(٤) سورة فاطر: ٣١.

(٥) راجع أسطورة ((برومثيوس سارق النار المقدسة)).

(٦) سورة الطور: ٣٥، ٣٦.

(٧) سورة الملك: ٢١.

من الأسرار لا يقاس إلى جانب ما اكتشفوا أنهم يجهلونه من أسرار الكون! وأن كل كشف جديد يفتح الباب على مجاهيل جديدة لم يكونوا أصلا يدركون وجودها، وأنهم في كل مرة يقفون أمام حاجز جديد عليهم أن يتخطوه.. وأن الحاجز الأكبر الذي يقفون أمامه من مبدأ الأمر إلى آخر الأمر، هو: لماذا تتصرف الأشياء على النحو الذي اكتشفوا أنها تتصرف عليه، وليس على أي نحو آخر؟! أي بعبارة أخرى: سر الخلق! ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(١) وهم في النهاية كما وصفهم الله في كتابه المنزل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(٢).

أمـــا قضية الشفاعة المزعومة - التي تقوم على توهم أن بعض هذه الآلهة المدعاة لها شفاعة مقبولة عند الله - فقد عني القرآن بتفنيدها عناية واضحة، لأنها - فوق بطلانها في عالم الحقـــيقة - ذات أثـــر مفـــسد لعقائد الناس وسلوكياتهم، إذ تفسد التصور الصحيح لحقيقة الألوهية، وتغرى البشر بمعصية أوامر الله اتكالا على شفاعة الآلهة التي تنجيهم من العقاب!

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾(٣).

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾(٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ * اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ﴾(٥).

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾(٦).

﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ...﴾(٧).

---

(١) سورة طه: ٥٠.
(٢) سورة الروم: ٧.
(٣) سورة الزمر: ٤٣.
(٤) سورة النجم: ٢٦.
(٥) سورة البقرة: ٢٥٤، ٢٥٥.
(٦) سورة السجدة: ٤.
(٧) سورة سبأ: ٢٣.

ومرة أخرى قد يبدو لأول وهلة أن معتقدات الجاهلية العربية حول الشفاعة والشفعاء قد انتهى أمرها، وأن هذا القسم من كتاب الله الذي يتحدث عن الشفاعة هو للذكرى! وليس له مكان في عالم اليوم! فنقول إن العالم الإسلامي ذاته - في غربة الإسلام الحالية - أحوج ما يكون إلى تدبر آيات الله في هذا الشأن، وقد أفسدت الصوفية الجانحة عقائد الناس، وضخمت الشيخ في حس المريد حتى صار واسطة بينه وبين الله، وشفيعا له عند الله، لا في أثناء حياته فحسب، بل حتى بعد أن يموت ألف عام!

وذلك فضلا عن وثنيات شتى ما تزال تعيث فسادا في الأرض!

قضية الغيب - كما أسلفنا - من موقظات الفطرة، ومن المؤثرات التي توقع إيقاعات شـتى على الحس البشرى. فهناك باستمرار غيب لا يستطيع الإنسان إدراكه، هو المستقبل كله، سواء المستقبل البعيد أو المستقبل القريب، وهناك - دائمًا - رغبة ملحة عند الإنسان أن يعـرف ما يحدث له غدا، ولو في خطوط عريضة إن تعذر التفصيل. ولكنه - في واقع الأمر - عاجز عن معرفة شيء يقيني بالنسبة لذلك الغيب لا بالإجمال ولا بالتفصيل..

ومن هنا يهزه حديث الغيب!

والقرآن لا يفتأ يحدث هذه الهزة في القلوب!

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[١].

هل هناك إحاطة أدق أو أشمل من هذه الإحاطة؟! حتى الورقة الساقطة من غصنها، حتى الحبة في ظلمات الأرض، حتى الرطب واليابس.. إحاطة تدير الرؤوس! يلهث الخيال البشرى في تتبعها فلا يستطيع اللحاق بها وهي تنتقل به من مكان في الأرض إلى مكان، ومن مجال إلى مجال!

﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ﴾[٢].

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

---

(١) سورة الأنعام: ٥٩.

(٢) سورة النمل: ٦٥.

يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾(١). ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾(٢).

﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٥).

ويلاحظ أن حديث الغيب يأخذ مسارين اثنين، كلاهما ذو تأثير عميق في الحس البشري. أحد المسارين هو إبراز حقيقة علم الله الشامل بالغيب، التي تهز الوجدان البشرى من ناحية عجز الإنسان عن استكناه الغيب، ومن ثم يروعه أن يقف - بعجزه - أمام القدرة القادرة التي لا يخفى عليها شيء، ولا يغيب عنها شيء. والمسار الثاني هو إبراز حقيقة علم الله الشامل بالغيب، الذي يراقب الإنسان في حركاته وسكناته، والذي يعلم جهره وسره، بل ما هو أخفى من السر، وهو مكنونات القلب التي لا يبوح بها الإنسان حتى لنفسه! فأنى يستخفى الإنسان عن رقابة الله التي تلاحقه في كل مكان وفي كل حال، وأنى يلجأ ليدارى أفعاله عن علم الله، الذي يعلمها حال وقوعها، ثم يحاسبه عليها يوم القيامة ولو كانت مثقال ذرة!

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٦).

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٧)

---

(١) سورة الرعد: ٩-١١.

(٢) سورة طه: ٧.

(٣) سورة لقمان: ٣٤.

(٤) سورة آل عمران: ٢٩.

(٥) سورة المجادلة: ٧.

(٦) سورة لقمان: ١٦.

(٧) سورة الزلزلة: ٦-٨.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(١).

ولا يكمل حديثنا عن الإعجاز القرآني في مجال العقيدة دون أن نشير إلى أسماء الله الحسنى التي ترد ورودا ظاهرًا في كتاب الله، والتي تختم بها كثير من الآيات في القرآن الكريم:

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾(٣).

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى..﴾(٤).

إن الأسماء والصفات التي يكثر ورودها في القرآن الكريم لتؤدى مهمتين رئيسيتين إحداهما في مجال الدعوة، والأخرى في مجال التربية.

ونتحدث هنا عن مجال الإعجاز الدعوى، ونعود إلى الحديث مرة أخرى في مجال الإعجاز التربوى.

إن هدف الدعوة الأول هو تعريف الناس بربهم الحق، وإزالة كل غبش حول قضية الألوهية في نفوس الناس، سواء كان ناشئا من قصور في العلم، أو فساد في التصور، أو عرف فاسد، أو وهم عالق بالأذهان، أو جنوح إلى خرافة أو أسطورة لها ثقل الحقيقة في نفوس المؤمنين بها وهي مجرد ظن لا يقين فيه.. وقد كان ذلك كله موجودا في الجاهلية العربية، وهو دائمًا موجود في صورة من الصور في كل جاهلية، لا يستثنى منها الجاهلية المعاصرة، التي ابتدعت إلها سمته الطبيعة وأعطته صفة الحقيقة العلمية، وهو مجرد أسطورة لا وجود لها في عالم الواقع(٥)، وابتدعت شيئا سمته الخلق الذاتي وهو أسطورة أخرى لا وجود لها في عالم الواقع، وألهت العقل وهي ذاتها تعترف بأن ما يجهله العلم من أسرار الكون والحياة أكثر بكثير مما يعلمه! ثم ألهت الهوى والشهوات التي توشك أن تدفع

---

(١) سورة الأنبياء: ٤٧.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٣) سورة الإسراء: ١١٠.

(٤) سورة طه: ٨.

(٥) نقصد أسطورة الطبيعة الخالقة التي قال عنها دارون إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق!

الإنسان إلى درك من الهبوط لم يصل إليه في تاريخه كله!

إن الداء الأكبر في الجاهلية - كل جاهلية - أنها تجهل حقيقة الألوهية!

ومن ثم كانت عناية القرآن الكبرى بجلاء هذه الحقيقة، بحيث تأخذ مساحتها كاملة في النفس، وشفافيتها الكاملة في الحس، وتأثيرها الكامل في الوجدان.. فتستقيم حياة الإنسان في الأرض - وهي لا تستقيم بغير ذلك! - لأن أي غبش في هذه القضية يحدث اختلالات مدمرة في كيان الإنسان، ويقوده إلى الضلال. وسوف نفصل الحديث عن هذه النقطة عند الحديث عن الإعجاز التربوي في كتاب الله.

أما هنا فنشير إلى أن إحدى الوسائل الرئيسية في تعريف الناس بربهم هي الأسماء والصفات الواردة في القرآن، التي يتكرر ورودها كثيرًا جدًا فيه، وكثيرًا ما تكون ختامًا للآيات القرآنية فتختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١) أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(٢) أو قوله تعالى: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣) إلى غير ذلك من الأسماء والصفات.

ويجيء ذكر الأسماء والصفات إما بتعبير مباشر كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(٤)، أو قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٥).. وإما يجيء تعقيبًا على مشهد من المشاهد الدنيوية أو الأخروية بما يناسب طبيعة المشهد، وبما يدل في الوقت ذاته على بعض الهدف من إيراد المشهد، أي أنه يورد للدلالة على صفة من صفات الله جل وعلا، إلى جانب ما يكون من أهداف أخرى في السياق.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ

(١) سورة البقرة: ٢٢٤.
(٢) سورة الحج: ٦٣.
(٣) سورة البقرة: ٢٨٤.
(٤) سورة الإخلاص: ١-٤.
(٥) سورة الحشر: ٢٢-٢٤.

الأَمْرَ كُلَّهُ لله يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(1).

﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(2).

﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(3).

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾(4).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾(5).

﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(6).

﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(7).

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾(8).

﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ

---

(1) سورة آل عمران: ١٥٤، ١٥٥.
(2) سورة التوبة: ١١٧، ١١٨.
(3) سورة الأنعام: ٩٦.
(4) سورة الأنعام: ٦٢.
(5) سورة الأنعام: ٧٣.
(6) سورة الإنسان: ٣٠-٣١.
(7) سورة الانفطار: ٦-٨.
(8) سورة التين: ٧، ٨.

يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾(١).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾(٢).

﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(٣).

والأمثلة أكثر من أن تحصى.. والهدف الذي يتحقق من خلالها - مع كثرتها وتعددها - هو تكوين تصور واضح لحقيقة الألوهية يشمل كل المجالات وكل الأحوال التي تعرض للبشر، بحيث يشعر الإنسان أيا كان توجهه أن الله تجاهه، بصفة من صفاته أو اسم من أسمائه، فلا يكون شيء في حياة الإنسان أو فكره أو مشاعره إلا وهو مرتبط ارتباطا وثيقًا بالله سبحانه وتعالى. وسوف نعاود الحديث عن هذه النقطة لنزيدها جلاء حين نتحدث عن الإعجاز التربوى في القرآن الكريم.

بهـــذه الوسائل جميعًا، ومن هذه المنافذ جميعًا تنفذ إلى القلب البشرى حقيقة لا إله إلا الله، فتتعمق وتتوثق وترسخ، حتى تصبح يقينًا لا يتزلزل، وعقيدة صافية لا غبش فيها ولا خفاء، ولا أوهام ولا التواء..

ولـــسنا نعرف - بصورة يقينية - ماذا كان في الكتب المنزلة قبل القرآن في قضية لا إله إلا الله، قبل أن تحرف على أيدى الكهنة ورجال الدين ومن تبعهم من عامة الناس، وإن كنا نعرف يقينا - من كتاب الله - أنها كلها دعت لتوحيد الله، وعبادته وحدهن بلا شريك..

ولكن القرائن كلها تقول إنه ما من كتاب - قبل القرآن - تحدث عن هذه القضية بهذا العمق، وهذه السعة، وهذا الوضوح، وهذا الشمول، ودخل بها من كل منافذ الفطرة، ومـــن كل مسارب النفس، بحيث تستوعب النفس من جميع أقطارها، وتتغلغل فيها إلى أعمـــق أعماقهـــا كما فعل القرآن.. كلمة الله الأخيرة إلى البشرية، التي تمت بها النعمة واكتمل الدين:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(٤).

وذلك جانب من جوانب الإعجاز في هذا الكتاب الجليل، جدير بالتأمل، والتدبر،

(١) سورة العاديات: ٩-١١.
(٢) سورة النور: ٢٥.
(٣) سورة المجادلة: ١.
(٤) سورة المائدة: ٣.

والالتفات.

من الإعجاز التربوي:

نستطيع في كلمة مختصرة أن نقول عن الإعجاز التربوى في كتاب الله إنه هو الذي أخرج من القبائل المتناحرة في الجزيرة العربية أمة لأول مرة في تاريخها، وليس أي أمة، إنما خير أمة أخرجت للناس..

لقد عاشت هذه القبائل أمدا لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى، تتكلم لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها ما بين قبيلة وقبيلة، وتسكن أرضا متصلة وإن تباعدت أرجاؤها، وتتشابه عقائدها وإن اختصت كل قبيلة بوثن أو بضعة أوثان، وتتماثل عاداتها وتقاليدها.. ولكنها مع ذلك لا تكون أمة، لأن النزاعات والحروب المستمرة بين القبائل، وما يتخلف عنها من الثارات والحزازات المتجددة على مر الأيام، لا تجعل القلوب تصفو ولا تتوحد، ولا تتيح فرصة للنفوس كى تتقارب على أمر عام تلتقى عليه فتلتقى عنده، وتتجمع من الشتات..

وقد كانت تحدث أحيانا تحالفات بين بعض القبائل وبعض، ولكنها أبعد شيء عن أن تشكل أمة متحدة متجانسة. فإنما هي تحالفات تقوم بها بعض القبائل ضد بعضها الأخر، لتزيد من قوتها فترهبها القبائل الأخرى، فلا تفكر في العدوان عليها أو الإغارة على مائها أو كلئها، بينما تتاح لها هي فرصة الإغارة والعدوان معتمدة على قوتها المستمدة من تحالفها مع قبيلة أخرى أو جملة قبائل تتقاسم معا على الولاء في السراء والضراء..!

وربما كان حلف الفضول أقرب شيء إلى التجمع على أمر عام، وهدف سام لا صلة له بالعدوان، وإنما هو لدفع العدوان ورد الحقوق المغتصبة وحماية الضعفاء، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عنه: دعيت إلى حلف في الجاهلية لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت.. ولكنه مع ذلك كان ما يزال في محيط القبائل وليس نابعا من الرغبة في إقامة أمة موحدة، أو دولة موحدة..

وكان القرآن هو الذي حقق المعجزة..

جمع القلوب المتنافرة، فتقاربت، فاتحدت، فالتحمت، لأول مرة في التاريخ، وعلى نحو غير مسبوق في التاريخ ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ

يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

كيف تحققت المعجزة؟

أما إنها معجزة.. وأما إنها تحققت بالفعل، فأمر يشهد به الواقع التاريخي..

ولقد حاولت دعوى القومية العربية ذات يوم أن تزعم لها طريقا إلى هذه الوحدة، فقالت إن الأمة العربية كانت تتوق إلى التجمع والتوحد ولكنها لا تجد الزعيم القائد الذي يوحدها، فلما وجدته في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، سارعت إلى تحقيقه..

وليس شيء أكذب من هذا على التاريخ..

فإن هذه الأمة المزعومة لم تجتمع على شيء اجتماعها على حرب ذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وإيذائه والصد عنه وعن دعوته، واتهامه بالسحر والجنون والتلقي من الشياطين!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾(٢).

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾(٣).

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾(٤).

إنما الذي حقق المعجزة هو القرآن..

هو الذي ألان تلك القلوب الصلدة، وأذاب الران الذي كان يغشى القلوب فيكسوها بالطبقة المتحجرة التي تمنع النور من النفاذ إليها، وتصدها عن بشاشة الإسلام:

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(٥).

فأي شيء في هذا الكتاب هو الذي جمع تلك القبائل المتناحرة في أمة، ثم أخرج

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٢) سورة سبأ: ٦، ٧.

(٣) سورة القلم: ٥١.

(٤) سورة الفرقان: ٤١، ٤٢.

(٥) سورة الزمر: ٢٣، ٢٤.

منها خير أمة أخرجت للناس؟

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[١].

إذا استعرضنا الكتاب نجد أن القضية الكبرى فيه هي قضية لا إله إلا الله.

ولو تحرينا الأداة التي أخرج الله بها هذه الأمة إلى الوجود، لوجدنا أنها هي قضية لا إله إلا الله! فكيف تفعل لا إله إلا الله في القلوب والعقول، وكيف تفعل في الوجدان والسلوك، وكيف تصل في النهاية إلى بناء أمة متضامنة متماسكة من لبنات كانت متنافرة من قبل، تأبى أن تجتمع في كيان غير كيان القبيلة، الذي يشكل في حس أصحابه ربا من الأرباب:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد![٢]

بل كيف وصلت إلى تفتيت القبيلة، التي تقوم على رابطة الدم، إذا لم تستقم على الحق، وتنشئ بدلا منها كيانا متماسكا يقوم على رباط لا ينبع أساسًا من رابطة الدم، وهو في الوقت ذاته أقوى من رابطة الدم بما لا يقاس؟!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٣].

فلنأخذ لبنة من اللبنات، ولنتتبع تحولاتها من الجاهلية إلى الإسلام..

هذا إنسان جاهلي.. يعيش بفكر جاهلي، وقلب جاهلي، وسلوك جاهلي.. فما اهتماماته؟ لأي شيء يعيش؟! ما غاية الوجود في حسه وفي تصوراته؟

مجموعة من الشهوات من كل نوع: شهوة المال. شهوة القوة. شهوة الجنس. شهوة الطعام والشراب. ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

(٢) البيت لدريد بن الصمة.

(٣) سورة التوبة: ٢٣، ٢٤.

الدُّنْيَا﴾[١].

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[٢].

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[٣].

والفرصة المتاحة لهذا المتاع هي هذه الحياة الدنيا التي هي في حس أصحابها فرصة واحدة، إذا انقضت لا تعود. فضلا عن كونها ليست مضمونة من حيث استمرار الصحة أو القوة أو الثروة أو التمكن.. ومن ثم فكل فرصة تسنح للاستمتاع فلا ينبغي أن تفوت، وكل نوع من المتاع ينبغي أن يباح، فلا حلال ولا حرام، ولا امتناع عن المتاح:

فلولا ثلاث هن من شيمة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي!

فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكري إذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا - نبهته - المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهنكة تحت الطراف المعمد

فيذكر الشاعر[٤] الخمر والحرب والنساء على أنها هي التي يحرص على الحياة من أجلها، ولولاها ما كان حريصًا على الحياة ولا مباليًا بالمرض أو الموت، وذلك بعد أن قال:

ألا أيهذا اللائمي احضر الوغى وأن اشهد اللذات، هل أنت مخلدي؟!

فما دام أنه لا خلود، فدعني إذا أعب من هذه الشهوات!

ولكن الانقياد لهذه الشهوات لا بدّ أن ينشأ عنه الصراع والصدام بين البشر، ما لم يكن هناك ما يمنع الاحتكاك أو يلطفه. وهنا تنقسم المجتمعات في الجاهلية إلى نوعين: نوع همجي متبربر، لا نظام فيه ولا ضوابط، تؤخذ فيه الأمور بقوة الذراع:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم[٥]

ونوع (متحضر) تحكمه قوانين، تحدد الطريقة التي يتم بها استمتاع كل إنسان بحقوقه، مع تقليل الصراع إلى أقصى حد مستطاع. وإن كانت اهتمامات الناس في تلك

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.

(٢) سورة التكاثر: ١، ٢.

(٣) سورة البقرة: ٢١٢.

(٤) هو طرفة بن العبد.

(٥) البيت لزهير بن أبي سلمى.

الحضارات الجاهلية هي ذات الاهتمامات التي يعيشها الناس في المجتمعات الهمجية، وإن طليت بطلاء يزينها في أعين الناس! ثم إن التنظيم الذي يمنع التصادم أو يقلله محدود بحدود القوم أو الوطن.. أما في محيط البشرية الواسع فالقوة هي الوسيلة المعتمدة، وويل للمغلوب!

هذا في السلوك.. أما في التصورات فخذ هذا النموذج المعبر عن موقف الجاهلية.. كل جاهلية:

جئت لا أعلم من أين، ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت
وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أو أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟ لست أدرى![1]

لو أتيح لسائمة من السوائم أن تعبر باللغة التي نتحدث بها نحن، فماذا كانت تقول غير ما قالته هذه الأبيات؟!

وذلك كله فضلاً عن الضلال الروحي والفكرى والسلوكى الذي ينشأ من عقيدة لا تؤمن بالله الواحد، ولا تؤمن بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، فتنتهي الحياة في حسها عند الحياة الدنيا، وتنحصر الأهداف في الغلبة والمتاع، وهي ذات الأهداف التي يعيش من أجلها الحيوان، وإن اختلفت الصور، واختلفت الأدوات.

ولا يحسبن أحد أن الجاهلية المعاصرة ناجية من هذه الضلالة. بل هي غارقة فيها إلى الأذان، وإن كان لديها من الأدوات ما تزيف به الواقع، وتزخرفه بشتى الزخارف، وتتحدث به عن القيم العليا وحقوق الإنسان والعدالة والروح الإنسانية وحق تقرير المصير.. وعشرات أخرى من القيم الجميلة الخلابة التي لا رصيد لها في عالم الواقع.. إنما يحكم الواقع قانون الغاب: القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق. ومن كان في شك من هذا فلينظر إلى قضية واحدة من قضايا الحاضر، قضية الأرض المغتصبة في فلسطين، ووقوف القوى العظمى مع المجرم المغتصب ضد صاحب الحق المستضعف المأكول!

ولكنا معنيون هنا بالحديث عن الجاهلية العربية بالذات، التي عاشت آمادًا من الزمن لا يعلمها إلا الله، عاجزة عن تكوين أمة، حتى آمنت بلا إله إلا الله، فتكون منها خير أمة أخرجت للناس.

---

(١) هذه الأبيات للشاعر الجاهلى المعاصر ((إيليا أبو ماضى)).

نريد أن نتعرف على نوع التغيير الذي حدث فيها، والكيفية التي حققت بها لا إله إلا الله ما حققت من النتائج في عالم الواقع، لا في عالم الوهم، ولا في عالم الشعارات المطلقة في الهواء.

لا إله إلا الله.. إذن فهو إله واحد، ومعبود واحد، ومتجه واحد محدد السمات..

ويكفي هذا لتغيير كل شيء!

﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا للهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

لا إله إلا الله.. فلا تشتت بعد الآن بين الآلهة المتعددة التي تشتت النفس وتمزق وحدتها، فتفقد طمأنينتها، فينشأ القلق والحيرة والاضطرابات النفسية والعصبية، والخمر والمخدرات والجريمة التي تعج بها الجاهليات.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

لا إله إلا الله.. فمنهجه هو المنهج، وأمره هو الأمر، وشرعه هو الشرع: ما أحله هو الحلال، وما حرمه هو الحرام، وما أباحه هو المباح، وما منعه هو الممنوع.

وقوله هو الحق..

وهو يقول إن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو رسوله، والقرآن هو الوحى الذي أنزل على رسوله، وإن هناك بعثا ونشورا، وحسابًا وجزاء، وجنة ونارًا.. فذلك كله حق وهو حق اليقين..

وإذن، كيف تصير الآن الأمور؟

فلننظر إلى صفحة القيم.. كيف كانت في الجاهلية؟

ماذا كان على رأسها؟

القبيلة.. وشرف القبيلة.. وأرض القبيلة، ومراعى القبيلة، ومنعة القبيلة.. ثم بالنسبة للكيان الفردى: الخمر والنساء، البيع والشراء، وما يقدر عليه الفرد من ألوان المتاع..

والحياة الدنيا هي مبلغ العلم، وغاية الهمم، ومجال التطلع، ومسرح السعى، وغاية الغايات..

والآن فلننظر كيف صارت صفحة القيم على هدى لا إله إلا الله..

---

(١) سورة يوسف: ٣٩، ٤٠.

شواغل الحياة الدنيا ما تزال.. ولكن بضوابط..

ورابطة الدم ما تزال.. ولكن بضوابط.. والمال والبنون.. والبيع والشراء.. وقسط من المتاع.. كل ذلك ما زال موجودا في الصفحة ولكن في حدود تلك الضوابط التي تحدد الحرام والحلال والممنوع والمباح..

ولكن أين مكانها في الصفحة؟! على رأس القائمة؟! أم أن أمر آخر هو الذي أصبح اليوم يحتل رأس القائمة، ويلون بلونه كل ما عداه؟

هنا التحول الأكبر، الذي صنع كل التحولات..

على رأس القائمة اليوم الإيمان بالله، ومن ثم التوجه إليه بالخوف والرجاء.. بكل مشاعر القلب، وكل ألوان السلوك..

وعلى رأس القائمة بعد الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء، وجنة ونار..

وعلى رأس القائمة مع الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً ومعلمًا وقائدًا ومرشدًا وهاديًا إلى الصراط المستقيم..

ثم يجيء كل شيء بعد ذلك.. فهو موجود، ولكنه موجود بالضوابط التي يصنعها الإيمان بالله واليوم الآخر.. ثم إنه في وجوده لا هو مبلغ العلم، ولا غاية الهمم، ولا غاية السعي، إنما هو متاع متاح - بضوابطه - تمارسه النفس المؤمنة ولكن لا تتعلق به، وتتخلى عنه في يسر إذا اقتضى ذلك أمر يتعلق بالقيم العليا، المسطورة في رأس الصفحة، وعلى رأسها الجهاد في سبيل الله. الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا..

ما أعظم التغيير!

ثم أمر آخر..

لا غبش اليوم ولا أوهام حول غاية الوجود الإنساني، التي قال عنها الشاعر الجاهلي المعاصر لست أدرى! والتى تفضى بها اللاأدرية إلى الشعور بعبثية الحياة، ومن ثم عبثية كل القيم الموجودة في الحياة!

اليوم تملك النفس المؤمنة دليل الرحلة من أولها إلى آخرها، وتملك إجابة واضحة محددة لأسئلة الفطرة التي ما تفتأ تلح - بوعى أو بغير وعى - تطلب إجابة محددة: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومن أين جئنا؟ إلى أين نذهب بعد الموت؟ لماذا (لأى غاية) نعيش؟ كيف (بأى منهج) نعيش؟

القرآن يحوى دليل الرحلة..

من أين؟ من عند الله.. هو الخالق الذي يخلق كل شيء، ولا خالق غيره.

من أين؟ إلى الله مرة أخرى، ليحاسبنا على ما عملناه في الحياة الدنيا.. ثم خلود في الجنة أو النار..

لماذا لنعبد الله.. بشتى أنواع العبادة.. نعبده بالاعتقاد بوحدانيته، ونعبده بالشعائر، ونعبده بتحكيم شريعته، ونعبده باتباع ما أنزل..

كيف؟ باتباع منهج الله، المبين في الكتاب والسنة بشتى أنواع البيان من تفصيل أو إجمال..

ومن ثم فلا عبثية في الحياة، ولا هي مخلوقة بالباطل:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾(١).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾(٢).

والحياة الدنيا فترة ابتلاء، يترتب عليها في النهاية الجزاء..

ومادة الابتلاء هي متاع الأرض:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾(٣).

وخلاصة القضية أن الأرض مزينة بألوان من المتاع، وفي النفس البشرية ميل إليه مركوز في الفطرة:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٤).

والله الخالق صاحب الأمر لم يحرم المتاع:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٥).

ولكنه وضع له ضوابط سماها حدود الله، وقال عنها مرة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا

---

(١) سورة المؤمنون: ١١٥.

(٢) سورة ص: ٢٧.

(٣) سورة الكهف: ٧.

(٤) سورة آل عمران: ١٤.

(٥) سورة الأعراف: ٣٢.

تَقْرَبُوهَا﴾[١]. ومرة﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوهَا﴾[٢]...

ومن ثم كان الابتلاء- بمعنى الاختبار- هو في هذا الأمر: إلى أي مدى يستجيب الإنسان لرغبة المتاع؟ هل يقف عند الحدود التي فرضها الله أم يتجاوزها؟

ثم كان الجزاء في الحالتين متفقًا مع سلوك الإنسان تجاه تلك الحدود:

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٣].

وتلك هي قصة الحياة..!

وتلك هي غاية الوجود الإنسانى كما حددها خالق الإنسان وخالق الحياة..

أى تحول في داخل النفس يحدث حين تؤمن بلا إله إلا الله؟!

ولا يقف الأمر عند الإنسان الفرد..

فتلك اللبنات التي شكلتها لا إله إلا الله ذات خواص معينة، تتميز بها عن غيرها من اللبنات.

ومن خواصها- التي تشبه ظاهرة المغنطيس- التجاذب الذي يؤدى إلى الالتحام!

والتجاذب في أصله موجود في الفطرة. فالنفس البشرية ذات نزعتين في آن واحد: نزعة فردية ونزعة جماعية. الأولى تهدف إلى تحقيق الذات، والثانية تهدف إلى الاجتماع بالآخرين[٤]، ولكنها في الجاهلية لم تصل إلى حد الالتحام الحقيقى.. لأن الإنسان في الجاهلية يصنع حول نفسه سياجا أكبر من حجمه الحقيقى، فمهما تجاذبت الوحدات، فهذا السياج الخارجى قد يسمح بالاقتراب ولكنه يمنع الالتحام! أما في النفوس المؤمنة، التي تواضعت لله، وذهب عنها كبرياء الذات، فلا يوجد ذلك السياج الوهمى الذي يقيمه الفرد حول ذاته، ومن ثم تقترب القلوب- التي يجذبها كلها الحب لله ولرسوله- فتلتحم ذلك الالتحام الرائع الذي شهدنا نماذج رائعة منه في ذلك الجيل الفريد الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يخل منه جيل من أجيال المسلمين. وهو الذي أنشأ تلك الأمة لأول مرة في تاريخها، ثم اتسع حتى شمل شعوبا وأجناسا لا يجمع بينها لون ولا لغة

---

(١) سورة البقرة: ١٨٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٩.

(٣) سورة النازعات: ٣٧-٤١.

(٤) انظر إن شئت كتاب (دراسات في النفس الإنسانية).

ولا مصالح قريبة.. ولكن تجمع بينها لا إله إلا الله..

وهكذا تنشئ لا إله إلا الله الإنسان الصالح الذي يقيم الخلافة الراشدة في الأرض فردًا وجماعة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١).

والإنسان الراشد ليس هو أي إنسان، وإنما هو شيء متميز لم تعرفه الأرض إلا على خط الإيمان الذي بثه الأنبياء والرسل من لدن آدم إلى محمد ﷺ، ولكنه- بشهادة الله سبحانه وتعالى- لم يبلغ سمته الأعلى كما بلغه في أمة محمد ﷺ التي شهد لها خالقها بكونها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٢).

أما مواصفات ذلك الإنسان الراشد فهي مبثوثة في كتاب الله، تكون في مجموعها منهجا شاملا متكاملا لم يعرفه- في شموله وتكامله- أي منهج من المناهج التي تعج بها الأرض، والتي تهدف- كما تنص صراحة- إلى إنشاء المواطن الصالح، والإنسان الصالح.. فالروسي الذي يقتل الشيشانيين مواطن صالح في عرف قومه! واليهودي الذي يقتل المسلمين ويغتصب أرضهم وديارهم وكرامتهم مواطن صالح في عرف قومه! والهندي الذي يقتل أهالي كشمير ويحرم عليهم أن يقرروا مصيرهم لأنفسهم مواطن صالح في عرف قومه! وما أبأسهم جميعا وما أبعدهم عن صفة الإنسانية فضلا عن صفة الإنسان الصالح!

وإذا عدنا إلى الإعجاز التربوي في القرآن الكريم، ذلك الذي أخرج خير أمة أخرجت للناس، فنحن أمام بحر زاخر، من حيث وردته فهو زاخر، ومن حيث نظرت إليه بهرك ما يشتمل عليه من أعماق.

إن الركيزة الكبرى في هذا المنهج الرباني- كما أشرنا من قبل- هي الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر.. وعلى قدر رسوخهما في النفس يكون مدى تحقق الخيرية، وتحقق الصلاح في الإنسان..

فإذا أدركنا ذلك، فإن الإعجاز التربوي في القرآن لا ينحصر مجرد بث هذه العقيدة في النفوس، وإنما في تعميقها وترسيخها وتثبيتها، حتى تخالط بشاشتها القلوب فتصبح جزءا منها لا ينفصل عنها.

وهنا لا بدّ أن يحضرنا الإعجاز البياني، والإعجاز الدعوي اللذان تحدثنا عنهما من

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

قبل.. كل منهما هو في ذاته إعجاز قائم بذاته، ولكنه في الوقت ذاته أداة لإعجاز آخر!

كان الإعجاز البيانى- كما بينا- أداة عظمى في مسيرة الدعوة، جعلت العقيدة تنفذ إلى النفس من كل منافذها، وتصل إلى أعماقها، بالبيان الأخاذ، وبتنوع العرض، وباستخدام أساليب مختلفة تشمل البيان المباشر، والقصة، والمثل، وغيرها من أساليب البيان..

ثم كان الإعجاز البيانى والإعجاز الدعوى معًا أداة للإعجاز التربوى، الذي يرتكز أساسًا تعميق الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر في نفس الإنسان، وصولا إلى الإنسان الراشد الذي قال الله في وصفه:

﴿.. وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2].

ولنحاول هنا أن نغترف غرفة من البحر الزاخر..

أشرنا من قبل إلى تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر على أنه الأداة العظمى في المنهج الربانى. وأشرنا من قبل كذلك إلى تحديد أبعاد رحلة الإنسان في الوجود، منذ النشأة إلى المعـاد، وما يقدمه هذا التحديد من إجابات واضحة محددة لأسئلة الفطرة التي تلح على النفس بوعـي وبغير وعي: من أين؟ وإلى أين ؟ ولماذا وكيف؟. وأثر ذلك في وضوح الرؤية عند الإنسان لأبعاد الرحلة وأهدافها، ونوع الابتلاء (الاختبار) الذي يجرى له فيها، ممـا يدعوه إلى التناغم مع هذه الأهداف وعدم الخروج عليها، ويؤدى به في الوقت ذاته إلى الطمأنيـنة في أثـناء المسيرة، والصبر على مصاعبها إيمانا منه بأن «أمر المؤمن كله خير»[3]، وبأنه ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4].

ونشير هنا إلى التوازن الذي ينشئه المنهج الربانى في النفس المؤمنة بين الرغبة والقيد، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والجماعة، وأثر ذلك التوازن في إنشاء الإنسان

(١) سورة الحجرات: ٧.

(٢) سورة فصلت: ٣٠.

(٣) يقول عليه الصلاة والسلام ((عجبي للمؤمن كل أمره خير، إذا أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإذا أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)).

(٤) سورة الزمر: ١٠.

الصالح.

فأما بين الرغبة والقيد، فالإسلام لا يكبت الرغبات الفطرية ولكنه يضبطها وفرق هائل بين الكبت والضبط. فالكبت هو استقذار الدافع الفطرى، وعده - في ذاته - دنسا لا يليق بالإنسان أن يشتمل عليه، بينما الضبط هو اعتراف بالدافع الفطرى نظيفا في ذاته، مع التحكم في القدر الذي يستجيب به الإنسان إليه، والطريقة التي يستجيب بها.

الكبت عملية مفسدة للمشاعر، مفسدة للأعصاب، مدمرة للطاقة الحيوية.. والضبط عملية صحية تكسب الإنسان قوة في الشخصية، وقدرة على التحمل، ورفعة في الأهداف..

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(١).

فلا تحريم للطيبات..

ولكن في الوقت ذاته لا إسراف في التناول:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(٢).

وهكذا يتوازن الإنسان بين الرغبة والقيد. فلا الرغبة تؤدى بالإنسان إلى الإسراف الذي يفسد الشخصية ويؤدى بها إلى الترهل أو إلى الطغيان وكلاهما من الأمراض. ولا القيد يؤدى إلى الامتناع البتة الذي يؤدى إلى الاضطرابات النفسية والعصبية والقلق وغيرها من الأمراض.

وأما بين الدنيا والآخرة فالتوازن كذلك مطلوب:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(٣).

لا رهبانية في الإسلام..

الرهبانية تعطيل لدفعة الحياة، وتعطيل لدور الإنسان في عمارة الأرض وترقيتها وتجميلها، وتحقيق التسخير الذي منحه الله للإنسان ليؤدى به دور الخلافة في الأرض:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(٤).

وذلك فضلا عن كون أصحابها لا يستقيمون عليها، إنما تعتل نفوسهم ويفسدون:

(١) سورة الأعراف: ٣٢.
(٢) سورة الأعراف: ٣١.
(٣) سورة القصص: ٧٧.
(٤) سورة الجاثية: ١٣.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[١].

وفي الوقت ذاته، فإن الاستغراق في المتاع الأرضي ونسيان الآخرة فتنة ضخمة يتعرض لها الإنسان إذا ترك نفسه على هواها، فينتهي به الأمر إلى البوار، لأنه لا يقف في إشباع رغباته وشهواته عند الحد المأمون، وإنما يتجاوزه بما يهلكه في الدنيا، ويجعل نصيبه في الآخرة هو النار!

والمنهج الرباني يقول للإنسان: لا تحرك نفسك من المتاع المتاح، ولكن التزم فيه بالحدود التي حددها الله، فكل شيء جعل الله له حدودا يعلم اللطيف الخبير أنها تحقق الخير وتمنع الشر، فأباح الطيبات وحرم الخبائث ودعا إلى عدم الإسراف حتى في المباح.. وفي الوقت ذاته، يركز المنهج الرباني تركيزا شديدا على اليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، لأن اللطيف الخبير يعلم أن ذكرى اليوم الآخر هي الأداة الكبرى التي تساعد الإنسان على ضبط شهواته ورغباته، والوقوف بها عند الحلال الذي أحله الله، والقدر الذي أباحه الله؛ لأن القضية في حس المؤمن تصبح موازنة بين الانسياق وراء الشهوات، ويقابلها في الآخرة عذاب لا قبل للإنسان باحتماله، والقناعة بالقدر المباح من المتاع، ويقابلها في الآخرة جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فيقنع ويرضى، وتطمئن نفسه، ولا يشعر بالحرمان، فضلا عن الشعور بالرفعة والطهارة والارتقاء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلا ظَلِيلا﴾[٢].

وأما التوازن بين الفرد والجماعة، فهو من أبرز ومن أجمل سمات المنهج الرباني..

إن الجاهليات كلها في القديم والحديث تجنح إلى أحد طرفي الميزان فيختل الطرف الآخر.. تجنح إلى تكبير الفرد، وتعطيه من الحقوق ومن الحريات ما يجعله يأخذ حجما أكبر مما ينبغي له، فيختل المجتمع في المقابل وتنحل روابطه، ثم يفسد الفرد ذاته بالتدليل

(١) سورة الحديد: ٢٧.

(٢) سورة النساء: ٥٦، ٥٧.

الزائد عن الحد، فلا يجد مجتمعا يردعه، أو يرده إلى الجادة.. وأبرز مثال على ذلك المجتمعات الليبرالية في الجاهلية المعاصرة، التي انحلت أخلاقها، وتعالن الناس فيها بالفاحشة سوية وشاذة، بحجة الحرية الشخصية الممنوحة لكل فرد، يصنع بها ما تمليه عليه شهواته، ويحرم على المجتمع أن يتدخل في الأمر.. وثم جاهليات أخرى تركز على المجتمع فتسحق الفرد وتكتم أنفاسه بحجة أن المجتمع هو الأصل، ومهمة الفرد هي خدمة المجتمع والمحافظة على تماسكه وترابطه..

كلتا النظرتين جانحة، والظلم واقع فيها على الناس بصورة من الصور، سواء بطغيان الفرد الذي يفتت المجتمع، أو بطغيان المجتمع الذي يسحق الفرد..

والإسلام ليس كذلك..

إنه يعطي الفرد حقوقا وضمانات، تحقق له كرامته، وتحقق له مجالا معقولا لنشاطه، فيستطيع أن ينشط كما يشاء، في الحدود التي لا تؤذى غيره، ولا تؤدى إلى الانحلال والتفسخ، فيختار التعليم الذي يناسبه، ويختار العمل الذي يناسبه، ويختار الزوجة التي تناسبه، والعلاقات التي تناسبه في الحدود التي لا توقع ضررا على غيره حسب قاعدة «لا ضرر ولا ضرار». فلا يباح له التملك بالغصب أو السرقة أو أكل أموال الناس بالباطل، ولا الربا ولا الاحتكار لأن هذا كله يوقع الضرر بالآخرين. ولا يباح له الفاحشة ولا مقدماتها التي تفضى إليها، ولا يباح له الغيبة ولا النميمة ولا التجسس ولا تتبع عورات الناس أو اقتحام خصوصياتهم.. وفي الوقت ذاته، يعطى المجتمع حق «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» بل يجعله واجبا تكليفيا على المجتمع، لكي لا يخرج الأفراد عن حدودهم، ولا يتسببوا في إيذاء المجموع. ويوجب على المجتمع التكافل، والتعاون على البر والتقوى، وإزالة المظالم، والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.. وكلها أعمال جماعية يقوم بها المجتمع.

ويصف الرسول ﷺ طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع في هذه الصورة الرائعة:

«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فكان بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا يمرون على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في مكاننا خرقا ولم نؤذ من فوقنا! فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[1].

(١) أخرجه البخاري.

والإسلام يصل إلى هذا التوازن بين الفرد والجماعة بطريقة غاية في البساطة وغاية في الإبداع كذلك.. فهو ابتداء لا يعد العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة صراع وتضاد كما تعدها الجاهليات سواء منها ما يرتكز على الفرد وما يرتكز على المجتمع. فالأولى ترى الفرد هو الأساس، وترى المجتمع هو القيد الذي يسعى إلى التضييق على الفرد وخنقه وكبته، ومن ثم تحيط الفرد بالضمانات التي تمنع المجتمع قدر الطاقة من التدخل في شأنه، حتى لو ألحد، أو حتى لو فسق، ما دام فسقه قانونيا! والثانية ترى المجتمع هو الأساس، والفرد هو المتربص أبدا للعدوان عليه، والخروج على طاعته، فتظل تضع حوله القيود، وتهدده بالعقوبات!

والإسلام دين الفطرة..

والفطرة - كما أشرنا آنفا - تشتمل على نزعتين أصيلتين: نزعة فردية ونزعة جماعية، إحداهما تسعى إلى إثبات الذات والأخرى تسعى إلى الاجتماع بالآخرين. والنزعات الفطرية لاعداء بينها في الأصل، كما تكون في الفطرة السوية، إنما ينشأ الخلل حين تزيد جرعتها أو تنقص عن الوضع السوى، فيحدث المرض، مثلها كمثل إفرازات الجسم. فالجسم يكون في وضعه الصحيح طالما كل جهاز فيه يقوم بوظيفته الطبيعية بصورة سوية، ولكنه يمرض حين تختل بعض وظائفه بالنقص أو الزيادة. والنفس كذلك هي في وضعها الصحيح طالما كل جهاز من أجهزتها يقوم بعمله الفطرى في صورته الطبيعية، ولكنها تمرض حين تختل بعض وظائفها بالنقص أو الزيادة. وعند بعض الناس تنشط النزعة الفردية أكثر من اللازم، فيصبح الشخص أنانيا، ومِيالا إلى العدوان على حقوق الآخرين، أو تنشط النزعة الجماعية أكثر من اللازم، فيخنع، وتنبهم شخصيته، ويصير إمعة لا كيان له. [1].

والإسلام يهدف إلى أن تكون النفس في وضعها الفطرى السوى، فيصبح الإنسان ﴿في أحسن تقويم﴾[2] كما خلقه الله، كما يسعى إلى علاج الخلل حين يحدث، بتوجيهاته التي تعيد التوازن إلى النفس، وتدفع بها إلى الرشد.. وعندئذ يتوازن الفرد والمجتمع، ويقل الصراع إلى أدنى حد مستطاع ويحل محله التكافل والتعاون والترابط والتحاب:

---

(١) انظر إن شئت حديثًا عن هذه النقطة في كتاب ((دراسات في النفس الإنسانية))، فصل ((خطوط متقابلة في النفس الإنسانية)) وكذلك فصلاً بنفس العنوان في كتاب ((منهج التربية الإسلامية)).

(٢) سورة التين: ٤.

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[١]

وبهذه الألوان من التوازن: بين الرغبة والقيد، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والمجتمع، ينشئ الإسلام الإنسان الصالح الذي تعمر به الأرض..

وهلم الآن نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر..

ما مواصفات الإنسان الصالح؟

إنها مبثوثة في تضاعيف الكتاب.. لا تكاد تخلو سورة من السور قصيرة أو متوسطة أو طويلة من إشارة إلى صفة - أو مجموعة صفات - للإنسان الصالح، أو -. من الجانب الآخر - صفة أو مجموعة صفات للإنسان المنحرف الذي يحذر القرآن الناس من أن يكونوه..

وهنا يجيء دور الترغيب والترهيب في منهج التربية القرآني[٢].

خذ أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾[٣].

فهنا يوصف الإنسان المنحرف ببعض صفاته: إنه يطغى لأنه يتوهم أنه غني عن الله، ويروح ينهى عبدا عن الصلاة والعبادة لربه، وفي الأخير يكذب ويتولى، والقرآن يذكره بأنه راجع إلى ربه وهو ما غفل عنه فلج في طغيانه، وينذره بالعذاب الأليم في الآخرة. كما يوصف الإنسان الصالح ببعض صفاته فهو عابد مصل، وهو مهتد إلى ربه، أمر بالتقوى.. فتتقابل الصفات، وتتحدث العظات..

فإذا كانت هذه أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ، فقد توالى نزول القرآن حتى تم التنزيل، وفي كل سورة إشارة أو إشارات..

---

(١) متفق عليه.

(٢) وفي السنة كذلك.

(٣) سورة العلق: ١-١٦.

خذ بعض النماذج، وارجع إلى كتاب الله تجد المزيد والمزيد والمزيد..

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1].

وخذ على الجانب الآخر:

﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[2].

وخذ هذه التوجيهات:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلا مَيْسُورًا * وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلا

---

(١) سورة الفرقان: ٦٣-٧٦.

(٢) سورة القلم: ١٠-١٦.

تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا * وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا * وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا * وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾[١].

وخذ توجيهات في مجالات معينة يطلب لفت النظر لها والتركيز عليها:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا

(١) سورة الإسراء: ٢٣-٣٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٣-٢٦٥.

(٣) سورة البقرة: ٢١٦.

(٤) سورة النساء: ١٩.

قَلِيلٌ﴾[١]

وعشرات وعشرات وعشرات من التوجيهات، يتخرج على هداها الإنسان الصالح في مدرسة القرآن.

وهلم الآن نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر..

هناك ما نستطيع أن نطلق عليه اسم (دروس تربوية في القرآن الكريم)

والقرآن كله توجيهات تربوية، هدفها هداية الإنسان إلى ربه، ليعبده العبادة الحقة، فيستقيم حاله في الدنيا والآخرة ويكون من الفائزين.

ولكن هذه التوجيهات أنواع مختلفة. فمنها توجيهات مباشرة، أوامر ونواه واضحة محددة: افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا. ومنها ما يؤثر عن طريق الترغيب والترهيب: الترغيب في الخصال الحميدة والأفعال الحميدة، والترهيب من الخصال السيئة والأفعال السيئة. ومنها ما هو درس يعرض للعبرة، ويحتاج إلى تدبر لاستخلاص العبرة المطلوبة، وهذا الذي نريد الآن أن نعرض بعض النماذج منه لا على سبيل الحصر، ولكن على سبيل المثال.

خذ هذا الدرس من سورة آل عمران:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[٢].

فهؤلاء قوم يصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم ﴿أُولُو الأَلْبَابِ﴾، وهو في الحقيقة

---

(١) سورة التوبة: ٣٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٠-١٩٥.

وصف للصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا على الصورة التي يصفها سبحانه في هذه الآيات..

فماذا يقول أولو الألباب هؤلاء وماذا يفعلون؟!

إنهم بادئ ذي بدء يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، أي أنهم لا يكفون عن ذكر الله في جميع أحوالهم. ثم إنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض، فيهديهم تفكيرهم إلى أن السموات والأرض لم تخلقا باطلاً، وإنما خلقتا بالحق. وإذ كان الأمر كذلك، فلا يمكن أن تكون الحياة الدنيا هي نهاية المطاف. فكم من ظالم في الحياة الدنيا ظل ظالما حتى القطرة الأخيرة من حياته ومات وهو ظالم. وكم من مظلوم ظل مظلوما في الحياة الدنيا حتى آخر قطرة من حياته ومات وهو مظلوم. فلو كانت الحياة الدنيا هي نهاية المطاف، فهل حق الحق الذي خلقت به السموات والأرض؟ كلا! إنما يحق الحق حين تكتمل الحلقة. حين يجئ اليوم الآخر فيجازى كل بما اكتسب في الحياة الدنيا، فيعاقب الظالم، على ظلمه ويعوض المظلوم على صبره في الحياة الدنيا.

وحين يصل تفكيرهم إلى هذه النقطة، يسارعون إلى التضرع إلى ربهم أن يقيهم عذاب النار. وكأنما يتقدمون بمؤهلات تسوغ ما طلبوا من ربهم من الوقاية من النار، فيقولون إنهم سمعوا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا.. والمنادى هو الرسول ﷺ، وقد سارعوا إلى إجابة النداء بما توحى به الفاء في قوله ﴿فَآمَنَّا﴾ فالفاء تفيد التعقيب السريع. ومن ثم يدعون ربهم أن يكفر عنهم سيئاتهم ويتوفاهم مع الأبرار، ولا يخزيهم يوم القيامة، ويحقق لهم ما وعدهم على لسان الرسل من إدخال الصالحين الجنة..

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

هؤلاء قوم يتذكرون، ويتفكرون، ويتدبرون، ويتضرعون.. فلأي من هذه استجاب لهم ربهم؟!

هل استجاب للتذكر وهو مجرد تذكر؟ أو للتفكر وهو مجرد تفكر؟ أو للتدبر وهو مجرد تدبر؟ أو للتضرع وهو مجرد تضرع؟!

هنا الدرس التربوى..

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾.

فالاستجابة هي على العمل، الذي انبثق عن التذكر والتفكر والتدبر والتضرع.

وإذا كانت سورة آل عمران كلها مشغولة بمعركة لا إله إلا الله، فقد اختير من

الأعمال ما يناسب تلك المعركة الهائلة: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.. هؤلاء هم الذين يكفر الله عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة التي وعدها إياهم..

وتلك هي العبرة من الدرس المعروض..

المطلوب أن تتحول المشاعر والأفكار إلى عمل مشهود في واقع الحياة.. وعندئذ يستجيب رب العالمين.

وخذ هذا الدرس الذي يتجه ذات الوجهة وإن كان في جو مختلف:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

التوجيه هو ذات التوجيه..

ليس الإيمان بمجرد مظاهر.. إنما هو صدق في العمل نابع من صدق في المشاعر، فالأصل هو الاعتقاد الصحيح، الذي يقتضي الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، والذي يترجم إلى عمل مشهود في واقع الأرض، يذكر منه هنا إيتاء المال ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس.. سلوك كامل شامل ينبثق من العقيدة الصادقة ويشمل مساحات واسعة من المشاعر والتصرفات..

من هنا كان من أعجب العجب أن يتسرب الفكر الإرجائي إلى هذه الأمة، ذلك الفكر الذي يقول إن الإيمان هو التصديق والإقرار، وليس العمل داخلا في مسمى الإيمان[2]، والذي يقول: (من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام!).

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

(٢) المسمى ليس هو الاسم، إنما هو الشيء أو الشخص الذي يحمل الاسم. ومنه قولهم: اسم على مسمى، أي شخص يتصف بالصفات التي يدل عليها الاسم. ولكن كثيرا من الناس يستخدمون لفظ المسمى ويقصدون به الاسم.

قالوا: إن الله يخرج من النار قوما لم يعملوا خير قط.. ولا حرج على فضل الله. ولكن انظر إلى حال الأمة إن قال كل واحد فيها أنا مؤمن ما دمت مصدقا ومقرا، ولا علي أن أعمل! كيف يكون حالها؟ إنها تكون ذلك الغثاء الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ، الذي تتداعى عليه الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها[١].. فهل تكون عندئذ هي الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، والتي تكون شاهدة على كل البشرية؟!

تستطيع الشجرة أن تعيش وتثمر وتمد أفرعها في الفضاء، وهي تحمل من بين أوراقها بضع أوراق صفراء.. ولكن يوم تقول كل ورقة في نفسها: من حقي أن أكون صفراء ذابلة وإن جفت المياه في عروقي ما دمت لم أسقط على الأرض بعد، فكم تعيش هذه الشجرة على ظهر الأرض؟! وهل تكون حينئذ هي الشجرة الطيبة الموصوفة في كتاب الله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[٢]، أم تكون شجرة متهالكة لا تؤتى أكلاً ولا تظل أحدا؟!

وإن كان مرجئة الفقهاء قد قالوا إن العمل ليس داخلا في مسمى الإيمان يقصدون الاسم ولكنه مطلوب كالإيمان، فالخلاف معهم هين. وإنما المرجئة الذين أسقطوا العمل إسقاطا من الحساب وقالوا يكفي التصديق والإقرار ليكون الإنسان مؤمنا كإيمان جبريل. هؤلاء قدموا للأمة مرضا هو اليوم مستعص على العلاج.. إلا أن ترجع الأمة رجوعا صحيحا إلى كتاب الله، لتستوعب ما فيه من الدروس.

وخذ هذا الدرس في مجال آخر في ذات الاتجاه:

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ..﴾[٣].

النصر من عند الله:

---

(١) قال عليه الصلاة والسلام: ((يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل)). رواه أحمد وأبو داود.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٤، ٢٥.

(٣) سورة الأنفال: ٦٢-٦٥.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(١).

﴿إِنْ يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾(٢).

ولكن على من يتنزل النصر من عند الله؟

إن هذه الآيات الأربع المتتالية من سورة الأنفال تحدث عن أربعة شروط أساسية للنصر.

أول هذه الشروط أن يكون هناك مؤمنون.. والله لا يعجزه أن يقهر الأعداء بغير مؤمنين، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾(٣) ولكن هكذا اقتضت سنته: أن يكون هناك مؤمنون في الأرض يدفع الله بهم الكفار، ويكونون ستارًا لقدر الله، فقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٤). وقال﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾(٥).

وقال كذلك: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٦).

والــــشرط الثاني أن يكون هؤلاء المؤمنون متآلفة قلوبهم. فقد قال سبحانه: ﴿وَلا تَــنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٧) فتآلف القلوب شرط لتنزل النصر من عند الله. وفي الآية الكريمة إشارة إلى نوع التآلف المطلوب، فليس هو التآلف على مصالح الأرض القــريبة - حــتى إن حدث ذلك التآلف في واقع الأرض - إنما هو التآلف على العقيدة ﴿وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾. لا المال ولا غيره من مصالح الأرض.

والــــشرط الثالث هو التجرد لله والتوكل الصادق عليه﴿حَسْبُكَ اللهُ﴾. وعلى أحد التفــسيرين يكــون المعنى، حسبك الله ومن معك من المؤمنين، فإن التوكل الصادق لا يتنافى مع اتخاذ الأسباب. ووجود المؤمنين مع الرسول ﷺ هو من الأسباب التي لا بدّ من

(١) سورة آل عمران: ١٢٦.
(٢) سورة آل عمران: ١٦٠.
(٣) سورة فاطر: ٤٤.
(٤) سورة البقرة: ٢٥١.
(٥) سورة محمد: ٤.
(٦) سورة الأنفال: ١٧.
(٧) سورة الأنفال: ٤٦.

اتخاذها مع التوكل على الله. وعلى التفسير الآخر: حسبك الله، ومن معك من المؤمنين حسبهم الله كذلك. وعلى أي التفسيرين، فالتجرد لله مطلوب من أجل تنزل النصر.

والشرط الرابع هو الاستعداد للقتال حين يدعو الداعي إليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾(١).

وفي آيات أخرى في كتاب الله ترد شروط أخرى تؤهل لتنزل النصر من عند الله، ولكن هذه الشروط الأربعة المذكورة في سورة الأنفال أساسية في جميع الأحوال.

وفي ذلك درس تربوي لهذه الأمة، وبالذات للذين لا يأبهون لهذه الشروط ولا يحققونها في ذات أنفسهم، ثم يقولون: ما بال النصر لا يتنزل علينا؟ ألسنا مؤمنين؟!

وهذا الدرس في مجال آخر، في اتجاه آخر

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾(٢).

الإشارة في الآيات هي لهزيمة المسلمين في أحد.. وقد كان في وقعة أحد دروس كثيرة للمؤمنين، أبرزتها سورة آل عمران، ومنها هذا الدرس.. فقد بدأت المعركة بنصر المسلمين، ولكن الرماة الذين أمرهم رسول الله ﷺ ألا يغادروا أماكنهم بأي حال من الأحوال ولو رأوا المسلمين تتخطفهم الطير، أباحوا لأنفسهم التصرف في الأمر حين ظنوا أن المعركة قد انتهت، وخافوا أن يضيع نصيبهم من الغنائم، فخالفوا أمر الرسول ﷺ ونزلوا من فوق الجبل، فاغتنم الفرصة خالد بن الوليد- وكان يقاتل في صفوف الكفار إذ لم يكن قد أسلم بعد - فكر بخيله من وراء الجبل وعاد يهاجم جيش المسلمين وهم بغير حماية، إذ كانت الحماية التي خطط لها القائد ﷺ هي الرماة من فوق جبل الرماة.. فوقعت الهزيمة المرة التي قتل فيها سبعون من الصحابة فيهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وشج وجه الرسول ﷺ وكسرت رباعيته.. فأصاب المؤمنين غم كبير وقالوا: أنى هذا؟! كيف وقع هذا؟ كيف هزمنا ونحن المؤمنون وهم الكفار؟!

وتنزل القرآن يعطيهم الدرس، أو مجموعة الدروس..

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي

(١) سورة الأنفال: ٦٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٥-١٦٧.

الأمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[١].

فالتنازع، والاختلاف، وعصيان أمر القائد كان السبب في الهزيمة: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

ولكن الدرس لا ينتهي هنا..

إن الله يقول لهم إن ما أصابهم يوم التقى الجمعان هو بإذن الله! وإن له حكمته عند الله: كي يتميز الصف، ويعلم المؤمنون، ويعلم المنافقون..

وهذا في ذاته درس هائل.. فقدر الله لا ينفي مسؤولية الإنسان عن عمله حين يخطئ! بل يظل مسؤولا عن خطئه، وعن نتائج خطئه، ولا ينفي المسؤولية عنه أنه قدر مقدر من عند الله.

درس ضد الاحتجاج بقدر الله لنفي مسؤولية الإنسان عن أخطائه.. ودعوة للإنسان أن يقوم بالعمل على وجهه الصحيح، فإذا جاء قدر الله على غير ما يرغب، فعندئذ يقول إنه قدر مقدور لا حيلة له فيه، ولكن يعلم في الوقت ذاته أنه قدر له حكمته عند الله، سواء أدرك الحكمة في لحظتها أم غابت عنه..

وإذا تتبعنا السورة فسنجد درسا آخر:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

إن وقع قدر الله على غير ما يرغب الإنسان ليس معناه القعود والاستكانة بحجة التسليم بقدر الله! إنما التسليم بقدر الله معناه ألا يتفطر قلب الإنسان ولا تذهب نفسه حسرات ويتوقف عن العمل، بل يعمل، متطلعا إلى قدر من الله جديد، يغير الله به من حال إلى حال. فهؤلاء الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى معاودة القتال، فذهبوا بجراحاتهم، من الله عليهم بأن جعل الأعداء ينكلون عن القتال، ويكتفون من الغنيمة بالإياب!

ومن قبل جاء في سياق السورة درس آخر:

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٢.

(٢)سورة آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤.

﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١).

فليست الهزيمة العسكرية مسوغًا للانكسار النفسي ولا الهزيمة الداخلية، فاستعلاء المؤمن لا يتخدش بالظروف العارضة التي تعرض له، لأنه يعتز قبل كل شيء بالإيمان:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

وخذ هذا الدرس عن طبيعة العلاقة بين قدر الله وواجب الإنسان من زاوية أخرى:

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾(٣).

فقدر الله هنا في صالح المؤمنين. فهو يتوعد الذين كفروا بالهزيمة، لأنهم لا يسبقون قدر الله مهما كان لديهم من القوة، ولأن قوتهم لا تعجز الله. وقد قدر الله التمكين لهذا الدين، وللمؤمنين، حيث قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(٤).

فماذا يكون من أمر المؤمنين وقد أعلن الله لهم قدره المقدور:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(٥).

أيتواكلون.. ويقولون: قد تكفل الله بهزيمة الكفار، فلنقعد ولننتظر وعد الله، والله لا يخلف الوعد:

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٦-١٤٨.

(٣) سورة الأنفال: ٥٩، ٦٠.

(٤) سورة النور: ٥٥.

(٥) سورة الصف: ٩.

﴿وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾[(١)].

كلا! إن الآية التالية مباشرة للآية التي أخبر الله فيها بهزيمة الكفار هي أمر للمؤمنين أن يعدوا القوة بكل ما يستطيعون من وسائل الإعداد..

وقد يسأل سائل: وهل الله في حاجة لجهد المؤمنين لينفذ قدره بالقضاء على الكفار؟

كلا! ولكن - كما قلنا - هكذا اقتضت سنته.. أن يكون هناك مؤمنون مجاهدون يدفع الله بهم أهل الباطل، ويبليهم الله البلاء الحسن على جهادهم، وإن كان هو الذي ينصرهم على أعدائهم..

وقد يسأل سائل: ولنفترض أن الناس تقاعسوا عن الجهاد، فهل يعجز الله عن إنفاذ وعده بسبب تقاعس الناس؟!

كلا! ولكنه يجرى سنة أخرى من سننه:

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[(٢)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(٣)].

وفي جميع الأحوال ينفذ الله قدره، ولكن من خلال سننه التي لا تتبدل:

﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[(٤)].

وهذا درس في مجال مختلف..

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[(٥)].

لقد كان نوح قد تلقى وعدا من ربه أن أهله سينجون من الغرق إلا من سبق عليه

---

(١) سورة الروم: ٦.

(٢) سورة محمد: ٣٨.

(٣) سورة المائدة: ٥٤.

(٤) سورة الطلاق: ٣.

(٥) سورة هود: ٤٤-٤٦.

القول:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾(١).

ولقد نادى ابنه - وكان في معزل- فلم يصغ للنداء وقال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء!

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾(٢).

ونجا نوح ومن معه، واستقروا على اليابسة. ولكن الفجيعة في ولده كانت ما تزال تثير لواعجه، فتوجه إلى ربه بهذا التساؤل الحزين: لقد وعدتنى يا رب أن ينجو أهلي، وها هو ذا ولدى قد غرق.. ووعدك حق لا يخلف.. فكيف حدث ما حدث؟!

ويجيئه الجواب الحاسم: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(٣).

يا لله! ما أعظم المفاجأة!

لم يقل له إنه ليس ولدك! فهو ولده من صلبه.. ولكن قال له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.. وعلل انقطاع الرابطة بينهما تعليلا واضحا: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

إن الرابطة التي يعدها الله سبحانه وتعالى ليست رابطة الدم.. وإنما هي رابطة العقيدة. هي الرباط الأول والأقوى، هي العروة الوثقى.. هي التي تحكم الروابط جميعا.. فإذا انقطعت فلا رباط!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة هود: ٤٠.

(٢) سورة هود: ٤٢، ٤٣.

(٣) سورة هود ك ٤٦.

(٤) سورة التوبة: ٢٣، ٢٤.

ورابطة الدم ليست ساقطة من الحساب، فالله يقول: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾. ولكن متى؟ حين تتحقق الرابطة الأولى التي لا رابطة قبلها.. فإن اجتمع الكل على الإيمان، فأولو الأرحام - بحكم الفطرة - بعضهم أولى ببعض وأقرب لبعض. أما إذا افترق الطريق فلا يعود هناك رابط يربط على الإطلاق، بل يصير الرباط خروجا على أمر الله، محرما في دين الله.

والعجب كل العجب لهذه الأمة حين دخلت في التيه، فنادت بالقومية والوطنية رباطا يلغي رباط العقيدة، فخرجت عن أمر ربها ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[1]. ولم تدرك أنه كان من كيد أعدائها لها للتخلي عن منبع قوتها الحقيقي وتصبح غثاء كغثاء بالسيل.. والدرس موجود في كتاب الله!

وهذا درس آخر في المجال نفسه، ولكن من مدخل مختلف:

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[2].

فهناك بادئ ذي بدء إشارة خاصة إلى دور الأم ومقامها واستحقاقاتها على أولادها. فالوصية هي للوالدين، ولكن الذي يذكر في السياق ذكرا مفصلا هو الأم، بما يوحي بأن حقها على أبنائها أكبر من حق أبيهم. وذلك ما فصله حديث الرسول ﷺ حين سأله سائل: من أولى الناس بحسن صحابتي قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أمك؟ قال: ثم من؟ قال أمك! قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك!

ولكن الدرس الذي نحن بصدده هو في مجال آخر من مجالات التربية الإسلامية.

فالوصية هي للوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾.

ولكن انظر موضوع الوصية: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.

درس هائل في الحقيقة..

إن العلاقات كلها، بما فيها علاقات الأولاد بوالديهم، ليست مباشرة بين بعضهم والبعض! إن هناك علاقة سابقة، علاقة أقوى وأشمل، تندرج تحتها كل العلاقات، حتى العلاقات التي تنشئها رابطة الدم ورابطة الرحم.. إنها العلاقة مع الله! ومن خلال تلك العلاقة الكبرى - وفي ظلها - تأتي كل علاقات البشر بعضهم ببعض.

---

(١) سورة الأنفال: ٧٥.

(٢) سورة الأعراف: ٣٠.

ويتضح من ذلك - ضمنا - أن أي علاقة تقوم بين إنسان وإنسان، لا تتصل ولا تنبع من تلك العلاقة الكبرى فلا وزن لها في المنهج الرباني، وهي ساقطة من الحساب!

ويتضح كذلك - ضمنا -. أن كل العلاقات بين البشر، التي يجب أن تكون متصلة بالعلاقة الكبرى ونابعة منها، يجب أن تكون مصطبغة بصبغتها غير مناقضة لها ولا حائدة عنها:

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾(١).

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

وليس معنى ذلك أن علاقة المسلمين بغيرهم هي دائمًا علاقة العداء والحرب:

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٣).

فالمعاملة الحسنة للآخرين - غير المحاربين- خلق إسلامي أصيل. ولكن البر والقسط شيء والموالاة شيء آخر!

بر وقسط، نعم، ولكن لا ولاء!

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(٤).

وهذا درس فريد في مجال الإيمان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا﴾(٥).

والـــذي يلفـــت النظر في هذا الدرس أن المخاطبين الذين يطلب منهم الإيمان هم

---

(١) سورة لقمان: ١٤.

(٢) سورة البقرة: ١٣٨.

(٣) سورة المجادلة: ٢٢.

(٤) سورة المائدة: ٥٥.

(٥) سورة النساء: ١٣٦.

مؤمنون بالفعل! وهم مؤمنون بكل ما يطلب منهم الإيمان به، والدليل من الآية ذاتها أنهم يخاطبون بلقب الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.. ولا يكونون مؤمنين - ولا يخاطبهم الله بلقب الإيمان - حتى يكونوا قد آمنوا بالفعل بالله ورسوله، والكتاب الذي نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل، والملائكة والنبيين واليوم الآخر..

فما دلالة التوجيه الرباني؟!

لو كان الخطاب لغير المؤمنين لكان بلا شك دعوة لهم إلى الإيمان. أما وهو خطاب للمؤمنين بالفعل، فالخطاب له معنى آخر..

إنه دعوة لترسيخ الإيمان وتثبيته في قلب المؤمن. وتذكير له بأن الإيمان ليس درسا يلقى ثم ينتقل منه إلى غيره. إنما هو درس يستوعب ثم ينتقل معه إلى غيره. درس دائم في حياة المؤمن. درس لا ينبغي أن يغفل عنه ولا عن مقتضياته، ولا أن يفرط فيه، أو يتغافل عنه، أو يتقاعس عن تكاليفه الدائمة في القلب والجوارح. في الفكر والسلوك. في الوجدان وفي واقع الحياة.

وهذا يلفتنا إلى أمر له أهمية خاصة بالنسبة لهذه الأمة بالذات..

إنها ليست مجرد أمة من الأمم. ولكن الله أخرجها لتكون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، وليست مهمتها أن تهتدي في ذات نفسها فحسب كغيرها من الأمم السابقة، بل أن تكون شاهدة على كل البشرية.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

وذلك لأنها أمة خاتم النبيين، الذي لن يجئ نبي بعده، والذي أرسل إلى البشرية كافة. وهي المكلفة بحمل رسالته من بعده. وأداتها الأولى في حمل هذه الرسالة والقيام بتكاليفها هي صدق الإيمان، ورسوخ الإيمان، والمحافظة الدائمة على الإيمان.

لذلك يخاطبهم - وهم مؤمنون - فيقول لهم ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ..﴾.

وبهذه المناسبة نقول إن عالمية الدعوة منصوص عليها نصا صريحًا في الآيات المكية ذاتها، ولم تكن تطورًا في فكر الرسول ﷺ بعد أن دانت له الجزيرة ودخل الناس أفواجًا في دين الله كما يزعم المستشرقون في أباطيلهم. ففي السور المكية الأولى التي نزلت والمسلمون في مكة مشردون مضطهدون، والرسول ﷺ لا يجد من قريش أذنا

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

صـاغية، نـزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٢).

كما يتوجه الخطاب في القرآن في أكثر من موضع إلى الإنسان لا إلى قوم بعينهم من بني الإنسان:

﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾(٤).

فالمخاطبون المباشرون بهذه الآيات هم قريش، أو هم العرب، ولكنهم لا يخاطبون بوصفهم قريشًا بالذات، ولا بوصفهم عربًا، ولكن بوصفهم من بني الإنسان الذين توجه إليهم الدعوة جميعًا، فيسمعها منهم من يتاح له أن يسمع!

وكذلك يأتي الحديث عن الإنسان عامة في مثل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾(٥).

﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلا الْمُصَلِّينَ﴾(٦).

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(٧).

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(٨).

---

(١) سورة القلم: ٥١-٥٢.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٣) سورة الانفطار: ٦-٨.

(٤) سورة الانشقاق: ٦.

(٥) سورة فصلت: ٥١.

(٦) سورة المعارج: ١٩-٢٢.

(٧) سورة الإنسان: ١، ٢.

(٨) سورة التين: ٤-٦.

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

ولكن ربما كانت ألطف إشارة إلى أن المخاطب بهذا القرآن هو البشرية كلها- على سبيل القطع- وليس قومًا معينين منها، هي التي وردت في موضعين اثنين، بصورتين مختلفتين، في آيتين مكيتين:

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[2].

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[3].

فالذين حملوا في الفلك المشحون لم يكونوا - قطعا - ذرية المخاطبين بهذا القرآن! سواء كانوا قريشا، أو من يتاح له من العرب أو يسمع، أو كل من استمع بعد ذلك! إنما كانوا ذرية البشرية الأولى على عهد نوح. والمحمولون في الجارية لم يكونوا كذلك هم العرب المخاطبين بالقرآن أول مرة، ولا غيرهم ممن جاء بعدهم. ولكن الله يقول لهم: ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾! حملناكم يا بنى الإنسان! فالخطاب موجه إلى البشرية كافة، من خلال كل من يستمع إلى الخطاب!

وهكذا تتأكد عالمية الدعوة، وعالمية الخطاب، وعالمية الرسالة، سواء بالنصوص المباشرة الصريحة، أو بالإشارة الصريحة، أو بالإشارة المتضمنة للمعنى، أو بالأوصاف التي تصف النوع الإنساني كله، ويدخل المخاطبون المباشرون فيها من بين المعنيين بالخطاب!

ولقد كانت هذه التوجيهات كلها لونا من التربية لهذه الأمة، لتوسيع آفاقها، وإعدادها لرسالتها، لكيلا تنحصر في ذاتها، فضلا عن أن تنحصر في قبيلة أو عرق أو لون أو جنس أو لغة أو أرض - وإنما تتعامل مع الإنسان من حيث هو إنسان ملتزمة في الوقت ذاته بالمعيار الرباني. ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[4].

وهناك دروس أخرى تأتي من خلال التقديم والتأخير في السياق نضرب لها الأمثلة الآتية:

---

(١) سورة العصر: ١-٣.

(٢) سورة يس: ٤١.

(٣) سورة الحاقة: ١١.

(٤) سورة الحجرات: ١٣.

(١) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(١).

يلاحظ في سياق الآية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدم - لفظا - عن الإيمان بالله. والإيمان بالله لا يتقدم عليه شيء. تلك بديهية من بديهيات العقيدة. والمتدبر لكتاب الله يدرك التركيز الشديد في القرآن كله على هذه القضية، وأنها محور العقيدة، ومحور الدعوة، ومحور الرسالة التي أرسل بها الرسل جميعا إلى أقوامهم. فما معنى تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - لفظا - في الآية على الإيمان بالله؟

معناه أولاً أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيء مهم في ذاته. يبلغ من أهميته أن يقدم - لفظا - على الإيمان بالله.

ومعناه كذلك أن حقيقة هذا الدين لا ترسخ في الأرض إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إن خيرية هذه الأمة تتقرر - أول ما تقرر - بكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ويؤكد هذه الأهمية أن الأمة التي تقاعست عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعنت في كتاب الله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٢).

فإذا كانت الخيرية هنا ترتكز على قيام الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واللعنة هناك سببها - أو من أسبابها - عدم قيام الأمة بتلك المهمة، فإن هذا يبين لنا مدى أهمية هذا الأمر في حياة الأمة. ذلك أن التفلت من التكاليف طبع موجود في البشر، فإن لم يعالج بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الفساد يظهر - أي يستشري - في الأرض:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(٣).

والطريقة الوحيدة لمنع الفساد من الأرض هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بدرجاته المختلفة، وباختلاف المكلفين بكل درجة من درجاته..

وهذا هو الدرس الذي تبرزه الآية عن طريق تقديم لفظ على لفظ في السياق.

(١) سورة آل عمران: ١١٠.
(٢) سورة المائدة: ٧٨، ٧٩.
(٣) سورة الروم: ٤١.

(٢) ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

هنا أيضًا قدم شيء في السياق على الإيمان.. فقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هو الأمر المختص بالعقيدة. أي المختص بالإيمان. ولكنا نجد في السياق أن البصيرة قدمت - لفظا - على الإيمان الذي لا يتقدم عليه شيء. فما معنى التقديم؟

معناه أولا أن البصيرة أمر مهم في الدعوة، يبلغ من أهميته أن يقدم في السياق على قضية الإيمان التي لا يتقدم عليها شيء.. وتلك إشارة واضحة إلى أهميتها.

ومعـــناه ثانيا أن الدعوة إن لم تكن على بصيرة، فإنها لا تؤدى مهمتها المرجوة. وهـــذا أمر نلحظه جيدا في وقتنا الحاضر، حيث يذهب كثير من الجهد الذي يبذله بعض الدعاة بلا مردود حقيقي، برغم إخلاصهم في الدعوة، لنقص عندهم في البصيرة، يجعلهم لا يـــسلكون بدعـــوتهم المسلك الذي يؤثر في النفوس، بل قد يؤدى أحيانا إلى انصراف الناس عنهم، وعدم الاستفادة من المادة الدعوية التي يقدمونها، وفي ذلك من الخسارة ما فيه.

(٣) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾(٣).

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾(٤).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾(٥).

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٦).

في هذه الآيات كلها يتقدم العمل الصالح على الإيمان - لفظًا - في الآية. وقد قدمنا

(١) سورة يوسف: ١٠٨.
(٢) سورة النحل: ٩٧.
(٣) سورة طه: ١١.
(٤) سورة الأنبياء: ٩٤.
(٥) سورة النساء: ١٢٤.
(٦) سورة غافر: ٤٠.

أن الإيمان لا يتقدم عليه شيء. فتقديم العمل هنا له دلالة.. بل دلالات!

الدلالة الأولى أنه ذو أهمية بالغة، حتى أنه يقدم على الإيمان لا في آية واحدة بل في آيات متعددة في كتاب الله.

والدلالة الثانية أنه لا يمكن أن يخرج العمل من مسمى الإيمان كما يزعم المرجئة، طالما كانت له هذه الأهمية الواضحة التي تجعله يتقدم على الإيمان في تلك الآيات.

والدلالة الثالثة أنه لا يمكن أن يكون مغايرًا لحقيقة الإيمان كما يزعم المرجئة كذلك، ويستدلون استدلالاً خاطئًا بأن واو العطف تقتضي المغايرة لأن الشيء لا يعطف على ذاته! مخالفين بذلك ما يعرفه البلاغيون وأهل اللغة من جواز عطف الخاص على العام، والعام على الخاص، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾[1]. فجبريل وميكال هما من الملائكة دون شك، وهما معطوفان في الآية على كلمة ﴿مَلَائِكَتِهِ﴾.

ثم إنه وردت في كتاب الله آيات تحدد المؤمنين الذين يدخلون الجنة بأنهم هم الذين يعملون الصالحات بغير فصل بين الأمرين ولا عطف، كقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[3]. بما يؤكد أن العمل لا ينفصل عن الإيمان!

(٤) ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[4].

في هـــذه الآية تقدم ذكر التسبيح على ذكر الإيمان. والدلالة الواضحة لذلك هي إبراز أهمية التسبيح بالنسبة للمؤمن. فالمؤمن لا بدّ أن يسبح الله. والتسبيح بالنسبة له هو نـــوع من العبادة التي يؤديها لله، بل هو عنوان العبادة ومقتضاها؛ فلا إيمان بغير تسبيح. كما أن التسبيح هو التعبير التلقائي عن الإيمان، وهو الأداة التي يتقرب بها العبد من ربه، فيقربه إليه، فيكون من الصالحين.

(٥) ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: ٩٨.

(٢) سورة الكهف: ٢.

(٣) سورة الإسراء: ٩.

(٤) سورة غافر: ٧.

(٥) سورة الأعراف: ١٤٤.

هذا موسى عليه السلام يكلمه ربه، فيشتاق إلى رؤية ربه، ويتوجه بهذه الرغبة إلى مولاه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

إنها تجربة هائلة تلك التي خاضها موسى عليه السلام، لا يطيقها إلا أولو العزم من الرسل. ولو شاء الله سبحانه وتعالى أن يقول له ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ وكفى، فذلك يحسم القضية لأن الله لا يراه أحد في الحياة الدنيا. ولكن الله أراد أن تمتلئ روح موسى عليه السلام بمشاعر الرهبة تجاه ربه، ويعلم سبحانه أن ذلك معين له في مهمة الدعوة التي أرسل من أجلها، فهي تعمق إيمانه، وتعمق طاقته في الدعوة، وتعينه على تحمل الجهد الذي تقتضيه الدعوة من الدعاة..

ولما أفاق من الهول الذي غشيه حين اندك به الجبل وهو واقف يترقب رؤية ربه، كلمه ربه مرة أخرى ليطمئنه، ويزيل عنه آثار الهول الذي غشيه، ويتوقع الإنسان أن يقول له ربه إنه اصطفاه على الناس بتكليمه إياه.. وأي اجتباء أكبر من تكليم الله له؟ وأي رفع لدرجاته؟ وأي قربى إلى الله أعظم من هذه القربى؟!

ولكنا نجد في السياق أن أمرا آخر قد قدم على هذا الشرف العظيم الذي تفضل الله به على موسى! إنه الرسالة!

﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾.

الرسالة إذن هي المقدمة.. هي التشريف الأعظم، وهي التكريم الأعظم..

نعم.. إن تكليم الله لموسى هو تكريم عظيم له، ولكن الأهمية الكبرى هي للرسالة. هي التي فيها الهدى للناس، لجمهور كبير من الناس..

التكليم أمر يعتز به موسى عليه السلام، ولكنه أمر يخصه وحده. أما الرسالة فلا تخصه وحده، وإنما يعم خيرها محيطا واسعا من البشر.. ولهذا تقدم في السياق!

(٦) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾[2].

في الآية السابقة على هذه في السياق يحذر الله المؤمنين من الاستماع إلى الخبثاء

---

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٠١.

من أهل الكتاب، الذين يسعون إلى إغواء المسلمين عن دينهم، حسدا وحقدا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾(١).

وقد تكرر هذا التحذير في أكثر من آية:

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(٢).

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾(٣).

ويتوقع الإنسان أن يقول الله لهم - تنبيها وتحذيرا - كيف تكفرون ورسول الله بين ظهرانيكم؟! فلا شك في أن وجود الرسول ﷺ بشخصه بين المؤمنين كان له أعظم الأثر في تنشئة ذلك الجيل الفريد - جيل الصحابة رضوان الله عليهم - الذي رباه الرسول ﷺ على عينه، والذي بلغ الذروة في قوة الإيمان ورسوخه، اقتداء بالرسول ﷺ، وتأثرا بالمثل الحي أمامهم، الذي تجسد في شخصه الكريم كل ما في القرآن من توجيهات وتعليمات، حتى لتقول عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق الرسول ﷺ: «كان خلقه القرآن»(٤).

ولكن السياق يظهر لنا أن هناك أمرا آخر تقدم على وجود الرسول ﷺ بشخصه الكريم بين المؤمنين.. إنه آيات الله التي تتلى عليهم!

آيات الله المتلوة عليهم هي ركيزة الإيمان الأولى، ووجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم ركيزة إضافية، ولكنها ليست هي الأصل!

والرسول ﷺ ذاهب إلى ربه ذات يوم:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾(٥).

ولكن العنصر الدائم المصاحب لهذه الأمة في مسيرتها هو آيات الله.. هو القرآن المنزل عليهم. ومن ثم يقول الله لهم: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ ثم يقول لهم: ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾.

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٠.

(٢) سورة البقرة: ١٢٠.

(٣) سورة البقرة: ١٠٩.

(٤) أخرجه أحمد.

(٥) سورة الزمر: ٣٠.

آيات الله هي منبع الإيمان. وهي الحصن الحصين الذي يحمي المسلمين من كيد الأعداء حين يتمسكون بها ويعملون بمقتضاها:

﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(١).

(٧) ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾(٢).

هؤلاء قوم من الكفار الذين حل بهم عقاب من الله في الدنيا يقول الله عنهم:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾(٣).

أى أنهم تركوا مساكنهم خوفا وهلعا من مصيبة حلت بهم: رجفة أو صيحة أو زلزال عنيف، أو ما يكون من الوسائل التي يرسلها الله على الكفار عقابا لهم على كفرهم.. والله يوجه لهم القول، فيقول لهم: ﴿لا تَرْكُضُوا﴾ ويتوقع الإنسان أن يقول الله لهم: ارجعوا إلى مساكنكم التي ركضتم منها خوفًا وهلعًا، فسوف تسألون عن كفركم وجرائمكم..

ولكن السياق يخبرنا بشيء آخر غير المساكن.. قبل المساكن.. يطلب منهم الرجوع إليه من باب السخرية بهم والتبكيت لهم: إنه ﴿مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾!

﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾، فذلك هو الذي جعل الله يسلط عليكم عقابه، وهو الذي يؤدى بكم إلى الهلاك.

تلك نماذج من نوع خاص من التوجيهات..

دروس تربوية، يبرز الدرس فيها من خلال تقديم كلمة واحدة في السياق.

وتعالوا نغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر..

إن القرآن حافل بقصص الأنبياء.. ترد في سور شتى ولأغراض شتى. ولنأخذ نموذجًا منها ما جاء في سورة الأعراف:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قَالَ

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٠.

(٢) سورة الأنبياء: ١٣.

(٣) سورة الأنبياء: ١١، ١٢.

يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ * وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ * وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ * وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ

وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾(١).

واضح من السياق جملة أمور..

فالرسل جميعا أرسلوا إلى أقوامهم بكلمة واحدة، وقضية واحدة: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..

هذه هي قضية الرسل جميعا، وهذه هي قضية الوجود كله.. قضية الإله الواحد الذي لا إله غيره، والذي لا ينبغى أن يعبد غيره..

وقد أسلفنا أن الرسل لم يرسلوا ليقولوا للناس إن هناك إلها، فالفطرة تدرك ذلك من غير إرسال رسول:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾(٢).

ولا أرسل الرسل ليقولوا للناس اعبدوا إلهكم.. فالفطرة تتجه إلى عبادة الإله الذي تؤمن به من غير إرسال رسول، لأن الدين فطرة، والعبادة للإله مركوزة في الفطرة.

إنما أرسل الرسل جميعا ليقولوا: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾..

---

(١) سورة الأعراف: ٥٩-٩٣.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٢.

إنها قضية التوحيد.. وليست قضية الإقرار بوجود إله.

والضلالة الكبرى التي وقعت فيها البشرية في تاريخها الطويل هي ضلالة الشرك، وليست ضلالة إنكار وجود الله، باستثناء الجاهلية المعاصرة التي أغواها (شعب الله المختار)(١)!

ثم كان مع تلك الضلالة الكبرى ضلالات موازية، سواء في تصور الإله على غير حقيقته، أو إنكار الوحي المنزل من الله على رسله، أو إنكار البعث والحساب، أو اتباع غير ما أنزل الله..

وكلها ضلالات يقع فيها البشر في جاهليتهم، فيرسل الله لهم الرسل ليهتدوا إلى الحق، ويعبدوا الله وحده، ويصدقوا ما جاءت به رسلهم، ويتبعوا ما أنزل الله..

كما يتضح من السياق أن الأقوام كلهم كذبوا رسلهم، وأبوا أن ينقادوا لهم، وطالبوهم ببينة تثبت دعواهم أنهم رسل من عند الله، فلما جاءتهم البينات أصروا على كفرهم وتكذيبهم وأبوا الانقياد!

إنها إذن ليست مرة عارضة في تاريخ البشرية.. إنها قصة مكررة منتظمة الحدوث:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾(٢).

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٣).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾(٤).

الدروس التي تحملها قصص الأنبياء هي دروس موجهة للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، ولكنها موجهة إلى الدعاة خاصة، الذين هم ورثة الأنبياء، فإن لهم فيها عبرا قد لا يدركها غيرهم، أولا يعيرها التفاتا..

الدرس الأول أن أهم ما تقوم عليه حياة الناس هو العقيدة..

إن الطعام والشراب وغيره من ألوان النشاط الحسي هي أمور يشترك فيها الإنسان

---

(١) اقرأ إن شئت فصل ((دور اليهود في إفساد أوربا)) من كتاب ((مذاهب فكرية معاصرة)).

(٢) سورة الذاريات: ٥٢، ٥٣.

(٣) سورة يس: ٣٠.

(٤) سورة يونس: ٧٤.

والحيوان، وإن كان الإنسان ينبغي أن يمارسها على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان[١]!

ولكن الإنسان - الذي كرمه ربه - لم يكن قط مجرد قبضة الطين. إنما هو صار إنسانا بالنفخة العلوية فيه:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[٢].

فالنفخة العلوية من روح الله هي التي جعلته إنسانًا، وهي التي منحته الوعي والإرادة والحرية - عناصر الإنسان الأصيلة - وهي التي جعلته موضع التكريم الإلهي، وأسجدت له الملائكة:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾[٣].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٤].

وأول مقتضياتها عبادة الله على بصيرة ووعي وإرادة.. وذلك هو الدين القيم المركوز في الفطرة.. الفطرة السوية:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[٥].

ولكن قومًا من البشر تفسد فطرتهم، فينطفئ في أرواحهم ذلك النور الذي تبعثه النفخة العلوية في روح الإنسان، فيفقدون إنسانيتهم، ويصبحون كالأنعام، بل هم أضل:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٦].

(١) راجع إن شئت كتاب ((دراسات في النفس الإنسانية)).
(٢) سورة ص: ٧١، ٧٢.
(٣) سورة الإسراء: ٧٠.
(٤) سورة البقرة: ٣٤.
(٥) سورة الروم: ٣٠.
(٦) سورة الأعراف: ١٧٩.

ومن ثم ينقسم الناس تجاه الحقيقة الكبرى، حقيقة الألوهية، إلى قسمين اثنين:
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ..﴾(١).

منهم من يعبد الله، ومنهم من يعبد الشيطان.. وكل عبادة لغير الله هي من عبادة الشيطان؛ لأنه هو الذي يوحي بها للناس:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾(٢).

ويرسل الله الرسل لهداية الناس إلى ربهم، فيستجيب الذين يسمعون يستجيب أصحاب الفطر السليمة، ويقف مطموسو البصيرة الذين انتكست فطرتهم يعاندون الدين ويعادون المرسلين.

ذلك هو الدرس الأول..

والدرس الثاني أن أول من يتصدى لدعوة الرسل هم ﴿الملأ﴾.. ثم تتبعهم ﴿الجماهير﴾ الضالة المضللة!

ولم تتخلف هذه الظاهرة مع أي رسول أرسل إلى الناس!

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(٣).

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(٤).

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ..﴾(٥). ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة التغابن: ٢.
(٢) سورة يس: ٦٠، ٦١.
(٣) سورة الأعراف: ٥٩، ٦٠.
(٤) سورة الأعراف: ٦٥، ٦٦.
(٥) سورة الأعراف: ٧٣.
(٦) سورة الأعراف: ٧٥، ٧٦.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ..﴾(١). ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾(٢).

إن الملأ لا يصدهم عن الهدى مجرد انطماس البصيرة، ولا مجرد اتباع عرف الآباء والأجداد، ولا مجرد النفور من شيء لم يألفوه.. فهذه كلها قد تفعل فعلها مع الجماهير فتصدها عن الهدى بادئ ذى بدء إلا من فتح الله بصيرته. أما الملأ فقد يشاركون الجماهير في ضلالاتهم، ولكن لهم سببا خاصا بهم، يجعلهم يقفون ضد دعوة لا إله إلا الله، ويتصدون لها أول المتصدين.. إنها قضية الولاء.. قضية السلطان! فهم يريدون الولاء والسلطة لهم، بينما لا إله إلا الله تجعل الولاء والسلطان لله.. ودون ذلك وتندق الأعناق! إن لهم سلطة على الجماهير - على الذين استضعفوا - يوجهونهم كما شاؤوا، ويشرعون لهم ما شاؤوا، وتطيعهم هذه الجماهير المستضعفة فيتألهون عليها، ويشعرون بنشوة السلطان القاهر عليها، فتجئ دعوة لا إله إلا الله، فترد الألوهية لله وحده، والسلطان له وحده، والطاعة المطلقة له وحده، وهم لا طاعة لهم إلا فيما يطيعون هم ربهم فيه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾(٣).

ومعنى ذلك سلبهم أعز ما يعتزون به، وأشد ما يبعث الكبرياء في نفوسهم، وتنتشى له أحاسيسهم.. فيقفون للدعوة أول الواقفين، ويصرون ويعاندون..

والدرس الثالث أن طلبهم الآية التي تثبت صدق ما يدعيه الرسول من كونه مرسلاً من عند الله، لا ينبع في الحقيقة من الرغبة في التثبت والاستيثاق قبل اتخاذ القرار.. فلو أنه كان كذلك لكان المسلك الطبيعي والسوى أن يؤمنوا حين تجيئهم الآية.. إنما هو مجرد تكأة للصد وعدم الانقياد.. فإذا جاءت الآية التي علقوا إيمانهم عليها زادوا عنادا وإصرارًا واستكبارًا ليغطوا على الحرج الذي يحسونه في دخيلة أنفسهم من وضوح الحق وانكشاف الباطل وأنه لا يستند على شيء حقيقى..

---

(١) سورة الأعراف: ٨٥.

(٢) سورة الأعراف: ٨٨.

(٣) سورة النساء: ٥٩.

والدرس الرابع أن الملأ لا يكتفون تجاه دعوة لا إله إلا الله بالصد والتكذيب، والتشهير والتشويه، إنما يتعدون ذلك إلى الإيذاء! ويشتد الإيذاء كلما استجاب للدعوة نفر من ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾.. لأن معنى استجابتهم أنهم خرجوا على ألوهيتهم المزعومة، واستقلوا بكيانهم عن سلطانهم، أي لم يعودوا خاضعين - نفسيا على الأقل - لسيطرتهم! وأى شيء يمكن أن يتقبل إلا هذا! حتى وإن أعلن الدعاة المسالمة، وطلبوا المهادنة:

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا..﴾(١).

والدرس الخامس أن الرسل وأتباعهم الذين آمنوا لا يتخلون عن الحق بسبب ما يتعرضون له من الإيذاء، لأن الحق أغلى عليهم حتى من أنفسهم؛ وتعلقهم بربهم، حبا وخشية، أقوى من كل عوامل الضغط والإرهاب الذي يواجههم، ولأنهم - بعمق إيمانهم - يدركون أن الأمر بيد الله وليس بيد البشر، مهما بدا في ظاهر الأمر من جبروتهم، فيتوكلون عليه وحده، ويتوجهون إليه وحده بطلب النجاة من قبضة الأعداء:

﴿وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٢).

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾(٣).

والدرس السادس أن الباطل ينتفش فترة من الوقت - بقدر من الله - ثم يأتي نصر الله، فيزهق الباطل، وينتصر الحق ويثبت ويتمكن:

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾(٤).

والدرس السابع أن الفترة التي ينتفش فيها الباطل - بقدر من الله- هي فترة التمحيص للمؤمنين، التي تسبق محق الكافرين، ولها حكمتها عند الله:

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف: ٨٧، ٨٨.

(٢) سورة إبراهيم: ١٢.

(٣) سورة الأنعام: ٣٤.

(٤) سورة الرعد: ١٧.

(٥) سورة آل عمران: ١٤١.

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(١).

وليس عن قلى من الله للذين آمنوا به يتركهم يبتلون ويعذبون ويضطهدون على يد الكفار.. ولكن حتى تصفو نفوسهم من كدرها، وتتعلق بالله وحده، وتتوكل عليه وحده، وتتجرد له. فإذا علم الله من نفوسهم أنها خلصت له، ولم يعد حب الدنيا يشغلهم عن ربهم وعبادتهم وآخرتهم، مكن لهم وهم مهيؤون نفسيا للتمكين، بمعنى أن التمكين لا يطغيهم في الأرض لأنهم باعوا الحياة الدنيا، ولا يفسد مشاعرهم لأنهم تجردوا لله، وتعلقوا به حبا ورهبة: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾(٢).. فينشرون العدل والسلام في الأرض، ويقومون بحراسة الحق: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(٣).

والدروس لا تحصى..

ولكنا نختار درسا معينا نختم به حديثنا في هذه الفقرة..

إنه قصة فرعون..

وربما كانت قصة فرعون أكثر القصص ورودا في القرآن الكريم، فقد ذكر في القرآن أربعا وسبعين مرة(٤). وفرعون من أشد الطغاة طغيانا في التاريخ.. ويكفي أن نعرف من جبروته أن موسى عليه السلام حين أمره ربه أن يذهب إلى فرعون ليطلب منه إطلاق سراح بني إسرائيل، أدركه الخوف، وطلب من ربه أن يعينه بأخيه هارون، فآتاه الله ما سأل، وأرسل معه أخاه هارون، وأمرهما أن يذهبا إلى فرعون، فأعلنا - معًا - خوفهما من المواجهة!

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾(٥)... ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي

(١) سورة العنكبوت: ٢، ٣.

(٢) سورة الإسراء: ٥٧.

(٣) سورة الحج: ٤١.

(٤) انظر المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي.

(٥) سورة طه: ٢٤ - ٣٦.

وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(١).

فماذا كان من أمر السحرة حين آمنوا، فهددهم فرعون بأنه سيقتلهم ويصلبهم في جذوع النخل:

﴿.. فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾(٢).

كيف استعلى الإيمان في قلوبهم على كل متاع الأرض، وكل مخاوف الأرض؟!

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(٣)

إنها الروعة التي تجل عن التعبير!

وبهذه المناسبة، نقول إن هناك درسا للدعاة خاصة في قصة سحرة فرعون، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الكهف.. فهؤلاء آمنوا، ثم ذهبوا ضحايا الظلم والطغيان، ولم يمكنوا في الأض..

والقصص في القرآن لا يرد لمجرد تسجيل الوقائع التاريخية، وإنما للعبرة..

فمـــا العـــبرة من إيراد هذه القصص الثلاث في وسط الحشد الضخم من قصص الأنبياء الذين مكن الله لهم، وأنجاهم من أعدائهم، ودمر على الطغاة بشتى الوسائل:

﴿فَكُـــلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِـــنْهُمْ مَـــنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٤).

العبرة - للدعاة خاصة - أنه ليس من الضروري في كل مرة أن يمكن الله لأشخاص المؤمنين في أعمارهم الدنيوية المحدودة.. ولكنه - في كل مرة - يمكن للدعوة!

---

(١) سورة طه: ٤٢- ٤٦.

(٢) سورة طه: ٧١.

(٣) سورة طه: ٧٢، ٧٣.

(٤) سورة العنكبوت: ٤٠.

إن هؤلاء الذين قضى عليهم الطغيان فلم يمكنوا في الأرض، ولم يروا النصر متحققا لأشخاصهم في عمرهم المحدود.. هؤلاء لم يذهبوا.. إنهم زاد ضخم لدعوة الحق.. زاد باق في الذكر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. زاد يملأ قلوبا من قلوب المؤمنين جيلاً وراء جيل، فيستصغرون الحياة الدنيا، ويرتفعون بإيمانهم على كل متاع الأرض، وعلى كل مخاوف الأرض، فيقفون بشجاعة وصبر وإيمان في وجه الباطل، ويضحون بأنفسهم لتكون كلمة الله هي العليا..

كلا! لم يذهبوا! حتى في الأرض لم يذهبوا.. فضلاً عن جنات الخلد في الآخرة:

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾[2].

﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[3].

يلفت النظر في قصص الأقوام السابقين في كتاب الله ذلك الحديث المطول المفصل عن بني إسرائيل.

وفي قصصهم دروس وعبر..

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4].

إن بـــني إسرائيل أمة اختارها الله، وأنزل إليها كتابًا مفصلاً، ومكن لها - بكتابها - فترة من الزمن في الأرض، فقام لها ملك، وامتد لها سلطان، وأفاض الله عليها من نعمه.. ثم..؟

ثم كفرت بأنعم الله، وعتت عن أمر ربها، وأفسدت في الأرض، وضلت وأضلت، فنزع الله منها العهد، ومنحه لأمة أخرى..

(١) سورة آل عمران: ١٦٩.
(٢) سورة البروج: ١٠، ١١.
(٣) سورة آل عمران: ١٤٠.
(٤) سورة يوسف: ١١١.

وهذه الأمة - أمة محمد ﷺ - اختارها الله، وأنزل إليها كتابًا مفصلا، ومكن لها - بكتابها - فترة من الزمن في الأرض.. فهي تحذر - من خلال قصة بني إسرائيل المعروضة في الكتاب المنزل عليها - من أن تفعل مثلما فعلت الأمة الأولى فينزع منها العهد.. وسنة الله لا تحابي..

ومما يؤسف له أن الأمة الثانية انحرفت - رغم التحذير - وإن لم تصل قط إلى ما وصلت إليه الأمة الأولى، وتحقق فيها ما أخبر عنه رسولها ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟! قال: فمن؟!»[1].

ونأخذ بالذات ذلك الوصف الذي أشرنا إليه من قبل في (الإعجاز البياني):

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[2].

فماذا فعلت الأمة الثانية بكتابها الذي مكنها الله به قرونا ممتدة في التاريخ؟

لقد تحول في حس كثير من أبنائها في جيل الغثاء هذا إلى تراث..

تراث من عهد الآباء والأجداد - كانوا - يطبقونه في واقع حياتهم ويلتزمون به، فخلف من بعدهم خلف يحفظونه تراثا ولكن لا يعملون به، ولا يطبقونه في واقع حياتهم، ولا يعدونه مصدر التلقي ولا منهج الحياة. إنما مصدر التلقي عندهم هو (الحضارة الغربية) ومنهج الحياة هو ما يسير عليه الغرب في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر.. وليتهم يجيدون تقليد الغرب في إيجابياته.. لكنهم يقلدونه في سلبياته، ويدخلون مثله في جحر الضب!

وتشغلهم الحياة الدنيا فيأخذون عرض هذا الأدنى، ثم يقولون: سيغفر لنا! (أمة محمد بخير)!! (يا بختنا بالنبي)!!

وعلى أي أساس يتوقعون الغفران؟ على أساس ما لديهم من (التراث)! فهم (أمة القرآن)، وهم (حفاظ القرآن) وهم قراؤه!

أما العمل بمقتضاه، فقضية أخرى.. وربك غفور رحيم!

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) سورة الأعراف: ١٦٩.

نعم.. إن الله لا يترك هذه الأمة تنفلت من دينها كما تفلتت أمم سابقة:

«يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها»(١).

ولكن أين هي اليوم من رسالتها التي أخرجها الله لتؤديها؟:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٢).

منا أحوج الأمة إلى أن تعي الدرس.. والدروس كلها في كتاب الله..

ولنغترف غرفة أخرى من البحر الزاخر..

ولنتأمل حديث القرآن على السنن الربانية التي يجريها الله في حياة البشر، والتي قال عنها سبحانه إنها لا تتبدل ولا تتحول، ولا تحابي أحدا من البشر:

﴿.. فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلا﴾(٣).

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٤).

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾(٥).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(٦).

ونسأل بادئ ذى بدء: ما علاقة الحديث عن السنن الربانية بمنهج التربية القرآنى، وبالإعجاز التربوى في القرآن؟

إن الله لا يورد الحديث عن السنن في كتابه المنزل لمجرد إثبات الحقائق، وإنما لهدف تربوى وراء ذلك. ولقد تحدثنا من قبل عن إجابة القرآن الكريم عن أسئلة الفطرة التي تلح عليها بوعى أو بغير وعى: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟ تلك الأسئلة التي إن لم

---

(١) رواه أبو داود والحاكم في المستدرك.

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

(٣) سورة فاطر: ٤٣.

(٤) سورة البقرة: ١٢٤.

(٥) سورة النساء: ١٢٣.

(٦) سورة المائدة: ١٨.

تتلق إجابة واضحة محددة بعثت القلق والاضطراب والحيرة في النفوس، وأدت - في كثير من جاهليات الأرض - إلى ضلال كبير.. أوضحه ما تعانيه الجاهلية المعاصرة من القلق والأمراض النفسية والعصبية والجنون والانتحار، وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة..

وهنا نقول إن القرآن لم يكتف بإعطاء (رؤوس المسائل) في (دليل الرحلة) التي يقوم بها البشر على الأرض، بإعطاء إجابة واضحة عن أسئلة الفطرة، بل مضى شوطا آخر في (البيان) فبين للبشر خطوطا أدق في ذلك الدليل، فبين لهم الطرق والمسالك، وبين لهم ما يؤدى إليه كل طريق يسلكه السالكون، حتى يعرفوا من مبدأ الطريق ما الذي تنتهي إليه نهايته، وماذا يجدون في أثنائه فيختاروا لأنفسهم على بصيرة، ولا يكون أمرهم عليهم غمة وهم يختارون الطريق، ويتحملوا مسؤوليتهم كاملة عن اختياره:

﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[١].

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٢].

و(السنن) هي تلك الطرق.. التي يؤدى كل منها إلى نهاية محددة في الحياة الدنيا، تترتب عليها نتيجة محددة في الآخرة.

ومن رحمة الله بالبشر أن ثبت لهم هذه السنن، وإلا فلو كانت غير ثابتة فأى ارتباك يمكن أن يصيب البشر في رحلتهم، حين يسلكون طريقا قيل لهم إنه يؤدى إلى غاية معينة، فيجدون أنفسهم إزاء غاية أخرى غير التي اختاروا الطريق من أجلها؟

ومشيئة الله طليقة لا قيد عليها، يرتب ما شاء من النتائج على ما شاء من الأسباب، ولكنه رحمة منه بعباده، وتيسيرًا لهم في رحلتهم في الحياة الدنيا، قد ثبت لهم سننه ليسلكوها على بصيرة، وليحملوا مسؤوليتهم كذلك كاملة يوم القيامة.

ومن رحمته كذلك، أن بين لهم هذه السنن في كتابه المنزل، فلم يرد لهم أن يضيعوا الجهد في التعرف على تلك السنن، حتى إذا عرفوها كان جهدهم قد أنهك في المحاولة والخطأ، ويكون الأوان قد فات! بل اراد لهم أن يكون جهدهم مبذولاً في الحركة المثمرة في الطرق التي وضحها لهم وبين لهم عواقبها، حتى يفوزوا بأفضل النتائج في عمرهم المحدود.

ولم يخف الله عنهم مشقة الطريق، حين تكون هناك مشقة في الطريق! بل بينها لهم كاملة من أول الطريق! بل بين لهم أكثر من ذلك أن طريق الإيمان طريق محفوف بالمخاطر

---

(١) سورة القيامة: ١٤، ١٥.

(٢) سورة النساء: ١٦٥.

والمتاعب والتضحيات، وأن الطريق الآخر حافل بالمغريات! ولكنه وضح لهم نهاية هذا الطريق وذاك! ودعاهم إلى اقتحام الطريق الأول، والصبر على عقباته وتضحياته، وحذرهم من سلوك الطريق الآخر المليء بالمغريات. وقال لهم إن أمامهم طريقين: طريقا وعرًا شاقا ينتهي بجنة الخلد، وطريقًا محفوفًا بالمغريات واللذائذ ينتهي إلى النار.. ثم تركهم يختارون!

وليست القضية قضية فرد يسلك هنا أو يسلك هناك.. إنما هي قضية الجموع البشرية.. فالسنن المعروضة لا تخص الفرد وحده، إنما تشمل الجميع.. وتبين مصائر الأمم كما تبين مصائر الأفراد. ومن ثم، فهي مناهج تربوية تربي كل فرد على حدة، وفي الوقت ذاته تربي الجموع، فتكون جموعًا مهتدية إذا التزمت، أو جموعا ضالة إذا تنكبت عن الصراط المستقيم.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾(١).

بل إن الله - رحمة منه بعباده- لم يكتف ببيان (رؤوس المسائل) في كتابه المنزل، ولا بيان السنن التي يجرى قدره من خلالها، بل عرض عليهم مصداق هذه السنن من خلال التاريخ، ووجههم أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف انطبقت تلك السنن في عالم الواقع خلال التاريخ.

والقصص في القرآن يؤدى هذه المهمة.

ففضلا عن الجانب الجمالي في السرد القصصي، الذي أشرنا إلى بعض معالمه في فصل الإعجاز البياني، وما له من تأثير في الوجدان، فإن له هدفًا تربويا واضحا، هو بيان التطبيق الواقعي للسنن الربانية في واقع الحياة البشرية. وكثير من هذه السنن لا يستوعبها عمر الفرد المحدود، فقد تستغرق أجيالاً عدة من حياة البشر حتى تتحقق بتمامها. لذلك يجيء ذكرها مفصلا في كتاب الله، وتعرض وقائعها ليرى الناس أنها سنن حقيقية فاعلة في عالم الواقع، وليعلموا أنها متواترة لا تتخلف ولا تتغير ولا تتبدل، وليعتبروا بها فلا يسيروا في اتجاه مضاد لها.

وهذا ينطبق على كل القصص الواردة في كتاب الله بدءا من قصة خلق آدم، وقصة آدم مع الشيطان، التي يقول عنها رب العالمين إنها ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾، لأنها هي رأس القضية كلها بالنسبة للإنسان:

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ

---

(١) سورة الأنعام: ١٣٢.

يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١).

كما ينطبق على قصص الأنبياء مع أقوامهم، التي هي مصداق ما قدره وقرره رب العالمين في عباده، والتى وقعت أحداثها بالفعل في واقع الأرض، والتى هي سارية المفعول إلى يوم القيامة: فالفائزون في الدنيا والآخرة هم الذين اعتبروا بالدرس ووعوه، وعملوا بمقتضاه، والخاسرون هم الذين غرتهم الأماني، وغرتهم الحياة الدنيا، فاستمعوا لغواية الشيطان، فهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم، كما جاء وصفهم في الآية الثانية عشرة من سورة (محمد).

والآن فلنأخذ في الحديث عن بعض السنن الواردة في كتاب الله.

هناك سنن تتعلق بالتمكين في الأرض، ويبين الله لنا منذ البدء أن التمكين ليس خاصا بفئة دون فئة، فالمؤمنون يمكنون، والكفار يمكنون:

﴿كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(٢).

ولكن هؤلاء أو هؤلاء لا يمكنون بغير جهد يبذلونه، فقد كتب على الإنسان أن يكدح لينال ما يريد:

﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾(٣).

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(٤).

فالأسباب التي لا بدّ من اتخاذها للحصول على التمكين واحدة بالنسبة لهؤلاء

(١) سورة ص: ٦٧ – ٨٥.
(٢) سورة الإسراء: ٢٠.
(٣) سورة الانشقاق: ٦.
(٤) سورة البلد: ٤.

وهؤلاء..

ولكن تفترق بعد ذلك الطريق.. فهناك نوعان من التمكين: تمكين الرضا، وتمكين الاستدراج، الأول للمؤمنين والآخر للكفار، ولكن منهما سمات في واقع الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فهما على طرفي نقيض.

يقول تعالى عن تمكين الاستدراج:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(١).

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(٢).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

بل إن الله قد يزيد لهم في التمكين - استدراجًا لهم - إذا أوغلوا في الكفر، ولكن إلى حين:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤)

أبواب كل شيء من زينة الحياة الدنيا وزخرفها الحسي والمادي.. ولكن هناك بابين من أبواب التمكين لا يعطيهما الله للكفار، وإنما يختص بهما المؤمنين، وهما الفارق الرئيسي بين تميكن الرضا وتمكين الاستدراج:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ..﴾(٥)

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٢، ١٨٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٨.

(٣) سورة هود: ١٥، ١٦.

(٤) سورة الأنعام: ٤٤، ٤٥.

(٥) سورة الأعراف: ٩٦.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(١).

البركة والطمأنينة بابان من أبواب التمكين لا يحصل عليهما الكفار في الحياة الدنيا، برغم كل الأبواب المفتحة عليهم، من القوة السياسية والحربية والتكنولوجية والرخاء المادي.. ومن كان في شك من ذلك فلينظر إلى واقع الغرب اليوم، الذي وصل في قوته المادية إلى مستوى لم يسبق للبشرية أن وصلت إليه، ومع ذلك فهو يعج بالشقاء والكآبة التي توصل بعض الناس إلى الانتحار والجنون والأمراض النفسية والعصبية وتسلم بعضهم إلى الخمر والمخدرات، وتدفع آخرين إلى الجريمة..

كلا! لا بركة ولا طمأنينة..

بينما تمكين الرضا فيه كل أبواب القوة، مضافًا إليها الطمأنينة الروحية المنبثقة من ذكر الله، والبركة التي تحيط المجتمع المسلم من فيض الرحمن:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(٢).

فقد تكفل الله لهم بالاستخلاف والتمكين والتأمين، فضلا عن البركة والطمأنينة، حين يعبدونه حق عبادته، ويقومون بمقتضيات دينهم وتكاليفه على الوجه الصحيح..

ومن ثم، فإن الذين ينبذون دينهم ويقولون إنهم ينبذونه ليحصلوا على القوة والتمكين واهمون في دعواهم ومموهون. فقد جرفتهم أهواؤهم وشهواتهم، ولكنهم يتظاهرون بالعقلانية، وبأن عقلانيتهم هي التي تدفعهم إلى نبذ الدين! كلا! لقد كرهوا ما أنزل الله، ثم زينوا كفرهم بدعاوى ما أنزل الله بها من سلطان.

إذا كان الغرب قد نبذ دينه - لأسباب كامنة في ذلك الدين وفي رجاله وكنيسته - ثم حصل على القوة والتمكين، فذلك تحقيق للسنة التي يعامل بها الكفار:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٣).

أما المؤمنون فلا يمكنهم وهم عصاة! لا يمكنهم حتى يعودوا إليه، ويستقيموا على طريقه.. وتاريخهم كله هو مصداق هذه الحقيقة: كلما تمسكوا بدينهم تمكنوا في

(١) سورة الرعد: ٢٨.

(٢) سورة النور: ٥٥.

(٣) سورة الأنعام: ٤٤.

الأرض.. وكلمـــا تخلخلـــت قبضتهم من حبل الله المتين جاءهم الأعداء، وعجزوا عن صدهم، وأدركهم الوهن، فذلوا..

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؟!(١)

وهناك سنن لزوال التمكين..

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(٢)

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(٣)

الترف هو الحمض الأكال الذي يأكل الأفراد والشعوب.. والشعوب بصفة خاصة.

ولأن السنن الاجتماعية بطيئة في تحققها، وقد تستغرق مئات السنين حتى يتكامل مفعولها، فإن كثيرا من الطغاة لا يدركونها حين لا تتحقق في أعمارهم المحدودة، فيحسبون أنهم ناجون من آثارها، أو يقولون من جانب آخر: (أنا ومن بعدي الطوفان!) فيستغرقون في الترف غير ناظرين إلى النتائج. فيقول الله لهم: سيروا في الأرض فانظروا! انظروا كيف كانت مصاير من كان قبلكم. فالتاريخ هو معرض تحقق السنن الاجتماعية الطويلة الأمد، التي تتجاوز أعمار الأفراد.. ولكن الطغاة - خلال التاريخ - لا يعتبرون! وكل واحد منهم يظن أنه حالة فريدة غير مسبوقة، لا تنطبق عليها أحوال السابقين:

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾(٤).

لذلك يعج التاريخ بأخبار الطغاة!

ويلحق بسنن زوال التمكين سنة التداول:

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(٥).

لم تدم قوة في الأرض مهما طال بقاؤها.. وإنما يحدث التغيير دائمًا، وتنتقل القوة من مكان إلى مكان، ومن شعب إلى شعب، ومن جنس من أجناس البشر إلى جنس آخر.

وعلى الرغم من أنها سنة من سنن الله، لها حكمتها عنده، فإن لها أسبابها.. فهي لا

---

(١) سورة محمد: ٢٤.

(٢) سورة الأنفال: ٥٣.

(٣) سورة الإسراء: ١٦.

(٤) سورة إبراهيم: ٤٥، ٤٦.

(٥) سورة آل عمران: ١٤٠.

تحدث اعتباطا. إن الأمم في نشأتها واضمحلالها تمر بأطوار..

في نشأتها تكون مستوفزة الطاقات، فهي تصارع القوى القائمة لتثبت وجودها، ثم لتثبت وجودها. والصراع دائمًا يحفز القوى الكامنة، فتعمل بكل طاقتها..

ثم تجيء فترة تكون الأمة ممكنة ولكنها خائفة من أعدائها، فتظل يقظة لنفسها وما حولها، فيستمر تمكينها.

ثم تجيء فترة أخرى تطمئن فيها إلى أنها قد أصبحت في مأمن من أعدائها، لأنها بلغت مبلغا من القوة يرهب أعداءها فلا يفكرون في العدوان عليها..

وفي هذه الفترة يبدأ التراخي، ويبدأ الترهل، ويبدأ الترف، ويبدأ الانحلال الذي يؤدي إلى الضعف، فيطمع الأعداء..

وحين يصل الترف إلى حب الحياة وكراهية الموت، وكراهية تكاليف الجهاد في الأنفس والأموال، يبدأ الاضمحلال الذي يؤدي إلى الزوال! وتنتقل القوة إلى مولود جديد، يشب ثم يترعرع، حتى تدركه السنة في نهاية المطاف..

وقد التفت ابن خلدون إلى هذه السنة وركز عليها كثيرا، وعنه أخذ توينبي، وشبه الأمة بالشجرة، تبدأ صغيرة نابتة، ثم تقوى وتتمكن، ثم تشيخ فتموت، وقال إن تاريخ الأمم كتاريخ الأفراد يبدأ بالميلاد وينتهي بالموت..

ولكنا حتى لو افترضنا صحة ما ذهب إليه ابن خلدون، وتابعه توينبي، فنحن نتساءل: هل الشيخوخة التي تؤدي إلى الموت هي السنة، أم هي الترف الذي يؤدي إلى الانحلال؟

ونسأل سؤالا آخر: هل الأمة الإسلامية تنطبق عليها تلك السنة المفترضة: سنة الشيخوخة التي تؤدي إلى الموت؟

نحسب - والله أعلم- أن الله لم يكتب هذه السنة - إن كانت سنة حقا- على الأمة الإسلامية في مجموعها. فقد شاخت الدولة الأموية وذهبت، وشاخت الدولة العباسية وذهبت، وشاخت دولة المسلمين في الأندلس وذهبت، وشاخت الدولة العثمانية وذهبت حين أصيبت كلها بالداء القاتل، داء الترف، ولكن الأمة الإسلامية لم تذهب!

والصحوة الحالية دليل..

والمستقبل مفعم بآمال العودة إلى التمكين، وخاصة حين تقع المعركة التي أخبر عنها الرسول ﷺ، التي يقول فيها الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا من خلفي

يهودى فتعال فاقتله..

وقد يكون مفتاح الأمر هو قول الرسول ﷺ: «يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد هذه الأمة دينها»(١).

وإذا تجدد الدين تجددت القوة وعاد التمكين تحقيقا لوعد الله:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(٢).

من السنن التي يرد ذكرها كثيرا في كتاب الله سنة الابتلاء:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(٣).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٤).

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٥).

والابتلاء أنواع.. بعضها عام يشمل البشر جميعا، وبعضها يختص بفئة معينة من الناس.

والابتلاء العام الذي يشمل البشر جميعا قد أشرنا إليه من قبل، ولا بأس بالتذكير به هنا مرة أخرى.

في فطـرة الإنـسان رغبة عميقة في الاستمتاع، والأرض مزينة بألوان مختلفة من المـتاع، ولكـن الله سبحانه وتعالى - وهوالحكيم الخبير - رسم حدودًا أباح المتاع في داخلـها وحرمه خارجها، وله حكمته في التحليل والتحريم. فهو يحل الطيبات ويحرك الخـبائث، فأبـاح مـا يعلم سبحانه في صالح الإنسان، وحرم ما يعلم أنه يضره. ولكن الرغبات في نفس الإنسان حادة وعميقة:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ

---

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) سورة النور: ٥٥.

(٣) سورة الإنسان: ٢.

(٤) سورة الكهف: ٧.

(٥) سورة الأنبياء: ٣٥.

الْمَآبِ﴾(١)

والاختبار الذي يوضع الإنسان فيه في كل لحظة من لحظات حياته الواعية المريدة المختارة هو هذا: هل يلتزم في تناوله للمتاع الأرضي بالحدود التي رسمها الله، أم تغلبه شهوته فيتجاوز الحدود؟ وفي كل لحظة تسجل له نقطة في الاختبار، وفي النهاية تعلن النتيجة، فإما إلى الجنة وإما إلى النار.

ذلك هو الاختبار الأكبر الذي خلق الإنسان من أجله، وهو وثيق الصلة بالعبادة التي قال الله إنه لم يخلق الإنسان إلا لها:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢).

فالعبادة معناها - أو مؤداها - طاعة الله فيما أمر به وما نهى عنه. أي - بعبارة أخرى- الالتزام بالحدود التي حددها الله للمتاع. ومادة الاختبار هي نفس الأمر: هل يعبد الإنسان ربه - فيطيعه - أم يعبد الشيطان؟

وأداة الشيطان التي يفتن بها الناس عن عبادة ربهم هي تزيين المتاع الزائد عن الحد:
﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(٣).

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(٤).

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا﴾(٥).

﴿وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ..﴾(٦).

ويلاحظ في الآية الخيرة وصف دقيق للخطوات التي يتبعها الشيطان في غواية

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.
(٢) سورة الذاريات: ٥٦.
(٣) سورة الحجر: ٣٩، ٤٠.
(٤) سورة الأعراف: ١٦، ١٧.
(٥) سورة الإسراء: ٦٣-٦٤.
(٦) سورة النساء: ١١٨-١١٩.

الناس، فهو ابتداء يضلهم، فيقودهم إلى الطريق الذي قال لهم الله لا تسلكوه، ويمنيهم أنهم سيجدون بغيتهم (من المتاع) في هذا الطريق، فإذا استسلموا له أخذ يأمرهم أمرًا بمخالفة أمر الله فيطيعونه..

ومن رحمة الله بعباده أنه لا يخرجهم من رحمته بمجرد هفوة يستجيبون فيها لوسوسات الشيطان:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[1].

ومتى مرتكب الكبيرة لا يخلده في النار، إنما المخلدون في النار هم الذين يكفرون بآيات الله، والذين يشركون به، والذين يستحلون ما حرم الله، ويشرعون بغير ما أنزل الله.

إذا كان هذا هو الاختبار العام الذي يدخل فيه الناس جميعًا، فينجح من هداه الله، ويرسب من وقع في الضلال، فهناك أنواع أخرى من الاختبار - أو الابتلاء- لا تقع لكل الناس، إنما فئات وفئات..

فبعض الناس يبتلون ببسط الرزق، وبعضهم يبتلون بقدر أرزاقهم:

﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلا..﴾[2].

كلا! ليست القضية كذلك! ليست بسط الرزق أو تقديره.. إنها قضية الابتلاء ببسط الرزق، أو الابتلاء بتقديره! أي اختبار سلوك الإنسان حين يبسط له الله في الرزق.. كيف يتصرف؟ وحين يقدر له رزقه كيف يتصرف؟! وهو في الحالين موضع اختبار..

فأما الذي بسط الله له في الرزق، فإن شكر النعمة، وأعطى حق المال فلم يبخل به، ولم يسرف في إنفاقه، ولم ينفقه في سرف ولا ترف ولا مخيلة، فقد نجح في الاختبار، وأما غير ذلك:

﴿كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[3]. أولئك راسبون!

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٥-١٣٦.

(٢) سورة الفجر: ١٥-١٧.

(٣) سورة الفجر: ١٧ - ٢٠.

وأما الذي قدر الله عليه رزقه فإن صبر وحمد الله على ما أعطى، وسأل الله من فضله، ولم يلجأ إلى وسيلة حرام يزيد بها ماله، فقد نجح في الاختبار.. وأما إن سخط، وقال ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ ولم يكرمني كما أكرم غيري وأنا أحق بفضل الله من غيري.. فهذا من الراسبين!

وهناك ابتلاء بفضل خاص يعطيه الله فردًا أو جماعة أو أمة، لينظر كيف يفعلون. كما قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(١).

وكما قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٢). وكما قال الله عن بني إسرائيل: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ﴾(٣).

وهناك ابتلاء لكشف المؤمن من المنافق، وتصفية الصف من المنافقين:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(٤).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾(٥).

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾(٦).

واختبار الصبر هو أشد درجات الاختبار، وهو في الوقت ذاته أعلى درجات الاختبار:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ

(١) سورة النمل: ٤٠.
(٢) سورة الأعراف: ١٢٩.
(٣) سورة الدخان: ٣٣.
(٤) سورة العنكبوت: ٢، ٣.
(٥) سورة العنكبوت: ١٠، ١١.
(٦) سورة محمد: ٣١.

عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[١].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[٣].

والأجر على الصبر أعلى الأجر:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٤].

أشرنا من قبل الى بعض الشروط التي اشترطها الله على المؤمنين لكي يستحقوا تنزل النصر عليهم:

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾[٥].

لا بدّ من وجود مؤمنين متآلفة قلوبهم، متجردين لله، مستعدين للقتال.. وثمة شروط أخرى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[٦].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

وهناك سنن غالبة - أي ليست حتمية- يتحقق فيها انتصار الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة:

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥ - ١٥٧.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٢.

(٣) سورة البقرة: ٢١٤.

(٤) سورة الزمر: ١٠.

(٥) سورة الأنفال: ٦٢ -٦٥.

(٦) سورة الأنفال: ٦٠.

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

بينما الفئة الكثيرة قد تغلب إذا أعجبتها كثرتها، ونسيت التوكل على الله:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

وأخيرا نتحدث عن سنة التدافع:

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾.

وبعض الناس يخلط بين هذه السنة وبين ما يسمى (صراع البقاء) الذي أشار إليه دارون، وقال فيه (البقاء للأنسب) "Survival for the fittest" فحرفها من حرفها الى (البقاء للأصلح). ثم زعم الزاعمون من الغرب أنهم هم الأولى بالبقاء، لأنهم هم الأصلح!

فدارون أولا لم يتحدث قط عن(القيم)! ولم يذكر الصلاح بالمعنى المعروف عليه. إنما قال حين تحدث تغيرات جيولوجية فإن الكائنات التي لا يتناسب تركيبها مع الأحوال الحادثة تنقرض(كما انقرض الديناصور) وتبقى الكائنات التي يتناسب تركيبها- أو لا تتأثر- مع الأحوال الحادثة، ولا صلة برقي الكائن أو عدم رقيه في سلم التطور. فإن الديناصور الذي انقرض كان أرقى بما لا يقاس من الصرصار، ومع ذلك انقرض الديناصور الأرقى وبقي الصرصار! والأمر أولا وأخيرًا في عرف دارون لا صلة له بالصلاح النفسي أو الخلقي، فذلك موضوع لم يتطرق له دارون قط، وهو من عيوب نظريته، حين زعم أن الإنسان قد انحدر عن أحد القردة العليا، وأهمل تماما الجانب النفسي والأخلاقي والروحي الذي يفرق بين الحيوانات جميعا وبين الإنسان، والتفت إلى التركيب الجسدي وحده..

ولكن بصرف النظر عن كل ذلك، فالسنة التي يتحدث عنها القرآن الكريم ليست هي (صراع البقاء) الذي يتحدث عنه الغرب، والذي هو غارق فيه إلى الأذان، والذي يحسبه هو الغاية القصوى من الوجود!

إن صراع البقاء لمجرد البقاء، أو من أجل الغلبة والسيطرة، بغير قيم ولا أخلاق، وهو السائد في عالم اليوم، لهو صراع مدمر، لأنه هو الذي جعل شريعة الغاب هي العملة

المتداولة بين الشعوب، القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق.

بينما التدافع الذي قرره الله وجعله من سننه هو تدافع الخير والشر، الذي ينتهي بغلبة الخير والقضاء على الشر. والله يمن على عباده بأنه جعل من سننه أن يوجد في الأرض أهل حق وأهل إيمان وأهل صلاح يدفع الله بهم أهل الباطل، فيزهق الباطل وينتصر الحق، وتخلو الأرض من الفساد أو في القليل ينحسر الفساد فلا يصبح هو المسيطر. وتلك كانت مهمة الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، والأمة الوسط التي تكون شاهدة وقائدة ورائدة لكل البشرية.. وإن غياب هذه الأمة عن الساحة لهو الكارثة الكبرى التي أصابت البشرية بما أصابها من فشو الفساد في الأرض، وفشو الظلم والاستبداد وصنوف الانحراف، ويكفي منه السيطرة العالمية لليهود، والعولمة التي تريد أن تفرض الظلم الاقتصادى والانحلال الخلقى في الأرض..

كلا! ما أبعد سنة الله التي تهدف إلى حفظ الأرض من الفساد، عن أعراف البشر الضالة في عصر عبادة الشيطان، التي تجعل الفساد هو الغالب في الأرض!

ولعل خير ما نختم به حديثنا عن الإعجاز التربوى في كتاب الله الكريم، هو أسماء الله الحسنى.

إن تكرار ورود الأسماء والصفات في القرآن الكريم هو ظاهرة تلفت النظر.. ولقد تحدثنا عن هذه الظاهرة من قبل في الحديث عن الإعجاز الدعوى بوصفها وسيلة مثلى لتعريف الناس بربهم، وترسيخ الإيمان في نفوس المؤمنين، وأشرنا إلى أنها كثيرا ما ترد في ختام الآيات القرآنية بما يناسب المعنى الذي تشمله الآية.

والآن نتكلم عن الظاهرة ذاتها كفى بمجال الإعجاز التربوى. وإن أثرها في المجال التربوى لا يقل بحال عن أثرها في المجال العقدى. ولا عجب، فالعقيدة هي الركيزة الأولى والكبرى في منهج التربية الإسلامى. فإذا رسخت العقيدة - في صورتها الصحيحة - فقد أصبحت النفس مهيأة للتلقى من عند الله، والالتزام بما جاء من عند الله، والتخلق بأخلاق الله. وهذه هي التربية الحقة، التي تنشئ (الإنسان الصالح).

ومن هنا كانت الحكمة في التركيز على الأسماء والصفات، وترديدها في كل مناسبة، سواء كانت المناسبة قصة تروى من قصص الأنبياء مع أقوامهم، أو توجيها روحيًا، أو توجيهًا أخلاقيًا، أو توجيهًا عقليًا، أو توجيهًا اجتماعيًا أو سياسيًا أو حربيًا أو اقتصاديًا..

إلى آخر هذه التوجيهات التي يزخر بها القرآن.

خذ مثلاً من سورة الشعراء، حيث ترد قصص مجموعة من الأنبياء مع أقوامهم. ففي نهاية كل قصة يرد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١).

وأحيانًا يكون ورود الأسماء والصفات في افتتاح القصة لا في عقبها كما جاء في سورة الحجر: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ * وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ..﴾(٢)

وأحيانًا يكون في أثناء القصة كما جاء في سورة القصص في أثناء قصة موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٣). وكما جاء في سورة النمل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(٤).

وخذ هذا التوجيه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥).

وهذا التوجيه: ﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾(٦).

وهذا التوجيه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٧).

(١) سورة الشعراء: ١٠٣، ١٠٤.

(٢) سورة الحجر: ٤٩ – ٥١.

(٣) سورة القصص: ١٦.

(٤) سورة النمل: ٧٦ – ٧٨.

(٥) سورة البقرة: ٢٨٤.

(٦) سورة آل عمران: ٢٩، ٣٠.

(٧) سورة الإنسان: ٣٠، ٣١.

وهـــذا التوجيه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

وهذا التوجيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

وهـــذه التوجيهات: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا * لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾(٣).

وهكذا.. وهكذا.. وهكذا عشرات التوجيهات أو مئاتها تنتهي بذكر اسم من أسماء الله الحسنى أو صفة من صفاته العلا.. فما المقصود ؟

هـــل أنزلت هذه الأسماء والصفات لنحولها إلى جدل ذهني أو قضايا فلسفية كما فعلت الفرق الضالة بتأثير الغزو الفكري اليوناني أو غير من التأثيرات؟!

إن أسوأ ما فعلته هذه الفرق الناشزة أنها أفرغتن الأسماء والصفات من شحنتها التربوية الهائلة، وحولتها قضايا ذهنية باردة لا حيوية فيها ولا حرارة ولا تأثير..

إنما كانت هذه الإشارات المتكررة المتعددة المتنوعة إلى أسماء الله وصفاته لتحيط بالقلب البشري في جميع أحواله، وتربطه بالله برباط وثيق.

فأيا تكن حالة الإنسان، وأيا تكن الظروف التي يمر بها، أو المشاعر التي يعانيها فثم الله. الله هو المدبر. الله هو الفعال لما يريد. الله هو الرزاق. الله هو الفتاح. الله هو مفرج الكرب. الله هو منزل الغيث. الله هو الباسط القابض. الله هو المحيي المميت. الله هو الضار النافع. الله هو مالك الملك. الله هو مقدر المقادير..

فماذا يفعل الإنسان في أي ظرف يمر به؟ أو أي شعور يلم به؟ أو أي رغبة يرغبها؟ أو أي مخافة يخافها؟ لمن يتوجه؟ ممن يطلب؟ من يستغيث؟ من يرجو؟ من يخاف؟ من يستعين؟ لمن يركن؟ على من يتوكل؟

إنه الله...

---

(١) سورة المائدة: ٣٨.

(٢) سورة المائدة: ٥٤.

(٣) سورة النساء: ١٤٧، ١٤٩.

ذلك هو الأثر التربوى المطلوب:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾(١). اي في جميع أحوالهم.

يريد مالا وغنى وسلامة وعافية؟ فمن المغني؟

يريد نصرا على الأعداء؟ فمن الناصر ؟

يريد النجاة من شيء يخافه؟ فمن المنجى؟

يريد بنين وحفدة؟ فمن المعطى؟

أينما توجه.. فعند من حاجته؟

وإن الإنسان لينسى..

يغرق أحيانًا بين الأسباب فيظنها هي الفاعلة، فيركن إليها وينسى من وراء الأسباب.

يغرق أحيانًا في خوف من طاغوت يفزعه، فيحسب أن بيده الضر والنفع، فيتزلف إليه، على حساب دينه أو كرامته، يبتغي النجاة من طغيان، وينسى أن البلاء حين يقع فهو مقدر له من عند الله، ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(٢).

يغرق أحيانًا في تطلع إلى أمل يرجوه أو رغبة يريد تحقيقها، فينسى.. ينسى عند من هي؟ وما الطريق السليم إليها؟ فيندفع، فيعصى ربه، ويغفل عن رقابة الرقيب سبحانه، فيقع في الضلال..

وحين يعيش مع القرآن لا ينسى!

لا فرصة له إلى النسيان!

فالتذكير قائم أمامه لا ينقطع، ولا يفتر، يحيط به من كل جانب، فلا يدع له فرصة للتفلت أو النسيان:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٣).

وتلك هي المهمة العظمى التي تؤديها الأسماء والصفات في كتاب الله، والتى

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٢) سورة ا لبقرة: ٤٩.

(٣) سورة ق: ٣٧.

أفسدتها الفرق الضالة بما أثارته حولها من جدل ذهنى عقيم، لا يسمن ولا يغنى من جوع!

بهذه الوسائل كلها التي ذكرناها تتم التربية في رحاب القرآن.

وبهذه الوسائل كلها أخرج الله ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من تلك القبائل المتناحرة التي لم تكن لتهتدى لولا أن هداها الله، ولا لتأتلف قلوبها لولا أن ألف بين قلوبها الله.

وبهذه الوسائل كلها تكون تربية الأجيال حين يراد حقا تربية الأجيال على الإسلام.

فأى إعجاز أعظم من هذا الإعجاز؟

لقد كان الإعجاز البياى هدفا مقصودا في ذاته لتحدى المكذبين المنكرين من العرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، وكل مكذب يأتى بعدهم في التاريخ..

ولكنه كان في الوقت ذاته أداة للإعجاز الدعوى، لتجلية عقيدة لا إله إلا الله، وتثبيتها في القلوب.

ولقد كان الإعجاز الدعوى، المشتمل على الإعجاز البيانى، هدفا مقصودا في ذاته، لتعريف الناس بربهم الحق، ليعبدوه وحده بلا شريك.

ولكنه كان في الوقت ذاته أداة للإعجاز التربوى لإنشاء (الإنسان الصالح).

وهكذا تلتقى كل مجالات الإعجاز، متعانقة متآلفة لتحقيق الهدف المنشود.

وإن هذا ذاته هو إعجاز!

من الإعجاز التشريعي:

كل رسالة جاءت من عند الله كانت عقيدة وشريعة ومنهاجا للحياة..

فأما العقيدة، فهي واحدة في الرسالات جميعًا ولم تتغير ولم تتطور كما يزعم علم مقارنة الأديان الجاهلى.. فقد كانت منذ أول رسالة إلى آخر رسالة هي (لا إِلَهَ إِلا اللهُ) ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾. إنما الذي تغير وتطور هو عقائد الجاهلية، لأنها صناعة بشرية، تتأثر بأحوال البشر الذين يصنعونها، وتتغير معهم من حال إلى حال. ويجوز أن تكون قد تطورت كما يزعم علم مقارنة الأديان الجاهلى من عبادة الأب، إلى عبادة الطوطم، إلى عبادة قوى الطبيعة، إلى عبادة الأفلاك إلى عبادة الأصنام.. أما العقيدة الصحيحة منذ آدم إلى محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فهي عقيدة التوحيد، تفئ إليها البشرية حينا مع بعثة رسول أو نبى، ثم تنحرف عنها لونا من الانحراف، حتى يأتى رسول آخر يعيد الناس إلى العقيدة الصحيحة، فيعود من اهتدى، ويضل من يضل:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾(١).

ثم جاء خاتم الرسل ﷺ ليبلغ الكلمة ذاتها (لا إِلَهَ إِلا اللهُ) ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، ولكن لا لقوم معينين، بل للبشرية جمعاء:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢).

هذا أمر العقيدة..

أما أمر الشريعة فهو مختلف..

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا..﴾(٣).

ثم كانت الشريعة الخاتمة التي تمت بها النعمة واكتمل الدين:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(٤).

وقبل أن نتحدث عن بعض جوانب الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، نشير إلى قضية مهمة من القضايا التي تنحرف فيها الجاهلية المعاصرة، التي تدعو إلى دين يتمثل في عقيدة بلا شريعة.. أي علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا علاقة لها بواقع الحياة السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى، فذلك - زعموا - من شأن البشر، وهم الذين يفتون فيه من عند أنفسهم، دون الرجوع إلى ما أنزل الله. ويسمون الحكم بما أنزل الله، أو المطالبة بتحكيم شريعة الله (تسييسًا للدين) تحرمه الدساتير!!

وأوربا صنعت ذلك في دينها وشريعتها لظروف خاصة ألمت بها، تحدثنا عنها في أكثـــر من كتاب، خلاصتها أن أوربا لم تعرف الدين المنزل على حقيقته قط، إنما عرفت دينا محرفا، حرفه آباء الكنيسة، وهم لم يطبقوا شريعة الله قط (إلا في الأحوال الشخصية المتعلقة بالزواج والطلاق وشؤون الأسرة)، وإنما طبقوا من عند أنفسهم - باسم الدين -

(١) سورة النحل: ٣٦.
(٢) سورة الأعراف: ١٥٨.
(٣) سورة المائدة: ٤٨.
(٤) سورة المائدة: ٣.

طغيانًا بشعا نفر الناس من الدين، فثاروا عليه ونحوه من حياتهم، وحجموه في تلك العلاقة الخاصة بين العبد والرب، التي محلها القلب، ولا صلة لها بالواقع السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعي، إنما تحكم هذا الواقع قوانين البشر.

وأوربا حرة تفعل بدينها ما تشاء، ويوم تلقى ربها يحاسبها بما شاء سبحانه..

أما المسلمون، فهذه الدعوى غريبة كل الغربة عليهم، مبعثها الغزو الفكرى والانبهار بما عند الغرب، ورفض التلقى من عند الله، واتخاذ ما تفعله أوربا وحيا لا بدّ من اتباعه!

إن الدين - كما تمثل في الرسالات السماوية كلها، والرسالة الأخيرة بصفة خاصة - ينزل (مسيسًا) من عند الله سحانه وتعالى، وليس البشر هم الذين يسيسونه من عند أنفسهم! كما أن البشر لا يحق لهم أن يقولوا برأيهم في أمر قضى الله فيه سبحانه وتعالى بحكمه:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا﴾[1].

والذي قضى به الله سبحانه هو قوله:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[2].

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[4].

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[5].

وبصرف النظر عن الجدل الذي يثار أحيانًا، فإن إجماع الأمة الذي لم يخرج عليه عالم واحد في تاريخ الأمة أن التشريع بغير ما أنزل الله كفر مخرج من الملة، وليس كفرا دون كفر كما يزعم المرجئة المحدثون!

إنه مسألة تتعلق مباشرة بعقيدة لا إله إلا الله.. فالإله وحده - سبحانه وتعالى- هو

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٦.

(٢) سورة المائدة: ٤٤.

(٣) سورة المائدة: ٤٥.

(٤) سورة المائدة: ٤٧.

(٥) سورة النساء: ٦٥.

الذي يحق له أن يقول: هذا حلال وهذا حرام. هذا حسن وهذا قبيح. هذا مباح وهذا غير مباح (وهذا هو التشريع: منع وإباحة، وتحليل وتحريم، وتحسين وتقبيح) والله وحده هو صاحب الحق في ذلك، بكل صفات الألوهية والربوبية التي يتصف بها وحده - سبحانه وتعالى - والتي لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وبصفة خاصة هذه الصفات: أنه هو الخالق، وأنه هو العليم الحكيم، وأنه هو اللطيف الخبير:

﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2].

﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[3].

فبما أنه هو الخالق سبحانه فهو صاحب الأمر، وبما أنه هو العليم الحكيم، اللطيف الخبير، فهو الذي يضع بعلمه وحكمته ما يصلح لأمر هذا الإنسان الذي خلقه، ويعلم كل خصائصه ودقائقه ومسارب نفسه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[4].

هذه هي القضية في جوهرها، وهي قضية القضايا منذ وجد الإنسان على الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. قضية من الإله؟ آلله أم غيره من الآلهة المزعومة؟ وهي في الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة تأخذ صورة خاصة: الله أم الإنسان؟

فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الله، ويرتبون على علمهم هذا أن يعبدوه وحده بلا شريك، ويطيعوا أمره، ويتبعوا ما أنزل إليهم. وأما الذين استكبروا عن عبادته فهم يجادلون، ويستنكفون:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾[5].

تلك إشارة لا بدّ منها لمواجهة الجاهلية المعاصرة التي تدعو إلى عدم تحكيم شريعة

---

(١) سورة الأعراف: ٥٤.

(٢) سورة النساء: ١١.

(٣) سورة الملك: ١٤.

(٤) سورة ق: ١٦.

(٥) سورة النساء: ١٧٣.

الله، وإلى محاربـــة ما يطلقون عليه اسم (الإسلام السياسي) واتخاذ العلمانية دينا بدلاً من الدين الإلهي.

ومن هذه الإشارة نعرج على بعض نواحي الإعجاز في الشريعة الربانية، التي أنزلها الله لتحكم حياة البشر إلى قيام الساعة..

يتردد على لسان العلمانيين دائمًا هذا السؤال: أنى للشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنًا أن تحكم الواقع الموجود اليوم، وهو واقع يختلف أشد الاختلاف عن الواقع الذي نزلت فيه تلك الشريعة، فضلاً عن الزعم بأنها صالحة للمستقبل كذلك؟

ونقول نحن إن هذا أحد أوجه الإعجاز في الشريعة التي أنزلها الله، وأمر باتباعها، ولم يجعل لاتباعها حدا زمنيًا معينًا يجوز للبشر بعده أن يتخلوا عنها، ولم يحدد أحوالاً بيئية أو سياسية أو اقتصادية معينة يكف البشر فيها عن تطبيق الشريعة.

وإن مجرد القول بأن الظروف تغيرت معناه الشك في علم الله وحكمته. فكأنما علمه - نستغفر الله - كان ناقصا وقت تنزيل الشريعة، فلم يكن يعلم سبحانه أن الظروف ستتغير، وتأتي ظروف غير الظروف! وكأنما حكمته - نستغفر الله - كانت ناقصة، فلم يقدر سبحانه أثر تغير الظروف في صلاحية هذه الشريعة التي أنزلها وأمر باتباعها اتباعًا مطلقًا بغير تحديد!

وقد لا يدرك الذين يرفعون لافتة تغير الظروف أنهم بذلك يطعنون في علم الله وحكمته، ولكن هذا هو لازم قولهم، ولازم اعتقادهم، وعوا ذلك أو لم يعوه، وقصدوه أو لم يقصدوه. فلو أنهم آمنوا حقا بأن الله عليم حكيم لم تجرؤ تلك الخواطر الفاسدة أن تخطر على قلوبهم، وتفسد مشاعرهم تجاه الله ودينه وشريعته.

ولا عيب في أن يكون الإنسان جاهلا لأمر من الأمور التي تتعلق بدينه، ولكن عليه عندئذ أن يبحث عن الحق حتى يزيل جهالته، وأن يقول: ﴿رب زدني علمًا﴾[1].. أما أن يكون جاهلاً ويصر على جهله، ثم يزيد فيزعم أنه هو العالم، وأن الذين يخالفونه هم الجهال المتأخرون المتخلفون أعداء العلم وأعداء العقلانية وأعداء التقدم.. فهذا من مصائب الجاهلية.. كل الجاهلية.. والجاهلية المعاصرة بصفة خاصة التي ترفع لافتة (العلم) و(التنوير)، وتضعها فوق ما أسماه (ألكسيس كاريل) بالجهل المطبق في كتابه الشيق

---

(١) سورة طه: ١١٤.

(الإنسان، ذلك المجهول)![1].

في الحياة البشرية ما هو ثابت وما هو متغير.. وتلك من الحقائق التي لم تهتد إليها أوربا في جاهليتها: جاهلية القرون الوسطى، والجاهلية المعاصرة.

فأما في جاهلية القرون الوسطى- المظلمة عندهم[2] - فقد كان الفكر الأوربي الذي ثبتته الكنيسة وتشرف عليه، يرى الثبات في كل شيء، وينظر إلى أي تغيير على أنه خروج على نواميس الكون، وخروج على طاعة الله، ومن ثم فهو ضلال وهرطقة، ومصيرهما البوار!

وأما في الجاهلية المعاصرة، التي اتخذت نظرية التطور الداروينية عمادا لكل تصوراتها، فإن الفكر الأوربي يرى أنه لا ثبات لشيء على الإطلاق في هذا الوجود، وأن الثبات على أي شيء مخالف لنواميس الكون، و(قوانين الطبيعة)، ومن ثم فالدعوة إلى الثبات على أي شيء هو جهالة وجمود ورجعية، مصيرها البوار!

وفي كلتا حالتيها كانت أوربا واقعة في الضلالة!

فليس في الكون الذي خلقه الله ثبات مطلق لا يتغير، وليس فيه كذلك تغير لا ثبات فيه لشيء على الإطلاق! وإنما فيه تغير دائم في الأشكال تحكمه قوانين ثابتة هي سنن الله في الكون، سواء في ذلك الكون المادي، أو الحياة البشرية.. وهذه هي النظرية العلمية التي فاء إليها العلم أخيرًا بعد البحث والدراسة والتجريب.

كيان الذرة ثابت، والعلاقة بين مكوناتها ثابتة لا تتغير.. ولكن الذرات يمكن أن تتخذ أشكالات شتى، لا يحصيها إلا خالقها سبحانه، ولكنها في جميع أشكالها ذات كيان ثابت، والعلاقة بين مكوناتها ثابتة لا تتغير.

والحياة الإنسانية كذلك.

فطرة الإنسان ثابتة، ولكن حياته الواقعية يمكن أن تأخذ أشكالاً شتى، في الزمن الواحد، وفي الأزمنة المختلفة. ولكنها في جميع أشكالها، تدور حول المحاور الثابتة في كيان الإنسان.

مع فارق أساسي بين الكون المادي وبين الإنسان: أن الكون المادي ليس له إلا

---

(١) يقول ألكسيس كاريل في كتابه هذا: إن جهلنا بحقيقة الإنسان جهل مطبق. وإننا - بهذا الجهل - نصنع حضارة لا تصلح للإنسان، لذلك يزداد الإنسان انحداراً كلما زاد توغله في تلك الحضارة!

(٢) كانت هذه الفترة ذاتها من أزهى العصور الإسلامية وأكثرها نورا!.

طريق واحد، لا يغيره، ولا يملك تغييره، لأنه لا إرادة له فيه:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(١).

أما الإنسان فإن له طريقين، طريق الهدى وطريق الضلال، وله القدرة على التمييز بين الطريقين، والقدرة على اختيار أحدهما:

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(٢).

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٣).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(٤).

وهذا من التكريم الذي كرم الله به الإنسان، فليس مقهورا على الطاعة كالسموات والأرض، ولكنه يطيع باختياره وإرادته.. ويعصى إذا شاء، باختياره وإرادته:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾(٥).

بعبارة أخرى إن الكون كله- بما فيه الإنسان- مفطور على العبادة:

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(٦).

ولكن الإنسان من بين الكائنات له حالتان: حالة يكون فيها على فطرته السوية، فيعبد الله حق عبادته، وحالة تفسد فيها فطرته ويمرض قلبه، فيعبد آلهة أخرى غير الله، معه أو من دونه، بأى لون من ألوان العبادة التي يزينها الشيطان، فيصبح عابدا للشيطان بدلا من أن يكون كبقية الكون كله عابدا لله..

ومن ثم تفترق طريق البشر شعبتين لا التقاء بينهما: الشعبة التي يعبد فيها الله، والشعبة التي يعبد فيها الشيطان؛ وجيلا وراء جيل، يسلك فريق من البشر هذا الطريق

(١) سورة فصلت: ١١.

(٢) سورة البلد: ١٠.

(٣) سورة الإنسان: ٣.

(٤) سورة الشمس: ٧-١٠.

(٥) سورة الحج: ١٨.

(٦) سورة الروم: ٣٠.

ويسلك فريق آخر الطريق الآخر..

وتلك قضية البشرية الأساسية.

أما قضية الثبات والتطور، التي يلوكها (التطوريون)، فهي ذات منحى مختلف.

يزعمون أن الإنسان ليس له كيان ثابت. ليس له (فطرة) إنما هو نتاج ظروفه وبيئته؛ وحيث إن الظروف دائمة التغيير، وأشكال البيئة لا تثبت على حال، فلا يمكن أن يكون هناك شيء ثابت في حياة البشر. ولا يمكن أن تحكمه شريعة- ولو كانت منزلة من عند الله، ولو كانت مناسبة لوقتها تمام المناسبة- لأن الظروف تتغير، فيتغير تبعًا لها(الإنسان)، فيصبح إنسانًا جديدًا غير الإنسان الذي أنزلت له الشريعة في حينها، وكانت في وقتها مناسبة لأحواله.

وهذه هي اللوثة التي أصابت الفكر الأوربى ابتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى هذه اللحظة، وما تزال تعيث فسادا في الأرض..

ونظرة موضوعية بسيطة تدحض هذه اللوثة وتفندها.. وخذ هذه(الحقائق) على سبيل المثال:

في فطرة الإنسان أنه يحب الحياة، ويحب لو طالت حياته على الأرض، ويحب أن يستمتع بحياته.. هل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة حين صعد الإنسان إلى القمر، وحين صار يضغط على زر فينطلق في الفضاء؟

في فطرة الإنسان أنه يحب التملك.. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة حين تقدم علمه وامتد إلى الآفاق؟

في فطرة الإنسان أنه يحب أن يأوى إلى مسكن يقيه البرد والحر، ويشعر فيه بالخصوصية، ويشعر فيه بأنه آمن من أن يطلع أحد على حياته الخاصة أو ينفذ إليها بصورة من الصور.. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

في فطرة كل جنس أن يميل إلى الجنس الآخر ويشتاق إلى الاجتماع به.. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

في فطرة الإنسان أنه لا يكتفي بما في (المعرفة).. يتعرف على بيئته، ثم يتوسع في المعرفة ويحب لو أنه يعرف كل شيء عن كل شيء.. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

في فطرة الإنسان أنه لا يكتفي بما في يديه من الأدوات بالصورة التي هي عليها،

إنما يحب أن يحسنها ويجملها على الدوام.. فهل تغير هذا الخط من خطوط الفطرة؟

وعشرات أخرى من (**النوازع الفطرية**)، التابعة من الفطرة التي فطر الله الناس عليها.. هل تغير منها شيء حين دخل الإنسان (**الألفية الثالثة**) التي يطنطن بها (**التطوريون**)؟

نعم.. بعض هذه النوازع - وليس كلها - تغيرت وسائل الاستجابة إليها، وتغيرت صور الاستجابة.. فهل تغيرت أصولها ومنابتها؟!

يسكن الإنسان في كوخ.. ويسكن في خيمة.. ويسكن في بيت من الطين.. ويسكن في قصر مزين بكل أنواع الزينة.. ما الذي تغير؟ الصورة أم الجوهر؟

ولا أحد ينكر أن تغير الصورة يحدث تغيرات في المشاعر والأفكار وأنماط السلوك، ولكن من السذاجة أن نظن أن التغير يتجاوز القشرة، ويصل إلى المنابت والمنابع، فيغير النزعة الفطرية من أساسها، فيلغي مسارها في داخل النفس.. وذلك فضلا عن حقيقة نفسية أخرى، هي أن الحس البشرى يتبلد بعد فترة على (**الصورة**) التي تتكرر أمامه، فلا تعود تحركه كما حركته أول مرة، ولا يعود يتأثر بها كما تأثر حين كانت جديدة عليه، بل يخفت تأثيرها رويدًا رويدًا.. بينما يبقى المؤثر الحقيقي الدائم هو (**الجذر**) الذي تنبت منه النزعة الفطرية.. وهو الذي لا يتغير، ولا يفتر، ولا يكف عن إعطاء دفعته طالما كان الإنسان باقيا على حيويته ووعيه، حتى وإن فقد بعض قدراته.. لأنه هناك في عمق الفطرة، وليس شحنة عارضة تذهب بعد حين!

ومن جانب آخر ينبغى أن نسأل: لماذا يخترع الإنسان مخترعات جديدة، ولا يكف عن الاختراع؟

إن نزعة الاختراع هي ذاتها نزعة فطرية، ناشئة من الرغبة الدائمة في التحسين والتجميل، وقد أودعها الله في الفطرة من أجل أن يسعى الإنسان دائمًا إلى الارتقاء بحياته إلى مستوى الإحسان، ولا يقف عند مستوى الضرورة، لا في المشاعر ولا في المحسوسات:

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»![1].

فمن أجل تحسين الحياة وتجميلها ليصل إلى درجة الإحسان يخترع الإنسان على

---

(١) اقرأ إن شئت فصلا بعنوان ((فليرح ذبيحته)) في كتاب ((قبسات من الرسول)) يشرح أبعاد هذا الحديث من أحاديث الرسول ﷺ.

الدوام أدوات جديدة ووسائل جديدة.. فهل يخترعها عبثا أم لتلبية دافع في داخل النفس؟

لماذا اخترع الإنسان السيارة والقطار والطائرة والصاروخ؟ أليس لأن في داخله رغبة في الانتقال السريع من مكان إلى مكان.. بل رغبة أن لو استطاع أن يغمض عينيه ويفتحهما فإذا هو في المكان الذي يريد أن ينتقل إليه؟

نعم.. إن كل اختراع حين وجد أحدث تغييرات في صورة الحياة وأشكالها ربما لم تكن تخطر على البال بنفس الصورة قبل أن تتحقق، ولكنه ما لم يلب رغبة أصيلة في النفس، فلن يقدر له أن يعيش! فالذي يحرك الحياة إذن ليس هو المخترعات في ذاتها، إنما هو الدوافع الفطرية الكامنة) التي أدت إلى الاختراع..

وتلك الدوافع هي (الفطرة) التي يستوى فيها راكب الجمل وراكب الصاروخ، وإن اختلفت صورة التلبية بين راكب الجمل وراكب الصاروخ!

ولكن الاختلاف الجذرى الذي يفرق بين إنسان وإنسان ليس هو اختلاف الوسيلة المادية التي يلبى بها دوافعه الفطرية بقدر ما هو نوعية الدوافع ذاتها في داخل النفس، وترتيب أهميتها في القائمة، أيها أكبر قيمة من الأخرى.

ومن هنا لا ينقسم الناس في ميزان القيم إلى راكب صاروخ! إنما ينقسمون إلى راكب جمل مؤمن وراكب جمل كافر، وراكب صاروخ مؤمن وراكب صاروخ كافر.. وهكذا، في كل مجال من مجالات الحياة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾[1].

والمؤمنون كلهم من راكب الجمل إلى راكب الصاروخ لهم سمات مشتركة، وإن اختلفت صور حياتهم، والكافرون كلهم من راكب الجمل إلى راكب الصاروخ لهم سمات مشتركة وإن اختلفت صور حياتهم.

وهذا الاختلاف الرئيسى بين الفريقين لا يلغى الفروق الجزئية الكائنة بين أفراد كل فريق، الناتجة عن اختلاف صور حياتهم، ولكنه يفقدها كثيرا من وزنها المبالغ في تقديره عند التطوريين.

لقد وضع التطوريون كل الثقل في الفروق الجزئية الناشئة عن اختلاف الصور المعاشة، وركزوا عليها وقسموا التاريخ البشرى على أساسها، فهذا العهد الرعوى، وهذا العهد الزراعى، وهذا العهد الصناعى، وهذا العهد الذرى.. وكان هدفهم من ذلك نزع

---

(١) سورة التغابن: ٢.

الثقل من (القيم) التي تحكم حياة الناس، لأنهم لا يؤمنون بتلك القيم، ويعملون على تحطيمها، لغايات خبيثة في نفوسهم، لا لأن هذا هو الحق، ولا لأن النظرة الموضوعية تؤدى إلى ما زعموه.

ومحك القضية على أي حال هو الصورة التي آلت إليها حياة الناس حين فقدوا القيم أو أهملوها، وعنوا بأشكال الحياة الظاهرة، وجعلوها هي القيم البديلة.

وأوربا - في جاهليتها المعاصرة - يمكن أن تقول أي شيء ويمكن أن تفعل أي شيء، ولو أدى إلى تدمير حياتها من أساسها.. أما التطوريون الذين يحملون أسماء إسلامية، فما خطبهم؟!

ألا يراجعون ضمائرهم؟

نسألهم سؤلاً واحدًا، نطلب منهم أن يكونوا أمناء مع أنفسهم في الإجابة عنه: أيهما أفضل وأعلى وأرفع وأقوم: جيل الصحابة رضوان الله عليهم، أم هذا الجيل النكد الذي يعيشون فيه؟

ثم نرتب على السؤال سؤالاً آخر: هل الفارق الحقيقى بين جيل من البشر وجيل كامن في القيم التي يتمسكون بها ويعيشون على هداها، أم في ثورة التكنولوجيا وثورة المعلومات؟!

ولا يحسبن أحد أننا نريد بقولنا هذا أن نلغى قيمة التقدم المادى والعلمى والتكنولوجى الذي أحرزته البشرية بجهادها الطويل..

كلا.. على الإطلاق!

فالمتخلف عن الركب في هذه الشئون كلها مخطئ في الميزان الربانى. فقد خلق الله الإنسان لعمارة الأرض:

﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(١).

وأعطاه من الأدوات ما يعينه على هذا الأمر:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢).

ثم سخر للإنسان طاقات السموات والأرض

---

(١) سورة هود: ٦١.

(٢) سورة النحل: ٧٨.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(١).

فإذا قصر في استخدام الأدوات التي وهبها له الله، وقصر في عمارة الأرض، وقصر في تحقيق ما سخر الله له من طاقات السموات والأرض، فهو مخطئ ومقصر بكل تأكيد..

ولكن دعنا نعقد مقارنة بين رجلين، أحدهما متخلف عمرانيًا وتكنولوجيًا وماديًا، ولكنه عفيف، لا يفكر في العدوان على غيره، عفيف في تناوله لطيبات الحياة لا يسطو على عرض، ولا يسطو على حق إنسان آخر في الحياة، والثاني متقدم ماديًا، ينبع التقدم المادي من بين أظافره، ولكنه يبيح لنفسه - أو لشعبه - أن يقتل ويسفك الدماء في سبيل السيطرة والعلو، ويبيح لنفسه - أو لشعبه- أن يتحكم في أقدار الناس والشعوب..

كلاهما مخطئ ولا شك، ولكن أيهما خطؤه أكبر واخطر، وأيهما جرمه أكبر واخطر.

ونعود الآن بعد هذه الجولة إلى قضية الشريعة الربانية المنزلة قبل أربعة عشر قرنا، وموقفها من (الإنسان) وموقف الإنسان منها، على ضوء قضية الثبات والتغير (٢).

إذا تبين لنا من البحث الموضوعي أن في الحياة البشرية أصولا دائمة لا تتغير، هي المركوزة في أصل الفطرة، وصورًا متغيرة من الممارسة لبعض النوازع الفطرية (وليس كلها) مع ثبات أصولها ومنابعها في الفطرة، فما الطريقة المثلى لتنظيم الحياة البشرية على أسس سليمة تتجاوب مع تلك الفطرة في ثوابتها ومتغيراتها: تثبيت الشريعة في مجالات الحياة كافة بصرف النظر عما يجد في حياة البشر؟ أم تركها تتغير في جميع مجالاتها كلما عن للبشر أن يغيروا؟ أم تثبيت ما من شأنه الثبات، وإتاحة المجال للمتغيرات أن تتغير مع تثبيت الأصول التي تحكمها في تغيرها؟

هنا - في هذا المجال بالذات - يتجلى لنا عنصر من عناصر الإعجاز في التشريع الرباني.

في الحياة البشرية ثوابت ليس من شأنها أن تتغير لأن تغيرها يفسد حياة الناس.

وهذه نصت عليها الشريعة نصًا صريحًا ملزمًا. وهناك متغيرات ليس من شأنها أن تثبت على صورة معينة لأن تثبيتها يجمد الحياة ويعوقها عن النمو السوي، وهذه - في الشريعة الربانية - مفتوح فيها باب الاجتهاد، مع تثبيت الأصول التي تحكمها، بحيث لا

---

(١) سورة الجاثية: ١٣.

(٢) اقرأ إن شئت حول هذه القضية في كتاب ((التطور والثبات في حياة البشرية)).

تحل حرامًا، ولا تحرم حلالاً، ولا تصادم مقاصد الشريعة.

وبهذا تواكب الشريعة حركة البشرية في جميع خطواتها، وتضبط منطلقها في ذات الوقت، فلا تأسن من الجمود، ولا تجنح إلى الانحراف.

هناك الضرورات الخمس: حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ العرض، وحفظ المال. هذه ثوابت لا تخضع للتغير، لا من حيث الجوهر ولا من حيث الصورة، لأن أي تغيير فيها يفسد الحياة.

ومن حفظ الدين تحكيم الشريعة، وتحريم الردة.

ومن حفظ العقل تحريم المسكر والمخدر.

ومن حفظ النفس تحريم القتل والعدوان.

ومن حفظ العرض تحريم الفاحشة وما يقرب منها أو يؤدى إليها.

ومن حفظ المال تحريم السرقة والغش وأكل أموال الناس بالباطل.

وتتعلق بهذه جميعا حدود لا تغير فيها، ولا استبدال لغيرها بها.

ثم هناك ثوابت أخرى ناشئة من ثبات أركانها وعدم قابليتها للتغيير، كعلاقات الأسرة، وعلاقات الجنسين، وعلاقات المجتمع الإسلامى بعضه ببعض، وعلاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم.

وتلك كلها تحكمها قواعد ثابتة ونصوص تفصيلية غير قابلة للتغيير.

وهناك بعد ذلك أمور كثيرة تتغير صورتها على الدوام، نتيجة تفاعل العقل البشرى مع الكون المادى، واكتساب الإنسان خبرات جديدة من خلال هذا التفاعل.. فتتغير الصورة السياسية، والصورة الاقتصادية، والصورة الاجتماعية، ولكنها في تغيرها الدائم لا ينبغي لها أن تخرج على القواعد العامة التي تحكمها، والمنصوص عليها في كتاب الله (والسنة مكملة وشارحة، وهي من الوحى الربانى).

وهكذا تنمو المجتمعات نمواً سويا، وتتغير بعض الصور في حياتها من جيل إلى جيل، ومن طور إلى طور، ولكن أصولها لا تتغير.. فتظل الشريعة عاملة في حياتها، لا تحتاج إلى تبديل ولا تغير ولا تعديل، بينما يظل باب الاجتهاد مفتوحًا لتغطية ما يجد من أمور في حياة الناس بغطاء الشريعة الدائم الذي لا يتغير، وتظل الأمة محافظة على إسلامها بمحافظتها على عقيدتها وشريعتها، ومحافظة في الوقت ذاته على رضوان الله، الذي أنزل غضبه على من لم يحكم بما أنزل الله:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١].

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢].

ثم ننتقل إلى مجالين آخرين من مجالات الإعجاز في الشريعة الربانية، أحدهما يتعلق بقضية الفرد والمجتمع، والآخر يتعلق بقضية الجريمة والعقاب، وهما قضيتان تتداخلان في بعض شؤونهما، وإن كان كل منهما له مجاله الخاص.

وقد تكلمنا من قبل عن قضية الفرد والمجتمع في أثناء الحديث عن الإعجاز التربوى في القرآن. ولكننا هنا نتحدث عن الجانب التشريعى، وهما متكاملان في منهج الله، إذ الشريعة ذاتها جزء من منهج التربية الإسلامى.

الفرد في ظل الشريعة يستمتع بما يكفل له الحياة السوية النظيفة المتوازنة.

كرامته محفوظة بالتكريم الربانى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾[٣].

فـــلا يتجسس عليه، ولا يؤخذ بالظنة، ولا يؤخذ بجريرة غيره، ولا يقتحم عليه مسكنه، ولا تنتهك حرماته، وهو برئ حتى تثبت إدانته، ولا يضرب ولا يعذب ولا تقيد حـــريته بغـــير مـــوجب، ولا بدّ عند اتهامه من قرائن تؤيد الاتهام، ولكن لا تؤخذ منه الاعترافات قسرا بالتعذيب ولا بالإغراء، ويحاكم - حين يحاكم - بمقتضى الشريعة الربانية لا على هوى من يحاكمه.

ولـــه نشاطه المشروع: يعمل، ويتكسب كسبًا حلالا، ويمتلك، ويبيع ويشترى، ويرث، ويورث، ويهب ويتصدق من ماله كما يشاء، لا قيد عليه في شيء من ذلك إلا ما تقتضيه الشريعة.

أما ما يسمى اليوم (الحقوق السياسية)، فهي في الإسلام واجبات..

فالاهتمام بالشؤون العامة واجب: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم»[٤].

---

(١) سورة المائدة: ٥٠.

(٢) سورة النساء: ٦٥.

(٣) سورة الإسراء: ٧٠.

(٤) رواه الطبرانى والحاكم.

والنصح للحاكم والمحكوم واجب: «الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ورسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم»[١].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢]. «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وهو أضعف الإيمان»[٣].

وله حقه في بيت المال إذا احتاج: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٤].

وهكذا تكون الحياة الكريمة مكفولة له منكل جوانبها..

ولكنه ليس متروكًا على هواه يفعل ما يشاء تحت مظلة (الحرية الشخصية) كما تفعل النظم الليبرالية، التي تدخل في تلك الحرية الشخصية حرية الإلحاد، وحرية التحلل الخلقي، وحرية اكتساب المال الحرام بالربا، وبنشر اللهو والفساد والفجور الذي يدر المال على ناشريه!!

إن تلك (الحرية الشخصية) على هذا النحو كانت جزءًا من مخطط إفساد البشرية على يد (شعب الله المختار)، دسوه على الثورة الفرنسية حتى صار جزءا من (الديمقراطية) تحت شعار Laissez Passer, Laissez Faire دعه يعمل (ما يشاء) دعه يمر (من حيث يشاء)، ولم يكن القصد منه الخير للبشرية وإن بدا في أعين الناس يومئذ أنه (تحرير) من القيود الضغوط التي كانت تجثم على صدور الشعوب وتكتم أنفاسها، ولكن المخططين الشريرين كانوا يعرفون أبعاده، فلم يقفوا به عند إزالة الظلم، بل تجاوزوها إلى الإفساد المقصود:

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٥].

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٣) رواه الشيخان.

(٤) سورة التوبة: ٦٠.

(٥) سورة المائدة: ٦٤.

وفي الـــوقت الذي تكفل الشريعة للفرد كرامته، وتعطيه حقوقه المعقولة، فإنها تحفظ للجماعة كيانها كذلك. فللجماعة حق التقويم للفرد الذي يتجاوز حدوده المشروعة، فيتعدى على حرمات الله، أو يعيث في الأرض فسادا، أو يؤذي غيره، أو يأتي بمنكر لا تقره الأعراف المستمدة من الشريعة، وليس له أن يحتج على الناس بأنه حر يفعل ما يشاء..

وليس هنا مجال تفصيل ما يحق للحاكم وما يحق لأفراد الأمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد المعتدي، ومرتكب المنكر، فتلك مباحث متخصصة تطلب في كتب الفقه، إنما نتحدث هنا عن الخطوط العريضة التي تثبت حق الجماعة على الفــــرد. بما يمنعه من الطغيان، وإيقاع الضرر والأذى على الآخرين، ويمنعه من الخروج علـــى العرف، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وتزيين المنكر بالقول أو العمل، وتزيين الخـــروج علـــى أوامر الله، والدعوة إلى الفساد من أي نوع فكريًا كان أو اجتماعيًا أو أخلاقيًا أو اقتصاديًا أو سياسيًا.. فمن حق الجماعة أن تحمي نفسها من ذلك الشر كله، وحقها في ذلك مقدس كحق الفرد..

ولكن مزية المنهج الرباني أنه لا يصنعكما تصنع النظم الشمولية، التي تسحق الفرد تحـــت ثقلها، فتحرم عليه أن يفتح فمه بكلمة نقد للحاكم. أو حاشيته، وتراقبه حتى في خلـــوته، وتعد عليه أنفاسه، وتتجسس عليه، وتتعامل معه دائما على أنه مجرم يتوقع منه عمل الشر في كل لحظة، وعليه هو أن يثبت براءته في كل لحظة!

«إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»(١).

ولقـــد كان عمر رضي الله عنه، وهو من هو في هيبته التي أضفاها الله عليه، يقبل النقد، ويقول لمن أراد أن يمنع أحد الرعية من قولة ينتقد فيها الخليفة: دعها! فلا خير فيهم إن لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نسمعها منهم! ويقبل من سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يقول له: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي ائتـــزرت به، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين! ويقبل من امرأة أن تناقشه في أمر المغالاة في المهور ثم يقول: أخطأ عمر وأصابت امرأة.

إنمـــا هو التوازن الذي يمنع طغيان الفرد على الجماعة، ويؤدي إلى استقرار تحفة البركة، وتجري فيه الأمور بالقسط:

﴿لَقَـــدْ أَرْسَـــلْنَا رُسُـــلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم.

بِالْقِسْطِ﴾(١).

أما قضية الجريمة والعقاب فللشريعة فيها توازن مماثل..

إنها لا تقسو على الفرد لحساب الجماعة (وإن ظن بعض الجهال ذلك بالنسبة للعقوبات الإسلامية)، ولا تدلل المجرم كذلك حتى تجعله مجنيًا عليه من المجتمع كما تفعل النظم التي تأثرت بمباحث علم النفس التحليلي، الذي يحسن أن نسميه (علم تبرير الجريمة) لأن هذا ما يؤدى إليه بالفعل!

إنما تنظر الشريعة إلى الجريمة والعقاب بعين الفرد وعين الجماعة معًا في ذات الوقت.

إن الإسلام لا يبدأ بفرض العقوبات الرادعة كما يظن الذين يقرؤون النصوص القرآنية بغير تدبر، فيجدون فيها مثلاً: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾(٢). ويجدون فيها: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣). ويجدون فيها: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٤).

إنما يعمل الإسلام أولا لمنع الأسباب التي تؤدى إلى الجريمة، بأن يكفل للفرد كل الضمانات المعقولة التي من شأنها أن تجعل الفرد السوى لا يفكر في الجريمة أصلاً، ولا يجد مسوغًا لها. فإذا ارتكب الجريمة بعد ذلك، فهو غير معذور. ثم إن العقوبة الرادعة التي تقررها الشريعة هي ذاتها وسيلة لأن تجعل الجاني يفكر مرات قبل أن يقدم على الجريمة، فإذا أقدم بعد ذلك، وليس له عذر ولا مسوغ معقول، وفيه استهتار وعدم مبالاة، فالإشفاق عليه، وتخفيف العقوبة عنه، يعدان نشر للجريمة في الواقع وتشجيعًا عليها، ولا يعتبر علاجًا ناجحًا لحماية المجتمع من الجريمة. والواقع الذي يعيشه الغرب، الذي يأخذ بنظريات علم النفس التحليلي، والدراسات الاجتماعية التي تنظر بعين الفرد

---

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) سورة المائدة: ٣٨.

(٣) سورة النور: ٢.

(٤) سورة المائدة: ٣٣.

ضـــد الجماعـــة، يشهد بصدق ما نقول. فالجرائم هناك من الكثرة والشيوع بحيث تعد بالثانـــية، لا باليوم ولا بالساعة ولا بالدقيقة، فيقال: تحدث في كل ثانية كذا جريمة قتل، وكذا جريمة سرقة، وكذا جريمة اغتصاب، وكذا.. وكذا، من صنوف الجرائم!

إن الإسلام ينظر في دوافع الجريمة عند الفرد فيعمل على تلافيها قبل وقوعها، أو جعل مرتكبها غير معذور في ارتكابها، فإن وجد أنه معذور فعلا فالشريعة تقول: «ادرؤوا الحدود بالشبهات»[1]!

دافع السرقة هو الجوع.. والإسلام يسعى - بوسائله المختلفة - ألا يكون في المجتمع جائع يضطره الجوع إلى السرقة، فإن وجد الجوع فإنه يدرأ الحد، كما فعل عمر رضي الله عنه، في عام الرمادة، حين جاع الناس، فأوقف تطبيق حد السرقة لوجود الشبهة، ولم يكن ذلك منه إبطالاً للشريعة كما يرجف المرجفون، إنما كان هو التطبيق الواعي الصحيح لشريعة الله.

ودافع الزنا فورة الغريزة.. والإسلام يسعى - بوسائله المختلفة - لإتاحة المنطلق الطبيعي النظيف لفورة الغريزة بتيسير الزواج والحث عليه والتبكير نفيه، وبتوجيه طاقات الشباب إلى ميادين للعمل والنشاط تستوعب جزءا من الطاقة وتخفف الحمل على الأعصاب، ثم بتحريم التبرج في المجتمع، الذي هو المحرض الأكبر على الفاحشة.. وكذلك بتربية الناس على مخافة الله، والتوجه إليه بالعبادة، وتربيتهم كذلك على الصبر على المكاره حتى يأتي الفرج من عند الله.. وعندئذ لا عذر لمن يعتدي على أعراض الناس.

وكذلك الجرائم الأخرى، لكل منها دوافع، والإسلام يسعى أولا لسد الذرائع، حتى لا يكون لمرتكب الجريمة عذر في ارتكابها، فإذا ارتكبها وهو غير معذور أقيم عليه الحد، وإن كانت له شبهة فالشبهة تدرأ الحد..

نظام دقيق.. يأخذ الأمر من جميع زواياه في آن واحد؛ فلا ينكل بالجاني لمجرد التنكيل، ولا يدلله كذلك فيشجعه على الاستهتار بأرواح الناس وممتلكاتهم وأعراضهم وأمنهم ومصالحهم.

وفي المجتمع الإسلامي الذي يطبق الشريعة تقل الجرائم بصورة ملحوظة، ويسود الأمن والاستقرار والطمأنينة، وتحف البركة حياة الناس تحقيقًا لوعد الله:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ

(١) رواه أبو يعلى والبيهقي وابن ماجه، وعبد الرازق والطبراني وابن أبي شيبه.

وَالأَرْضِ﴾(١).

ولا يفوتنا أن نذكر في باب الإعجاز التشريعي ذلك الشمول الذي تتميز به الشريعة الربانية، مع خاصية التوازن التي أشرنا إليها من قبل.

من بحال من مجالات الحياة إلا للشريعة مدخل فيه.. فهو - بالضرورة - واقع في واحد من هذه الأبواب الخمسة: حرام أو حلال أو مباح أو مندوب أو مكروه.. سواء أكان مجالاً اقتصاديًا أم سياسيًا أم اجتماعيًا أم أخلاقيًا أم فكريًا، أم ما يكون من ألوان النشاط البشرى في الأرض..

وذلك من الإعجاز!

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ﴾(٢).

إن النظم البشرية - بحكم قصور البشر عن الإحاطة - تهتم ببعض الجوانب على حساب جوانب أخرى، وترتكز على مجالات وتهمل مجالات..

في الديمقراطيات الليبرالية، هناك تركيز كبير على (الحقوق السياسية).. يقابله إهمال ملحوظ في الجوانب الأخلاقية يصل إلى حد التسيب الذي يهدد تلك المجتمعات في النهاية بالانهيار.

في النظم الرأسمالية تركيز شديد على حرية رأس المال في العمل والحركة، ورفع الحواجز من طريقه Laissez Passer! دون النظر إلى العواقب المحلية والعالمية التي تنجم عن هذه الحرية، التي عبر عنها أحد كتابهم وهو يتحدث عن عواقب الربا، والمعاملات الربوية، بأن نتيجتها النهائية هي (تزايد الثروة في يد فئة يتناقص عددها باستمرار، وتزايد الفقر في أعداد من الناس يتزايد عددهم باستمرار!)(٣)، وذلك فضلا عن الحروب والصراعات العالمية التي تطحن الناس طحنا وتفسد عليهم أمنهم وطمأنينتهم.. والعولمة الحاضرة نموذج!

في النظم الدكتاتورية تركيز شديد على سيادة (السيد) الذي يحكم، وإحاطته بكل وسائل السيطرة، وكبت حريات الناس في المقابل، لأنها تحد من سلطان (السيد)، ولا حقوق للناس إلا ما يتكرم به السيد على الناس تكرما، وعليهم أن يرضوا صاغرين. وفي

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

(٣) انظر تقرير شاخت عن الربا.

الوقت ذاته تباح الملهيات، ليغرق الناس فيها وينسوا همومهم، كما كانت الشيوعية تفعل بشعوبها، وتفخر بأن أعلى الرواتب فيها هي رواتب الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات!

النظرة الشاملة التي تضع كل شيء في مكانه ليست من شأن البشر! فالبشر تحركهم أهواؤهم أكثر مما تحركهم عقولهم.. ﴿إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]. لا لأنهم من طينة أخرى غير طينة البشر، ولكن لأنهم يلتزمون بشريعة الله، فتمتنع عنهم الجنوح في جانب والإهمال في جانب.. وتتوازن حياتهم فينعمون بالأمن والطمأنينة والاستقرار.

تلك بعض جوانب الإعجاز في الشريعة الربانية. وإن تعجب بعد ذلك، فاعجب للذين ينادون بتنحية الشريعة عن الحكم، وتحكيم القوانين الوضعية بدلا منها، بحجة أن البشر أعلم بمصالحهم من ربهم الذي خلقهم، والله يقول:

﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾[2].

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[3].

من الإعجاز العلمي

ليس القرآن كتاب علوم! فلا هو كتاب في الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو علم الحياة!

ولكنه مع ذلك يحوى إشارات في كل تلك العلوم!

وموضع هذه الإشارات في كتاب الله هو تعريف الناس بقدرة ربهم التي لا تحد، وبآيات قدرته في هذا الكون، ليعرفوا أنه لا إله غيره، ولا مدبر غيره، ولا رازق غيره، ولا مهيمن غيره، وأنه هو الفعال لما يريد، فيعبدوه وحده بلا شريك، ويتبعوا ما أنزل إليهم..

وبعض هذه الإشارات كان معلومًا مشاهدًا بالنسبة للعرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، فكان ذكرها لهم، وتذكيرهم بها، مقصودا به إزالة الغشاوة التي تغشى على بصائرهم فتجعلهم لا يدركون الدلالة الواضحة التي يجب أن تستمد منها، وهي أنه ما دام الله هو الذي يقدر، وهو على كل شيء قدير، ولا أحد يقدر قدرته، ولا يدبر تدبيره، ولا

---

(١) سورة الصافات: ١٦٠.

(٢) سورة البقرة: ١٤٠.

(٣) سورة البقرة: ٢١٦.

يهيمن هيمنته، فالعبادة ينبغي أن توجه إليه وحده، دون تلك الآلهة المزعومة التي لا تخلق، ولا تقدر، ولا تدبر، ولا تهيمن..

ولكن بعض هذه الإشارات كان جديدا على أولئك المخاطبين بالقرآن أول مرة، لا يعرفون أسرارها، أو لا يعرفون تفصيلاتها.. وقال لهم الله في كتابه المنزل إنهم سيعرفونها ذات يوم:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(١).

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا..﴾(٢).

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾(٣).

فأما الذين آمنوا فقد أخذوا هذه الإشارات بالتسليم، وإن كانوا لا يعرفون كل شيء عنها، ما دامت من عند ربهم الذي آمنوا به وصدقوه:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾(٤).

﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾(٥).

ولكن أجيالاً وراء أجيال كانت تتعرف رويدًا رويدًا على بعض أسرار هذه الإشارات، فتزيدها المعرفة إيمانًا، وإن كانوا قد كانوا مؤمنين ومصدقين من قبل..

وفي عصرنا الحديث هذا الذي اتسعت فيه دائرة العلوم، وانكشفت فيه كثير من أسرار الكون، تبينت للناس حقائق كثيرة تتعلق بالإشارات القرآنية، لم تكن معلومة من قبل، فازداد الناس تعلقا بتلك الإشارات، وقامت بشأنها أبحاث متخصصة يقوم بها علماء مسلمون في شتى فروع المعرفة، وقامت دعوة تهدف إلى الإكثار من هذه الأبحاث، من أجل إقناع غير المسلمين بالإسلام، عن طريق إثبات صدق القرآن، وأنه وحي منزل من عند الله، إذ لم تكن المعلومات الواردة فيه معروفة للبشرية كلها من قبل، فيستحيل أن يكون محمد ﷺ هو مؤلف القرآن من عند نفسه كما يزعم المستشرقون وغيرهم من أعداء الإسلام. وهو اتجاه سليم في ذاته، وقد أسلم على هداه بعض الناس بالفعل، كذلك الطبيب التايلندى الذي قرأ بحثًا من هذه الأبحاث عن أطوار الجنين، يدور حول الآية الكريمة:

---

(١) سورة فصلت: ٥٣.

(٢) سورة النمل: ٩٣.

(٣) سورة ص: ٨٨.

(٤) سورة البقرة: ٢٦.

(٥) سورة آل عمران: ٧.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(١).

فذهل الرجل.. وقال إن هذا الطور من أطوار الجنين، الذي يكون فيه كالمضغة لم يكن معروفا للبشرية كلها قبل عشر سنوات فحسب، وإنما عرف بعد اختراع أجهزة تراقب تطور الجنين في داخل الرحم وهو حي، فلا يمكن أن يكون محمد ﷺ قد قال هذا الكلام من عند نفسه، ولا بدّ أن يكون وحيًا من عند الله. ثم قام فقال: أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

نعم! ولكن هناك في هذا الاتجاه محاذير.. فبعض الناس تدفعهم الحماسة فيتلقفون كل نظرية علمية يظنون فيها تأييدًا أو إثباتًا لإشارة من الإشارات الواردة في القرآن، فيسارعون إلى تبنيها، ويفسرون الآيات القرآنية على هداها.. وليس كل ما يقال في الساحة العلمية حقائق! فبعضها لا يزيد على فروض علمية، وبعضها ما زال في طور النظرية لم يصل إلى حد أن يصبح حقيقة علمية موثوقًا بها. فإذا ربطنا تفسيرنا للآيات القرآنية ببعض هذه الفروض أو النظريات، ثم تبين بعد حين من الوقت أنها لم تكن صحيحة، فإننا نقع - من حيث لا ندرى - في الغلطة التي وقعت فيها الكنيسة في العصور الوسطى، إذ تبنت أفكارا علمية كانت سائدة يومئذ، ففسرت بها ما جاء في التوراة والإنجيل؛ وكذبوا كل ما كان فيهما مما بقى على أصله المنزل، وما حرف، ومما أسيء تأويله، فجعلوها كلها أكاذيب!

والقرآن غنى بدلائل الإعجاز فيه، سواء الإعجاز البيانى الذي تحدى الله به البشر جميعًا، والبلغاء في أولهم، فعجزوا عن الإتيان بمثله، أو بألوان الإعجاز الأخرى التي تحدثنا عن بعضها في هذا الكتاب. ولا يحتاج أن نتلمس له أسانيد من النظريات العلمية المتداولة اليوم، التي قد يظهر بطلانها غدا. ولكن لا بأس أن نأخذ الحقائق العلمية التي ثبتت صحتها، والتي نجدها متوافقة مع ما جاء في القرآن، أو مفسرة له فنعتمدها، ونتخذها دليلا يضاف إلى الأدلة القائمة من قبل على أن هذا القرآن وحي رباني، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. على ألا نتعسف في ربط تفسير الآيات بكل شاردة وواردة مما يسمى علما.. كما حاول بعضهم أن يفسر قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾(٢). بما

---

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

(٢) سورة نوح: ١٤.

يتفق مع نظرية دارون في التطور. بينما أصحاب النظرية ذاتهم يتشككون اليوم في صدقها، وينحون في تفسير الحياة على الأرض منحى غير منحى دارون!!

والآن بعد هذه المقدمة التي نراها ضرورية، نأخذ في عرض بعض دلائل الإعجاز العلمي في كتاب الله!

يقول تعالى في وصف الجبال إنها أوتاد..

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾(١).

وهذه الحقيقة العلمية لم تعرف إلا منذ أمد قصير، بعد ما أمكن تصوير باطن الأرض بالوسائل الحديثة التي لم تكن معروفة قبل القرن العشرين، بل قبل النصف الأخير من هذا القرن.. إذ وجد أن الجبل ليس هو الجزء الظاهر منه فوق سطح الأرض فقط، بل إنه مغروس كالوتد في باطن الأرض، وأن الجزء المغروس منه مدبب كالوتد، ليثبت الجبل مكانه. وأنه لولا جذر الوتد الغروس في باطن الأرض - في (اللافا) السائلة - ما ثبت الجبل مكانه! وهذه الحقيقة لم تكن معروفة للعرب- ولا لغيرهم - وقت نزول القرآن، حتى يقال إن محمدا صلى الله عليه وسلم اقتبسها من علوم عصره.. إنما هي إحدى الإشارات القرآنية الكونية التي وعد الله البشر أنهم سيعلمونها في يوم من الأيام، ويعلمون أنها حق، ويتبينون أنها وحي من عند الله.

وفيما يختص بالجبال كذلك، هناك حقيقة أخرى لم تعرف إلا منذ عهد قريب، وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾(٢).

فمهمة الجبال في الأرض، التي خلق الله الجبال من أجلها هي ترسية الأرض، ومنعها أن تميد بالناس! فهي بجذور أوتادها المغروسة في اللافا السائلة في باطن الأرض هي التي تحفظ توازن الأرض، وتجعلها مستقرة يستطيع البشر أن يعيشوا فوقها، وينشطوا نشاطهم، ويبنوا ما يبنونه من منازل ومنشآت.. ولولاها لظلت الأرض تميد بالناس، وترتج بهم ذات اليمين وذات اليسار، بما تحدث منه نماذج خفيفة في الزلازل بين الحين والحين..

وبصدد تلك الرواسي أيضًا جاء في سورة الرعد:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا

---

(١) سورة النبأ: ٦، ٧.

(٢) سورة النحل: ١٥.

زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وهذه الآية وحدها تحمل حشدًا من (المعلومات) العلمية، متتابعة تتابعًا (علميًا) لم يكن يدركه الناس قبل اتساع معلوماتهم عن هذا الكون وما يجرى فيه.

فالرواسي - وهي الجبال - تحفظ توازن الأرض، وفي الوقت ذاته هي مصدات تصد الرياح المحملة ببخار الماء فيصعد إلى أعلى، فيبرد، فيتكاثف، فينزل إلى الأرض في صورة أمطار، ومن الأمطار الغزيرة تتولد الأنهار.. ومن هنا نرى أن ذكر الأنهار بعد الرواسي ليس مجرد تعديد لآيات قدرة الله في الكون، وإنما هناك ترابط (علمى) بينهما، هو ترابط السبب والنتيجة.

ومرة أخرى يأتى الترابط (العلمى) فيما بين الأنهار والثمرات. فالأنهار هي التي تسقي الزروع، فتنتج فيها الثمار. وثمة حقيقة علمية أخرى هي أن الثمرات أزواج، وسنتحدث عن هذه الحقيقة في فقرة تالية. ولكن الذي يلفت النظر (العلمى) هو ذكر غشيان الليل النهار بعد ذكر الثمرات. وهذه حقيقة علمية لم تكن معروفة إلا أخيرًا.. أن الثمرة تنمو في الليل، وأن غشيان الليل النهار أمر ضرورى لإنضاج الثمرة! وأنه إذا لم يأخذ النبات حظه من الظلام في الليل فإنه يضعف ويضوى!

اكتشف هذا الأمر في الخمسينيات من هذا القرن في حادثة طريفة! فقد أقامت إحدى شركات الإعلان لوحة قوية الإضاءة في مزرعة أرز مملوكة لأحد اليابانيين. فلاحظ الرجل أن محصول الأرز قد تضاءل، فرفع دعوى على الشركة المعلنة يطالبها بتعويض عما أصابه من الخسارة بسبب هذه الإضاءة القوية في الليل! وأخذت المحكمة الأمر مأخذ الجد، فكلفت فريقا من العلماء أن يدرس القضية دراسة علمية لتقرير ما إذا كانت الإضاءة القوية قد أثرت بالفعل في تناقص محصول الأرز! وجاءت الأبحاث مثبتة هذه العجيبة: أن النبات يستريح في الليل أو إن شئت قلت ينام في الليل ليستأنف نشاطه مع مطلع النور في الصباح، وأن تلك الإضاءة القوية قد منعت النبات من غفوته الضرورية له، فضعف نتيجة الإرهاق!

ثم تبين كذلك أن الثمرة تأخذ أكبر حظ من نموها في تلك الفترة بالذات! الفترة التي يكون النبات فيها في غفوته! وأن كل نوع من الثمار يحتاج إلى فترة معينة من الإظلام لكى ينمو نموه الطبيعى، وأن توزيع النبات على وجه الأرض يتناسب تناسبا دقيقاً

(١) سورة الرعد: ٣.

مع أطول فترة الليل في كل مكان، وأن النبات الذي تحتاج شرته - مثلا - إلى فترة إظلام تمتد اثنتي عشرة ساعة، إذا استنبت في بقعة ليلها عشر ساعات فقط فإنه يخرج ضعيفًا عن أصله في أرضه الأصلية. أما إذا كان النقص كبيرًا فإنه لا يثمر!

هذه الحقائق العجيبة كلها، التي كشفت بمناسبة تلك القضية العجيبة (التي حكمت فيها المحكمة لصالح صاحب المزرعة) تبين لنا أن هناك ترابطا (علميًا) متسلسلاً ما بين الجبال إلى الأنهار إلى الأثمار إلى غشيان الليل النهار.. وذلك من الإعجاز!

أما قضية (الأزواج) فهي قضية علمية لم تكن مكشوفة بكاملها للأجيال الأولى التي تلقت هذا القرآن، ولكن الأبحاث العلمية بينتها ووضحتها وكشفت دقائقها.

يقول تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾(١)

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

وقد كان معروفا عند الناس وقت نزول القرآن أن في النبات والحيوان والإنسان زوجين: ذكرا وأنثى، ولكن آية يس أشارت إلى ما لا يعلمون. ومعنى ذلك أن هناك أزواجا في غير النبات والحيوان والإنسان، تلك التي يعرفها الناس. كما أن آية الذاريات تشير إلى الأزواج موجودة في كل شيء على الإطلاق، وليست مقصورة على ما كان معلوما عند الناس يومئذ من وجودها في النبات والحيوان والإنسان.

وتمضي قرون.. ويتعرف العلماء على الذرة.. ويخضعونها للبحث في المعمل فيكتشفون أن في دخلها (زوجين) من الطاقة، إحداهما سالبة والأخرى موجبة، وأن فصلهما بعضهما عن بعض يحدث آثارًا مريعة مدمرة، هي التي تحدثها القنابل الذرية والقنابل النووية!

ويكتشفون عجيبة أخرى: إن التفاعلات الكيميائية هي عملية (تزاوج) بين المواد المختلفة. ففي كل ذرة لأى عنصر من العناصر نواة موجبة تدور حولها مجموعة من الكهارب السالبة (تسمى الالكترونات)، عددها محدد في كل عنصر، وتكون على هيئة دوائر متكاملة حول النواة، ولكن الحلقة الأخيرة من هذه الدوائر تكون ناقصة، هكذا هي

---

(١) سورة يس: ٣٦.

(٢) سورة الذاريات: ٤٩.

في خلقها الرباني، وأن العنصر الذي تكمل حلقته الناقصة حلقة عنصر آخر يمكن أن يتم بينه وبين العنصر الآخر تفاعل كيمياوي (أي تزاوج) وأن العنصر الذي اكتملت الحلقة الأخيرة لحسابه هو قاعدة التفاعل!

وللتمثيل نفترض أن عنصرا من العناصر تتكون كل حلقة من كهاربه السالبة (الإلكترونات) من ثمانية إلكترونات، وأن الحلقة الأخيرة مكونة من ستة إلكترونات فقط. فأيما عنصر تنتهي حلقته الأخيرة بإلكترونين اثنين يكون قابلاً للتفاعل مع ذاك العنصر، وتتم في التفاعل عملية تزاوج يكمل فيها أحد العنصرين الآخر!

وهذه المعلومات كلها، التي لم تكن معلومة لأحد من البشر وقت نزول القرآن، هي التي تفسر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾. كما أنها تحقق ما أخبر الله به عباده أنه سيكشف لهم عن أسرار في المستقبل، لم يكونوا يعرفونها وقت نزول القرآن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[1]. ومن يدري: ماذا يكشف الله غدا للناس من الآيات، في الأنفس وفي الآفاق؟!

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

وأمر النحل معلوم من قديم..

ولكـــن الجديد الذي أثبتته الأبحاث أن الترتيب في الآية ما بين الجبال والشجر ما يعرشون هو ترتيب (نوعي)! وليس بمجرد تذكر للأماكن التي يرتادها النحل ويحصل منها على غذائه بإذن ربها! فعسل الجبال هو أغناها وأعلاها، وأكثرها فاعلية في شفاء كثير من الأمراض، ثم يأتي بعده في النوعية المستمدة من الشجر العالية، وأخيرًا تأتي نوعية العسل المستمد من النباتات القصيرة القريبة من الأرض.

وسبحان الخلاق العظيم.. وسبحان من علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم!

يقول تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3].

---

(١) سورة فصلت: ٥٣.

(٢) سورة النحل: ٦٨-٦٩.

(٣) سورة الرحمن: ١٩-٢١.

وهذه من العجائب التي لم تكن معروفة للناس وقت نزول القرآن. إنما عرفت حديثا حين سعى الإنسان إلى التعرف على ظواهر الطبيعة بوسائل علمية دقيقة.

إن الماء العذب الذي تصبه الأنهار في البحار والمحيطات يظل محافظًا على عذوبته غير ممتزج بملوحة البحر مسافة طويلة داخل البحر، كأنهما معزولان أحدهما عن الآخر بذلك (البرزخ) الذي يمنع عدوان أحدهما على الآخر!

بل الأعجب من ذلك، أن مياه البحر الأحمر لا تمتزج بمياه المحيط الهندى عند باب المندب- ذلك البرزخ الذي يفصل بين البحر والمحيط - مع أن كليهما ماء ملح. ولكن نسبة الملوحة مختلفة بين هذا الماء وذاك، فيظل أحدهما طافيا فوق الآخر لا يمتزج به!

بل العجب العجاب هو اكتشاف بحيرات عذبة في باطن المحيطات، تظل عذبة وهي محاطة بالملوحة من كل جانب، فسبحان الخلاق العظيم.. وسبحان الفتاح العليم!

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[(١)].

والسحب الركامية لا تظهر على حقيقتها للناظر إليها من أسفل، أي من فوق سطح الأرض، فإنما يبدو منها قاعدتها السفلية فقط، وهذه تكون ممتدة في السماء بدرجة واحدة. أما حين تصعد إلى أعلى، في الطائرة مثلا، فإنك ترى تراكم هذه السحب بعضها فوق بعض، فتراها على صورتها الحقيقية، وترى أنها طبقات، وليست طبقة واحدة كما تبدو للناظر من فوق سطح الأرض، وأنها ليست على ارتفاع واحد، وإنما يختلف ارتفاع طبقاتها بمقدار ما تراكم في كل طبقة من بخار الماء، وأن بعضها يبدو كجبال معلقة في الفضاء، جبال ذات قمم مختلفة الارتفاع!

هذا كله لم يكن معروفا قبل اختراع الطائرات، والصعود بها فوق مستوى السحب. وكان من المستحيل على بشر أن يتصور التراكم الذي تشير إليه الآية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾، فكان هذا الوصف الدقيق لونا من الإعجاز العلمي، وكان اكتشاف البشر له بعد قرون من تنزل القرآن تحقيقا للوعد الرباني: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا..﴾ فهو إعجاز مزدوج؛ إذ هو وصف لأمر لم يكن البشر يعرفون صفته في ذلك الحين، وإخبار في الوقت ذاته بأنهم سيعرفونه في مستقبل أيامهم.

---

(١) سورة النور: ٤٣.

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

وضيق النفس مع الصعود في السماء تجربة لم يجربها البشر قط إلا بعد اختراع الطائرات! فقد عرفوا حينئذ أن الأوكسجين يقل في طبقات الجو العليا عن معدله على سطح الأرض، وأن الضغط الجوى يخف كلما اتجهنا صعدا، فتضيق الأنفاس، وتحس الصدور بالحرج.

ولكن أنى للبشر وقت نزول القرآن أن يعرفوا هذا الأمر وهم لم يكونوا قد صعدوا إلى السماء، ولا جربوا كيف تكون الصدور عند التصعيد!

إنه كذلك إعجاز مزدوج: إعلام بأمر كان الناس يجهلونه يومئذ، وإيحاء بأنهم سيعرفونه ذات يوم!

يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[(٢)].

وقبل سنوات قليلة لم يكن الناس يعرفون شيئًا عما يجرى في الآماد البعيدة من السماء. فقد كانت أدوات الرصد عندهم محدودة المدى، تدرك وجود الكواكب، وتدرك وجود المجرات في السماء، وتقدر أنها تبلغ الملايين عددًا، ولكنها لا تدرك أن هناك اتساعا دائما في الفضاء، وأن المسافات تتباعد بين بضع الأجرام السماوية وبعض! ولم يدركوا ذلك حتى اخترعوا مناظير من أنواع أخرى تخترق الأغوار البعيدة في الفضاء، ومركبات فضاء تسجل حركة الأفلاك على أبعاد هائلة من الأرض..

وكلما اتسعت معارف الإنسان ومخترعاته وجد جديدًا في كتاب الله لم يكن يفطن إليه، أو لم يكن يدرك أسراره. وصدق رسول الله ﷺ: «لا تنفد عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد»[(٣)].

يلفت النظر ولا شك أن أيًا من الكتب المنزلة السابقة لم يحو شيئا من هذه الإشارات الكونية الواردة في القرآن. والله أعلم بما ينزل.

فقد شاء الله أن يتميز الكتاب الذي يحمل كلمة السماء الأخيرة للبشرية كافة بخصائص لا توجد في غيره.

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٢) سورة الذاريات: ٤٧.

(٣) سبقت الإشارة إليه.

كانت الرسالات السابقة محدودة بأقوام معينين، ومحدودة بزمن معين ينتهي بإرسال رسول جديد، بينما هذه الرسالة للبشر كافة، وللزمن كله من مبعث رسول الله ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فكانت الكتب المنزلة السابقة تحوى احتياجات الأقوام الذين تنزل عليهم في الزمن المحدد في علم الله. أما القرآن، فقد أنزل الله فيه ما تحتاج إليه البشرية كلها، وفي الزمن القادم كله. فلا عجب أن يختلف عن الكتب السابقة في مبناه وفي محتوياته، وإن كان مصدقًا لما فيها، ولكن مهيمنًا عليها:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ..﴾(١).

والإعجاز العلمي كان واحدا من جوانب التميز التي تفرد بها هذا الكتاب.. وانكشاف الحقائق العلمية التي يحتويها الكتاب للبشر جيلا بعد جيل هو جانب من جوانب استمرارية الرسالة التي نزل بها الكتاب! فهو ليس لجيل واحد تنتهي مهمته بعدها، أو تنقطع صلة الأجيال به، بل هو لكل الناس في كل جيل، يهديهم إلى ربهم، ويوجههم إلى الخير وإلى الحق، ويربيهم على المنهج القويم، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون!

المستشرقون والقرآن:

أشرنا في المقدمة إلى تلك المحاولة الساذجة التي قام بها أحد الشباب المتأمركين ليقلد أسلوب القرآن ثم يقول: ها أنذا قد أتيت بمثله.. فهو إذن صناعة بشرية وليس منزلا من عند الله!

وفي ختام البحث نشير إلى المستشرقين.

إذا كان ذلك الشاب قد قام بمحاولة ساذجة فجة ليشفي غليله من الإسلام والقرآن، فالمستشرقون يقومون بجهد منظم دؤوب، ينفق بعضهم فيه عمره، وتنفق عليهم دولهم الملايين، للتشكيك في المصدر الرباني للقرآن، ومهاجمته بكل وسيلة لعلهم يصلون إلى شيء يشفي الغليل!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(٢).

﴿... وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾(٣).

قضية قديمة تتكرر، ومواقف معلومة دوافعه!

(١) سورة المائدة: ٤٨.

(٢) سورة فصلت: ٢٦.

(٣) سورة الأحقاف: ١١.

إن هذا الكتاب الذي عرضنا بعض جوانب الإعجاز فيه، لا على سبيل الحصر ولكن علـــى سبيل التمثيل.. الكتاب الذي يأخذ النفس البشرية من جميع جوانبها، وينفذ إليها من جمـــيع أقطارهـــا، ويتناول جميع مجالات حياتها، ويمنحها منهجا متكاملا، يشمل عقيدتها وسلوكها، وسياستها واجتماعها واقتصادها، ودنياها وآخرتها.. في أسلوب معجز متفرد..

هذا الكتاب موضع غيظ شديد في قلوب الذين لا يؤمنون به:

﴿.. قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾(١).

وأغيظ ما يغيظ أعداء الإسلام أن المسلمين يؤمنون إيمانًا لا يتزعزع بأن كتابهم هو الكتاب الحق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن الله حفظه بحفظه فلم يتبدل منه حرف منذ نزل من عند الله.

يغيظهم ذلك فيسعون جاهدين إلى نفي الوحي، ونفي المصدر الرباني للقرآن، ونسبته إلى الرسول ﷺ، وهو إفك قديم قالته الجاهلية العربية من قبل، وما تزال كل جاهلية تردده!

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ..﴾(٢).

ليس فقط بأسلوبه المعجز، ولكن كذلك بمحتوياته، وبكون هذه المحتويات - بكل شمولها وتكاملها - معروضة بهذا الأسلوب المعجز.. أي أنه إعجاز فوق إعجاز.

لو أن الإعجاز كان في الأسلوب وحده، الذي عجز الناس خلال القرون عن أن يأتوا بمثله، لكان هذا كافيًا لإثبات مصدره الرباني، ودليلا قاطعا على صدق رسول الله ﷺ في دعواه أنه رسول مرسل من عند الله، وأنه لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾(٣).

فكيف إذا كان الإعجاز موضوعيا إلى جانب الإعجاز البياني؟

هل تأتى لبشر في التاريخ كله أن يؤلف كتابا يحوى من الحقائق ما جاء به القرآن الكريم؟

خذ حقيقة الألوهية وحدها، وما جرى فيها على أيدى البشر من تخبطات مقارنة

---

(١) سورة فصلت: ٤٤.

(٢) سورة يونس: ٣٧.

(٣) سورة النجم: ٤.

بصفاء الوحي وشفافيته، ووضوحه وتألقه، وعمقه ونصاعته.

وخذ إلى جانبها عشرات الحقائق الواردة في كتاب الله: حقيقة خلق الإنسان. حقيقة الدنيا والآخرة. حقيقة البعث والنشور والحساب والجزاء.. حقيقة القيم التي ينبغي أن تحكم حياة الإنسان في الأرض. حقيقة الكون المادى وما يجرى فيه حقيقة المهمة التي خلق الإنسان من أجلها. حقيقة الإيمان. حقيقة المعركة القائمة بين الإيمان والكفر. حقيقة السنن الربانية التي تحكم حياة البشر..

أى كتاب من صنع البشر جمع هذا الحشد من الحقائق بالتناسق الذي عرضت به في هذا الكتاب، وبقوة التأثير الذي يبعثه في النفوس هذا الكتاب؟

وأى بشر تبلغ اهتماماته هذا الشمول الذي لا يغادر شيئًا من أساسيات الحياة إلا ويتعرض له، ويتعرض له في عمق وتمكن مثل ما جاء في هذا الكتاب؟

ولكن المستشرقين لهم في ذلك تخرصات!

يقولون: لقد جاء محمد ﷺ بما جاء به نقلا من كتب أهل الكتاب، أو سطوا عليها، أو تلقيا من أصحابها!

وما أحسب أن فرية يمكن أن تبلغ من الكذب المفضوح أشد من هذه الفرية!

كيف يتأتى للذى ينقل من كتاب يقول إن الله ثالث ثلاثة أن يقرر أن الله واحدا؟ وكيف يتأتى للذى ينقلب من كتاب يقرر أن لله ولدا يشاركه في الألوهية، أن يقرر أن الله لا شريك له ولا ولد؟!

وكيف يتأتى للذى ينقل من كتب لم تترك نبيا من أنبياء الله إلا لطخت سمعته وشوهت صورته، ولتهمته بما لا يجوز في حق الرجل العادى فضلا عن النبى المرسل، أن يسرد سير الأنبياء وقصصهم بالنصاعة والطهر والسمو الذي وردت به سير الأنبياء في القرآن؟!

وكيف يتأتى للذى ينقل من كتب لم تتعرض لآيات الله في الكون، ولا لأطوار الجنين البشرى من النطفة للعلقة للمضغة للعظام لاكتمال التكوين، أن يسرد في كل هذه الأمور حقائق لم يتعرف العلم عليها إلا منذ زمن قريب؟!

ألا تستحى هذه الناس؟!

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: ٢١.

ولكن المعركة لن تكفي:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[(١)].

فعلى المسلمين من جانبهم أن يعرفوا حقيقة دينهم، وحقيقة الكتاب المنزل إليهم، وأن يقدروه حق قدره، وأن يتدبروه ليعرفوا عظمته وإعجازه:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[(٢)].

وأهم من ذلك كله أن يعملوا بما فيه، فإنما نزل ليكون منهج حياة لخير أمة أخرجت للناس.

ويوم يرجعون إلى كتابهم فيتدبرونه ليعملوا بمقتضاه، ستعود لهم خيريتهم، وسيعود لهم التمكين الذي كان لهم في الأرض، وسيقومون بالشهادة على كل البشرية كما أمرهم الله:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(٣)].

---

(١) سورة البقرة: ٢١٧.

(٢) سورة النساء: ٨٢.

(٣) سورة البقرة: ١٤٣.

الخاتمة والنتائج

الحمد لله رب العالمين فاتحة كل خير، وتمام كل نعمة، أحمده سبحانه وتعالى على هديــه وتيسيره وتوفيقه، حمدًا طاهرًا طيبًا مباركًا فيه، واستغفر وأتوب إليه من كل هامة ولامــة، وأصلي وأسلم على من بعثه رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه الأخيار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... وبعد.

لقد عشت رحلة ممتعة مع موضوع هذا البحث وحاولت فيه جاهدة أن ألم شتات الأقوال المفرقة فيه، وأن أذكر ما كتبه أجلة العلماء في اكتشاف معانيها وتفسيرها قاصدة، بــذلك توجيه القارئ إلى أهم الأقوال التي قيلت في الأحرف المقطعة، وترجيح أنه أتى بجديد، في حين أن ما استند إليه هو أوهن من بيت العنكبوت لو علم أو عقل حقيقة ما يذكر.

وإني لمديــنة للعلماء الأقدمين والمحدثين الذي آثروا المكتبة الإسلامية بخير زاد في العلم والمعرفة، والله -تعالى- إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه.

وقد توصلت من خلال هذه الدراسة إلى عدة نتائج متنوعة حسبما اقتضته ظروف البحث:

أولا: أن علم التفسير من أهم العلوم وأشرفها وأسماها لارتباطه الوثيق بكتاب الله العزيز؛ إذ أنه مفتاح أساسي لمن يحاول فهم آيات الله -تعالى- ومعرفة دقائقها ومعانيها، كما أنه يساعد على التعبد بالقرآن الكريم على الوجه الصحيح الأكمل.

مــن هنا... فإن الكلام حول القرآن الكريم من أي وجه كان لا يصح الخوض فيه إلا لمن تأدب بآداب الدين، وألم بعلوم المفسرين، وانتهج منهاج العلماء العاملين.

ثانيًا: إن تكرار الأحرف المقطعة في أوائل تسع وعشرين سورة، لم يكن عبثًا ولم يكــن أبــدًا مظــنة للضعف في الأسلوب، إذ أن القرآن الكريم قد برئ من هذا العيب، فتكراره ليس لذات التكرار من غير فائدة يحملها أو لطيفة ونكتة يسوقها؛ وإنما لحكمة لا يعــرفها إلا من دقق النظر وأطال الفكر، وأفاض الله -عز وجل- عليه من أنوار حكمه وأسرار كتابه.

ثالــثًا: إن المعــول عليه في قراءة القرآن الكريم، هو التلقي الشفاهي لهذا الكتاب العزيز، عن الشيوخ الحافظين له، المجيدين لنطق ألفاظه، وذلك كما توارثته هذه الأمة خلفا عن سلف، وتناقلته جيلا بعد جيل بسند متصل عن رسول الله ﷺ، وعلى اعتباره أصدق

مدونـــة دونـــت في عهد النبي ﷺ بل وأوحد مدونة من عهد النبي ﷺ احتفظت بصورتها الأصلية دون تحوير وتعديل، كما إن إجادة قراءته تظهر روعة أسلوبه وحلاوة نظمه الذي وقع به الإعجاز؛ إذ إن النظم يقع في القراءة، وهو يصحب القرآن دائما، صحبة الشذى للزهر، والطيب للعطر، والضوء الشمس!.

رابعًـــا: اختص الله سبحانه وتعالى قرآنه المجيد بخصائص ومزايا لم يختص بها كتابًا مـــن الكتب السماوية السابقة قبله، ومن أبرز تلك الخصائص والسمات أن الله -تعالى- تحـــدى بـــه الإنس والجن على أن يأتوا بمثله فعجزوا عن معارضته، أو الإتيان بمثله قال تعـــالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(١).

خامـــسًا: إن هذه الفواتح الهجائية آية من آيات الله -تعالى- التي لا تنفد، ودليل علـــى عظمة القدرة الإلهية التي أودعها الحق تبارك وتعالى في كتابه العظيم؛ فظهرت فيه بوصفها آية جديدة من آيات الإعجاز القرآن.

يقول الزملكاني -رحمه الله- عن الحروف المقطعة:

إذا نظرتها ببادئ الرأي وجدتها مما يكاد يمجه السمع، ويقل به النفع، مع أنها من الحسن ترفل في أثوبا الحبر، ويقصر عنها دقيق النظر، وذلك من وجوه... ومن وقف على ذلـــك علم أن هذا القرآن ليس من كلام البشر، وجزم بأنه كلام خالق القوى والقدر... وكـــذلك لسائر الحروف الفواتح شأن ليس لغيرها، ووراء ذلك من الأسرار الإلهية ما لا تستقل بفهمه البشرية» أ.هـــ.

سادسًا: أهمية وضرورة الفهم الصحيح للقرآن عامة، ولفواتح السور خاصة؛ لأنها من المتشابه الذي يحتاج إلى تحرير وفهم دقيق، ولذلك اختلف فيها العلماء من قديم، بين كونها من المكنون الذي استأثر الله بعلمه، وبين أنها كلمات مفهومة المعاني سواء أكانت معاني لصفات الله أو متعلقة بإعجاز القرآن.

ســـابعًا: إن هذه الفواتح هي كلام عربي مبين، وليس ألغازًا، ولا طلاسم، ولذلك رددت فيها ما وقع من الخطأ قديمًا وحديثًا (٢).

---

(١) سورة الإسراء آية: ٨٨.

(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لعبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني المتوفى سنة ٦٥١ هـــ ٢ ٥٧: ٦٠ باختصار -مطبعة العاني- بغداد الطبعة الأولى ١٣٩٤هـــ -١٩٧٤م.

ثامنًا: كان من أشنع الأخطاء التي وقع فيها بعض الباحثين في معاني هذه الحروف، هـــو ما خرج علينا به صاحب كتاب «الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم »؛ لأنه جزم بأن هذه ألفاظ غير عربية، وأنها بالتحديد لا تفسر إلا باللغة الهيروغليفية التي بادت من التاريخ قبل بعثة النبي ﷺ بمئات السنين، وبالتالي وقع الكاتب في أخطاء فادحة؛ لأنه رمى القرآن بالعجمة مع أنه عربي مبين كما جاء في نصوص القرآن نفسه، وأيضا وقع الكاتب في خطأ تفسير القرآن الكريم بلغة غير معلومة، لا للنبي ولا لأصحابه، ولذلك أطلت في ردت هذه الشبهات الباطلة.

تاسعًا: رجحت في معاني هذه الفواتح أنها إشارة إلى التحدي والإعجاز مع حرصي على ذكر الأدلة على هذا القول، وحرصي على الالتزام بالنصوص.

عاشرًا: وقد نبهت إلى أن هذه الأحرف المقطعة لم يثبت شيء منها عن الرسولﷺ وأن هذا الأسلوب في الفواتح لم يكن معروفا عند العرب وقت نزوله القرآن، وأن أقوال العلماء فيها لا تستند إلى دليل من الكتاب ولا من السنة، وليس لها شاهد صحيح في لغة العرب، وأنه لا يصح أبدًا أن يجزم أحد بمعناها، وأن القول أنها إشارة إلى التحدي والإعجاز لا يعد تفسيرًا لها ولا بيانا لمعناها، وإنما هو إشارة إلى الحكمة والهدف الأسمى منها.

وأخيرًا:

فإن الكشف عن أسرار هذه الفواتح الهجائية يكتنفه كثير من الغموض لا يتأتى إلا بالاجتهاد، والاجتهاد بقدر الطاقة البشرية محدود، ولا يحيط بأسرار القرآن إلا قائله، فلا ندعي الوصول إلى كبد الحقيقة، وإنما نكل العلم فيها إلى حقيقة مردها إلى الله تعالى، والله تعالى أعلى وأعلم ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وبعد:

فإني قد أنهيت هذا البحث بفضل من الله تعالى ومنه، وما كنت لأضن بشيء ينفعني فأخدم به كتاب ربي، وما ذكرته في اعتقادي صواب يحتمل الخطأ فلا عصمة إلا من عصمه الله والخير أردت.

هذا هو جهدي وهو جهد المقل أقدمه عملا خالصا لوجه الله العليم القدير، وأسأله -جل ثناؤه وتقدست أسماؤه- أن يلقى هذا البحث القبول، وأن يستر ما به من

---

(١) سورة يوسف آية: ٧٦.

عيوب.

وإني أسأله -سبحانه وتعالى- أن يجازي عني كل من أعانني على إخراج هذا البحث في صورته الراهنة، أو دلني على علم.

وإن وفقت فبفضل الله ومنه وكرمه، وإن كان فيه من أخطاء وعيوب فبسبب تقصيري أو خطئي، أسأل الله أن يرزقني علمًا نافعًا وقلبًا خاشعًا وعملاً متقبلا إنه نعم المجيب.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمدا وعلى آله وصحبه وسلم

(١) سورة هود آية: ٨٨.

أهم مراجع البحث

١- الإتقان في علوم القرآن لأبي الفضل جلال الدين السيوطي. تقديم وتحقيق د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى.

٢- الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان، تعريب ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق عبد الصبور شاهين. ط٢ دار البحوث العلمية ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

٣- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز. العز بن عبد السلام. الناشر المكتبة العلمية لصاحبها محمد سلطان النمنكاني بالمدينة المنورة.

٤- أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية دكتور موريس بوكاي ترجمة فوزي شعبان. دار الكتب العلمية ط١.

٥- إظهار الحق لرحمت الله الهندي ط دار التراث العربي ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦- الإعجاز البياني للقرآن دكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) الطبعة الثانية دار المعارف بمصر، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٧- الإعجاز العددي للقرآن الكريم د عبد الرازق نوفل. دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٨- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم محمد سامي محمد علي دار المحبة دمشق.

٩- إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ابن القاسم البقلاني، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٠- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـــ مكتبة دار التراث - القاهرة.

١١- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن كمال الدين عبد الواحد عبد الكريم الزملكاني ت سنة ٦٥١هـ ط مطبعة العاني ببغداد الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ، ١٩٨٤م، تحقيق د: خديجة الحديثي، دكتور أحمد مطلوب.

١٢- تاريخ آداب العرب جـ٢، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان. الطبعة الرابعة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

١٣- تناقض علم الفلك مع القرآن الكريم - وتوافق نظرية الكون الأرضي معه - مصطفى أحمد عبد القادر، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع - ١ شارع منشاة

محرم بك - اسكندرية.
١٤- ثلاث رسائل في الإعجاز للرماني والخطابي والجرجاني، حققها وعلق عليها محمد خلف الله أحمد، ودكتور محمد زغلول سلام - دار المعارف الطبعة الرابعة.
١٥- الجامع لأحكام القرآن الكريم - لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصار القرطبي - دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٦- دلائل الإعجاز في علم المعاني للإمام عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
١٧- رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، دار إحياء العلوم - بيروت ط١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
١٨- سر الفصاحة لعبد الله محمد بن سعيد بن سلمان - أبو أحمد الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
١٩- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض طبعة محمد علي صبيح بمصر.
٢٠- الصيام معجزة علمية، دكتور عبد الجواد الصاوي، الناشر دار القبلة للثقافة الإسلامية المملكة العربية السعودية ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
٢١- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي. طبعة دار النفائس.
٢٢- الفصل في الملل والنحل لابن حزم ط دار الفكر.
٢٣- فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي. مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية.
٢٤- الفوز الكبير في أصول التفسير لولي الله الدهلوي نقله عن الفارسية سليمان الحسيني الندوي - دار الصحوة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
٢٥- الفوائد المشوق إلى علم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية - مكتبة المتنبي.
٢٦- القاموس المحيط للفيروز آبادي طبعة مصطفى البابي الحلبي.
٢٧- قصة الخلق من العرش إلى الفرش عيد ورداني، الناشر الشركة العصرية للنشر - المركز الدولي للنشر. الطبعة الثانية ١/٢/٢٠٠٠م.
٢٨- قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية. د / عبد العزيز عبدالمعطي عرفة. طبعة دار الكتب ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٢٩- كتاب التسهيل في علوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٣٠- كتاب المحصل وهو محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين لأبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي (٥٤٤هـ - ٦٠٦هـ، ١١٤٨م - ١٢٠٩م) تقديم وتحقيق د/حسين أتاي، مكتبة التراث ٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة - الطبعة الأولى.
٣١- كتاب المنهاج في شعب الإيمان للشيخ الإمام الحافظ أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي ت ٤٠٣هـ - ١٠١٢م تحقيق حلمي محمد فوده. دار الفكر الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٣٢- الكعبة مركز العالم د/ سعد محمد محمد الشيخ المرصفي. مكتبة المنار الإسلامية. الكويت، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
٣٣- الكعبة المشرفة سرة الأرض ووسط الدنيا د/ أحمد السيد دراج، دار العلم والثقافة - القاهرة.
٣٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي. ت ٥٤٦هـ تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد - دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م. توزيع دار الباز بمكة المكرمة.
٣٥- معترك الأقران في إعجاز القرآن لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي. ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
٣٦- المعتزلة - لزهدي حسن جاد الله - منشورات النادي العربي في يافا، طبعة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م. مطبعة مصر - شركة مساهمة مصرية.
٣٧- المعجزة الكبرى - القرآن - للإمام محمد أبي زهرة ط دار الفكر العربي ١٩٧٧م القاهرة.
٣٨- معرفة شأن القرآن. إعداد محمد أبي البشر رفيع الدين الطبعة الأولى ١٤١٨هـ مطبعة التوحيد.
٣٩- معجزة القرآن محمد متولي الشعراوي كتاب اليوم ١٩٧٧م- أخبار اليوم المصرية.
٤٠- المعجزة (النظرية الأولى) القدر (النظرية الثانية) جزآن مهندس عدنان الرفاعي - عنوان المؤلف: سوريا - درعة - تلشهاب. وهو الناشر.

٤١- معجزة القرآن دكتور رشاد محمد خليفة. كان خبيراً فنياً بمنظمة التنمية الصناعية - هيئة الأمم المتحدة - إمام مسجد مدينة توسان، دار العلم للملايين - لبنان.

٤٢- مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ت ٦٢٦ هـ. ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور - دار الكتب العلمية. الطبعة الثانية.

٤٣- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ت ٣٣٠هـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية. صيدا، بيروت.

٤٤- من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل د/ محمد سعيد رمضان البوطي - مكتبة الفارابي دمشق. سوريا.

٤٥- منهاج البلغاء وسراج الأدباء - لأبي الحسن حازم القرطاجني. دار الغرب الإسلامي ط٣ بيروت ١٩٨٦م.

٤٦- موسوعة الملل والنحل للشهرستاني الطبعة الأولى ١٩٨١م مؤسسة ناصر للثقافة.

٤٧- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن. دكتور محمد عبد الله دراز دار القلم - الكويت، الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

فهرس الموضوعات